أنطون تشيخوف

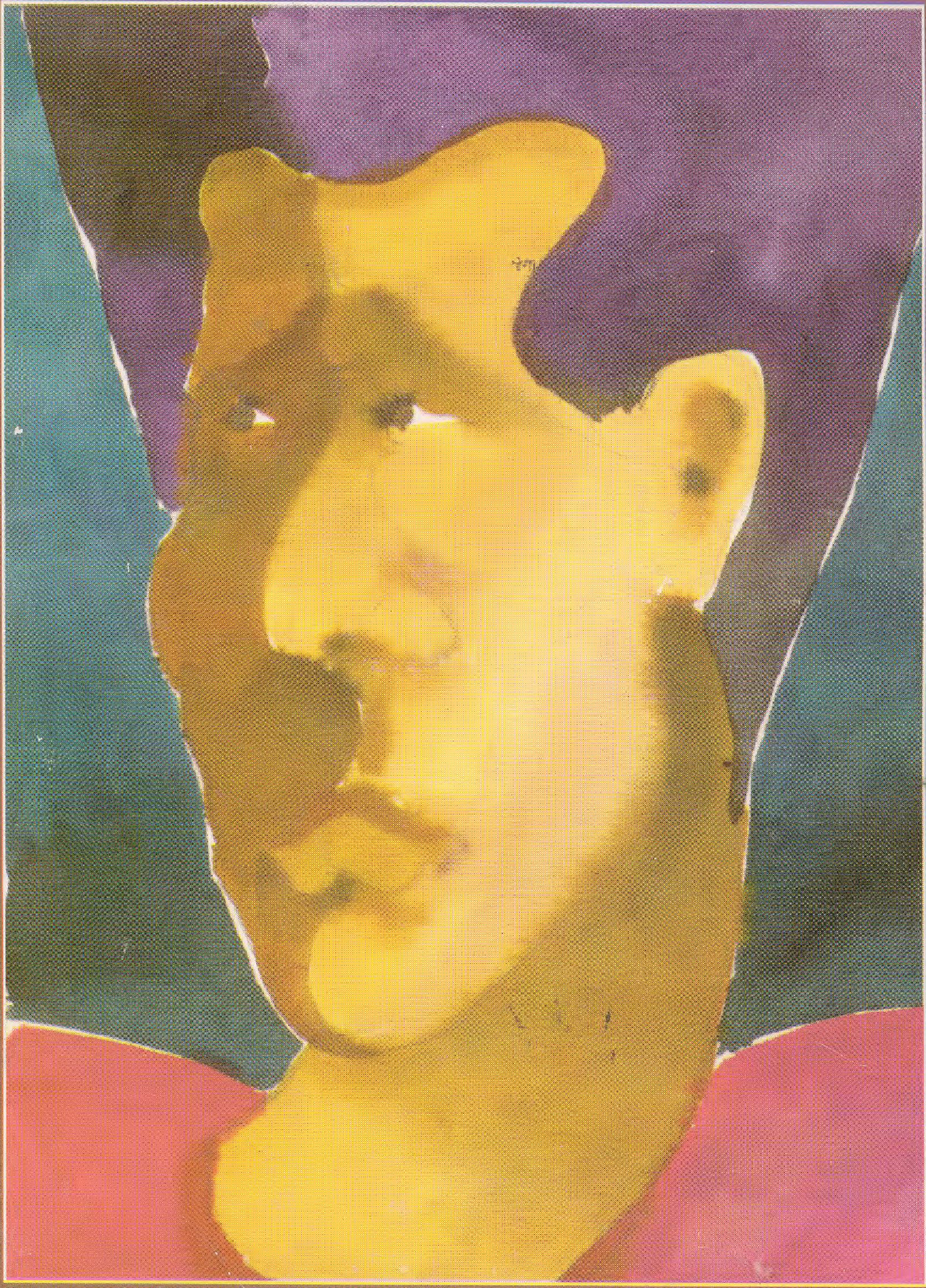

يوسف شاكر

17

تأليف : هنرى ترويا

ترجمة : حصة منيف

المشروع القومى للترجمة

أنطون تشيخوف

تـأليف

هنرى ترويا

تقديم

مكسيم جوركى

ترجمة

حصة إبراهيم منيف

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٠

هذه الترجمة لكتاب :

Chekhou
By : henri Troyat
Published by Bengun group
27 wright lane, london / w 8 5 T2, England
Hamish Hanilton LTO
Copyright by Flanwarion, 1984.

مقدمة

مع اقتراب الذكرى المئوية لوفاة ملك القصة القصيرة والكاتب المسرحى الروسى أنطون تشيخوف والتى تحل فى عام ٢٠٠٤ ، ومع الواقع المحزن الذى تعيشه روسيا فى هذه الآونة ، والذى يعيد لأذهاننا بكل قوة وعنف أجواء قصص ومسرحيات هذا الكاتب العظيم ، لابد لنا من وقفة مراجعة لحياة هذا الفنان وأعماله . كانت حياته قصيرة لم تتجاوز أربعة وأربعين عاماً (١٨٦٠ - ١٩٠٤) . ولكنه رسم لنا بقلمه وكأنه فنان يمسك بريشته، خطوط بانوراما لروسيا فى فترة حالكة كانت تغمرها فيها حالة من الشعور بالمرارة والخيبة ، وتتنامى فيها بوادر ثورة عارمة كان من شأنها أن تهز العالم من أقصاه إلى أقصاه . فخلال الفترة التى أنتج فيها تشيخوف الجزء الأكبر من إنتاجه القصصى والمسرحى ، أى بين عامى ١٨٨٠ - ١٩٠٠ ، كانت تجتاح بلاده حالة من المرارة نجمت عن إخفاق إصلاحات القيصر ألكسندر الثانى فى إحداث تغييرات بعيدة الأثر فى حياة السواد الأعظم من الروس ، كما كانت تشهد فى نفس الوقت ولادة طبقة البروليتاريا ، حيث كان الفلاحون المعوزون يساقون من أراضيهم إلى المعامل المفتوحة حديثاً .

كانت تلك فترة حروب وثورات وهزات عنيفة تخص الشعب الروسى . وبما أن الروس أكثر استعداداً للتعبير عما فى دواخلهم بالمقارنة مع الشعوب الأخرى فى أوروبا ، فقد أنجبت تلك الفترة معظم تلك الأسماء العظيمة الخالدة فى الأدب الروسى من تولستوى إلى ديستويفسكى إلى تشيخوف ، وغيرهم الكثير .

وشأن قصصه ومسرحياته التى تبدو لدى قراءتها الأولى وكأنها خالية من السمات الدرامية ، فإن قصة حياة تشيخوف تبدو للوهلة الأولى وكأنها قصة حياة عادية . فالخلفية التى برزت فيها شخصية هذا الكاتب لتظهر على مسرح الحياة هى خلفية كئيبة ، إذ ولد فى عائلة صاحب حانوت صغير فى بلدة ريفية لم يجد ما يقوله فيها بعد سنوات ، إلا أنها : "قذرة ومملة ، شوارعها مهجورة ، وسكانها جهلة كسالى" . اسم هذه البلدة هو تاجانروج ، وهى تقع على بحر قزوين قرب حدود شمال القوقاز .

كانت العائلة تجد صعوبة شديدة فى تدبير أمور حياة أطفالها الستة ، خصوصاً وأن الأب كان منشغلاً عن عمله بالأمور الفنية ، فقد علّم نفسه بنفسه العزف على الكمان ، كما أصبح رساماً كفؤاً يرسم الأيقونات الدينية. غير أن هذه الميول الفنية للأب كانت بلوى بالنسبة لأبنائه ، لا لأنه أهمل عمله بسببها فحسب ، بل لأنها دفعته لتعريض أولاده لقسوة بدنية لا داعى لها فى الغالب . فحبه للموسيقى الدينية دفعه لتدريب أبنائه على الغناء فى جوقة الكنيسة قبل أن يبلغوا سن دخول المدرسة ، بحيث كان عليهم أن يستيقظوا قبل طلوع الفجر ليشقوا طريقهم إلى الكنيسة مهما كانت حالة الطقس . ولقد كتب تشيخوف بعد ما يزيد على ربع قرن من ذلك التاريخ : "كنا نحن الأطفال نشعر وكأننا محكومون نؤدى عقوبة طويلة الأجل من الأشغال الشاقة" .

كانت تربيتهم قاسية ، وقد كتب تشيخوف فى وقت لاحق من حياته قائلاً بمرارة : " لم أستطع أن أسامح أبى فى أى يوم من الأيام ؛ لأنه كان يضربنى بالعصا حين كنت صغيراً" . كما يقول عن معاملة أبيه لأمه فى رسالة لأخيه بعد أن شارف على الثلاثين من عمره : "أود أن أذكّرك بأن

الاستبداد والأكاذيب دمرت شباب أمك ، كما دمرت طفولتنا ؛ بحيث إننى أحس بالرعب والغثيان حين أفكر بها حتى فى الوقت الحاضر . . . الاستبداد سلوك إجرامى إلى أبعد حد" .

من هذه الانطباعات المبكرة ربما نبع ذلك المقت الشديد للحياة الرتيبة للطبقة البرجوازية الرثة التى يعالجها تشيخوف فى الكثير من قصصه ، وتعبّر عنها شخصيات مسرحياته فى الكثير من الأحيان . وهو يقول على لسان أحد أبطاله فى مسرحيته "الشقيقات الثلاث" : "الناس هنا لا يفعلون شيئاً سوى الأكل والشرب والنوم - ولإدخال بعض التنوع على حياتهم ، وليتجنبوا الملل ، فإنهم ينغمسون فى النميمة التى تدعو للاشمئزاز، وفى شرب الفودكا ، والمقامرة . . . كل هذه الفظاظة والتفاهة تسحق الأطفال وتخمد أى جذوة لديهم ؛ لذا يتحولون هم أيضاً إلى مخلوقات بائسة نصف ميتة يماثل أحدهم الآخر تماماً ، ويصبحون مثل آبائهم وأمهاتهم" .

إلاّ أنه مهما كان تأثير تربية تشيخوف المبكرة على شخصيته ، إلاّ أنه لم يخمد بالتأكيد تلك "الجذوة" الدفينة فى داخله . . . فكل السير الذاتية التى كتبت عنه تتحدث عن مرحه وحيويته . وقد أظهر منذ أن كان فتى يافعاً شجاعة وميلاً للمزاح لم يفارقاه حتى وهو على فراش الموت . كما أظهر طاقة هائلة على العمل ، وتعاطفاً إنسانياً واسعاً . وهو يقول فى رسالة لأخيه نيقولاى : " إن ما يحتاجه الإنسان هو العمل المستمر ليل نهار ، والقراءة الدؤوبة ، والدراسة ، والسيطرة على الإرادة . فكل ساعة من الحياة ثمينة" .

لم تكن تلك مجرد وصايا فارغة لإنسان ثرثار ، بل دستوراً يلتزم به تمام الالتزام فى حياته اليومية . وبما أن جده كان قنًا فقد استطاع أن يشترى حريته وحرية أولاده (ومنهم والد أنطون) قبل سنوات من إلغاء نظام القنانة فى روسيا فى عام ١٨٦١ . ويشير تشيخوف فى إحدى رسائله إلى أنه "أخذ يعتصر العبد من داخله شيئاً فشيئاً ، قطرة قطرة ، إلى أن استيقظ فى أحد الأيام اللطيفة وهو يشعر بأن دم إنسان حقيقى يجرى فى عروقه عوضاً عن دم العبيد" .

بعد سنوات المعاناة فى تاجانروج انتقل إلى موسكو ؛ حيث بدأ يدرس الطب ، وأصبح فى نفس الوقت المعين الرئيسى لأسرته عن طريق الكتابة التى لم تكن تعنى له فى تلك السنوات أكثر من وسيلة لكسب معيشته ومعيشة أسرته . وبعد أن أنهى دراسته جمع بين مهنة الطبيب والكتابة الأدبية . وكان يحبهما كليهما ؛ إذ يقول : "أشعر بتيقظ ونشوة أكبر حين أدرك بأننى أمتلك مهنتين ، وليس مهنة واحدة . فالطب هو زوجتى الشرعية ، أما الأدب فهو عشيقتى . وحين أملّ إحداهما أتوجه إلى الأخرى لأقضى الليلة معها" .

ظل تشيخوف شديد التواضع فى نظرته إلى كتاباته طوال حياته على الرغم من كل ما حققه من شهرة ؛ إذ يقول فى إحدى رسائله : "تتراكم خلفى جبال من الأخطاء ، وأطنان من الورق المليئ بالكتابة . . . وحياة نجاح مفاجىء . . . غير أننى - بالرغم من ذلك - أشعر بأننى لم أكتب سطراً واحداً له قيمة أدبية حقيقية ، وأننى أتوق لأن أختبىء فى مكان ما لمدة خمس سنوات ، أو نحو ذلك لأنجز عملاً جاداً دؤوباً ، على أن أدرس وأتعلم كل شىء من بدايته ، إذ إننى ككاتب إنسان جهول تماماً" .

كما أنه كان يتمسك بالبساطه المطلقة فى أسلوبه القصصى وفى شخوص مسرحياته . وحين كان الممثلون يطلبون منه أن يوضح كيفية أدائهم لأدوارهم كان يحاول إيضاح أفكاره مؤكداً بأن كل شيء يجب أن يكون بسيطاً شديد البساطة ، وأن الأمر الأساسى هو عدم اللجوء إلى الأسلوب المسرحي المصطنع . ولقد قال هو نفسه بأنه أراد تصوير الحياة الحقيقة كما يعيشها الناس العاديون ؛ إذ يقول : "يجب أن تكتب المسرحية حيث يأتى فيها الناس ويذهبون ويتناولون عشاءهم ، يتحدثون عن الطقس ، ويلعبون الورق . يجب أن يتم تصوير الحياة كما هى تماماً ، والناس كما هم فى الواقع ، وليس كأنهم يمشون فوق روافع خشبية تستطيل بها قاماتهم . فليكن كل شيء على خشبة المسرح يمثل بتعقيد ، وفى نفس الوقت يمثل بساطة حدوثه فى الحياة الفعلية" .

كان عام ١٨٩٨ عاماً بالغ الأهمية بالنسبة لتشيخوف ككاتب درامى ، وبالنسبة لتاريخ الدراما فى روسيا ككل . فقد ظهر إلى حيز الوجود فى ذلك العام "مسرح موسكو للفن" . وعزى الفضل فى إنشائه لشخصين اثنين فى سن تشيخوف وهما : الممثل المتج الشهير ستانيسلافسكى والكاتب نيميروفيتش - داشينكو اللذين كانت أفكارهما تلتقى إلى حد كبير مع أفكار تشيخوف فيما يتعلق بفن الدراما عامة ، واحتياجات المسرح الروسى بشكل خاص . فقد كانا يمقتان أسلوب التمثيل المبالغ فى مسرحيته، والذى حوّل فن الدراما إلى فن ميّت ، بل كانا يريدان أن يكون طبيعياً وصادقاً ، ويعارضان التقاليد المسرحية التى يتم بموجبها تسليط كل الأضواء على عدد قليل من النجوم ، بينما يظل معظم المشاركين الآخرين فى الظل . وقد كانت مسرحية تشيخوف "طائر النورس" من المسرحيات

التى أدرجت على جدول الأعـمال التى سيقـدمها مسـرح الفن إلى جانب مسرحيات عديدة أخرى لألكسى تولستـوى وشكسبير وغيرهما . وكان من أحكام القـدر أن طائر النورس أصـبحـت نقطة الارتكاز فى أقـدار مسـرح الفن، حتى إن اسم هذه المسـرحية أطلق فـيما بعـد على هذا المسرح الذى خصّه تشـيخوف فيـما بعد أيضاً بمسـرحياته الثلاث الكـبرى الأخرى وهى "الخالة فـانيا" و "الشقـيقات الـثلاث" ، و "بستـان الكرز" . وهى آخر عمل كتبه تشيخوف .

عرضت "بستان الكرز" لأول مرة على مسرح الفن فى السابع عشر من كانون الثانى / يناير عـام ١٩٠٤ ، وهو يوم عيد ميلاد تشيـخوف ، وكان يصادف كذلك الذكرى الخـامسة والعشرين لبدئه بالكتـابة . وقد أقيم بهذه المناسبة حفل تكريمى لتشيخوف الذى كان مرض السل قد أخذ منه مأخذه . وبعد الكثـير من الخطب والتقـدمات تكلم نيمـيروفيـتش - داشينكو باسم زملائه قائلاً " "إن مسرحنا مدين لموهبتك ولقلبك الرقيق وروحك الصافية بحيث إن لك الحق فى أن تقول "هذا المسرح لى" .

بعد يومين من ذلك كـتب تشيخـوف لأحد أصدقائه يقـول : "لقد تم الاحتفاء فى حـفل العرض الأول لبستان الكرز بحـرارة وسخاء ، وبصورة غير متوقعة ؛ بحيث إننى لم أتماثل للشفاء من آثارها بعد .

هذه العبارة كانت من الصدق أكثر مما كان ينوى التعبير عنه فى الواقع ، إذ إنه لم يتماثل للشفاء قط بعد ذلـك . وبعد شهرين توجه إلى بادن فايلر فى ألمانيا ؛حيـث توفى من داء السل فى ليلة ١-٢ تموز / يوليو ١٩٠٤ . ومما لا يعتبر غـريباً على طبيعة تشيخوف أنه جلس فى سـريره قبل ساعات من وفاته وأخذ يبتدع قصة مضحكة ضحكت منها زوجته من أعماق قلبها.

كانت بستان الكرز - إذن - آخر ما كتبه تشيخوف ، وكان من شأن تطوره ككاتب مسرحي أن يقلب التقاليد المسرحية بصورة شاملة ؛ بحيث يمكن القول أنه أحدث ثورة في فن المسرح .. ولقد قيل إن الثورة ليست نقيض التطور التدريجي ، بل إنها عملية التطور التدريجي الذي يبقى خافياً في البداية ثم ما يلبث أن يتسارع بصورة مذهلة ؛ بحيث يبدو وكأنه فجائي ومتفجر . وعلى الرغم من حياء تشيخوف وتحاشيه للفت الأنظار إليه ، وبعده عن التصعب فإن الجيل الذي ينتمي إليه إنما كان يعيش على عتبة هزة تاريخية اجتماعية هائلة ... وكان هذا الجيل يدرك على سبيل التنبؤ بأنه سيكون الضحية وهو يسعى لاكتشاف معنى هذه المحرقة أملاً في تحقيق المستقبل المضيء الذي لا ينتظر تلك الأجيال ، بل الأجيال المقبلة ... وقد قيل إن لينين أعلن لدى قراءته قصة تشيخوف المعروفة "العنبر٦" والتي تصور أوضاع المرضى في مستشفى للأمراض العقلية ، أعلن أن العنبر ٦ "إنما تصور الحياة في روسيا برمتها في ذلك الحين . أما ستانيسلافسكي الذي يعتبر أبا المسرح الروسي الحديث ؛ فهو يقول في كتابه "حياتي مع الفن" لا تتضح القوة الشعرية لمسرحيات تشيخوف بجلاء لدى قراءتها الأولى . فبعد أن تنتهي من قراءتها تقول لنفسك : جيدة ، ولكن ليس فيها شيء خاص ، شيء يدير الرأس إعجاباً ... "بل إن القراءة الأولى قد تكون مخيبة للآمال أحياناً ، إذ تشعر بأنك غير قادر على أن تبدي فيها رأياً محدداً الحبكة ؟ الموضوع ؟ يمكنكِ أن توجزهما بكلمات قليلة .

"إلا أنك ما أن تستعيد بعض العبارات والمشاهد في ذهنك حتى تشعر بأنك تود أن تمعن التفكير فيها وتطيل التأمل ... تحسّ بأنك ترغب في قراءتها من جديد ، وحينذاك تدرك مدى العمق الذي يختفي تحت السطح الخارجي ..." .

ويضيف ستانيسلافسكى : "تشيخوف معين لا ينضب . فعلى الرغم من أنه ظاهرياً يصور الحياة اليومية العادية ، إلا أنه فى الحقيقة لا يتناول الأمور العابرة أو المحدودة ، بل تلك القضايا التى تتعلق بالإنسان أينما كان؛ فالإنسان فى الواقع هو الفكرة الروحية المهيمنة التى تتكرر فى كل مسرحياته" .

أما الكاتب الروسى الشهير جوركى فهو يقول : "ظل تشيخوف طوال حياته يعيش حياة الروح ، لا يتكلف على الإطلاق . يحاول أن يكون حراً فى داخله . . . ، لا يلقى بالاً إلى ما يتوقعه وينتظره الآخرون من أنطون تشيخوف ، أو ما قد يتطلبه منه أولئك الناس الأقل رقة ونعومة . . . وبحكم بساطته الرائعة كان مغرماً بكل ما هو بسيط وجوهرى وصادق ، كما يتمتع بأسلوبه الخاص فى حمل الآخرين على التحلى بالبساطة . . . "

ويضيف جوركى : "تلتمع فى عينيه الرماديتين الحزينتين بشكل شبه مستمر نظرة سخرية رقيقة . إلا أنها تتحول أحياناً لتصبح باردة حادة قاسية، وحينذاك تتسرب إلى صوته الرقيق الودود نبرة حادة ، ويتراءى لى عندئذ بأن هذا الإنسان الرقيق المتواضع يستطيع الوقوف فى وجه أى قوة معادية ، وأن وقفته هذه ستكون صلبة لا تلين . . . أقرأ تشيخوف وأقول لنفسى : لو أنه لم يمت قبل عشر سنوات لقتلته هذه الحروب التى نشهدها فى هذه الأيام بعد أن تسممه أولاً بكراهية بنى البشر . . . " .

هذا ما قاله جوركى بعد عشر سنوات من وفاة أنطون تشيخوف ، ومع بداية الحرب العالمية الأولى ترى ماذا يمكن لنا أن نقول الآن ، أو ما يمكن لتشيخوف نفسه أن يقول لو أنه يرى ما تشهده روسيا التى أحبَّ وهى تشهد هذا الانهيار المرعب فى هذه الأيام ؟؟ . . .

يقول جوركى : " الطريقة التى يجب أن يكتب فيـها عن تشيخوف هى نفس أسلوبه في كتـابة قصته " السـهوب" : قصة روسـية حقة ، عـانقة بالشذى ، تجرى فى الهـواء الطلق ، متأملة ، يشوبهـا أسى وتوق ، قصة يكتبها الإنسان لنفسه . . . .

ويختـتم جوركى بالقـول : "ما أحـسن أن يتـذكر المرء إنسـاناً من هذا النوع، فهو يحسّ وكأنما هو طيف من السـعادة والانشراح يـزوره ليعطـيه معنى واضحاً للحياة من جديد . . . " .

حصة إبراهيم منيف

أنطون تشيخوف

دعاني لزيارته في قرية كوتشوك - كوى حيث كانت لدية قطعة أرض صغيرة وبيت أبيض من طابقين ، وبادر باصطحابى فى جولة فى "إقطاعته" وهو يتحدث بحماس طول الوقت .

"لو كان لدى الكثير من المال لبنيت هنا مصحاً لمعلمى الريف المرضى ... مبنى مضيئ ، كما تعلم ، يملؤه النور ... بنوافذ متسعة وسقوف عالية ، ولزودته بمكتبة رائعة ، وبمختلف أنماط الآلات الموسيقية ، وبمجموعات من خلايا النحل ، ولأحطته بحديقة للخضار وبستان لأشجار الفواكه ، ولنظمت فيه محاضرات حول أصول الزراعة وأحوال الطقس وعلم الأرصاد وما إلى ذلك من العلوم - فمن الواجب أن يعرف المعلمون فى كل الأمور يا صديقى العجوز ، عليهم أن يلمّوا بكل الأشياء ... "

ثم توقف عن الكلام فجأة ، وسعل ، ورمقنى بنظرة جانبية ، وابتسم ابتسامته العذبة اللطيفة المألوفة ، تلك الابتسامة التى لا تستطيع أن تقاوم سحرها بحيث تجد نفسك منساقاً لمتابعة كلماته بكل جوارحك.

"هل مللت حديثى عن أحلامى ؟ إننى أحب أن أتحدث فى هذا الموضوع .

لو أنك تدرك مدى حاجة الريف الروسى للمعلمين الحصيفين الحاذقين، جيدى الثقافة ، بكل بساطة ، علينا فى روسيا أن نوفر للمعلمين ظروف حياة ممتازة ، وأن نفعل ذلك بأقصى ما نستطيع من سرعة ، فنحن

نعلم بأن بلدنا سينهار إذا لم يحصل الناس على تعليم يتناول جميع جوانب الحياة ، سينهار كما يتداعى بيت بنى من آجر لم يتم شيهّ وحرقه إلى الدرجة المناسبة ، على المعلم أن يكون ممثلاً وفناناً وإنساناً مغرماً بعمله، أما معلمونا فهم بسطاء سذّج ، أنصاف متعلمين ، يذهبون إلى قرانا قسراً ليعلّموا أبناءنا وكأنهم يساقون إلى المنفى ، إنهم مسحوقون يتضورون جوعاً، يعيشون فى رعب دائم من أن يفقدوا مصدر رزقهم ، يجب أن يحتل المعلم المركز الأول فى القرية . . . وأن يكون قادراً على الإجابة عن كل الأسئلة التى يطرحها عليه الفلاحون بحيث يزرع فى نفوسهم الاحترام لقدراته حتى يصغوا لما يقول ، ويكنوا له الاحترام والتبجيل ، وبحيث لا يجرؤ أحد على الصراخ فى وجهه أو على الحط من كرامته كما يفعل الجميع فى قرانا فى الوقت الحاضر . . شرطى القرية ، وصاحب الحانوت الغنى ، والقس ، وراعى المدرسة ، والمختار ، وذلك الموظف الذى يُطلق عليه اسم مفتش المدرسة ولكنه فى الحقيقة لا ينشغل بتحسين ظروف التعليم بل بوضع اللوائح التى تدبجها إدارة المنطقة التعليمية موضع التنفيذ ، من السخف أن ندفع أجوراً شحيحة لا تسمن ولا تغنى من جوع لمن يُطلب منه أن يعلّم الناس - أجل يعلّم الناس ! من غير المقبول أن يمضى مثل هذا الإنسان وهو يرتدى الأسمال ، يرتعش فى مدرسة باردة متداعية ، يتنسم سموم المدافئ سيئة التهوية ويصاب بنزلات البرد والزكام باستمرار ، وما أن يصل إلى سن الثلاثين حتى يصبح كتلة من الامراض - من التهاب الحلق إلى الروماتيزم إلى السل، عار علينا ، أى عار! إنسان يعيش تسعة أو عشرة أشهر من كل عام عيشة النساك ، لا تتوفر له الكتب أو أى من وسائل التسلية والترويح عن النفس ، ولا يجد من يتبادل معه الحديث ، بحيث يتحول بفعل تلك الوحدة إلى إنسان غبى ، وإذا تجرأ أحدهم ليدعو نفراً من أصدقائه لزيارته اعتبره الناس متمرداً - وهى صفة غبية يطلقها

أولئك الناس المحتالون ليدخلوا الرعب فى قلوب الأغبياء ، كل هذا يثير الاشمئزاز ، هزء بأولئك الذين يفترض فيهم أن يؤدوا واجباً فى غاية الأهمية والجلال وكل ما يمكننى قوله هو أن شعوراً غريباً يتابنى كلما قابلت معلماً ورأيته وجلاً رث الهيئة ، أحس حينذاك بأننى مسئول شخصياً بطريقة ما عن حالة ذلك المعلّم التعسة ... أجل هذا ما أشعر به .. "

ثم توقف عن الكلام لحظة ، وفتح ذراعيه على اتساعهما ، وهمس فى أذنى قائلاً " "بلدنا ، روسيا ، بلد سخيف غليظ القلب !" .

وبعد ذلك جلّلت عينيه اللطيفتين ظلال أسىً عميق وتراءت شبكة من التجاعيد الدقيقة فى زوايا عينيه بحيث أصبحت نظراته أكثر عمقاً ، وتلفت فيما حوله وأخذ يهزأ من حديثه ..

"ها قد ألقيت على مسامعك مقالاً افتتاحياً كاملاً من النوع الذى تنشره الصحف الليبيرالية . هيا ! سأقدم لك قدحاً من الشاى مكافأة لصبرك واحتمالك .. "

كان هذا رأيه فى الكثير من الاحيان ، يتحدث بحرارة وجديّة وصدق ، ثم ما يلبث أن يسخر من نفسه ومما قاله ، ووراء ذلك الضحك والسخرية الحزينة الرقيقة تلمح مسحة من الشك والريبة التى يتسم بها إنسان يقدِّر قيمة الكلمات ، وقيمة الأحلام ، ويتسم ضحكه هذا أيضاً بسمات تواضعه الأخّاذ ورقته العفوية .

سرنا صامتين بعد ذلك متجهين إلى البيت ، كان يوماً دافئاً مضيئاً ، تكاد تسمع فيه أصوات كلب ينبح بسرور لسبب ما ، وتأبط تشيخوف ذراعى وقال والسعال يقطع كلماته ... "أمر معيب ويبعث على الحزن ،

ولكنه واقع ، هنالك كثيرون ممن يغبطون الكلاب حياتهم !. . . "

ثم أضاف ضاحكاً " كل ما أقوله اليوم يعبّر عن الشيخوخة ! لابد أنني أتقدم في العمر !"

ويردد في رسائله باستمرار . . . "أتدرى . . . لقد وصل معلم لتوّه، وهو مريض ، ولديه زوجة . . لا يمكنك أن تفعل له شيئاً ، أليس كذلك ؟ لقد عالجته علاجاً مؤقتاً . . . :

أو يقول :

"أتعرف يا جوركي . . هناك معلم يريد أن يتعرف عليك . . هو مريض طريح الفراش . . هل يمكنك أن تذهب لزيارته ؟"

أو :

"هنالك مديرة مدرسة تطلب إرسال كتب لها . . "

وقد أجد هذا "المعلم " في بيته- تجده في العادة شخصاً يغمره الاحساس بالحرج . . يجلس على طرف مقعده وهو يتصبب عرقاً ، وينتقى كلماته بحيث تبدو منسابة تنمّ عن "العلم" قدر الإمكان ، أوقد يبالغ في أخذ راحته بالكلام كما يفعل إنسان يعاني من خجل مرضى وتسيطر عليه الرغبة بألا يبدو كإنسان غبي في عيني الكاتب ، فيمطر أنطون بافلوفتش بالاسئلة التي تبدو وكأنها خطرت بباله لتوّها .

ينصت أنطون بافلوفتش بكل إمعان لذلك الحديث الغليظ ، وتضيىء ابتسامة عذبة عينيه الحزينتين ، وتتراقص التجاعيد عند زوايتي صدغيه ، ويبدأ كلامه بصوته العميق اللطيف الهامس مستخدماً كلمات بسيطة واضحة، كلمات تعبر عن أمور الحياة بحيث يشعر الزائر بالراحة على الفور

ويكفُ عــن محــاولة إظهار فطنته ويصبح بالتالى أكثر فطنة وحيوية وإثارة للاهتمام . ،

أتذكّر أحد أولئك المعلمين - كان طويل القامة نحيلها ، له وجه هزيل مصفّـر وأنف طويل معقوف ينحنى فوق ذقنه بصـورة تبعث على الحزن ، جلس قبالة أنطون بافلوفتش ، وأخذ يحدق فى وجهه بعينيه المظلمتين وهو يتحدث بصوت خفيض رتيب :

"انطباعات من هذا النوع تتجمع نتـيجة للظروف المعاشة طوال الموسم التربوى وتتراكم فى كتلة روحية مـتراصّة بحيث تحول دون توفّر أى إمكانية لاتخـاذ موقف مـوضوعى إزاء العـالم المحيط . . والعـالم بالطبع ليس إلا صورة لمنظورنا الخاص به "

وهنا بدأ حديثـاً فلسفياً أخـذ يتعثر كمـا يتعثر إنسـان ثَمِل يمشى فوق الجليد .

وتساءل تشـيخوف حـينذاك بلهجة هادئة حـانية : "قل لى ! من هو الذى يضرب الأطفال فى منطقتكم ؟ "

قفز المعلم من مقعده وأخذ يلوح بذراعيه مستنكراً :

"ماذا ؟ أنا ؟ أضربهم ؟"

وأخذ يشخر باستياء .

فقال تشيخوف وهو يبـتسم بهدف تهدئته : "لا تنزعج . . هل قلت إنك أنت تفعل ذلك ؟ كل ما فى الأمر أننى أذكر أنى قرأت فى الجريدة بأن أحدهم يضرب التلاميذ فى منطقتكم . . "

جلس المعلم من جديد ومسح وجهه المتعرّق وتنهدّ بارتياح ، ثم تابع قائلاً بصوته الخفيض العميق .

"أجل ، كانت هنالك حالة من هذا النوع ، وكان المعلم هو "ماكاورت" .

ولا عجب فى ذلك ، أمر غريب ، ولكنه متوقع ، فهو متزوج ولديه أربعة أطفال ، وزوجته مريضة ، كما أنه مصاب بالسل ، راتبه عشرون روبلاً ، والمدرسة كأنها السرداب ، وليس هنالك إلا غرفة واحدة للمعلم ، فى مثل هذه الظروف ستصفع حتى الملاك الذى يهبط من السماء لأى مخالفة مهما كانت بسيطة ، والتلاميذ أبعد ما يكونون عن الملائكة ، صدقونى !.. ؟

وهكذا أخذ المعلم الذى كان قبل هنيهة قصيرة يحاول أن يخلق انطباعاً جيداً فى نفس تشيخوف باستخدام كلمات طنانة رنّانة ، أخذ فجأة يهز أنفه المعقوف باستنكار ويقذف بكلمات كأنها الحجارة ، بسيطة ولكنها ثقيلة .. كلمات تلقى الضوء على تلك الحياة التعسة المريعة فى القرية الروسية ...

حين ودّع ذلك المعلم مضيفه شدّ بيديه كلتيهما على يد تشيخوف الصغيرة المتقشفة ذات الأصابع النحيلة ، وقال : "أتيت لرؤيتك وأنا مقدم على رؤية إنسان مترفع ، ولذا كنت أرتعش ، وأخذت انتفخ كأننى الديك الرومى مصمماً على أن أظهر لك بأن لى قيمتى أيضاً وها إننى أتركك وكأننى أودع صديقاً حميماً يتفهم كل شئ . إنه لأمر رائع أن يفهم المرء كل شئ .. شكراً لك .. إننى ذاهب وأنا أحمل فكرة جيدة ثمينة ، وهى أنا الناس العظماء أكثر بساطة ، وأكثر فهماً ، وهم أقرب إلى بنى البشر والفقراء من أولئك الأفراخ الصغيرة التى نعيش بينها .... وداعاً لن أنساك قط ... "

ارتعش أنفه واسترخت شفتاه فى ابتسـامة لطيفة ثم أضاف بعبارة غير متوقعة :

"الناس السيئون تعساء أيضاً - عليهم اللعنة "

وبعـد أن مضى تـابعه أنطون بافلـوفتش بنظره ، ثـم ابتسم وقـال : شخص لطيف ، لكنه لن يعلّم طويلاً " .

"سيترصدونه . . وسيتخلصون منه "

وبعد فترة صمت أضاف بصـوت خفيض رقيق "الإنسان الشريف فى روسيا هو مثل العصى التى تُنظف بها المداخن ، تستعملها المربيات ليخوفن بها الأطفال الصغار . . . "

يبـدو لى أن كل إنسـان يتـابه إحسـاس غـير واع بحـضـور أنطوان بافلوفتش بأن يكون أكـثر بساطة وصدقـاً وأمانة مع نفسه ، ولقـد شهدت مناسبات عديدة رأيت خلالها أشخاصاً يتخلّون عن محاولة إطلاق العبارات الطنانة المستخدمة فى الكتب ، عن تلك التفاهات التى نحاول نحن الروس أن نتحلّى بها لكى نخـلع على أنفسنا صفة الأوروبيين ، تماماً كـما يحاول أبناء الأقوام المتوحشة أن يزّينوا أنفـسهم بالأصداف وأسنان الأسماك ، وأما أنطون بافلوفـتش فلم يكن قط مغـرماً بأسنان السـمك وريش الديكة ، بل ويحرجه كل ما هو مزوق ، رنـان وغريب مما يتحلّى به الناس كى يتحلوا لأنفسهم مظهراً يثير بالإعجاب ، وكـثيراً مالا حظت أنه كلما التقى بواحد من أولئك الذين يتزيّون بهيئـات مبالغ فيها إنما يحس إحسـاساً لا يقهر بأن عليـه أن يحرّر هذا الإنسـان من بهارجه الـتى تثقل كـاهله وتشوه وجـهه الحقيقى وتكبل روحه الحية ، ولقـد ظل طوال حياته يعيش حياة الروح لا يتكلف على الإطلاق ، يحاول أن يكون حراً فى داخله ، لا يلقى بالاً إلى ما يتـوقعه وينتظره الآخـرون من أنطون تشيـخوف ، أو ما قد يـتطلبه منه أولئك الناس الأقل ، رقة ونعومة .

لم يكن يحب الأحاديث التى تتناول الأمور "الرفيعة" وهى الأحاديث التى يجد فيها الروس عادة تسلية لهم نظراً لبساطة قلوبهم ، وينسون أن من السخف ومن غير المنطقى أن يتحدث المرء عن ارتداء الملابس المخملية فى المستقبل فى الوقت الذى يعجز فيه عن ارتداء سروال يستر جسمه .

وبحكم بساطته الرائعة كان مغرماً بكل ما هو بسيط وجوهرى وصادق،كما يتمتع بأسلوبه الخاص فى حمل الآخرين على التحلّى بالبساطة .

زارته فى إحدى المرات ثلاث سيدات باديات الأناقة ، ملأن الغرفة بحفيف أثوابهن الحريرية وعبق عطورهن الفوّاحة .

انتصبن ثلاثتهن بترفع مقابله وهن يفتعلن اهتماماً شديداً بأمور السياسة ، وبدأن يوجهن الأسئلة له :

- "كيف تتوقع للحرب أن تنتهى يا أنطون بافلوفتش ؟

سعل أنطون بافلوفتش وتوقف قليلاً وهو يفكر ، ثم أجاب بصوت عميق لطيف وجاد : "بالسلام دونما شك ! "

- هذا طبيعى ، ولكن من سينتصر ، اليونان أم الأتراك ؟"

- "يبدو لى بأن الجانب الأقوى هو الذى سينتصر :

تساءلت النسوة بصوت واحد "ولكن من هو الجانب الأقوى فى رأيك؟»"

- « الجانب الأفضل تغذية . . والأحسن تعليماً . . . »

وعند ذلك صاحت إحدى النسوة "يالذكائه اللمّاح "

وتساءلت الأخرى : "ولكن أيها تفضل أنت ، اليونان أم الأتراك ؟ "

تطلع إليها أنطون بافلوفتش بنظرة حانية وأجاب وابتسامة رقيقة مجاملة

ترتسم على شفتيه ؟: "إننى أفضل باستيليا الفاكهة* . هل تحبينها أنت ؟"

هتفت السيدة بحماس : "أجل ، جداً ! "

وما لبثت أن أكدت الثانية على كلامها بلهجة جادة :

"لها طعم رائع "

ثم شرعن ثلاثتهن يتحدثن بانفعال حول أقراص الباستيليا ، مبديات معرفة مذهلة ومعلومات دقيقة حول هذا الموضوع ومن الواضح أنهن فرحن بالتخلى عن محاولة إعمال تفكيرهن والتظاهر بالاهتمام بالأتراك ، واليونان وهو أمر لم يكن قد أرهقن تفكيرهن به من قبل ، ولدى مغادرتهن قطعن له بسرور وعداً جاداً : "سنرسل لك علبة من باستيليا الفاكهة ! "

وبعد مغادرتهن قلت له : "لقد تبادلت معهن حديثاً لطيفاً "

فضحك ضحكة رقيقة وقال : " كل امرئ عليه أن يتكلم بلغته الخاصة " وفى مناسبة أخرى التقيت لديه بمساعد محام حسن الطلعة ، كان يقف قبالته وهو يهز تجعيدات شعره إلى الوراء ويقول بلهجة واثقة : "لقد وجدت معضلة معقدة فى قصتك "الجاحد" يا أنطون بافلوفتش ، فإذا افترضنا أن لدى دينيس جريجوريف ميلاً متعمداً للشر فإن علينا أن نحكم عليه بالشنق دون تردد حيث أن مصلحة المجتمع تتطلب ذلك إلا أن دينيس إنسان متوحش همجى ، لايدرك السمة الإجرامية لفعلته ، ولذا فإننى أشعر بالحزن عليه فإذا اعتبرته مخلوقاً يتصرف دون أن يعقل عواقب تصرفاته ، وخضعت لمشاعر الشفقة عليه ، فكيف يمكن لى أن أحمى المجتمع وأضمن بأن دينيس لن يعود مرة أخرى ليفكك قضبان السكة الحديدية ويخرج القطار عن سكته من جديد ؟ ما العمل ؟ هذا هو ما يحيرنى .

* أقراص عطرية أو دوائية تحرق للمعالجة بالتبخير .

توقف وهلة ، وألقى بنفسه ثانية فوق مقعده ، وثبت نظراته على وجه أنطون بافلوفتش متسائلاً ، كانت بذلته جديدة لامعة ، والأزرار التى تزينها تلتمع بنفس الثقة والغباء اللذين تلتمع بهما عينا الشاب المتحمس فى وجهه المشطوف .

أجاب أنطون بافلوفتش بلهجة جادة : "لوكنت القاضى لبرأت دينيس"

-"ولكن على أى أساس ؟"

- كنت أقول له : لم تنضج بعد لتصبح مجرماً مكتملاً ، اذهب إلى أن تصبح كذلك ! ؟

ضحك المحامي الشاب ، ولكنه ما لبث أن استعاد لهجته الحادة وتابع القول "لا ، لا يا أنطون بافلوفتش ، فالمشكلة التى طرحتها لا تحل إلا لمصلحة المجتمع ولمصلحة حياة الناس وممتلكاتهم ، وهو ما يجب أحميه، ودينيس شخص همجي ومتوحش ، هذا صحيح ، لكنه مجرم ، وهنا تكمن الحقيقة " .

حينذاك سأله أنطون بافلوفتش فجأة : "هل تحب سماع الجرامافون ؟ "

فعاجله الشاب بالإجابة : "أجل ، جداً إنه اختراع هائل ؟! " ولكن تشيخوف قال بلهجة تنّم عن اعتراف حزين : " أما أنا فإنى لا أطيق الجرامافون! "

- ولماذا ؟"

- "حسناً ، إنه يتكلم ويغنى دون أن تكون لديه أى مشاعر ، كل الأصوات التى تصدر عنه فارغة وعديمة الحياة ، وهل تحب التصوير ؟"

أتضح حينذاك أن المحامى من المغرمين بفن التصوير ، ولذا أخذ يتحدث عنه بحماس على الفور دون أن يبدى أى اهتمام بالجرامافون على

الرغم من أنه هو ذاته يشبه تلك "الآلة الهائلة" كما وصفها ، وهو ما لاحظه تشيخوف بكل حذق ودقة ،

وحينئذ أدركت أن تحت البذلة المتأنقة إنسان لا يفتقر إلى الحيوية ، ولكنه مازال حديث العهد بالحياة وأمورها ، تماماً كالجرو الصغير إذا ما أخذته للصيد .

وبعد أن ودع الشاب قال أنطون بافلوفتش بلهجة تنم عن المرارة: "مثل هذه البثور على ظهر العدالة هى التى تصدر أحكامها وتقرر مصائر الناس" .

توقف بعض الشئ ثم أضاف : "المدّعون العامون يحبون صيد السمك دائماً ، خاصة السمك النهرى ! ؟

كان تشيخوف ماهراً بفن كشف السوقية أينما وجدت ، وهو فن لا يمكن أن يتقنه إلا من كانت متطلباته وتوقعاته من الحياة رفيعة جداً ، وينبع هذا الفن من الرغبة العارمة فى توخى البساطة والجمال والتناغم لدى الإنسان ، وعلى هذا كانت أحكامه شديد القسوة لا ترحم حين يتعلق الأمر بالفظاظة والسوقية .

وصادف أن ذكر أحدهم بحضوره أن رئيس تحرير إحدى المجلات المرموقة ، والذى طالما يردد الكلام حول ضرورة حب الآخرين والتعاطف معهم ، قد أهان ، دونما مبرر أو استفزاز ، أحد الحرّاس فى محطة القطار، وأنه كان قاسياً فظاً فى معاملة مرؤوسيه .

وهنا صدرت عن أنطون بافلوفتش ضحكة مكتومة وبادر بالقول :

- "أجل فهو ارستقراطى مثقف ، تعلَّم فى مدرسة داخلية ، كان أبوه يرتدى أحذية مصنوعة من لحاء الشجر ، أما هو فيرتدى جزمة من الجلد الأصلى الناعم اللّماع" .

وحين نطق كلمة "ارستقراطى " كانت لهجته تنم عن أن ذاك الإنسان هو شخص دون العادى يثير السخرية .

وقال مرة معلقاً على أحد الصحفيين : "أجل إنه إنسان موهوب ، وكتاباته إنسانية رفيعة شديدة الطلاوة على الدوام ، يصف زوجته بالغباء أمام الناس ، وخدمه يعيشون فى غرفة باردة حيث يصيبهم داء الروماتيزم " .

وإذا سألته : "هل تحب فلاناً يا أنطون بافلوفتش ؟ " فإنه يجيبك وهو يسعل : "أجل إنسان لطيف ، يعرف كل شئ ويقرأ الكثير ، ولكنه ينسى بعض الشئ استعار ثلاثة من كتبى ولم يعدها على الإطلاق ، وهو يقول لك فى أحد الأيام إنك إنسان جيد ، ولكنه ما يلبث أن يقول لأحدهم فى اليوم التالى إنك سرقت جوارب زوج عشيقتك ويصفها له بأنها جوارب حريرية سوداء مقلّمة بالأزرق " .

وصادف أن اشتكى أحدهم من أن الأقسام الجادة فى المجلات "الثقيلة" صعبة الفهم ، مملّة ، فبادره أنطون بافلوفتش ناصحاً بلهجة كلها اقتناع : "لا تقرأ هذه المقالات ، وهذا كل ما يمكنك أن تفعله ، فهى عبارة عن نوع من الأدب التعاونى يكتبه السادة كراسنوف وشيرنوف وبيلوف* أحدهم يكتب المقال والثانى يكتب نقداً له ، ويحاول الثالث التوفيق بين آراء الاثنين ، كأنك تلعب الورق مع دمية. أما مدى حاجة القراء لمثل هذه الكتابات فهو أمر لا يكلف أحدهم نفسه عناء التفكير فيه" .

زارته مرة سيدة ضخمة الجسم ، حسنة الطلعة تبدو عليها دلائل العافية والصحة وترتدى ثياباً أنيقة ، بدأت على الفور تتحدث على الطريقة التشيخوفية " .

* الأحمر والأسود والأبيض .

- الحياة مملّة يا أنطون بافلوفتش ، كل ما فـيها كامد قاتم - الناس ، السماء ، البـحر حتى الأزهار تبدو لى كامدة ، لم يعـد الإنسان يتمنىّ أى شئ قلبى ، يتوجع .. كأنما ذلك داء من نوع ما . . . "

أجابها أنطون بافلوفـتش بلهجة حازمة : "أجل ، إنه داء بالتـأكيد ، ويسمى باللاتينية"Morbus Shamiti" * .

ولحسن حظ السيـدة فإنها لم تكن تعرف اللاتينيـة ، أو ربما كانت قد تظاهرت بأنها لا تفهمها .

قال مرة وهو يتضاحك : "النقاد مـثل ذبابة الفرس ، لا مهمة لها إلا أن تزعج الخيل وتعيق حركتها وهى تـفلح التربة ، فعضلات الحصان تكون متوفزة ومـتوترة كأنها أوتار الكمان ، وفجأة تحطّ الذبابة على قـفا الحصان وهى تطن وتلسع ، فيرتعش جلد الحصـان ويهز ذيله يمنة ويسرة ليتخلص منهـا ، لماذا تطّن وتزن تلك الذبابة ؟ قـد لا تعرف هى نـفسـها لم تفـعل ذلك، ربما ، ببساطة ، بسبب طبيعتها المتبرمة القلقة ، فهى تريد أن تشعر الآخرين بوجودها وتقول : أنا موجودة أيضاً ، هل تدرون ذلك ؟ تريد أن تقول فيما يتـراءى لى : أترون ! إنى أعرف كيف أزّن ، وليس هناك ما لا أزن حوله لقد دأبت طوال خمسة وعشـرين عاماً على قراءة مقالات تتناول قصـصى ، ولست أذكر منهـا أمراً أفـادنى ، أو نصيحـة جيـدة واحدة ، الوحيد الذى ترك لدى انطباعاً أذكره هو سكابـيشيفسكى الذى تنبأ لى بأننى سأموت سكرلناً وسأسقط حينها فى حفرة عميقة ! "

تلتمع فى عيـنيه الرماديين الحزينتين بشكل شـبه مستمـر نظرة سخرية رقيقة ، إلا أنها تتحول أحياناً لتصبح باردة حادة قاسية وحينذاك تتسرب إلى

* يمكن ترجمتها بالعربية داء التظاهر والزيف المرضى .

صوته الرقيق الودود نبرة حـادة ، ويتراءى لى عندئذ أن هذا الإنسان الرقيق المتواضع يستطيع الوقوف فى وجه أى قوة مـعادية ، وأن وقفته هذه ستكون صلبة لا تلين .

وكان يبـدو لى فى بعض الأحيان أن هـناك ظلاً من خيبـة الرجاء فى مواقفه من الآخرين ، شيئاً يشبه اليأس البارد الساكن .

قال لى مـرة : "الروسى مخـلوق غريب ، فـهو مثل الـغربال ، لا يستـطيع أن يحتفظ بأى شئ فى داخـله لفترة طويلة ، يحـشو نفـسه فى شبـابه ، وبرغبة جـامحة ، بكل مـا يجده فى طريقه ، ولـكنه ما إن يبلغ الثلاثين من عمره حتى يصبح مثـل كومة قمامة عديمة اللون ، على المرء أن يعمل إذا كان يريد أن يعـيش حياة حسنة ، حياة إنسانيـة ، عليه أن يعمل بحب وإيمان . أما نحن فى بلادنـا فلسنا نعرف ذلك . فالمهندس المعـمارى مـثلاً ، وبعـد أن يبنى بيـتين أو ثلاثة بيوت لائقـة يكتـفى بالجلوس للعب الورق طوال مـا تبقى من حـياته ، أو يقـضى أيامه وراء الخـشبة فـى أحد المسارح ، والطبـيب يتوقف عن متابـعة المستجـدات فى علم الطب بعد أن يستكمل تدريبه ، ولا تتـجاوز قراءاته مجلة الأخبار الطبـية ، وما إن يبلغ الأربعين من عمره ، حتى يكون قد اقتنع قناعة كلّية بأن كل الأمراض تنشأ عن نزلات البرد ، ويمكننى القول بأننى لم أصادف قـط مسئولاً واحداً لديه أدنى فكرة عن أهمـية العـمل الذى يؤديه بل إن الواحد منهـم ينغرس فى العاصمة أو فى إحدى عواصم الأقاليم ليخترع اللوائح التى يرسلها إلى هذه الجهة أو تلك لوضعـها موضع التنفيذ أما العوائق والـعراقيل التى تنشأ عن تلك التعـميمات واللوائح بحيـث تعوق حرية الحركة فى تلـك الناحية أو غيـرها ، فهى أمر لايهـمه قط ، تماماً كمـا لا يكترث الملحد أيما اكـتراث بعذابات جهنم . أمـا المحامى فإنه ما إن ينجح فى إبراز اسمه بـتقديم دفاع

ناجح حتى يكف عن الاهتمـام بأمر الدفاع عن الحقيقـة ، ويكتفى بالدفاع عن حـقـوق الملكيـة ، والمراهنة فى سـبـاقـات الخـيل ، وأكل المحـار ، واستـعراض نفسه كـخبير يفـهم فى أمور الفن كافـة . والممثل يكف عن حفظ أدواره بعد أن يقوم بتمـثيل دورين أو ثلاثة أدوار ناجحة ، بل يكتفى بارتداء قبعة عـالية من الحرير ويعتبر نفسه نابغـة زمانه ، إن روسيا هى بلد المتعطلين الشـرهين ، فالناس يأكلون ويشربون بإفراط ، ويحـبون النوم فى النهار ويشخرون أثـناء نومهم ، يتزوج أحدهم لترتيب أمور بيـته ، ويتخذ لنفسه عشيقة لتأمين مكانته الاجتماعية نفسيته نفسية كلب ، إن ضربته صال بخنوع وتسلل إلى مأواه خلـــسة ، وإن دللتــه استـــلقى على ظهره رافعاً أظلافه إلى الأعلى ملوحاً بذيله " .

تحت هذه الكلمات يكمن ازدراء بارد متحسّر ، ولكنه على الرغم من هذا الازدراء قادراً على إبداء روح الرحمة : "لا تـنسى أنه إنسان عجوز ، فهو فى الســبعين " أو يقول "مازال غضـاً حديث السن ، وهذا ناشئ عن غفلته " ولـم أكن ألمح أثراً للاحتقار فى ملامحه فى مثل تلك الحالات .

فى سن الشباب تبدو السوقية والفظاظة لدى المرء أمراً عديم الأهمية ، يبعث على التسـلية ، ولكنها ما تلبث أن تحيط به مـن كل جانب بالتدريج ويتسلل ضبابها القاتم إلى داخل عقـله ودمه ، تماماً كأنها السموم أو أدخنة الفحم ، فيصبح مثل لافتة معلقة على مدخل خانه وقد أكل الصدأ معظم ما كتـب عليها حيث يبـدو عليها شئ مكتوب ، إلا أن فك رمـوزه يصبح شبه مستحيل .

ولقـد حاول أنطون بافـلوفتش منذ البـداية أن يكشف عن الألاعـيب المأساوية الكالحة للسوقية والفظاظة فى محيطها المتلاطم . وإذا قرأنا قصصه التى توصف بأنها "هزلية" بعناية وتدقـيق فإننا ندرك مدى قدرته على رؤية

الأمور المؤذية ومـحاولاته الخجلة تحـت غلالة السرد السـاخر والوضعـيات الهازئة .

كان يتسم بتواضع يصل إلى درجة تواضع العذارى ، فلم يكن ليسمح لنفسه بأن يتحدى الآخرين بصورة مكشوفة وبصوت عال : "الا يمكنك أن تكون أكثر لياقة واحتشاماً ؟ " معتقداً عبثاً بأن من شأن الآخرين أن يدركوا بأن عليهم أن يكونوا أكثر لياقة واحتشاماً .

وعلى الرغم من احتقاره لكل ما هو سوقى وغير نظيف ، فهو يصف أسوأ مناحى الحياة باللغة الرفيعة للشاعـر وبالبسمة اللطيفة للكاتب الساخر حيث يختفى التأنيب الضمنى تحت ذلك السطح الصقيل لقصصه ، حتى لا يكاد يلحظ .

حين يقرأ القراء قصتـه "ابنة انجلترا" فهم يضحكون دون أن يلحظوا فى الغالب سـمات الاسـتخفـاف الكريه الذى يبديه الاقطاعـى المتخم إزاء إنسان بـائس غريب ، لا يعرف شـيئـاً عمـا حوله . .وحين أقـرأ قصص تشيخوف السـاخرة فإننى أكاد أسمع تنهـدة مشفقة عميـقة تنبعث من قلب صاف صـادق الإنسانية ، تنهدة شـفقة يشـوبها الأسى إزاء بنى البشر غـير القادرين على الحفاظ على احترامهم لأنفسـهم حيث يخضعون دونما مقاومة أمام القوة القاهرة المتوحشة ، ويعيشون عيشة تماثل حياة العبيد ، لا يؤمنون بشئ إلا بكيفية جـعل حساء الملفوف الذى يتبلعونه كـل يوم طعامًا ريانًا ما أمكنهم ذلك ، ولا يشعرون إلا بالخوف من أن يدوسـهم الأقوياء والسفهاء من الناس.

ويمكننا القول بأن أحداً لم يفهم الطبيعة المأساوية لأمور الحياة الصغيرة بمثل الوضوح والفراسـة،اللذين أبداهما تشيخـوف ، ولم يتمكن كاتب من قبل أن يبرز أمام أعين بنى البشـر صورة صادقة إلى درجة لا ترحم لكل ما

هو معيب ويبعث على الحزن والأسى فى معمعة فوضى الحياة الكامدة للطبقة الوسطى .

كانت الفظاظة والسوقية هما عدوه اللدود ، حاربهما طوال حياته ، وأبدى إزاءهما كل صنوف الاحتقار ، وصوّرهما بقلم حاد غير متحيز ، كاشفاً عن فطور الفظاظة والسوقية حتى فى المواضع التى تبدو فيها مرتبة غاية الترتيب للوهلة الأولى بحيث تبدو متألقة لا تشوبها شائبة ، ولقد انتقمت منه الفظاظة والسوقية أيما انتقام حين لعبت ضده لعبتها البشعة عندما أرسل جثمانه - جثمان الشاعر - إلى موسكو فى عربة قطار تستخدم لشحن أصداف المحار .

ويتراءى لى أن تلك العربة الخضراء المتسخة كانت عبارة عن تكشيرة الظفر الواسعة التى أطلقتها السوقية والفظاظة على عدوها اللدود الذى هدّه التعب . كما ألمح فى تلك المقالات التى لا تحصى والتى نشرتها الصحافة الصفراء حول ذكرى تشيخوف - ألمح فيها حزناً منافقاً ، وأشعر أن وراءها ذلك النَفَس البارد اللاسع لتلك الفظاظة والسوقية نفسها ، وهى تعبر خفية عن فرحتها بموت عدوها اللدود .

لدى قراءة أعمال تشيخوف يشعر المرء وكأنه فى يوم خريفى حزين ، الهواء فيه واضح صريح ، والأشجار عارية تقف مرسومة بوضوح إزاء السماء ، والبيوت تتزاحم إلي جانب بعضها البعض ، وهيئة الناس كامدة تقبض النفس . كل شئ غريب إلى أقصى حد ، وحيد ، ساكن ، عديم الحركة لا حول ولا قوة ، والمسافات البعيدة زرقاء خاوية ، تندمج بالسماء الشاحبة ، تتنفس برداً يقبض النفس على الطين نصف المتجلّد . إلا أن ذهن الكاتب ، شأن الشمس الخريف ، يضيىء الطرق التى عبّدتها الأقدام ، والشوارع المعوجة والبيوت المزدحمة التى يقضى فيها أبناء البشر

"الصغـار" أيام حياتهم التى تـبعث على الشفـقة ضمن جـو يسوده الملل والكسل ، يحاولون ملء مساكـنهم بالحـركة الذائبة الناعسـة التى لا معنى لها . فى مـثل هذا الجو تقع حوادث قصـصه مثل "الحبيـبة" والتى تروى قصة حياة امرأة لذيذة بسيطة كأنها فأرة رمادية صغيرة عصبية المزاج ، تحب دونما تمييز وبعـبودية كاملة ، امرأة لا تجـرؤ حتى على الصراخ لو صفَعـتها على خدها ، فهى عبد متـخاذل ليس لديه أدنى جرأة . وإلى جانبها تقف "أولجا" ذات الشخصية الكئيبـة الحزينة فى "الشقيقات الثلاث" وهى أيضاً قادرة عـلى الحب ، تستـسلم بصبـر وتجلّد إزاء النزوات السوقـية السـاقطة لزوجة أخيها وهو إنسان كسول ، عديم الاكتراث وتتحطم حياة أختيها أمام عينيهـا دون أن تأتى بأى حركة سوى البكاء ، ولا تجـرؤ حتى على تشكيل تعبـير احتجـاج قوى فريد حى ، حتى فى دخـيلتها ، تحتج فـيه على هذه السوقية والفظاظة .

وإلى جانب هـاتين نجد "رافنسكايا" وبقـية المالكين السـابقين لبسـتان الكرز الذين يتسـمون بأنانية الأطفـال وهشاشة العجـزة . هذا النموذج من الناس ، الذين يفترض فـيهم أن يكونوا قد ولّوا واندثروا منذ عهـد بعيد ، يكتـفون بالنواح وذرف الدمـوع غافلين عـما يدور حـولهم ، لا يفهـمون مدلولاته حيث أضـحوا مجرد مـخلوقات طفيلية غيـر قادرة على أن تسند عودها الهش وتعبث فيـه الحياة من جديد لتتمكن من الوقوف على قـدميها ثانية . أمـا الطـالب الـتافـه تروفيمـوث فهو لا يمل الحـديث عن ضرورة العمل ، ومع ذلك فـهو يبدّد وقته دون جـدوى ، ويتسلّى بإطلاق النكت التى يعوزها الذكاء ليسخـر بها من "فاريا" ويعيـرها بها ، على الرغم من أنها تعمل دونما توقف من أجل سعادة أولئك المتعطلين المحيطين بها .

أما " فيـرشينين " بطل "الشقيقـات الثلاث" فهو يحلم بحـياة بديعة

بعد ثلاثمائة عام ، ولكنه غافل عن كل ما يدور حوله بحيث لا يلاحظ أن كل شئ يتداعى ويتحطم وهو لا يحسّ بأن ساليـونى الذى يقف أمام عينيه مستعد لقتل البارون توزينباخ المسكين دون أى ذنب جناه هذا ، لمجرد أنه ، أى ساليونى ، يعانى من حياة تفاهة . . . مملّة .

ويتتـابع أمام عينى القـارئ موكب طويل من الناس الذين استـبد بهم الحب والغرام ووقعوا ضحية تفاهتـهم وكسلهم وجشعهم لمتاع الدنيا . إنهم عبيد الخوف الغامض من الحياة ، يتحركون وسط غمامة من القلق الذى لا يدركون كنهه ، ويملأون الجو بهلوسات غير مـفهومة حول المستقبل ، نظراً لأنهم لا يجدون لهم مكاناً فى الحاضر . . . .

ونسمع بين آونة وأخرى صـوت رصاصة تنطلق من وسط تلك الكتلة الرمـادية - وهنا نرى إيفانوف أو تريبليف يـلفظ أنفاسـه الأخيرة بـعد أن اكتشف الشئ الوحيد الذى يمكنه أن يقدم عليه .

ينغمس بعض أبطاله فى أحـلام وردية حول المستقبل العـظيم للحياة سيحل بعد مـائتى عام ، دون أن يسأل أحدهم نفسه : مـن الذى سيجعل هذا المستقبل عظيماً إذا كنا لا نفعل شيئاً غير أن ننغمس فى الأحلام؟

وهنا يمر إنسان عظيم ويشـهد هذا الجمع الممل الكئـيب من المخلوقات العاجزة ، ويرمق بـنظرة مدققة جمـيع من فى ذلك الجمع من سكان أرض وطنه الذين يقبـضون الانفاس ، ويـخاطبهم بلهـجة عتـاب رقيق ، ولكنه عميق وبسمـة حزينة ترتسم على شفتيه ، وسـمات حزن يائس تغلف وجه وتملأ قلبه . يخـاطبهم قائلاً : "مـا هذه الحياة المملة التى تعـيشونهـا أيها السادة ؟!!"

خمسة أيام من الحمى ، ولا أجد فى نفسى رغبة فى الراحة ، وحبات المطر الفنلندى القـاتم ترش الأرض وتغطيـها بغـبـار رطب ومدافع قلعـة "إينو" ترعد باستمرار . وفى الليل تنطلق ألسن طويلة من الأنوار الكاشفة

لتلعق الغيوم فى السماء ، منظر كريه مقيت يذكرنا باستمرار بذلك الداء الشيطانى - الحرب .

أقرأ تشيخوف ، وأقول لنفسى ، لو أنه لم يمت قبل عشر سنوات لقتلته هذه الحرب ، بعد أن تسممه أولاً بكراهية بنى البشر . وأتذكر جنازته .

نعش الكاتب الذى طالما أحبّه أهل موسكو حباً شغوفاً ينقل فى عربة خضراء كتب عليها بأحرف كبيرة بارزة "محار" وجانب من الجمع الصغير الذى تجمّع فى المحطة منتظراً جثمان الكاتب يتبع نعش الجنرال كيلر الذى وصل لتوه من منشوريا ، وهم يتساءلون لم ينقل جثمان تشيخوف إلى مثواه الأخير على أنغام فرقة موسيقى عسكرية . وحين يكتشف الخطأ يبدأ بعض الأشخاص المرحين يسخرون ويتضاحكون ضحكاً مكتوماً ساخطين ، كان الجمع الذى سار وراء نعش تشيخوف لا يزيد عن المائة فرد ، وأذكر بشكل خاص محامين ، كانا يرتديان حذاءين جديدين وربطتى عنق زاهيتى الألوان كأنهما عريسان ، كنت أسير خلفهما وسمعت أحدهما يتحدث عن براعة الكلاب . أما الآخر أخذ يتفاخر بكوخه الصيفى المريح وبجمال المنطقة التى تحيط به ، وهناك فى الجمع كانت امرأة ترتدى ثوباً أرجوانياً ، وتحمل مظلة من الدانتيلا ، وكانت تقول لرجل عجوز يرتدى نظارة حادة الزوايا وتؤكد له : "كان إنساناً حبيباً . . . كم كان ذكياً " .

ولكن الرجل العجوز سعل تعبيراً عن شكّه فيما تقول . كان يوماً حاراً مغبراً وكان يتقدم الموكب شرطى ، ضخم الجثة يمتطى حصاناً أبيض ضخماً ، كل هذا وغيره الكثير إنما كان ينم عن السوقية والفظاظة ، ولا يتناسب بأى صورة من الصور مع ذكرى هذا الفنان العظيم الحاذق الرقيق .

. . . .

في رسالة لسيفورين* العجوز يقول تشيخوف : "ليس هناك ما يقبض النفس ويخنق كل ما هو شاعري مثل الكفاح المضني من أجل البقاء ، فهو يخنق الفرح ويجمد المشاعر " ويقمعها .. "

هذه الكلمات هي تعبير عن المزاج الروسي في أقصى سماته ، وهو في رأيي لا يعبر عن أنطوان بافلوفيتش ،ففي روسيا ، حيث لدينا الكثير من كل شئ ، لكن الناس لا يظهرون حباً للعمل ، فإن معظم الناس ينحون هذا المنحي من التفكير ، فالروس يعجبون بالنشاط والطاقة ، ولكنهم لا يؤمنون بها في الواقع ، والكتاب الذي يمثل المزاج النشط ويعتبر رمزاً له ، مثل ، جاك لندن** مثلا لا يمكن له أن يوجد في روسيا وعلى الرغم من أن كتب جاك لندن مقروءة على نطاق واسع في روسيا ، إلا أنني لا أرى أنها تدفع الروس إلى الإقدام على الفعل ، بل تثير خيالاتهم فحسب ولكن تشيخوف لم يكن روسياً صحيحاً إذا أخذنا هذا المفهوم بعين الاعتبار . فمنذ أيام شبابه الأولى بدأ ذلك "الكفاح من أجل البقاء " وكان عليه أن يخوض غمار هذا الكفاح عديم اللون والذي لا يبعث على السعادة، وأن يتحمل هموم الحياة اليومية الوضيعة للحصول على لقمة العيش - وكان من الواجب أن تكون هذه اللقمة كبيرة لأنه عليها ألا تسد رمقه وحده فحسب بل رمق آخرين أيضًا ، ولقد سخَّر كل طاقات شبابه لهذه الهموم التي تعوزها السعادة والمرح ، والأمر المستغرب هو أنه استطاع رغم ذلك أن يحافظ على روح الدعابة لديه ، لم ير في الحياة إلا ذلك .

*صديقه وصاحب مجلة الأزمنة الحديثة .

** جاك لندن : كاتب أمريكي : ١٨٧٦ - ١٩١٦

الكفاح المضنى من أجل الحصول على الطعام والطمأنينة ، أما تراجيديا الحياة ودراماتيكيتها فقد كانت تختفى عن ناظريه وراء تلك الغلالة السميكة من أمور الحياة العادية ، ولذا لم يتمكن من إمعان النظر فى حقيقة مآسى الحياة تلك إلا حين تخلّص من معظم ذلك القلق حول كسب لقمة العيش للآخرين .

ويمكننى القول بأننى لم أصادق إنساناً يقدر أهمية العمل كأساس للرقى والثقافة بمثل العمق والتميز اللذين رأيتهما لدى أنطون بافلوفيتش ، وكان هذا الإحساس لديه ظاهراً فى كل أموره البيتية ، مهما صغر شأنها ، فى انتقائه للأشياء فى بيته وفى تقديره للأشياء فى حد ذاتها ، ودون أن تشوبه شائبة حب تجميع الأشياء فإنه لم يكن يتعب من الإعجاب بها باعتبارها نتاجاً للروح الخلاقة لدى الإنسان ، كان مغرماً بالبناء ، وزرع الحديقة ، وتزيين الأرض ، كان يحس بشاعرية العمل وكان يرقب بعناية تمس شغاف القلب نمو أشجار الفاكهة والشجيرات الصغيرة التى يزرعها بنفسه ، وفى غمرة انشغاله بأمور لا تعد ولا تحصى حين كان يبنى بيته فى أوتكا يقول : "لو أن كل إنسان فى العالم فعل كل ما بوسعه فى الرقعة التى تخصه ، فكم سيكون العالم جميلاً بديعاً ...." .

كنت حينذاك أكتب مسرحية "فاسيلى برسلاييف" وقد قرأت له المونولوج المتفاخر الذى يناجى به فاسيلى نفسه :

لو كانت لدىّ قدرة أكبر .

لذوبت الثلج المحيط بى بانفاسى الحارة . .

ولانطلقت فى العالم وحرثت أرضه .

ولا نشأت بلدات ومدناً عامرة .
وبنيت كنائس وزرعت بساتين .
وحينئذ ستبدو الأرض كفتاة حلوة .
كنت سأحملها بين ذراعى كأنها العروس .
وأضم الأرض إلى صدرى .
وأرفعها وأقدمها للخالق .
هل ترى يا ربى ؟ انظر إلى الأرض من عليائك .
أترى كم جعلتها جميلة ؟
لقد ألقيت بها وكأنها حجر من السماء .
وأنا صنعت منها جوهرة .
انظر إليها وليفرح بها قلبك .
هل ترى كم أصبحت خضراء ، تلتمع تحت نور الشمس .
كنت أقدمها لك طوعاً .
ولكنى لا أقدر ، فهى أثيرة لدىّ!

وقد أعجبت تشيخوف هذه المناجاة ، وسعل بعصبية وقال لى وللدكتور أليكسين : "رائع .. هذا رائع ، حقيقى ، إنسانى هنا يكمن "معنى كل أنماط الفلسفة " لقد سكن الإنسان هذا العالم ، وسيجعله مكاناً جميلاً لسكناه " وأخذ يهز رأسه مؤكداً ما يقول ، وأضاف : "أجل هذا ما سيفعله! "

ثم طلب منى أن أقرأ مناجاة فاسيلى ثانية ، وأنصت وعيناه تسبحان عبر النافذة ،ثم قال : الشطران الأخيران غير مناسبين ، فيهما تحد وإسراف فى القول .

كان مقلاً فى حديثه عن عمله الأدبى ، وإن فعل يتحدث مرغماً ويمكننى القول بأنه كان حينئذ يتحدث بتحفظ العذارى يتحدث به عن ليو تولستوى ، وفى أحيان نادرة ، حين تكون معنوياته عالية ، فقد يروى حبكة قصة وهو يتضاحك - دائماً قصة ساخرة .

" أتدرى ؟ سأكتب قصة حول مديرة مدرسة ، إنسانة ملحدة ، تعبد داروين ومؤمنة أشد الإيمان بضرورة مكافحة التعصب والخرافات ، ولكنها هى ذاتها تذهب إلى الحمام عند منتصف الليل لتميت قطة سوداء كى تنتزع منها العظمة ذات الشعبتين لكى تستعملها فى اجتذاب رجل ولدفعه لمحبتها ، هنالك عظمة من هذا النوع ، أتعرف ذلك ؟ "

يتحدث دوماً عن مسرحياته باعتبارها مسلية ، وكان يبدو عليه الاقتناع الكامل فى الواقع بأنه يكتب "مسرحيات مسلّية " ولا شك بأن سافا موزوروف كان يردد كلمات تشيخوف نفسه حين كان يصرّ بكل عناد على أن من الواجب تقديم مسرحيات تشيخوف على أنها مسرحيات كوميدية شاعرية .

ما يثير الإعجاب ، خاصة حين يتعلق الأمر بالأدباء "المبتدئين " فقد كان يقرأ المخطوطات المطّولة لـلازاريفسكى وأوليجر وغيرهما بكل صبر وأناة ، وبصورة تثير الإعجاب .

كان يقول : "إننا نحتاج للمزيد من الكتّاب ، فالأدب مازال شيئاً جديداً فى حياتنا اليومية ، حتى بالنسبة للنخبة ، هنالك كاتب لكل مائة وستة وعشرين شخصاً فى النرويج أما لدينا فى روسيا ، فهنالك كاتب واحد لكل مليون من الناس " .

غير أن الداء الذى كان يعانى منه كان يجعل مزاجه أحياناً مزاج شخص مراقى يتوهم المرض ، أو قد تصل به الأمور إلى حد تجنّب

الآخرين، وفى مثل هذه الحالات يصبح ميالاً للنقد المبالغ فيه ، كما يصبح التعامل معه صعباً للغاية .

كان يتمدد فى أحد الأيام على مقعد طويل ويسعل سعالاً جافاً ويبعث بميزان الحرارة ، ثم قال : "أن تعيش كى تموت فحسب هو أمر لا يبعث على السرور " أما أن تعيش وأنت تعلم بأنك ستموت قبل الأوان ، فهو أمر غبى لا معنى له " .

وفى مرة أخرى كان يجلس خلالها أمام نافذة مفتوحة ويحدق فى الأفق البعيد على البحر ، وقال فجأة بلهجة مليئة بالنكد : "لقد اعتدنا على أن نعيش ونحن نأمل بالطقس الحسن والحصاد الجيد ، وبقصة حب لذيذة .

يأمل المرء بأن يصبح غنياً ، أو رئيس شرطة . ولكنى لم أر إنساناً واحداً يحلم بأن يصبح أكثر حكمة . إننا نقول لأنفسنا دوماً : سيصبح وضعنا أفضل إذا حكمنا قيصر آخر ، وأن حالتنا ستكون أحسن بكثير مما هى عليه الآن بعد مائتى عام . وليس بيننا من يحاول أن يجعل هذا الوقت الحسن يأتى فى الغد . الحياة إجمالاً تصبح أكثر تعقيداً يوماً بعد يوم ، وتمضى حسب مزاجها هى . أما الناس فإنهم يصبحون أكثر غباءً ، وعدد أولئك الذين يضحون أكثر عزلة هو فى ازدياد مستمر " .

وبعد أن توقف لفترة وجيزة تابع القول وقد بدت التجاعيد على جبينه: كأن الناس متسولون مصابون بالكساح ، يمشون فى موكب دينى! " .

كان طبيباً ، ومرض الطبيب دوماً أسوء من مرض من يعالجهم . . فهم يشعرون بالآمهم فقط ، أما الطبيب فبالاضافة لهذا الشعور فهو يدرك طبيعة الداء الذى يدمّر بنيته ، وهذه حالة تجعل المعرفة أمراً يقرّب الموت .

كانت عـيناه ساحـرتين حين يضحك إذ تبـدو فيهـما حـينذاك رقة أنثوية، شئ من النعومة والحنو وفى ضحكته غير الضاجة إجمالاً هناك شئ جذاب وحين يضـحك فهو يـستمـتع بضحكه ، ولـم التق قط بإنســان مثله يضحك ضحكاً "روحياً "

القصص الماجنة لم تكن تضحكه على الإطلاق .

ولقد قـال لى مرة وهو يـضحك ضحـكته السـاحرة الحانيـة إياها :

"أتدرى لماذا يتقلب تولسـتوى فى أسلوب تعامله مـعك ؟ إنه يغار ، وهو يخشى بأن سولر زيتـسكى ربما كان يفضلك عليه ، هذا صحـيح ولقد قال صحيـح ، وقد قال لى بالأمس : "لا أدرى ما الحكاية ، ولكنى لا أشـعر بأننى على طبيعتى حين أكون مع جوركى ، لا أحب أن يعيش سولر معه ، فهذا غيـر حسن بالنسبة لسولر ، جـوركى فاسق ، وهو مثل طالب يدرس اللاهوت أجـبر على أداء قـسم الرهبان ، وهو يـتشكى ويتظلم من العـالم كله: إن له روح رسول جاء من مكان ما إلى أرض كنعان وهى أرض غريبة بالنسبة له ، وهو يجول بناظريه فيما حـوله باستمرار ليتبين كل ما يحيط به وليقدم عنه تقريراً لإله يخصـه هو بالذات وإلهه وحش ، عفريت الغابة أو عفريت الماء الذى تخاف منه النساء الريفيات .

وقد ضحك تشيخوف حتى دمعت عيناه وهو يروى ذلك ، ثم أضاف وهو يمسح دموعه :

- قلت له إن جـوركى إنسان جـيد ولكنه قـال : "لا . . لا تقل لى ذلك له أنف كمنقـار بطة، ولا يملك مثل هذا الأنف إلا من كان مـزاجهم نكد ، النساء لا يحببنه ، هنّ كالكـلاب ، يدركن بالغريزة الإنسان الجيد ، أما سولر فلديه مزية الحب الذى لا تشوبـه الانانية والمصلحة وهى موهبة لا

تقدر بثمن إنه عبقرى من هذه الناحية ، ومن يقدر على الحب قادر على كل شئ . . " وبعد توقف تابع تشيخوف يقول " "العجوز يغار، أجل أليس هذا رائعاً ! " .

كلما تحدث عن تولستوى كنت تلحظ فى عينيه ابتسامة لا تكاد تبين ، ابتسامة حانية ومجلة فى آن واحد ، وكان يخفض صوته حينذاك وكأنه يتكلم عن شئ رقيق هش وغامض ، عن أمر ينبغى التعامل معه بعناية وحب .

كان يشتكى دوماً من عدم وجود شخص مثل إيكرمان* إلى جانب تولستوى كى يدونّ أقوال العجوز الحكيم ، تلك الأقوال الحادة الذكية التى ينطق بها فجأة وتكون متناقضة فى كثير من الاحيان .

وقد قال لسولر زيتسكى بتأكيد : عليك أن تقوم بهذه المهمة مع تولستوى ، فهو يحبك ويقول لك الكثير ، إنه يتفوه بأشياء رائعة" أما عن سولر نفسه فقد قال تشيخوف : "إنه طفل حكيم" ، وهذا قول ينطبق عليه تماماً .

سمعت تولستوى يمتدح إحدى قصصه مرة ، وأعتقد أنها قصة "الحبيبة" قال " إنها مثل الدانتيلا التى تنسجها فتاة عذراء عفيفة طاهرة ، كانت هنالك فى الماضى فتيات ينسجن الدانتيلا ، وكن ينسجن أحلام حياتهن طوال الوقت فى داخل رسوم الدانتيلا التى يشكلنها ، ينسجن فيها أعزّ أحلامهن بحيث تصبح تلك الدانتيلا مشبعة بتطلعاتهن الغامضة النقية عن الحب. كان تولستوى يتحدث بعاطفة جياشة والدموع تترقرق فى عينيه.

*يوهان بيتر إيكرمان كاتب ألمانى ١٧٩٢ - ١٨٥٤ .

ولكن تشيخوف كان يعاني من الحمّى في ذلك اليوم وكان يجلس مطأطئ الرأس ، وقد ظهرت بقع وردية رقيقة على وجنتيه ، وأخذ يمسح نظارته مرة بعد مرة لم يتفوه بكلمة واحدة لفترة طويلة ولكنه تنهّد في النهاية وقال بصوت خافت ولكنه غريب : "كانت فيها بعض الأخطاء المطبعية " .

يمكن أن يكتب الكثير عن تشيخوف ، ولكن هذا يتطلب سرداً دقيقاً متأنياً ، وهذا مالست بارعاً فيه والطريقة التي يجب أن يكتب فيها عن تشيخوف هي نفس أسلوبه في كتابة قصته "السهوب " ، قصة روسية حقة، عابقة بالشذى ، تجرى في الهواء الطلق ، متأملة ، يشوبها أسى وتوق ، قصة يكتبها الإنسان لنفسه .

ما أحسن أن يتذكر المرء إنساناً من هذا النوع ، فهو يحس وكأنما هو طيف من السعادة والإنشراح ، يزوره ليعطيه معنى واضحاً للحياة من جديد .

الإنسان هو محور الكون . .

قد تتساءل : وماذا عن نقائص الإنسان ورزائله .

وهنا أقول : إننا نتوق جميعاً لمحبة إخواننا من بني البشر ، وحين يكون الإنسان جائعاً يتوق للطعام فإن رغيفاً نصف ناضج يصبح له طعم حلو لذيذ في فمه .

مكسيم جوركي

١ - محيط الأسرة

"بدأ أبى فى تعليمى ، أو بتعبير أبسط ، بدأ يضربنى قبل أن أبلغ الخامسة من عمرى " هذا ما كتبه أنطون تشيخوف حول ذكريات طفولته المبكرة حيث يقول : "كان أول ما يخطر لى حين أستيقظ فى الصباح هو : " هل سأضرب هذا اليوم ؟ : . بل إنه وصف أحد أصدقائه فى المدرسة بأنه كاذب حين ذكر له بأنه لم يضرب فى البيت قط . . والعادة المتبعة كانت هى أن يطأطئ رأسه والألم يلهب مؤخرته بعد أن يضرب ليقّبل اليد التى عاقبته بكل تلك القسوة والعنف .

كان "بافل ييغوروفيتش " والد أنطون تشيخوف ، مقتنعاً كل الاقتناع بأن كل أفعاله تتماشى تماماً مع إرادة إله تربطه به علاقة طيبة ، وبذا كان يحكم أسرته بقبضة من حديد ، أما زوجته "يجينيا ياكوفليفنا" وهى امرأة وديعة من النمط التقليدى إلى حد كبير ، وأبناؤه ألكسندر ونيكولاى وأنطون وإيفان وميخائيل وابنته ماريا * فكانوا يرتعدون خوفاً حين يرتفع صوته مجلجلاً فى حضرتهم .

غير أن بافل ييغوروفيتش لم يكن يوزع عقوباته بكثير من الغضب أو تعمد الأذى ، بل كان يحب أبناءه بطريقته الخاصة ويعتقد بينه وبين نفسه بأنه إنما يمد لهم يد العون حين يعاملهم بهذا الأسلوب القاسى ، وبفعل انسياقه وراء مبادئه الطموحة فإنه لم يكن يبالى بالتمييز بين الأخلاق والعصا، وكان السبيل الذى اختاره ليغرس الحقائق المقدسة فى نفوس أبنائه

* ولد ألكسندر فى عام ١٨٥٥ ، ونيكولاى ١٨٥٨ ، وأنطون ١٨٦٠ وإيفان ١٨٦١ ، وماريا ١٨٦٣ وميخائيل ١٨٦٥

يقــوم على الصراخ والضــرب ، مبــرْراً عنفه هذا لزوجــته قــائلاً : "هكذا تربيت ، وإليك كيــف أصبحت " وفي وقت لاحق يقــول تشيخــوف بنبرة حزينة : "كان سادة جدّي يضربونه ، كما أن أحقر موظف كان يستطيع أن يصفــعه على وجهه بكل قــسوة ، ولذا كان يضرب أبى الذى أخــذ يضربنا بدوره أيضاً أى نوع من الأعصــاب والدم هذا الذى ورثناه ! " وفى موضع آخر يقول : "لم أنعم بأية طفولة إبآن طفولتى " .

كانت يفــجينيــا ياكوفليفنا " تحــاول وسعهــا أن تكبح جمــاح غضب زوجها ، غــير أنها لم تكن تستطيع مــجادلته أو محاولة إقــناعه نظراً لأنها تفتقــر لأى قدر من قوة الشخصيــة ،خصوصاً بعد كل ما كــانت تعانيه من إرهاق بفعل إنجابهــا ستة أطفال خلال فترة وجــيزة ، بل إن ربّ العائلة لم يكن يتورع فى الحــقيقــة عن معاملتــها وكأنها مــجرد خادم ، ولقــد كتب أنطون لشقيقه الأكبر الكسندر حين كبر فقال :

"هل لى أن أذكّرك بأن الاستبداد والكذب حطمّا شباب أمّك ، بل إن الاستبداد والكذب شوّها طفولتنا بحيث أن مجرد التفكير بذلك يبعث على القرف والرعب .

ألا تتذكــر مدى الهلع والاشمــئزاز اللذين كنا نشــعر بهمــا حين كان والدى ينفجر فى إحدى ســورات غضبه أثناء العشاء واصــفاً أمى بأنها امرأة غبــية لمجرد أن الحــساء كان مالحــاً قليلاً . . . من الأفــضل للمرء أن يكون الضحية على أن يكون الجلادّ " .

وحين يتذكر أنطون أمّه فإنه لا يتذكرها إلا وهى منهمكة فى المطبخ أو منكبة على آلة الخــياطة ، أليس لديها ســتة أطفال عليــها أن تجهــد لتأمين طعامهم وكســائهم ؟ كلّ ما يحزنها هو السرعة التى تبــلى بها ملابسهم أو

تضيق وتقصـر عليهم . يستبد بهـا القلق باستمرار كيف ستـتدبر "أمورها بحيث يمكنها أن تكسوهم باستمرار : تطيل هذا المعطف وترفع هذا السروال فكلّها غالية الثمن .

ورأسها مشغول باستمـرار بجمع وطرح الكوبيكات ،خشية أن يعنفها زوجها ويتهمها بأنها ربة بيت رديئة .

والخوف من التأنيب كان يعذّب أنطون باسـتمرار ، بحيث كان ينكبّ على كتاب قواعد اللاتينيـة وهو يدعو الله بأن يمر اليوم دون وقوع حادثة ، ولكنه سرعان مـا يسمع وقع أقدام تقترب مـن الباب ، وما يلبث والده أن يدخل بجسمه الضخم ومنكبيه العريضين ولحيـته السوداء وحاجبيه الكثيفين نظرة متـغطرسة تلوح فى عـينيه ، ومـعطف شتـائى سميك يغـطى ظهره وجزمة جلدية تكسو بطنى ساقيه ، ويبادر مخاطباً أنطون قائلاً:

"لدى عمل لا بّدلى من إنجازه يا انطوشا . . هيـا إلى الحانوت لتتابع الأمور وتتأكد بأنها تسير على ما يرام . . "

ويحتج أنطون والدمـوع تطفر من عينيـه : "ولكن الحانوت بارد وأنا أرتجف منذ أن غادرت المدرسة "

"كلام فارغ ، البس ملابس مناسبة ولن تشعر بالبرد " .

لدى الكثير من الواجبات المدرسية ليوم غدا " .

"يمكنك أن تنجزها فى الحانوت . هيا أسرع وانتبه لكل شاردة وواردة هيا بسرعة ولا تتباطأ فى الطريق* .

* هذا الحوار والمشهد الذى يليه مقتبسان من مذكرات الكسندر ، الشقيق الأكبر لأنطون تشيخوف

هنا يضع أنطون قلمه ، وبما عرف عنه من لين العـريكة يرتدى معطفه المدرسىّ المدرب وحذاء متـشققاً فى قدمـيه ، ويتأبط كتاب قـواعد اللاتينية ويتبع أباه مـختفـياً فى ظلام الشارع المتـجلّد ، الحرارة قطبـية وأتوريوشكا وجافريوشكا الفلاحان الأوكرانيان ضئيلا الحجم واللذان يخدمان الزبائن فى الحانوت ، يضـربان الأرض بأقدامـهما ويفـركان وجهـيهـما المزرقّين فى محـاولة لتدفـئة جسديهما ، ومـا أن يطل سيدهما حتى يعتـدلا فى وقفة انتباه ، فـيأمر بافل بيغورروفيـتش أنطون بأن يجلس وراء الطاولة تحت وبعد أن يرسم شارة الصليب عـدة مرات الايقونة التى تحرس الحـانوت ينسحب بخطى متثاقلة ضاجة .

وحينذاك يتنشق أنطون ما يسيل من دموعـه ومفرزات أنفه ، ثم يجثم فوق صندوق صابون ويفتح كتاب قـواعد اللاتينية ويضعه فوق الطاولة وهو يحاول ببـسالة أن يستكمل واجـبه ضئيـلا ولكن ريشته تصطدم بطبـقة من الجليد حين يغمسها فى دواة الحبر ، فى حين يستأنف المعاونان ضئيلاً الجسم قفزهما صـعوداً وهبوطاً وهما يثرثران ويتضاحكـان خفية . ويدخل الزبائن ويخرجـون وأصواتهم تدن وترتد تحت سقف الحـانوت المنخفض ، وهكذا يحول الصـخب والضجيج بينه وبين الاستـرسال فى أحلامه ، فـما بالك بدروسه ! ويدرك أنطون أنه سيـبقى حبيساً فى الحانوت لسـاعات وساعات كلما خرج والده لزيارة أصدقائه أو الصلاة فى الكنيسة فإنه ينسى وجود ابنه ذاته ، وهكذا يسحب أنطون ذراعـيه داخل كمّى معطفـه ، ويطوى أصابع قدميه داخل حذائه ، ويأخذ يفكر بالعلامات السيئة التى ستكون من نصيبه فى اليوم التالى ، ويغمره احساس بالرعب والبؤس يصل إلى درجة الخدر .

يضم الحـانوت المظلم القـذر كل أنواع البضـاعـة ، إذ بالإضافـة إلى الخضروات هنالك الزيوت والفـوانيس والشموع والسكاكين الصغـيرة والتبغ

والمسامير والملّينات وتتكدّس صناديق الشـاى على الرفوف إلى جانب أكياس الشموع ، فى حين ترتكز أكـياس الطحين على أكياس بذور عـباد الشمس وتتدلى فوق المنضـدة حبال النقانق إلى جانب حـبال السكاكر. وتطلق هذه البضـائع روائح مركـبة مـتضـاربة إذ تختلط رائحـة القهـوة بالزيت والرز بالشحم. وتعلو الـباب لافتة سـوداء كتب عليهـا بأحرف ذهبيـة: "شاى ، سكر ، قهوة " بضائع متفرقـة - يمكنك أن تحملها الى البيت أو تشربها فى المحل " وفى طرف اللافتـة دعوة للزبائن لتناول قدح أو اثنين من الفـودكا فى غرفـة صغيرة ملحـقة بالحانوت . ولقد حـول عدد من الروّاد الدائمين الغرفة المغبرّة فاسدة الهواء إلى نوع من النادى الذى يجتمعون فيه ليلاً حول أباريق المشروب الصغيرة المستديرة . وبعـد مرور وقت قصير تشتعل الوجوه وتنطلق الألسن . وكان أنطون ينزل إلى الـقبو لإحضار المزيد مـن الفودكا للزبائن فى أوقات غياب والده ، كما يلبى طلباتهم ويهيئ فواتيرهم ويتلقى ثمن ما يشربون لـم تكن الفودكا غالـية الثمن فى روسيا ، ويمكن للمرء أن يصل إلى درجة السكر بكوبـيكات قليلة . كان الشاربون يتـبادلون النكات الفظّة ، وفى كل مرة ينوى فيها أحدهم أن يروى قصة مكشوفة بعض الشئ يقول لأنطون : "لا تنصت لهذه يا أنطوشكا ، فمـا زلت صغيراً على هذه الأمور " ولكن أنطون يسـمع كل ما يقال ، ويخـمن معانيـه ويفهمـها ، وهكذا، وعلى الرغم من صـغر سنّه فـقد خبـر البؤس والبـشاعـة والخدر والتفاهة خبرة مباشرة .

كان الحانوت يفتح أبوابه منذ الخامسة صباحاً حتى الحادية عشرة ليلاً. وللوصـول إلى المرحاض الواقع فى قطعـة أرض خلاء كـان على أنطون أن

يقطع مسافة فرسخ* وقد كتب عن ذلك فيما بعد يقول " كنت أجدنى وجهاً لوجه ، وأنا أسير فى ذلك الطريق وسط الظلام فى بعض الاحيان ، أمام متشرد اتخذ من ذلك المكان ملجأ إليه فى تلك الليلة ، ويا للرعب الذى يتابنا كلينا فى تلك اللحظة ! " .

وفى النهاية يأتى أحد العاملين فى الحانوت من موضع المراقبة الذى كان يقف فيه خارج الحانوت وهو يصيح : "أبوك قادم ! " فيعتدل أنطون فى جلسته ويفرك عينيه الناعستين ويهئ نفسه وهو يرتعد لحفلة تأنيب ، أما بافل ييغوروفيتش فيتفحص المكان بعينى نسر ، ثم ينكب على الحسابات لمراجعتها. ويحبس أنطون أنفاسه ، فالويل له إن كان هناك أى خطأ فى الجمع ، وحين يعود إلى البيت متجمداً ومرهقاً حتى العظم تعمد أمه لمواساته وتستجمع شجاعتها بين وقت وآخر لتلمح بكل أدب بأن العمل ربما كان يفوق طاقة الصبى ، ولكن بافل ييغورفيتش يجيبها قائلاً : "عليه أن يعتاد على ذلك إننى أعمل ، فلم لا يفعل هو أيضاً ؟ أليس على الأولاد أن يعينوا آباءهم ؟"

" ولكنه يقضى الأسبوع كله فى الحانوت . دعه يستريح يوم الأحد على الأقل ! " .

"لم يستريح ، بل سيجعل من نفسه مسخرة وهو يركض فى الشوارع مع شلة من الصبيان المزعجين . كما أن الغلمان فى الحانوت سيمدون أيديهم إلى الحلوى إن لم يكن الأولاد هناك ، وبعد ذلك ستمتد أيديهم إلى النقود أيضاً" .

وإذا حدث أن اشتكى أنطون بوجل من أنه غير قادر على إتمام دروسه

*الفرسخ يساوى ١٠٦٧ متراً أى أطول من كليو متر واحد .

بسبب البرد والزبائن الـذين يترددون على الحانوت يهدر بافل ييغـوروفيتش حينذاك ولحيـته تهتز . "ولكننى أجد الوقت الكافى لأقرأ اثنـين من مزامير الانجيل كل يوم ، وأنت لا تستطيع أن تتم درساً واحـداً ! " وكانت كلمته الأثيرة دائماً هى البضاعة تبكى حين يغيب أصحابها " ، وإن كان هو قلّما يتواجد وراء طاولته فى المحل ، أليس لهذا إنما يولد الأبناء ؟!!!

كان كابوس الحانوت بالنسبة لأنطون يوازى كابوس الكنيسة ، فقد كان بافل ييعوروفيتش مهووساً بالدين بحيث كان يقضى معظم وقته وهو يصلّى أو يقرأ الكتب الدينية ، ومـا كان يسحره فى ممارسة طقوس عـقيدته ليست المدارك الحسية المسـيحية بشكل أساسى ، بل السحـر الغامض المتسلل الذى يرافق أداء تلك الشـعائـر ، ولمعان الأيقـونات وإطاراتهـا المذهبة ، وأبهـة مواكب الكهنة بأرديتهم الكهنوتيـة أثناء القداس ، والنغم الثاقب للتراتيل ، والركـوع المتكرر ، ورسم إشارة الصليب ورائحـة البـخور الأخـاذة . كان يطلب من أولاده أن يرافـقـوه لأداء الصلوات الرئيـسيـة كل يوم . وبما أن الكنائس الأرثوذوكسية لا تحتوى أية مقاعد كان على الأطفال أن يقفوا على أقدامـهم الساعـات الطوال ورؤوسهم تدور وهم يتـابعون الطقوس الـدينية المهيبة .

ولكنه سرعان مـا وجد أن هذا الدأب وحده لا يكفى ، وبما أنه وّهب صوتاً لطيفاً وأذناً موسيقية فقد قرر أن يشكلّ جوقة كنيسّة ، كانت التمارين تتم فيما بين الساعة العاشرة ليلاً ومنتصف الليل فى الغرفة الملحقة بالحانوت ومعظم أفـراد الجوقـة هم من الحدادين ذوى الاقـفـاص الصدريـة القوية ، ولموازنة أصواتهم الجـهورة الرجولية العالـية ، استعان رئيس الجـوقة بأبنائه

حيث أعطى ألكسندر ونيكولاي دور الندى (السوبرانو *) وأنطون دور الألتو ** .

كانوا يجلسون على صناديق الصابون حول إحدى الطاولات وهم ينشدون عظمة الخالق على أنغام كمان بافل يغوروفيتش وهو يقول : "المترهبنون الجدد يتلون الصلوات وينشدون التراتيل طوال الليل ، وهذا لا يؤذيهم ، والغناء الكنسى يقوّى صدور الأطفال ، ولقد دأبت على الغناء منذ كنت طفلاً وها أنذا بصحة جيدة ولله الحمد ، فالتقرب من الله لا يمكن أن يكون خطأ على الإطلاق " .

وبفضل صلاته فى الأوساط الكنسية كان يحظى بارتباطات غناء كثيرة، وهو أمر كان يدغدغ كبرياءه ، ولكنه يغرق أبناءه فى غياهب اليأس. وكان أنطون بالذات يرتعد من أيام الأحد والعطلات حيث تبدأ الصلوات فيها فى وقت مبكر . ولذا كان بافل يغوروفيتش يعمد إلى إيقاظهم قبل الوقت المحدد بساعتين أو ثلاث ساعات ليستعدوا جسداً وروحاً لممارسة الطقوس المقدسة فى ذلك اليوم . وعلى الرغم من أنهم يعودون إلى البيت مرهقين فإنه يفرض عليهم إعادة الطقوس ثانية وهو يلوّح بالمبخرة يمنة ويسرة بكل أبهة أمام الأيقونات ، آمراً أفراد العائلة أن يشاركوه فى ترديد التراتيل . وما يلبث الوالد والوالدة والأطفال أن ينبطحوا أرضاً وهم يضربون رؤوسهم بالأرض رافعين أصواتهم ابتهالاً إلى الله ، إلى أن يحين وقت صلاة الفجر الأخيرة . وحين تدق الأجراس ثانية يعودون فى

* الصوت الأعلى عند النساء والأطفال .

** أخفض الأصوات فى أصوات النساء .

موكب آخر إلى الكنيسة . ولقد كتب تشيخوف إلى صديقه إيفان ليونيتييف - تشيخوف في ٩ آذار / مارس ١٨٩٢ يقول وهو يتذكر هذه الأمور : "تلقيت تعليماً دينياً فى طفولتى غناء فى الجوقة ، قراءة الرسائل الانجيلية والمزامير فى الكنسية ، حضور صلاة الصبح والقيام بمهمات صبى المذبح ودق أجراس الكنيسة . فماذا كانت النتيجة ؟ حين استعرض ذكريات طفولتى أجدها قاتمة جداً ، ولست متديناً الآن وحين كنت وأخوتى نغنى "فلتصعد صلاتى إلى السماء " أو "صوت الملاك" فإن الجميع كانوا يحدقون بنا والانفعال يغمرهم ، كانوا يحسدون أبوينا . أما نحن فكنا نشعر وكأننا أطفال محكومون . طفولتنا كانت عذاباً خالصاً " .

ولكن ، وعلى الرغم من ضيق أفق بافل ييغوروفيتش وأساليبه الفظة، فقد كان يمتلك ذوقاً فنياً من نوع ما ، إذ لم يعلّم نفسه العزف على الكمان فحسب بل كانت له محاولات تجريبية وقورة لرسم الأيقونات* ، ولقد قال تشيخوف : "لقد ورثنا الموهبة عن أبينا والروح عن أمنا" .

غير أن كل تلك الصلوات والشموع التى احرقت أمام الأيقونات المقدسة لم تحل دون الانهيار المستمر لحانوت بافل ييغوروفيتش ، فقد كانت طريقته الفظة ضيق أفقه وبخله الشديد أموراً تصدم زبائنه ، كما أن بضاعته كانت من أصناف متدنّية دون شك ، وحين غرق فأر فى أحد براميل الزيت. فى يوم من الأيام لم يسمح لنفسه بالتخلص من الزيت ، فكيف يوازن بين النزاهة المطلوبة منه كمسيحى وبين الألم الذى سيعانى منه إذا ما

* حرص تشيخوف على الاحتفاظ ببعض هذه الأيقونات وهى موجودة الآن فى متحف تشيخوف فى يالطا

تخلّص منه ؟ وبإلهـام إلهى استـدعى قسـاً طلب منه أن يتلو صلوات على الزيت النجس كى يتطهـر ، ولكن أخبار هذه الصلوات التى جـرت ضمن نطاق من السرية التامة لم تلبث أن انتشرت ، فلم يجد الزيت أحداً يشتريه على الرغم من كل التعـاويذ التى تليت عليه ، بل إن الناس الناقـمين عليه اعتقدوا أن كل محتـويات الحانوت قد تلوث ، ولذا لم يبق على إخلاصهم له غير مدمنى الخمر الذين يرتادون الحانوت .

وإلى جـانب تأرجـحه المسـتـمر بـين الاستـبـداد والتبـتّل فـإن بافل يبغـوروفيتش لم يكن بالشخص الذى يمكن وصـفه بالنجاح كتـاجر ، ومع ذلك فقد كـان عضواً فى الغرفة التـجارية لتاغاروج ، يتبـاهى بإبراز شعار الغرفة الذى يعلقه فى سلسلة ، ولم يكن يغادر باب بيته فى يوم الأحد إلا مرتدياً القبعة الرسمية السوداء والقميص الأبيض . ولا شك بأنه كان فخوراً بالمستـوى الذى حقـقه لنفسـه فى دنياه ، إذا أخـذنا بعين النظر البيـئة التى ينتسب إليها أصلاً .

فقد ولد والـده ، أى جد أنطون لأبيه يبغـور ميخايـيلوفيـتش شيك ، ولُد قنّا ولكنه بفـضل براعته وعـمله الدؤوب واقتصـاده أفلح فى أن يصبح مدير مـصفاه السكر التى يمتـلكها سيـده ، وكان قد تعلم القـراءة والكتابة والحساب، كما كان يتوقع أن يحذو أبناؤه حذوه ، واستطاع فى عام ١٨٤١ أن يشتـرى حريته وحرية زوجـته وثلاثة من أبنائه بمبلغ كـبـير من المال يبلغ سبعمائة روبل لكـل منهم ، وعلى الرغم من أن ماله نفد حين وصل الأمر إلـى ابنته الوحيدة ، غير أن سيـده ، الكونت تشيخوف ، كان إنساناً كريماً فمنحه ابنتـه كجزء من هذه الصفقة ، ومـا أن أصبح يبغور ميخـائيلوفيتش حراً حتى استطاع ، بفضل سمعته كإنسان حازم شريف ، أن يحصل على

وظيفة الوكيل المسؤول عن الأملاك الواسعة للكونتيسة بلاتوفا والواقعة بين "تاجانروج" و"روستوف أون دون " كما لم يتمسك باسم "تشيك" الذى يوحى بنغمة احتقار بل اتخذ لنفسه اسم تشيخوف .

وعلى أمل ضمان مستقبل أبنائه شغّل ابنه ميخائيل كصبى متدرب فى محل لتجليد الكتب فى كالوجا ، ومتروفان فى حانوت بقال فى روستوف وبافل لدى رئيس بلدية تاجا نروج ، وهو تاجر ثرى ، ولقد تحمل بافل يغوروفيتش مسؤولية كبيرة ككاتب حسابات ، إلا أنه أذعن لفترة عمل امتدت عشر سنوات على الرغم من المعاملة السيئة ، وإن كان يقضم ما تستطيع يداه الوصول إليه خفية وبطريقة لا تلفت الأنظار ، وفى ٢٩ تشرين الأول / أكتوبر ١٨٥٤ تزوج بافل من يفيجينيا باكوفليفنا موروزوفا ، وكانت شأنه تنتمى إلى أسرة من الأقنان .

كان والد يفيجينيا تاجر قماش من مورشانكسى مات فى وباء كوليرا خلال رحلة عمل إلى نوفوشيكاسك ، وحين تلقت زوجته نبأ موته بينما كانت تزور أقارب لها فى مقطاعة فلاديمير التى تقع فى الزاوية المقابلة من روسيا استأجرت عربة وبدأت رحلة خطرة لانهاية لها للتعرف على ضريح زوجها ، وكانت يفجينيا تحب أن تروى لابنها أنطون قصة عن هذه الرحلة التى عبروا خلالها السهول والغابات وأن تحدثه عن بهاء السهوب المقفرة ، وعن التقائهم بقديسين حمقى ، متجولين ، وعن الليالى التى كانوا يقضونها فى حانات مشؤومة بحيث كانوا يسدّون الأبواب بالمتاريس خوفاً من قطاع الطرق. وبتقدمهم جنوباً أخذت شاعرية تلك المناطق تبدد المخاوف والتوتر بحيث بدأت العائلة ، بعد أن تحررت من مصادر القلق السابقة ، تنام فى العراء أحياناً تحت ظل سماء شفافة لا يبدّد صمتها إلا

أزيز الجدجد أو صرخة نفاذة من طائر ليلى عابر . ظل أنطون يتذكر قصص أمه هذه طوال حياته وضمن البعض منها فى كتابه "السهوب" بأسلوب يفيض بالأحاسيس ، بحيث تشعر وكأن تشيخوف عايش هذه القصص بنفسه بالفعل . ظل قبر جده موروزوف مجهولاً إلى الأبد ، أما أرملته فلم تجد لنفسها من مخرج إلا أن تحطّ الرحال فى مرفأ تاجا نروج حيث استقرت مع ابنتيها ، وحيث التقى بافل يغوروفيتش بزوجة المستقبل .

كانت الحياة الزوجية صعبة فى البداية ،كما أن حرب القرم شلّت النشاط فى الميناء . وسرعان ما تعرضت تاجانروج نفسها لقصف الأسطول البريطانى - الفرنسى . وقد التجأت يفجينيا ، التى كانت حاملاً حينذاك ، مع زوجها إلى ضواحى البلدة . وبعد عشرة أشهر من الزواج أنجبت ابنها الأول الكسندر . وما أن انتهب الحرب حتى عاد الزوجان وطفلهما إلى البلدة وعاشا فى كوخ اشتراه لهما والد بافل يغورفيتش وفى عام ١٨٥٧ ، وبعد سنوات من التوفير والاقتصاد استطاع بافل بيورغورفيتش أن يحقق فى النهاية حلم حياته ، إذ اشترى حانوت بقالة ، وهناك ،فى قلب تاجانروج ولد أنطون تشيخوف فى ١٧ كانون الثانى يناير ١٨٦٠ .

فى بيت جنوتوف بشارع الشرطة ، وهو بيت صغير من طابق واحد ذو نوافذ خضراء وسقف من الزنك . وسرعان ما ضاق البيت بهم فانتقلت العائلة مرتين إلى أن استقرت فى عام ١٨٦٩ فى بيت موسيف فى شارع الدير بضواحى البلدة *

وذكريات تشيخوف عن مساكنهم المتتالية أثناء فترة الطفولة لا يمكن وصفها إلا بأنها كئيبة ، ويقول قصة "حياتى" : "فى أحد أيام اللحم

* مازال هذا البيت موجوداً فى شارع تشيخوف رقم ٤٧ .

تفوح من هذه البيوت رائحة البورشى* أما فى أيام الصوم فتفوح رائحة السمك الحفش المقلى بزيت عباد الشمس ، الطعام ممجوج ، والماء ملوث ، ولست أعرف رجلاً شريفاً واحداً فى المدينة كلها " ويقول فى رسالة لعائلته " إننى فى تاجنروج حيث تحس وكأنك فى مدينة هرقلة أو بومبى** كل البيوت فقدت ألوانها ولم تجصص ثانية منذ قرون ، الأسطح غير مدهونة والنوافذ مغلقة . . إذا ما انطلقت من شارع الشرطة تجد الطريق مغموراً بالطين الذى ما أن أن تجف حتى يصبح لزجاً متفطراً . . ولما سرت عبر السوق الجديد أدركت كلياً كم هى قذرة وفارغة وكسولة وأمية ومملة حقاً تاجانروج هذه. ليست هناك لافتة واحدة تخلو من الأخطاء ، حتى اسم روسيا الذى سميت به إحدى الحانات مكتوب بطريقة خاطئة ، الشوارع مهجورة إلا من المختالين من خمالى السفن والمتأنقين بافتعال بقبعاتهم ومعاطفهم الطويلة . . . الكسل هو سيد الموقف ، والمهارة الوحيدة الموجودة هى القناعة بكوبيكات قليلة وبمستقبل تغمره الشكوك .

ويتوسع فى الموضوع ذاته فى رسالة تحمل تاريخ اليوم ذاته موجهة إلى الصحفى نيكولاى لا يكن فيقول : "كل شئ حولى أسيوى بحيث اننى لا أكاد أصدق ما آراه ، ستون ألفاً من السكان كل ما يفعلونه هو أن يأكلوا ويشربوا ويتكاثروا ، دون أن تكون لهم أية اهتمامات أخرى ولا تجد أينما اتجهت إلا كعكة الكوليش (كعكة اسطوانية يتم إعدادها فى روسيا عادة احتفالاً بعيد الفصح) والبيض والسانتورينى (نبيذ يونانى) والأطفال، لا صحف ، لا كتب . . ولا يوجد أناس وطنيون أو رجال أعمال أو شعراء ، بل ليس هناك حتى خبازون مقبولون "

* حساء الخضار الروسى .

** مدينتان قديمتان فى جنوب إيطاليا إلى الجنوب الشرقى من نابولى دمرتا فى عام ٧٩ قبل الميلاد بسبب بركان فيزوف.

خـلال الفتـرة المذكـورة كانت تاجـانروج ، وهى بلدة على الشـاطئ الشمالى الشرقى لبحر الخزر ، فـى حالة تصل إلى السبات أو الاختصار ، وكان هذا الميناء الذى أنشأه القيصر بطرس الأكبر قد شهد ازدهاراً في وقت من الأوقـات وقد اسـتـقر فـيـه عدد مـن التجـار الأجـانب ، جلّهم من اليونانيين، واحـتكروا تقريباً تصدير المنتـجات الزراعية ، وقـد كونوا هناك نوعاً من الارسـتقراطية الماليـة واتخذوا لأنفسهم دور السـيادة على السكان الأصليين الذين تحولوا شيـئاً فشيئاً إلى مـجرد كتبة وسمـاسرة وكان السادة الأغنياء ، أصحاب الملايين فى تاجانروج ، يحملون أسماء مثل "فاليانو" و"ساكرامافي" و"كونديوياكى" و"موسورى" وسفاليو " وليس بينهم على الاطلاق أسمـاء مثل "إيفانوف " :أو "بيـتروف" كانوا يبـنون بيوتهم فى مناطق سكنية معينة ولا ينسجمون إلا مع بعضهم ويحتكرون لأنفسهم الحياة الرخيّة ، يختـالون بأحدث الملابس الباريزية ويقدمـون الدعم لمسرح المنطقة ويستوردون المرمر من باروس* أوكارارا ليصنعوا** لأنفسم ولأفراد عائلاتهم أنصاباً فى المقبرة اليونانيـة ، وقد حظيت البلدة بشهرة عابرة حين مات فيها القيصر الكسندر الأول ميـتة غامضة فى عام ١٨٢٥*** ولكنها مالبثت أن عادت إلى عالم النسـيان ، بدأ الغرين يملأ خليجهـا بحيث اضطرت السفن الكبـيرة إلى الابتـعـاد أكثر فأكـثـر عن شاطئ الميناء بـينما أخـذت بلدية "روسـتـوف أوندون " المجاورة تنمـو وتتطور وتحـتل مركـز التجـارة فى المنطقة.

* جزيرة فى اليونان .

** مدينة فى شمال إيطاليا مشهور بالرخام

*** انتشرت اسطورة بأن موته كان خدعة وأن التابوت يحوى جثمان جندى وأن القيصر هرب إلى سيبيريا ليعيش حياة تحت اسم "الدرفيدوركوزميتش "

وبحلول منتصف القرن كانت تاجانروج قد تحولت إلى مدينة أشباح ، وكانت تتنازع تشيخوف مشاعر الخيبة الناجمة عن هذا التراجع ، ومشاعر السحر المرضى الذى يترك تأثيره على نفسه إذا أن سكان المدينة من الروس ، وهم من العمال غير المهرة وحمّالى السفن وأصحاب الحوانيت والكتبة - كانوا يحتالون على الحياة ليتدبروا أمورهم ، فى حين يختال الأجانب من السكان وكأنهم الديوك الرومية المشاة يغطسون حتى كواحل أرجلهم فى الأخاديد المليئة بالطين فى شوارع البلدة غير المعبدة فى أيام الخريف والربيع أما فى الصيف فيختفى الشارع تحت غابة من الاعشاب الطفيلية ، الشارعان الرئيسيان وحدهما يضاءان ، وإن كانت الإضاءة سيئة وخافتة ، وعلى السكان أن يحملوا الفوانيس ليتمكنوا من التجول ليلاً وحين تتردد أنباء بين وقت وآخر بأن فتاة قد اختفت فإن الاعتقاد السائد فى هذه الحالة هو أنها بيعت للحريم التركى ، أما السجناء فى سجن البلدية فهم يجرّون العربات المملوءة بأكياس الطحين فى شوارع البلدة أو يتجولون فى السوق باحثين عن الكلاب الضالة ليذبحونها ضرباً بالهراوات والعصى ذات الأشواك على مرأى من المارة ، الماء قليل وملّوث ، وفى كل يوم سبت يذرع المنادى شوارع البلدة ذاهباً غادياً يمشى الهوينى وهو يصيح بالناس ويحمل مشقة كبيرة على كتفه : "إلى الحمامات ! هيا إلى الحمامات العامة " .

مزيج من مشاعر القرف والحب ، والتمرد والاستسلام تتنازع أنطون تشيخوف فيما يتعلق بهذه الحياة التى يجد نفسه مدفوناً فيها فى هذا المخفر الأمامى ، أو المدينة الصمّاء كما قد يسميها الروس ، ولكم كان يدرك كنه التعاسة السائدة فى هذا الركن من أركان المعمورة حيث لا يرى حوله إلا أناساً يعيشون ، شأن أبويه فى بيوت خشبية صغيرة متهاوية ، ألحقت بها مساحات مظللة وحدائق صغيرة قذرة هى متنفسهم فى أيام الصيف ، كان

يعرف اسم كلّ واحد من الجيران وما يتصف به من صفات وملامح خاصة كمـا يعرف أسمـاء كلابهم وعـدد الدجاجات التى يملكهـا كل منهم ، كل مـرض أو وفاة أو زواج أو ولادة أو مـأدبة تقام فى إحـدى المناسبـات هى مناسبة للجمـيع بلا استثناء ، يتجسسون على بعضـهم البعض ، ويحسد كل منهم الآخر ، غير أنهم يقفون إلى جانب بعضهم حين تدعو الحاجة .

كان تشيخوف يشعر وإلى حد كبير ، بأنه جزء من الطبقة الريفية ، المتعطلة ويعذبه أن ينتمي إلـى مجموعة من البـشر وصل بها فتور الهـمّة إلى درجة أفقـدتها تطلعها إلى غـد أفضل ، وعلى الرغم من صغـر سنّه إلا أنه كان يشعر بحاجة ملحة لما يبعث الأمل فى نفسه ، ولقد أدرك منذ مرحلة مبكرة من حيـاته أنه لن يمضى بقية عـمره فى تاجانـروج ، ولذا كان يجلس بين أكياس الطحين وعناقيد النقـانق فى حانوت والده وهو يحلم برحلة مشابهة لرحلة أمـه رحلة طويلة مـثيـرة ، وإن كانت مـرعبـة ، فى طول روسيـا وعرضـها ، فهل يمكـنه أن يفلت من هذا المكان ويبحث عن آفـاق جديدة ووجـوه أخرى ؟ وإلى أن يحين ذلك الوقت لـم يكن أمامـه إلا أن ينكب على حجر الرحى الذى يطحنه ويزفر الملل الذى يملأ نفسه .

٢ - المدارس والهروب

نظراً لضآلة ما يدرّه عليه حانوته من أرباح قرر بافل بيغوروفيتش ذات يوم بأن من الواجب أن يرتفع أبناؤه عن مستوى العمل كبائعي خضار ، وبما أن التجار اليونانيين الأغنياء هم أصحاب السطوة فى تاجنروج فقد كان لابد له من أن يتغلّب عليهم بنفس سلاحهم وعلى هذا الأساس ، وبدلاً من أن يسجل أبناءه أنطون ونيقولاى فى مدرسة روسية كما نصحت زوجته بخوف ووجل ، قرر إرسالهم إلى مدرسة يونانية ليتعلموا لغة التجارة وتنفتح أمامهم بذلك فرص العمل فى شركة من شركات الاستيراد والتصدير فى المستقبل ، وتتهيأ لهم بالتالى فرصة الصعود خطوة خطوة إلى المراتب العليا .

أيدّ هذه الفكرة معلم فى المدرسة اليونانية اسمه "نيكوس فرتسينا" وهو رجل ضخم الجثة أحمر اللّحية فاجر اللسان ذو ماض غامض ولقد بلغ فى الحقيقة من قوة الحجة بحيث أقنع بافل بيغوروفيتش بأن يبسط يده المغلولة ويدفع له مبلغاً قدره خمسة وعشرون روبلاً ، كمقدم لقسط المدرسة السنوى.

وهكذا انطلق أنطون ونيقولاى ، أمل العائلة إلى المعهد الدينى الذى تتلقى فيه النخبة التجارية للمدينة تعليمها ، حسب قول فوتسينا .

أما ما وجداه فى واقع الأمر فلم يكن إلا بناء مكوناً من غرفة وحيدة كئيبة آيلة للسقوط ، يتزاحم فيها سبعون من "الشبّان " اليونانيين الذين تتراوح أعمارهم بين سن السادسة وسن العشرين ، وكانت الغرفة مقسمة إلى خمسة صفوف من المقاعد مرقمة ١ ، ٢ ، ٣ الخ . . وكل رقم يشير

إلى صف مدرسي وبينما كان طلاّب مقاعد الصف الأول يرددون الأحرف اليونانيـة ، ألفا ، بيتا ، جـاما ، دلتا ، كـان أولئك الجالسون في مقـاعد الصف الخامس ، وهم شبان ذوو أجـسام ضخمة يرتدون قمـصان البحارة المقلّمة المشدودة فوق صدور قوية العـضلات كان هؤلاء يجاهدون ليحفظوا تاريخ اليونان وفوتسنا هو المعلّم الوحـيد ، يعلّم المواد جميعاً بثقـة متماثلة بالنفس ، وبعد أن طلـب من أنطون (وكان حينئـذ في السابعة) ونيـقولاي (وكان في التاسعـة) أن يجلسا في مقاعد الصف التمهيـدي ناول كلاً منهما كتيباً عنوانه: "الأبجدية الجـديدة " وهو يقول لهما " "على كل منكما أن يحضر خمسة وعشرين كوبيكاً في الغد ثمناً للكتاب " .

منذ البداية شعر هذان القادمـان الجديدان بالرعب من هذه العصابة من الشبان الميالين للشجار والذين يتكلمون لغـة لا يفهمان منها حرفاً واحداً ، وكذلك من المعلم ذي اللّحـية السمراء المصفـرة والذي يتنقل من صف من المقـاعد إلى الذي يليـه موزعـاً بالتأنيب والاتهـامات ومـبتـدعاً العقـوبات المتنوعـة: ينقر عـلى مفـاصل الأصابع أو الـرؤوس بمسطرته أو يطلب من التلاميذ الركوع فوق الملـح الخشن أو يحرمهم من طعـام غدائهم ، وما أن تبين له أن الولدين تشيخـوف ونيقولاي فشلا في إتقان كـتاب القراءة الأول على الرغم من كل تنبيـهاته حتى كف عن الاكـتراث بهما ، ونقلهـما إلى زاوية الطلبة الـكسالى حيث كـان يجلس كل من أنطون ونيقـولاي ، وقد كتفا ذراعيهما أمام صدريهما ، من التاسعة صباحاً حتى الثالثة بعد الظهر ، ولكن هذا أفضل عـلى أية حال من تواجدهمـا في الحانوت أو الكنيـسة ، وكل مـا كان يخـشـاه أنطون أن يعرف والده بعـدم تقـدمه ، ولكن وجـه

فوتسيتا أشرق بابتسامة واسعة حين سأله بافل ييغورفيتش بعد أسابيع قليلة عن تقدمهما وأجاب بأن تعليمه بدأ يؤتى ثماره ، ولتأكيد أقواله منح الشقيقين شهادتي تقدير ، حيث كانت شهادة نيقولاى تصفه بأنه "تقى" أما أنطون فقد وصفته شهادته بأنه "منتبه"

وفى أثناء احتفالات عيد الميلاد دعا بافل ييغورفيتش عدداً من أصدقائه اليونانيين إلى بيته ليتباهى بمهارة ولديه بلغة هوميروس ، غير أن كلاً من نيقولاى وأنطون لم يستطع أن ينطق بأكثر من كلمات معدودة ، ومالبث بافل ييغورفيتش ، الذى أضحى أضحوكة السهرة ، أن اشتعل فى سورة غضب أولمبية ، ومع ذلك فقد أعاد الولدين لاستكمال سنتهما الدراسية عند فوتسينا نظراً لأنه تورط ودفع أقساطهما المدرسية سلفاً .

لم تتحق رغبة يفجينيا ياكوفليفنا إلا فى ٢٣ آب / أغسطس ١٨٦٨ ، إذ فى ذلك اليوم ارتدى أنطون اللباس الرسمى ذا اللون الكحلى لمدرسة تاجنروج الروسية ودخل الصف التحضيرى ، كان فى ذلك الوقت صبياً شاحباً مكتنزاً ذا وجه مستدير وشعر كثيف وعينين بنيتين واسعتين حالمتين،وعلى الرغم من حيائه وتواضعه وانعزاله إلا أنه كان ينفجر أحياناً فى نوبات مرح يثير بها أصدقائه فى المدرسة بالتعليق على ما يحدث حوله من أمور مثيرة ، وبالمقارنة مع مدرسة فوتسينا ذات الغرفة الواحدة ، بدت المدرسة الروسية هائلة الحجم ، كانت بجدرانها ذات الدهان المتقشّر وسطحها الاخضر المصنوع من الزنك وممراتها الطويلة القذرة أشبه ما تكون بمعسكرات الجيش ، وفى كل باب من أبواب الفصول فتحة على شكل كوّة يتمكن المراقبون من خلالها من اختلاس النظر للتلاميذ دون أن يراهم

هؤلاء ، يستمر فيها المنهج الدراسي ثماني سنوات مركزاً على اللاتينية واليونانية واللغة السلافية الكنسية ، بالإضافة إلى الروسية ، وبعد إتمام هذه الدراسة ينخرط طلبتها أتوماتيكياً في أدنى رتب الفرق الأربع عشر "للهوصار" وهو سلاح الفرسان الذي أنشأه القيصر بطرس الأكبر قبل قرن ونصف القرن وكان الانضمام إليه مفخرة ، كما أن إتمامهم لهذه الدراسة يخولهم حق دخول الجامعة .

كان المعلمون والمراقبون الذين أنيطت بهم مهمة تعليم هذا القطاع من الشبان الريفيين ذوي قدرات متواضعة في غالب الأحيان ، وقد أطلق الطلاب مثلاً على دياكنوف ، وهو المسئول عن المحافظة على النظام ، اسم "أم أربع وأربعين" ، بسبب السبل المراوغة التي كان يلجأ إليها للتلصص عليهم ، وكان هذا يلجأ للعظات الأخلاقية لتعذيب ضحاياه ، أما كرافاسكوت مدرس التاريخ والجغرافيا فكان يشتم الطلبة بكلمات فظة لدرجة مريعة ، في حين أن أوربيان ، أستاذ اللغة اللاتينية وهو تشيكي ، كان يتجسس على طلابه ، ويتشمم المؤامرات السياسية ويرسل خطابات استنكار إلى الشرطة ، بل أنه لم يكن ليتورع عن شتم زملائه المعلمين ، وقد جاء في إحدى رسائله : "زملائي يدخنون أثناء اجتماعات الهيئة التدريسية دونما احترام لوجود أيقونة وصورة لجلالة الامبراطور على جدار الغرفة" : ولا شك بأن هؤلاء هم المدرسون ضيقوا الأفق الذين كانوا في مخيلة تشيخوف حين يقول أحد أبطال قصته "رجل تلك القضية" : "أتظنون أنكم مربون معلمون ؟ لستم إلا عصابة من حرّاس الزرائب ، وهذه ليست معبداً للعلم بل مكتب كنسي ريفي تفوح منه رائحة مركز شرطة نتن" .

ولم يكسب احترامه من بين جميع معلمي المدرسة إلا الأب بوكروفسكي الذي كان يعلم مادة الديانة ، فقد كان هذا رجلاً مثقفاً يحب الأدب ولا يتردد في الحديث أثناء الدرس عن شكسبير وغوته وبوشكين،

وقد اكتشفت موهبة تشيخوف الساخرة بسرعة وأطلق عليه ممازحاً لقب "تشيكونته" ونصحه بقراءة موليير وسويفت والكاتب الروسى الهجّاء ساليتكوف - شيدرين ، كما أن الطلاب زملاء تشيخوف كانوا يعجبون بقدرته على رواية قصة وراء أخرى من القصص المضحكة ، ويغرقون فى دوامة هائلة من الضحك بينما يظل هو محافظاً على جديته ، وإذا ما ابتدع مزحة جديدة تركها لزملائه لتمثيلها . كانت فى الواقع سخرية خفيفة رقيقة لاتنم على الإطلاق عن أى حقد أو تعمد للأذى ، كما كان يعرف كيف يسخر من نفسه ، ولكن وعلى الرغم من تشجيع الأب بوكروسفكى فقد ظلت علاماته تراوح حول الصفر ، ولكنه ظل دائماً معذوراً لأنه لم يكن يتوفر له الكثير من الوقت للدراسة بعد تلبية طلبات الزبائن فى الحانوت والغناء فى جوقة الكنيسة .

ولإضفاء اللمسات الأخيرة على مسألة تعليم أولاده سعى بافل يغوروفيتش لتعليمهم الفرنسية على يد سيدة تدعى "مدام شوبيه" ودورساً فى الموسيقى على يد موظف فى البنك كان يقرأ "النوتة" الموسيقية" وحين أدرك أن حصيلة هذه الدروس كانت صفراً سجلّهم فى دورة تدريبية هدفها تحويلهم إلى خياطين صغار واعدين . غير أن نيقولاى وإيفان سرعان ما طردا من تلك الدورة بسبب "سلوكهما غير اللائق وبطء تقدمهما" فى حين صمد أنطون فى الدورة وحين شعر بأنه اكتسب المهارة اللازمة صمّم بنطالا لشقيقه نيقولاى ، إلا أن البنطال كان من الضيق بحيث أصبحت العائلة تطلق عليه اسم "بنطال المعكرونة"

الحانوت ، الكنيسة ، المدرسة ، الخياطة - على الرغم من كل هذه الالتزامات فقد كان أنطون يجد السبل اللازمة للهرب من حين لآخر

للتجول في الشوارع كل شئ يراه يثير ضحكه : كلب يختال وقد رفع ذيله، جنازة تتبعها العائلة الباكية ، جدال بين حمالي السفن - كلها كانت حوادث تستحق أن يتذكرها : وكان يتردد في كثير من الأحيان على المقابر محاولاً فكّ طلاسم الكتابات المنقوشة على القبور وهو يحلم بقدر هذا العدد الذى لا يحصى من الناس المجهولين الذين يرقدون تحتها ، كانت المقابر تجتذبه طوال حياته في الحقيقة ، وكان في ذلك الحين يفضل المقابر في القرى المحيطة بتاجنروج حيث استبدلت أشجار السرو المألوفة تقليدياً بأشجار الكرز التى كانت ثمارها تترك نقاطاً حمراً على ألواح القبور بحيث تشبه إلى حد كبير نقاط الدم .

وكان أنطون يتلذذ باللعب مع أشقائه يهاجمون عصافير الحسون مثلاً في بقعة مجاورة مليئة بنباتات العّليق ويبيعون ما يمسكون بكوبيك واحد لكل طير . . . يتفرقون في حديقة اليزابيث* ويلعبون لعبة الهنود ورعاة البقر جازّين فروة رأس بعضهم البعض شأن قصص "جيمس فينيمو" و"ماين ريد" أو يقطعون شارع الشرطة إلى الميناء حيث يقضون الساعات الطوال وهم يصطادون السمك أو يغطسون في البحر. وفي أحد الأيام خرج أنطون من إحدى غطساته في البحر وقد أصيب بجرح بليغ في رأسه ظلت آثاره ظاهرة حتى آخر حياته ، وبفعل الفزع من "بافل يغورفيتش" أصبح أبناء تشيخوف عشيرة شديدة الترابط لها طقوسها وأسرارها ولغتها ، يتمتع جميع أفرادها بروح النكتة ، ولكن أنطون هو الذى يقرر النغم والأسلوب في الغالب ، ومهما كانت درجة فقرهم أو سوء المعاملة التى يلقونها فقد كان هؤلاء التشيخوفيون الصغار بأمسّ الحاجة للضحك ، إذ أن الضحك ينقذهم دوما من اليأس .

* سميت باسم زوجة الكسندر الأول .

وفى الأوقات التى كانت تتصبب فيها تاجنروج عرقاً تحت موجات الحر والغبار أثناء العطلة الصيفية الطويلة ، كان هؤلاء الأطفال يمشون حفاة وينامون فى الحديقة فى شبه أكشاك صنعها كل منهم لنفسه كيفما اتفق ، ولقد أنشأ تشيخوف كشكه في التعريشة التى تظللها أغصان كرمة بريّة ، وكان يخربش فيها أشعاراً عابثة ملقباً نفسه "أيوب تحت ظل شجرة التين " ولقد سحر فتاة صغيرة تعيش فى بيت مجاور بحيث أنها كتبت له بالطباشير على بوابة الحديقة قطعة شعرية عاطفية مكونة من أربعة أبيات ، وقد أجاب أنطون برباعية هجائية يعنف فيها الشاعرة الصغيرة وينصحها بالعودة للّعب بعرائسها بدلاً من الخربشة على الجدران ، وحين وصفته فى صورة غضب بأنه "فلاح روسى" ضربها بقسوة على رأسها بكيس فحم أغبر ، وبذلك اختتمت أولى قصصه الشعرية ، ولقد كتب عن هذه الحادثة ساخراً فى وقت لاحق حين طلب إليه أن يكتب نبذة عن حياته : "بدأت تجربتى الأولى مع "أسرار" الحب حين كنت فى الثالثة عشرة " .

كانت يفجينيا ياكوفليفنا تختار أنطون لإيفاده إلى السوق كل صباح ، وكان من ناحيته يبذل قصارى جهده لكى يبدو فى هيئة جادة تناسب المسئولية الملقاة على عاتقه ، ولذا كان يقبض على النقود بجيبه بكل إحكام. وكان شقيقه ميخائيل يتبعه فى هذه الرحلة . وبعد شراء بطة فى إحدى المرات ظل طول الطريق ، إلى أن وصل إلى البيت ، يحاول تعذيبها بأن يهزّها ويقرصها لكى توقوق : "ليعرف الجميع أننا سنتناول بطة طعاماً لعشائنا " .

وفى مساء بعض أيام الآحاد كانت عائلة تشيخوف تتناول عشاءها مع العم ميتروفان الذى كانت قد أوصلته سبل الحياة فى النهاية إلى أن يصبح ،

شأن أخيه ، بقالاً فى تاجنروج ، ولكن حانوته كـان أفضل موقعاً وبضاعة وإدارة من حانوت بافل ييغـورروفيتش ، وبذا كانت تجـارته مزدهرة . وكان يعمد إلى تزيين كـلامه بمقتطفات من الإنجيل نظراً لتدينه الـعميق ،وكان ، على العكس من بافل ييغوروفيتش ، مـتدينا بالأفعال إلى جانب الأقوال ، فهو يحرص على اسـتنكار العقوبة الجسدية ويظهر احترامـاً لزوجته ويعامل أطفاله باهتـمام ولا يظهـر لأبنائه وأبناء أخيه إلا كـل عطف ، وكانت كل زيارة يقوم بها أنـطون لبيت عمه ميـتروفان بمثابة عطلة بالنـسبة له ، إذا أنه يحب الرجل وتسره ممازحـته . و لقد قرر فى إحـدى المرات أن يقف بباب عمه وهو يرتدى ملابس شحاذ ووجهه يثير الشفقة لدرجة أن عمه ميتروفان نفحه ثلاثة كوبيكات ، ظلت هذه الحادثة تثير ضحك العائلة فترة طويلة من الزمن.

ولكن هذه الأمـور كلها لـم تكن تمثل شيـئاً بـالقيـاس إلى زياراتهم الصيفية لجدهم لأبيهم ، الوكيل المسـئول عن إقطاعات الكونتيسة ، بلاتوفا فى قرية كنيازهايا الواقعة على بعد سـبعين فرسخاً من تاجنروج فى سهوب فى الدونيت* تستأجـر العائلة للرحلة التى تستغـرق فى عدة أيام عربة من عربات الفـلاحين القوية التى تسمى "تيليجـا" تستند ألواح أرضيتـها على مـحور الدواليب مـبـاشرة ، وبـعد أن يلقى بافل يـيغـورفـيتش مـواعظه وتبريكاته، إذ أنه يتخلف فى تاجنروج لحسن الحـظ ليتابع أمور الحانوت ، تصعد يفجينياباكوفليفنا وابنتـها وأبناؤها الخمسة إلى العربة وهم يتضاحكون

* نهر فى جنوب شرقى أوكرانيا ، أو جنوب غربى روسيـا ويجرى باتجاه الجنوب الشرقى ليصب فى نهر الدون .

ويتزاحمون مستندين على الألواح الجانبية ، تتقدم التيليجا ببطء وهى تتخبط صاعدة هابطة وتتوسط سحابة من الغبار، بينما تمتد السهول إلى مالا نهاية تحت شمس قاسية ، والعشب الجاف يتماوج حولهم لأدنى نفحة هواء وآلاف الحشرات تتراقص وسط هذا الجو الحار ، وفى هذا الجو ، يتذكر أنطون الرحلة التى طالما قصت تفاصيلها عليه أمه حول المغامرة فى سهوب روسيا الواسعة بحثاً عن قبر ، وبذا كانت ذكرى قصتها تندمج بانطباعاته الخاصة ، دون أن يدرى كان يختزن الصور والروائح والأصوات التى ستعبق بها رائعته "السهوب" فى مقبل الأيام وفى فترات متباعدة كانوا يتوقفون على حافة الطريق ليتنزهوا ويتناولوا طعامهم أو يسبحوا فى بركة ماء أو يتمددوا فوق أكوام القش ، أما الليالى فيقضونها فى نزل أو فى العراء وهو يتحلقون حول نار يوقدونها ، وكان أنطون يشعر بأن قلبه يفيض بمشاعر العرفان للسماء الصافية التى تظللهم وعبق العشب والدخان والهدوء العميق والارتعاشات التى تهز أجساد أفراد عائلته .

ولدى وصولهم إلى كنيازهايا يقابلهم جدهم ييغورميخائيلوفيتش بالترحيب الحار ويتوجهون إلى بيت خال يحلّون وحدهم فى أرجائه ، إضافة إلى الأراضى الواسعة يركضون فيها ويتقافزون ويتسلقون الأشجار، ويسبحون كلما حلالهم ذلك وكان نيقولاى قد عثر على قبعة أوبرا قديمة فى مكان ما فكان يعتمرها طوال الوقت إلى أن نقرها أنطون من فوق رأسه فغرقت بأسى فى أعماق بحيرة اصطناعية . حتى العمل يصبح متعة فى كنيا زهايا ، وبأمر من الجد ييغورميخائيلوفيتش يتوجه الأطفال إلى الحقول أكثر من مرة خلال موسم الحصاد .

ويتذكر أنطون فيما بعد كيف كـان عليه أن ينصرف عن اللعب ليقضى يوماً فى تشغـيل الدراسة التى تعمل بالبخـار بحيث يتأكد من أن حـبات الحنطة تسيـر فى المسار الصـحيح ، وبعد خـمسة عـشر عامـاً كتب لمحـرر مجلة "الأزمنة الحـديثة " اليكس سـوفورين يقول : "الـصفيـر والأزيز والطنين الصاخب للآلة وهى تدور بسرعة ، صرير العجلات ومشية الثيران المتكاسلة سحب الغبار ، الوجوه المسودة المتعـرقة لخمسين رجلا أو يزيد - كلها أمور محفورة فى ذاكرتى وكأنها صلاة للخالق " .

بعد عودته من كينيازهايا فـى خريف عام ١٨٧٣ تلقى أنطون الصدمة التى طبعتـه بطابعها طوال حياته : تعرّف على عـالم المسرح ، كم من مرة سار بمحـاذاة المسرح البلدى الصغـير فى شارع بطرس دون أن يشـعر بأدنى رغبة في الدخول ؟ كان حينذاك فى الثالثـة عشرة وقد اصطحبه أحدهم إلى المسـرح ليشاهد أوبرا "هيلين الجـميلة " لأوفينباخ* تجربة أصـابته بالدوار : قطعة القـماش الزرقاء التى يفتـرض أنها تمثل السماء تـتماوج بطريقة سـيئة وتجاعيد طياتها الماثلة ماتزال ظاهرة فيـها ، الأعمدة الرخامية المصنوعة من الورق المقوى المتين ، المغنون الذين يتشابكون وسط أسمـاءهم الغربية المبهرة ويغنون غناءً سيئاً كل هذا ، ورغم كل شئ ترك فى نفـسه ، تأثيراً سحرياً وأدخله فى عـالم الوهم والأقنعة ، عالـم البهرجـة والتمـويه مما أدار رأسه فهجر كل شئ :

ألعاب رعاة البقر والهنود الحمر ، صيد طيور الحسون ، زيارة المقابر، وكرس نفسـه ملياً لغرامه الجديد كل مـا يراه يسحره ، من "هاملت" إلى

* موسيقار فرنسي : ١٨١٩ - ١٨٨٠

"المفتش العام "لغوغول ، إلى "الذكاء سبب البلاء " لغروبيدوف ، إلى المسرحية المقتبسة عن "كوخ العم توم " علاوة على التمثيليات العاطفية "الميلودراما " والمسرحات الهزلية الخفيفة ذات النمط الفرنسي .

ولقد زاد من إثارة افتتانه بالمسرح أنه كان على أنطون أن يلجأ للعديد من الحيل لإشباع هذه الرغبة وارتياد المسرح فلم يكن يسمح لطلاب المدارس فى ذلك الحين بحضور العروض المسرحية إلا بموافقة مديرى مدارسهم وقد عالج أنطون والقلائل من أصدقائه بمن فيهم الكسندر فيتسفسكى ، الذى أصبح ممثلاً فيما بعد ، وأندريه دورسى ، وهو من أسرة غنية ، عالجوا هذه المسألة باللجوء إلى ارتداء معاطف آبائهم الفضفاضة وإخفاء عيونهم خلف نظارات زرقاء ، وبعد هذا التنكر يلجأون إلى التسلل وهم يرتعشون دون أن يلاحظهم مراقب المدارس المكلف بمنع الطلبة من ارتياد وكر الخطيئة .

ولكى يحصل على مقاعد جيدة فى الشرفات العليا الرخيصة كان أنطون يصل إلى شباك التذاكر قبل ساعتين من رفع الستارة ، دون أن يعرف فى كثير من الأحيان العرض الذى سيشاهده ، ولكنه يظل مصمماً ، سواء أكان العرض دراميًا أم كوميدياً أم أوبرا أو أوبريت ، وبعد ذلك ينتصب عند طرف الهاوية مستنشقاً بمتعة رائحة الغبار ومستحضرات التجميل والصمغ إلى أن تحين اللحظة السحرية التى ترفع فيها الستارة ، وشيئاً فشيئاً تدب الحياة فى الشرفات الرخيصة ،بدخول ذلك الحشد الضاج من الناس الذين يتكلمون ويتضاحكون ويطقطقون ببذور عباد الشمس ، بكل حيوية وصخب ، وما تلبث أن تمتلئ المقاعد الأمامية للصالة والشرفات المترفة بوجهاء المنطقة : ملاك السفن اليونانيين والتجار المترفين من أهل البلاد

الأصليين مع زوجاتهم اللاتى يتألقن بأفخر زينة ، وتأخذ طريقها إلى خشبة المسرح همـهمة تعبـر عن نفاد الصبـر والتحرق وتشـتعل فى ذهن أنطون الأفكار حول مـدى التأثير الاسـتثنائى للممثـل على الناس العاديين ، حين يرى هذا الجمهور المتنوع وقد جاء ليصفق للمسرحية ذاتها ، ويرى فى حياة الفنان بكل مفاجآتها وفـخامتها وإيهامها وارتحالها ، بديلاً مـثيراً عن الحياة الأسرية الرصينة الكئيبة ، وهكذا أخـذ يحلم هو أيضاً بالانضمام إلى فرقة جوّالة .

لم يكن يجـد متعـة أكبر من المتـعة التى يشـعر بها حـين يتزيّى بزى شخـص غريب الأطوار من سكان المنطقـة بعد أن يراقـبه خلسـة ، فيـقلّد حركاته وطريـقة كلامه وتصرفـاته المتكلّفة ، وبمساعدة أشـقائه وشقيـقته ، وكلهم ممثلون موهوبون ، كّون فرقته السـرحية الخاصة التى كانت تمثل أمام جمهور متسامح مكّون من الأقارب والأصدقاء والجيران ، يتحل فى إحدى الليالى شـخصية طبيب أسنان ويتـسلح بملقط فحم ويلوى وجهـه بحركات مختلفة محاولاً اقتلاع سن مريض حرون متمرد أو أن يتقمص شخصية قس جاهل متـهالك والمطران يمتحنه - وهو مشهـد تمثيلى لا يمكن تقديمه إلا فى غياب الأب الذى لا يمكنـه أن يتحمل وضع رجال الدين موضـع السخرية والهـزء أو قد يقلد شـخـصيـة رئيس بلدية تاجنروج وهو يرأس احـتفـالاً يستعرض فيه كتيبة من الجنود القوازق .

وبعد مـضى بعض الوقت وازدياد طموحـه أخذ يتـجرأ للتـعامل مع مسرحيات فعلية ، وبعنقه المتـصلب وبطنه المنفوخة بوسادة محشوّة وصدره المزين بالميداليات المصنوعة من الورق المقوّى لا يسـتطيع جمهوره أن يتوقف

عن الضحك وهو يراه يؤدى دور الحاكم فى مسرحـية المفتش العام أما عمله التالى والأعظم فهو ثرثرة امرأة عجوز فى مسرحية يغورييف "سائق العربة" أو "مزحة ضابط سلاح الفرسان" وكما قال صديقه أندريه دروسى : "من الصعب أن تتخيل هدير الضحك الملحمى الذى يقابل به لحظة دخول أنطون بافلوفيتش وليس هناك أدنى شك فى تجسيده المتألق للدور الذى يؤديه.

كان المـمثلون يستمتـعون بشكل خاص بأداء أعـمالهم فى بيت والدى دورسى الودودين والغنيين ، كانوا يقسمون غرفة الجلوس بستارة إلى قسمين أحدهمـا مثل خشبـة المسرح والآخر قـاعة الجمهـور التى تصف فيهـا عدة صفـوف من المقاعـد ، وكانت للممـثلين خزانتـهم الخاصـة التى ملأووها بالملابس المتنوعة والأدوات المستخدمة فى المسرح والمساحيق والشعر المستعار وبعد أن شـجعه هذا النجاح أخـذ أنطون يتجرأ لإعداد مـسرحيات قـصيرة تسخر من معايب أبناء بلده ، وكـانت هذه المسرحيات تنقل على الدفاتر ثم تمزّق بعد الانتهاء منها ، ولم تصلنا أى منها .

وفى تلك الأثناء انتـقلت عائلـة تشيـخوف إلى بيت جـديد بناه بافل يبغـوروفيتش على قطعـة أرض منحهـا له والده فى شارع الإدارات إلا أنه على الرغم من التقشف المتناهى فى الميزانيـة ابتلع هذا المشروع كل ما وفرته الأسرة ، مما حمل بافل يبغورفيتش على اقتراض مبلغ من مؤسسة الإقراض المحلية فى عام ١٨٧٤ لاستكمال بناء البيت وبما أن أى دخل يمكنه الحصول عليه كان محل ترحيب فى تلك الظروف فـقد أجرّ جزءاً من البيت لموظف صغير فى المحكمة اسمة "جافريل بارفينيفيتش سيليفانوف" .

وفى شهـر حزيران / يونيـو من عام ١٨٧٥ ، وبينمـا كان أنطون فى طريقه لقضـاء عطلة مع شقيق سيليـفانوف فى إقطاعة حصل عليـها بفضل

زواجه من فتاة غنية توقف أنطون ليغطس فى نهر فتجلد ، متبرداً من حرارة الشمس المحرقة وبعد أن قضى ليلة مـريعة فى نزل على الطريق أعيد ثانية إلى تاجنروج ، وهو يعانى من التـهاب الصفاق (الغشـاء المحيط بالبطن) ، هوما سـبب له التهاب البـواسير الذى ظـل يعانى منه طوال حيـاته ، وقد عالجه طبيب المدرسة الدكتور شتريمف بعناية وإخلاص بحيث أن أنطون قرر أن يصبح طبـيباً إذ أن سمـاحة نفسه الفطرية دفـعته إلى التفكيـر بأن يقدم للآخـرين فى يوم من الأيام البـرء الذى حـظى به هو نفـسـه على يد هذا الطبـيب إلا أنه مـهنـة الطب تحـتـاج لسنوات وسنوات من الـدراسـة والتحصـيل، بينما نتائجه النهـائية فى صفه كـانت متدنّية جـداً بحيث كان عليه أن يعيد السنة الخامسة ، فضلاً عن أن محيطه الأسرى لم يكن يشجع على التفكير العميق .

وفى تلك الأثناء ، ونتيجة لسياسـة القبضة الحديدية التى ظل والدهم ينتهـجها ، قرر الشـقيقان الأكـبران ألكسندر ونيقولاى أن يهـربا بجلدهما بفعل اشمئزازهما من معـاملة والدهما ، فقد عمد ألكسندر الذى كان يميل إلى العنف وتقلب المزاج إلى قـطع علاقـته مع أسـرته منذ سن السادسـة عشرة وترك البيت لـيعيش فى بيت مدير المدرسة كمـدرس لأبنائه ، واعتبر بافل ييغورفيتش هذا التصرف تمرداً وإهانة شخصية له ، وعنّف الكسندر فى رسالة قال فيها : "يؤسفنى أنك بدأت تنسى أباك وأمك فى مثل هذه السن المبكرة رغم محبتهـما العميقة لك ، وعلى الرغم من أنهما ضـحيا بمالهما وصحـتهما ليـؤمنا لك تربية محـترمة ، لن أطلب منك منذ الآن إلا شيـئاً

واحداً ، وهو أن تغير طباعك ، وتتصرف تصرفاً حسناً بحق نفسك وبحقنا " .

غير أن ألكسندر صم أذنيه ، وبعد أن حصل على نتائج باهرة فى امتحاناته النهائية ، قرر التوجه إلى موسكو ليدرس الرياضيات فى الجامعة هناك دون أن يستشير أبويه فى ذلك ، أما نيكولاى الذى لم يكن قد تجاوز السادسة عشرة فى ذلك الوقت ولم يستكمل دراسته بعد ، فقد قرر هو أيضاً أن يرافق شقيقه و إذ كان يميل للرسم ويتوق للانتساب إلى مدرسة الفنون الجميلة فى موسكو ، وهكذا غادر المتمردان تاجنروج فى شهر آب / اغسطس ١٨٧٥ محطمين بافل ييغوروفيتش بتهورهما .

فراق شقيقيه الأكبر سناً والأثيرين إلى نفسه جعل طغيان أبيه أمراً شديد الإرهاق له ، وكرد فعل على هذا الجو الخانق فى البيت انغمس أنطون فى تحرير مجلة من نسخة واحدة مكتوبة بخط اليد سمّاها "المتأتئ" وكانت تتكون من صور قلمية موجزة ذكية تدور حول الحياة المحلية فى تاجنروج و قد لاقت مجلته هذه نجاحاً فورياً ، إذ كان زملاؤه الطلبة ينتظرون صدور أعدادها بصبر نافد ، وبعد أن تستكمل دورتها فى المدرسة ترسل إلى الكسندر ونيقولاى فى موسكو ولكن ألكسندر كان حكماً قاسياً فى هذا المضمار إذ كتب لوالديه معقباً على عدد ايلول / سبتمبر يقول : "ابلغوا محرر "المتأتىء " بأن مجلته أقل إمتاعاً مما كانت عليه من قبل ، إذ تعوزها النكهة " . ، بعد هذا الكلام القاسى توقف أنطون عن ممارسة نشاطه الصحفى هذا .

يضاف إلى ذلك أنه وجد صعوبه متزايدة فى الاستمرار فى انتهاج مزاج لعوب ، فالمصاعب المالية بدأت تحاصر الأسرة يومياً ، إذ كان بافل

بيـغوروفيـتش يدير حـانوته بطريقة يعـوزها التعـقل ، ولذا كانت أربـاحه معدومـة تقريباً ، بل إنه عجـز حتى عن تسديد فوائد المبلغ الذى اقـترضه لاسـتكمـال بناء البـيت وكـتب فى ذلك إلى ألـكسندر يقـول : "أرباحى تتناقض يوماً بعد يوم ، ولذا أجـدنى فى حالة من الكآبة والبؤس ، ولست أدرى أنا وأمك ماذا نفعل ،الـنقود النقود ما أصعب أن يجنيـها المرء بنزاهة وشرف" غير أن هذا التفجع أثار غيظ ألكسندر ، فأجاب والده بأنه وشقيقه أكثـر مدعـاة للشفـقة والعطف ، إذ يعـانيان من الجـوع ويرتديان الملابس البالية .

ولكن مخاوف بافل بيغوروفيتش كانت فى مكانها ، إذ بلغ درجة من الإفلاس بحيث أنه لم يعد قادراً على إبقـاء أبنائه فى المدرسة ، ولقد كتبت يفجينيا ياكـوفليفنا رسالة إلى ولديها فى موسكو تقـول فيها : "لم يذهب أنطوشكا وفـانكا إلى المدرسـة منذ أسبـوع ، إذ تطلب المدرسـة الأقسـاط المدرسيـة ولسنا نملك مالاً ندفعه لهـا ، ولقد ذهب بافل بيغوروفـيتش إلى المدرسة أمس ، ٩ تشرين الأول / أكتـوبر ، ليراجع المدير فوافق هذا على عودة فـانكا دون أن ندفع النقود أمـا أنطوشكا فما زال فـى البيت ، ونحن مـدينون بمـبلغ اثنين وأربعين روبلاً ، علـينا أن ندفـعـهـا من أجله ومن أجل،ماشا ، فكيف يمكننى الا أنزعج ؟ " .

ولكن هذا لم يهـز ألكسندر ونيـقـولاى : فقـد كـان ألكسندر يكدح للحصول على درجته الجـامعية فى الرياضيات وليعيل نفسه وشـقيقه بالقيام بأعمـال النسخ المرهقة ، أما نيقـولاى فكان يرسم طوال الوقت وهو ينتظر

حدوث معجزة تنقذهم من هذا البؤس ، مع ذلك فإنهما لم يندما قط لفرارهما من تاجنروج ، فقد كتب الكسندر لوالده قائلاً ، : "حين يكون قلبك مثقلاً ورأسك مليئاً بالأفكار القاتمة فإنك تتوقع كلمة تدخل السرور إلى قلبك ، تنتظر العطف ، أما ما نجده نحن فهو العظات بأن عليك أن تتوجه إلى الكنيسة : .

وبتوالى المصائب عليه اضطر بافل ييغورفيتش إلى إعلان أفلاسه فى النهاية ، وخوفاً من أن يزج به فى السجن بسبب ديونه انسلّ من البيت ومن تاجنروج إلى بلدة مجاورة لا يعرفه فيها أحد ، واستقل القطار من هناك متجهاً إلى موسكو وبعد سنين طويلة ، حلم خلالها بتحقيق النجاح الاجتماعى ، وجد نفسه فى النهاية فى عربة الدرجة الثالثة فى القطار ، وحيداً ، ذليلاً ، موصوماً مرهقاً وقد هرب من المدينة التى كان يحلم بها يبهرها بنجاحه كيف سينظر إليه أبناؤه وزوجته ، وكيف سيتقبله أكبر الأبناء فى موسكو هذا الأب الكهل الفاشل الذى طالما وبّخهم بكل عنف وعجرفة ؟

لم يبق من الأبناء من يمكنه أن يقف إلى جانب الأم غير أنطون ، فأرسلته أمه التى حطمتها الكارثة إلى أحد الأشخاص ممن يقرضون المال على أمل بيع البيت أو رهنه ، ولكن هذا الشخص لم يكن راغباً فى البيت فالتجأت إلى جميع أفراد العائلة طالبة عوناً مؤقتاً ، إلا أنهم رفضوا جميعاً أن يمدوا لها يد المساعدة ، حتى عمهم العطوف ميتروفان الذى أدعى أنه لا يملك نقوداً يسلفها لهم ، وهنا تدخل سبليفانوف الذى كان يسكن جزءاً من البيت ، معلناً غير ما يبطن أليس هو صديق العائلة ؟ ألا يمكنه إذن

كموظف في المحكمة التي ستنظر في قضية بافل يغوروفيتش أن يسوى الأمر بلمح البصر ؟ وهذا ما فعل ، إذا بعد أن دفع للمؤسسة المقرضة مبلغ الخمسمائة روبل التي أقرضها بافل يغوروفيتش استفاد من ثغرة في القانون وادعى ملكية البيت ، وزاد الطين بلة أن المحكمة حكمت بدفع الفائدة المتربعة على القرض ببيع أثاث الأسرة بالمزاد العلني .

وحين وجدت يفجينيا ياكوفليفنا أنها لم تعد تملك سقفاً يؤويها أو قشة واحدة من الأثاث توجهت إلى موسكو في ٣٢ تموز / يوليو ١٨٧٦ لتلتحق بزوجها المعدَم ومعها ابنها ميخائيل وابنتها ماريا ، في حين بقي إيفان مع خالته عدة أشهر في تاجنروج ثم انضم إليهم ولم يكن العيش في بيوت الآخرين مأساة كبرى في روسيا في تلك الأيام ،فحسن الضيافة كان أحد مظاهر الكرم ويتحذ اشكالاً عديدة، فإذا احتجت إلى مأوى فلابد أن تجد صديقاً يستضيفك . وإذا ذهب صديقك ضيفاً على أحد أصدقائه يمكنك ببساطة أن تمشي في ركابه ، وهكذا كانت البيوت الروسية تعج بالضيوف المقيمين ممن تربطهم بأصحاب تلك البيوت أواصر عائلية شديدة أو ضعيفة، أو بكلمات أخرى مليئة بطفيليين لا يمكن الاستغناء عنهم ، وبظرفاء يعيشون عالة على غيرهم وقد أصبحوا جزءاً دائماً من نسيج العشيرة .

أما أنطون فقد بقي وحيداً مع سيليفانوف فيما كان يسمى من قبل منزل العائلة فقد عرض عليه المالك الجديد وهو يظهر بكل صفاقة اعتزازه بما حققه من نصر ، عرض عليه زاوية ينام فيها (وليس حتى غرفة مستقلة) وصحناً على مائدته مقابل تدريس ابن أخيه ، بيوتو كرافنسوف ، الذى جاء ليعيش مع عمه ، وكان يحضر لامتحان القبول في الكلية العسكرية ، قال

له سليفانوف وهو يبتسم ابتسامة صفراء : "إننى أحتاجك وأنت تحتاجنى: .

وكان بود أنطون أن يرفض ضيافة الرجل الذى دمـر أبويه ولكنه كان معدماً إلى الدرجة التى أجـبرته على ابتلاع كبـريائه وتحمل إهانات سيليـفانوف . هكذا أخذ يعيش منتظراً اليوم الذى يمكنه فيـه أن يترك المدرسة. فبعد ثلاث سنوات يمكنه أن يتـوجه إلى موسكو وهو يحـمل بيده ، إن سـارت أموره على ما يرام أما الآن فعليه أن يعتمد على نفسه .

٣ - إغراء موسكو

أخذ أنطون يشعر بمزيد من الوحدة والحساسية المفرطة بعد أن تفرقت العائلة ، وعلى الرغم من أنه تحرر بذلك من الكثير من الأعباء - بما فى ذلك رعاية الحانوت ، أو تلبية طلبات الزبائن ، أو الغناء فى كورس الكنيسة ، أو الإذعان لأفكار أبيه المستبدة المتطرفة - إلا أنه كان لهذه الحرية جانبها المر أيضاً . . فقد أصبح مسئولاً وهو بعد فى السادسة عشرة من عمره ، عن تأمين معيشته واحتياجاته ولذا عمد إلى إعطاء دورس خاصة كى يحصل على روبلات قليلة . كان يركض من أدنى المدينة إلى أقصاها ومن تلميذ إلى تلميذ وهو يرتجف أيام الشتاء من البرد وسط معطف بال مهلهل وبما أنه لا يملك الإمكانيات اللازمة لشراء حذاء طويل فقد كان يحرص على إخفاء الحذاء الذى ينتعله والمغطى بالأوحال تحت الطاولة أثناء إعطاء تلك الدورس ، يشعر بالامتنان لكوب الشاى المحلى الذى تقدمه له عائلات تلامذته الأكثر تفهماً ولطفاً و لقد وصف الفقر الذى عايشه فى سنوات مراهقته بعد أن كبر بأنه "مثل وجع ضرس لا ينقطع " ولكن كان له صديق يفوقه حرماناً وفقراً وهو شاب ذكى ملئ بالحيوية اسمه إسحق سورليف كان كثيراً ما يظل جائعاً ، ولذا اقترح أنطون أن يتناوبا تدريس أحد تلامذته والذى كان يعيش على مسافة بعيدة وراء خط سكة الحديد ، وكان يدفع لهما ثلاثة روبلات فى الشهر يقتسمانها وكأنهما أخوة .

قبل أن تغادر تاجنروج طلبت أم أنطون منه أن يبيع الأشياء القليلة التى تركتها وراءها ، بما فى ذلك خزانة صغيرة ذات أدراج وبعض الكراسى المكسّرة وملابس قديمة وحلّل وأوان قليلة ، وأن يرسل ثمنها وأى مبلغ آخر

يستطيع توفيره ، وحين أخفق في تحقـيق هذه الرغبة على الفور أخذت تبثه شكواها في رسائل تكتبها بلغة ساذجـة مليئة بالأخطاء الإملائية والنحوية ، ما كان يغيظها بشكل خاص هو أن ابنـها يجيب بأسلوب ساخر تهريجي ، فلم تكن في مستـوى يؤهلها لأن تعرف بأن سخريتـه التي تنبع من أعماق اليأس إنما هي تعبير عن سمو نفسه ، ولقد كتبت له في ٢٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٧٦ تقول : "تلقينا منكم رسالتين مليئتين بالنكات والسخرية في وقت لم نكن نملك فيـه إلا أربع كوبيكات لشراء الطـعام والشموع ، كـما نتوقع أن ترسل لنا نقـوداً فوضعـتنا صعب للغاية ، وقـد لا تصدق ذلك ، ماشا ليس لديها معطف وأنا لا أملك حذاء مبطناً بالفرو ، ولذا فإننا نبقى في البيت باستـمرار ، وليس لديّ ماكينة خيـاطة تمكنني من الحصول على قدر ضئيل من المال ، كما أنك لم تخبرنا مـتى سترسل النقود المستحقة لنا إننا متضايقون جداً فأرجو أن تكتب لنا بسرعة بحق الله أرسل النقود بسرعة .. لا تجعلني أمـوت كمـداً " أما ألكسندر فقـد عبّر عـن الوضع بصورة مختلفة إذا قال : " إننا في وضع سيئ .. استهلكنا كل ما لدينا من نقود، وهذا ليس بالأمر الجديد ، القصة نفسها تتكرر باستمرار ، ولم يعد لدينا ما نرهنه " .

ولكن أنطون لم يشـتك على الإطلاق ، بحيث أن حـياته كـانت قد تبدو وردية في نظر الغرباء عنـه ، من قمة تجربته كمـراهق كان يعطي أفراد عائلته دروساً في السلـوك الأخلاقي ، ولقد كتب لأخيه الأصغـر ميخائيل يقول : "لماذا تصف نفسك في الرسـالة بـ "شقيقك الأصغر عـديم القيمة والأهمية ؟ " هل تعتبر نفسك فعلاً عديم القيمة ؟ عليك أن تعرف أن ليس كل "ميـشا " هو مـثل "ميشـا " آخر أتدري أين يتـوجب عليك أن تحس

بضآلتك ؟ ربما أمام اللـه ، أو الذكاء الإنسانى ، أو الجمال أو الطبـيعة ، ولكن ليس أمام البشر على الإطلاق أمـام الناس عليك أن تشعر بأنك أهل للاحترام ، فلست إنسـاناً غشاشـاً بل إنساناً شريفاً ، أليس كذلك ؟ حسناً احترام كونك إنساناً شريفاً ، لا تخلط بين التواضع وبين الشعور بالضآلة" .

وفى غمـرة حمـاستـه واندفاعه وتدفـق عواطفه قـرر أنطون أن يوثق علاقاته بابن عم له اسمـه ميخائيل تشيخوف ، وكـان يكبره بعشر سنوات ولـم يلتق به من قـبل قط ، ولذا نشأت بينهمـا مراسلة حـارة وودية بحيث أخذ أنطون يعتبره أخا له ، "أخ كـان بعيداً عنه " . ولقد طلب منه صورة شخصية ومعـلومات عن أسلوب حياته : "أكتب لى هل تدخن أم لا ، إذ إننى أتوق لمعرفة ذلك " . كما رجاه أن يعتنى بيفجينيا ياكوفليفنا قائلاً : " هل يمكنك أن تستمر فى العطف على أمى ، فهى مسحوقة جسداً وروحاً ، وقد وجدت فـيك أكثر من ابن آخ ، ومن طبـيعة أمى أن تتأثر غـاية التأثر لأى دعم معنوى تلقاه من شخص آخر ، وفى هذا العالم الخبيث لسنا نجد أعز عـلينا من أمهـاتنا ، ولذا فإننى سـأكون خـادمك المطيع الممتن لك إذا حـاولت إدخال السـرور إلى قلب هذه الإنسـانة وهى تشرف على أواخـر حياتها تقريبـاً : وبعد شهرين تقريباً كتب لميخائل تشـيخوف أيضاً يقول : " أبى وأمى هما الوحيدان اللذان لن أبخل عليهما بشئ قط ، وإذا استطعت أن أحقق شـيئاً فى حـياتى فالفضل فـى ذلك يعود إليهمـا وحدهما إنهـما إنسانان رائعان وحبهما لأبنائهـما لا تحده حدود وأكبر من أى مديح ، وهو يكفى ليمحو أية عيوب لديهما نشأت عن قسوة حياتهما " .

وعلى الرغم من العيوب العـديدة التى كان يجدها لدى والديه إلا أنه كان يشعـر بأنه ليس من حقه أن يصدر عليـهما أحكاماً بل يغفـر لهما كل

شئ مقـابل ذكرى ساعات قليـلة من الهناء العائلى ، وتشوقـه للرحيل إلى موسكو إنما كان يعود ، فيمـا يعود إلى رغبته فى رؤية أولئك الاعزاء على قلبه ولقـد كتب لميـخائيل تشيـخوف يقول : "ليـست هناك أية متـعة فى تاجنروج : إنها مملة إلى درجة قاتلة " .

أخذ أنطون يجـاهد كى يتقـدم فى دراسته مـتجاهلاً مـعدته الفـارغة والأمور الكثـيرة التى تشـغل ذهنه ، تحول من ذلك الإنسـان المستـغرق فى أحلام اليقظة فى بداية حـياته إلى انسان قادر على العمل الجـاد ، فأخذت درجاته تتصاعد باستمرار ومن شهر إلى شهر بحيث أصبح أمله فى الحصول على شهادة الدبلوم وفى دراسة الطب أمـرين يصلان إلى درجة الهوس فى أيام الآحاد أو العطل كان يلتجئ إلى المكتبة العامـة التى فتحت حديثاً ليقرأ كل ما يقع تحت يديه من كتابات "هارييت بيشر ستو* " و "شوبنهاور** " و " هومبـولدت*** " و "فـيكتـور هوجـو " ، "سـيـرفـانتس " و "جونكاروت " و "هورجنيف" و"بيلنسكى" رائحـة الكتب فى حد ذاتها كانت تبعث فى نفـسه النشوة ، بل كانت تمر عليه أوقـات ينسى خلالها، الطعام ، وما لبث أن بدأ يشجع أشقاءه على الالتفات إلى اهتمامات أفضل وحين كتب له شقيقه الأصغر ميخائيل بأنه استمتع أيما استمتاع بقراءة "كوخ العم توم " أجابه قائلاً بتعابير تحـمل معنى الإصرار ، : "لقد دفعت السيد بيشر ستو الدموع إلى عينيك ، أليس كذلك ؟ أما أنا فقد غرقت فى كتابها هذا إلى أن أجهزت علـيه لأسباب تعليمـية قبل سـتـة أشهر ، وحين أنهيته

* كاتبة امريكية (١٨١١ - ١٨٩٦) .

** الفيلسوف الألمانى المتشائم (١٧٨٨ - ١٨٦٠) .

*** عالم الطبيعات الألمانى وكان كذلك رحالة سياسياً مرموقاً .

شعـرت بذلك الشعور الممض الذى يحس به الإنســان بعد أن يتناول كمـية وافرة من الزبيب أو المشمش المجفف ، . . . . حـاول أن تقرأ كتاب "دون كيشوت " لسيرفانتس الذى يمكن اعتباره فى مصاف شكسبير "ولقد أثر فيه شوبنهـاور إلى درجة أن وصل إلى حـافة اليأس فى مـرحلة من المراحل ، والحيـاة فى تاجنروج لم يكن فيـها أى ترياق وللتـخلص من هذه الأفكار الكئيبة أخذ يقرأ المجلات السـاخرة التى تصدر فى موسكو وبطرسبرج مثل "ذبابة التنين " والسـاعة المـنبهـة " و"شذرات " وكـان يطلق ضـحكات صـاخبـة وهو يجلس بجـوار أندريه دروسى فى المكتـبة العـامة حين يقـرأ المقالات اللاذعة والنكات ، بحيث أن القراء الاخرين أخذوا يتذمرون منه .

كانت لأندريه دروسى شقيقة جذابة اسمها مارينا أخذ أنطون يميل إليها ويتمشى معها فى الحديقة العامة ويعطرها بالسكاكر ، ومقابل ذلك سمحت له بدخول غرفتها إلا أن هذه العلاقة كانت مجرد تعلّق عابر ، وإن كان قد مرّ بلحظات عاطفة لا تنسى فى فترة المراهقة كما قال لصديقه سوفرين فيما بعد .

وفى إحدى المرات كان يمعن النظر فى قاع بئـر حين جاءت فلاحة فى حوالى الخامسة عشرة من عمرها ووقفت بجانبه لتنتشل بعض الماء . كانت من الجمال بحـيث أنه أحاطها بذراعيـه ، وبدلاً من أن تحاول الإفلات منه استسلـمت لمداعباته ، ولكن إلى أى مدى مـضى فى هذا العناق الغريب ؟ لم يزد على ذلك فأنـطون متحـفظ بطبعه فـيما يبـوح به ولقد قال لأخـيه الأصغـر ميخائيل فى إحـدى المرات ، إنه مرّ بتجارب عـاطفية سعـيدة فى تاجنروج ، كما كـتب شقيقه الاكـبر الكسندر حين سئل عن تقييـمه لآماله العاطفية ومـا يرافقها من خيبات أمل يقـول : "لا داعى للنظر إلى الفتيات وكأنهن مـخلوقات مقدسـات فوق مستوى البـشر ، كما لا يجـوز اللهاث

وراءهن* ، ولقد كـانت غرامـيات أنطون فى الحقـيقـة محصـورة بحدود الافتتـان والإعجاب ، أكثر ممـا هى تعبير عن علاقـات حسية فـعلية كانت مشـاعره عمـيقة ، أفكار تعـبر عن مــشـاعر ، وربما كان أصــغر من أن ينغمس فى رغبات ارتباط لها طبيعة شهوانية .

وفى عام ١٨٧٧ أرسل ألكسندر إلى أنطون تذكـرة للسفر بالقطار إلى موسكو فى عطلة عيد الفصح ، وهكذا انـطلق فى رحلة طويلة تمتد مسافة ألف ومائتى كيلو متر تتنازعه عـواطف الفرح والخوف مما سيلقاه فى الطرف الآخر من الـرحلة ، فالرســائل التى كان قـد تلقاها من أمـه وأخيه هـيأته لوضعية صعبة ، غير أن الواقع الذى لا قاه كان فوق ما يتصور .

كانت عائلة تشيخوف تعيش فى غـرفة مفروشة ، فرشت على أرضها مرتبـة يستلقى عليـها جمـيع أفراد العائلة جنبـاً إلى جنب حين يحل الليل وكان نيكولاى وصديقه ، وهو رسام أيضـاً ، يسرقان الخشب من العربات لإشعال الموقد ، أمـا يفجينيا نيكولايفنا التى ترتدى معطفاً رجـالياً مهلهلاً فهى تستيـقظ قبل الفجر لاستكمال مالديهـا من قطع الخياطة التى تتكسب منها ، فى حين أن بافل ييغورفيتش الذى عمل فاعلاً يدوياً لفترة من الوقت كان عـاطلاً عن العمل معظم الوقت ، وعلى الرغم من ادعـائه بأنه يقضى وقته باحثاً عن عمل ، فقد كان فى الواقع يصرف نهاره كله وهو يشرب مع أصدقائه . أما مـاريا الرقيقة والتى كانت فى الرابعة عشرة من عـمرها فقد كانت تتـولى تنظيف البيت والطبخ والغسـيل ، إذ لم يكن لدى الأسرة من النقود يمكنهـا من إرسالها للمدرسة وإضـافة لأعمال البـيت ، كانت ماريا تنسج الملافع الصوفية مقابل خمسة عشر إلى عشرين كوبيكاً للملفع الواحد أما الشـقيقان الأكـبران فكانا يؤمنان جانبـاً من دخل الأسرة بإعطاء دروس خاصة ونسخ ملازم المحـاضرات وتوفير الرسوم لمجلات قليلة الأهمـية غير أنه كان على ألكسـندر أن يعيل امرأة قـد أغواها بحيث تركت زوجـها من

أجله ، فى حين أن نيكولاى كان يقضى معظم وقـته وهو يشرب الخمر فى الحانات أكثر مما يقضيه فى رسم اللوحـات فى مدرسة الفنون الجميلة كانت الأسرة تغرق شـيئاً فشـيئاً فى مسـتنقع متعفن مـستسلمة لقـدرها ، بحيث أصبـحت حيـاتهم فى تاجنروج تبدو وكـأنها قـمة التـرف والأناقة مـقارنة بحياتهم الحالية .

غير أن ما فاجـأ أنطون لدى وصوله بشكل خاص هو موقف والده ، إذا أن إفلاسه لم يؤد قط إلى هز ثقته بنفـسه ، بل إنه وبالرغم من الصفعة القوية التى تـلقاها ، استـمر يلعب دور الأب المستـبد الذى تلهـمه العناية الإلهية فهو قادر على إلقاء المواعظ الدينية بكل يسر وسرعة ، حيث يشترى نصوصها من شماس فى الكنيـسة القريبة من مكان سكناه ، وإذا تجرأ أحد أولاده على مقاطعته وهو يلقى مواعظه الدينية فإنه ينهرهم قائلاً : "اسكتوا ياعبدة الأوثان " وفى نهاية كل جلسة وعظ يـعلق الموعظة بمسمار ويعطيها رقمـاً وتاريخياً ويكتب عليـها : "الثمن " كـوبيك فضى واحد ، الحـمد لله! " . كمـا كان يعلق قـائمة من القواعـد والإجراءات المكتـوبة بخط اليد تحت الإيقونة تحت عنوان : "برنامج عائلة بافل تشيخوف فى موسكو " .

وكانت تحدد لكل من الأبنـاء ، باستثناء الاثنين الأكبر سنا ، مـواعيد النوم والاستـيقاظ وتناول الطعـام والتوجه إلـى الكنيسة (صـلاة الصبح فى السـابعة يومـياً ، والقـداس فى أيام العطل فى الساعـة السـادسـة والنصف والتاسعـة ،) والمرسوم الأبوى مذيل بالتحذير التالى : "أى مـخالفة تؤدى إلى عدم التـقيد بهذه الواجـبات تعّرض مـرتكبها للتـوبيخ الشديد فى المرة الأولى ، ثم الضـرب بعد ذلك ، كـمـا أن الصراخ أثناء الضـرب ممنوع " وبعد ذلك "أبوكم : باف تشيخوف " .

كان أول المضروبين "ميخائيل" الذى كان فى الرابعة عشرة ، فلقد استيقظ بعد ثمانى دقائق من الموعد المقرر له ، وبعد ذلك بفترة قصيرة أخذ إيفان البالغ من العمر ستة عشر عاماً يصرخ بصوت عال أثناء الضرب بحيث أن الجيران اشتكوا من ذلك فكان رد فعل بافل بيغوروفيتش الوحيد إزاء ذلك هو أن الناس فى المدينة الكبيرة نسوا أهمية النظام البيتى الصارم ، أما هو فليس فى موقفه أى خطأ .

وحين يطلب منه تفسير أمر تعطله عن العمل يحملق بعينيه ويطلق كلمات يختارها بعناية من الإنجيل قائلاً : "فكروا بالغربان ، فهى تبذر ولا تحصد ، ولا تحتفظ بمخازن أو أهراء للحبوب ، ولكن الله يؤمن لها رزقها " ثم ما يلبث أن يهبط إلى المستوى الأرضى فيصيح بصوت عال : "لابد من تأمين الطعام للأب والأم "* فقد كان يشعر بأنه قدم لأبنائه ما يكفى بحيث يتوقع منهم أن يتكلفوا بأمره ويحترموه حتى آخر أيام حياته ، فهذا هو التعبير عن التضامن العائلى ، كما يردد !! ولكى يهيئ نفسه لحالة الكسل المستشرية والمفعمة بالنشاط والخفة كان يعمد إلى الشراب.

وحين تتحول شقته البائسة إلى ملتقى لأصدقائه فى الأمسيات كانت زجاجات الفودكا ونبيذ القرم تتوالى واحدة بعد أخرى ، وما أن تفعل الخمر فعلها وتدور الرؤوس حتى يبدأ الحضور فى التفلسف - وهو مالايبرع فيه أحد إلا الروس - حول معنى الحياة وخلود الروح والبراهين على وجود الله - وبعد ذلك يبدأون فى ترتيل التراتيل الكنسية ، وحين يحين وقت انصرافهم تكون الألسن قد ثقلت والعيون أدمعت .

وشيئاً فشيئاً أخذ أنطون يشعر ، وقد أفزعه الدرك الذى انحدر إليه أبواه ، أنه الوحيد الذى يمكنه إنقاذهما ، وأن الفعل والحب هما سبيله إلى

* كان تشيخوف يردد فى هذا القول رسائله باستمرار من باب السخرية .

ذلك ، فإخوته الأكبرسناً لا يمكن الاعتماد عليهم بأن يمدوا يد المساعدة فى هذه المهمة بحكم طيشهم وعدم استقرارهم وكسلهم ولكنه لم يكن يلجأ إلى انتقاد سلوك إخوته بل يحاول أن يتقبلهم كما هم ، ويعزو سلوكهم إلى سوء طالعهم .

ولكى يتغلب على حزنه أخذ يتجول ليتفرج على المدينة مع أخيه ميخائيل ، وعلى العكس من بقية أفراد عائلته الذين كانوا يحنّون لتاجنروج فإن أنطون أخذ بما كان يراه فى هذه المدينة الكبرى : الشوارع المزدحمة الضاجة حيث يتزاحم الناس الذين يرتدون الملابس الأوروبية ، الضباط) ذوى الرتب العالية ببزاتهم الرسمية ، والنساء الأنيقات ، والفلاحات اللاتى يغطين رؤوسهن بالملافع ، الفلاحون الذين يرتدون الفروات المصنوعة من جلود الأغنام والمرقعة دون عناية وسائقوا العربات وهم ينادون على عرباتهم لاجتذاب الزبائن ، أو يتجادلون معهم حول السعر المطلوب ، الأبنية ذات المظهر الهادئ والمصبوغة بألوان رقيقة ، واجهات المحلات التى تعرض بضائع فارهة . وفى الساحة الحمراء أخذته أولاً جدران الكرملين وتلك الكاتدرائية ذات الألوان المرحة المتنافرة والتى تبدو وكأنها خليط من لعب الأطفال المرصوصة دون نظام على طرف إحدى الطاولات كان يحلم وهو يتفرج على واجهة مسرح البولشوى المذهلة ويضيع فى الأزقة الضيقة المؤدية إلى نهر موسكو ، والتقى بابن عمه ميخائيل تشيخوف الذى كان يراسله بانتظام وأسعده أن يرى بأنه وضع ثقته فى مكانها الصحيح ، فقد كان ميخائيل إنساناً ودوداً متزناً مغرماً بالمطالعة ، وكان يمارس عملاً واعداً لدى أحد التجار وهو مخلص لأسرة عمه ، وإدراكاً منه لمحبة أنطون للمسرح فقد حرص على أن يأخذه إلى المسرح .

وحين عاد أنطون إلى تاجنروج أدرك بأنه لن يقتنع بمباهج الريف ، بعد أن تنفّس هواء العاصمة . كانت رأسة تدور حين يفكر بموسكو ، وكتب إلى ابن عمه ميخائيل يقول : « ذهبت إلى مسرح تاجنروج مرة وقارنته بالمسرح لديكم في موسكو . ويا للفرق الشاسع ! ويا للاختلاف بين موسكو وتاجنروج ! حالما أنهى دراستى سأطير على جناح السرعة إلى موسكو ، إذ أننى مغرم بها إلى أقصى درجة » . ولم يمنعه من العودة إليها فى العطلة الصيفية إلا أمر واحد « سيفسره وزير المالية ! » كما كتب بسخرية حزينة . ولئلا يرهق ابن عمه بما يردده من شكوى حول فقر أبويه المدقع فقد أتبع ذلك بتأكيدات تفيد بأنه يتوقع أن يجنى ثروة طائلة من أعمال التجارة قائلاً : « أعتقد أن علينا أن نحتمل هذا الوضع بعض الوقت . وحين أصبح ثرياً - وهذا أمر مؤكد ، تماماً كما أن اثنين زائد أثنين يساوى أربعة - ويصل رأسى إلى السقف فلن أطعمك إلا الخبز الابيض والعسل ، ولن أقدّم لك إلا أفخر النبيذ ، لقاء عطفك الأخوى الذى تقابل به احترامنا وحبّنا لك . إنك انسان رائع من جوانب عديدة ، ولست أقول هذا الكلام من باب المجاملة ، بل كأخ ، وأتمنى أن تعيش مائة سنة أو يزيد ! » . غير أن طموحه فى أن يصبح تاجراً يرفل بالغنى والسعادة لم يتجاوز اللحظات التى كتب خلالها الرسالة بالتأكيد .

حين كانت تستبد به الحاجة للتغيير والابتعاد عن جو الدراسة كان يتوجه إلى قرية على شاطئ البحر تعرف باسم « المحجر » وتبعد مسافة فراسخ قليلة عن تاجنروج . وقد أخذت القرية هذا الاسم بعد وباء انتشر فى المنطقة منذ سنين أجبر الناس على الالتجاء إلى تلك المنطقة . وما لبثت القرية أن تحولت إلى منتجع تمتد به البيوت الريفية ويقصده الشبان حين يميل الطقس إلى الدفء ، وهناك يلتقى أنطون بأبناء صفه فى مقصورة صغيرة ذات أعمدة بنيت فوق الماء .

كان معظم هؤلاء الشبان مفتونين بالسياسة بحيث أن بعضهم قرأ الكراسات السياسية الحماسية لألكسندر هيرزت أكثر المفكرين الروس ليبرالية فى القرن التاسع عشر . وبالحماس الذى يرافق سن المراهقة كان هؤلاء الشبان ينتقدون حكومة القيصر ألكسندر الثانى ويحلمون بتغيير نظام الحكم القائم . كما أن محاولة الاغتيال التى قامت بها إحدى المجموعات فى تلك الآونة حملتهم على الإيمان بأن التأييد لقضيتهم سيسرى فى روسيا كما تسرى النار فى الهشيم . كان هناك حماس متّقد واسع الانتشار للأفكار الليبرالية ، إلا أن أنطون كان ينأى بنفسه عن مناقشة قضايا يشعر بأنها تجاوز حدود معارفه .

غير أن ما كان يستهويه بشكل خاص ويتفوق على المجادلات التى لا تنتهى فى « المحجر » هو العطلة التى كان يقضيها مع أسرة تلميذه «بيوتر كرافتسوف » التى كانت تملك مزرعة فى سهوب الدون . فهناك كان يجد ذلك النوع من الحياة الذى يتناغم مع الطبيعة ، نفس نمط الحياة الذى كان يروقه فى بيت جده فى أملاك الكونتيسة « بلاتوفا » . اتساع السهوب هناك يعطى المرء فى البداية شعوراً بالحرية المطلقة . غير أن مرأى هذه المساحات المسطحة الفارغة الى لا يعترضها تل أو غابة تجذب العين يصبح بمرور الوقت باعثاً على الشعور بالغم . ولكن المزرعة كانت توفر لحسن الحظ العديد من سبل التسلية ، فتعلم أنطون على يد تلميذه ركوب الخيل والرماية والصيد . كانت الكلاب تنطلق فى ساحة الصيد وكأنها الذئاب المسعورة بعد أن يتم تجويعها فى البيت . وهذا العنف هو القاعدة السائدة حتى فى المزرعة نفسها . وحين يستدعى إعداد الطعام استخدام فرخة فإنها تقتل فى الحال بطلقة تصوب إليها – من باب التمرين وممارسة الرياضة . كما أن ترويض الخيول البرية من

التسليات الرياضية المألوفة . وهكذا كان أنطون يبقى عينيه مفتوحتين ليتشرب تلك المشاهد ويختزنها في داخله .

فقد كان قد بدأ يحلم باحتراف الكتابة ، ليس كأمر جدّي بعد ، بل كوسيلة للتكسّب . فمنذ شهر تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٧٧ أرسل لأخيه ألكسندر بعض الأقاصيص كي يعرضها على مجلات هزلية في موسكو ، لكن دون جدوى . وفي العام التالي أرسل لشقيقه مسرحية هزيلة ساخرة تحمل عنوان « الدجاجة فزقوت » ، وكوميديا ناقدة بعنوان « التقي قرينه » ، ومسرحية درامية أبطالها من لصوص الخيل والقطارات وخاطفي الفتيات * . وقد وصف ألكسندر ، ناقده الذي لا يرحم إطلاقاً ، وصف هذه الدراما الأخيرة بأنها مجموعة من الأحداث الملفّقة غير المقبولة ، وإن كان دافعها برئياً . لكنه حين قرأها لمجموعة من الأصدقاء بمن فيهم كاتب مسرحي اسمه سولوفيوف كان رد فعلهم إيجابياً . وكما قال الحكيم ، أي شقيقه : « الأسلوب ممتاز ، والمسرحية نفسها ذكية إلا أنها لا تنمّ عن الكثير من دقة الملاحظة لأمور الحياة ، كما تدلّ على انعدام التجربة ، وبمرور الوقت قد تصبح كاتباً ماهراً » .

غير أن الكاتب الماهر كان غارقاً في الامتحانات حتى قمة رأسه ، ولقد كتبت له أمه في ٢٩ شباط / فبراير ١٨٧٩ تقول : « حاول أن تنهي دراستك بأسرع وقت لكي تأتي بسرعة وتقيم معنا . أنتظرك بفارغ الصبر ، وإذا كنت تقدّر رغبتي أرجو أن تتقدم لكلية الطب ، فالطب أفضل مهنة . وتذكر يا أنطوشكا أن بإمكانك دائماً أن تحصل على معيشتك في موسكو إذا جاهدت في عملك . . . أشعر على أية حال بأن أحوالي ستكون أفضل بعد أن تأتي إلى هنا » .

* لقد فقدت مخطوطات هذه الأعمال التي أنتجها في سن المراهقة .

وبعد أربعة أشهر قدم أنطون المجموعة الأخيرة من امتحاناته . كان أولها اللغة الروسية ، وكان موضوع الامتحان : « لا مصيبة أكبر من الفوضى » . وكان على أنطون أن يناقش هذا الموضوع ويقدم وجهة نظره فيه على مدى ثلاث ساعات كاملة ، وكانت النتيجة مرضية إلى حد كبير : ٤ من ٥ . وبما أن علاماته في المواد الأخرى كانت مشابهة فقد حصل على شهادة الدبلوم التى يطمح إليها الجميع ، بسرها الامبراطورى وما يتبع ذلك من العلامات المميزة للشهادة . وتذكر الشهادة فيما تذكر : « السلوك : ممتاز ، الانتظام : جيد جداً . المثابرة : جيد جداً ، الأعمال الكتابية : جيد جداً . » فرحته كانت بلا حدود . وعلى الرغم من جميع الذكريات التى تربطه بتاجنروج فقد كان ينتظر بصبر نافد أن يتخلص من جوها المتعب الضيّق . فموسكو وبريقها يسحره ، ويمكنه هناك أن يكتب ويكوّن صداقات جديدة ويرتاد المسرح . ربما كانت الغمامة الوحيدة التى تظلّل هذا الأفق هى تسلط أبيه ، ولكنه مستعد لتجاوز هذه الغمامة ، إذ أن الحكمة التى اكتسبها بحكم اعتماده على نفسه وهو وحده فى تاجنروج جعلته يتجاوز سنى عمره . وبحكم جدّيته وترفّعه وتواضعه البعيد كل البعد عن السذاجة ، تعلّم أن يعطى المقام الأول فى حياته لحريته فى الفكر والعمل .

« موسكو . . . موسكو . . . موسكو . . . » صرخة الأمل ، كم رددها فى بلدته تاجنروج قبل أن يسجلها على لسان بطلات مسرحيته «الشقيقات الثلاثة » . ولكن كان عليه على الرغم من انتهاء امتحاناته أن يبقى فى تاجنروج لبعض الوقت أثناء الصيف سعياً للحصول على منحة من المدينة قيمتها خمسة وعشرون روبلاً فى الشهر . كما استطاع أن

يقنع اثنين من زملائه كانا ينويان أيضاً دراسة الطب أن يقيما ويتناولا طعامهما لدى بيت والدته واعداً إياهما « بطبخ لا يعلى عليه » .

وحين ترتبت الأمور فى النهاية استقل الثلاثة القطار متجهين إلى موسكو فى ٦ آب/ أغسطس ١٨٧٩ . وقد أورد الإذن الرسمى الذى يسمح بموجبه للروس بتغيير أماكن سكناهم الأوصاف التالية لأنطون : « السن : تسعة عشر ، الطول : ١٨١ سم ، لون الشعر والأهداب : كستنائي ، العينان : بنيتان ، الانف والفم والذقن : عادية ، الوجه : بيضوى ، البشرة : فاتحة ، سمات مميزة : ندبة فى الجبة تحت الشعر » .

وحين وصل إلى موسكو استأجر أنطون عربة وأبرز لسائقها عنوان منزل والديه الجديد ، على أن ينضم إليه صديقاه لا حقاً بعد أن يلتقى بأهله ويستقر به المقام . وما أن صرف العربة أمام البيت حتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام شقيقه الأصغر ميخائيل الذى كان يستمتع بأشعة الشمس على عتبة الدار . ولكن أنطون كان قد تغير بحيث أن الطفل لم يستطع التعرف عليه . فخلال هذين العامين تحولّ ذلك المراهق ذو الوجه المستدير إلى شاب طويل نحيل ذى قسمات وسيمة وخدين شاحبين ، وكان يرتدى بدلة بالية وقبعة أصغر من حجم رأسه . كان شعره طويلاً ، وشارب خفيف يعلو شفته العليا بحيث يبدو وكأنه المسيح بعينيه العميقتين اللطيفتين ، ولكن ابتسامة ساخرة تزّين وجه هذا المسيح ، أكان يسخر من نفسه أم من الآخرين ؟ وما لبث أن قال بصوت مخمليّ جهير : « كيف حالك يا ميخائيل » . وهنا أدرك ميخائيل أن من يخاطبه هو شقيقه ، فصاح بصوت لاهث وقد غمره الفرح : « أنطون » ثم اندفع إلى داخل البيت .

أسرعت الأسـرة كلها لتعـانق القادم والدمـوع تغمر عـيونهم . وبعـد العناق والصـراخ ورسم إشارة الصليب تحت الايقـونات ، وهو أمـر لا بدّ منه ، أوفدت يفجينيـا ياكوفيلفنا ابنها ميخـائيل كي يرسل برقية إلى والده الذى كان يعـمل موظف حسـابات لدى أحد التـجار الاغنياء على الضـفة الاخرى من الـنهر . كانت تـكلفة البـرقيات المحليـة حينذاك هى كـوبيك للكلمة الواحـدة .وسرعان مـا اجتمـعت العشيـرة كلها بما فيـها شقـيقـة يفجينيا ياكوفليفـنا ، الخــالة فيدوسا ، وكـانت امـرأة ذات أخـلاق عذبة إلا أنها كـانت تخاف باستمـرار من أن يداهمها الحـريق ، ولذا فهى تنـام وهى ترتدى خـفيّـها . ومـا لبث الساكنان الجـديدان أن انضـماً إليـهـم ، وهذان هما زيمبولا توف ، وهو قصيـر وسمين همه أن يحصل على زوجة ثرية أكثر من دراسـة الطب ، وسافيليف وهو شـاب وسيم هادئ وجاد . كـان الجمـيع يضـحكون بصخب تحت ذلـك السقف المقنطـر ويحتـفـلون باجتماع شملهم بـاحتساء النبيذ الفودكا ومالبث بافل يـيغوروفيتش أن ألقى كلمة نمّقهـا بمقتطفات من الانجيل وحين انتقلوا إلى مـائدة الطعام كانوا فى حـالة المرح والنشوة بحـيث أن أنطون نسى كل المتـاعب التى يتـوقع له أن يواجهها فى الأيام المقبلة .

٤ - قائد العشيرة الجديد

مـا إن تلاشت نشوة الفـرح الأولـية حتى بدأ أنطـون يدقـق النظـر فى مقامه الجديد ، مما مـلأه فزعاً . فقد كانت عائلة تشيـخوف تسكن فى قبو بناية تملكهـا كنيسة القـديس نيكولاس فى حى كراشكوفـا المظلم فى قلب منطقـة الضوء الأحمـر ، وهو البيت الثـانى عشـر الذى أنتقـل إليـه مـنذ وصول العائلة إلى موسكو .

كان الغـسيل منشوراً باسـتمرار على حـبال الغسـيل مما يخلق جواً من الرطوبة القارصـة . فى حين أن ما يمكنك رؤيته عـبر النوافذ الصغـيرة هو أقدام المارّة فقط والشـارع يمثل مشهداً متتـابعاً من واجهات الأبنية المتـداعية والحـوانيت الصـغيـرة القـذرة ونساء الليل اللاتى يـتسكعن فى مـداخـل البـيوت . كل شئ ينضج برائحـة الفـقر والعـفن . ومع ذلك فأى مـوقع مراقبة أفـضل من هذا بالنسبة لإنسان قدرّ له أن يصـوّر عذابات بنى البشـر فى مقبل أيامه ؟

كان عشرة أشـخاص يعيشون متكوّمين فوق بعضـهم البعض فى غرفة سيئـة التهوية . فقـد التحق بالطالبين الساكنين لديهـما طلب ثالث يدرس الطب ويدعى كـوروبوف ، وكان لـطيفـا وكأنه فـتـاة عذراء . أمـا بافل يغـوروفيتش فـقد كان يقـيم لدى صاحب عـمله ويعـود إلى البـيت يوم الأحد من كل أسبـوع، أما راتبه الضئيل ، وهـو ثلاثون روبلاً فى الشهر، فلم يكن ليـمكنه أن يـغطى مـصـاريف العـائـلة : وكـان الابن الأكـبـر الكسندر ، يعيش خـارج البيت ، شأن والده ، وكـان انساناً متّقـد الذكاء

ولكنه غريب الأطوار ، طموح ولكنه متردد ، مشقف غير أنه مفرط الحساسية . وعلى الرغم من أنه يكتب لـلعديد من المجلات غير أنه لا يلقى الكثير من التقدير ، ولذا فهو يحاول أن يدفن خيبته فى معاقرة الخمر . أما نيقولاى الذى كان ضعيفاً وكريماً وموهوباً إلى درجة مذهلة فى مضمارى الفن والموسيقى ، فقد كان يبدّد مواهبه فى مزيج من البلادة والشراب بحيث أنه كان ينحدر شيئاً فشيئاً فى أعماق انهيار مؤكد من صنع يديه . لم يكن يستيقظ من النوم إلا بحلول الظهر ، إلا فيما ندر ، وينسى أن يغتسل أو ينظف نفسه ، ولكنه كان يبيع لوحة من رسمه بين آونه وأخرى ويتكسب بعض المال من دروس فى الرسم . أما إيفان ، الذى أصبح مدير مدرسة فيما بعد ، فقد كان على العكس من إخوته إنساناً صموتاً مثابراً ولكنه يفتقر إلى سعة الخيال وذكاؤه محدود . كان أنطون يقول عنه بسخرية : « إنه العضو الأكثر صلابة وتحملاً فى الأسرة » ، ولكنه يفضل دون شك شقيقه العفريت الذى يزداد تألقاً : ميخائيل . أما ماريا فقد كانت تسحره بروحها الشفافه الحساسة إلى أقصى درجة ، ولكنها روح عملية فى الوقت ذاته . وقد صمّم أنطون تصميماً لا يتزعزع بأن من الواجب لها ولميخائيل أن يتابعا دراستهما مهما كلّف الأمر . كما أيقن بأن مكانه الطبيعى هو أن يكون وسط هذا العالم المحاط بالفقر والبلادة لكى يحاول إنقاذ أفراد عائلته ، بدلاً من أن يقتفى خطى أخيه ألكسندر بحيث ينأى بنفسه عن كل ما فيها من قذارة . كان مصراً على أن مبلغ المنحة التى يتقاضاها والتى تبلغ خمسة وعشرين روبلاً إضافة إلى الروبلات الستين التى يدفعها الساكنان كل شهر ، علاوة على ما يساهم به أبوه وما يمكن ادخاره من هنا يكفى لتأمين قوت العائلة إذا توافرت لذلك الإدارة السليمة ، ولكن يفيجينيا ياكوفليفنا ، وقد تعودت على العبودية فى طريقة معاملتها فى البيت ، لم

تكن لتجرؤ على استلام زمام الامور ولو إن غياب زوجها عن البيت أصبح يزداد باستمرار . ولذا كان على أنطون أن يتقدم لينهض بهذا العبء بأسلوب هادئ ورزين . شعر بافل بيغوروفيتش بنوع من المرارة في البداية وهو يرى هذا الابن المقدام يسلبه امتيازاته ، خصوصاً وأن أحداً لم يعد يستشيره فيما يجب اتخاذه من قرارات في البيت ، حتى إبان زيارته . وقد عبّر عن هذا الاستياء في البداية ولكنه مالبث أن تقبّل الوضع ، خصوصاً وأن أنطون استمر في معاملته بكل احترام وإجلال .

وتحت تأثير هذه القيادة الجديدة الحازمة ، وإن كانت حانية ، لهذا الشاب الذى لم يتجاوز التاسعة عشرة بدأ الجو في قبو تلك البناية يتغيّر . فلم تعد هناك قواعد للسلوك تعلّق على الجدار ، أو عقوبات جسدية أو انفجارات هستيرية. وكان أنطون يفضّل الإقناع على التهديد، والقدوة الحسنة التى يضربها بنفسه على الاقناع . ولقد أعلن بأنه سيقوم بأعمال البيت في يوم كذا وكذا ، وبحيث يتناوب أشقاؤه وأخته في الأيام الباقية . وجعل يوجّه ميخائيل بلطف حول العناية بهندامه والإقلاع عن المواربة في سلوكه والتصرف الحسن في كل موضع من المواضع . وشيئاً فشيئاً أخذ تفوقه الهادئ يحدث الاثر المطلوب حتى لدى أولئك الذين كانوا يتشككون في البداية في مدى قدرته على ممارسة هذا السلوك . وقد أطلق عليه ألكسندر اسم « بابا أنطوشا » ، وما إن كانت تثور مشكلة في العائلة حتى يتساءل أفرادها بصورة روتينية : « ماذا يقول أنطون ؟ » « . . . . . مارأى أنطون بذلك ! » . وما عقد العزم عليه هو أن يعيد غرس حبّ النقاء الخلقى والعمل الجاد في نفوسهم . وحتى أثناء تأهبه لدراسة الطب ، وهى مهمّة طويلة وشاقة ، كان يفكّر في سبل توفير المال اللازم لأجور مدارس إخوته الأصغر وشقيقته ، واستغلال ما يتمتع به

إخوته الاكبر سناً من مواهب ، وتحرير أبيه من عمله المذلّ ، وتخفيف أعباء الأعمال المنزلية عن كاهل أمه ، ولم يكن ليبخل بأية تضحية يمكنه تقديمها في سبيل انتشال عائلته من المستنقع الذى تردّت فيه .

بعد شهر واحد من وصوله أخذ أنطون زمام المبادرة لنقل عائلة تشيخوف أسمالها لتغادر ذلك القبو المظلم الكئيب إلى شقة أكثر اتساعاً بحيث أصبح لأنطون ونيقولاى وميخائيل غرفة مستقلة - كانت الشقة في نفس الشارع سيئ السمعة ولكنها في الطابق الثالث ، وبذا كانت خطوة أخرى في طريق النور . ولقد كتب ميخائيل بعد سنوات من ذلك يقول : « من يدرى ما كان سيحلّ بالعائلة لو أن أنطون لم يصل من تاجنروج في الوقت المناسب . لقد كان تحالفاً حنوناً ، وأنطون في موقع المركز منه » .

في غضون أسابيع قليلة تحسنت الأمور بالفعل : فميخائيل وماريا اللذان ظلاً يلازمان البيت منذ مدة طويلة تابعا دراستهما ، الأول في الجمناسيوم وماريا في معهد رايفسكى للبنات . أما ايفان فقد عاد إلى مدرسة إعداد المعلمين وتسجّل أنطون في السنة الأولى بكلية الطب بجامعة موسكو .

كان يتصّور الجامعة وكأنها معبد يونانى يتمدّد تحت شمس المعرفة . ولكن ما وجده أدهشه هو خليط من الأبنية المظلمة الخربة التى تفتقر لأى جمال . الغرفة الصغيرة ذات السقف المنخفض والتى تتم فيها إجراءات التسجيل كانت تزدحم بالطلبة ذوى الشعور الطويلة ممن تبدو عليهم علائم القذارة ، والذين يدخنون أنواع التبغ الرخيص ويتجادلون بأصوات عالية بحيث أن تشيخوف الذى كان ينفر من الفوضى والفظاظة لم يجد في نفسه الرغبة لمصاحبتهم . كما أن حضوره للدروس الأولى زاد من

شعـوره بخيبة الأمل بحـيث كتب يقول : « لسنـا إلا مجموعـة من طلبة المدارس ، نتقيأ مانحفظه ، وننساه بأسرع وقت ممكن » .

وعلى الرغم مـن خـيـبـة أمله إلا أنه كـان يدرس بجـدية ، فكانت المحاضـرات ودروس المختبر تشـغله منذ الصباح البـاكر حتى الثـالـثة بعـد الظهر . كـان معظم أسـاتذته من المدرسين المرموقين ، وأخـذ يحسّ بمدى جهله كلمـا استمع لهم ويتـساءل بينه وبين نفســه فيمـا إن كان سيـمتـلك المعرفة اللازمـة في يوم من الأيام بحيث يستطيع ممارسة المهـنة التى اختارها لنفـسه . وعلى الرغم من أن مـا اجتـذبه فى البداية إلى مـهنة الطب هـو الدور الانسانى الذى يلعـبه الطبيب فى المجتـمع ، إلا أنه أخذ يحلم الآن بالأمـان والاحترام اللـذين ينعم بهمـا من يمارسون هذه المهنة . إنه يـتوق لوداع الحياة التى تجـبره على ممارسة أعمـال متفرقة مـتنوعة لكى يســتطيع دفع الإيجار أو تبديل نعـل حـذائه ، ويتـــوق لليـوم الذى لا يخجل فيه من تداعى أسرته ويحصل فيه على دخل ثابت .

كان زمـلاؤه يتطلعون ، شـأنه ، للنجاح ولكنهم كـانو أيضـاً حـانقين على وضعهم المتـردى وينتقدون سياسة الـقصر القمعيـة ، وكانت العناصر الأكثر تعصباً بينهم تتكلم وتخطط وتعـدّ المنشورات التحريضية فى الروابط والمقاهى . إلا أن أنطون لم ينغمس فى هذه النشـاطات أيضاً ، شأنه حين كان فى تاجنروج . كان مؤدباً ولكنه مبـتعد ، فقد دخل كلية الطب ، فى اعتـقاده ، لكى يتعلم كـيفية العنـاية بالمرضى ، وليس كيفـية قلـب نظـام الحكم . لم يكن مـقتنعـاً بإمكانيـة أن يصبح المرء طبـيبـاً وثورياً فى نفس الوقت . يضاف إلى ذلك أنه كـان يجد اضطرابات الطلاب عقـيمة وذات طابع مســرحى . كان يمقت ، غريزياً ، التـجمهر والتـزاحم وردود الفعل القائمة على الانسـياق وراء الآخرين ، لأن هذا يغرق الملكة العـقلية للفرد

ويذيبها فى هستيريا الجموع ، وكان حريصاً على فرديته بصورة لا تسمح بالخضوع لضغوط المجموع ، ولذا فإنه كان يرفض أن يناصر جانباً دون آخر أو يوقع منشوراً من المناشير .

وفى ١ آذار / مارس ١٨٨١ اغتيل القيصر ألكسندر الثانى حيث مزقته قنبلة . صعق أنطون لهذا ، ليس لأنه يمقت العنف فحسب ، بل لأنه لا يفهم لم اختارت مجموعة المتصلبين تلك أن تتخلص من ملك ليبرالى حرّر الاقنان ونفّذ اسلوب المحاكمات عن طريق هيئة المحلفين وألغى العقوبة الجسدية ووعد بأن يوفر لروسيا أول دستور فى تاريخها . وحتى ولو كان هدف الثوريين من ناحية المبدأ هو تحطيم الرمز الذى يمثله القيصر أكثر من طموحهم لتدمير الرجل بالذات ، فقد انقلبت فعلتهم عليهم إذ بدأ ابن القيصر الذى خلفه ، وهو ألكسندر الثالث ، فى تطبيق سياسة قمع شامل ، فأعدم قتلة والده ووضع مشروع الدستور على الرف وزاد من عمليات التفتيش والاعتقال ، وعزز الرقابة على النشر وزاد من مراقبة الطلبة . وبعد فترة قصيرة من الاضطراب عاد زملاء أنطون إلى نشاطاتهم الاحتجاجية ضد الحكومة ، وكان هو فى حد ذاته يبذل قصارى جهده ليفهم مراميهم ، ولكنه ظل محتفظاً بهدوء أعصابه وذهنه ، كما التزم لسانه الصمت . ولقد قال أحد أصدقائه المقربين ، وهو جريجورى روزوليمو فى مذكراته فيما بعد : « وعلى الرغم من أن تشيخوف كان يحضر بعض المهرجانات فى الجامعة ، إلا أنه كان يتخذ موقف المتفرج : وخلال السنة الثانية لدراسته الطب ، أى عام ١٨٨٠ - ١٨٨١ ، وهى فترة الاضطرابات التى سبقت وتلت حدث الأول من آذار / مارس (اغتيال ألكسندر الثانى) كان موقفه متوافقاً مع موقف غالبية الطلبة

الذين لا يمكن اعتبارهم ثوريين نشطين وإن كان لا يمكن وصفهم باللامبالاة » .

لم يكن أنطون غافلاً عن بؤس الفقراء ، بل إن إحساسه بمعاناتهم كان في الأوج . ولكنه يحسّ بأن على الروس أن يحاولوا انتشال أنفسهم بقواهم الذاتية بدلاً من الاستسلام لميلهم الفطري لأن يندبوا حظهم . كان يؤمن بإمكانية تحقيق التقدم الاجتماعي المبني على إرادة الفرد وتعليمه . وكانت دراسته للطب عاملاً آخر عزّز من إيمانه بقدرة العلم على تهذيب الانسان وإعلاء شأنه .

استمر أنطون ، ولأسباب مالية ، في إرسال ما يكتبه من أقاصيص إلى المجلات الهزلية . وكان محررو هذه المجلات يريدون لهذه الأقاصيص أن تكون قصيرة ومفعمة بالحيوية - حكايات أو صور قلمية أدبية ، أو خيوط محبوكة بسرعة تتناول شخصيات بليدة مثل القوادين والمغفّلين والموظفين الكذابين والتجار المحتالين والضباط المستهترين وأطباء الأسنان ذوي الأيدي الرخوة والعوانس الذابلات . . . وتحت توجيهات ألكسندر التزم أنطون بالقواعد المطلوبة . وبعد رفض ما كتب مرة بعد مرة وجد العبارة التالية في عمود بريد القراء الموجه للكتاب الناشئين في مجلة « حشرة التنين » : « لا بأس على الاطلاق بما كتبت . . سننشر ما أرسلت ونتمنى لك التوفيق في كتاباتك في المستقبل » . وبعد ذلك تلقى رسالة من المجلة تبلغه بأنها ستدفع له خمسة كوبيكات للسطر الواحد ، ولكن كان عليه أن ينتظر فترة شهرين إلى أن نشرت قصته والتي تحمل عنوان : « رسالة إلى جارٍ مثقف » . وقد حملت توقيعاً يقتصر على الحرف «V» . لم تكن لأنطون في الواقع أية مطامح أدبية ، وكان طموحه يقتصر على اكتساب قدرٍ من المال دون عناء . وقد احتفلت العائلة

بنجاحه بكعكة كبيرة اشتراها بالمبلغ الذى حصل عليه ، ولم يكن يعلم حينذاك ، وهو بعد فى سن العشرين ، بأنه بدأ بذلك خطواته الأولى فى طريق مهنته الحقيقية .

بعد هذه البداية المشجعة أخذ يخصص معظم أوقات فراغه للكتابة ، وكان المطلوب منه بشكل أساسى هو أن يدخل البهجة على قلب رئيس التحرير . وبما أن القصص قصيرة والأجر متدن فقد كان عليه أن ينشر عدداً وافراً لكي تبقى العائلة قادرة على الوفاء بالتزاماتها في نهاية الشهر . وهكذا أخذ يرسل قصة بعد أخرى إلى مجلس « حشرة التنين» وينتظر إجاباتها بقلق . وقد أرسل فى عام ١٨٨٠ تسع مواد ، وثلاثة عشرة فى عام ١٨٨١ ، وبحلول عام ١٨٨٣ كان العدد الكلّى قد وصل إلى ١٢٩ مقالة وقصة ، كان يكتب بسهولة تبعث على الدوار ويستطيع أن يطلق ضحكة جيدة ليتلقى ضحكة جيدة من القارئ . إلا أنه لم يكن يخطر بباله يوماً أن يوقع باسمه على هذه « الثرثرة » بل يعمد إلى استعمال أسماء مستعارة شتىّ مثل « رجل بدون طحال » و« شقيق شقيقى » و« يوليسيز » و« أنطوشا » إلا أن الاسم الغالب كان ذلك الذى أطلقه عليه الاب كروفسكى معلم الديانة إبان طفولته وهو « أنطوشا شيكونتى » . كان بعض كتاباته ترفض بعبارات قاسية تنشر فى بريد القراء ، حيث كتب المحرر فى إحدى المرات : « قليل من الكلمات الذكية لا يمكنها أن تعطى النكهة والطعم لمثل هذا الكلام المصفوف عديم الطعم » . أو « لا نستطيع أن ننشر « الصورة » لأنها ليست من النوعية التى نتطلبها. من الواضح أنك كتبتها لمجلة أخرى » . أو « طويلة وعديمة اللون مثل قصاصات الورق الطويلة البيضاء التى يخرجها حاوٍ صينى من حلقه » . وكان تعليق مجلة « حشرة التنين » على آخر مادة

أرسلها لها فى عام ١٨٨٠ يقول : « لقـد توقفت عن التفتح ، فأنت تذبل مع الأسف . تذكـر بأنه لا يمكن للمرء أن يكـتب دون أن يقيّـم كـتـاباتـه بعين ناقدة بنفسـه » . وقد أزعج أنطون هذا الكلام بحـيث أنه صمّم ألا يقدم أى قـصة أخـرى لمحررى « حشـرة التنين » الذين يصـعب إرضاؤهم ولـكن أحد هـؤلاء المحـررين ، واسـمـه سـويمونـوف أعـرب عـن أسفـه « لتصـرف » زملائه قائلاً : « إن هيـئة التحرير السـخيفـة لذبابة التنين قد رفضت قصـة لأنطوشا شيكونتى على الرغم من أنه لـم يسبق لقصـة مثلـها أن نشرت على صفحات هذه المجلة » * .

وعلى الرغم من صعـوبة نشر أى قصة فى إحدى المجـلات الهـزلية ، فـإن هذه الصعـوبة لا توازى فى شـدّتها صـعوبة تحـصـيل ثمنها . كـان ميـخـــائيـــل المكّـلف بتـحـــصيل المبـــالغ المتجـمعة لأنطـون ، يقابل بالقول فى معظم الاحيان بأن خزائن المجلة فـارغة حالياً ، أو تعرض عليه تذاكر للمـسرح بدلاً من النقـود ، أو يقال له بأن المحـرر المسئـول خـرج خلسة من الباب الخلفى ! . . . . . .

وفى تموز / يوليو ١٨٨٠ وبعد أن أنهى أنطون امتحانات السـنة الأولى (وكانت نتائجـها جميـعاً جيدة باستـثناء التشريح) غادر موسـكو ليقضى الصيف مع صديقـه الساكن لديهم زمبيـولانوف فى منزل أسرته بالـريف . ولتأكيد حماسه المهنى وضع جمـجمة فى حجرته وطلب من الأخ الأصغر لصـديقه أن يـزوده باستـمـرار بالضفـادع والفـئـران التى كـان وصـديقـه يشرحانها فى الحديقة والفلاحون المرتعدون يراقبونهما .

وحين عـاد إلى مـوسكو عاد أنـطون فجـأة إلى الاهتـمـام بالمسـرح ،

* القصص التى رفضت لم تصل إلينا .

وخلال فترة حماس استمرت طوال فصل الشتاء كتب مسرحية طويلة مشوشة من أربعة فصول لم يهتم بوضع عنوان لها . وبعد أن بيّضها ميخائيل سلّمها بنفسه إلى ممثلة مشهورة فى مسرح مالى ، وهى ماريا يرمولوفا . ولكن المسرحية لم تتجاوز هذه المرحلة ، كما هو متوقع ، وجاء رفض المسرحية ضربة قاصمة له بحيث أنه مزّق مخطوطتها ، وإن كانت صورة أدبية لها بخط يده قد اكتشفت فى أرشيفه عام ١٩٢٠ ونشرت تحت اسم بلاتونوف * .

وعلى الرغم من جوانبها الميلودراميةوتشعبها وإطنابها فإن هذه المسرحية تحوى كل المواضيع الأساسية التى تناولها تشيخوف فى أعماله فيما بعد ، وإن كانت مازالت فى وضعها الجنينى بعد . فالنغم المألوف فى أعماله يقابلك منذ الأسطر الأولى : « لاشئ ... إننا ضجرون ... ضجرون ياعزيزى نيقولاى .... لا فائدة .... اكتئاب .... أفكار كئيبة ... ماذا أفعل بنفسى ..... » مشهد ريفى قروى يبعث الضجر ويكتم الانفاس ، شخصيات كسولة ، ضعيفة الإرادة ، تتثاءب وهى تحلم بحياة أفضل دون أن تقوم بأى جهد للتخلص من نعاسها . الجيل الجديد : واقعى ، يفهم جوهر الأشياء بسرعة ويتحرّق للتحكم بزمام الأمور . مزرعة لإحدى العائلات على وشك أن تباع لسداد ديون العائلة ، الفودكا تفيض وكأنها الماء ، الشراب والخدر ، الخطب الفارغة وإن كانت تلقى بصوت جهورى ، تنهدات نساء جميلات ولكنهن لا يجدن الحب ، والبطل ، بلاتونوف ، يفتن من يحطن به من النساء بطريقة لا يستطيع

* تستغرق المسرحية سبع ساعات إن مثلت كاملة . ولقد تم تقديم نسخ مختصرة عديدة عنها فى أنحاء مختلفة من أوروبا والولايات المتحدة . إلا أن أول عرض سوفياتى لها لم يكن إلا عام ١٩٥٩

هو نفسه أن يسيطر علـيها . فالبلاد والاكتئاب يـستنزفانه، ولذا يحاول أن يتسلى بالانغمـاس فى علاقات شهوانية ، بينما يسـيطر عليه هوس التدخل فـــى حيـاة كل امرأة تأتى فى طريقـه . إلا أن ما يسعى إليه فى الواقع هو تحطيم النساء جسدياً ومعنوياً بحيـث يفقد نفسه أثناء ذلك . إنه مزيج مـن « الـدون جوان » و« المخـلوق الطفيـلى » كمـا تصفـــه إحدى ضحـاياه : « خنزير مـتعـــدد البراعـات » . غـير أنـه فى لحظـــات التـــوبة يظـهـر امارات اليأس: « أسـحق النساء الضـــعيفـات وأدمرهن. . لو أننى أقضى عليهن بطريـقة مختلـفة ، بالاسـتحـواذ عليـهن بالعاطفـــة الجـامحــة ، عـــلى الطريقة الأسـبانية ، لما ندمت . ولكننى لجأت إلى كل حـيلة كانت فى جعبـتى ، دخلت هذا البيت حيث قـدموا لى المأوى والملبس والحب ، وهكذا كان جزائى لهم . . . » . يظهـر هذا البطل الذى يغوى النساء دون إرادة منه ، أو دون تبصّـر بعواقب ما يـفعل ، فى الكثيـر من مسرحـيات تشيـخوف ، كمـا تظهر شخـصيات مماثلة لشـركائه فى أفعـاله . الصورة المعروضة هى نفـسها ، ولكنها مازالت فى مرحلتـها الكاريكاتورية ، كلها سوداء ، وبمرور الزمن أخذ تشخـوف يلطّف الحوار ويخفف وقع الاحداث ويصـقل مـغـزاها ، ويعطى لمسـات أكثـر إضاءة للألوان المسـتخـدمـة فى أعمـاله . إلا أن موهبة تجـسيد وضـعية مـعينة وإبرازها إلى حيـز الوجود ملحوظـة فى هذه المسرحيـة ، إضافـة إلى رسم شخـصيات أصـيلة وإلى الإيحاء الدرامى .

ونظراً لرفض مـسرح « مالى » لهـذه المسرحـية فقـد وضع تشيـخوف مطامحه الدرامية على الرف وعاد إلى حلبة المجلات الهزلية . وبعد خلافه مع مجلة « ذبابة التنين » توصل إلى اتفاق مـــع مجلتين منافســتين همـــا

«الساعة المنبهّة » و«المراقب » لقـاء ستة كوبيكات للسطر الواحد . وككاتب يتميز بالقـدرة على الانتقال من لون أدبى إلى آخر تحول من القـصة الهزلية إلى المسلسلة ومنها إلى البـوليسية . وفى عـام ١٨٨٢ ، وبفضل رهان مع رئيس تحرير مـجلة « الساعة المنبهـة » نشر رواية مسلسلة فى ثمـانية أجزاء سمّاها : « نصير عديم الفـائدة » كانت فى الواقع محاكاه لأسلوب الكاتب الهنغارى المعروف « مـور جوكاى » * . وكان تقليـده للكاتب من المهارة والاتقان بحـيث أن قراء المجلة السـذج كتبـوا إلى المحرر بحمـاس ، وقال أحدهم : « قصة مثيـرة . . . هل يمكنكم أن تنشروا المزيد للمؤلف نفسه ؟ لم لا تنشرون اسمه الحقيقى ؟ أليس هو مور جوكاى ؟ !!!! .

وإلى جـانب هذا العـمل القـصـصى الطـويل بـعض الشـئ ، والذى استقبل استـقبالاً حسناً إلى حد ما كان تشيخوف ينشـر آخر الاخبار المحلية السريعة ،بحيث كان يأخـذ دوراًوسطاً بين مراسل مـبتدئ وصحفى أخبار المجتـمع ، ويلتقط ما يكتب من قـاعات المحاكم والمقـاهى الأدبية وأبواب المسرح ، وهذه الدائرة الواسـعة التى أخذ يتنقل فى أرجـائها أكسبـته رؤية شمولية للعـالم المحيط به ، فقد أصبح - هو بعد فى الثـانية والعشرين - على صلة وثيقة بجميع طبقـات المجتمع الروسى ، وأخذ رأسه يعجّ بمئات النماذج من البـشر فى مـواقف غير مـألوفة ، وكلها تنتظـر أن تقـفز إلى خضم الحياة بفعل قلمه .

ولكنه كان أيضـاً ناقداً صعب الارضـاء . فهو حين يكتب للمـسرح - والذى لم يتأثر هيـامه به نتيجة لإخـفاقة المبكر ككاتب مسـرحى فإنه يؤكد على ضرورة البـساطة والصدق فى التـمثيل وفى تصـميم الخشـبة . وحين جـاءت « سـارة برنار » إلى مسرح البـولشوى لتقديم مسرحيـتى «كاميليا»

* روائى وكاتب مسرحى هنغارى (١٨٢٥ - ١٩٠٤) .

و« أدريان لوكوفرور » فى عام ١٨٨١ أغاظه الحماس الهائل الذى قوبلت به ، ولذا ذهب لرؤية المسرحيتين وسجّل انطباعاته فى مقالتين نشرهما فى « المراقب » ، وقال فى إحداهما باقتضاب شديد : « إن الشهرة هى ماتسعى إليه أولاً وقبل كل شئ » . وفى المقال الثانى يقول: « التنهدات . . الدموع . . . سكرات الموت. . . كل ما تجسده على خشبة المسرح لا يتعدى درساً تعلمته بكل إتقان وذكاء. . . إنها تجسّد فيمن تمثلهن من البطلات شخصيات نساء نادرات مثلها ، ليس موهبة ما نراه يتألق على خشبة المسرح فى حضورها ، بل جهد وعمل شاق إلى درجة مذهلة . . .وقد تمس شغاف قلوبنا بين آن وآخر إلى درجة الدموع .

ولكن الدموع لا تفيض من عيوننا لأن البراعة فى الأداء تطمس السحر وتقضى عليه » .

ولم يكن أكثر تساهلاً مع الممثلين الروس ، فبعد أن شاهد الممثل الشهير إيفانوف - كوزبليسكى يؤدى دور هاملت كتب فى مجلس « موسكو» يقول : « لا يكفى الممثل أن يبث عواطفه على خشبة المسرح ، ولا يكفيه أن يكون فناناً ، بل عليه أن يمتلك خلفية ثقافية واسعة . على المرء ، إن كان يريد أن يمثل دور هاملت ، أن يتجشم عناء صقل فكره أولاً » .

كان شقيقا تشيخوف ، ألكسندر ونيقولاى ، يعملان فى مجلات هزلية أيضاً، الأول كمحرر مساعد والثانى كرسام. وقد دخل تشيخوف ، مقتفياً أثرهما ، عالماً بوهيمياً ضاجاً ساخراً ، ينغمس فى الشرب ولا تحده أية قيود . وعلى الرغم من أنه ظل مترفعاً بعض الشئ ، غير أنه كان يستعذب صحبة الكتاب المشاكسين المدمنين فى هذا الوسط . أحد المفضلين لديه الشاعر « ليودور بالمين »، وهو شاعر متألق ولكنه مهووس ،

يرتدى أسمالاً بالية وتحيط به باستمرار مجموعة من الكلاب الجُرب ، يعتنى بهم بمحبة ، كان « بالمين » يعيش فى كوخ مع مدبرّة منزله الطاعنة فى السن ، وحين يحل الليل يحتسيان الخمر معاً تحت الطاولة ، وبعد أن يشرب الكؤوس القليلة الأولى من الفودكا تسيطر عليه حالة من النشوة فيتفوه بآراء جديدة مهيبة بكل اندفاع وحماس . وعلى الرغم من أنه كان إنساناً محطماً إلا أنه يجيد العديد من اللغات ، وقد ترجم عدة آثار أدبية كلاسيكية إلى الروسية . وكان بالمين يحمل آراء ليبرالية ولذا أصبح مشبوهاً لدى السلطات . وقد قال عنه تشيخوف : « تبادل الحديث معه أمر فى غاية المتعة ، وإن كان عليك أن تشرب قدراً كبيراً وأنت تتحدث معه . ولكنك لن تسمع بالتأكيد كذبة وحيدة أو هنراً فى الكلام طوال ساعات الحديث الثلاث أو الأربع . وهذا يفوق فى قيمته وجدواه أى امتناع عن تناول الخمر ! » .

عضو آخر فى تلك المجموعة البوهيمية ، كان معروفاً بحبه للخصام ، وهو فلاديمير جليارفسكى ، صحفى يعمل فى صحيفة الاخبار الروسية ، وهو رجل ضخم الجثة ، متورد الوجه ، ذو صوت جهورى ، يفخر باستمرار بجسمه الحديدى ، وذاكرته التى لا تخونه ، ومهارته الشيطانية فى ألاعيب الورق التى يمارسها ، وقدرته على إبراز عضلات ساعدية أو تحطيم كرسى بلمح البصر . كان قد مارس ألف مهنة ومهنة حيث عمل حمالاً فى مراكب نقل البضائع فى نهر الولجا ، وعاملاً فى مصنع ، وبهلواناً فى سيرك ، ومروضاً للخيول ، وكان رأسه مليئاً بالقصص الداعرة التى يرويها وهو يضحك بصوت صاخب وكأنه الغول . كان يعرف كل الناس فى موسكو ، ويتصرف بحرية سواء أكان فى النادى الأنجليزى أو فى الفنادق الرخيصة فى شارع خيترف ، وبذا كان يزوّد

مجلته بكل أخبار المجتمع وبالصور الخيالية الأدبية والأخبار والأشعار ، كان فى نظر أصدقائه « ملك الصحفيين » ، وقد مال إلى تشيخوف بالذات ولذا عرفه على حياة موسكو السرية وأوحى له بالكثير من الأفكار التى كان تشيخوف يكتبها ليتعيش منها .

كانت المجموعة تضم أيضاً « فيودور بوبود وجلو » ، وهو صاحب أسلوب بارع ولكنه كان قد أدمن الخمر بحيث حكم على نفسه بالموت فى سن مبكرة ، وبيوتر سيرجيكو ، كان زميل تشيخوف فى مدرسة تاجنروج ويعيش حياة متواضعة ممتهناً الكتابة ويعتنق مبادئ تولستوى . كما أن نيقولاى كان يجرّ معه إلى البيت فنانين رثّين يشربون بكثرة ويتجادلون بحماس حول المناحى التقليدية والمبتكرة فى الفن . وفى أواخر عام ١٨٨٠ عرّف أنطون على شاب يهودى خجول فى التاسعة عشرة وهو أسحق ليفيتان الذى اشتهر فيما بعد على نطاق واسع برسم المناظر الطبيعية . وهذه الشخصيات المبدعة أخذت تجتذب أيضاً أصدقاء كل من ميخائيل وماريا الذين كانوا ينضمون إلى المناقشات ويزيدون من الهرج والمرج .

كانت العائلة فى تلك الأثناء قد انتقلت مرة أخرى إلى منطقة سريتنكا ، حيث سكنت منزلاً أكثر اتساعاً . وتشيخوف الذى كان مغرماً بالفوضى والوجوه الجديدة شرّع أبوابه لكل قادم جديد . كان الضيوف يجتمعون حوله ليلعبوا الورق أو يجلس نيقولاى إلى البيانو ليعزف فى حين يتناول أحدهم آلة البالالايكة * ، ويشترك الجميع فى أداء الأغانى .

* آلة موسيقية روسية تشبة الجيتار .

الفولكلورية إلى أن تجف حلوقهم ويصبح لزاماً عليهم أن يزيّتوها بالمشروب .

ولكن تشيخوف كان يشتكي في بعض الأحيان من أن الصخب المستمر والفوضى يحرمانه من زاوية يستطيع أن يعمل فيها بحيث كتب يقول : « أكتب ضمن ظروف شنيعة وقد تكدست أمامى واجباتى غير الأدبية بحيث تضرب على أوتار ضميرى ضربات لا ترحم . طفل لأحد أقربائى دائمى التجوال يصرخ فى الغرفة المجاورة ، ووالدى فى غرفة أخرى يقرأ لأمى بصوت مرتفع كتاب « الملائكة المجهولون » * ، أحدهم شغّل زنبرك علبة الموسيقى واسمع أغنية « هيلين الجميلة » . كل هذا يدفعنى إلى أن أتسلل للريف ، ولكن الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل . من الصعب أن تتصور وضعاً أرهب من هذا بالنسبة لكاتب . سريرى يحتلّه قريبى الزائر ، وهو يأتينى بين حين وآخر ليناقشنى بمسائل طبية : لا بد أن ابنتى مصابة بمغص فى بطنها هذا ما يجعلها تصرخ ! أقسم بألا أسمح لنفسى يوماً بإنجاب أطفال » .

وكثيراً ما كانت نوبات السكر تظلل الأمسيات بألوان قاتمة كئيبة . وفى إحدى هذه الأمسيات دخل ألكسندر إلى البيت وهو مخمور حتى الثمالة وأخذ يوجّه كلمات نابية إلى أمه وأخته ويهدد بتهشيم وجه أنطون . وقد استاء تشيخوف لهذا التصرف لأقصى حد فكتب له طالباً إيضاح موقفه على الفور : « حتى لو كان حبى لك أكثر مما هو فى الواقع بمائة ألف مرة فلن أسمح لك على الإطلاق وعلى أى أساس تختاره أن

* قصة بقلم نيقولاى نيسكز تصور حياة المؤمنين القدامى ، وهى طائفة روسية متعصبة .

توجه الإهانات إلىّ . وإذا كنت تريد اللجوء إلى الحيلة المعتادة ، وهى أن تعزو مافعلت إلى أنك لم تكن تدرى ماذا كنت تفعل ، فتذكر بأننى مقتنع كل الاقتناع بأن كونك ثملاً لا يعطيك الحق فى أن . . . فوق رأس الآخرين . أما بالنسبة لكلمة « شقيقى » التى استعملتها لترعبنى حين كنت أغادر ساحة المعركة ، فإننى أقول لك بأننى مستعد لإسقاطها من قاموسى متى كان ذلك ضرورياً ، ليس لأننى عديم الشعور بل لأنه لا بد أن يكون لدينا الاستعداد لمواجهة أى أمر فى هذا العالم . لست أخاف شيئاً وأنصح أخوتى أيضاً بأن يفعلوا مثلى » .

لا شك بأن ألكسندر اعتذر لأنطون حالما ثاب إلى رشده ، إذا أن الحادثة طواها النسيان بسرعة . فقد كان أنطون متعلقاً بعائلته بحيث أنه لم يكن ليسمح لأمر من هذا النوع أن يظلّ يفور فى صدره باعثاً الشعور بالضغينة . كما أن شقيقه نيقولاى كان يسبب له متاعب مماثلة . فهو فنان موهوب ذو موهبة ساحرة خاصة ، وكثيراً ما كان يرسم الرسوم المطلوبة لقصص تشيخوف ، وكان من شأنه أن يحقق مكانة صحفية مرموقة لو أمكن الاعتماد عليه لإنجاز الرسوم المطلوبة فى الوقت المناسب . ولكنه كان بعيداً كل البعد عن الالتزام بالمواعيد ، ويعمل فى نوبات اندفاع وطفرات ، ويسهو عن أى مهمة كانت عاجلة ، ويغيب عن الأنظار أياماً ليشارك فى احتفالات صاخبة مع أحطّ الناس فى موسكو ، ويعود إلى البيت ليلاً وهو يتقيأ ، ويرتمى بكامل ملابسه على الاريكة ساحباً بطانية فوق رأسه بحيث لا يظهر منه إلا زوج من الجوارب المتسخة المليئة بالثقوب ، وينام أربعاً وعشرين ساعة متتالية إلى أن يصحو من أثار الفودكا . كان تشيخوف يحبه إلى درجة قصوى ، ولذا لم يكن يلجأ إلى تعنيفه على سلوكه الغريب ، يؤلمه أن يرى هذه الموهبة تتبدد

بسبب البلادة ، وقد كتب إليه يقول : « يجب أن تعمل باستمرار ، ليلاً نهاراً ، عليك ألا تتوقف عن القراءة والدراسة المتعمقة وتدريب إرادتك . فكل ساعة من ساعات حياتك شئ ثمين وقيم . اكسر زجاجة الفودكا وتخلص منها » .

هذا الانحدار البطئ لإخوانه ولّد لديه شعوراً بالحاجة إلى ضرورة إعادة إحساسهم بالكرامة الإنسانية واحترام النفس . ولكنه رفض ، شأنه دائماً ، أن يرتدى لبوس الأخلاق التقليدى ، وكان يفضل أن يضرب المثل بنفسه ويكون القدوة ، بدلاً من اللجوء إلى الوعظ ، بحيث يبين بسلوكه الخاص بأن الأمل يبقى موجوداً . وبما أنه لم يكن يميل إلى التأملات الميتافيزيقية والدينية فإنه لم يلجأ قط إلى الابتهال إلى الله لمساعدته . بل كانت معاركه ذات طابع أرضى أساساً .

فقد أقسم أن يحسّن نفسه من الداخل وأن يعلم عائلته ، وفعل ذلك بالحب والصبر والإرادة وحدها . وبعد سنوات عديدة كتب لصديقه سيفورين يقول : « ما يأخذه الكتاب الارستقراطيون مجاناً من الطبيعة ، يتوجب على من هم أقل منهم ثراءً أن يبتاعوه بشبابهم . إيمكنك أن تكتب قصة شاب - ابن لأحد الأقنان ، اشتغل صبياً فى حانوت وغنى فى جوقة الكنيسة ودرس فى المدرسة ثم الجامعة ، تربى على احترام المقامات وتقبيل أيدى القسس وعبادة أفكار الآخرين ، يبتهل بالشكر لكل قطعة خبز يأكلها ويجلد بالعصى مرة بعد مرة ، ويجول لإعطاء دروس خصوصية وهو لا يلبس حذاء يدفئ قدميه ، ويتشاجر ويعذّب الحيوانات ويستمتع بتناول طعام العشاء فى بيوت أقاربه الاغنياء ، وينافق الله والناس دونما داع أو سبب ، بل اعترافاً منه بحقارة نفسه - أكتب كيف

أمكن لهذا الشاب أن يعتصر العـبد من داخله قطرة قطرة ، وكيف استيقظ في أحد الايام ليجـد أن الدم الذى يجرى فى عروقه لم يعـد دم عبد ، بل دم انسان حقيقى ينتمى إلى بنى البشر ! » .

ولقد جاهد تشـيخوف ليقنع إخوته بأن ما يجـرى فى عروقهم هو « دم انسان حـقيـقى » . وعلى عكس المظهـر الخارجى فإن هذا الانـسان الذى يعتقـد بأن وجود الله وطبيعتـه وأصل الكون هى أمـور لا يمكـن التوصـل إلى معرفة كـنهها الاساسى ، هذا الانسان يؤمن بالمستـقبل ايماناً كلياً . إنه الشخص الذى يـنزع إلى الشك بالأمور المسلّم بهـا ، ولكنه يؤمن بالقيـمة الجوهرية ، بل المقدسة للفرد ، مهما كان وضيعاً .

٥ - الصحافة والطب

فى النهاية حصل إيفان الكئيب، والذى يقدر مع ذلك موطئ قدميه ، على وظيفة تعليمية فى مدرسة أبرشية فوسكريسنسك ؛ وهى قرية قريبة من موسكو ، شملت شروط الوظيفة تقديم بيت متسع نوعاً ما بالإضافة إلى توفير وقت فراغ طويل ، وكان هذا من دواعى الغبطة القصوى لأنطون ، فقد قرر فى عام ١٨٨٢ ، وبعد أن أنهى امتحانات السنة الثالثة ، أن يقضى فصل الصيف فى الريف ، وتبعه فى ذلك بقية أفراد العائلة .

وفى فوسكريسنسك وزع أنطون وقته بين صيد السمك وجمع الفطر من جهة ، وتصيّد الشخصيات والاقاصيص التى يمكنه استخدامها فى كتاباته من جهة أخرى ، كان مستنفراً على الدوام حيث سكن مكتب البريد ، والحانة التى ترتفع فوقها لافتة يزينها سماور ذهبى ، ومقرّ قاضى الصلح المغبرّ ، وعِزَب الفلاحين التى يرتفع الدخان فوقها باستمرار ، وقصور النبلاء التى تملؤها الأعمدة ، ومطعم ضباط كتيبة من كتائب المدفعية كانت ترابط فى القرية . ومهما كانت لهؤلاء الناس من مكانة فقد كانوا يعتزون باهتمام هذا الشاب الطويل المؤدّب القادم من موسكو بهم ، وهو يعتمر قبعته السوداء ذات الحافة الواسعة . لم يكن يدور فى خلدهم قط أنه إنما يوجه إليهم أسئلته المتتالية لانتزاع المعلومات منهم بحيث يعرف عنهم كل أمر من أمورهم . وقبل وصوله إلى فوسكريسنسك كان يعرض على أفراد عائلته وأصدقائه أن يدفع مبلغ عشرة كوبيكات لكل حكاية وعشرين كوبيكاً لحبكة القصة الكاملة ، ولقد استفاد ميخائيل من هذا العرض أكثر من مرّة ، إلا أنه وجد فى

فوسكريسنسك كل الوجوه والوضعيات التى يمكنه استخدامها ، وأفاده هذا الفيض من الانطباعات فى القرية أيما فـائدة بعد عودته إلى موسكو إذ أخذ يستخدمه فى قصصه ، واحداً بعد الآخر .

سيطرت عليه بعد عودته للدراسة فكرة ضرورة تدبير أمور العائلة المادية ، وحين كان يكتب ، كانت هذه الأمور المادية تسيطر على فكره أكثر مما تسيطر عليه النواحى الفنية . ولم يكن أحد من أساتذته أو زملائه يعرف أى شئ عن نشاطه الادبى ، ولا يتبادر لأى منهم أن يقرن اسم « شيكونتى » الذى ينشر القصص المسلّية فى المجلات بتشيخوف ، طالب الطب الهادئ اللطيف . وعلى الرغم من سعادته ببقاء اسمه الحقيقى مجهولاً غير أنه كان حانقاً أشد الحنق لأن الأتعاب التى يتلقاها كانت ضئيله للغاية . وكان حلمه الأعظم هو أن يتحرر من مجلات موسكو قصيرة العمر مغلولة اليد ، وأن ينطلق إلى صحافة بطرسبرج التى تتوزع على نطاق البلاد كلها . وفى هذه الحالة فقط يتلقى أجوره نقداً وفى الوقت المناسب .

وفى أحد الأيام المنعشة من شهر تشرين الأول / أكتوبر عام ١٨٨٢ ، وبينما كان يتمشى مع شقيقه نيكولاى ، توقفت عربة بجانبهما . وكان يجلس فيها صديق تشيخوف غريب الاطوار ، الشاعر « بالمين » ، وإلى جانبه رجل ذو كرش بارز ولحية سوداء كثّة . كان هذا هو « نيكولاى لا يكن » ، وهو كاتب من بطرسبرج ورئيس تحرير المجلة الاسبوعية الهزلية الشهيرة المعروفة باسم « شظايا » . وكان لايكن قد يذكر قبل ذلك بلحظات بأنه يبحث عن كتّاب موهوبين ولكنهم قليلو المطالب لينشروا فى مجلته ، فأشار بالمين على الفور إلى الشخصين اللذين كانت العربة تمر بهما وهو يقول : « هذان شقيقان موهوبان ، أحدهما يكتب

والآخر يرسم ! » وما لبث بالمين أن قدم له أنطون ونيقولاى ، تذكر تشيخوف كركرته حين كان يقرأ قصص هذا الكاتب واسع الانتشار أثناء تردده على المكتبة العامة فى تاجنروج ، وسرّه اهتمامه به . وحين عبّر عن ذلك ساهم هذا فى زيادة حرارة الموقف . وبما أن الطقس كان بارداً بعض الشئ فقد تم استكمال الحديث فى جو أكثر دفئاً وصخباً فى أحد المقاهى المجاورة . وسحرت تشيخوف الطريقة التى كانت تتحرك بها لحية لايكن وأذناه وهو يأكل السجق ويحتسى البيرة ، إذ كان كل جزء من وجهه البدين يشارك بنصيبه فى هذه العملية . وفى النهاية أشعل سيجاراً ، ووسط سحابة دخانه أخذ يشرح متطلباته . فهو يريد قصصاً قصيرة ملونة وخفيفة مرحة . والقاعدة الأولى هى وضع الرقيب فى المقام الأول أو بكلمات أخرى تجنب أى موضوع يمكن أن يدفع القارئ المستاء إلى التفكير بالأوضاع الصعبة الحالية فى البلاد . ولقاء ذلك سيتلقى تشيخوف ثمانى كوبيكات للسطر الواحد ، أى ما يوازى أربعة أو خمسة روبلات للقصة الواحدة . وكان هذا المبلغ أعلى مما تعرضه أى من جرائد موسكو بحيث أن تشيخوف وجد صعوبة فى إخفاء سروره ، خصوصاً وأن لا يكن وعد بأن يدرس إمكانية نشر رسوم نيقولا أيضاً . أما تشيخوف فقد وعد من ناحيته بأن يخص « شظايا » بأفضل إنتاجه ، والتزم بالفعل بهذا الوعد وأخذ يعمل بكل ما أوتى من جهد . أما جواب هيئة التحرير على أول ما قدّمه من أعمال : « المادة طويلة جداً مع الأسف ، وإن كان الأسلوب ممتازاً . كنا نتطلع منذ وقت طويل للتعاون معك . اكتب بإيجاز أكبر وسيكون المقابل أجزى من جانبنا » . ولم يثبّط هذا من عزيمة تشيخوف إذ أرسل مجموعة أخرى من المخطوطات إلى العاصمة ، وبعد وقت قصير ، وبالتحديد فى ٢٠ تشرين الثانى / نوفمبر ١٨٨٢ ظهرت أولى أعماله على صفحات المجلة وهى ما تزال

تحمل توقيع « تشيخونتى » .

ثم أخذت القصص تتوالى بعضها وراء بعض وبوقع متزايد باستمرار . وبناءً على طلب من لايكن وافق تشيخوف على تحرير عمود دائم تحت عنوان ، « لمحات عن الحياة فى موسكو » يضم صوراً قلمية موجزة صريحة عن الحياة فى شوارع المدينة ومستشفياتها ومحاكمها ومقاهيها ومسارحها ، مع أخبار وتعليقات مصقولة تدور حول دنيا الأدب والموسيقى والفن . وعلى الرغم من أن هذا النوع من العمل كان يثير غيظه إذ أنه لا يجد فيه المتعة التى يريدها ، إلا أنه لم يكن فى وضع يسمح له بالانتقاء . فقد كانت متطلبات الاسرة تضغط عليه للاستمرار فيما يعمل .ولقد كتب إلى ألكسندر يقول : « لا تحسدنى ، فالكتابة لا تأتينى إلا بالألم الموجع ، والمائة روبل التى أتكسّبها منها تستهلك بسرعة البرق . بل إننى غير قادر على تبديل معطفى « الفراك » غير اللائق ، بآخر من طراز أحدث ، إننى أدفع لكل من هبّ ودبّ ولا يتبقى لى شئ على الإطلاق . فالأسرة وحدها تستهلك أكثر من خمسين ، ولو كنت أعيش وحيداً لأصبحت ثرياً » .

كانت أمور المال تتردد فى رسائله فى تلك الآونة . وعلى الرغم من أنه لم يكن يتصور أن يعيش وحيداً ، إلا أن الأسرة كانت كحجر رحى يحيط بعنقه . ولقد فسر اهتمامه بالنقود بعد سنوات عديدة بقوله : « كان ما أفسدنى بشكل مرعب هو أننى ولدت وترعرعت وذهبت إلى المدرسة وبدأت الكتابة فى بيئة تلعب فيها النقود دوراً بارزاً إلى درجة مريعة ! » .

وتحت ضغط عمله الأدبى المفروض فإنه كان معرضاً لخطر الانغماس فى كتابة لغو سطحى لا معنى له بحيث يكتب حول كل شئ دون أن

يقول أى شئ ذا قيمة . وكان يعى هذا الخطر ويتمرد بين الحين والآخر على عقلية « لايكن » التجارية . وما كان يزعجه بالذات هو القاعدة الصارمة بألا تتجاوز أى قصة يكتبها مائة سطر . فقد كان محررو « الشظايا » يعتقدون فيما يبدو بأنه لا يوجد موضوع يستحق ما يزيد عن ذلك . ولقد كتب تشيخوف فى ذلك إلى المحرر يقول : « إننى فعلاً ممن يؤيدون كتابة القطع المقتضبة ، ولو أننى أصدر مجلة هزلية لحذفت أى مادة شديدة الطول . غير أنه لابدّ لى من القول بأن تقييدى بحدود معينة تمتد من هذا القدر إلى ذاك القدر إنما يسبب لى أسىً لا نهاية له . أمامى موضوع ما ، وأجلس للكتابة . ولكن فكرة السطور المائة دون زيادة تظل ممسكة بتلابيبى وأن أتقدم من سطر إلى سطر . اختصر بكل ما أوتيت من قوة وأصفى وأحذف بحيث يصبح الحذف على حساب الموضوع أو ربما ، وهو الأمر الأهم ، على حساب الشكل كما تقول لى حصافتى الأدبية . وما أن أنتهى من الاختصار والتصفية وأبدأ فى العد حتى يصعد الرقم إلى المائة ثم المائة والعشرين أو المائة والأربعين (لم أكتب أكثر من هذا لمجلة « شظايا » على الإطلاق) فإن الفزع ينتابنى ويسيطر على وأقرر ألا أرسل ما كتبت . كل هذا يقودنى إلى الرجاء التالى : وسعوا صلاحياتى إلى مائة وعشرين سطراً » .

إلا أن ما جعل يقلق تشيخوف أكثر فأكثر على المدى الطويل هو التزامه بإضحاك القراء ، وعلى هذا أخذ يرجو « لايكن » بلهجة تتسم بالتواضع والالحاح فى نفس الوقت على أن يُسمح له بالإنزلاق إلى نغمة يلوّنها الحزن بين آن وآخر ، إذ كتب يقول : « قطعة قصيرة وخفيفة يمكن أن تكون جادّة أيضاً . . . . ومع ذلك تبقى سهلة القراءة . . فتصيّد الفاكهة أمر عسير فى الحقيقة ، وقد تبدأ بكتابة شئ ذى طبيعة فكاهية

ولكن النتيجة فى النهاية لن تكون إلا شيئاً سخيفاً يبعث على الغثيان ، ولذا فإنك لا تستطيع أن تغالب نفسك فى العودة إلى الجدّ ثانية » .

احتاج الأمر إلى الكثير من الإقناع والإلحاح إلى أن اقتنع لايكن ووافق على قبول عدد قليل من القصص ذات نبرة أخفض . وعلى الرغم من أن لايكن كان يخشى ردود فعل قرائه الذين يتلهفون على المواد المضحكة إلا أنه لم يتلقَ أية احتجاجات ، بل إن تشيخوتى سحر قراءه بأسلوبه الجديد كما سحرهم بأسلوبه القديم . ولكن حتى نجاحه المحدود هذا آثار عليه حفيظة بعض زملائه ، ولقد كتب لشقيقه ألكسندر يقول : «كتّاب الصحف يعانون من داء اسمه الحسد ، وبدلاً من أن يسعدهم حسن طالعك فإنهم ينفثون عليك سمومهم » . وكانت هذه إحدى مناسبات الشكوى النادرة التى تضمنتها رسائله .

أما ألكسندر فقد كان على العكس من أنطون فيما يتعلق بتحفظه ومتانة قيمه الأخلاقية . إذ بعد أن حصل ألكسندر على وظيفة فى مصلحة جمارك تاجنروج غادر موسكو ترافقة عشيقة متزوجة على الرغم من أن زوجها رفض أن يطلقها رفضاً قاطعاً . ولم يكد يستقر فى تاجنروج برفقة عشيقته وابنها حتى أخذ يصدّع دماغ أنطون برسائله اليائسة ، فلم يجد تشيخوف بدأ من أن يحاور هذا الأخ الناقم دائماً عن طريق الرسائل : « أراك تتباكى ودموعك تنهمر من بداية الرسالة حتى نهايتها » . ثم يعنفه لهجومه على شقيقهما نيقولاى الذى يستحق كل دعم وعطف من أفراد اسرته والذى كان يغرق فى الإدمان على الشراب بسرعة ، فيقول أنطون : « موهبة روسية رائعة وقوية تذبل وتموت لالشئ . . . وفى غضون عام أو عامين سيكون أمره قد انتهى » . كما أنه لا يسمح بأى إساءه لأبيه لأنه يستنكر علاقة ابنه بامراة متزوجة فيقول : « ماذا تتوقع

من أبيك على أية حال ؟ هذا العدو اللدود للتدخين وللعلاقات غير الشرعية ، هل تتوقع أن تغّيره ؟ يمكنك أن تنجح فى ذلك مع أمك أو خالتى فيدوسيا ، ولكنك ستفشل مع والدنا . وإنه صخرة صلبة شأن طائفة المؤمنين الأوائل . . لكل إنسان الحق فى أن يعيش مع من يختار وكيفما يشاء . . . فكيف تنظر أنت إلى مأواك ؟ إنها عشك ودفؤك ، حزنك وفرحك ، إنها شعرك ، وها أنت تتعامل مع شعرك وكأنه مجرد بطيخة سرقتها وتريد أن تخفيها عن أعين الناس ! إنك تشك بالناس جميعاً « لست أدرى بم يفكرون ! » ، وتأبى إلا أن تثير الموضوع مّرة بعد أخرى وتئن وتندب حظك لو أننى كنت وشريكتك لرأيت فى سلوكك إساءة لى على أقل تقدير ، فلماذا تهتم بما أفكر فيه أو يفكر به والدك أو نيقولاى . . أمض فى حياتك ولا تكترث لأحد » .

أما وجهة نظره هو فيما يخص متابعة حياته شخصياً والتوازم معها فكانت تعنى فى ذلك الحين الجمع بين الصحافة ، كمصدر مؤقت للرزق ، وبين الطب كمهنة له . وهو يقول فى ذلك فى رسالة كتبها لألسكندر : « أصبحت أحظى بالشهرة ، وقد قرأت مقالات كتبت عنى ، كما أن دراستى للطب تتصاعد وأكاد لا أصدق مقدار ما تحتويه جعبتى . فأى مرض قد تذكره يمكننى أن أعالجه : إمتحاناتنا ستتم فى القريب وإذا استطعت تجاوز السنة الخامسة فهذا يعنى أن الستارة قد أسدلت . . » . وبعد أشهر عديدة يقول فى رسالة أخرى إلى ألكسندر : « إننى صحفى لأننى أكتب كثيراً . ولكن هذا أمر مؤقت ، ولن أنهى حياتى صحفياً . وإذا تابعت الكتابة فى مستقبل أيامى فسيكون هذا عن بُعد ، من جحر خفى فى مكان ما » . ويقول معبراً عن اقتناعه بأن

مستقبله هو فى سماعة الطبيب وليس فى القلم : « سأنغمس فى الطب كليّة ، إذ أن فيه خلاصى ، وإن كنت لا أستطيع أن أصدق بعد بأننى لم أعد طالب طب !! ... » .

ولقد كان منغمساً بالفعل فى دراسته الطبية إذ كان يزور المستشفيات ويحضر العمليات الجراحية ويقدم نصائحه الطبية مجاناً للمفلسين من أصدقائه . ولقد كرس نفسه للعناية بصديقه « بوبودوغلو » الذى عبر عن عرفانه له بأن أوصى له مجموعة كبيرة من الكتب من مكتبته . ولقد كتب فى إحدى رسائله يقول : « لقد مات بسبب التهاب الدماغ على الرغم من أننى أنا الذى طببته . والحقيقة أن عشرين طبيباً سبقونى فى علاجه وإن كنت الوحيد الذى استطاع أن يخمن مرضه الحقيقى وهو على قيد الحياة ، لقد مات بفعل الخمر ، رحمه الله ... » .

ولقد استرسل فى شغفه بالطب بحيث فكر فى تأليف دراسة حول العلاقة بين الذكر والانثى لدى مختلف أنماط أسر الحيوانات . وكان ينوى أن يضع لهذه الدراسة عنوان : « « تاريخ السيطرة الجنسية » . ولكنه سرعان ما تخلى عن هذا المشروع إذ أن امتحاناته المقبلة كانت تمثل هماً كبيراً بالنسبة له. ولقد كتب لشقيقه الكسندر يقول : « علىّ أن أدرس كل شئ من جديد ، إذ بالإضافة إلى الامتحانات (التى مازال موعدها بعيداً بعض الشئ) فإن علىّ أن أقوم ببعض أعمال التشريح والتدريبات السريرية مع مايتبعها من كتابة التاريخ المرضى للحالات بالإضافة إلى الجولات على المرضى فى المستشفى . ولذا فإن كل هذه الأعمال تشعرنى بالضعف ، كما أننى أشعر بأن ذاكرتى لم تعد تتسع لحشوها بالمزيد . فلقد تقدم بى العمر وأصابنى الكسل . وفوق كل ذلك هنالك الأدب .... أخشى أن أخفق فى أحد الامتحانات ! » .

ولقضاء فترة يرتاح فيها من مهماته الدراسية والأدبية أسعده أن يتوجه إلى فوسكريسنسك . ولقد أقام علاقة صداقة مع مدير مستشفى القرية شيكينو في المنطقة . الدكتور أرخانجسكي ، وكان يساعده في جولاته على المرضى . كما كان يبقى في المستشفى ليلاً في بعض الأحيان ويستمتع بأحاديث مطولة مع الطبيب والطلاب الذين يتلقون تدريبهم هناك . كانوا يتناقشون في السياسة والأدب ويتجادلون حول تورجنيف وسالتيكوف - شيدرين ، ويهاجمون أشعار نيكراسوف ويغنون أغاني قديمة محببة للقلب. وكان يمر الوقت يمر بسرعة بحيث أن مواعيد الكتابة لمجلة «شظايا» غابت عن بال تشيخوف . وقد كتب في ذلك إلى لايكن يقول: « أرجو أن تغفر لي كسلي ، فالفصل صيف ولست أستطيع شيئاً حيال ذلك . والشعراء وحدهم هم الذين يستطيعون أن يجمعوا بين الخربشة على الورق والليالي المقمرة ، فهم يعلنون عن حبهم وهم يكتبون قصائدهم . أما أولئك الذين يكتبون نثراً فهم أقل حظاً من هذه الناحية ».

هذه الإشارة الضمنية لقضية تتعلق بالقلب لم تتجاوز هذه الحدود ، إذ كان تشيخوف يحتفظ بالأمور المتعلقة بحياته العاطفية لنفسه ، وإذا صادف أن طرح الموضوع فإنما يفعل ذلك من باب المزاح . غير أن مصادر مقربة منه كانت تؤكد بأنه كان على علاقة وثيقة مع راقصة باليه وممثلة فرنسية من مسرح لينتوفسكي . وكان هو نفسه يعترف بأنه يستمتع بارتياد مقهى معروف باستقطاب الضباط اللاهين والفتيات العابثات ، وكانت هؤلاء الفتيات يضحكنه ويدفعنه للشراب . وقد كتب في إحدى رسائله يقول : « ولقد شاءت لي الأقدار أن أظل ساهراً طوال الليل ألعب الورق مع السيدات ، وبقيت ألعب حتى صلاة الصبح ، وكنت ضجراً ولذا أخذت

أحتسى الفودكا التى أتعاطاها من وقت لآخر ، وإن كنت لا أفعل ذلك إلا بدافع الملل . رأسى يغلفه الضباب » .

وإذا كان يلتزم بقواعد الفروسية فهو إنما يفعل ذلك دون عاطفة ، وكان يتعامل مع النساء فى العادة من زاوية حب الاستطلاع والتهكم ، وهذه واحدة من أكثر رسائله تعبيراً عن غرابة الاطوار وقد كتبها لزوجة صديقه سافيليف حيث يقول : « سأزور تاجنروج فى نهاية حزيران / يونيو على أمل العثور على الخطيبة التى وعدتنى بها ، وشروطى هى كما يلى : الجمال والرشاقة يضاف إلى ذلك قضية بسيطة وهى عشرون ألفا . . . فشباب هذه الأيام مرتزقة إلى حد مرعب ! . . . » .

وعلى الرغم من أن تشيخوف كان يعلن باستمرار بأنه يمارس الكتابة على نحو مؤقت فقط وأن مستواه لن يتجاوز مستويات ضئيلة القيمة فقد كان يحلم بطبع مجموعة من أحسن قصصه . وقد طبع مجموعة منها في النهاية ، على نفقته الخاصة وكانت تحمل عنوان « حكايات ملبومينا »* وكانت هذه عبارة عن مجموعة من ست قصص فى ست وتسعين صفحة كان سعر النسخة منها ستين كوبيكا ، نشرت تحت اسم « تشيخونتى » . وقد تولى ألكسندر ، الذى كان قد ترك وظيفته فى جمرك تاجنروج وعاد إلى موسكو ، تولّى أمر إقناع أصحاب المكتبات بعرضها على رفوف مكتباتهم إلا أنه نظراً لأن كلمة « حكاية » بالروسية (سكازكى) تشير ضمنياً فى العادة إلى قصص الجنيات فقد وضعها أصحاب المكتبات فى أقسام الكتب المخصصة للأطفال بحيث أن قراءها المحتملين لم يتنبهوا

* إلهة المأساة عند الاغريق .

لوجودها . لذا أرسلت النسخ غـير المباعة إلى المؤلف بالجـملة ، ولقد علـق ألكسنـدر على ذلك بالقـول : « ستسمـــع بك روسـيا فيما بعـد يا أنطوشا ، وما عليك إلا أن تموت وأنت شـاب لكى تسمعـها تنوح من شمـالها إلى جنوبها ، ومن وراء البـحار ، وسيـتعاظم مـجدك . وحـتى ذلك الحين سيمتنع الناس عن شراء كتابك ! . . . . » .

غـير أن تشـخـوف وجـد بعض التـعويض عن هذا الاخـفـاق الأدبى والتـجارى فى النتـائج النهائيـة لامتـحانات الطب والتى جـرت فى شـهر حـزيران / يونيو ١٨٨٤ . ولقـد كتب إلـى لايكن يقول مـزهواً بشعـوره بالمكانة الاجـتمـاعيـة التى سـيحـققـها بـذلك : « إننى أعـيش الآن فى الفردوس ثانية ، أجدنى متـوازناً تماماً نظراً لأننى أتحسس فى جيبى الوثائق التى تخولنى صلاحية ممارسة مهـــنة الطب » وقـد وقع الرســالة باسـم « أ. تشخوف ، دكتور وممارس للطب العام فى المنطقة » .

عاد تشـيخـوف إلى مسـتـشفى تشـيكينو فى فصل الصـيف تلك السنة كطبـيـب مـعالـج . وأجــوره الأولى فى تلك السنة جـاءت من المصـادر التالـية : خمـسة روبلات لفـشله فى علاج شـابة تعانى من ألـم فى أحد أضـراسـها ، روبل واحـد من عـلاج راهب يعـانى من الزحـار ، وثلاثة روبلات لتهدئه حالة معدة متقلبـة لممثلة من موسكو جاءت لتقضى إجازتها فى المنطقـة . « لقد سـعدت لـنجاحى فى مـهنتى الجـديدة بحـيث أننى جمعت كل ماحصـدته من روبلات وأرسلته إلى حانة بانيكوف التى أتلقى منها الفودكا والبيرة وغيرها من الأدوية المماثلة التى تزّين مائدتى » .

وحين سمع أن جريمة قتل وقـعت قرب فوسكريسنسك حصل على إذن لحضور تشريح الجثة الذى تم فى الهـواء الطلق فى ظل شجرة بلوط صغيرة على مقـربة من رصيف أحد الطرق الريفـية ، وقد كتب يصف مـا شاهده

قائلاً : « كـان القتيل يرتدى قـميصـاً أحمر وبنطالاً جـديداً ، وقد غـطّى بملاءه وضـعت فـوقـها مـنشفـة عليـهـا أيقـونة صـغـيرة . طـلـبنا من الديسياتسكى* أن يحضـر لنا الماء . كان هناك مـاء فى بركة قريبـة غـيرأن أحـداً لم يقبل إعطاءنـا سطلاً واحداً منه خـشـية أن ننجّس الماء » . وقـد أوحى له ذلك بقصة « الجـثة » التى لم يكن بطلها القـتيل أو القاتل ، بل الفلاحين اللذين أوكل إليهما أمر حراسة الجثة فى الغابة أثناء الليل .

وحين حـصل مديرمـستـشفى سـفينيـجو رود الريفى على إجـازة لمدة أسبوعين اقتـرح تشيخوف أن ينوب عنه ، وكانت هذه لفتة عـفوية وجريئة من جـانب طبيب شـاب لم يكتـسب بعد أى خـبرة . ولقـد كـادت أول عملية يجـريها ، وهى عملية روتينية لطفل ، كـادت أن تنتهى بكـــارثة إذ أخـذ الطفل الصغـيـر يتلوى وينوح بحـيث أن تشخـوف فـقد أعـصـابه واستدعى أحد زمـلائه فى تشيكينو فأنقذ الموقف على الفور . وفـيما عدا ذلك كـان عمله فى المـستشـفى رتيبـاً إلى درجة مـؤلمة ، إذ كان علـيه أن يفحص عدداً يتراوح بين ثلاثين وأربعين مريـضاً كل يوم حيث تتوالى عليه حـالات الجروح المتـقرّحـة والنزلات الصـدرية والدودة الوحيـدة ، ولقـد صعقته الحـالة الجسمانية العامة المتداعية لـلفلاحين ومدى قذراتهم وجهلهم وإدمانهم للشـراب ، فأين هو الفلاح الـروسى مفتـوح الفؤاد ، الملهم من الأرض والسماء الذى يمجده تولستوى ؟!! وفيما بين جلسات الكشف كان تشخوف كثـيراً ما يتأمل المطر من نافذة مكتبه وهـو ينهمر فوق بيت رئيس شرطة المنطقـة فى الطرف المقابل من الشـارع . . ولم يكن يجد متنفـساً له فيما يرى حوله من بؤس وضيق أفق ريـفى إلا فى الانغماس بأحلام تحقيق مشـروع ضخم الأبعـاد ، وهو كتابة تاريخ الطب فـى روسيا . ولقـد كان

* الديسياتسكى الفلاح ينتخبه أقرانه ليقوم بمهام الشرطى .

يفكر بهذا المشروع كأطروحة أكاديمية تحقق له الشهرة في الأوساط العلمية . غير أنه ما لبث أن فقد اهتمامه بهذا الموضوع بعد أن قرأ ما يقارب مائة مرجع وكتب ملاحظاته عليها . إذ أن مشروعاً كهذا لا يمكن أن يسيطر لفترة طويلة على شخص له سعة خياله وحساسيته .

ولم يتحسن وضعه المعنوى بعد عودته إلى فوسكريسنسك . فالطقس شنيع أو « خنّاقى » نسبة إلى مرض الخناق أو الدفتيريا ، كما يصفه ، ولذا عاد فى ٣ ايلول / سبتمبر إلى المدينة ووجد نفسه يتعلق بموسكو أكثر فأكثر بحيث أنه أعلن أنه « سيتمى إليها إلى الأبد » . وسرعان ما ظهرت على باب بيته لوحة نحاسية حفرت عليها الكلمات التالية: « أنطوان تشخوف ، دكتور فى الطب » . ولقد توصل إلى الاستنتاج بعد تتبع حساباته خلال الأشهر القليلة التالية بأن الطب أفضل من الأدب كمصدر للدخل .

وفى ٧ كانون الأول / ديسمبر ١٨٨٤ ، وفى خضم معركته المنهكة لإنجاز ما يطلب منه للنشر وعلاج مرضاه المفلسين جاءه الانذار الذى تظاهر بالتقليل من شأنه ، وهو سعال جاف مع طعم فى حلقه ونوبات نفث دموى . وقد سارع ليقول لصديقه سيرجنكو : « ليست حالة سلّ ! » . وفى ١٠ كانون الأول / ديسمبر استهل رسالة إلى لايكن بقوله : « منذ ثلاثة أيام والدم ينزف من حلقى مما منعنى من الكتابة وسيحول دون ذهابى إلى بطرسبرج . ولابد لى من القول بأننى لم أتوقع هذا فى حياتى قط . لم أبصق منذ ثلاثة أيام إلا وشاهدت أثراً للدم ، ولا أدرى متى سيظهر تأثير الأدوية التى أثقلنى بها زملائى . حالتى العامة مرضية ، وقد يعود الأمر كله إلى مجرد وعاء دموى متمزق » . وفى نهاية الرسالة يضيف أموراً تتعلق بممارسته للطب

فيقول : « ولابد لى من الإشارة إلى أن لدىّ مرضى علىّ أن أنطلق لرؤيتهم الآن . ولكننى لا أستطيع . . لا أعرف ماذا أفعل بهم . من العار علىّ أن أحيلهم إلى طبيب آخر ، فالمال هو المال فى نهاية المطاف ! » .

وما أن تماثل للشفاء حتى عاد لمزاولة الطب . وعلى الرغم من أنه كان يرفض إمكانية اصابته بداء السل إلا أن فكرة السفر للعلاج فى مناطق أكثر دفئاً أخذت تراوده ، إلى القرم أو القوقاز أو ربما إلى الخارج . ولكنه ما لبث أن رفض هذه الفكرة الحكيمة أيضاً ، وقد كتب إلى عمه بتروفان يقول : « عملى كطبيب يتقدم بصورة حسنة ، وعيادتى مزدحمة، وأنا أصرف كل يوم ما يزيد على الروبل أجرة لعربة ، إذ أن لى الكثيرين من الأصدقاء والقليلين من المرضى ، نصفهم تقريباً أعالجهم مجاناً . والنصف الآخر يدفع لى ثلاثة أو خمسة روبلات (يدفع للطبيب فى موسكو مالا يقل عن ثلاثة روبلات للزيارة الواحدة ، فكل الأمور أكثر كلفة هنا مقارنة بتاجنروج) . لم أجمع بعد أى رأسمال بالطبع ، ولن أفعل فى المستقبل القريب . ولكننى أعيش حياة لائقة ولا يعوزنى شىء . ولذا فإن معيشة العائلة ستكون مؤمنة إذا أمكن لوضعى الصحى أن يتماسك .

أخذ وضع تشخوف المادى يتحسن يوماً بعد يوم ، وسرعان ما أصبح قادراً على شراء بعض الأثاث إضافة إلى جهاز بيانو ، واستخدام امرأتين تساعدان فى القيام بشئون المنزل ، وترتيب أمسيات موسيقية حميمة . فالبحبوحة التى تعيش فى ظلها الطبقة الوسطى وما توفره من نمط حياة محترمة هادئة كانت تدخل السعادة إلى قلبه بعد سنوات المصاعب والإذلال التى عانى منها . ولقد شعر حين بلغ الخامسة والعشرين من

عمره أنه انتصر كليـة وإلى الأبد على العبد الذى كان يعيش فى داخله منذ ولادته . قد يبصق دماً ، ولكنه دم انسان حر على الأقل . ولقد كتب يقول : « لسنا مدينين لأحد ولا أرى أى حاجة لنا للاستدانة . ولقد كنّا حتى وقت قريب نشترى حاجيات طعامنا (مثل اللحم ، والخضار) على الحساب ، إلا أننى تخلصت من ذلك وأصبحنا ندفع ثمن كل شىء نقداً » .

من الواضح أن لهجة التفاؤل هذه كانت متكلفة بعض الشىء ، بهدف خلق انطباع مؤثر لدى عمّ يعيش فى الأقاليم ، غير أن تشخوف كان فخوراً دون ريب بالتحسينات المادية التى نتجت عن عمله . كانت مطامحه فى ذلك الحين تقتصر فقط على تأمين عيشة مريحة شريفة . أما بالنسبة للأدب فقد دخل من بابه الخلفى ، وكان يرتعد أمام عمالقة الأدب الروسى مثل ديستوفيسكى وتورجنيف وتولستوى . وعلى الرغم من أن ديستوفيسكى كان قد مات فى عام ١٨٨١ وتورجنيف عام ١٨٨٣ ،فى حين أن تولستوى وإن كان ما يزال حياً ، إلا أنه كان فى طور استعراض محاولته رمى الفن وراء ظهره وتمثيل دور النبى المبشر ، إلا أنهم ثلاثتهم كانوا ما زالوا يحتلون مركز الصدارة فى أذهان الناس جميعاً مما يثبط أى محاولة للأجيال الصاعدة لمحاكاة هؤلاء العمالقة ، إذ كيف يتسنى لأحد أن يأتى بما يمكن أن يضاهى أو يتفوق على هذا الرهط اللامع من السلف ؟ .

لم يكن هذا السؤال ليخطر لتشخوف فى البداية . فقد كان يكتب بسرعة لكى ينجز مواده فى مواعيدها المحددة ، ولذا لم يكن لديه من الوقت ما يكفى لمعالجة القضايا الأخلاقية والدينية والاجتماعية الراهنة المطروحة ، أو لتقديم المواعظ . كان همه منصباً على تسلية قرائه

أو تقديم مـا يمكنه إثارة أحلامـهم . وفيمـا بـين عـامى ١٨٨٠ ، و١٨٨٤ نشر ثلاثمـائة نص تحت أسمـاء مختلفـة وفى مجلات هـزلية متـعددة فى مـوسكو وبطـر سـبـورغ . ووسط ذلك الخليط من القـصـص المضـحكة والمسرحيـات الهزلية هنالك القليل من القـصص مما نلمح فيه تحليلاً نفـسياً حاذقاً وسخرية بارعة مثل قـصة « ابنه البيون » ، « موت موظف » « بدين ونحيل » ، « الحـرباء » ، « ترقيـة بامتحـان » ،و« إجراءات مناسـبة » . وعلى الرغم من أن « لا يكن » كان مـعجبـاً أيمـا إعجـاب بأصالة اسلوب تشخوف ، إلا أنه كان يُخـضع كل ما يكتبه لرقابة مسـبقة بحيث يحــذف بلا رحمـة مقاطع كامـلة بصورة تبعث على الصـدمة أو تؤثر فى النص . ولقد كتب لتـشخوف يقول : « وصفك لليلة عيـد الفصح ، وللقنـدلفت فى برج الجرس ليس سـيّئاً علـى الإطلاق وقد أرسلت الجزء الأول لعـمال صفّ الحـروف . ولكنى آسف لأننى اضطررت لحـذف كل الأمور النثـرية العاديـة المتعلقة بـعيد الفـصح مثل السكـر وزيارات العيد » . ويتـابع فى الرسالة ذاتهـا قائلاً : « الشخصـيات ساحـرة ، إلا أن من بينها شخصـية أخشـى ألا تمر من بين يدى الرقيب ، فـالرقابة أخـذت تثقـــل علينـا فى الآونة الأخيرة بحيث تكاد تخنقنا أو تسحقنا » .

ولـم يكن « لا يكن » يبـالغ فى ذلك ، الـرقيب كـان يتـدخل بقلمـه الازرق بعـد كل التـشـذيب الذى يـقـوم به ، إذ أن هذا الحـارس الأمـين للشرف الوطنى يشـم رائحـة تعـريـض هجـومـى علـى القيـصر أو الجـيش أو الكنيسـة أو العـائـلة فى أية كلمة ، مهمـا كانت مضـامينها بريئة وغـير مؤذية . ولذا فإن الكثير من أقاصـيص تشخوف كـان ضحــية للتشـويـه أو الرفض الكلّى . فمع بداية عهد الكسندر الثالث دخلت روسيا عهداً من التصلب والريبـة . وتحت تأثير رئيس المجـمع الكنسى المقدس كونسـتانتين

بوبيد ونوستيسيف والذى كان مقرباً من القيصر تجمدت الحياة الثقافية فى روسيا بصورة كلية وأصبح كل رأى شخصى يعتبر بمثابة مؤامرة .

غير أن تشخوف تكيف مع الوضع بصورة حسنة إذ لم تكن له طبيعة المتمرد فى أى يوم من الأيام ، بل كان بالأحرى بمثابة مراقب متشكّك ولكنه يؤمن بحسن الطوية بالنسبة للطبيعة البشرية . وقصة وراء قصة كان يرسم دون وعى منه لوحة متواضعة ولكنها صادقة وشاملة للحياة الروسية المعاصرة بكل تفاصيلها الدقيقة . ها هم جنباً إلى جنب أولئك الناس العاديون الذين اقتنصهم دون أن يدروا فى المدينة أوالريف ، الفلاحون الجهلة المتوحشون ، أفراد طبقة النبلاء الكسالى الذين يوشكون على الدمار بعد تحرير الاقنان ، الطلبة الثملون الذين يحملون أفكاراً كبرى وإن كانت ساذجة ، أساتذة الجامعة المتململون والأطباء التعيسون وأصحاب الحوانيت المسمرون وراء طاولاتهم والموظفون المرتشون ، مجتمع يتحلل وهو يتغير كان يصور مغامراتهم الفاشلة المثيرة للشفقة ، كلاً بما يتناسب مع شخصيته ، ولكنه بتلك السلسلة من الملاحظات التى تبدو عديمة الأهمية ظاهرياً كان يشير إلى الجوانب الغامضة الخفية التى تكمن خلف هيئتهم الظاهرية القاتمة . كان يفضح سخف الحياة اليومية العادية بصورة واضحة للعيان لا تخطئها العين ، دون أن يستخدم لذلك كلمات كثيرة ، دون خطب من هيئة الادعاء أو الدفاع . الحقيقة المجردة دون رتوش ، وبصورة وثائقية . ومعين صندوق ألاعيبه لا ينضب فيما يبدو بحيث أن لا توجد على الإطلاق صورة يمكن اعتبارها نسخة مكررة عن صورة أخرى فى معرض صوره الشامل ذاك .

كان « لا يكن » يلحّ على تشخوف بأن يكتب المزيد . « لم تهدر وقتك فى إعادة كتابة قصصك مرة بعد أخرى ؟ ليس هناك من يهتم لهذا

الأمر بعـد » . إلا أن تشخـوف كان يصمّ أذنيـه عن هذا الكلام ، بل إنه بتنامى وعيه لطبـيعة فنّه أصبح يعلق اهتماماً أكـبر على الشكل . كان يريد لأسلوبه أن يكون مقـتصداً ، سـريعاً ، غير مـفتعل وكـأنه ليس أمامنا إلا الشخـصيـات ، شخصـيات دون مـؤلف . وهذا جانب آخـر من جوانب إحجـامه عن إظهـار نفسه . وفى كـانون الأول / ديسمبـر ١٨٨١ اسـتلم نسخة من مجلة نوفوريسيسك تلغراف تحمل مقـالاً عن مجموعته القصصية « حكايات ميلبـومينا » يقـول : « القصص قصـيرة يمكن قراءتهـا بسـهولة ويسر مع ابتسامة ترافقهـا . إن فيها سخرية على طريقة ديكنز ، وهى وإن كـانت مضـحكة إلا أنها فى نفس الوقـت تمس شغـاف القلب » . كـــان المقال يحـمل توقيع إياجو ، ولكن تشـخوف يعرف تمام المعـرفة أن إياجـو هذا ليس إلا الاسم المستعار لصديقه وزمـيل دراسته سيرجينكو . ولذا عزا هذا المديح إلى الـصـداقـة وتوصل إلى قناعـة ، بقليـل من المرارة ، بـأن إنجازاته الأدبية الرئيسية ما زالت بعيدة .

٦ - النجاحات والإخفاقات الأولى

بعد سلسلة من الإجـراءات المعقدة بعض الشئ تمكن إيفـان من التخلى عن وظيفـته فى فوسكريسنسك ليـحتل وظيفة تحـقق له دخلاً أكبر كـمدير لمدرسة ابتدائيـة فى موسكو . وعلى الرغم من أن تشخـوف كان يتمنى أن يرى عائلتـه وقد التأم شـملها من جديد ، إلا أنه كـان لهذا الأمر ناحيـته السلبيـة إذ كان يعنى خسارة بيت فـوسكريسنسك الذى تقضى فيـه العائلة إجازتهـا الصيفـية . وما أن اعـتدل الطقس حتى بدأ يـحن للريف ، فابن صاحب الحانوت والـصحفى ضئيل الشـأن الذى يركض وراء حظه ما زال يقرن النجاح بالإقطاعـات الواسعة التى يصفها تـورجنيف وتولـستوى كـما أن فصول الصيف التى قـضاها خارج موسكو قد أثارت شهيـته للحياة فى الريف . ولذا أقدم على مجازفة خطرة باستئجار منزل فى « بابينكو » التى تبعد مسافة ثلاثة فراسـخ عن فوسكريسنسك ، فى إقطاعة يملكها أصدقاؤه عائلة كسيلوف والتى كان ابناؤها من تلامـيذ ايفان ، ولقد اضطر لاقتراض مبلغ مائة روبل من هيئة تحرير مجلة « المنبه » . لتنفيذ هذه المغامرة .

وفى سـاعة مـتأخـرة من ليلة ٦ آيار / مـايو ١٨٨٥ اجتـازت قبـيـلة تشخوف منـزل عائلة كسيلوف التى كـانت تغط فى نوم عميق متـجهة إلى الركن الآخر من الإقطاعة لتقف عند بوابة بيت صـغيـر كان مستقـرهـم فى ذلك الصيف ، وذلك بعـد أن توزعت القبيـلة على عربتين حملتـا كذلك الحقـائب والملابس والصناديق والحزم والكتب والأوراق وبرطـمانات المربّى وأدوات الطبخ . كـانت أبواب البيت مـفتوحـة ، وحين أشعلوا المصـابيح ذهــل تشخـوف لما رأى وعبرّ عن ذلك فى رسـالة لأخية ميـخائيل يقـول فيهـا : « الغرف ضخمة والأثاث يفيـض عن حاجتنا . كل شئ رائع إلى

أقصى حد ، مريح وحميم . لم ينسَ مضيفونا الطيبون شيئاً إلا وفكروا فيه ووضعوه تحت تصرفنا المناضد الصغيرة ،منافض السجائر ، علب السجائر ، حوضان لغسيل الايدى ، وغير هذا وذاك . بيت ريفى مثل هذا خارج موسكو لن تحصل عليه بأقل من خمسمائة روبل ، وسترى ذلك بنفسك حين تأتى . ما أن وصلنا حتى أفرغت حقائبى على الفور ثم أكلت « لقمة » وتجرعت جرعة من الفودكا . . ولكنك قد لا تتصور كم هو من الممتع حين تسرح ببصرك عبر النافذة لترى الأشجار ذات الخضرة القاتمة والنهر ، بل لقد سمعت قبرّة تغرّد ولم أستطع أن أصدق أذنىّ » .

وفى اليوم التالى بدأ تشخوف يستكشف الإقطاعة استكشافاً فعلياً . كانت تمتد على شاطئ شديد الإنحدار على نهر إسترا وقد ألحقت بها حديقة على الطراز الانجليزى ومناطق غابات كثيفة ومراع وبرك للأسماك وأحواضٍ للزهور . عائلة كسليوف وطفلاهما البالغان: ألكسندر أنّ « ساشا » وسيرجسى هما ملاكا جنة الحياة المتراخية واللذيذة هذه . والسيدة كسليوفا ذات روح تطفح بالطاقة والحيوية وهى تؤلف كتباً للأطفال لها نصيبها من الشهرة . والمنزل يعج بالخدم المنهمكين بأعمالهم باستمرار فى خدمة سادتهم . هناك ضيوف لدى كل وجبة طعام وكأن عائلة كسليوفا مصممة على تبديد كل ما تبقى لديها من ثروة . ولا شك أن تشيخوف كان يتذكرهم باستمرار وهو يصف انهيار العائلة الإقطاعية فى مسرحية « بستان الكرز» .

ولكنه كان فى ذلك الحين تحت تأثير معاملتهم الودية وروحهم المرحة . وعلى الرغم من الإغراء الذى كان يواجهه بالإستسلام لحياة الدعة والكسل التى كانوا ينعمون بها ، غير أنه كان عليه أن يعمل بجد

ليدفع ثمن رفاهية تواجدهم فى ذلك الصيف . كان يستيقظ فى السابعة صباحاً بنية الكتابة مستعملاً لهذا الغرض طاولة ماكنة الخياطة القديمة ، إلا أن فلاحى المنطقة كثيراً ما كانوا يقطعون عليه محاولات الكتابة حيث يأتون للاسترشاد برأيه بعد أن علموا بوجود طبيب فى بابكينو . « مرضاى يتدفقون علّى ولا يكفّون عن إزعاجى . ولقد كشفت على عدة مئات منهم هذا الصيف وما حصلته يصل إلى حدود روبل واحد » .

وفى المساء يصطاد السمك وينشر سلال القصب المستعملة للصيد ويدهشه ما تصطاده هذه السلال : « أمس وجدنا فى إحداها سمكة سنط وسحبنا هذا الصباح تسعة وعشرين من أفراخ السمك النهرى . عدد جيد ، أليس كذلك ؟! . . . سنأكل هذا اليوم حساء السمك وسمكاً مقلياً وسمكاً بصلصة الطماطم » . وكثيراً ما كانت السيدة كسليوفا ترافقه أثناء الصيد وتتناقش معه فى أمور الأدب وهى تغمس صنارتها فى النهر . وبما أنها تعرف أنه يبحث عن موضوع فقد كانت تروى على مسامعه القصص التى تقرؤها فى المجلات الفرنسية .

وحين ينتهى من الصيد ويعود إلى البيت يمضى إلى مكتبته حتى الليل . وأصبح بإمكانه بعد أن توقف عن تزويد مجلس « شظايا » بأخبار الثرثرة فى موسكو أن يخصص المزيد من الوقت لصقل ما يكتبه من قصص ، خصوصاً تلك التى يرسلها لمجلة « سانت بطرسبورج جازيت » والتى لم تفرض عليه حدوداً معينة فيما يتعلق بطولها . وبعد العشاء الذى يقدم فى الثامنة يتجه الجميع إلى غرفة الجلوس لدى عائلة كسليوفا حيث يتناولون الشراب ويتحدثون ويلعبون الورق والشطرنج ويعزفون الموسيقى أولاً وقبل كل شئ . كان للسيدة كسليوفا صوت جميل والمربية عازفة ممتازة على البيانو . وكان يحب بشكل خاص

مقطوعات ليلية « Nocturne » لشوبان . وفى نهاية السهرة تطفئ السيدة كسليوفا الشموع وتعزف المربية مقطوعة سوناتا فى ضوء القمر لبيتهوفن . وكان تشيخوف يجلس فى الشرفة وحيداً ويشعر بأن إحساساً بالسعادة والدعة يملأ قلبه . وحين تتلاشى الأنغام الأخيرة فى عتمة الليل ينصرف الضيوف بصمت .

بعد أيام من وصوله إلى بابكينو علم تشيخوف أن صديقه الرسام اسحق ليتفيان معتصم فى قرية قريبة وأنه يعانى من إنهاك عصبى يصل إلى حافة الانتحار ، فتوجه إليه على الفور ليتحدث إليه ويسحبه من مربضه ويجبره على الإقامة فى ملحق تابع للبيت الريفى الذى استأجره تشيخوف ، وكتب فى ذلك فى إحدى رسائله يقول : « ليتفيان المسكين فى حالة بائسة ، لديه فيما يبدو العلائم الأولية لاضطراب عقلى . إنه يريد أن يشنق نفسه ، ولقد أخذته إلى حيث نقيم حيث أعمد للقيام بمشاوير معه . . يبدو أن حالته تتحسن . . . ياللطبيعة المترفة التى يتراءى لك أن تلتهمها . . » .

خلال نزهاتهما الطويلة مشياً على الأقدام كان الاثنان ينغمسان فى أعماق الحقول والغابات . وأخذ ليتفيان يستعيد إحساسه بطعم الحياة شيئاً فشيئاً . أما تشيخوف فقد أصبح أكثر انتباها للطبيعة المحيطة به ، وتحت تأثير رفيقه الرسام أخذ يمتلئ إعجاباً بالتفاصيل الدقيقة للغاية ، ولأى بركة ماء مهما صغرت ، ولأدق نصل من العشب ويختزن كل ذلك فى ذاكرته وكأنها أجزاء دقيقة من كنز يتم جمعه بكل صبر وأناة . لم يكن هناك شئ عظيم القيمة لعينيه فيما يرى ، أو فيما يجرّبه أو يقع فى طريقه .

ولكن « شفاء » ليتفيان لم يتقدم بيسر بل كان يراوح باستمرار بين أقصى درجات الحبور وأعمق أعماق الاكتئاب . وما أن يلتقى بشابة ، مهما كان نصيبها من الجمال متواضعاً فإنه يقع فى حبها على الفور معلناً لها حبه ، لينساه أمام أى امرأة أخرى فى اليوم التالى . ولكنه لم يكن ليتصف بالوسامة بشعره الأسود المتجعد الكث وأنفه الكبير وعينيه الملتهبتين وحواجبه الشيطانية . غير أنه حتى النساء اللاتى يصفنه بالتهور كن يجدنه ملفتاً للنظر .

وفى بابكينو لم يستطع أن يحول ناظريه عن شقيقة تشيخوف ، ماريا ، والتى كانت قد بلغت لتوها الثانية والعشرين من عمرها . كانت مزيجاً نابضاً بالحياة للفتاة الحالمة والواقعية فى آن واحد ، تجرب أناملها بالرسم كما تعلمته فى دورة تلقتها فى مدرسة رايفسكى للبنات ، ولقد ترك مزاج ليتفيان القاتم وموهبته وكلامه المشتعل تأثيره القوى عليها بحيث اعتبرته بطلاً رومانتيكياً ضائعاً فى وسط مجتمع لا يمكنه أن يفهمه . وبينما كانا يتمشيان معاً فى غابات بابكينو فى صباح أحد الأيام وهما يتبادلان الأحاديث الودودة إذ به يركع أمامها فجأة وهو يقسم بأنه يحبها ويريد الزواج منها . فما كان من ماريا التى أذهلها ما فعل إلا أن ركضت إلى البيت لتعتصم فى غرفتها وتبكى طوال الوقت ذلك اليوم . وحين رفضت الانضمام إلى العائلة لدى العشاء توجه تشيخوف إليها ليسمع اعترافها حيث ذكرت له وسط عبراتها كيف أعلن ليتفيان حبه بها ومدى الاضطراب الذى سيطر عليها حينذاك ، فنصحها بأن تمعن التفكير فى الأمر قائلاً : « يمكنك أن تتزوجيه بالطبع ولكن عليك

أن تعــرفـى بـأن مــا يحتاجـه هو نساء من عــصر بلزاك * وليس فـتاة من نمطك » . وعلـى الرغـم مـن أن مـاريا لـم تفهم بالضـبط مـا يعـنيه تعـبير « نسـاء مـن عصـر بلـزاك » غـير أنها أدركت بأن فكرة ارتباطـها بشخص مثل ليتـفيان لم ترق لشقيقـها ، ولذا قررت ألا تستجـيب له ، وكتبت له بهذا الشأن بعد ذلك تقول : « لم أجـبه ، ولذا ظل يحوم لمدة أسبوع وقد سيطرت عليه حالة من الكآبة والقتـامة بينما كنت أنا ألتزم البيــت وأظــل فى غرفـتى . وهذا ما آلت إليه قـصتنا. ولكننا بقـينا صديقين حـمـيمين طوال حياته التى كانت قصيرة ».

وبتقدم فصل الصـيف أخذ قلق تشيخوف يتزايد من الناحـية المـالية . فقـد كان عليه أن يســدد ديون بابكينو ، بالإضافة إلــى تدبير المــال اللازم لعودة العائلة إلى موسكو. وبعد توسلات عـديدة وحثيثة لناشريه أمكنه أن يحصل مـبالغ كانت مسـتحقة له لديهم منذ عـهد طويل وبذلك تمكن من إعادة العـشيرة إلى مـوسكو فى شهـر سبتـمبر .وحين أخـذ يذرع شوارع موسكو « المملّة اللـعينة » ثانية لـم يكن يقـوى على نسيان أحـلامه حــول سـحر بابكينو الريـفى. وقد كـتب حينذاك يـقول : « ليس هنـاك مـا يملأ روحى المسكينة فى الوقت الحـاضر إلا ذكـريات قصبـات الصيـد والسمك النهـرى وشباك الصـيد ، وتلك الديدان الخـضراء الطويلـة . . . . مازلت وكأننى أعيش الصـيف ، حتى أننى استيـقظ فى الصـباح وأنا أتســاءل : هل اصطادت شباكنا شيئاً هذا الصباح أم لا ! . . . » .

إلا أن اقامـته فى تلك الجنة لم تؤد إلى تحُـسن يذكر فى صحـته ، بل عاوده النفث الدموى وبعد عودتهم بوقت قـصير انتقلت العائلة إلى الطرف

* الـروائــى الفرنـســى المعــروف (١٧٩٩ - ١٨٥٠) وأحد أركان المدرسة الواقعية فى الأدب .

الآخر من نهر موسكو ، لضاحية وصفها تشيخوف للايكن بقوله : « كأنها ريف حقيقى ، نظيفة ، وادعة ، رخيصة ، ومملة بعض الشئ » . كما أن « لايكن » دعاه بعد فترة وجيزة لزيارة بطرسبورج لمدة أسبوعين مع دفع جميع تكاليف رحلته . وتشيخوف الذى لم يكن قد زار العاصمة بعد أسعدته هذه الفرصة حتى أنه اشترى لنفسه معطفاً جديداً وبنطلوناً . وفى ١٠ كانون الأول / ديسمبر ١٨٨٥ استقل القطار متوجهاً إلى مدينة الضباب والبيروقراطية وأقطاب الأدب ، إلى المدينة التى يسكنها الكتّاب المعروفون فى ذلك الحين مثل ساليتكوف - شيدرين وجريجوروفيتش وليسكو وأوسبنسكى وبليشيف بالإضافة إلى ظلال الكتاب الكلاسيكيين أمثال بوشكين وجوجول ودستويفسكى ونيكراسوف.

أعجب تشيخوف وهو يطل من نافذة العربة التى أقلته من المحطة إلى بيت لايكن بالشوارع المستقيمة الواسعة وبواجهات الأبنية الخضراء اللوزية أو الصفراء المائلة للون الصدأ ، وبالنظام البارد ، باختصار بالجمال المزخرف الذى يمثل نقيضاً لما يحبه فى مدينة موسكو القديمة بكل ألوانها وفوضاها وشعبيتها . ولم يكن ليخطر بباله أن القصص التى كان يعتبرها « توافه » قد بدأت تكسبه سمعة كاتب حقيقى مما أدار رأسه للإستقبال المتحمس الذى قابله به زملاء لايكن الذين قدمه لهم . ولقد كتب لألكسندر يقول : « الناس يوجهون الىّ الدعوات باستمرار ويرددون الثناء علىّ ، وهو أمر يزعجنى إذ أننى كنت أكتب دون إتقان وبلامبالاه . لو كنت أدرك أن ما أكتبه يُقرأ على هذا النطاق لما كتبت حسب الطلب » . وبعد أسبوعين قال لفيكتور بيليبين ، وهو كاتب ومحرر فى مجلة « شظايا » : « حين كنت أظن بأن لا أحد يقرأ ما أكتب

ويضعه فى الميزان كنت أكتب بـدعة وهدوء وكأننى آكل الرقائق . أما الآن فقد أصبحت أتهيب الكتابة » .

أما أهم من تَعَـرفْ عليهم تشيـخوف فى بطرسبـرج فكان أحد أقطاب الصحـافة المتنفـذين حينذاك ، ألكسى سيـفورين ، مـؤسس ورئيس تحرير أكبـر الصـحـف اليـومـيـة التـى كـانت تصـدر حـينذاك وهى « الأزمـنة الحديثة » . وبناء على رأيه فى قـصة لتشيخوف هى « الصـياد » اتفق معه على أن يقدم قصـصاً لصحيفـته مقابل ١٢ كوبيكاً لـلسطر الواحد . ولقد أسعـد تشـيخـوف هذا المصدر الجـديد للدخل ، والأهم من ذلك أنه رأى سيفوريـن على الفور رجلاً ذا قدر هائل من الطاقة والإخلاص والشـقاقة . وعلى الرغم من أن مـوقفـه المؤيد بإصرار للحكـومة كان يـكسبـه سمـعة الانتهازى المجرد من الضـمير فى الأوساط الليبرالية غيـر أن تشيخوف كان ينأى بنفسه حينذاك عن السياسة وميولها .

وما أن وصل إلى موسكو حـتـى سـارع لإرســال قصــة جـديـدة هـى « القداس » إلى صحـيفة « الأزمنة الحديثة » فنشـرت القصة فى الحـال . وقد كـتب إلى سيـفورين يقول : « شكراً لـكلمات الإطراء التى كتـبتـها ولنشرك القـصة بسـرعة ، ولك أن تتصـور التأثيـر المنعش ، بل والملـــهم الذى يمكن أن يحدثه اهتـمام يبديه شــخص له مثل خبرتك ومـوهبتك فى طموح كاتب مثلى » .

إلا أن هذا التوهج الخـلاق من جانب تشيـخوف مالبث أن أخذ يخـبو حين انتشر وباء التيـفوس بالمدينة . فلقد كان يتم استدعـاؤه ، شأن جميع الأطباء الآخرين ، لعلاج المصـابين ، ولـم يكن ينام إلا ساعات قليلة أثناء الليل . وبحكم هشـاهة جسده كان خـائفاً أكثـر من الآخرين من احتـمال إصـابتـه بالعـدوى ، وكتـب إلى بيلين يقـول : « إننى أكـتب وأطّبب ،

وموسكو أصبحت مرتعاً لوباء التيفوس ، وهو ما أخشاه أنا بالذات ، إذ أشعر بأنني لن أبرأ من الداء إطلاقاً إن وصلتني عدواه ، ومخاطر العدوى تحيط بي من كل جانب » .

بل إنه كان يجد صعوبة في التركيز على أوراقه حتى في الأوقات المحدودة التي يقتنصها من مرضاه ، فقد كان هنالك متعهد لتقديم الحفلات والسهرات يحتل طابقاً كاملاً في البناية التي يسكنها ، وكان يستخدم هذا الطابق لإقامة حفلات الزواج ودعوات العشاء لدى الوفيات ومآدب النقابات ، وبذا فإن الصراخ والموسيقى الصاخبة وقرقعة الصحون كانت أمراً لا ينتهي . وقد كتب إلى بيلين في ذلك يقول : « موسيقى حفلات الزواج تعزف فوق رأسي في هذه اللحظة . هنالك بغال يتزوجون ويدبكون فوق دماغي كأنهم الخيل ، كما كتب إلى لايكن يقول : « لقد كنت منهكاً مهتاجاً مخبولاً خلال الأسبوعين الماضيين بحيث أشعر بأن رأسي يدور . الشقة تعج باستمرار بالناس والضجيج والموسيقى ، والموكت بارد والمرضى يتدفقون باستمرار . . . » .

ومع ذلك لم يكتب فقط عدداً من القصص الهزلية الهينة ، بل أيضاً بعضاً من روائعه التي تتضمن سخرية رقيقة مثل « المجرم » و« الرقيب برشيبيا » وقبل هذه وتلك « الحزن » ، وهي قصة سائق عربة عجوز يفقد ابنه ويحاول أن يفرغ حزنه وأساه لراكب بعد آخر دون جدوى ، إلى أن يلتجئ في النهاية إلى فرسه العجوز ويقول لها : « افترضي أن لك مهراً ، وأنك أم لهذا المهر. ولنفترض مثلاً أن مهرك قفز ومات ، ألن تحزني ؟ !! وبينما كان سائق العربة العجوز يروي قصته بكاملها كان الحصان يقضم طعامه ويمضغه بجلبة وهو ينصت ويزفر أنفاسه على يدي صاحبه . . .

ومهما كـان قدر ذهول قراء « الشظايا » و« سانت بطـرسبرج جـازيت و« الأزمنة الحـديثة » لهـذه القصص غـير أن تشـيخـوف ظل يعـانى من الشـعور بعـدم الثقـة بالنفس. ولم يكن بمقـدوره أن يعرف لماذا يلحّ عليـه سيفـورين بأن يتخلى عن اسمه المسـتعار وينشر كـتاباته باسمه الحـقيقى . وحين رجاه بيليـبين أيضاً أن ينشر مجـموعته القـصصية التاليـة « قصـص منوعة » مسـتخدماً اسـمه الحقيقـى أجابه تشيخوف قـائلاً : « لقد منحت اسـم عـائلـتي ودرعـى للطب الذى لن أهجـره إلى أن أصل إلى حـــافـة القبر . أما الأدب فسأهجـره عاجلاً أو آجلاً . . . لست أفهمك ولا أدرى لِمَ يسعد الجمهور اسم أنطون تشيخوف أكثر من أ. تشيخونتى ؟ » .

ولكن الحقيـقة هى أن أنطون تشيخـوف الذى كان خجولاً بطبـعه إنمـا كان يتهيب أن ينزع الـقناع الذى يغطى وجهه ليجابه جمـهوره مباشـــرة . كان يخشى أن يرمى اسـمه أمام الأسود خشية أن تهـدر وتزأر فى وجهه . كما أنه حين يعـرض نفسه أمام أعين الناس إنما يعرض عائلتـه أيضاً . فهل يملك الحق فى ذلك ؟ وفى النهاية فسّر الأمر لنفسه على هـذه الصيـــغـة : « الطب يتـعامل مع نفســه بكل جدية . أمـا لعبـة الأدب فهى تحـتاج إلى الأسماء المستعارة » .

وفى ٢٥ آذار / مارس ، بعد أيام مـعدودة من تأكيده لبـيبلين بأن أيامه على مـسرح الأدب قليلة تلقى رسـالة من بطرسبـرج أثرت فيـه إلى درجة الدموع. كتب له الاديب المرموق جريجـوروفيتش والذى كان قد قابله لدى زيارته لبطرسـبـرج ، كتب له ترنيـمـة إعجـاب وإطراء عـفوية . وكـان جريجورفـيتش نفسه قد حيّى مـولد عبقرية أخرى وهى دستـويفسكى قبل أربعين عـاماً برسـالة مماثلـة ، مما جعل منهـا سابقـة لها مـغزاها ومـعناها الأهم. وقد كتب له جريجوروفيـتش يقول : « لقد قرأت كل ما هو موقع

باسم تشيخونتى ، وإن كنت أشعر بغيظ داخلى من إنسان يقلل من شأن نفسه بحيث يجد أن استعماله اسماً مستعاراً هو أمر ضرورى . . إن لديك موهبة حقيقية ، موهبة ترفعك إلى موقع أعلى بكثير من الكتاب المعاصرين ، وإذا كنت أتحدث عن موهبتك فإنما أتحدث باقتناع . لقد تجاوزت سن الخامسة والستين ولكننى مازلت شغوفاً بالأدب ، أتابع تقدمه بحماس كبير وأحس بغبطة عارمة حين أكتشف شيئاً ينبض بالحياة والإلهام بحيث أننى لا أستطيع أن أمنع نفسى عن ابداء إعجابى وعن مدّ يدىّ الاثنتين إليك . إلا أن هذه البركات التى يمنحها هذا الأديب المرموق لأكثر خلفائه استحقاقاً لم تأت دون أن يرافقها الكثير من النصح . « دعك من مواعيد تسليم محددة. لست أعرف عن مدخولك شيئاً ، فإن كان قليلاً فإن عليك أن تجوع كما فعلنا فى سنىّ شبابنا . تحقق بدقة مما أنت مقدم على إنجازه . . . راجعه . . اكتب فقط خلال ساعات إلهامك السعيدة ، لا دفعة واحدة . إن عملاً واحداً من هذا النوع ستكون له قيمة تفوق مائة من تلك القصص المقبولة كلّ القبول ، والموزعة على صحف عديدة « كما أن جريجوروفيتش يعنّف زميله الشاب لبعض العبارات الداعرة » ، فهل تتطلب الواقعية أن تصل لدرجة التحدث عن « أقدام قذرة وأظافر ملتوية ! » أو « سرة الناسخ !! » وفى النهاية أصرّ على ظهور مجموعة « قصص منوعة » تحت الاسم الفعلى للكاتب ، وانتهت الرسالة بالقول : « لست أكتب لك بصفتى ثقة من الثقاة بأى شكل من الأشكال ، بل ببساطة قلب صاف سليم الطويّة » .

بعد أن قرأ هذه الرسالة المطوّلة عشرات المرات أحس تشيخوف إحساساً غريباً بأنه نال أمنية لم يصل فى يوم من الأيام إلى درجة من الجرأة بحيث يصوغها فى كلمات . بدا لة أن جريجوروفيتش إنما يمدّ له

يداً تنتشله من بين جمهرة الصحفيين المأجورين لينتقل إلى صفوف الصفوة القليلة المتميزة . وقد أجابه على الفور بامتنان وتواضع قائلاً : « رسالتك التى حملت إلىّ أنباء متألقة من إنسان حبيب عطوف جاءتنى كأنها الصاعقة ، وأذهلتنى بحيث أوصلتنى إلى حافة الدموع . إننى أشعر حتى هذه اللحظة أنها ستترك لدىّ أثراً لن ينمحى إطلاقاً على أعمق أعماق ذاتى . فليباركك الله إذ مددت فى أواخر عمرك يد الصداقة هذه إلى شاب مثلىّ . لست أجد من الكلمات أوالأفعال ما يمكنه أن يعبر عن مدى امتنانى ، وإذا كانت لدى موهبة تستحق الاحترام فإن علىّ أن أعترف أمام قلبك الصافى بأننى لم أفلح فى احترام هذه الموهبة حتى الآن. كنت أشعر بأن لدىّ موهبة ، ولكننى انزلقت إلى عادة اعتبار هذه الموهبة عديمة القيمة . . إن لى المئات من الأصدقاء فى موسكو وعشرون منهم على الأقل كتّاب ، ولكنى لا أستطيع أن أتذكر واحداً منهم أقدم على قراءة أعمالى أو اعتبرنى فناناً . ولقد وطّنت نفسى خلال السنوات الخمس التى قضيتها وأنا أحوم حول مكاتب الصحف على تقّبل فكرة انعدام أهميتى الأدبية ، بل لقد وصلت إلى درجة التقليل من شأن عملى وظللت أكدح وأكدُ . هذا هو العمل الأول . أما العامل الثانى فهو أننى طبيب غارق فى الطب حتى أذنّى ، ولست أذكر أننى خصصت لقصة واحدة أكثر من يوم واحد . وقصة « الصياد » التى أحببتها كتبتها وأنا خارج للسياحة . ولكن رسالتك جاءتنى على حين غرّة ، وأستميحك عذراً إن قلت بأنها أتت وكأنها أمر من حاكم المدينة يأمرنى بأن أغادرها فى غضون أربعة وعشرين ساعة ، أى أننى شعرت فجأة برغبة لا تقاوم بأن أسرع لانتزاع نفسى من الموضع الذى علقت به » .

وذكر تشيخوف فى الرسالة بعد ذلك أن مجموعته طبعت بالفعل بحيث لم يعد بإمكانه إصدارها باسمه الحقيقى . كما أضاف بأنه غير راضٍ عن الكتّاب ، فهو عبارة عن خليط ومزيج غير متجانس من كتابات تافهة كتبها وهو طالب ، وجردتها أجهزة الرقابة ومحررو الصحف الهزلية من كل ما فيها من زبدة . وأضاف : « لست أشك بأن الكثيرين سيشعرون بخيبة الأمل لدى قراءتها ، ولو أننى كنت أدرك أن هناك من يقرأ ما أكتب وأنك تتابعنى فلم أكن لأسمح بنشرها على الإطلاق » . ولكنه أقسم بأنه سيحاذر هذه السخرية وسيكرس الإجازة الصيفية للمهمة النبيلة الجادة التى تنتظره. وقد طلب من جريجوروفيتش أن يرسل له صورة شخصية واختتم رسالته قائلاً « آمالى كلها معلقة على المستقبل . مازلت فى السادسة والعشرين وقد يتسنى لىّ أن أنجز شيئاً ما فى الأيام المقبلة وإن كان الزمن يركض ركضاً » .

قدّم تشيخوف رسالة جريجوروفيتش لوالديه وأصدقائه واقتطف منها مقاطع كتبها لعمه ميتروفان ، إلا أنه كان حريصاً على ألا يبالغ فى أمرها . بل إن اللهجة التى انتهجها حين روى الموضوع لبيليبين مثلاً إنما تجمع بين الغرور وعدم التوقير الطفولى إذ كتب يقول : « فجأة ، وبقدرة قادر وصلتنى رسالة من جريجوروفيتش . . . . الخط غير مقروء وينمّ عن الخوف ، والعجوز يأمرنى بأن أكتبّ شيئاً مهماً وأن أكف عن الالتزام بمواعيد النشر . إنه يحاول أن يبرهن بأن لدى موهبة « حقيقية » (ويؤكد تشيخوف على هذه الكلمة) ، وقد كتب بحرارة وصدق . إننى سعيد بالطبع وإن كنت أعتقد أنه يبالغ فى حماسته » .

كان يحلم بالعودة إلى العاصمة حيث يؤمن الكثيرون من الناس المرموقين بعبقريته . ولقد كتب لألكسندر يقول : « إننى الموضة السائدة »

ولكن كانت تعوزه النقود للذهاب إلى هناك ، كما انهكته نوبة جديدة من النفث الدموى . وعلى الرغم من أنه كان يشك فى السبب الكامن وراء ذلك إلا أنه لم يسعَ للحصول على تأكيد رسمى لذلك . بل كان يفضل أن يبقى فى حالة شك ، حتى وإن كان هذا الشك يعنى القلق ، إذ يقول : « إننى أخشى أن أخضع للفحص على يد زملائى . ماذا لو اكتشفوا زفيراً طويلاً أو تنميلاً ؟ . . إن القضية فيما أرى تتعلق بالحلق أكثر مما تتعلق بالرئتين ، ولست أعانى من الحمىّ » . وما أن شعر بتحسن فى صحته حتى استقل القطار متوجهاً إلى بطرسبرج .

استمتع هناك بمظاهر الود والحياة الاجتماعية الحميمة لمدة أسبوعين ، من ٢٥ نيسان / أبريل حتى ١٠ آيار / مايو ، وأفرط جريجوروفيتش وبيليبين فى إطرائه ومديحه . أما سيفورين الذى نشر ثلاث أقاصيص طويلة للمؤلف الشاب . : « القداس » و« الساحرة » و« أجافيا » فقد اعتبر نفسه سند تشيخوف فى عالم الأدب كان . سيفورين غنياً ومتنفذاً ، وكان تشيخوف يدرك مكانته الاستثنائية المرموقة ، وإن كان يجد فى قيامه بدور السيّد الذى يتوقع أن يأمر فيطاع أمراً يدعو إلى بعض السخرية . وقد كتب بهذا المعنى يقول : « استقبلنى استقبالاً جيداً جداً ، بل وسمح ليّ بمصافحته وقال : « ثابر أيها الشاب ! إننى راضٍ عنك ، ولكن عليك أن تتردد على الكنيسة بصورة أكثر تكراراً وتقلع عن شرب الفودكا . . تنفس ! » . وحين تنفّست ولم يتمكن من شمّ أي رائحة فى نفسى استدار منادياً : « ياولد » فأتى الحاجب وطلب تقديم الشاى على الطريقة الفلاحية . وحينئذٍ قدم لى المبجل سيفورين مبلغاً من المال وقال : « عليك أن تتعلّم الاقتصاد . . شد حزامك ! . . . » .

وفى نفس الرسالة يلمح تشيخوف بأنه أخذ بشابة فى « الأزمنة الحديثة » كان واجبها إرسال دفعاته له . كان يأمّل أن يراها ثانية . ولم يكن ينكر فى الحقيقة أنه يخصص مكانة فى قلبه للجنس اللطيف ، وكانت صديقات ماريا يوفرن له « باقة من الآنسات المليحات : لطيفات حين تراهن ، وحين تتنشق عبيرهن أو حين تضايقهن » . بل جاء وقت فكر خلاله بالزواج من إحدى أولئك الفتيات .

فى كانون الثانى / يناير التقى إحدى صديقات ماريا ، وهى شابة يهودية ثرية اسمها « دنيا أفروس » ، وأدارت رأسه فوراً بذكائها وحيويتها . وبينما كان يصطحبها إلى البيت فى إحدى الليالى عرض عليها الزواج بصورة مفاجئة ، وكتب فى ذلك مازحاً لصديقه فيكتور بيلبين فقال : « إننى كمن يستجير من الرمضاء بالنار » وعاود الهجوم مرة أخرى بعد أسبوعين إذ أن الآنسة كانت مترددة ، ولكن كونها يهودية زاد من تعقيد الأمور حيث يفرض عليها أن تبدل ديانتها وتتخلى عنها إن هى تزوجت روسياً أرثوذكسياً . ولكن الأمور ساءت بينهما بسرعة وذهل تشيخوف حين اكتشف مدى عدوانية هذه المرأة التى اعتبرها خطيبة له وقد كتب فى ذلك يقول : « اختصمنا ولكننا سنتصالح فى الغد وإن كنا سنختصم ثانية فى غضون أسبوع . إنها غاضبة للعقبة التى يمثلها الدين فى علاقتنا ، فهى تعضّ الاقلام وتمزق الصور الموجودة على مكتبى ، وهذه هى طباعها .فهى امرأة سليطة ولاأشك بأننى سأطلقها بعد عام وأحد أو عامين من الزواج » . وبعد أربع أسابيع أعلن عن إنهاء علاقته نهائياً مع هذه العذراء العنيفة وكتب يقول : « لم أتزوج بعد ، وقد فسخت العلاقة نهائياً مع خطيبتى ، أعنى أنها هى التى فسخت العلاقة ، وإن كنت لم أشترِ بعد مسدساً ولست أكتب مذكراتى . . » .

وبعد أسبوعين من ذلك كتب يقول : « لن أحدثك عنها بعد ، وربما كنت مصيباً حين قلت بأن من السابق لأوانه بالنسبة لى أن أفكر بالزواج إذ مازلت طائشاً رغم أننى أصغر منك بعام واحد فقط . مازلت أحلم بأننى طالب ، وأننى خائف من أن يداهمنى الأستاذ بامتحان مفاجئ ، وبتعبير آخر : مازلت طفلاً يحبو ! » .

ولكنه لم يكن يعانى من الوحدة على الرغم من انتهاء قصة العروس تلك . فمع كل شكواه من الجلبة التى تعصف بالبيت فقد اعترف بأنه يحب رؤية وجوه ودود ، بل جلبة وضجيجاً حوله . ولقد كتب إلى سيفورين يقول : « لا أستطيع بالتأكيد أن أعيش دون أصحاب ، وأشعر بنوع من القلق حين أكون وحيداً وكأننى أصارع موج البحر وحدى على متن قشرة خشب هشة » .

عاد تشيخوف ذلك الصيف إلى بابكينو وإلى عائلة كسليوفا وليتفيان والسيل الذى لا ينتهى من الضيوف. كانوا يقضون أوقاتهم فى لعب الورق والألاعيب المازحة التى تنتهى دائماً بضحك مجلجل . والزاوية القاتمة الوحيدة كانت استقبال الصحافة الفاتر لمجموعته « قصص منوعة » حيث وصفها ناقد « الأزمنة الحديثة » بأنها « هلوسات مجنون » ، فى حين قال زميله فى صحيفة « هيرالد نورث » (أبناء الشمال) إن كتاب شيخونتى إنما يمثل انتحاراً مأساوياً لموهبة شابة ، وشبه المؤلف بليمونة تالفة ألقيت عند الباب بعد عصرها. مثل هذه التعليقات ربما كانت قليلة الأهمية بالنسبة له قبل شهور ، أما الآن فهى تسبب له ألماً عميقاً بعد أن أدرك بأن أناساً مرموقين مثل جريجوروفيتش وسيفورين هم من المعجبين به. وهكذا أصبح فجأة يحس بالخجل والحرج لأى هجوم جارح يتعّرض له ، وزادت الطين بلّة الآلام المبرحة التى كان يعانى منها فى تلك الفترة

فى اسنانه وكذلك بسبب البواسير . وفى أوائل سبتمبر توجه إلى موسكو للعلاج .

رافق هذه العودة رحيل آخر ، فقط استأجر تشيخوف هذه المرة بيتاً كاملاً بدلاً من شقة فى حى سادوفايا - كودرنسكايا الأنيق القريب من قلب المدينة . كان البيت الذى بنى من طابقين مطلياً باللون الأحمر وبه نتوء قرب السقف فى الواجهة بحيث كان يبدو وكأنه خزانة أدراج كما وصفه تشيخوف . كانت الأجرة هى ٦٥٠ روبلاً فى السنة ، وقد اضطر تشيخوف لرهن ساعته والاقتراض من لايكن ليدفع الدفعة الأولى .

كانت هذه هى المرة الأولى التى يسكن فيها فى بيت مترف ، حيث كان الطابق الأول يضم غرفة مكتب يستقبل فيها مرضاه ، بالإضافة إلى غرفته وغرف لميخائيل والخادمة والطباخة . أما أمه وشقيقته فقد كانت غرفتاهما فى الطابق الثانى والذى يضم أيضاً غرفة الطعام والجلوس التى كانت تحوى حوضاً للأسماك وجهاز بيانو مستأجر ، وازدانت جدرانها بمجموعة زاخرة من الصور ومن الرفوف التى تحمل مجموعة الكتب التى تركها له صديقه بوبودوجلو لدى وفاته . أما أمه فعلى الرغم من كل وسائل الراحة الحديثة التى توفرت لها فقد أصبحت ، نظراً لتقدمها فى السن ، عصبية المزاج تميل إلى الشجار وتتخوف مما يخبئه لها المستقبل ، وتشتكى من أن نجاح أنطون سرقه منها قائلة لضيوفها وهى تتنهد : « لم يعد لي » . وكانت تفكر أن أفضل ما يمكن أن يفعل أنطون ويحقق به فائدة لنفسه وعائلته هو أن يتزوج ابنة تاجر غنى . أما أبوه الذى كان لا يزال يعيش خارج البيت ، وإن كان يقوم بزيارات متكررة للأسرة ، فقد أصبح موقفه أكثر تساهلاً ، وكان يجد فى تزايد شهرة أنطون مصدراً

لفخره واعتزازه . كان معجباً بأنطون ويحرص على ألا يعنفه لعدم اهتمامه بالأمور المتعلقة بالدين .

لَم يغير انتقال عائلة تشيخوف إلى منزل « خزانة الادراج » أى شئ فيما يتعلق بميلها للضيافة الصاخبة . ففى كل ليلة تلتف باقة من الزوار مختلفى المشارب حول أنطون الذى كان يعجز عن إغلاق بابه فى وجه أى قادم ، فتتحلق حول سماور الشاى مجموعات من الرسامين من أصدقاء نيقولاى وليتفيان ، وغرباء يحملون مخطوطاتهم الأدبية ، وباقة الفتيات اللاتى تدعوهن ماريا باستمرار ، ويتحدث الجميع بصخب وضجيج ضمن ذلك الجو الفنى المرح .

فى إحدى الليالى كان من بين الزوار الكاتب المعروف فلاديمير كورولينكو وحين سأل تشيخوف عن الأدب أجاب بأنه مجرد تسلية بالنسبة له ، وتساءل قائلاً : « تود أن تعرف كيف أكتب قصصى ؟ إليك ! » ثم أخذ يجول بنظره على المائدة وأمسك بأول شئ وقعت عليه عيناه .

وكان منفضة سجائر ، وقال وهو يضعها أما كورولينكو : « يمكن أن تكون هذه موضوعاً لقصة يوم غد تحت عنوان « المنفضة » . وقد كتب كورولينكو فى مذكراته يقول : « التمعت عيناه بمرح مفاجئ ، وكأنما أخذت تحوم فى رأسه صور وأحداث ومغامرات غامضة تتعلق بالمنفضة ، وتكاد تأخذ شكلها المطلوب وبهيئة هازلة بالفعل ، والآن ، وحين أتذكر هذا الحديث وغرفة الجلوس الصغيرة حيث كانت أمه العجوز جالسة إلى السماور والابتسامات الودود لشقيقته وإخوانه ، والجو العام الذى ينم عن عائلة مترابطة متحابة تلتف حول ذلك الشاب الموهوب ، ذى النظرة

المرحة إلى الحياة ، عندمـا اتذكر ذلك يخيل إلىّ أنها كانت الفـترة الأسعد بالنسبة لتلك العائلة ككل ، ولكنها آخر فترات سعادتها .

كانت مناقشات الفنانـين تمتد حتى ساعة متأخـرة من الليل فى كثير من الأحيان وتنتهى بحـفلات غناء وتبادل نكات تستمر حـتى الصباح . وكان جريجوروفيتش أحـد الضيوف غير المتوقعين فى إحدى تـلك التجمعات ، بطوله الفارع المتـألق وسالفيـه الرماديين الشفافـين . بهرت هذه الشخصـية الأدبية المرمـوقة الشبان الحـاضرين إلى درجة الشلل . إلا أنهم مالـبثوا أن ثابوا إلى رشـدهـم واسـتـعـادوا جـو المرح الصـاخـب المألوف حـتى أن جريجـوروفيتش اندمج ضـمن هذا الجو لدرجة أنه أخـذ يغازل الفتـيات . وأسر لـزوجة سيـفورين بـعد عودتـه إلى بطرسـبرج قـائـلاً : « لو أنـك تعرفـين ما يحدث لـدى آل تشيخـوف ياعزيزتى ! أعـياد سكر ، أعـيـاد حقيقية لإله الخمر باخوس ! » .

كان على تشيـخوف فى بعض الأحيان أن يسحب شقـيقه نيكولاى من إحدى الحـانات حيث يجـده فى أقصى غايات السكر بعـد أن وصـل إلى درجة الإدمان الفـعلى . كان قد أقلع عن الرسم وأخذ يعيش حـياة سكير متشـرد يلاحق مومساً بعد أخـرى . غبر أن تشيـخوف لم يصل إلى درجة اليـأس منه بل ظل يجـاهد لعلاجـه ، وإن كـان نيقـولاى لا يصـغى إلى نصحـه. وقد كتب له فى ذلك يقـول : « أريد أن أوكد لك كشـقيق يرتبط بك بأواصر لا تنفـصم إننى افهمك وأحس بك من أعمـاق قلبى . أعرف كـل مزاياك كـما أعـرف ظاهر يدى ، إنك طيب إلى درجـة الغـفـلة ، كريم ، غيـرىّ بحيث أنك مستـعد لاقتسام آخـر فلس تملكه ، صادق فى مشـاعرك. لا مكان لديك لـلكره والحسد ، سـليم الطوية تعطف على كل المخلوقات مـن بشر وحيـوان ، لا تحمل ضـغينه لأحد وتثق بالـناس ولقد

وهبك الله موهبة قلما يهبها لأحد ترفعك فوق ملايين الناس . . » . ثم يستعطفه أن يحترم هذه الموهبة قائلاً : « اهجر المرأة والخمر والغرور وتمسك بهذه الموهبة . الفنان الحقيقى لا يمكنه أن ينام بكامل ملابسه ، أو أن يرى شقاً فى الحائط يعج بالبق أو يتنفس هواءً فاسداً أو يسير على أرض مليئة بالبصاق ويأكل طعاماً من فوق الموقد مباشرة . الفنان يجاهد للسيطرة على غرائزه الجنسية وللتسامى بها ، إن ما يبحث عنه فى المرأة ليس شراكة الفراش وعرق الخيل ، بل العفوية والرقي والتعاطف ، والقدرة على ممارسة الإحساس بالأمومة ، وليس العهر . الفنان لا يعبّ الفودكا عبآ عند كل مناسبة ولا يلف ويدور ليتشمم خزائن الطعام ، فهو يدرك أنه ليس خنزيراً ليسمح لنفسه بأن يفعل ذلك ! » .

إن ما كان يريده تشيخوف باختصار فى حقيقة الأمر هو أن يحمل أخاه على أن يصبح إنساناً مهذباً ، ولكن من الواضح أنه كتب الرسالة دون أن يحدوه أمل كبير فى إصلاح شأن أخيه ، بل لمجرد تسجيل ما يؤمن به ولإعلان المبادئ الأخلاقية التى يؤمن بها هو نفسه . فلقد كان ، وقد بلغ السادسة والعشرين ، رواقياً يتمسك بمُثل السيطرة على النفس والشرف والتعقل ، يدعو إلى الاعتدال فى كل الأمور ، ويفرض على نفسه ألا يشرب أو يدخن إلا بقدر القليل ، ويتبع حمية تركز على تناول الحليب للمحافظة على وزنه ويشعر أن العمل هو أفضل حماية له من الانغماس فى ميل الفنانين إلى الافراط والمبالغة .

وعلى الرغم من ضآلة احتمال إنصات نيقولاى لنصائحه فإنه كان يطمح لإنقاذ الكسندر من حالة البلادة التى يعيشها . كان ألكسندر قد هدأ فى تصرفاته وقطع شوطاً بعيداً إلى حد كبير فى تجسيد مفهوم شقيقه « للإنسان المهذب » .

وكان أنطون قد رتب له أموره بحيث أمّن له عملاً كمراسل صحفى ومدقق ضمن هيئة صحيفة « الأزمنة الحديثة » . وكان يعيش فى بطرسبرج . كما أنه كان يقوم بدور وكيل أعمال أنطون حيث يلاحق المجلات التى تتوانى عن دفع مستحقاته ، ويحمل الرسائل إلى المحررين والزملاء ويتابع مبيعات كتب أنطون . وعلى الرغم من إعجابه بشقيقه الأصغر وغيرته من نجاحه إلا أن هذا لم يمنعه من الكتابة ، وكان أنطون يوجه له نصائح على طراز ماتلقاه هو نفسه من جريجوروفيتش حيث يقول له : « احترم نفسك بحق الله ولا تصر على الإمساك بقلمك حين يتّوقف دماغك عن العمل . . راقب كل سطر تكتبه لكى تتجنب ارتكاب غلطات خرقاء . . . » . كما أنه يسر له ببعض خفايا اللعبة إذ يقول : « لدى وصف الطبيعة . ابحث عن التفاصيل الدقيقة بحيث تجمعها معاً بطريقة تجعلك قادراً على تخيل الصورة كاملة وأنت تغلق عينيك . أما بخصوص الأمور النفسية فاعتمد على تفاصيل أكثر ، ولكن ابتعد بحق الله عن الصيغ المعادة المكررة المبتذله (الكليشيهات) . ومن الأفضل أن تبتعد عن وصف الحالات النفسية للشخصيات ، بل يجب : أن تتضح حالاتهم النفسية من خلال ما يقومون به من من تصرفات وأفعال » .

تبدو مواقف تشيخوف فى تمام نضجها فى هذه النصائح ، ومع ذلك ظَل ينفى أن مصيره هو أن يصبح كاتباً ، بل كتب لألكسندر يقول : «بالإضافة إلى الزوجة ، وهى الطب ، فإن لى عشيقة هى الأدب ، ولكننى لا أذكر هذه العشيقة على الإطلاق ، إذ أن أولئك الذين يعيشون خارج نطاق القانون سيتلاشون خارج القانون أيضاً » .

ولكن تلك « العشيقة » كانت ترضيه أكثر مما تفعل « الزوجة الشرعية » . فقد أخذت شهرته تتسع ، وكان يحدّث أصدقائه عن أناس يشيرون إليه فى المطاعم ، ويتفاخر فى رسالة إلى السيدة كيسيلوفا قائلاً

بأنه تناول محاراً فى أحد المطاعم المرموقة ، ثم يمضى فيقول : « ليس له من طعم ولولا طعم شراب الشبلية* والليمون المضافين له فإن مذاقه يبعث على الاشمئزاز ! » .

وفى نهاية أيلول / سبتمبر اصطحب شقيقته فى رحلة إلى بطرسبرج كى تشاهد العاصمة وتنعم قليلاً فى بعض شعاع مجده . وكان استقبال معجبيه يفوق توقعاته هذه المرة أيضاً ، حتى أنه اشتكى للسيدة كيسليوفا فى رسالة كتبها لها بأن الأمور زادت على الحّد ، إذ يقول : « انتهى الأمروأصبحت آخر صيحة فى بطرسبرج ، « نانا » جديدة ، فى حين أن كورولينكو ، الكاتب الجادّ ، قلّما يعرفه المحررون ، المدينة كلها تقرأ النفايات التى أكتبها . . . وقد يرضى هذا غرورى ولكنه مع ذلك يجرح حساسيتى الأدبية ، وأشعر بالحرج لجمهور يلاطف كلاب الزينة لأنه يفتقر إلى القدرة على اكتشاف الفيلة الضخمة ، وأننى أعتقد اعتقاداً جازماً بأن أحداً لن يلتفت إلىّ حين أبدأ بكتابة الأعمال الجادة !! » .

كل المجلات الدورية بدأت تكتب عن تشيخونتى . وفى مقالة فى مجلة الثروة الروسية وضعة الناقد ابلونكسى فى منزلة أرفع من كورولينكو . وتشير رسالة تلقاها من ألكسندر بعد عودته بوقت قصير إلى شائعات كثيرة تطرى عمله فيقول : « الناس يتحدثون إلّى وكأنما يجدون فيك وهجاً سماوياً ، وكأنما يتوقعون شيئاً ما منك دون أن يعرفوا بالضبط ما هو هذا الشئ ! » .

حين علم تشيخوف فى آذار / مارس بأن ألكسندر مصاب بالتيفوس توجه إلى بطرسبرج على الفور . كانت رحلته سيئة ، وسلواه الوحيدة فيها « آنا العزيزة الرائعة » ، وهى آنا كارانينا التى ظل يقرؤها طوال

* ضرب من الخمر الفرنسى .

طريق رحلته . ولدى وصـوله وجد ألكسندر فى تمام الصحـة ، ويبدو أنه ظن نفسه أصـيب بالتيفوس فى لحظة اكـتئاب وأسرع بإرسال برقـية بهـذا المعنى إلى مـوسكو . ولكن تبين فـيمـا بعد أن زوجـته هى التى التـقطت العدوى وتمكن تشيخـوف من علاجها حتى شفيت . وكـان الداء قد انتشر فى بطرسبـرج بحيث امتـلأت المستشـفيات بالمصـابين وخلت الشوارع من الناس إلا مـواكب الجنازات التى تمر بين وقت وآخـر . أو مجـــموعـات الناس الحـزانى فى طـريقـهم إلى الكنيـسـة . ذهـب تشـيـخـوف لزيارة جريجوروفيـتش الذى كـان مريضــاً أيضاً ، وقد قبله العـجوز على جبينه وعانقـه وهو يبكى ، وبلغ به التأثر للدرجـة أنه أصيب بنوبة ذبحـة صدرية على الفور . وكانت البـارقة المضيئة الوحيدة فى رحلـة تشيخوف هذه هى الحديث مع سـيفورين والذى استـمر من التاسـعة مساءً إلى الواحـدة بعد منتـصف الليل وانتهى بعـرض من صـحيـفة « الأزمنة الحـديثة » لنـشـر مجموعة من القصص ودفعة مقدمة بقـيمة ثلاثمائة روبل لقصص سيقدمها تشيخوف مستقبلاً .

اهتزّ تشيخـوف غبطة لهذه الهدية التى نزلت عليه من السـماء ، فقـد كان يخطط للتـوجه في رحلة إلى الجنوب ، ولم يعـد هنالك ما يقف فى طريقه . ولذا صفـى مالديه من مشكلات عاجلة حال عـودته إلى موسكو وكتـب عدداً قليـلاً مـن القصـص ومنـهـا « التيفـوس » و« سأم الحـياة » و« اللغز» ، وأعد قائمة بعناوين ست عشرة قصـة انتقاها لمجموعته الجديدة ، وأرسل هذه إلى سيـفورين ، ثم غادر عـائلته تتنازعه مـشاعر متـضاربة متجهاً إلى تاجنروج وإلى ذكريات شبابه الأولى .

كانت تجربة رؤيته لمـدينته الأصلية بعد غياب امتـد ثمانى سنوات تجربة اختلطت فـيها العواطـف الجياشة بالمشـاعر الكئيـبة . فبعـد أن تعوّد على ضجـيج موسكو وبطرسبـرج أخذ يحس هناك بأن الناس يجـرّون أنفسـهم

جراً ، بل إن الهواء الذى يتنفسونه أكثر ثقلاً . كانوا وكأنهم يعيشون فى قرن آخر من الزمان ، تدور اهتماماتهم حول أمور مادية ضيقة . تأثر لضيافة عمه ميتروفان الودود ولكنه كان عاجزاً عن تحمل هذر زوجته البليد وقذارة الخدم ورائحة الماء المتنتة في الحوض المخصص له ، والسرير صغير الحجم بلحافه الوردى . كما أن الطريقة الرديئة فى الطبخ أزعجت معدته بحيث أصبح لزاماً عليه أن يتردد تكراراً على المرحاض الذى يقع عند البوابة الخارجية . وكان احتمال وجود قنافذ تتسلل من الشارع يجعل هذه الرحلة خطرة ومزعجة وكتب فى هذا يقول : « أركض ليلاً ونهاراً ، وفى الليل يصبح الأمر عذاباً تاماً : الظلام والريح والأبواب التى تصدر صريراً وأنت تحاول فتحها ، والصعود عبر الفناء الغارق فى الظلمة السوداء ، والصمت المخّيم المريب ، وعدم وجود قطع الجرائد المقصوصة . . » ولكن هذا ليس كل شيء إذ يضيف : « لن ترى ياكوف اندريتش (وهو الاسم الذى تطلقه العائلة على المبولة التى توضع فى غرفة النوم) إلا فى الأحلام والخيال : فاقتناء مثل هذه القطعة الكمالية لأمر لايقدر عليه أكثر من شخصين فى تاجنروج ، وهما رئيس البلدية والفيراكى (أحد اليونانيين الأثرياء فى تاجنروج) . وفيما عداهما فإن على جميع الآخرين إما أن يقضوا حاجتهم فى فراشهم أو يتجشموا عناء الرحلة الشاقة البعيدة .

وعلاوة على الإسهال أصيب تشيخوف بالتهاب القصبات والتهاب الوريد فى الساق اليسرى ، إضافة لمشكلته المتكررة : البواسير . وكان هنالك صديق قديم للعائلة فى كل ركن وزاوية من المدينة فيما يبدو ، ولذا كان يدعى باستمرار لزيارة البيوت حيث توجه إليه الأسئلة وعليه أن يجيب عليها . وبما أنه كان وقت عيد الفصح فقد ذهب إلى الكنيسة حيث أعادت إليه رائحة البخور ونور الشموع ذكريات مريرة حول أيامه

فى جوقة الكنيسة . وباختصار ، كل شئ فى تاجنروج بعث لديه مشاعر الاكتئاب والغيظ والصدود ، وتساءل بينه وبين نفسه عما دفعه لتجشم عناء هذه الرحلة الطويلة الشاقة . ومع ذلك فقد ابى أن يعود إلى موسكو دون أن تتاح له فرصة رؤية السهوب مرة أخرى .

وهذه السهوب لم تبعث لديه الشعور بخيبة الأمل ، بل مشاعر اختلط فيها الفرح بالأسى وهو يرى المساحات الممتدة العارية والعشب المحروق والسماء المتسعة التى لا يشقّ صمتها إلا صوت طير من البواشق يمرق فيها مسرعاً . وفى هذا الجو تحلّق الروح وإن كان الجسد يظل مكانه دون أن يستطيع التحليق معها . ولقد حضر في نوفوشير كاسك عرساً قوقازياً استمر لمدة يومين مع الموسيقى التى تصمّ الآذان والرقص الجامح والكثير من تبادل أنخاب الشراب . وقد كتب فى ذلك يقول : « كنت ثملاً بحيث أننى لم أعد أميّز بين القوارير والفتيات ، والفتيات والقوارير . وكان العروسان يتبادلان القبلات وكأن ليس أمامهما غد ويتملظان بهذه القبلات بنشوة عظيمة بحيث يقول تشيخوف : « أحسست وأنا أرقبهما بطعم العنب شديد الحلاوة فى فمي وبتشنج فى بطة ساقى اليسرى ، إذ زادت قبلاتهما من حدة التهاب الوريد فى ساقى هذه » . وقد تحلقت حوله الفتيات الريفيات الجميلات وكأنهن ذباب يحوم حول صحن العسل ، وكانت واحدة من اكثرهن فتنة وتكبّرا تلكزه بمروحتها فى ذراعه مرة بعد أخرى قائلة « ياولد ياشقى ! » .

كما زار آل كرافتسوف فى مزرعتهم التى كان قد زارها فى شبابه حين كان يعلّم ابنهم بيوتر . وعلى الرغم من مساوئ المكان من حيث الراحة وحساء الثوم الذى كان يقدم له ورحلات الصيد التى وصلت إلى درجة مذابح فعلية فإن اسلوبهم البسيط فى الضيافة أدخل السعادة إلى قلبه .

كما أن قـرب المكان من السهوب كان من شأنه أن يـعوّض عن أى سـمة من سمات عدم الراحة .

ومن هناك توجـه إلى دير الرهبان المقـدسين على شاطئ نهـر الدونيت حيث تجمّع خمـسة عشر ألفاً من الحجاج لزيارة مـزار القديس نيقولاس . ولقد عثـر لتشيخوف علـى مكان يبيت فيه فى الدير نفسـه حيث توجـب عليه أن ينام على مـرتبة رقيقة لا يتـجاوز سمكها ثخـانة فطيرة على أرض الصومـعة العارية . وقد شـارك فى موكب الصليب فى النهر وقضى بـقية وقتـه وهو يرقب المؤمنين ، ومـعظمهم من النسـاء العجـائز ، وهم يأتون ويذهبون ويستـمع إلى صلواتهم وتضرعاتهم ، وقد كـتب لأخته يقـول : «لم أكن أظن أن فى العـالم كله مثل هذا العـدد من العجـائز . ولو كنت أعرف ذلك لكسرت جمجمتى منذ وقت طويل ! » .

وبعد أن توقف فترة قصيـرة من الوقت فى تاجنــروج ليلتقــط أنفاسه اسـتـقل القطـار عـائداً إلى مـوسكو وكـتب إلى لايكـن يقـول : « لدىّ انطباعات ومواد لا تحصى ولست نادماً لأنــنى صرفت شهراً ونصف الشهر على هذه الرحلة . أسـوأ ما فى الأمر أننى لا أملك الآن فلسـاً واحداً » . وكانت تذكرة القطار التى سافر بها من الدرجة الثالثة .

قضى يوماً واحداً فقط فى مـوسكو مالبث أن توجه بعده إلى بابكينو . ولكنه بمجرد وصـوله إلى هناك افتقـد جو المرح والحيـوية الملهم الذى كان سائـداً فى المكان فى السنوات السابقـة . كانت التـدفئـة فى البـيت سيـئة والطقس مريعـاً بحيث أخذت حـالته النفسيـة تتردى يوماً بعـد يوم . وقد كتب إلى لايكن يقول : « إن كنت لـم أكتب شـيئاً منذ بعض الوقت فهـذا لا يعنى أننى أنـا الذى أغلق النبع ، بل إن النبع توقـف عن التـدفق مــن تلقاء ذاته . لقد كنت واقعاً تحت تأثيـر حزن جبان طوال ثلاثة أسابيع ولم تكن لدىّ أى رغـبـة فى الخـروج من البـيـت ولم أكن قـادراً عـلى أن

أمسك قلماً في يدي . باختصار ، كنت عصبي المزاج ، وهو أمر لا تقيم له أنت أي اعتبار . لقد كنت من الذهول بحيث أنني لم أستطع إنجاز « غرزة عمل واحدة » . وبعد يومين من ذلك كتب كلاماً مماثلاً للسيدة كسليوفا حيث يقول : « ليست لديّ أفكار جديدة وأفكاري القديمة مكوّمة فوق بعضها البعض في رأسي . وكأنها ديدان في صندوق للخضار بعد تعرضه للشمس طوال خمسة أيام ! . . » .

استمرت حالة الضيق التي ظل يعاني منها تشيخوف حتى كادت تكتم أنفاسه على الرغم من النجاح الذي لاقته مجموعته الجديدة « عند الغسق » . والتي صدرت حينذاك . وقد كتب في إحدى رسائله يقول : « حين أقرأ التعليقات على مجموعتي فإنني أتساءل فيما إن كانوا يوجهون إليّ المديح أم يندبون موت روحي « ياللموهبة . . . الموهبة . . . أنزل السكينة على روحه يا إلهي! » . . هذا بإيجاز هو ماتقوله التعليقات في الحقيقة ، وإن كانت مبيعات الكتاب جيدة إلى حد كبير . . » .

وفي رسالة إلى ذات الشخص الذي كان قد كتب له منذ عام واحد نادباً تفاهة إشباع الرغبات الدنيوية يقول : « أعيش حياة كئيبة ، ولا أكاد أرى شخصاً واحداً سعيداً . . . الكل يكابد حياة صعبة ، وحين أفكر بالأمور جدياً فإنني أشعر بأن أولئك الذين ينفرون من الموت إنما هم غير منطقيين . أما بمفهومي فإن الحياة لا تحوي إلا الأمور المبتذلة والمرعبة إضافة إلى المشاحنات ، واحدة بعد واحدة ومختلطة ببعضها البعض . . . . » .

وما لبث أن فكر بالتغلب على هذا الحزن بالانغماس في الكتابة. ثم لا يتخذ من المسرح هدفه هذه المرة؟فالمسرح طالما جذبه،كما أن أحد أصحاب المسارح،واسمة كورش. كان قد طلب من تشيخوف مرتين أن يكتب له شيئاً ما.

لم يعر تشيخوف الكثير من الاهتمام لهذا الطلب فى البداية ، بل وكتب إلى السيدة كسليوفا يقول : « لن أكتب مسرحية بالطبع فلست فى مزاج المسارح أو القضايا الانسانية . . . ليذهبوا إلى الجحيم . . . » .

ومع ذلك ، تقدمت الفكرة في ذهنه بسرعة ، وبعد ثلاثة أسابيع كتب للروائي يزهوف يقول : « مسرحيتى جاهزة ! » ثم كتب لأخيه الكسندر متفاخراً بأنه انجز العمل بيسر إذ يقول : « انجزتها دون أن أحس بما أفعل ، وبعد أن تحادثت مع كورش مرة واحدة ذهبت إلى سريرى واختمر الموضوع في رأسى وكتبته ، صرفت اسبوعين فى الكتابة ، لا بل عشرة أيام ، إذ كانت هناك أيام لم أعمل خلالها أثناء هذين الاسبوعين ، أو كنت أكتب أشياء أخرى ، لست أستطيع أن أحكم على مدى جودتها ويتراءى لى بأنها قد تكون قصيرة ، الكل أعجب بها وكورش يقول بأننى لم اخرق أياً من قواعد الكتابة الدرامية ، وهذا ما يظهر مدى تميز وحدّة ملاحظة حكّامى ، إنها مسرحيتى الأولى ، وهذا يعنى أنه لابد من أن تكون فيها أخطاء ، فالحبكة معقّدة وذكية تقريباً ، وإننى أنهى كل فصل بنفس الطريقة التى أنهى بها قصصى ، إذا أبقى الحدث هادئاً حتى النهاية وحينذاك أهشّم وجه الجمهور بصورة كليّة ، لقد وضعت كلّ مالدىّ من طاقة فى أجزاء قليلة قوية فعلاً ومؤثرة ، أما الجسور التى تربط فيما بين هذه الأجزاء فهى غير مثيرة وضعيفة وعادية ، ولكننى سعيد مهما كانت المسرحية سيئة ، فلقد خلقت نمطاً له بعض القيمة الأدبية وفصلّت دوراً لايستطيع القيام به إلا ممثل من وزن دافيدوف ، دور يظهر موهبة الممثل ويبين ما يمكنه القيام به . » .

المسرحية المقصودة هى « ايفانوف » ، ويرمز البطل الذى تحمل المسرحية اسمه إلى عجز الطبقة المفكرة حين تواجه سلطة قمعية وانهياراً جذرياً فى القيم الاجتماعية ، وايفانوف الذى يعجز عن التوفيق بين أحلامه الوفيرة وبين مستلزمات الواقع يتآكل بسبب شعوره بالذنب واليأس ، إنه بطل

سلبى ضائع يغـرق فى شبكة التـأملات ذات الطبيـعة الإنسانيـة ، ومالك اقطاعـى لايكترث بإقطـاعـته التـى تغمـرها الأعشـاب البريــــة الطفيلية ، ولا بزوجته ، (وهى يهودية اسمهـا سارة تحولت إلى الديانة الارثوذوكسية الروسيـة واتخذت لنفـسها اسم « آنا بتـروفنا) والتى وقعت فـريسة لمرض خطير ، وتقع فى حـب ساشا ، ابنة جـارهم ، وتعترف له بذلك معـتقدة بأنها بمخالفتها للأعراف إنما تثبت قدرتها على تخليصه من كآبته ، يؤثر فيه عدم نفاقـها فيســمح لها بأن تهيم به حبّـاً وهو يقول متنهداً : « ضـميرى يعذبنى ليل ونهـار وأشعر شعـوراً عميقـاً بالذنب ، ولكن من ماذا ؟ !! » وتموت آنا بتـروفنا فى النهاية وسـرعان ما يعـلن الأرمل أشيب الشـعر عن عزمه الزواج من ساشا الشـابة النضرة ، ولكنه فى يوم الزفاف وحين ينتقده الدكتـور الشاب لفـوف علناً على تصرفـه يترك ســاشا ويقتل نفـسه رمـياً بالرصاص .

تضم المسرحية ضمن إطارها الميلودرامى ثلاث شـخصيات حسنة النسج دون شك ، وهى « ايفانوف » الشخصـية التى لا تستطيع التواؤم والتكيف مع مجتمعها ، والذى سئم نفسه كما سئم العالم ، والصبية « ساشا » التى تطير فرحاً لفكرة استخدام حبـها طريقاً لإنقاذ إيفانوف السلبى وانتشاله قبل أن يغرق فى الوحل ، والدكتور « لفـوف » وهو شاب شريف ولكنه ضيق الأفق يزيد من تعقيد المشكلات التى يواجهها ايفانوف فى الوقت الذى يظن فيه أنه يساعده على حلّها .

وهكذا ، وعلى العكس من مســرحية « بلاتونوف » الساخـرة ، كانت مســرحية « ايفانوف » تطمح لأن تكون عـملاً واقعـياً تقليدياً يعتـمد على التفاعل بين الشخصيات ، وفى حين تعتمد مسرحيات تشيخوف اللاحقة - مسرح الجو -- على أنصاف النغـمات والايحاءات والصمت ، فإن الألوان فى هذه المسرحية واضحة كل الوضـوح والإضاءة شديدة ، أما الحبكة فهى

بصعودها وهبوطها الواضحين إنما تطمس تفاصيل الحياة اليومية المملّة . كما أن العامل المسيطر فى المسرحية ليس الزمن وما يحدثه من تآكل ، بل شخصية البطل ، وهو « هاملت » روسى من نمط ما تحاصره أحلامه ، غير قادر على الإحساس بأى عاطفة حقيقية ولديه استعداد بصورة تصل إلى درجة المرض للانغماس ثانية فى حالة العجز والقصور الذاتى التى تسيطر عليه بعد كل هبة حماس نادرة .

لاشك بأن الصورة التى يرسمها تشيخوف لبطله السلبى الذى يغوى النساء إنما أوحت له بها سمات يتّصف بها اخواه الكسندر ونيقولاى ، وإن كانت تعكس سمات يتصف بها هو نفسه ، فلقد كتب مسرحية ايفانوف فى الوقت الذى كان يعانى فيه من حالة اكتئاب ، وعبارات معينة يتلفظ بها بطله إنما تعبّر عن أمور تمثل مصدر ذعر وقلق بالنسبة له إلا أن تشيخوف يملك من الكرامة ، ومن الحب لعمله بحيث أنه لم يكن يسمح للناس بالسيطرة عليه ، من الواضح أن هناك مشاعر حنونة خاصة تصل إلى درجة القرابة تربطه بإيفانوف بحيث أنه يريد له أن يكون محبوباً ولقد كتب لسفورين يقول : « إذا برز بطلى ايفانوف على أنه وغد أو عديم القيمة ، وظهر الطبيب على أنه شخصية عظيمة ، وإذا لم يدرك المشاهد لماذا أحبت كل من سارة وساشا ايفانوف فإن مسرحيتى ستكون فاشلة دون شك ولن يكون هناك مجال لتمثيلها على المسرح » ، ثم يمضى ليشرح بتفصيل دقيق لماذا يستحق ايفانوف - الذى لا تقوم تعاسته على أسباب فعلية قائمة - كل مشاعر التعاطف والغفران ، وكيف أن لفوف لا يعدو أن يكون انساناً معتوها يوزع مواعظ الطهارة والعفة ، ولماذا وقعت ساشا فى حب ايفانوف تحت تأثر الوهم بأنها إنما تقوم بمهمة مقدسة ، وهى انقاذ ايفانوف من السقوط المستمر .

بعد أن قرأ كوش المسرحية وافق عليها دون أيه تحفظات ، وبدأ تشيخوف يحسب أرباحه المتوقعة على الفور ، فإذا كانت ما سيحصل عليه

هو ٨ ٪ من أسعار تذاكر الشباك ، كما وعد ، فالمتوقع له أن يحصل على مبلغ ستة آلاف روبل تقريباً وتحت تأثير الحماس الذى ولده هذا الأمل أخذ يصرف الساعات الطوال مع دافيدوف ، الممثل الذى اختاره للدور الرئيسى ، وذلك كى يناقش معه اسلوب أدائه للدور وإبرازه على المسرح ، ورغبة منه فى ألا يترك أمر نجاح المسرحية تجارياً للصدفة ، فقد طلب من الكسندر نشر الاعلان التالى فى صفحة المسرح بصحيفة الأزمنة الحديثة : « كتب أنطون بافلوفيتش تشيخوف كوميديا من أربعة فصول تحمل اسم « ايفانوف» لاقت انطباعاً قوياً لدى قراءتها فى موسكو فى أحد الصالونات الأدبية (أو ما شابه ذلك) الموضوع يتسم بالجدة والشخصيان ثلاثية الابعاد ... إلخ .... » .

ولكن ثقته ما لبثت أن تلاشت حين بدأت التدريبات ، وأدرك فجأة بأن رأى المؤلف ليس له الكثير من الوزن فى هذا « المشروع الجماعى » لدى إخراج مسرحية ما على خشبة المسرح ، فالممثلون يقضون على السطور ، بينما يقضى المخرج على ما تبقى من العمل ، لم ينفذ من التدريبات العشر التى اتفق عليها إلا أربعة فقط ، وكان يؤلم تشيخوف ، الذى كان ينكفئ على نفسه في القاعة ، أن يرى الممثلين وهم يتلعثمون فى ترديد السطور بمساعدة الملقّن ، كانوا « يمثلون » أدوارهم بدلاً من أن « يعيشوها » ، والأدهى من ذلك أنهم لم يكونوا يدركون على الاطلاق ما يرمى إليه المؤلف ، بل كانوا عبارة عن شخصيات كتيمة يصعب عليه أن يؤثر عليها أيما تأثير ، شديدة الشقة بنفسها بحيث أنه لم يكن يلقى إلا التجاهل والصدود إذا أبدى أية ملاحظة حول نفسية إحدى الشخصيات ، وقد كتب فى ذلك لالكسندر يقول : « حاولت أن أكون مجدداً ، لذا لم أحاول أن أقدم اى شخص وغد أو ملاك (وإن كنت لم أستطع أن اتجنب تقديم بعض الأغبياء) ، كما أننى لم أحاول اتهام أو تجريم أى من شخصيات المسرحية ، ولست أدرى إن كنت قد نجحت أم لا ، كورش والممثلون

واثقون من أن المسرحية ستنجح ، ولكننى غير واثق من ذلك كل الثقة ، فالممثلون لايفهمون المسرحية ويتفوهون بأشياء تثير الضحك ، إنهم يمثلون الأدوار بأسلوب غير ملائم إلى درجة سيئة ، وأجدنى فى نزاع دائم معهم ، لو أننى كنت أدرك هذا لما أقدمت على تلك المغامرة قط » .

كانت ليلة الافتتاح فى موسكو فى ١٩ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٨٨٧ ، وقد حمل إعلان المسرحية اسم تشيخوف ، وليس تشيخونتى وقد ذهل تشيخوف لأنه كان يشعر بالهدوء بعد أسابيع من التوتر العصبى ، وحشرت العائلة نفسها فى إحدى المقصورات وهى تحبس أنفاسها قلقة ، أما تشيخوف فقد وقف فى حجرة كأنها الزنزانة بمحاذاة خشبة المسرح ، وكان الممثلون ينقلون خطواتهم ذاهبين عائدين أمام عينيه وهم يرسمون شارة الصليب على صدورهم فى محاولة للتغلب على سوء الطالع ومشاعر الخوف من الوقوف على خشبة المسرح ، وفى النهاية فتحت الستارة أمام مسرح يعج عن آخره بجمهور النظّارة .

مضى الفصل الأول على ما يرام ، وإن كان أحد الممثلين ، وهو كسليفسكى يميل إلى ملء ما يتساقط من ذاكرته من النص بكلمات يرتجلها من عنده ، واستمر الارتجال فى الفصل الثانى من جانب الممثلين الثانويين أيضاً إلا أن الجمهور لم يلحظ ذلك فيما يبدو إذ صفّق فى نهاية الفصل الثالث طالباً ظهور المؤلف على المسرح ، كان الفوز على مرأى البصر ، أو هذا ما ظنه تشيخوف ، ثم أتى الفصل الرابع وكان الممثلون قد سكروا بعض الشيء فحوّلوا المشاهد إلى تمثيل تهريجى ، إذ أن كسليفسكى الذى سكر حتى الثمالة أخذ يتلعثم فى كلامه ويندفع بصورة مفاجئة ويحاول التعبير بحركات وجهه بصورة تبعث على السخرية ، أما انتحار ايفانوف فقد صدم جانباً من الجمهور وأضحك الجانب الآخر ، وأخذ ردّ فعل الجمهور يتضح أكثر فأكثر وهم يصفرون ويصفقون ويطلقون صيحات

الاستهجان والمديح ، وبدأت معارك بالأيدى تدخلت فيها الشرطة ، وبلغ من انزعاج شقيقة تشيخوف أنها شارفت على الإغماء ، وهرب أحد أصدقائه من المسرح وقلبه يخفق وأخذ آخر رأسه بين كفيه وهو ينوح قائلاً : « ما العمل الآن ؟ » .

أما تشيخوف فقد حافظ على برودة أعصابه ، وفى رسالة إلى أخيه ألكسندر يعترف بالإرهاق وخيبة الامل ، إلا أنه يقول متفاخراً : « محبو المسرح يقولون إنهم لم يشهدوا اهتياجاً أو تصفيقاً يختلط بالصفير / أو المجادلات كما رأوا وسمعوا فى مسرحيتى » ، وبعد أيام قليلة من ذلك ومن باب السخرية لفشله وقع رسالة إلى الكسندر باسم « شيلر شكسبيروفيتش غوته ! » .

كتب ناقد « موسكو نيوز » يقول : الأخطاء العديدة فى المسرحية ناشئة عن قلة تجربة الكاتب وثقافته ، لقد انتظرت حتى نهاية المسرحية علّنى أجد تحليلاً لشخصية ايفانوف ، ولكن عبثاً . ووصفت « ميسكوفيتش نيوزشيت » مسرحية ايفانوف بأنها ثرثرة غبية تسيء الظن بطبيعة الدوافع البشرية ، كما تعتبرها بأنها فاحشة وبذيئة ، أما العرضان التاليان فقد تمّا فى نهاية المطاف ضمن جو أكثر هدوءاً .

اتخذ تشيخوف منحنى فلسفياً إزاء إخفاق مسرحيته ، لم يحقد على كورش الذى سحب المسرحية قبل الأوان ، كما أنه لم يحقد على الممثلّين الذين خانوا فكرته الأساسية ، أو على الجمهور الذى أخفق فى فهم طبيعة شخصيات مسرحيته ، وما أن تلاشت العاصفة حتى انتابه شعور غريب بأن هما ثقيلاً أزيح عن كاهله وكأنما الصدمة قد ساعدته على استعادة توازنه . لذا التقط قلمه ثانية بنفس رضيّة ليكتب قصصاً ساخرة تحت اسم تشيخونتى.

٧ - سئمت حياتى

بغض النظر عن الأيمان المغلظة التى أقسمها تشيخوف بينه وبين نفسه بأن مسرحية « ايفانوف » قد حققت له الشفاء من هوسه بالمسرح ، فإنه لم يكن قادراً قط على نسيان هذه المسرحية نظراً لما سببت له من معاناة وما علق عليها من آمال . فإذا أمكن تأمين إخراج ناجح لها فى بطرسبرج فقد يمكنه تحقيق بعض التعويض عما عاناه من آلام ، وهو أمر أخذ يلحّ عليه أكثر فأكثر نظراً لتدنى مبيعات مجموعتيه القصصيتين : « حكايات ملوّنة » و «عند الغسق» ، وكانت الخطوة الأولى لتحقيق ذلك تتركز على العثور على مسرح يرغب فى تقديمها على خشبته ، وعلى هذا الأساس انطلق إلى العاصمة فى ٢٩ تشرين الثانى / نوفمبر ١٨٨٧ .

ومن باب التوفير فى النفقات أقام فى بيت الكسندر ، وهو أمرٌ سرعان ما ندم عليه . فقد كان الكسندر يعيش فى كوخ ، وكان سريع الانفعال كسولاً عنيداً . كما أن المرأة التى تعايشه كانت مريضة لا تكفُّ عن الشكوى ، وقد كتب تشيخوف لميخائيل يقول : « القذارة والنتانة والدموع والكذب . . . بعد أسبوع واحد تفقد صوابك وتشعر وكأنك مجرد ممسحة قذرة ! . . » .

يا للفرق الشاسع بين هذا الجو القذر الوضيع فى بيت الكسندر وبين الانوار المتلألئة والسلوك الرقيق والأحاديث الذكية فى الصالونات التى كان تشيخوف يرتادها كل ليلة تقريباً . وكان قد أرسل قبل مغادرته موسكو نسخة من « ايفانوف » لأصدقائه الذين كانوا يتداولونها لدى وصوله . وكأنما بمعجزة ، كان كل من قرأها متحمساً لها . « وسيفورين حانق لأننى أعطيت مسرحيتى لكورش ، إذ يعتقد بأنه ليس بإمكان كورش (أو جمهور

موسكو) أن يفهم « ايـفانوف » ، الناس هنا يسخرون من التـعليقات التى كتبت عنها فى موسكو ، وهـم ينتظرون بصبر نافذ أن أقدمها للعرض هنا ، وهم واثقون كل الثقة من نجاحها » .

ويضيف تشـيخوف ، وقد انتـشى بالمديح ، أن بطرسبرج مـدينة رائعة وأنه فى السماء السابعة . وقد قرأ المسرحية أمام حلقة أدبية فقوبل بالتصفيق وهو يحدق فى حـذائه ليدارى حرجـه ، كما أمتـعه أن يقرأ مـقالاً مطولا يكيل المديح له فى صحـيفة « أنبـاء أوروبا » . أقيمت موائد العـشاء على شرفه ، والتقى الرسام المعـروف « ريبين » وتناول طعام العشاء مع الكاتب ليونتييف - شيجلوف الذى قدمه بدوره لـلشاعر ألكسى بليشيشيف ، وكان هذا قد اعـتقل قبل ثمانـية وثلاثين عاماً كـعضو فى حلقـة بيتراشيـفسكى الثورية ووقف أمام فرقة الاعـدام جنباً إلى جنب مع دستويفسكى ، ولكن الامبراطور ما لبث أن خفف حكم الاعدام إلى الاشغـال الشاقة فى سيبيريا أما كورولينكو فقـد التقى بتشيخوف ثانية فى بطرسبـرج وأحس فيه مزيجاً غريباً من فطنة المثقف وبراءة الفلاح . وكتب كورولينكو فى ذلك يقـول : « حتى عـينا تشيخـوف الزرقاوان * العميـقتان تلتمعـان بمزيج من التفكير والبراءة الطفـولية فى آن واحد . بسـاطة الحركة والسلـوك والكلام تسيطر على شخصيـته ، تماماً كما تسيطر على كتـاباته . . ولقد ولّد لدى انطباعاً قوياً بإنه إنسان يتمتع بشغف عميق الجذور بالحياة . . » .

وإذا كان لدى تشـيخوف شغف عـميق الجذور بالحيـاة ، فإنما يأتى هذا على شكل اندفاعـات ، وبين الاصدقاء فقط حيث يمكنه أن يـنسى الهموم التى تسببـها له عائلته ، إضافـة إلى متاعبه المالية ووحـدته ، وقد عاد إلى موسكو وهو ينوى إعادة كتابة « ايفانوف » قـبل تقديمها لمسرح بطرسبرج ، إلا أن مشروعاً آخر مـالبث أن سيطر على تفكيره ، فى الأول (من كانون

* كانت عيناه فى الحقيقة بنيتين تشوبهما بقع زرقاء .

الثانى / يناير ١٨٨٨ بدأ كتابة قصة رئيسـية هى « السهوب » وكانت مبنية على فكرة ظلت تـداعبـه منذ شـهـور ، بل وربما سنوات ، إذ أن رحلتـه الأخيـرة عبـر سهـوب الدون أثارت لديه سلسلة من الذكـريات التى ظلت تومض فى داخله منذ طفولته وتلح على أن يخرجـها فى قالب قصصى . وفى بطرسبرج حثه بيلشيشيف على أن يخص « أبناء الشمال » بقطعة جادة ذات قيـمة ، كما أن جـريجوروفيـتش كتب له مجـدداً من « نيس »يرجوه ثانية أن يكفّ عن القطع الخفـيفة التى يكتبها ويكرّس وقـته لكتابة رواية ، بل إنه اقترح مـوضوعاً شعر بأنه يسـتحق الكتابة ويثيـر الأحاسيس ، وهو عذابات شـاب فى السـابعة عـشر ة تنتهى بانتحاره ، وقد أجـابه تشيخوف بأن مـثل هذا العمل سـيكون رائعاً حـقاً إلا أنه بدأ بالفـعل بالكتابـة حول موضـوع مخـتلف إلى حد كـبير : استعـادة لذكريات رحلة طويلة عـبر السهوب ، أو نوع من « الموسوعة حول السهوب » .

أخذ يشتـغل على هذه القصة دون هوادة يوماً بعـد يوم محاولاً أن يبلغ فيهـا حدّ الكمال . بل إنه كان يضن عليـها بالساعات القليلة التى سـرقها لكتابة قصة « النائم » التـى تفيض بسـاطة وحساسـية والتـى كتبـها لمجلـة « سانت بطرسـبرج جازيت » . ولكنه مـا لبث أن عاد إلى عـمله الرئيسى بحماس متجدد ، كان قد اعتـاد بالطبع أن يكتب على عجل قصصاً تقتصر على صفـحات معدودة . أما الآن فـهو يريد أن يجسّد ، دون أن تـفتر له همّة ، ودون أن يـحمل همّة القـارئ على الفتـور ، كيف يكتـشف طفلُ السهوَب شيئاً فشيئاً بكل تنوعها وغناها . وزاد من الامور تعقيداً أن القصة لم تكن ترتكز على حـبكة معينة ، وكـان عليه أن يسـتعيض عن التـحول الدرامى للأحداث بوصف الناس والأمكنـة بصورة مقبـولة عاطفياً ومـقنعة نفسيـاً . وقد كتب لكورولينكو فى ذلك يقول : « الموضوع جـيد وتمتعنى كتـابته ، ولكننى لم أعتـد الكتابات الطويلة لسـوء الحظ ، ولأننى أخشى

الإفراط فإنني اتخذت الاتجاه المعاكس تماماً . كل صفحة أنهيها تبدو مكتظة وكأنها قصةَ صغيرة . وتتجمع المشاهد فوق بعضها ، مزاحمة بعضها البعض وكل منها يقف في طريق الآخر محطمة الانطباع الكلي . وبدلاً من مشهد تمتزج فيه التفاصيل جميعاً فيما بينها مثل النجوم في السماء فإنني أجدني وقد أنتجت خطوطاً عريضة ، وقائمة من الانطباعات الجافة . قد يفهمني كاتب مثلك ، أما القارئ فسيصاب بالملل دون شك ويلقي الكتاب من يده . كما كتب لليونتييف - تشيجلوف يقول : « ما يفقدني صوابي هو عدم وجود قصة غرامية فيها ، علماً بأن قصة دون امرأة شأن محرك دون بخار ! . . » . غير أنه ما لبث أن أصبح أكثر ثقة كلما تقدمت به الكتابة ، وقد اعترف بأنه كتب « السهوب » وكأنه « ذوّاقة يتذوق الدجاج البري » ببطء وبإحساس ، وكتب إلى بليشيشيف يقول : « كنت وأنا أكتب أشعر بالصيف والسهوب يطوقانني من كل جانب . . » . ولكاتب آخر هو ألكسندر لازريف كروزينسكي كتب يقول : « استهلكت الكثير من العصير الطازج والطاقة والفوسفور في « سهوبي» . كتبتها في وضع متوتر ، مشحون ، واستنزفت نفسي إلى درجة مرعبة واعتصرتها حتى الثمالة . ولست أعرف هل نجحت فيها أم لا ، كل ما يمكنني قوله أنها رائعتي ، ولست أستطيع أن أكتب خيراً منها . . . » .

استغرقته كتابتها شهراً واحداً أرسلها بعده إلى بليشيشيف على الفور طالباً منه أن يبدي رأيه فيها بصدق ودون رحمة ، إذ يقول له : « أتوسل إليك ألا تلجأ إلى الشكليات وقواعد السلوك المهذب . قل إنها سيئة أو عادية إن كنت تعتقدها كذلك ، فأنا بحاجة لمعرفة الحقيقة سافرة ودون مواربة . . . » . وقد وقع الرسالة باسم : « تلميذك المبتدئ المخلص أنطون تشيخوف » .

بعد خمسة أيام تلقى تشيخوف جواباً متحمساً إلى أقصى حد إذ يقول : « قرأت قصتك بشغف ، وما أن بدأت بقراءتها حتى أصبحت غير قادر على تركها ، كورولينكو يوافقنى الرأى ، إنها ساحرة ، منجم من الشعر بحيث أن كل ما يمكننى قوله هو أننى أجد نفسى فى حالة نشوة ، إنها قطعة فاتنة وأتوقع لك مستقبلاً عظيماً لامعاً . . . » .

كان لمديح بليشيشيف أهمية خاصة بالنسبة لتشيخوف إذ أنه اعتبر «السهوب» عملاً أقرب إلى نفسه من أى عمل سبق له أن كتبه ، فقد غذّاها بذكريات الطفولة وأسعده أن يعرف بأن لمحات تراثه الشعبى الشخصى أمكنها أن تثير مشاعر أولئك الغرباء عنها ، كما أسعده أن الأجر الذى عرضته صحيفة « أنباء الشمال » لقاء عمل لم تستغرقه كتابته أكثر من شهر واحد هو الف روبل ، بحيث أنه تشدّق بهذا الأمر أمام أصدقائه جميعاً .

ظهرت « السهوب » فى عدد آذار / مارس من « أنباء الشمال » واستقبلها النقاد والقراء بحرارة على الفور . وقد شبه ناقد « الازمنة الحديثة» بورينين كاتبها بغوغول وتولستوى . كما انهمر المديح على تشيخوف من الكثيرين من الكتاب المعاصرين المهمين . فقد تحدث ليسكوف عن النبوغ ، وتجاوزه ساليتكوف - شيدرين واستروفيسكى . كما نظم الكاتب الشاب اللامع جارشين قراءة عامة للقصة معلناً : « لقد ظهر بيننا فى فصل روسيا لتوه كاتب من الطراز الاول . أحسست وكأن خراجاً انفجر وأننى أشعر فجأة بأننى أحسن حالاً » .

هذا الافتتان الجماعى بالعمل كان له ما يبرره ، حيث أن تشيخوف حقق إنجازاً فنياً لايستهان به : فلقد أنتج قصة أخاذة من رحلة بسيطة لطفل فى التاسعة من عمره ، هو « ييجور » يصطحبه عمه التاجر فى رحلة

بعربة عبر السهوب إلى البلدة التى سيلتحق فيها بالمدرسة . تجوالهم وصعودهم وهبوطهم خلال الطريق يشكل حبلاً من القصص التى توحّد بينها شخصية الصبى الصغير ييجور ، الحزين لفراق أمه ، والمتوتر وهو يفكر بالحياة التى تنتظره ، والمأخوذ بروعة طبيعة الريف التى يراها حوله . كل دورة من دورات دواليب العربة تسربله أكثر فأكثر بغلالة سحر الطبيعة وهو يرقبها وهى تستيقظ تحت حبات الندى عند الفجر ، وهى تتخدر بفعل اتّقاد الشمس عند الظهيرة ، وهى تتمرد تحت سياط العواصف الهوجاء ثم تصفو فى الليالى المنعشة الصامتة . لاتكسر رتابة الرحلة إلا لقاءات عابرة مع غرباء ، أو حوادث قليلة الأهمية ، أو فتافيت الحديث وتتوارد على المشهد بين حين وآخر شخصيات من أولئك الذين يرتادون السهوب باستمرار ، من الفلاحين وسائقى العربات والتجار ، ليشغلوا ييجور الصغير وينتزعوه من عالم أحلام يقظته . وكل الشخصيات المتتالية : موسى صاحب النزل وشقيقه سليمان ، الأب كريستوفر ، ثرى العم كوزنتسوف ، ثرى السهوب فارلاموف ، دايموف الفلاح البارع حاد الطبع - كلها شخصيات غنية ومتنوعة ، ومن واقع الحياة الفعلى . دايموف يستحق عملاً لوحده كما قال بليشيشيف . وكانت إجابة تشيخوف : « أناس مثل دايموف تخلقهم الحياة لا لينغمسوا فى حياة الهرطقة والتشرد والاستقرار بل ليمارسوا الثورة بكل نقائها وبساطتها . غير أن روسيا لن تشهد ثورة قط ، ولن يجد دايموف أمامه الا أن يسكر حتى يموت أو ينتهى به الأمر بالسجن ، فهو إنسان يتجاوز حدود الفرد العادى » .

غير أن ييجور ، الفتى الخجول ، الحسّاس الحزين يظل هو المحور الذى تحوم حوله جميع شخصيات القصة من بدايتها حتى نهايتها . كل ما يراه ويسمعه يتغلغل فى ذاكرته ويغنى روحه . لقد غادر البيت الذى وُلِد فيه

وأخذ يستكشف العـالم الخارجي ، ولأيام معدودة أصبـحت السهوب هي مدرسة الحياة التي يتعلم فيها . وبنهاية الرحلة : « ارتمى على المقعد مرهقاً إلى أقصى درجات الإرهاق ، واستـقبل الحياة الجديدة الغامـضة التي تتفتح أمامه بدموع مريرة . . . كيف يمكن لهذا الحياة الجديدة أن تكون ؟ » .

كتب تشيـخوف « السهوب » بلغـة تبلغ من الاقتصاد والكـمال بحيث يمكن القول ببـساطه بأن من غير المـمكن لها أن تروى بكلمات أخرى غـير تلك التي كتبت بها ، شأن العديد من المقطوعات النثرية التي كتبها بوشكين وكان في نية تشيخوف في البداية أن يكتب تتمة لمغامرات ييجور الصغير ، غير أنـه ما لبث أن عدل عن ذلك ، وحسناً فـعل . فقد كان يغـامر بنزع غلالة النقاء والسحر التي جعلت من « السهوب » ما هي عليه لو أن مضى ببطله إلى سن تتجاوز سن الطفولة. ألم يكن ليجازف بذلك بتدمير التوازن الرقيق الذي خلقه في ذهن القارئ إن أقدم على ذلك ؟

بعد أن كـرّس « للسهوب » من الوقت والجهـد أكثر مما اعتـاد أن يفعل شعر بأن نفـسه قد فاضت من الكتابة ، وكـان كل ما يريده هو أن يستلقي في فـراشه ويبـصق على السقف ، كـما يقـول المثل الروسي . ومن باب التسلية كتب مسرحية هزليـة ساخرة من فصل واحد سمّاها « الدبّ » وبعد ذلك توجه إلى بطرسبرج متتبعاً نداء المجد .

اقـام هـذه المرة في شـقة سـيفورين الفـخمـة بدلاً من سكن الكسندر القذر ، وخصصت له حجرتان مؤثثـتان بصورة فاخرة ، بما في ذلك بيانو فخم وأرغن وكنبة كبـيرة منجدّة ، وألق بهما حمّام خـاص ، كما وضعت تحت تصرفه عربة جاهزة لنقله إلى حـيث يشاء وخصص له خادم خاص . وقد كتب لأخيه ميخائيل يقول : « خادمي فاسيلي يرتدي لباساً أفضل من ملابسي ، وله وجه وقـور . ينتابني شعور غريب وأنا أجـده يحوم حولي

متنقلاً باحترام على رؤوس أصابعه محاولاً استقراء رغباتي والتنبؤ بها قبل أن أعبّر عنها » . كان مضيفوه يصطحبونه إلى المحلات المرموقة وحفلات العشاء التي تقدم فيها الشمبانيا . وحيثما كان يذهب كان يقابل بالمديح الوافر وكان هذا يسعده ويغيظه في الوقت نفسه ، يدغدغ عواطفه ويخجله في آن معاً . ويقول في ذلك في رسالة كتبها للسيدة كسليوفا : « أشعر بأنني وغد تماماً » .

أسوء ما في الامر كانت ثرثرة السيدة سيفورين . فقدكانت تقفز من موضوع إلى آخر دونما توقف ، فتنتقل من الحديث عن ذعرها من أبناء الجنس البشري إلى السترة التي ابتاعتها بـ ١٢٠ روبلاً إلى الصداع النصفي الذي يصيبها . أما إجابات تشيخوف فكانت مقتضبة ولكنها مؤدبة باستمرار ، ولكنه أخذ يستمتع أكثر فأكثر بصحبة سيفورين .

اتفقا خلال هذه المرة على إصدار طبعة جديدة من مجموعة « عند الغسق » ونشر مجموعة أخرى من القصص . وكتعبير عن الثقة عرض سيفورين على تشيخوف ، ويكل جدية ، ابنته التي كانت ما تزال « تستطيع الوقوف منتصبة تحت الطاولة » كما قال أنطون لشقيقه ألكسندر . ولقد أرفق « حماه» هذا العرض بوعد منه بأن يحصل على نصف دخل صحيفة الأزمنة الحديثة بعد سنوات قليلة من إتمام الزواج . أما إجابة تشيخوف على ذلك فكانت « الضحك » .

على الرغم من أسلوب سيفورين المخاتل الساخر إلا أن تشيخوف كان يجد فيه الكثير مما يثير إعجابه . فقد كان في شخصيته نوع من الابتهاج يجده تشيخوف منعشاً . وشيئاً فشيئاً تحوّل تقاربهما الفكري إلى صداقة . كان سيفورين يكبر تشيخوف بستة وعشرين عاماً ، وبذا كان يستطيع أن

يفاخـر بتجربة أكبـر ونجاح مادى أوفـر ، غير أنهمـا كليهمـا ينحدران من أصول فلاحيـة . فقد كان جدّ سيفورين من الاقنان أيضـاً ، أما والده فقد حارب فى معركـة بورودنيو كجندى ، كما أنه هو نفسه بدأ حـياته كمدير مدرسـة فى إحدى القـرى . ولكنه ما لبث أن احـترف الصـحافـة وكانت مقالاته المبكرة تتسم بالليبرالية . غير أنه أدرك منذ البداية أن عليه أن يتملّق الحكومة إذ كان المال والجاه والسلطة هى مـا يسعى إليه . وفى عام ١٨٧٦ اشترى جريدة يومية صغيرة فى بطرسـبرج اسمها « الأزمنة الحديثة » بسعر لا يذكر ، وأخـذ يدافع فيهـا عن الوضع الراهن دون خجل . هذا التغـير الكامل فى موقـفه أكسبه احـتقار الطبقـة المثقفة وحـماية السلطات ، وفى غضون عشر سنوات تطورت صـحيفة الأزمنة الحديثة لتصبح أكبـر صحيفة يومية روسية . وما لبث سيـفورين أن أنشأ دار للنشر خاصة به وحصل من حكومة قـيصر روسيـا على امتياز أكـشاك بيع الكتب فى جمـيع محطات السكك الحديـدية فى روسيا . وبذا أصـبح من أصحاب المـلايين ، يعيش عيشة مترفة ، وإن كان يحب أن يتذكـر الوقت الذى كانت فيه زوجته تسير حافـية القدمـين فى دروب القـرية وهـــى تحـــاول ألا ترتـدى حذاءهـا حتى لا يبلى . ولكن ثمن هذه الثروة كان خيانته المسـتمرة لأكثر أحاسيسه عمقاً ، فالحكم المطلق الذى يكيل له المديح على صفحـات الأزمنة الحديثة إنما كان يشتـمه فى مذكراته الشخـصية . وشأن معظم النـاس العـصاميين كان يميل إلى الشك ، لا يكـترث بالمبـادئ المثالية ويحكـم على النـاس لا بما يقولـون بـل بما يـفعلون . وكان الفن والأدب هما سلواه الوحـيدة من خيبات أمله فى الآخرين .

بعد أن عاد تشـيخوف إلى موسكو كتب لألكسنـدر يطلب منه أن يعبر عن شكره لمضيفيـه على كرمهم ، وكتب للسيدة كسليـوفا فى الوقت نفسه

مازحـاً : « بصفتي كاتبـاً عظيماً كنت أتجـول في بطرسبرج بعربة مطهـمة وأحتـسي الشمبـانيا باسـتمرار . ولسـبب من الأسباب أطـلقوا عليّ اسم بوتومكين * ، وإن لم تكن لديّ كاترين . من الواضح أنهم يعتبرونني أحد شعرائهم المفضلين » .

ولكنه ، وقد أصبح فراشة اجتماعـية متنقلة ، وجد صعوبة في التأقلم مع حياة الأسرة ثانية في بيته ، « صندوق الأدراج » ، كانت الاسرة تتكون من ثمانيـة أفراد ، إذ أن نيقولاي عـاد ليصرف جانبـاً كبيراً من وقـته وهو يتنقل من غرفـة إلى أخرى وهو أولاده ، وأخـذ فور وصوله يغـرق حزنه بالفودكا ، كـما أخذ يتقرب من يلينا لنتـفاريوفا ، بل وفكر في أن يطلب يدها . ولكن تشـيخوف جـاهد كي يثنيه عن عزمـه : فقـد كان ألكسندر بطيشه المعهود يفكر في إقامة عـلاقة مع فتاه تدعى ناتاليا جولة والتي كانت شقيقتها المتزوجة تعيش مع شقيقه نيقولاي . وحين عاد ألكسندر في النهاية تنفس الجميع الصعداء .

كان على تشـيخوف أيضا أن يودع آل لنتـفاريوف ، إذ على الرغم من حبه لقـرية لوكا إلا أنه كان يجـد نفسه مجبـراً على تغيير الجـو المحيط به باستـمرار ، وكأنما خلق المرض لديه حـاجة ماسة لرؤية العـالم ، أو كأنما كـانت لديه قناعـة بأن الصـحة والراحـة لا تتـواجـدان في المكـان الـذي يتواجـد فيه .

في العاشـر من تموز / يوليو غادر فجـأة إلى فيدوسيا في جـزيرة القرم حيث كـان سيفـورين يقتني فيـلا أنيقة علـى شاطئ البحـر . قضى هناك أسبوعـين في نعيم يغمره الكسل ، إذ يسـتيقظ في الحادية عـشرة وينام في الثالثة فـجراً ، ولا يشرب إلا أفخر أنواع النـبيذ ، ولا يأكل إلا ألذ المآكل

* جورجي ألكسندروفيتش بوتومكين ، فيلد مارشال وسياسي روسي (١٧٣٩ - ١٧٩١) .

بحيث نسى وسط كذلك أنه كاتب . وقد اعترف بذلك في رسالة لعائلته حيث يقول : « لم أكتب سطراً واحداً ولم أجن كوبيكاً . وإذا استمر كسلى لمدة أسبوع واحد أو أسبوعين آخرين فسوف أفلس تماماً وسيكون على آل تشيخوف قضاءشتائهم في لوكا » .

كان الجو متقداً بالحرارة ولذا كان على تشيخوف أن يسبح يومياً مرات عديدة في مياه البحر الزرقاء العميقة : « الحنونة كأنها شعر عذراء » . ومضيفته التى أزعجته في بطرسبرج بدت له مسلية في فيدوسيا بثرثرتها التى لا تنقطع « وكأنها عصفور الكنارى » . تبدل ملابسها كل ساعة ، تضحك في الصباح وتغنى أغانى الغجر العاطفية بعد الظهر وتذرف الدموع على الشواطئ الخالية ليلاً . أما سيفورين فكان يشغل ضيفه في أحاديث لا تنقطع حول مختلف الأمور . وقد كتب تشيخوف في ذلك إلى ليونتييف شيجلوف يقول : « إننى أتحول تدريجياً إلى آلة للكلام . وبعد أن توصلنا إلى حلول للمشاكل الراهنة شرعنا في التحدث حول مشاكل لم نتطرق إليها حتى الآن ، نتحدث ونتحدث ، وقد نموت بسبب التهاب اللسان والحبال الصوتية » . ولكنه يضيف : « غير أن سيفورين رجل عظيم . إنه بالنسبة للفن ككلب الصيد فيما يخص الصيد ، أعنى أن لديه حاسة تمييز أخاذة وعاطفة مشبوبة باستمرار . وما أن تعتاد طريقته في الحديث وتحسّ بصدقه ، وهو أمر يفتقر إليه معظم من يتحدثون ، فإنك ستجد في حديثة متعة لاتجارى » .

كان سيفورين يود أن يستبقى ضيفه حتى ايلول/ سبتمبر ، إلا أن جسم تشيخوف أخذ يهرشه حاثاً إياه على الرحيل من جديد . وقد احتج ، وبحق ، بأن عليه أن يعود إلى لوكا كى يستأنف عمله . غير أنه ما لبث أن حاد عن طريقه يرافقه الكسى ، ابن سيفورين ، بحيث وصلت بهما أقدامهما إلى القوقاز . إذ بعد أن استقل الزورق البخارى في فيدوسيا

زار دير آثوس الجديد ثم سوخرمي (وهي ميناء ومدينة على البحر الاسود في شمال غربي جورجيا) وباطوم (ميناء في جنوب غربي جورجيا على البحر الاسود أيضا) وتفليس (مدينة من جورجيا على نهر كورا) وباكو (مدينة في أذربيحان على بحر قزوين) ، وقد ملأته هذه الأخيرة قرفاً واشمئزازاً بسبب رائحة النفط التي تملأ جوّها .

وفي أوائل آب / أغسطس كان قد وصل إلى لوكا ، إلى جانب أصدقائه آل لنتفاريوف . وما لبث أن وقع صريع سحر الريف الاوكراني لدرجة أنه أخذ يحلم باقتناء مزرعة صغيرة في المنطقة وإقامة كولونة للأدباء فيها ، ولكن من أين له بالمال اللازم ؟ وجد أن أفضل ما يمكنه عمله هو العودة إلى موسكو « ما أصعب أن أغادر هذا المكان ، خاصة الآن والنهر يزداد جمالاً كل يوم ، والطقس في أروع صورة والفلاحون يأتون بالقش . إن فكرة التوجه إلى موسكو بطقسها البارد ومسرحياتها السيئة ومطاعمها الصغيرة وأفكارها الروسية تبعث القشعريرة في جسدي ... ليتني أستطيع قضاء الشتاء في مكان بعيد بعيد ! .. » .

توجه إلى « خزانة الأدراج » في شارع سادوفايا - كودرينسكايا في ٢ ايلول / سبتمبر بعد أن أوهنته رحلاته الصيفية بدلاً من أن تمنحه القوة . وما أن وصل إلى موسكو حتى بدأ ينزف من جديد ، ولكنه لو كان مصاباً بالسل ، كما قال ، لكان قد مات ودفن منذ وقت بعيد . وكالعادة ، استخف بنوبات النزف هذه ، وطبقاً لتشخيصه الشخصي فإن أعراض المرض لم تكن موجودة لديه . وقد كتب في ذلك إلى سيفورين يقول : « أصاب بالرعب حين أري الدم ، إذ أنك ترى في الدم ملامح شؤم وهو يخرج من فمك كأنه اشتعال النار . ويتوقف قلقي حين لا أرى الدم ، ولا يتهدد الأدب الروسي بخسارة أخرى ! .. » . فهل كان هذا الموقف ، وهو موقف مستغرب منه كطبيب ، يعكس خوفاً من الحقيقة أم تقبلاً

للمصير المحتوم ؟ هنالك شيئ واحد مؤكد وهو أن تشيخوف يرفض الاعتراف بأنه مريض لكى يطلق العنان لنفسه حتى يستمتع بالأجل المحدود المتبقى له من حياته . فقد كان يدرك ، وإن كان لا يعترف بذلك حتى لنفسه ، أن السبيل الوحيد لما له مظهر السعادة على وجه هذه الأرض هو الحياة ضمن أكذوبة الصحة السليمة . وبإغلاق عينيه عن أعراض المرض كان بإمكانه أن يحافظ على رغبته فى العمل والنجاح والأصدقاء .

إلا أن متطلبات الأسرة منعته من العمل من جديد . فقد كان نيكولاى دون عمل ثابت أو أوراق ثبوتية ، والشرطة تلاحقه لأنه يتهرب من أداء الخدمة العسكرية ، فكان على تشيخوف أن يتوسط له لدى بعض أصدقائه من ذوى النفوذ من أجل مساعدته . أما ألكسندر فقد تشاجر مع سيفورين ، إذ بعد أن وقّع قصة متوسطة الجودة نشرها فى « الازمنة الحديثة » بتوقيع آل (AL) تشيخوف » وجه إليه سيفورين رسالة ساخطة يتهمه فيها باغتصاب وتلطيخ اسم يستحق كل الاحترام . وبما أن أنطون كان الخاسر الاكبر فى هذه القضية فقد كان من الطبيعى بالنسبة له أن يعبّر عن امتعاضه ، ولكنه صبّ كل اهتمامه على إنهاء هذا النزاع . بل إنه أرسل الرسالة الحزينة التالية إلى أخيه فى محاولة لعلاج طبيعته الحساسة إلى درجة المرض : « بما أن أياً منا لا يستطيع أن يهرب من الموت ، ولأن أمد الحياة لن يطول بأى منا فإننى أنصحك بأن تفعل مثلى ، وكلما أخذنا الامور الحساسة التى يثيرها سيفورين ببساطه كانت حياتنا وعلاقاتنا أكثر استقامة . وأى فرق بين (AN) تشيخوف وآل (AL) تشيخوف ؟ ! . . » .

وبعد أسابيع قليلة أهان ألكسندر وهو فى حالة سكر أعضاء هيئة تحرير « الأزمنة الحديثة » إهانة بالغة . وخشية أن يعمد سيفورين إلى طرد

ألكسندر كتب إليه أنطون رسالة يعبرّ فيها عن أسفه لما حدث محاولاً تفسير أسبـابه الكامنة : « ماذا أفعل لأخى وللـمتاعب التى يثـيرها ؟ إنه ذكى ، خجول ، مستقيم ولـطيف حين يكون فى كامل وعيه . أما حين يسكر فإن التعامل معه يصبح مستحيلاً . إنه يسرف فى السكر - وهذا أمر لاريب فيه ولكن مـاذا تعنى هذه الحـالة ؟ إنهـا اضطراب عقلى مـثل إدمـان المورفين والاستنماء والشبق المرضى لدى النساء وشأن ذلك من العلل ، وهذه يرثها الأبناء عن آبائهم وأمـهاتهم ، أو أجـدادهم وجداتهم ، وإن كـان لايوجد سكيـرون فى سلالتنا . كـان أبى وجدى يسـرفان فى الشـراب أحيـاناً مع ضيوفهما ، غير أن هذا لم يكن يمنعهمـا من الانتباه لعملهما أو الاستيقاظ فى الوقت المناسب لأداء صلاة الفجـر . فالشراب كان يزيد من رصانتـهما وذكائهما ، يفرح قلبيهما ويثير ذهنيهما . أما أنا وشقيقى المعلم فلا نشرب حين نكون منفردين . لا نعـرف شيئاً عن الإدمان ، ويمكـننا أن نشرب ما شئنا ثم نستيـقظ ورأسنا رائق صاف . أما ألكسندر وشقيقـى الفنان فإنهما يشربان ويفقدان رشـدهما بعد الكأس الثانية أو الثالثـة ، ويصل بهما الأمر فى بعـض الاحيـان إلى الرغبـة القـــوية فى الشـراب ، ولست أدرى من أين أتتـهما هـذه الخصلة . كل مـا أعرفه هو أن لدى ألـكسندر سببـاً للشراب باستمـرار ، فهو يسكر حين يحسّ بالتعاسـة أو حين تهون عزيمته لسبب من الأسباب . ليس لدىّ عنوانه ولذا أرجو أن تتكرم بإرساله إن كان هذا لا يزعجك ، وسأكتب له رسـالة لطيفة بلهجة دبلوماسيـة وتهذيبية ، فلرسائلى تأثير عليه » .

وسط هذه الهمـوم العائلية تلقى تشـيخوف نبأ مـفرحاً على نحو غـير متوقع . فقد كان قد أرسل لتوه قصة ذات نزعة معينة إلى حد ما هى قصة « حفلة يوم التسمية » لصحيفة « أنباءالـشمال » وأخذ يعيد كتابة مسرحيـة « ايفانوف » حين علم على نحو أثار دهشتـه فى ٧ تشرين الاول / أكتوبر

١٨٨٨ بأن القسم الادبى فى أكاديمية العلوم بسانت بطرسبرج قد قرر بالإجماع منحه جائزة بوشكين على مجموعته « عند الغسق » . كان سروره دون حدود « وكأننى فى حالة حب » . انتشت العائلة كلها للخبر وكتب الى سيفورين يقول: « أبى وأمى يتفوهان بأشياء تدعو إلى الضحك الشديد لفرط فرحهما. أما أختى فهى تدور على صديقاتها لتعلن الخبر. إننى أشعر بأننى محظوظ حتى بدأت أنظر الى السماء بارتياب، وأظننى سأركض لأختبئ تحت الطاولة وأجلس هناك بهدوء وخضوع دون أن يرتفع لى صوت. سأحتفظ بالروبلات الخمسمائة لشراء مزرعة فى أوكرانيا ». وفى نفس الرسالة يقول: « كل ما كتبت ، وكل ما منحت الجائزة من أجله لن يعيش ويدوم فى أذهان الناس لأكثر من عشر سنوات » .

وليغريغوروفيتش ، وهو عضو فى الاكاديمية والذى أحسّ له بالامتنان العميق لمنحه الجائزة ، كتب معبراً عن هذا الامتنان وكأنه مجرد كاتب مبتدئ ، واعداً بأن يبدأ فى كتابه رواية ، ومنوّهاً فى نفس الوقت بأنها ، شأن بقية كتاباته ، لن تنحاز إلى أى اتجاه إزاء المسائل المطروحة فى ذلك الحين ، إذ يقول : « مازلت افتقر لأى وجهة نظر سياسية أو دينية أو فلسفية ، بل إننى أبدّل وجهات نظرى كل شهر . ولذا فإننى سأكتفى بوصف الكيفية التى يحب بها أبطالى ويتزوجون وينجبون ويموتون ، وكيف يتكلمون . . . » .

على الرغم من الجائزة وحفلات الاستقبال والمآدب والخطب التى كانت تلقى فيها فإن تشيخوف لم يكن قادراً على اتخاذ قرار بعد فيما إن كان يعتبر نفسه طبيباً أم كاتباً ، وقد كتب لسيفورين مقارناً بينهما حيث يصف الطب على أنه زوجته الشرعية بينما الأدب إنما يمثل عشيقته فيقول : « حين تضغط إحداهما على أعصابى فإننى أقضى الليلة مع الأخرى . وقد يكون

هنالك نوع من الفوضى فى هذا النوع من الحياة إلا أننى أجده أقل إثارة للملل » . علاوة على ذلك فقد كان يجد عالم الكتّاب الشباب الآخرين مثيراً للاشمئزاز . فهو يكره تحزّباتهم ومؤامراتهم وطموحاتهم العنيفة وانحناءاتهم وتملقهم ، ويشعر بأنهم مستعدون للمضى إلى أقصى الدرجات للفت الانظار إليهم .كيف يمكن لهم أن يتحرّقوا للشهوة إلى هذا الحد ، فى حين أنه مازال غير واثق مما يدفعه إلى الكتابة بعد ثمانى سنوات من ممارستها ؟ .

وبدلاً من الانضمام إلى أى عصبة حاقدة ظل تشيخوف مستقلاً يجهد لكى يبقى ذلك الانسان المتواضع ، وكتب فى ذلك إلى ليونتيف تشيجلوف يقول : « لنكن اناساً عاديين ، ولنعامل الناس سواءً بسواء وبعدها لن تكون هناك حاجة لما يسمى بالتضامن » . أما لبليشيشيف فقد استخدم كلمات أكثر حدة إذ يقول : « إن من أخشاهم هم أولئك الذين يبحثون عن النزعات الفكرية بين السطور ويصرّون على تصنيفى كليبيرالى أو محافظ . لست ليبيرالياً ولا محافظاً ، كما أننى لست من أنصار التدرج ولست راهباً أو عديم الاكتراث . كل ما أوده هو أن أكون فناناً حراً ولاشئ غير ذلك ، وما يحزّ فى نفسى هو أن الله لم يعطنى من القوة ما يمكننى من أن أكون كذلك . إننى أكره الكذب والعنف بكل أشكالهما ، فالرياء وبلادة الذهن لا يحتلان مكان الصدارة فى منازل التجار ومراكز الشرطة فقط ، بل أراها أيضاً فى مجال العلم والأدب ، بين جيل الشباب . إننى أرى فى التصنيفات الجاهزة والأوصاف الملصقة الجاهزة نوعاً من الإجحاف والتحامل ، وأقدس ما أقدسه هو الجسم البشرى والصحة والفطنة والموهبة والإلهام والحب ، وقبل كل ذلك الحرية المطلقة اللا محدودة ، التحرر من العنف والأكاذيب . . . » .

الاستقلال التام - هذا المبدأ لم يكن الشعار الذى يحث الكتّاب والنقاد والجمهور على الالتزام به فقط - بل يطبقه على أبطاله أيضاً . . فقد انتهج السبيل الذى سبقه إليه بوشكين ثم تولستوى ، قبل أن يعود هذا الأخير لاعتناق مذهبه الدينى الجديد : وهو الشعور بأن مهمته هى أن يطرح المشكلات ، لا أن يجد الحلول لها ، دون وعظ مقنّع أو توجيهات أو دوافع خفية . مجرد تصوير صادق للحياة . فعلى الكاتب أن يكون فى خدمة أبطاله وليس العكس ، وعليه أن يكون من الشجاعة بحيث يختار إما وجودهم ، أو وجوده هو . والكاتب ، بتدخله لتقديم التفسيرات وإصدار الأحكام والاتهامات أو استصدار صكوك البراءة إنما يتجاوز حدوده ككاتب . وكلما نجح فى الاختفاء وراء أبطاله استطاعوا أن يعيشوا بعده . وقد كتب لسيفورين فى ذلك يقول : « ليست مهمة الكاتب فى رأيى أن يحل مشاكل تتعلق بأمور مثل الله والتشاؤم إلخ . . . بل مهمته أن يسجل ما يقوله أو يفكر فيه شخص ما فى وضعية ما حول الله أو التشاؤم مثلاً . ليست مهمة الكاتب أن يكون قاضياً يصدر الأحكام على أبطاله وعلى ما يقولون ، بل أن يكون شاهداً محايداً . أما التوصل إلى الاستنتاجات فهو أمر من اختصاص هيئة المحلفين ، أى القراء . مهمتى فقط هى أن أكون موهوباً أى أن أتمكن من التمييز بين الشهادات المهمة وعديمة الاهمية ، وأن أسلّط على أبطالى الأضواء المناسبة ، وأن أتحدث بلغتهم » . وبعد أشهر قليلة تناول الموضوع ذاته فى رسالة إلى سيفورين إذ يقول : « من السيئ بالنسبة للفنان أن يتناول أموراً لا يفهمها ، فلدينا متخصصون يتعاملون مع الأمور المتخصصة ومهمتهم هى التوصل إلى أحكام حول كومونات الفلاحين ، ومصير الرأسمالية ، ورذائل الانغماس فى الملذات ، والصرف من الخدمة وظلامات المرأة . أما الفنان فليس عليه أن يصدر أحكامه إلا على الأمور التى يعرفها حق المعرفة » .

ولكن حرص تشيخوف على الموضوعية فى الأدب لم يكن يعنى بأى حال من الاحوال عدم اهتمامه باختيار التفاصيل فى مقطع وصفى أو أثناء الحوار ، ولكن تشيخوف الذى كان يصف نفسه بأنه واقعى كان ينحو باستمرار باتجاه الانطباعية واللمسات الخفيفة ومسحات المرح واللمحات سريعة الاختفاء . وقد كتب للازاريف - جروسينسكى ينصحه بتجنب الأساليب التقليدية قائلاً : « إنك تجهد فى الصقل والتلميع وتحرص على وضع كل ما تعتبره جريئاً أو قاسياً بين معترضات وأقواس . أنك لا تطلق العنان لمزاجك الخاص ولذا فإن أدواتك تعوزها الأصالة . عليك أن تصف نساءك بطريقة تجعل القارئ يشعر بأن ربطة عنقك مفتوحة وبنطالك مفتوح ، وهذا ينطبق على النساء والطبيعة أيضاً . أترك نفسك على سجيتها . . » .

وإطلاق النفس على سجيتها ، ورفض الوعظ فى الأمور السياسية أو الفلسفية ، أو الاستسلام للقيود التى تفرضها المدارس الأدبية ، والرغبة فى انتهاج خط شخصى صلب ولكنه متواضع - كانت هذه هى التعاليم التى يتوجب على الكاتب الالتزام بها من وجهة نظر تشيخوف . وقد عبر بوضوح عن مدى تحفظه وافتقاره للآراء المسبقة فى رسالة إلى بليشيشيف حول قصته « حفلة يوم التسمية » إذ يقول : « من الممكن أن اتّهم بالشراهة أو الإسراف بالشراب ، أو قد أوصم بالطيش أو البرود ، أو أى تهمة أخرى باستثناء تهمة واحدة ، وهى محاولة أن أبدو او لا أبدو على هذه الصورة أو تلك ، فأنا لم أعمد إلى التخفى أو السرية فى أى يوم من الايام على الإطلاق » .

وعلى الرغم من دفاعه عن مبدأ عدم التزام الروائى وكاتب القصة القصيرة ، الا أنه لم ينس ولاءه للمسرح فى أى يوم من الايام . ولكن

عدم الالتزام كـان قاعدته الذهبيـة فى هذا النطاق أيضاً . وعلى الرغم من استيائه الشديد من وضعية المسرح فى تلك الايام غير أنه لم يكن قادراً على الهروب من إغراء المكياج المسرحى ، وكتب فى ذلك إلى سيفورين يقول : « علينا أن نبذل كل جـهد ممكن لتخليص المسرح وإنقـاذه من أيدى البقالين ونضعه بين أيدى الكتاب والنقاد ، وإلا فإن المسرح سـيواجه نهايته المحتومة دون شك » . أما لليونتييف - شيجلوف فقد كتب يقول : « المسرح الحالى ليس إلا نوعاً من الطفح الجلدى ، داء خطيـر تعانى منه المدن ، ولابد من التخلص منه إذ أن التعلق به أمر غير صحى على الإطلاق ! » .

ومع ذلك ظل من المواظبين على ارتيـاد المسرح ويجد مـتعة فى قـضاء سهراته مع الممثلين . وقد ظل يكتب افتتاحيات مرحة للمسرح مثل « أغنية البجعة » و « الاقتراح » ، بل ونفض الغبار عن مسرحية ايفانوف على أمل إيضاح مراميها مع كل تعديل فـيها وكتـب لسـيفورين حـول ذلك يقول : « ربما أصـبح « ايفانوفى » مـفهـومـاً أكثـر الآن » . وهو يعلن أن ساشـا الصغيرة بصورتها المعدلة أصبـحت شخصية جديدة تماماً ، إذ أنها من ذلك النوع من النساء اللاتى يحببن الرجـال حين يوشك الرجال على السقوط . أما بالنسبة لإيفـانوف فإنه يقتل نفسه ليس لأن سمعـته قد تلطخت علناً أو لأنه شُـتم بل لأنه « وصل إلى نهـاية الدرب » . وعـلاوة على ذلك فـإن تشيـخوف يرى فى إيفـانوف خلاصة لـلشخصـية الروسيـة . « فالخـمول والنزعة المستعرة للاهتياج والشعور بالذنب كلها صـفات روسية صرفه » ، كما كتب لسيفورين . « أما الألمان فهم غـير مستعدين للاهتياج ولذا فإنك لاتجد فى ألمانيا أناساً عاطلين خاملين . أما اهتياج الفرنسيين فإنه يبقى دائما على نفس الوتيرة فلا ينخفض ويرتفع فجأة . ولذا فإن الفرنسى يبقى ذلك الانسان المهتاج بطبيعته إلى أن يصل إلى سن الشيخوخة » .

حين دخلت مسـرحيـة « ايفانوف » ضمن مـجموعـة المسرحـيات التى يقدمها مسرح أكسندريسكى فى بطرسبرج على نحو متكرر توجه تشيخوف إلى العاصمة لحضور التدريبات على المسرحية . وعلى الفور ، عاودته كل شكوكه ومصادر قلقه وغضـبه ويدأ يشكو من المنحى الذى يتبعه الممثلون . وزاد الطين بلّـه أن دافـيــدوف الذى يقـوم بـدور البطولة ظل يـشكو من التغييرات التى تتم فى اللحظات الأخيرة ويهدد بالإقلاع عن تقديم المسرحية وكان تشـيخوف يقـوم بمجالات يائسة لاقناعـه ولشرح القوى الدافـعة في الشخصية ، التى يمثـلها . كان الرجلان يختصمان ويتصـالحان عشر مرات كل يوم ، ولكن دافيدواف ظلّ شـديد الاعتداد بنفسه بحيث أن تـشيخوف كان يرتعد من الأسوأ . وفى الليلة التى سبقت الافتتاح كتب لميخائيل يقول إن كل الدلائل تشـير إلى أن المسرحـية مـحكومة بالفشل المـؤكد . ولكن المسرحية لم تتجنب الفشل المؤكد فحـسب بل نجحت نجاحا ساحقا . وبعد العرض الأول انضم تشـيخوف وركـبتاه تصطكان وقلبـه يخفق بشــدة إلى

وفي اليوم التـالي أقيمت مأدبـة علي شرفه ، وقد شـرب راعي الحفلة نخب صحته مشبّهاً إياه بالكاتب المسرحى الروسى الخالد جريبويدوف . أما تشيخوف الذى أذهله هذا النجاح فقد توجه توآ إلى موسكو . كان يود أن « يختفي في أي جحـر » كما قال في رسالة إلى ليونتيـيف - شيجيلون ، ويضيف :« أما فيـما يتعلق بالنجاح والتصفيق فهـو ضاج ومزعج بحيث تحس أنه يرهق اعـصـابك ويدفـعك إلى أن تـركض وتولى هارباً . . .». وعلى الرغم من ذلك فقد كان يتابع باهتمام ما تكتبه الصحف التي شاركت الجمهور على وجه الإجمال وجـهة نظره وامتدحت المسرحية ، ولـم يكتب تعليـقات سلبيـة إلا النقاد اليـساريون مـثل ميخـايلوفسكي وكـورولينكو

وأوسبنسكي ؛حيث وجهوا النقد للكاتب ؛لأنه أخفق في إيضاح موقفه الاجتماعي . ولكن هذا الاتهام لم يزعجه على الإطلاق بل دفعه إلى التمسك أكثر فأكثر بفكرته حول ضرورة فصل الفن عن السياسة . كما أن الناس الذين رأوا المسرحية أخذوا يوجهون إليه رسائل يهنئونه فيها ؛لأنه خلق شخصيات واقعية تعكس الوعي والأفكار السائدة في تلك الفترة . . . ولقد كتب ليسكوف في مذكراته يقول : "مسرحية ذكية ، موهبة درامية عظيمة" .

أخذت شعبية المسرحية تتزايد يوماً بعد يوم ، وكان المسرح يمتلئ عن آخره ليلة بعد أخرى ، وكان هذا انتقاماً عذباً من الفشل الذي لاقته في موسكو، وأصبحت « إيفانوف » عملاً لابد من مشاهدته كما كتب تشيخوف في رسالة إلى السيدة كسليوفا ؛حيث يقول :«لقد نجحت نجاحاً هائلاً واستثنائياً ، وأصبح في بطرسبرج الآن بطلان هما :«فرانيا العارية» * لسميراديسكي وأنا لابسا ، فكلانا البدعة ، أو « الموضة » السائدة في هذه الأيام !! ... » .

ولكن هذه اللهجة الساخرة المرحة كانت تخفي وراءها رغبة في الهرب من أضواء الخيلاء المحيطة به من كل جانب إلى الريف ؛حيث يمكنه أن يمارس هوايته المفضلة ، وهي صيد السمك ، وهذا ما يؤكده في رسالة إلى ليونتييف شيجيلوف بالنسبة لي ما يفوق ما أجده في التصفيق ومقالات الصحف » . كانت رسائله تتخذ منحى يتصف أكثر فأكثر بالمرارة والشعور باللامعنى ، إذ يقول : « لمن أكتب ولماذا ؟ للجمهور؟ولكنني لا أرى جمهوراً ولا أؤمن به أكثر مما أؤمن بالأرواح: إنه عديم الثقافة ، خشن الأخلاق . حتى أحسن عناصره تتصف بالتجرد من المبادئ الأصيلة ومن الصدق في تعاملها معنا . ثم هل الجمهور بحاجة إلي أم لا؟ لست أستطيع أن أجيب على ذلك . وباختصار ، فإن الحياة تثير لدي الشعور

* لوحة معروضة فى أكاديمية الفنون الجميلة بموسكو .

بالملل ، ولقد بدأت تنمو لدىّ مشاعر الكراهية ،هذا أمر جديد بالنسبة لي . الأحاديث الطويلة التافهة ، الضيوف ، المستعطون حسنات بمبلغ روبلين أو ثلاثة ، دفع أجور العربات لعيادة مرضى لا يدفعون مليماً واحداً قط - باختصار فوضى تحثني على أن أرمى كل ما بين يدىّ وأهرب . أناس يستدينون ثم لا يدفعون ، يحملون كتبى ويذهبون ، يضيعون وقتى . . . ليس ينقصنى إلا قصة حب فاشلة . . . » .

وفى تلك الآونة لم يكن تشيخوف يبدى الكثير من الميل إلى قصص الحب ، سواء أكانت ناجحة أم فاشلة ! وعلى الرغم من اهتمامه بالصديقات اللاتى كانت ماريا تصطحبهن إلى البيت ، غير أنه لم يكن ليسمح لتودده بأن يأخذ منحى جاداً . فتنته مثلاً « ليديا ميزينوفا » الجميلة والتى كان يطلق عليها اسم ليكا ، وهى فتاة بادية الصحة فى الثامنة عشرة ذات بشرة فاتحة وشعر أشقر وعينين رماديتين لامعتين وتعمل معاونة فى المدرسة التى تدرس فيها ماريا الجغرافيا والتاريخ . وقد أغرمت الفتاة بموهبته وملامحه المتّسقة وابتسامته الودودة ، إلا أنها كلها أمعنت فى الاهتمام به زاد من تهربه وسخريته . كما كانت هناك صديقة ماريا أستاذة الرياضيات ، أولجا كونداسوفا التى كان لها وجه جذاب وإن كان رصينا يميل إلى الملامح الرجالية . لم تكن تهتم « بالموضة » على الإطلاق وترتدى باستمرار ذات الثوب الأسود ذى الياقة البيضاء وتحزمه عند الخصر بحزام جلدى عريض . كانت مغرمة بعلم الفلك - وكان تشيخوف يسميها الفلكية - وكانت عاطفية وصادقة بطبيعتها . ولدى أول إشارة منها بما يتجاوز حدود الصداقة العادية انسحب تشيخوف . فقد كان يخشى النساء أو بالأحرى يخشى أن يزيد من همومه ومتاعبه بالارتباط بإحداهن .

بدأت الشائعات المغرضة تحوم حوله فى موسكو وبطرسبرج ، إذ نشر بعضهم تلميحات تدعى بأنه باع نفسه لسيفورين ، ذئب الطبقة

الارستقـراطية وأنه وعد بالزواج من ابنة سيفـورين - والتى كانت بعد فى العاشـرة من عمـرها - وأنه سـيصبح عمـا قـريـب عضواً فى هيئة تحرير « الأزمة الحديثة » . ولقد حذره بليشيشيف ، بعد أن أرعبه ما سمع ، بأن التعاون مع صحيفة شـديدة الارتباط بالسلطات الحاكمة يعنى ارتباطه الكلى والدائم بمعـسكر الرجـعيين . وقـد أجاب تشـيـخوف : « هذه الأقـاويل تزعجنى ، ليس لأنـك كتبت لى عنهـا ، ولكن لأن الجميع يكتـبون فيـها والطلبـة يرددونهـا . كلهم يقـولون إننى سأتزوج المـلايين ، وهذا افتـراء محض » .

كما أن عائلته لم تترك له سبيلاً للراحة . فألكسندر الذى كان قد أصبح فى الثلاثينات ، كان يرفض أن يغيّر من سلوكه ، وقد أرعب تشيخوف أن يراه حين ذهب إلى بطرسـبرج فى كـانون الأول / ديسـمبـر وهو يتمـشى نصف ثمل ، وبملابسـه الداخليـة أمام الطبّـاخة ، ويصبّ شـتائمـه على عشيقته الجديـدة أمام أبنائه . وقد كتب له فى ذلك يقول : « اسمح لى أن أقول لك بأن مـعاملة النسـاء بهذه الطريقـة ، مهـما كان شـأنهن ، ليس بالتصرف اللائق الذى يصدر عن إنسان محبّ مـحترم . أى قوة فى السماء أو الأرض تعطيك الحق فى استـعـبـادهن ؟ فالشـتائـم المقذعـة المنحطّة ، والصوت العالى ، والإهـانات والاندفاعات المفاجئـة على مائدة الافطار أو الغداء ، والتذمر الدائم من حياة الاشغـال الشاقة المقيتة - أليست كل هذه هى سمات الاسـتبداد السمج ؟ ومهمـا دنا شأن المرأة أو كانت خطاياها ، ومهمـا كانـت درجـة قربهـا منـــك فإن هذا لايمنحك الحق فى أن تجلس دون بنطال بحضـورها أو أن تكـون ثملاً بوجودهــا ، أو تتفـوه بكلمات لايستخدمها حتى عمال المصانع حين يقتربون من امرأة ما . لعلّك تعتقد أن الاحتشام والتهذيب هما من سمات الخيلاء والترفع ، ولكن عليك أن تضع لنفسك حدوداً لاتتخطاها - ربما هشاشة الانثى ، أو الأطفال ، أو شاعرية

الحيـاة إن لم يكن قـد تبقى نثر فيهـا . ثم إن الاطفال مخلوقات مـقدسة نقيـة ، وعليـك الا تجعـل منهم العـوبة لتقلبات مـزاجك فتقـبّلهم بحنان لحظة ، ثم تنقلب لترفسهم بأقدامك فى اللحظة التالية . من الأفضل للمرء الا يحب على الاطلاق على أن يحب حباً مستبداً » .

أما نيكولاى ، السكير المحبب إليه ، فقد كان يمثّل مشكلة أكبر . فمنذ وقت طويل كانت الاسرة قلقـة على حالته الصحيـة التى مالبثت أن تردت فجـأة فى شهر آذار / مارس ١٨٨٩ حين أصـيب بالتيفوس . وقـد أسرع تشيخـوف لمعالجته ، ولكنه بعد أن نجـح فى تحقيق الشفاء له من التـيفوس تبين له أنه مصاب بالسلّ . وعندما تأكد من ذلك بعـد استشارة زملائه قرر أن يجرب علاجه بالـراحة ، ولذا توجه إلى قرية لوكا ثانية حـيث استأجر نفس البيت الـريفى من آل لنتفاريوف . أسـعده أن يشـهد الربيع فى ذروة تفتحه هناك - أشجار التفاح والكرز وهى مزهرة وطيور العندليب والوقواق وهى تغرد - كما سرّه أن يجد أصدقائه وقد أسعدهـم لقاؤه .

ولكن هذا الجو المرح لم يطل أمـده ، إذ أن نيكولاى كان يزداد ضعـفاً ومعاناة من الحمّى يوماً بعد يوم بحيث أصبح بعد فترة وجيزة غير قادر على الاسـتلقـاء، وبحيث أخـذ ينام وهو جـالس على مـقـعده . وكـان لابدّ لتشيخوف أن يفكر بحالته هو نفسه وهو يرى شقيقه يذوى أمام عينيه . فقد كان شقيقه ، بمزاجه المتقلب وسرعة غـضبه ، يمثل بالنسبة له صورة مسبقة وهاجـساً خفـياً لما سيؤول إليـه حاله هو نفـسه فى النـهاية . وقد كـتب لألكسندر يقول : « نيكولاى يعانى من حـالة رئوية مزمنة وداء لاشفاء منه تتحسن الحـالة مؤقتاً ثم لاتلبث أن تتردى فى مـواضع ومواضع . والسؤال الفعلى هو ليس « متى سيشفى ؟ بل إلى متى سيستـمر مسار المرضى ؟ » وبعد أسـبوع واحـد كتب لسيفورين يـقول : « رسامى لن يشـفى إذ أنه مصاب بالسلّ . والسؤال الوحيد القائم : إلى متى يستمر الداء » .

حاول تشيخوف أن ينسى عذابه وهو مجبر على ملازمة أخيه بالانغماس بالقراءة . ولقد خيبت آماله قصة « أبلوموف » لجنشاروف . أما جوجول الأكبر من الحياة فهو « متعة خالصة » فى حين أن « الحوارى » للكاتب الفرنسى المعاصر بول بورجيه بدت له « ممتعه وذكية بطريقتها الخاصة ، وإن كانت زائفة ومؤذية » لم يستطع أن يفهم ضرورة الحرب الشعواء الطنانة التى تشنها ضد العقيدة المادية إذ يقول : « حظر الأفكار المادية يعنى فى الواقع منع الإنسان من البحث عن الحقيقة » . فخارج المادة لا توجد تجربة أو ثقافة ، وبالتالى لا توجد حقيقة . ويبدو لى أنه لدى تشريح أية جثة فإن من يؤمن بالمبادئ الروحية ، مهما كانت متأصلة لديه لابد له أن يتساءل عن الموضع الذى تتواجد فيه الروح » .

كان نيكولاى يزداد رقة واستسلاماً مع تضاؤل قوته المستمر . وعلى الرغم من أن تشيخوف كان يعطف عليه من أعماق قلبه غير أنه كان يعانى أشد المعاناة من اضطراره للبقاء إلى جانبه ، وكان يحلم وضميره يؤنبه بتغيير المشهد ، وبفرصة للتخلص من المبصقة والملاءات المتسخة ، ويعترف بذلك فى رسالة إلى الكاتب فلاديمير تيخونوف إذ يقول : « أود أن أهرب إلى باريس لأرى الكون من فوق برج إيفل ، ولكننى مغلول من يدى وقدمى » .

فى منتصف حزيران / يونيو انضم إليه ألكسندر فى لوكا وكان قد سبقه ايفان أيضاً . وبعد أن تأكد من وجود بديل دائم أحس تشيخوف بأن بإمكانه أن يأخذ لنفسه فسحة من الوقت ولذا توجه إلى بولتافا ليقضى أربعة أو خمسة أيام مع أصدقائه آل سماجين . ولكنه صادف عاصفة هوجاء فى الطريق قال عنها إنها عقاب سماوى لأنه أقدم على ترك موقعه . وبعد يوم من وصوله سلمه فلاح برقية مبللة من المدينة تقول : «مات كوليا» وعلى الرغم من أن الخبر لم يكن مفاجأة له إلا أنه أحس

بالصدمة الشديدة ، فتوجه فى الحال وتحت زخات المطر الشديدة إلى أقرب محطة للقطار ، وكانت رحلة العودة الباردة العاصفة شديدة الوطأة عليه ، إذ كان عليه تبديل القطار والانتظار من السابعة مساءً حتى الثانية فجراً ليستقل قطاراً آخر ، فجلس فى إحدى الحدائق وهو يرتعد من البرد حتى عظامه ، وهو يستمع إلى مجموعة من الممثلين وهم يتمرنون على أداء مسرحية ميلودرامية خلف الجدار الذى يستند عليه .

حين وصل إلى لوكا فى النهاية وجد إخوته وقد صعقهم الحزن . وقد كتب الكسندر لأبيه يقول : «إننا مسحوقون والدموع تخنقنا . الكل يبكى فيما عدا أنطون الذى جفت عيناه ، وهذه دلالة سيئة» . أما تشيخوف فقد كتب لبليتشيشيف يقول : «عائلتنا لم تعرف الموت من قبل وهذه أول مرة نرى فيها تابوتاً فى بيتنا» . وعلى الرغم من أنه كان مايزال مرهقاً فقد تولى إنجاز كل الترتيبات اللازمة ، وطبقاً للتقاليد المحلية نقل جثمان نيكولاى إلى كنيسة القرية ومن هناك إلى المقبرة حيث دفن «تحت العشب الذى تنبعث منه رائحة العسل» . وقد كتب تشيخوف إلي أحد أصدقاء نيقولاى المقربين يقول : «مهما كانت له من أخطاء فقد كفر عنها بمعاناته فى أيامه الأخيرة» .

كانت تتقاذف تشيخوف ، وهو يشعر بالهوة التى تركها أخوه ، مشاعر الارتياح الخجل والقنوط العميق . وقد كتب يقول : «شعرت بالبؤس لدرجة أننى لم أعد احتمل الصيف أو المنزل الصيفى أو النهر » . غير أن ضميره لم يسمح له بأن يترك عائلته وهى ما تزال فى الحداد واضطر لتأجيل موعد مغادرته حتى ٢ تموز / يوليو . ولكن ، إلى أين يتوجه ؟ إنه يود أن يهرب ولكنه لايستطيع أن يقرر فى أى اتجاه يمضى : القوقاز . . فرنسا ، النمسا ؟ (كان آل سيفورين قد دعوه إلى فيينا) . وفى النهاية توجه إلى أوديسا حيث كان صديقه الممثل الكسندر لينسكى فى رحلة مع مسرح

مالى . وقد ساعدته مجموعة الممثلين بحياتهم اللاهية التى تصل إلى درجة الطيش فى الوقوف على قـدميه ثانية فى الحقـيقة . فقد أقـام فى غرفة فى فندقهم وكان يسبح بالبحر يومياً ويأكل كميات هائلة من « الآيس كريم » . وبعد أن يحضر العرض كل ليلة يسهر حتى الثانية صباحاً وهو يتحادث مع أصدقائه . وقد أدهش إحدى الممثلات أن ترى رجلاً مثل تشيخوف يرتدى بدلة رمـادية ويتبـاهى بسلوكـه الرفيع ، ومع ذلـك يفصـفص بذور عبـاد الشمس وكـأنه فلاح وضـيع ، ولكنه ما لبث أن سئـم قوقأة حـتى أقرب الدجاجات إلى قلبـه بعد مرور عشرة أيام وقرر متـابعة رحلته إلى يالطا . وقد رافقته مجموعـة الممثلين إلى الزورق الذى سيركبه وأهدته ربطات عنق كهدية وداع .

وما أن وصل إلى يالطا حتى تساءل ما الذى حمله إلى هناك . كان الحر خانقاً والمعجبون يحيطون به من كل جانب ، وقد كتب لبليشيشيف يقول : « أسبح فى الصبـاح وأموت حراً بعد الظهر وأشرب النبـيد فى المساء وأنام فى الليـل . البحر هائل والخـضرة تثير الشفقة والمكان مـلئ باليهود . أقرر أن أغـادر المكـان ولكننى لا أقـوى على ذلك فيـما يبدو ، ولكن لابـدّلى من أن أفعل . ضـميـرى يعذبنى ويخـجلنى بعض الشئ لأننى ألعب دور المترف بينما الامور سيئة فى البيت » .

ولكن الحر والانبـهار بالبحر اللامـتناهى فى اتساعه لم يمنعاه من كـتابة الجزء الأكبـر من قصة غريبـة سمّاها « قصـة كئيبة » . وقـد كتب للكاتب فلاديمير تيخونوف فى موسكو فى ١٣ ايلول / سبتمبر حول القصة يقول : « إنهـا قطعـة ثقيلـة الوزن بحيث يمكنها أن تقتل انسـاناً ، وهذا لا يعود إلى كميـة بـل إلى نوعـيــة صفحاتها . إنها غريبـة وتعوزها الرقة وأتناول فيهـا موضوعاً جـديداً » . وهذا الموضوع الجديد ، كمـا أبلغ رئيس تحرير أنباء الشمال ، هو « الحالة الذهنية الكئـيبة التى لم أستطع أن أتخلص منها

طوال الصيف » . ولكنه حين كتب لسيفورين فإنه يؤكد له أنه لايشارك بطل قصته أيا من الافكار التى يحملها فيقول : « إن قدم لك أحدهم قهوة فلا تحاول أن تبحث عن الجعة فيها . وإذا قدمت لك أفكار البروفسور فعليك أن تكون من الثقة بحيث تمتنع عن البحث عن آراء تشيخوفيه فيها . لا شكراً. ففى القصة كلها ليس هناك إلا رأى واحد أشارك به وهو الرأى الذى يسيطر على صهر الدكتور ، الغشاش « جنيكر » وهو : « إن العجوز يفقد عقله » وفيما عدا ذلك فهو من اختلاقى وابتداعى » .

هنالك الكثير من « الابتداع » بالفعل فى « قصة كئيبة » ، إذ أن البروفسور نيقولاى ستيبانوفيتش ، وهو رجل ذو مكانه مرموقة جداً ولكنه مخدوع جداً ، يختتم حياة نشطة ويتوصل إلى الاستنتاج بأن الحياة التى عاشها حبّه للعلم ، سلوكه تجاه زوجته وابنته ، وازاء القاصر كاتيا التى وضعت تحت وصايته ووجهات نظره ازاءزملائه وطلابه ، وكتاباته ، ونجاحه الظاهرى كلها حياة عديمة المعنى ، وحين يواجه الأدلة على إفلاسه الروحى فإنه يشعر بأنه لم يعد بعد قادراً على مواجهة أولئك الذين يحبهم ، بل إنه يهرب حتى من كاتيا ، أقربهم إلى قلبه ، ليواجه الموت وحيداً فى غرفة فى فندق بقرية خاركوف .

وعلى الرغم من ادعاءات تشيخوف فإن عذاب البروفسور ووحدته يماثلان إلى حد كبير ما كان يعانيه هو نفسه من ضيق فى ذلك الحين . فهو يعانى أيضاً من الافتقار إلى أفكار يستند إليها ، ويعرف تمام المعرفة تفاهة النجاح وضآلة أهميته ، ويتطلع إلى الموت بعين باردة لشخص يؤمن بأن طبيعة الكون ووجود الله أمور لا سبيل لمعرفتها . فوفاة شقيقه المبكرة لم تقربه من الله ، بل أقنعته بأن لا سبيل إلى معرفة المطلق ، وأن قدر الانسان هو فراغ وهوة لا قرار لها .

وقد كان هناك من أجرى مقارنات سلبية بين هذه القصة وقصة تولستوى « موت ايفان ايليتش » والتى كانت قد نشرت قبل ذلك بثلاث سنوات ، خصوصاً وأن بطلى القصتين يواجهان فكرة الموت . إلا أن المجابهة فى قصة تولستوى ، وأن كانت مروّعة بالنسبة للبطل ، إلا أنها تنتهى باكتشاف نور يتجاوز الطبيعة ، فى حين أن بطل قصة تشيخوف لايلقى ما يعيد الطمأنينة إلى نفسه ويجد نفسه مرغماً على مواجهة النهاية المحتومة المظلمة دون أى دعم أو مساندة . وهنا ، شأن أعمالهما الأخرى ، يبدو تشيخوف ، المرتاب ، فى حالة تصادم مع تولستوى ، المؤمن . إلا أنه فى حين كان تشيخوف يتابع حياته بهدوء ووقار على الرغم من عدم ايمانه فإن تولستوى معذّب بإيمانه بحيث أنه يدعو إلى تجنب متع الحياة بهدف إنقاذ الروح .

وكما توقع تشيخوف ، كان موقف النقاد قاسياً إلى حد ما من « قصة كئيبة » . غير أن ميخائيلوفسكى الذائع الصيت والذى ظلّ حتى ذلك الحين رافضاً لقدرات تشيخوف امتدح القصة بقوله : « إذا كانت القصة جميلة وصادقة فإنما يعود ذلك إلى أن الكاتب نفحها عذاباته الخاصة » . أما بليشيشيف فهو يقول فى رسالة إلى تشيخوف فى ٢٧ ايلول / سبتمبر : « لم يسبق لك أن كتبت شيئا بهذه القوة والعمق . فلقد استطعت تجسيد نبرة البروفسور بصورة مذهلة ، بحيث أن الحجج التى تتسم بنبرة ذاتية ، وهى نبرتك أنت ، لا تسيئ للقصة ككل » .

وفيما كانت ردود الفعل على « قصة كئيبة » تتوالى كان تشيخوف يكتب مسرحية بعنوان : « شيطان الغابة » ، وكان ينوى أن يكتبها فى البداية بالاشتراك مع سيفورين . ولكنه قرر فى النهاية الانفراد بها لأن سيفورين كان منغمساً بمشروع آخر . اتخذ تشيخوف فى هذه المسرحية منحى معاكساً لذلك الذى كان قد اتخذه فى مسرحية « ايفانوف » ، حيث

حاول أن يتـجنب كل التحولات الدراماتيكيـة فى الأحداث وكل التطورات المثيـرة والمفاجئـة ، مستبـدلاً الحدث الخارجي بحـدث داخلى . كان يريد الاستحـواذ على الجمهور باللجـوء لعلم النفس وليس بالحركات المسـرحية المثيرة ، وبكلمات أخرى كان يطمح أن يخلق على خشبة المسرح عملاً يدل على البراعة أو الألمعية مثلما فعل على الورق فى « قصة كئيبة » .

كانت المسـرحية جـاهزة فى ٥ تشرين الاول / أكـتوبر ١٨٨٩ وقدمـها تشيخوف للمراقب على الفور ، وبعد ذلك إلى هيئة مسرح ألكسندريسكى فى بطرسـبرج . ولـكن هذه الهيـئـة رفضـتـها « لافـتقـارها للمـؤثرات والوضـعيات والشـخصـيات المثـيرة » ، وقـد قال له لينسكى : « اسـمع نصيحـتى : اكتب قصة ، إذ أنك تحـتقر المسرح والأشكال الدرامـية وليس لديك من الاحترام لهما ما يكفى بحيث تكتب مـسرحية . فكتابة المسرحية أصعب من كتابة القصة ، واسـمح لى أن أقول لك بأن نجاحك قد أفسدك بحيث أنه لا يمكنك أن تدرس المسرح بالدقـة والعمق الكافيين » . وقد أيد رأى لينسكى هذا أيضا الكاتـب المسرحى فلاديمير نيـميروفيـتش - داشينكو الذى قرأ المسرحية أيضا ، ولكنه أضاف بأنه لم يلحظ فيها احتقاراً للمسرح بل افتقاراً للمعلومات عنه .

وعلى الرغم من دهشة تشيخوف لهذا القرار الجائر غير أنه تمالك جأشه وشكر لينسكى لرسالته مؤكداً بأنه لن يكتب للمسرح بعد إلا مقدمات لرفع الستارة . غير أنه كان يكمن وراء هذا التظاهر بالـشجاعة جرح عميق ، إذ كتب لسيفورين رسالة شبّه فيـها قرار هيئة المسرح « بحكم محكمة عسكرية صدر ضده وضد شيطان الغابة » وكان أكـثر ما أغاظه هو إشاعة سرت فى بطرسـبرج تقـول أن أحـد أبطال « شيطان الغـابة » ، وهو « البـروفسـور سربرياكـوف » ما هو إلا صورة كاريكاتورية لسـيفورين ، ولذا فهـو يقول لسيفورين : « يا لـسرورهم لو أنهم يروننى أدسّ لك الزرنيخ فى كوب من

الشاى ، أو إذا تبين أننى جاسوس للدائرة الثالثة (البوليس السياسى) . كل هذه ليست إلا توافه بالتأكيد ولكنها من النوع الذى يمكن أن يهشّم هذا العالم » .

وعلى الرغم من أنه وصل إلى مرحلة فقدان الثقة بالمسرحية غير أنه ما لبث أن أعاد كتابتها على أساس اقتراحات « نيميروفيتش داشينكو » وقدمها إلى مسرح « ابراموف » فى موسكو الذى اتخذ فى النهاية قراراً لصالحها . تمت ليلة الافتتاح فى ٢٧ كانون الاول / ديسمبر ١٨٨٩ ، غير أن النقاد لم يستطيعوا هضم مسرحية تتخذ مساراً معاكساً لقواعد المسرح التقليدية وتدّعى إعادة تمثيل الحياة بكل بذاءتها وتفاهتها ، ولذا أفرغوا كل غضبهم عليها . وقد أدرك تشيخوف مراميهم فوضع مسرحيته فى أحد الأدراج ورفض أن يسمح بنشرها وبعد سنوات أخرجها من ذلك الدرج وحوّلها إلى احدى روائعة ، وهى « الخالة فانيا » .

غير أن موت نيقولاى وسوء استقبال النقاد لقصته « قصة كئيبة » والفشل الذريع لمسرحيته « شيطان الغابة » ، كل هذه العوامل بدأت تؤثر فى قدرته على التكيف والعودة إلى طبيعته . كانت هنالك نقاط مضيئة فى تلك المرحلة - إذا أقام صداقة مع تشايكوفسكى مثلاً - ولكنه بدأ يميل إلى التشاؤم وبغض الجنس البشرى . كان معاصروه مصدراً لخيبة آماله ، خاصة تولستوى .فعلى الرغم من إعجابه بتولستوى كفنان ، إلا أنه لم يستطع تقبله كمفكر . ولقد انتقد آخر أعمال تولستوى وهو « السمفونية الريفية » معبراً عن قناعته بأنها تخوض معركة زائفة ، وكتب فى ذلك إلى بليشيشيف يقول : « هنالك أمر واحد لا أغفره للمؤلف وهو الجرأة التى يتعامل بها مع مواضيع لايفقه من أمرها شيئاً ولا يريد أن يفهمها من باب العناد . مثلاً ، أفكاره حول داء السفلس ، أو بيوت اللقطاء ، أو مقت النساء للاتصال الجنسى كلها أفكار لا تقبل فقط الأخذ والرد بل تنم عن

الجهل من قبل إنسان لم يجشم نفسه فى أى مرحلة من مراحل حياته مشقة قراءة كتابين أو ثلاثة ، كتبها أخصائيون . فتشيخوف ، خلفيته العلمية ، لايستطيع أن يتقبل النضال الذى يخوضه تولستوى بكل عزم وتصميم لإعاقة مسار التقدم وانتشار المعرفة . ولم يكن أكثر تساهلاً إزاء ديستويفسكى حيث كتب لسيفورين يقول : « إن ما يكتبه جيد ، ولكنه طويل جداً ويستهدف لفت الانظار ، بل ومدّع أيضا ! » .

ولم يكن يشعر بالتقارب مع الليبيراليين مشوشى التفكير . كان يحترم الذكاء ولكنه لايثق بالمثقفين ، وفى هذا يقول : « مثقفونا الذين يتصفون بالكسل واللامبالاة والبرود ويبالغون فى التفلسف الكسول دون أن تكون لديهم القدرة على إنتاج صفحة عمل واحدة لها قيمة حقيقة . إنهم أناس تعوزهم الوطنية ، يتصفون بالكآبة ، لا لون لهم ويثملون بعد احتساء كأس واحدة من الشراب ويرتادون بيوت الدعارة التى تبيع خدماتها بخمسين كوبيكاً يتذمرون طوال الوقت ويستنكرون كل شئ ، فالعقل الكسول يجد الرفض أكثر سهولة من الموافقة . يرفضون الزواج وإنجاب الأطفال . . إلخ أرواح كسولة ، عضلات كسولة ، قصور ذاتى وأفكار مهزوزة » .

وفى النهاية أخذ يبدى تذمراً ذاتياً إذ كتب لسيفورين يقول : « إن ما تحتاجه فى هذه الدنيا هو الاتزان ، وأولئك الذين يتمتعون بالاتزان هم وحدهم الذين يستطيعون رؤية الأمور بوضوح ، وأن يكونوا منصفين ، وأن يعملوا . أما أنا فإن النار تتقد فى داخلى بصورة مستوية ، شعلة خاملة ناعسة ، لاتتقد اشتعالاً أو تزأر ، وهذا يفسر لماذا لا أكتب قط خمسين أو ستين صفحة فى ليلة واحدة ، أو أنغمس فى الكتابة بحيث أجبر نفسى على السهر ، ولماذا لا أقدم على عمل يتسم بالغباء الملفت للنظر أو الذكاء الملحوظ . إن ما لدى من العاطفة قليل » . وقد كان عليه أن يردد هذه الكلمات الأخيرة مرة بعد مرة خلال حياته الأدبية .

وبعد أشهر قليلة يقدم لسيفورين صـورة كئيبة عن نفسه إذ يقول : « أود لو أختبئ فى مكان ما لمدة خمس سنوات لأنجـز عملاً جـاداً شـديد الدقة . أحـتـاج لأن أدرس وأتعلم الامـور من نقطة الصـفـر من جـديد لأننى ، ككاتب ، إنسـان جهـول تمامـاً . أحـتـاج لأن أكتـب بضمير يقظ ، بإحسـاسم وذكاء ، وأن لا أكـتب خمس مـلازم فى الشـهر ، بل مـلزمة واحدة كل خمسة شهور » . كما يقول : « سأدخل الثلاثـين من عمـرى فى كانـون الـثانى (يناير) . . . مرحـبـاً بالسن المتقـدمة ولتحـترق هذه الحياة غير المجديـة » .

غـير أن شـعلة اتقـدت فجـأة وسـط ذلك الجـو القـاتم . إذ فى أواخر عام ١٨٨٩ وقعت يد تشـيخوف على بعض الملاحظات التى كان مـيخائيل قد سجلها إبان دورة له فى القانون الجنائى فدمـدم تشيخوف لنفسه قائلاً : « إننا نركز انتباهنا على المجرم قـبل صدور الحكم عليه . ولكنه ما إن يودع السجن حتى ننساه تماماً . ولكن ما الذى يحدث له داخل السجن ؟ ! » . ومنذ تلك اللحظة لم تـعد الفكرة تفـارق ذهنه . مكانه ليس فى مـوسكو وعليه أن ينتزع نفسه من جو الثرثرة والأقـاويل والحياة المبهرجة لينطلق إلى سيـبيريا . عليـه أن يمحو الوجوه التـى ابتدعهـا كتاب يملأ الحـسد قلوبهم ويـواجـه المعانـاة والألـــم . عليـــه أن يتوجـــه إلى جزيرة ساخـالين ، وهى مسـتعمرة روسـية فى المحيط الهادئ إلى الشمال من اليابان استعملت كمركز للعقاب . وكلما كانت الـرحلة تبدو أكثر مشقة ازدادت له إغراء . وهكذا حـدّد لنفسه هدفـاً فى النهايـة وأصبح بإمكانه أن يواجـه المستـقبل باهتمام وكبرياء .

٨ - من ساخالين إلى باريس

بدت خطته سخيفة فى نظر أصدقائه جميعاً ، إذ كيف يمكن لشخص فى مثل حالته الصحية الهشة ، ولانسان عاش لفنه أن يجازف بالقيام برحلة لا ضرورة لها مثل هذه الرحلة ؟ وكان من الأسباب التى أخذ يطرحها لتبرير ما هو مقدم عليه اشمئزازه من المنازعات القائمة فى الأوساط الأدبية ، وحاجته للتغيير ، إضافة لمسؤوليته ككاتب والتى تحتم عليه أن يعيش الواقع الروسى بكل أهواله ، واهتمامه بإمكانية القيام بدراسة علمية تتناول من حكم عليهم بالنفى إلى سيبيريا . وعلى الرغم من الاختلاف البيّن بين هذه الحجج إلا أنها كانت تساند بعضها بعضاً فى ذهنه .

وكان هنالك من يتساءلون فيما إذا كان يهرب إلى الطرف الآخر من العالم للتغلب على مشكلة سببها فشل فى الحب ، وكانت هناك امرأة واحدة على الأقل واثقة من هذا الأمر ، واسمها ليديا أفيلوفا .

فقد ادعت هذه فى مذكراتها بعد ثلاثة وأربعين عاماً من وفاته بأن تشيخوف كان يحبها حباً جنونياً ، وأنه هرب إلى ساخالين يائساً ، ولافتقارها لما يثبت أقوالها اكتفت بعبارات نشوة لا حدود لها وهى تستعيد أحداث تلك الفترة . حين التقت بتشيخوف لأول مرة كانت فى السادسة والعشرين من عمرها ، ومتزوجة من موظف حكومة ، امرأة نحيلة شقراء لها طفل فى الثامنة من عمره أنجبت بعده طفلين آخرين ، وخيال نشط وقلم سيّال . كانت تكتب قصصاً لا حياة فيها وتحلم بأن تشق طريقها إلى عالم الأدب . ولدى التقائها به أول مرة - فى أحد صالونات بطرسبرج - شعرت بأن « شيئاً يتفجر فى داخل روحها » . ولكن هذا الشعور لم يكن متبادلاً فيما هو واضح ، إذ لم يحاول تشيخوف أن يراها مرة أخرى حين

عاد إلى بطرسبـرج فى السنة التالية . وقد كتبت له رسـالة لم يردّ عليها ، وبعد ذلك بثلاث سنوات كتب لها اعتـذاراً هشّاً يقول فيه : « تلقيت منك رسالة مرّة تستفسرين فيها عن الفكرة الكامنة وراء قصة لا قيمة لها سبق لى أن كتبتها . وبما أن معرفتـى بك لـم تكن وثيقة حينذاك كما كنت قد نسيت أن اسمك بعد الـزواج أصبح افيلوفا فقـد رميت الرسالة بعد أن احـتفظت بطابع البريد ، وهـذا ما أفعله عـادة فيما يـتعلق بأية طلبات ، خـاصة إن كانت موجهة من سيدات » .

وإذا كانت هـناك عوامل نابعـة من خيبـة الأمل هى التى أثارت رغـبة تشيخوف فى الفرار فقد كـانت هذه العوامل تتعلق بالأمور المعنوية والأدبية أكثـر مما تتعلق بالقلب : فـإحساسـه بعدم الرضا عن المنـحى الذى اتخذته حياته ولّد لديه شـعوراً قوياً بأن يخلف ما تطحنه الحياة اليـومية وراء ظهره وينسحب من العالـم وينتزع نفسـه ويرمى بها فى أحضان انطلاقة جديدة . ولقد كـتب لسيفورين الذى ظلّ يلـح حتى آخر لحظة محـاولاً أن يثنيه عن هذه المغامرة ، كتب له يقول : « إننى أنطلق فيـما أنا مقدم عليه وأنا أشعر بغاية الاطمـئنان بأن رحلتى لن تسفر عن شئ ذى قيـمة سواء فيمـا يتعلق بالأدب أو العلم . . . أريد أن أكـتب مـائة أو مـائتى صفـحـة على الأقل لأسدّد بعض الدين الذى أحـمله على كاهلى للطب ، والذى سلكت ازاءه سلوك خنزير ، كـمـا تعلم . . . يضـاف إلى ذلك أن الرحلة كـمـا أراها ستعنى ستة أشـهر من الجهد الجسمانى والعقلى المسـتمر ، وهو أمرٌ أجدنى فى أمسّ الحاجـة إليه ، فأنـا من الجنـوب وأرانـى قد ركنت إلى الكسل : علىّ أن أؤدب نفـسى . قد تكون رحلتى تافـهة وتنم عن العناد والخـضوع للنزوات المفـاجئة ، غـير أنـك إن فكـرت بالأمـر قليـلاً لابد لك من أن تدرك بأننى لن أخسـر شيئاً من ورائها فى نهـاية المطاف . . . تقول لى فى رسالتك إنه لايوجد فى ساخالين أى شئ مجد أو يثير الاهتمام . ليس فى

ساخالين شئ مجدٍ أو مهم بالنسبة لمجتمع لاينفى الآلاف من الناس أو ينفق الملايين على مثل هذه الامكنة . وباستثناء استراليا فى الماضى ، وكايين * فى الوقت الحاضر فإن ساخالين هى المكان الوحيد الذى يمكننا أن ندرس فيه كيف يتم استخدام المحكومين لبناءالمستعمرات . . . إن ساخالين هى موضع لعذاب لايطاق ، لعذاب لا طاقة لمخلوق به إلا الانسان ، سواء أكان حراً أو مستعبداً . والناس الذين يعملون حول ذلك الموقع أو فى داخله يحاولون أن يحلّوا مشاكل تنطوى على مسؤوليات مرعبة ، ولكنهم ما زالوا يحاولون . ويؤسفنى أننى لست عاطفياً بحيث أقترح تنظيم رحلات حجيج إلى ساخالين وأماكن مثلها ، تماماً كما يحج الأتراك إلى مكة . بل إن على البحارة والمهتمين بعلم الإجرام أن ينظروا إلى ساخالين تماماً كما ينظر العسكريون إلى سيباشيبوك * *. ويتضح لى من الكتب التى قرأتها حتى الآن أو التى أقرؤها حالياً بأننا قد أغمضنا عيوننا عن الملايين من الناس الذين تعفنوا هناك فى السجن ، وتعفنوا دونما هدف أو تفكير وبصورة بربرية . لقد سقنا الناس وسط الصقيع ، وهم يجرّون السلاسل ليقطعوا عشرات الآلاف من الأميال ، وسمحنا للزهرى بأن يتفشى فى صفوفهم واغرقناهم بالملذات الحسية ودفعناهم لإنجاب مجرمين ، ثم ألقينا اللوم كله على أكتاف آمرى السجون ذوى الانوف المحمرة . أما الآن فإن أوروبا المتحضرة برمتها تعرف أن اللوم يقع على كاهلنا جميعاً وليس على كاهل آمرى السجون هؤلاء ، ومع ذلك فإننا مازلنا ننظر إلى الأمر وكأنه لايعنينا ، وفترة الستينات التى نمجدها ونصل بها إلى أعلى السماوات (فترة الإصلاحات) لم تفعل شيئاً للمرضى والمساجين ، وبذلك خرقت الوصية الأساسية من الوصايا المسيحية . وعلى الرغم من أننا قدمنا أشياء قليلة للمرضى فى الفترة الأخيرة ، غير أننا لم

* مدينة ساحلية فى غيانا الفرنسية بشمال أميركا الجنوبية .

* * ميناء فى روسيا فى الجنوب الغربى من شبه جزيرة القرم على البحر الاسود .

نقدم للسجناءشيئاً قط وكأن إدارة السجون لاتعنى شيئاً لمشرعينا قط كلا . . إنني أؤكد لك أن لساخالين أهمية وجدوى ، وكل ما يؤسفنى أننى أنا الذى سيذهب وليس شخصاً آخر أكثر معرفة بالمشكلات القائمة هناك وأكثر قدرة على إثارة الاهتمام العام بالموضوع . أمـا أنا فإننى أذهب إلى هناك مستنداً لذريعة واهية . » .

وما أن قرر تشـيخوف أن يجرى دراسة منهـجيـة حـول المحكومـين فى ساخالين حتى بدأ محاولة جادة للـحصول على مختلف المراجع الخاصة بهـذا الموضـوع . وأخذت ماريا وصـديقـاتهـا يقضـين السـاعات الطـوال فى مكتبـة « روميـا نتسيف » وهـن ينسخن فقـرات أسـاسية من المراجع التى طلبهـا تشيخوف منهن ، كـما تولى ألكسندر البحث فى المجـموعات الصـحفـية فى بطـرسبـرج . وبعد أن امـتلأ رأسـه بكل تلك المعلومـات والاحصـائيات أصبح تشـيخوف يعـتبر نـفسه عـالماً جغرافـياً وجيـولوچيا وأخصائياً فى علم المناخ والأعراق البشـرية أكثر مما هو كاتب ، وأخذ يعلن أنه يعانى من داء جديد اسمه « هوس ساخالين » .

ومع ذلك وجد متسعاً من الوقت لنشر كتابه السابع « المكتئبون » والذى أهـداه إلى تشايكوفـسكى ، ولإرسال قصـة طويلة بعض الشئ لسيـفورين بعنـوان : « الشيـاطـين » (أعطاها فيـما بعد عـنوان « اللصوص ») ، وهى تدور حول لصّين مقدامـين حاذقين يسرقان الخيول ويخدعـان مساعداً طبياً غبياً متفاخراً . وحين ألمح سيفورين بصورة عابرة إلى أن تشيخوف لم يكن قاسياً بما فـيه الكفاية على اللصين كانت إجابة تشيـخوف تتسم بالحدّة مؤكـداً بأن على الكاتب ألا يبدى تحيزاً فى معالجتـه لشـخصياته فيقول : « إنك تؤنبنى لموضوعيتى معتبراً ذلك بمثابة لامبالاة من جانبى لعناصر الخير والشر . وتشير إلى غيـاب المثل العليا والأفكار وما إلى ذلك من الأمور . تريدنى أن أعلن لدى وصفى لصوص الخيل بأن سرقة الخيول عمل شرير ، غير أن أحداً لا يحتاج لقـولى هذا ، فالقضاة هم الذين يصدرون الأحكام

على لصوص الخيل أما أنا فمهمتى هى أن أصورهم كما هم بكل بساطة . بهذا الاسلوب أكتب : إذا تعاملت مع لصوص الخيل فعليك أن تدرك أنهم ليسوا متسولين ، ولديهم من الطعام كمية وافرة ، وما يفعلونه إنما يعتبرونه عملاً يثير الإعجاب . فسرقة الخيول فى نظرهم تسمو فوق مستوى اللصوصية الرخيصة وتمثل هواية بالنسبة لهم . لاشك بأن الجمع بين الفن والوعظ أمر رائع ، ولكننى شخصياً أجد ذلك أمراً فى غاية الصعوبة ، بل قد يكون مستحيلاً لأسباب فنية . وإذا كان علىّ أن أصف لصوصى فى سبعمائة سطر فإن علىّ أن أتكلم وأفكر كما يفعلون ، واشعر كما يشعرون . أما إن أضفت إلى ذلك ذرة واحدة من شعورى الذاتى فإن الصور تتهاوى وتفقد القصة كل الصلابة التى تتطلبها قصة بهذا الطول . إننى حين أكتب إنما أعتمد على القارئ مفترضا بأنه هو الذى سيوفر العناصر الذاتية المفقودة فى القصة ذاتها » .

أما سيفورين ، فسواء اقتنع أم لم يقتنع بوجهة نظر تشيخوف حول ضرورة الموضوعية الخلاقة فإنه لم يكن قط مقتنعاً بمغامرة تشيخوف بشأن ساخالين . ومع ذلك أبدى كرماً فى المساعدة ، إذ استضافه لدى قدومه إلى بطرسبرج لاستكمال الإجراءات الأولية للرحلة ، وزوّده ببطاقة صحفية من « الأزمنة الحديثة » وقدمه لأصدقائه المتنفذين فى السلطة . وكان أعلى مسؤول قابله تشيخوف فى رحلته تلك هو جالكينفراسكى مدير مصلحة السجون ، وقد استقبله هذا بترحاب وأبدى اهتماماً بالمشروع ، وإن كان قد امتنع عن تقديم المشورة أو خطابات التوصية له ، وما حرص عليه حال مغادرة تشيخوف لباب مكتبه هو أن يكتب مذكرة لمدير السجون فى ساخالين بمنع تشيخوف من مقابلة المساجين السياسيين .

عاد تشيخوف إلى موسكو فى وقت عمت فيه موجة أخرى من مظاهرات الطلبة للمطالبة باستقلال الجامعة والسماح لليهود بدخولها دون قيود وإلغاء رقابة الشرطة . وقد شهدت تلك الفترة مهرجانات عاصفة

ومواجهات مع القوزاق واعتقالات تعسفية . تابع تشيخوف تلك الأحداث باهتمام وإن لم يظهر تعاطفاً علنيا مع المضربين ، ويبدو أن موقفه هذه المرة أيضا كان مشابهاً لما كان عليه حين كان طالباً ، وهو أن على الطلاب أن يلتفتوا إلى التعليم أكثر من الأمور العامة .

ومع اقتراب موعد رحيله - حيث كان قد قرر الرحيل فى الربيع بحيث تكون أنهار سيبيريا قد بدأت فى الذوبان - أخذ يقدّم جرداً صارماً لما يتبنّاه من أفكار تتعلق بحياته وأعماله ؟ إذ ظلّ يردد بأن على الكاتب ألا يصب مواعظه على رؤوس قرائه ، فهو انسان شأن الناس الآخرين ، وإن كانت سمته الأساسية هى ألا يكون معادياً لأى انسان آخر . ولقد كتب لليونتيف شيشيجلوف يقول : « إذا كان بإمكانى أن أثق بنقاء ضميرى يمكننى القول بأننى لم أضمر قط ، سوء فى القول أو العمل أو الفكر ، وفى أى من أقاصيصى ومسرحياتى ، مشاعر الحسد لجارى فيما يخص زوجته أو خادمه أو ثوره أو أياً من ماشيته ، كما أننى لم أسرق أو أنافق أو أتزلف للأقوياء أو أسعى لأى منفعة منهم ، ولم أعمد قط للابتزاز أو العيش على حساب الآخرين . وإننى وإن كنت قد بددت حياتى بالكسل والخمول ، وضحكت بغباء وعمدت إلى الشراهة والنهم وانغمست فى السكر والفسوق ، فإن هذه الامور كلها إنما تتعلق بحياتى الشخصية وليس من شأنها أن تحرمنى من حق الاعتقاد بأننى ، من الزوايا المتعلقة بالاخلاص ، لا أزيد أو أنقص عن الناس العاديين . ولست أجدنى أتميز عنهم بأية أعمال فذة أو أعمال شائنة ، بل إننى مثل الغالبية الساحقة من الناس » .

وبعد فترة قصيرة من هذا الاعتراف قرأ تشيخوف فى مجلة « الفكر الروسى » الأدبية مقالة عنيفة تصفه بأنه « كاتب لا مبادئ له » ، كتبه رئيس تحرير المجلة « فوكول لافروف » . وتشيخوف الذى اعتاد أن يدير

خدّه الآخر دائماً أشعل مقال لافـروف غضبه هذه المرة بحيث لم يستطع أن يرد بهجوم مقابل إذ قال : « لست ممن يردون على النقد فى العادة ، وكل ما فى الأمر فى هذه الحـالة ليس نقداً بل تشهيراً صريحـاً وواضحاً . وربما كنت أتغـاضى حتى عن التـشهيـر ، ولكننى بما أننى سـأغادر روسـيا فى غـضون أيام قليلة ولفـترة مطولـة ، فى رحلة قد لا أعـود منها ، فـإننى أجدنى لا أملك من القوة ما يمكننى من الامتناع عن الرد . لم أكن فى يوم من الأيام كاتباً لا مبدأ له ، أو بعـبارة أخرى ، ما يمكن أن يسمّى نذلاً . . لقد كـتبت بالفعل أقاصـيص ومقالات يسرنى أن تلقى فى سلة المـهملات لتفاهتهـا ، غير أننى لم أكتب قط سطراً واحداً فيـه ما يخجلنى الآن . . . لقد عشت حـتى الآن حياة منعزلة وحبست نفـسى بين جدران أربعة . . . وحرصت دوماً على أن أتجنـب حفلات « السوارية » الأدبية والاحـتفالات والمؤتمرات ومـا إليهـا ، ولم أدلف يومـاً إلى أى من مكاتب التحـرير دون دعوة ، وجاهدت دائماً لكى أحمل أصدقائى على اعـتبارى طبيباً فى المقام الأول أكثر من كونى كاتباً . وباختصـار ، كنت كاتباً متواضعاً ، والرسالة التى أكتبها لك الآن هى العمل الوحيد غير المؤدب الذى ارتكبته طوال عشر سنوات منذ أن أصبحت كاتباً . . . ومن البديهى بعد اتهاماتك لى أن أعتبر كل صلة مهنية ، بل واجتماعية مستحيلة تماماً فيما بيننا » .

وما أن استـراح مـن هذا العبء الذى كان يثـقل على ذهنه حتـى عاد لاستكمال ترتيبات سفره ، وأخذ يـستهزئ بمخاوف أصدقائه حول الأخطار التى سيواجهـها ، مدعياً أن أقصى ما يقلـقه هو الألم الذى لازمه فى أحد أضراسـه فى الأيام الأخيرة . ولكنه كـتب لسيفورين قـائلاً : « إن حدث وغرقت أو أصابنى مكروه فـأرجو أن تتذكر بأن كل ما لدى أو مـا يستحق لى فى المستقبل سيؤول لشقيـقتى ، فهى التى ستتولى دفع ديونى » . وبعد ذلك حزم الحقيبة الجلدية الثقيلة التى أعطاه اياها شـقيقه ميخائيل ، وملأها

بكل ما يسّهل عليه القيام بدور مستكشف سيبيريا الأمثل : وضع فيها معطفاً من فراء الغنم ، ومعطفاً ثقيلاً لايتسرب منه الماء ، وجزمة طويلة ، ومسدساً ، وسكيناً طويلة لتقطيع النقانق والنمور المهاجمة » . كما استجاب سيفورين لطلبه بإقراضه ١٥٠٠ روبل كدفعة مقدمة للمقاولات التى سيكتبها اللأزمنة الحديثة كانطباعات عن الرحلة .

تحدد يوم ٢١ نيسان / ابريل ١٨٩٠ موعداً لسفره ، وفى تلك الليلة ودعته العائلة برمتها والعديد من الأصدقاء فى محطة ياروسلافل فى موسكو . وكان الجميع يتبادلون الحديث بعصبية فى غرفة الانتظار محاولين إخفاء حزنهم . وقدم له الدكتور كوفشينيكوف « مطرة » كونياك من النوع الذى يحمله المسافرون بعد أن استحلفه بألا يحتسى قطرة واحدة منها قبل وصوله إلى المحيط الهادئ . انهمرت الدموع من عينِ أمه وأخته . أما ليكا ميزينوفا فكانت تجاهد للابقاء على ابتسامتها ، وكانَ تشيخوف قد أهداها صورة له ذلك الصباح كتب عليها اهداء يقول : « إلى المخلوقة الساحرة التى اضطرتنى للهروب إلى ساخالين » . وقرر كل من إيفان ولتفيان وأولجا كونداسوفا ، الفلكية المندفعة التى ظلت تحب تشيخوف محتفظة بسرّ هذا الحب لنفسها ، قرروا أن يستقلوا القطار ويرافقوه إلى سيرجيفو ، وهى قرية على بعد ستة وستين فرسخاً من موسكو . وكان خط سير تشيخوف كما يلى: موسكو إلى ياروسلافل بالقطار ، ثم إلى بيرم بالقارب (عبر نهرى الفولجا والكاما *) ومن بيرم إلى تايومن بالقطار ، ومن ثم إلى بحيرة بيكال إلى المحيط الهادئ بالقارب وعربة التارنتاس . رحلة شاقة قد تحطم عظام أعتى الرحالة بأساً ، يقطع فيها عشرة آلاف فرسخ تقريباً ، أربعة آلاف منها بعربة غريبة أفضل قليلاً من عربات نقل الأحمال .

* نهر الكاما فى شرقى روسيا يجرى باتجاه الجنوب الغربى ليصب فى نهر الفولغا جنوبى قاران ويبلغ طوله ١٢٠٠ ميل .

وجد تشيخوف فى رحلته على الزورق من ياروسلافل إلى بيرم نوعاً من الدعة ، أو قل حالة ينعدم فيها أى من الفرح أو الاكتئاب . فالريف كان رتيباً بحيث شعر وكأن روحه تسبح فى « سائل هلامى » : « حين تهب ريح باردة فتتماوج مياه النهر التى تلونت بلون حثالة القهوة بفعل فيضانات الربيع . أحس بالصقيع والملل والاكتئاب تنخر فى عظامى ، أصوات عازفى الاكورديون على الشاطئ لها نغم حزين ، بينما الشخوص المصفوفة بلا حراك على ظهر زوارق نقل البضائع تبدو متبلدة بفعل حزن لانهائى وهى تلتف بفروات جلد الغنم الممزقة . والمدن على طول نهر الكاما تبدو رمادية وكأنما سكانها منشغلون بصنع الغيوم الرمادية والملل والاسيجة الرطبة والطين الذى يملأ الشوارع » . غير أنه سعدَ بصحبة مدع عام كان من بين الركاب وبقراءة « عند الغسق » التى استعارها من مكتبة السفينة وناقشها مع صحبه .

استقل القطار من بيرم إلى نيكاترينبيرج حيث استأجر غرفة فى فندق «أميركا» إذ كان بحاجة لإراحة جسمه الذى « أرهقه السعال والبواسير » . وما أن شعر بأنه أحسن حالاً حتى استقل القطاع إلى تايومن ، وهى نهاية خط السكة الحديدية إذ أن خط السكة الحديدية عبر سيبيريا لم يكن قد أنشئ بعد . وهناك وفى الثالث من أيار / مايو وقعت عيناه لأول مرة على سهول سيبيريا .

فى المرحلة التالية من رحلته تقدم عبر سهول سيبيريا حتى « تومسك » فى عربة تارانتاس (أو كما سماها تشيخوف « سلة الخيزران ») يجرها حصانان ويقودها سائق عجوز . وقد تخيل نفسه وهو محصور داخل العربة وكأنه عصفور محبوس فى قفص يحدق بانشداه إلى العالم الخارجى

كانت الامطار السيبيرية الغزيرة قد بدأت تنهمر ، وأخذ نهر ايريتش يفيض على الجانبين بحيث أغرق الطريق . وكان على سائق العربة وراكبها أن يترجّلا مرة بعد أخرى ليسحبا العربة من وسط برك الوحل الوافرة .

من وراء قضبان قفصه . الريح الصقيعية تلفح خديه وهو يرتجف من البرد في داخل معطفه الجلدى الضخم . كان يرتدى سروالين أحدهما فوق الآخر لتدفئة ساقيه ، وكل ارتجاجة من ارتجاجات العربة تصعد إلى أسفل ظهره . وقد كتب لأخته يقول : « نسير ونسير وعلامات الطريق وبرك الماء وأشجار البتولا تلوح إلى جانبنا . . تجاوزنا لتوّنا مجموعة من المستوطنين ثم مجموعة من المحكومين . . التقينا بمسافرين يمشون على الأقدام وقد حملوا زادهم القليل على ظهورهم وهم يتمشون دون أن يعترضهم أى عائق على طول الطريق السيبيرى ، ولا يتورعون عن جزّ عنق عجوز طاعنة فى السن لمجرد استخدام قماش تنورتها لفائف لأقدامهم ، أو عن انتزاع علامات الطرق المصنوعة من التنك علّهم يستخدمونها لغرض ما فى وقت ما ، لسحق رأس متسوّل متجول أو لقلع عينى منفى مثلهم ، وإن كانوا لايمسّون المسافرين العاديين قط » .

كان يتساءل فيما بينه وبين نفسه وقد ارهقته ارتجاجات الطريق وأصمّته أصوات الاجراس الرتيبة للعربة فيما إذا كان سيتمكن من الوصول بالرحلة حتى نهايتها . استمر هذا العذاب اثنى عشر يوماً ، وإن كان قد بدأ يحسّ منذ اليوم الثالث بألم موجع بحيث أنه كان لايقوى على رفع ظهره أو التمدد لدى مغادرته العربة . غير أن جسده مالبث أن اعتاد على العناد الوحشى للطريق واختفت نوبات الصداع والبواسير ولحظات النفث الدموى .

وفى صباح أحد الايام اصطدمت عربته بعربة بريد ضخمة فارتمى على أرض العربة وتكومت فوق رأسه كل الامتعة التى تحملها . وحين تمالك نفسه ونهض أدهشه أنه لم يصب بأى خدش ، وإن كانت الالواح الرئيسية للعربة قد تحطمت . صبّ سائقا العربتين أقذع السباب أحدهما على الآخر ثم رقّعت « سلة الخيزران » بطريقة ما باستعمال القليل من الأربطة ومضت فى طريقها إلى نقطة التوقف التالية .

ذهل تشيخوف لتعدد الاجناس البشرية لسكان القرى التى كانوا يتوقفون فيها ، إذ ما أن ينهى المحكومون من الروس والاوكرانيين والتتر والبولونيين واليهود فترات محكومياتهم حتى يستوطنوا هذه القرى ويتعايشوا فيها كفلاحين بسلام ووئام . بل كانوا يبدون وكأنهم أكثر تحضراً من الناس على الجانب الآخر من جبال الاورال ، ويقول فى ذلك فى إحدى رسائله : «حين تدخل غرفة فيها أناس نائمون فإنك لاتشم رائحة السمك الروسية . وعلى الرغم من أن عجوزاً قدمت لى ملعقة شاى بعد أن مسحتها بظهر ثوبها إلا أنهم لايسمحون لأنفسهم بأن يدعوك لمائدة شاى لايغطيها غطاء ، ولايتجشأون أو يفتشون عن القمل فى رؤوسهم وأنت بينهم ، وحين يقدمون لك الماء أو الحليب يحرصون على ألاّ يغمسوا أصابعهم فى الكأس ! » .

وعلى الرغم من أن الخبز والفطائر كانت لذيذة إلا أن أنواع الأطعمة الأخرى لم تكن ملائمة للمعدة الأوروبية . وكان مضيفوه يقدمون له باستمرار الطبق المألوف فى المنطقة ، وهو حساء البط المكون من مرق مؤذ للصحة تسبح فيه قطع من لحم الدجاج البرى والبصل النئ . « طلبت مرة حساء اللحم وسمكاً نهرياً مقلياً . كان الحساء وسخاً ومالحاً تسبح فيه جلود قاسية بدلاً من اللحم . أما السمك فلم تنزع منه حراشفه ، والشاى ليس أفضل حالاً ، بل هو مزيج من الأعشاب والصراصير ، أو هذا ما يوحى به طعمه على الأقل » .

صاحبت الامطار الغزيرة الباردة تشيخوف حتى « تومسك » التى وصلها مجهداً فى ١٥ أيار / مايو واستراح فيها لمدة اسبوع كتب خلاله خمس مقالات قصيرة حول مشاهداته للأزمنة الحديثة . بدت له المنطقة غير ممتعة ، مليئة بالسكارى وخالية من النساء الجميلات . وقد حاول تجنب

مقابلة مثقفى المنطقة ، وإن كان لم يستطيع تجنب نائب رئيس الشرطة الذى أصرّ على أن يقرأ له إحدى قصصه وأن يصطحبه في جولة فى المنطقة الحمراء . وقد كتب لسيفورين يقول : « إننى عائد لتوّى من المبغى . أمر يدعو إلى الاشمئزاز . الساعة الآن الثانية فجراً » . انتهز فرصة وجوده فى تومسك ليستبدل حقيبة ميخائيل التى كانت قد تمزقت بأخرى كبيرة لينة مصنوعة من الجلد . وبعد أن سئم من « سلة الخيزران » ابتاع لنفسه عربة خفيفة بمبلغ ١٣٠ روبلاً على أن يبيعها ثانية فى نهاية الرحلة . وبوسيلة الركوب الجديدة غادر تومسك فى ٢١ أيار / مايوإلى إركوتسك التى تبعد مسافة ١٥٠٠ فرسخ ، ورافقه فى الرحلة ضابطان ملازمان وطبيب عسكرى كانوا يستقلون عربة خاصة بهم . كان الطريق عبارة عن أخدود من الوحل تنغرس فيه عجلات العربة وكأنها « المربى السميك » . ووعورة الطريق تكسر محور العربة وألواحها مرة بعد مرة مما اضطره لصرف مبالغ لايستهان بها لإصلاح العربة كلما توقفت . كتب لعائلته يقول : « أدفع أكثر مما يجب ، أتصرف دون تبصّر ، وأتفوه بأقوال خاطئة وأمضى أنتظر ما لا يأتى على الإطلاق » . وكان يحدث أن تحول الأعطال فى العربة دون تحركها أثناء الطريق فيتوقف فى العراء فى ظروف طقس مريعة أو يمشى مجهداً إلى مركز تبديل خيول البريد التالى مهما كان بعيداً ، فيصل والألم يعتصر عضلات ساقيه والوحل يغطى ثيابه وينهار على مرتبة غير مريحة على الإطلاق ويغرق فى نوم عميق وقد هدّه التعب والهواء النقى .

وبعد كراسنويارسك استسلم السهل أمام غابات الصنوبر السيبيرية التى تمتد أمام ناظريه دون حدود . وكان تشيخوف يأمل أن تصل الغابة إلى نهايتها بعد أن يجتاز التلة القادمة ، ولكنه لايجد أمامه إلا موجة وراء

موجة من غابات الصنوبر وأشجار البـتولا النحيلة وأشجار التنوب ممتدة على مدى البـصر . وقد كـتب فى « مذكرات سـيبيـرية » يقول : « تحسّ بأنك لن تخرج من بطـن هذا الوحش الأرضى » . أما الطقس فقـد تحوّل من البرد والمطر إلـى الحرارة القاتلة والغـبار الذى يتغلغـل إلى داخل حلقة وأنفه وعنقـه وجيوبـه . ولكن هذا لم يفتّ فى عضده إذ كـتـب للايكن يقول : « رأيت الكثير وخضت تجارب كثيـرة ، كلها مثيرة وجديدة بالنسبة لى ، ليس لتشـيخوف الكاتـب ، بل الإنسان . نهر النيـيسى * ، غابات الصنوبر ، مراكز تبديل خيول البريد ، سائقـو العربات ، الطبيعة الوحشية والحيـوانات المفتـرسة ، العذابات الجـسدية الناجـمة عن مـشاق الطريق ، السعـادة التى تجدهـا فى الراحـــة بعـد العنـاء . . كل هذا فى مـجمله رائع إلى درجة لا توصف » .

وحين وصل فى النهاية ، فى ٤ حزيران / يونيو إلى إركوتسك انغمس فى مبـاهج الحضارة بفـرح غامر : حمـام بخار ، سرير مـريح ، ملابس نظيفة ، نزهة فى مدينة ودودة لهـا مسرحها وحديقتهـا العامة ذات الممرات الرملية المنظمة التى تحف بها الأشجـار من الجانبين ، ومسرح لفرق العزف الموسيقيـة . وما لبث أن أبلغ العائلة بآخر أخبار مـغامراته ، ولم ينس أن يتسـاءل فى نفس الوقت عن آخـر ما لديهم من أخـبار . . هل تهـتم أمه بساقها التى تؤلمها كما وعـدته ؟ هل وقع ميخائيل فى حبائل الحب ؟ كيف حال الخالة فيدوسيا وابنها ؟ كما طلب إقامة قداس على روح أخيه نيقولاى بمناسبة عيد ميـلاده فى ١٧ حزيران / يونيو ، وحفل تكريم لوالده بمناسبة يوم تسميتـه . ثم أخذ يمازح فى موضوع حبه لليكامـيزينوفا قائلاً بأنه رآها فى المنام فى إحدى الليالى ، مضـيفاً بأنها تعتبر فى الحقيـقة ملكة بالقياس لنســاء سيبيريا اللاتـــى لايعـرفن كيف يلبسن أو يغنين أو يضحكن . . .

* نهر فى روسيا يجرى شمالاً ويصب فى المحيط المتجمد الشمالى .

بل هنّ مثل السمك المثلج ، وعليك أن تكون كالحيوانات القطبية مثل الفقمة لكى تستطيع التعامل معهن . . . » .

باع عربته فى إركوتسك متكبداً خسارة فيها - إذ كانت قد عطبت - وسافر مع الضباط الثلاثة فى عربتهم ، ولكنه سرعان ما ندم على ذلك إذ أنهم كانوا طوال الطريق إما يغنون أو يتحدثون عن النساء . أما بالنسبة له فقد كان جمال الريف هو سلواه الوحيدة وقد أذهلته بحيرة بيكال التى يمكن أن تعتبر بحراً تحيط به اليابسة أكثر من كونها بحيرة . وقد كتب عنها يقول : « إنها كالمرآة . . لاتستطيع أن ترى الشاطئ الآخر بالطبع فهو يبعد مسافة تسعين فرسخاً ، وشواطئ البحيرة عالية ومنحدرة وصخرية ومليئة بالغابات . . . إنّها تشبه القرم » . غير أنه كان عليهم أن ينتظروا ثلاثة أيام للأسف حتى قدوم الزورق ، وقد أقام فى غرفة كأنها السقيفة حيث كان فريسة للذباب والصراصير واقتصر طعامه على جريش الحنطة السوداء والفودكا السيئة . أما النوم فهو يبعث على الاشمئزاز « إننى أنشر سترتى على الأرض كل مساء واضعاً الفراء فى الجانب الأعلى وأضع معطفى المتجعد وسادة تحت رأسى وأغط فى النوم فوق أحد متاريس السفينة مرتدياً بنطالى وسترتى . . أيتها الحضارة ، أين أنت ؟ . . » .

عبروا البحيرة على متن زورق صغير يسير بالمجاديف . وقد سحرت تشيخوف وهو يطل من حافة الزورق المياه الشفافة الفيروزية التى يرى الأعمق من خلالها بما فيها الصخور والنباتات المائية . ولكنه سرعان ما وجد نفسه يصارع الطريق البرى مرة أخرى ، وإن كانت الغابات والسهول والتلال لا تنقطع هذه المرة وعربة الضباط تسير بيسر وسهولة ، واستبدال الخيول فى محطات تبديل الخيل يتم بسرعة ، وسائق العربة الذى يجزلون له العطاء يمضى بخطى سريعة . وصلوا إلى سيرتنسك فى ٢٠ جزيران / يونيو قبل انطلاق مركبهم « يرماك » بساعة واحدة

تقريباً ، وبذلك كان قد قطع القسم البرى الاكثر مشقة فى رحلته حيث يقول فى رسالة لوالديه : « فلييسّر الله لكل امرئ رحلة ميمونة كما يسّر لى ، إذ لم أصب بالمرض ولا مرة واحدة ، ولم أفقد أياً من المتاع الذى أحمله اللهم الأ موسى صغيرة ورباطاً لحزم الحقيبة ومرطباً من زيت الكربوليك . نقودى سليمة ولله الحمد ، والقلائل من الناس يمكنهم أن يقطعوا مسافات تعد بآلاف الفراسخ كما فعلت . لقد اعتدت على السفر على الطرقات بحيث أننى أشعر بالاستغراب ولا أصدق نفسى بأننى لا أركب عربة تارانتاس ولا أسمع رنين الاجراس المتواصل . . . استغرب أن أتمكن من التمدد على السرير بحيث أفرد ساقىّ بكامل طولهما دون أن يكون وجهى معفراً بالتراب » .

وليضمن أن ينفرد ابتاع تذكرة للدرجة الاولى على متن السفينة «يرماك» فقد سئم الضباط الثلاثة وهذرهم الذى لاينقطع ، وقد استدانوا منه أيضاً ١٥٠ روبلاً ولم يكن يبدو عليهم بأنهم ينوون ردّ ما استدانوه . انفرد «بكابينة» وحده وهو يأمل أن يتمكن من كتابة عدة مقالات للأزمنة الحديثة ، ولكن المركب كان يرتج « وكأنه يعانى من الحمى » . ولذا تخلى عن فكرة الكتابة مكتفياً بالجلوس والاستمتاع بالمناظر الطبيعية وهى تمر امام ناظريه ببطء . وقد كتب لبليشيشيف يقول : « رائع . . . السفر السيبيرى لا يبدأ إلا بعد بحيرة بيكال ، أما قبل بيكال فكله نثر » . وازداد حماساً بعد أن غادر المركب نهر شيلكا إلى نهر الآمور * . وبالاستعانه بالمنظار كان يحدث بالشواطئ غير المأهولة بحثاً عن طيور مالك الحزين وكل الطيور الأخرى اللعينة ذات المناقير الطويلة » . وحين يتوقف الزورق يزور قرى على الجانبين الروسى والصينى من النهر . وكان اكتشاف الذهب فى المنطقة

* نهران فى أقصى شرق روسيا ، ويتكون نهر الآمور من التقاء نهر شيلكا وآرغون ويصب فى المحيط الهادئ مكوناً جزءاً من الحدود بين روسيا والصين .

فى الآونة الأخيرة قد أصاب السكان بالهوس بحيث أن الجميع ، بما فى ذلك المبعدون والفلاحون ، بل وحتى القساوسة لم يكونوا يفكرون بغير البحث عن الذهب . وأولئك الذين أثروا لم يكونوا يشربون إلا الشمبانيا، كما يقول تشيخوف ، وكانوا يجمعون مبالغ مذهلة من المال ثم ما يلبثون أن يخسروها على موائد القمار على الفور . كانت الحرية الكاملة سيدة الموقف فلم يكن هناك من يلتزم بالصوم طبقاً للشعائر الارثوذوكسية ، والنساء يدخنّ والناس يعبرون عن أفكارهم بكل حرية دونما خوف من الجواسيس . ولا يمكنك أن تجد قبطاناً لأى سفينة من سفن نهر الآمور يمكن أن يفكر بتسليم محكوم هارب إلى السلطات . وقد كتب تشيخوف لسيفورين يقول : « لقد وقعت فى حب الآمور وسيكون من دواعى سعادتى الغامرة أن أستطيع الإقامة هنا عاماً أو عامين ، فالمنطقة جميلة وفسيحة وحرة ودافئة . بل إن سويسرا وفرنسا لم تعرفا قط مثل هذه الحرية ، وأدنى محكوم شأناً فى منطقة الآمور يتنفس بحرية أكبر مما يفعل أرفع جنرال رتبة فى روسيا» .

وفى التاسع من تموز / يوليو . وبعد أن بدّل السفينة مرتين مرّ عبر ممر التتار (الذى يفصل جزيرة ساخالين عن قارة آسيا) ، وأخذ يرقب ساحل جزيرة ساخالين « بفرح وفخر » وهو يلوح له عن بعد . وبعد يومين ألقت السفينة مراسيها فى ألكسندروفيسك ، العاصمة الإدارية للجزيرة ومركز نظام العقوبات فيها . وقد حطّ تشيخوف الرحال على الفور - مع مجموعة من المحكومين وصلوا إلى الجزيرة فى نفس الوقت - ووجد له مسكناً مع زميل فى مهنة الطب .

كانت ألكسندروفيسك بلدة كئيبة نظيفة وساكنة يقطنها حوالى ثلاثة آلاف نسمة . الصوت الوحيدالذى تسمعه فى الشوارع هو صليل سلاسل

السجناء وهم فى طريقهم إلى العمل أو العـودة منه . وكانت فى ساخالين خمس مستعمرات سجون . وحين ينهى المحكوم فترة محكوميته يجبر على البقاء فى ساخـالين كمستوطن ، ويسمح للزوجـات اللاتى تبعن أزواجهن إلى المنفى بالإقامة معهم . كانت هذه هى المـعلومات التى تلقاها تشيخوف من الجنرال كونونوفيـتش الحاكم العسكرى لألكسندروفيسك الذى اسـتقبله استقبالاً حاراً للغاية . وقد وعد كونونوفـيتش بمساعدته فيما سيقوم به من أبحاث وبإطلاعـه على أرشيف السجـون وبعد أيام معدودة سـمح البارون كورف الحاكم العام لمنطقـة الآمور لتشيخوف بأن يتجـول بحرية فى المنطقة برمتـها وبالاطلاع على الوثائـق الرسميـة وبتوجـيه أسئلتـه إلى المحكومين جميـعاً باستثناء السجنـاء السياسيين . وكان هذا يفـاخر بما يسميه مـشاعر انسانية إزاء أولئك الذين يصـفهم « بالبؤساء المساكين » ، مدعـياً بأن حياة المحكومين فى ساخـالين أكثر سـهولة ويسراً من أقـرانهم فى أى مكان من روسـيـا أو حـتى فى أوروبا ، إذ أن أياً منهـم ، على حـد قـوله ، ليس محروماً من الأمل فى استعادة حقوقه كاملة ، وليس هناك شئ اسمه الحكم المؤبد ، فالحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة مـحدود بعشرين سنة . أما الشغل فهو ليس شاقاً .

ولكن تشيخوف ظل مصمماً على إجراء دراسة شديدة الدقة ، فقد قدم إلى ساخـالين كمحـقق وليس كسائح ، واهـتمامه الأسـاسى ينصب على إجـراء إحصـاء رسمـى للسجناء، وهو مـشـروع سيـمكنه من الاحـتكاك الشخصى بأعتى المجرمين تحت دعوى جمـع الاحصائيات التى يسعى إليها ولهـذا الغـرض وضع استبـياناً من ثلاث عـشرة نقطة وطلب من مطبـعة السجن طباعته على بطاقات . كـان يبدأ منذ الخامسة من صباح كل يوم ، وحـيداً أو برفـقـة حارس مـسلح ، جـولات فى السجـون والمعـتقـلات والمعـسكرات والأكواخ والمـناجم موجـهـاً أسئلتـه إلى كل أولئك الأمـيين

المتوحشين الذين يحدقون به بوجوه خالية من أى تعبير من القتلة المتجهمين إلى اللصوص الساخرين المتشككين ، إلى السذج البلهاء . غير أنه سرعان ما كان يفوز بثقتهم حيث يأسرهم بلهجته الودودة . وفى غضون دقائق معدودة يبدأون فى التحدث إليه وكأنه صديق قديم . وحين حان وقت رحيله كان قد ملأ حوالى عشرة آلاف بطاقة بخط يده * ، وكان هذا فى حد ذاته عملاً مجهداً إلى أقصى حد . وقد أصيب نتيجة لذلك بتقلص لا إرادى فى عضلات الوجه بالإضافة إلى الصداع النصفى (الشقيقة) ، ومع ذلك رفض أن يتهاون . وبتقدم بحثه كان يكتشف بوضوح متزايد بأن ساخالين تزخر بالطغيان والأكاذيب ، على العكس من أقوال البارون كورف .

كان كونونوفيتش حاكم ساخالين قد ادعى بأنه عدو لدود للعقوبة الجسدية ، بينما الجلد يجرى يومياً على بعد خمسمائة قدم من مقر مكتبه ، فهل يمكن للمرء أن يصدق بأنه يجهل ذلك ؟ وكان المحكومون يربطون بسلاسل حديدية على العربات اليدوية ليعملوا وهم مستلقون على بطونهم فى داخل المناجم . أما مستشفى ألكسندروفيسك فهو يفتقر إلى أبسط أنواع الأدوية ، والمرضى يستلقون على الألواح الخشبية أو على الارض . ويمنع السجناء من دخول الكنائس ويستولى الحراس على ما يحصلوا عليه من أجور ضئيلة دونما رحمة أو حق أو إنسانية ، ودون أن يكون هناك من يحاسبهم على ذلك . وحقوق سلطات السجن حقوق مطلقة ، أما السجناء فلا حقوق لهم على الإطلاق ، ولذا فإنهم سرعان ما يفقدون أى احساس بالكرامة الانسانية بحيث يسرقون بعضهم البعض ، ويبلغون عن بعضهم البعض ، ويتلاعبون على الحراس، ويسرفون فى احتساء الفودكا ، ويلعبون الورق - وقد أصبحت هذه متعتهم الروحية الوحيدة حيث

* البطاقات موجودة فى مكتبة لينين بموسكو حالياً .

يمارسونها ليلاً على ضوء الشموع . ويقول تشيخوف : « انتشر لعب الورق في السجون كالوباء بحيث تحولت السجون إلى دور ضخمة للقمار . أما القرى والمعسكرات فهى مجرد فروع لهذه الدور الرئيسية » .

ورغبة منه فى الهبوط إلى الدرك الأسفل من جهنم ساخالين طلب تشيخوف حضور إحدى جلسات الجلد . أخذ يراقب العملية برعب يصل إلى درجة الغثيان ، حيث تبدأ المراسم بالكشف الطبى على المتهم على يد طبيب (للتأكد من قدرته على احتمال التسعين جلدة التى حكم عليه بها) ، بينما المحكومون الآخرون يتزاحمون فى موقع التعذيب يدفعهم حب استطلاع مرضى . أخذ يراقب المحكوم وهو يربط ببطء وبخطوات مرسومة على المقعد المخصص للجلد ، ويتابع صوت موظف فاقد الحسّ وهو يعدّ الجلدات ، والصراخ المريع الذى يرافق كل جلدة ،ويرى الجسم العارى وهو يتحول إلى كتلة من اللحم المتورم .

كتب تشيخوف فيما بعد يقول : « وقف الجلاد على أحد جانبى الضحية وأخذ يضرب بحيث تأتى الجلدة بخط مائل . وبعد كل خمس جلدات ينتقل ببطء إلى الجانب الآخر مما يعطى الضحية فرصة ثلاثين ثانية لالتقاط أنفاسه. وما يلبث شعر المجلود أن يلتصق بجبينه ، وبعد خمس أو عشر جلدات تحول جلده المغطى بآثار الضرب من الجلدات السابقة إلى اللون القرمزى ثم الازرق الغامق ، وأخذ الجلد يتقشّر مع كل جلدة . وكنا نسمعه وهو يصيح بأعلى صوته ودموعه تنهمر : « ارحمنى . . . ارحمنى يا صاحب السعادة » . وبعد عشرين أو ثلاثين جلدة أخذ ينوح وكأنه فى حالة سكر أو هذيان قائلاً : « إننى انسان تعس محطم . . . لماذا تعاقبوننى » . وفجأة استطال عنقه بصورة غير طبيعية وسمعناه يتقيأ ، ولم يعد يتفوه بكلمة واحدة بل يئن ويئز ويتوجع . . . » وقد هرب تشيخوف خارجاً إلى الشارع قبل أن تنتهى الجلدات التسعين بزمن طويل ، ولكن

الصرخات كانت تملأ شوارع البلدة كلها . وقد كتب لسيفورين فى ذلك يقول : « بقيت أحلم بالجلاد وبمقعد الجلد المقرف ثلاث ليال متتالية » .

وقد أثار حسّه المرهف نوع آخر مختلف من العذاب ، يتعلق بالنساء . وكانت أولئك الموجودات فى ساخالين إما من المحكومات (ويمثلن أكثر بقليل من نسبة ١٠ ٪ من مجموع عدد المحكومين) ، أو من زوجات المحكومين . وكانت الفتيات يمارسن البغاء لتأمين معيشتهن ، والحراس يستأثرون بالأصغر والاكثر جاذبية تاركين الباقيات للمحكومين . وكانت الأمهات يبعن بناتهن بكل بساطة للمستوطنين الأثرياء أو النظار ، وفى ذلك كتب تشيخوف : « ونظراً لشدة الطلب فإن أى عائق لا يحول دون ممارسة المرأة للبغاء ، سواء أكان هذا العائق يتعلق بالسن أو التشوه أو حتى الإصابة بالمراحل الشديدة المتقدمة من داء الزهرى . كما أن حداثة السن ليست عائقاً هى الأخرى ، ولقد رأيت فى شوارع ألكسندروفيسك فتاة فى السادسة عشرة قيل لى إنها تعمل كمومس منذ التاسعة من عمرها . . . وهنالك امرأة حرّة (ليست سجينة) على مشارف ألكسندروفيسك تدير «مؤسسة » جميع العاملات فيها هنّ بناتها . أما أطفال ساخالين فهم فى معظمهم غلمان هزيلون متشردون يرتدون رث الثياب . وفى أحد الأيام دخل تشيخوف كوخاً ليجد فيه ولداً حافى القدمين منحنيا يملأ النمش وجهه . وبادره تشيخوف ليبدأ حديثاً معه بسؤال عن اسم أبيه ، فأجاب الولد : « لا أعرف ! » . « لاتعرف ؟ تعيش مع والدك ولا تعرف اسمه ؟ هذا عيب ! » . « ولكنه ليس والدى . . . . » . « ماذا تعنى ؟ » . « إنه يعيش مع أمى فقط . . » . « وهل أمك متزوجة أم أرملة ؟ » . « إنها أرملة ، جاءت إلى هنا من أجل زوجها . . » . « ماذا تعنى من أجل زوجها . . » . « لأنها قتلته » .

كتب تشيخوف لسيفورين وهو فى طريقه إلى جنوب جزيرة ساخالين فى المرحلة النهائية من جولته التفتيشية يقول بأنه يعتز بما أنجز : « ليس هناك محكوم أو مستوطن واحد فى ساخالين إلا وتحدثت إليه . . » ثم يتابع قائلاً : « حين أتوقف وأذكر بأن مسافة تعدّ بعشرات آلاف الفراسخ تفصلنى عن البيت فإننى أحس باللامبالاة وأشعر وكأننى سأحتاج لمئات السنين حتى أصل إلى البيت ». وقد وصف نفس الشعور بالخمول وانعدام القوة فى رسالة لأمه حيث يقول : « افتقدك وأشعر بالسأم من ساخالين . فطوال ثلاثة شهور لم أر إلا محكومين أو أناساً لا يتحدثون إلا عن الأشغال الشاقة المؤبدة والجلد والمحكومين . عيشة قاتمة » .

حلّ موعد رحيله فى النهاية ، وفى ١٣ تشرين الأول / أكتوبر استقل باخرة بطرسبرج التى ستنقله إلى أوديسا مبحرة بمحاذاة شواطئ آسيا . وقد استغرقت رحلة العودة شهرين ، ولكنها كانت ، بالمقارنة مع رحلة القدوم عبر سيبيريا ، عبارة عن رحلة سياحية ترفيهية . ولقد فكر فى إحدى المراحل بالعودة عن طريق الولايات المتحدة . إلا أنه ما لبث أن تخلى عن هذه الفكرة بسبب تكاليفها الباهظة . تجاوز اليابان فلم ينزل بها نظراً لانتشار وباء الكوليرا فيها فى ذلك الحين وخشية أن تكون « العيون الخضراء» لذلك الوباء بانتظاره هناك . وقد أعجب أيما اعجاب بهونغ كونغ وخليجها الفسيح ، واستشاط غضباً لأن رفاق رحلته أخذوا يشتمون الإنجليز بسبب استغلالهم لسكان البلاد حيث يقول : « أجل ، الانجليزى يستغل الصينين والسباهيين (الهنود المجندون فى الجيش الانجليزى) والهندوس فيما أرى ، ولكنه بالمقابل يوفر لهم الطرق وخطوط أنابيب المياه والمتاحف وينشر بينهم الديانة المسيحية . أما أنتم فإنكم تستغلون الناس أيضاً ، ولكن ماذا تعطونهم بالمقابل ؟ » . أعجب بالسفن الشراعية وهى تغدو وتروح فى الميناء ، وبحافلات الركاب والسكة الحديدية المعلقة التى

تصعد الجبل وامتطى عربة « الجنريشـة» (عربة يجرها انسان وتتسع لشخص واحد) وإن كان قد أحسّ ببعض الحرج لأنه يسير محمولاً على ظهر واحد من أقرانه من البشر ، وابتاع مختلف أنواع الدمى الصينية التذكارية .

وما أن غادرت الباخـرة هونغ كونغ حتى واجهت إعصاراً اسـتوائياً من القوة بحيث أن وقوع كارثة بدا أمراً محتـماً . وقد نصح القبطان تشيخوف بأن يبقى مسـدسه بمتناول يده ، إذ قد يفضل الانتحـار إذا أوشكت السفينة على الغـرق - إذ أن المنطقة مـليئـة بأسمـاك القـرش . غيـر أن السفـينة استطاعت أن تشق طريقها وسط العاصفـة ، وقد أعلن تشيخوف بكل فخر بأنه لم يصب حتى بدوار البحر ، ولكنه تأثر تأثراً عـميقاً لدى إقامة جنازة اثنين ماتا على ظهر السـفينة حيث القيت جثتاهما فى عرض البحـر طبقاً للتقليد المتـبع . وقد كتب يقول : « حين ترى انسـاناً ميتاً ملفوفـاً بقماش الأشرعـة يقذف من ساقـيه ويديه فى الماء ، وتتـصور ما يسـبح على بعد فراسخ فى الأعماق فإنك تشعر بالرعب وتتخيل بأنك على وشك أن تموت أيضاً ، وأن جثتـك ستقذف فى أعماق البحـر » . وقد أثارت هذه الحادثة خياله فكتب قصة سماها « جـوسيف » حول رجل يموت فى عرض البحر ويلقى بجثـته فى المـاء لتجذبهـا أسماك القـرش الشـرهـة وهـى تغوص إلى أعماق المحيط » .

وإذا كانت سنغافورة قد بعثت فى نفـسه شعوراً بالكآبة يصل إلى درجة الدموع ، فإن جزيرة سيلان بدت له كـما لو أنها الجنة على الأرض . فقد كانت تغطيـها أشجـار النخيل وتسرح فـيها الفيلة وثـعابين الكوبرا ويملؤها السـحرة والمشـعوذون الهنود المهـرة الذين يؤدون ألاعيب تصل إلـى درجة المعـجزات . سـحـرته أولاً وقبل كـل شئ نساؤها ذوات البـشـرة الداكنة والابتسامات الغـامضة . وقد أسرّ لسيفـورين قائلاً : « حين أرزق بأطفال

فسأقول لهم بلهجة فيها تفاخر : « اسمعوا يا أبناء الكلب ! فى أيام شبابى أقمت علاقة مع هندية سوداء العينين . ولكن ، أتعرفون أين ؟ فى بستان جوز الهند وفى ليلة مقمرة ! » وحين كتب لأخيه ألكسندر متفاخراً أيضاً حول نفس الموضوع ، أجابه هذا قائلاً : « تحياتى لزوجتك المجهولة والأطفال الذين استولدتهم إبان رحلتك حول العالم . كم من الغريب أن يكون هناك تشيخوف صغير فى مكان ما من جزيرة سيلان ! » وبما أنه لم يستطع إحضار عشيقة سنهاليّة فقد استسلم لنزوة سيطرت عليه فأحضر ثلاثة من حيوانات النمس على أمل أن يستطيع أقلمتها فى روسيا .

بدت الأيام الثلاثة عشر التى قضاها فى الطريق بعد مغامرة سيلان دهراً كاملاً بالنسبة له ، إذ لم تتوقف الباخرة فى أية موانئ ، وكانت متعته الوحيدة أن يسبح فى البحر تحيط به نظرات بحارة السفينة . وعلى الرغم من أن مرأى جبل سيناء والقسطنطينية حرك مشاعره ألا أنه كان قد سئم المناظر الغريبة وكان يتلهف بقلبه وعقله معدته ، يتلهف للوصول إلى روسيا .

وفى ١ كانون الاول / ديسمبر ١٨٩٠ وطئت قدماه أرض روسيا ثانية فى أوديسا . وما لبث أن أرسل برقية بوصوله ، واستقل أول قطار إلى موسكو وتوجهت أمه وشقيقه ميخائيل إلى تولا للقائه . وقد التقوا به فى مطعم المحطة يحيط به جمهرة من الناس ، وحيوانات النمس الثلاثة تشاركه الطعام حول مائدته . وبعد العناق ودموع الفرح استقلوا ثلاثتهم القطار ليقطعوا المسافة القصيرة الباقية للوصول إلى موسكو . وهناك اتجهوا إلى شارع مالايا ديمتروفكا بدلاً من سادوفايا -- كودرنسكايا : فقد كانت العائلة قد انتقلت إلى ذلك البيت فى فصل الخريف فى محاولة لضغط المصروفات .

بعد سبعة أشهر من الترحـال المجهد أحس تشيخوف فى البيت بالراحة والأمان وهو محاط بأصـدقائه وأهله وكتبه . وحول ذلك كـتب لسيفورين يقول : « ياالله . . ها أنذا أعود لأجلـس وراء مكتبى من جديد، ولأصلى لرسم الآلهة « بنيت » (إلهة البيت عند الرومان) والتى بهتت ألوانها قليلاً أثناءغيابى ، ولأكتب لك . أشـعر برضى داخلى ، وكأننى لم أبرح البيت على الاطلاق ، أحس بالرضى والقناعـة يتغلغلان لدى حـتى النخاع » . وكان هذا الشـعور بالرضى يتـعزز لديه نظراً لأنـه يحسّ بأنه يعود حـاملاً رسالة لأبناءجلدته . فـتشيـخوف نفسه الذى طالما كـان يعلن بأنه ليس من مهمة الكاتب أن يعلّم الناس يرى نفسه الآن مكلفاً بحمل حقيقة جوهرية : « العالم خـير كـما خلقـه الله ، والشئ السيئ الوحـيد فيـه هو نحن بنى البشر» . كانت المعلومات التى حملهـا من ساخالين وفيرة بحيث أنه أبدى مازحاً استعداده للزواج من أية فتاة تسـتطيع تصنيفها . أما المنازعات الأدبية فقد بدت له بعد التجارب التى خاضها مثيرة للشـفقة . ويقول فى ذلك : « قبل رحلتى كنت أعتبر « سـوناتا الكروتزر » حدثاً هاماً . أما الآن فإننى أجدها مفككة ومثيرة للسخرية . قد أكون نضجت ، أو ربما فقدت صوابى - الله وحده يعلم » .

جهد محـاولاً التركيز على تقريره عن ساخـالين لكشف التعسف الذى يطبع نظام السجون ، والمعاملة المهينة التى يتلقاها المحكومون وظروف الحياة الشنيعة التى يعـيش فى ظلّها النساء والأطفال . غيـر أن مسكنه الجديد لم يكن ليسـمح له بذلك ، إذ كان مسكـناً صغيراً ضـاجاً معـرّضاً باستـمرار لهجوم الأصدقاء والصحفـين والمستطلعين . وزاد الأمر سوءاً أن حيوانات النمس الثلاثـة بدأت بإثارة الكلاب والقطط فى المنطقة . وبما أنهـا لا تجد ثعابين كـوبرا لتهـاجمـها فقـد تحوّلت إلى السـراويل والفسـاتين والأحذية والطعـام وزجاجـات الحبر والمزهريات والقـفازات والقبـعات ومصفـفات الشعـر . وقد كتب لليونتـيف - شيشـيجلوف يقول : « حيـوانات بحجم القطط ، مرحة نبيهة ، وأول ما تفعله حين تواجه أى شخص هو أن يبحث

الواحد منهـا في جيـوب ذلك الشـخص للتعرف على ما فيـها . وحينما تحبسها فى غـرفة معينة فإنها تبدأ فى الصراخ » . وبعد مـرور فترة وجيزة كانت هذه الحيوانات الثلاثة قد قلبت الوضع رأساً على عقب بحيث اضطر تشيخـوف لإهداء اثنـين منها لحديقة حيـوانات موسكو فى نهاية المطاف ، على أمل أن يتمكن من احتمال التصرفات الشاذة للثالث .

غيـر أنه مالبث أن انشـغل فى النهاية بصورة تـامة ، فقـد تردّت الحالة المادية للعائلة بحيث توجب عليه ، لكى ينقذها ، أن يترك كل شئ ويتفرغ لوضع اللمـسات الأخـيرة لقـصتـه « جـوسيف » ويرسلهـا إلى « الأزمنة الحديثة» بسرعة . وبعد ذلـك بدأ بوضع الخطوط العريضة لقصة طويلة هى « المبارزة » والتى وصفها فى رسـالة له بأنها « العمل الذى أقوم به لأكسب قوت يومى والذى يمنعنى من الكتابة عن ساخالين » .

والأدهى من ذلك كان أمر صـحته . فمع أنه كان يشـعر بأنه فى حالة حسنة نسبيـاً فى أثناء رحلته ، فقد بدأ يشعر بالإرهاق ويـعانى من السعال والصداع وخفقان القلب بعد عودته إلى موسكو . وكتب إلى سيفورين مرة أخرى يقول : « قلبى يتوقف لعدة ثوان كل دقيقة ويرفض أن ينبض » .

أصبح يشـعر بالمرارة ، فالمتطفلون يثيـرون غيظه ، والأصدقاء يـثيرون غضبه . وحتى ميخـائيل الذى كان قد ترفّع إلى الدرجة السادسة فى الجيش ويستعرض نفسه ببزته الجديدة ووالديه ينظران إليه بكل حنان ، بدأوا كلهم يثيرون أعصابه .

وفى أوائل كـانون الـثـانى / يناير هرب إلى بطرســبـرج ، إلى بيت سيفورين . غير أن الغرباء هاجموه من جديد ، وكتب لماريا يقول : « إننى أعـمل ولكن بصعـوبة شديـدة ، وما أن أكـتب سطراً حتى يدق الجـرس ويدخل أحدهم ممن يريد أن يتـحدث عن ساخالين . يالـلازعاج ! » وكان يجهد راكضاً من حفـل استقبال لحفل عشاء مثل « راقصة بالـيه بعد خمسة

فصول وثماني لوحات » . والمبرر الوحيد الذى كان يحمله على تقبّل هذه الدعوات هو أنه كان يطمح لخلق رأى عام متعاطف مع أطفال ساخالين . كان يناشد مضيفيه أن يقوموا بجمع الكتب المدرسية لهؤلاء الأطفال . وعلى الرغم من تحفظ السلطات استطاع جمع ألفين من الكتب لهم .

وإذا كان المعجبون بتشيخوف قد اعتبروا أن رحلته إلى ساخالين إنما تعبّر عن سماحة نفسه . فقد قوبلت بابتسامات السخرية على وجوه الكتاب والصحفيين الذين كانوا يعتبرونه منافساً لهم . فقد أعلنوا أن رحلته إلى سيبيريا كانت محاولة لتقليد دستويفسكى ، واتهموه بمحاولة استغلال موضوع المحكومين ليحقق لنفسه الشهرة . وقد كان شعورهم بالحسد والكراهية واضحاً كل الوضوح بحيث كتب لشقيقته يقول : « إننى محاط بجو ثقيل من العداء غير المفهوم والغامض كل الغموض . فالناس يقيمون لى الولائم ويشيدون بى ، ولكنهم فى نفس الوقت مستعدون لافتراسى ! لماذا ؟ لعنة الله علىّ إن كنت أعرف . لو أطلقت رصاصة على رأسى لأسعد ذلك تسعة أعشار أصدقائى والمعجبين بىِ . سعادة لا تجارى ! » .

ولقد أزعجت تشيخوف بشكل خاص مقالة كتبها بورينين ناقد « الأزمنة الحديثة » الذى أطلق عليه وعلى كورولينكو وأوسبينسكى مجتمعين وصف الكتّاب الذين بدأ نجمهم بالأفول . وتابع بورينين يقول : « أصحاب المواهب العادية من أمثال تشيخوف سرعان ما يفقدون خاصيّة التعرف على سمات الحياة حولهم فيهربون إلى أماكن لا يعرف مكانها إلا الله ، إلى سيبيريا وما وراءها ، إلى فلاديفستول وساخالين » . هذا التعريض بأن خياله قد نضب بحيث أخذ يبحث يائساً عن مواضيع جديدة ، أصبح الموضوع الذى يتهامس به الناس . وسرت فى نفس الوقت شائعة تقول بأن نجاح تشيخوف إنما هو عمل من توليف وتمويل المليونير صاحب « الازمنة

الحديثة » . وهذه الشائعة وصلت إلى أسماع ليونتييف - شيشيجلوف بالصيغة التالية : « تشيخوف إنما هو في الحقيقة خليلة سيفورين ! » .

ولكن هذه الشائعة لم تؤثر في حبّ تشيخوف لأعز أصدقائه واحترامه لهم . وحين اقترح سيفورين رحلة واسعة لأوروبا وافق تشيخوف بحماس إذ يقول : « إنني على أهبة الاستعداد ، وأنا أوافق على الذهاب أينما ترغب وفي الوقت الذي تشاء . قلبي يرقص من الفرح ، وسيكون من السخف بالنسبة لي ألاّ أذهب ، إذ أن فرصة مثل هذه قلّما تتوفر » . وجواباً على اندفاعه الصبياني هذا تنهدت أخته ماريا بحزن قائلة : « متى ستستقر في مكان واحد يا أنطوشكا ! » .

وقبل أن ينطلق بحثاً عن آفاق جديدة ذهب تشيخوف لرؤية « دوز » التي أصبحت حديث المجتمعات في بطرسبرج أي أنطونيو وكليوباترا . وقد كتب لشقيقه قائلاً : « لست أعرف الإيطالية . غير أن التمثيل كان من الرقة بحيث شعرت بأنني فهمت كل كلمة قالتها . ممثلة مرموقة ، لم أرَ مثيلاً لها من قبل » . وفي اليوم التالي توجه إلى أوروبا بصحبة سيفورين وابنه أليكسي .

وفي حين كان تشيخوف قد قطع سيبيريا قبل أشهر قليلة في عربة تهتز وترتعش مع كل حفرة في الطريق ، كان يسافر هذه المرة في عربة نوم « مزودة بالمرايا وبها نوافذ فسيحة وسجاد يغطي الأرضية . » شعر وهو يمضي في علبة الشوكولاته التي تسير على عجلات وكأنه «نانا بطلة رواية « إميل زولا » . ومالبثت الدهشة أن حلّت محل الحبور حين وصل إلى فيينا حيث بدت كل الأشياء في قمة الرقيّ والأناقة . فالحوانيت « تدير الرؤوس» وكأنها « سراب كلّي » ، وللكنائس لمسة مضيئة تلفها من كل جانب وكأنها قد طرزت تطريزاً ، وسائقو العربات بأناقتهم غير المعهودة وقبعاتهم العالية ينتظرون الركاب وهم يقرؤون الصحف -

وهو أمر لايمكن للمرء أن يتوقعه في روسيا . وفى كل شارع تباع مختلف الكتب ، وهو يقول فى رسالة لشقيقته : « يمكنك أن تقرأى ما تشتهين وتقولى ما تشائين هنا » .

وبعد أن اشترى بعض الهدايا لعائلته وبعض ربطات العنق لنفسه ، غادر فيينا بصحبة سيفورين متوجهاً إلى البندقية . وقد أحدثت هذه المدينة له الدوار بجوها الهش العائم ذى الطابع المتخفى وأبنيتها التى تعود لعصور قديمة وأزقتها الضيقة المتعرجة وجندولاتها الطويلة السوداء التي تنسل بصمت عبر أقبيتها الهادئة . وقد كتب لأخيه ايفان يقول: « لم أر فى حياتى مدينة أكثر إثارة من البندقية بسحرها وبهائها وضخامتها . . . والروسى ، بفقره وقلة شأنه يمكن أن يفقد رشده بكل بساطة فى عالم الجمال والثروة والحرية السائد هنا . تشعر وكأنك تود لو تبقى هنا العمر كله . وحين تقف فى الكنيسة وتسمع العزف على الأرغن فإنك تشعر بالرغبة فى اعتناق المذهب الكاثوليكى » . والكاتب الشاب ديمترى ميريزوفسكى الذى صادف أن كان موجوداً فى البندقية فى نفس الفترة عبر عن مشاعر الفرحة ذاتها . غير أن ما جذب ميريزوفسكى هو الفن المعمارى والمجموعات الفنية ، فى حين كانت التفاصيل الدقيقة هى التى لفتت انتباه تشيخوف ، مثل ملامح وجه دليل سياحى أصلع الرأس ، صوت بائعة زهور ، نغمات عزف على الماندولين عند الغسق ، رنين الأجراس المتواصل ، أو أسراب الحمام التى تتجمع فى ساحة القديس مرقص . غير أن نشوته ما لبثت أن خبت مع هطول أول زخات من المطر ، فقد كتب لشقيقته يقول : « البندقية الجميلة لم تعد جميلة ، بل أن الجو يعبق بالملل بحيث يتوق المرء للهرب إلى الشمس » .

أما المرحلة التالية من رحلته لإيطاليا والتى شملت بولونا وفلورنسا وروما ونابولى فقد كانت أكثر إثارة لخيبة الأمل ، وكسائح حي الضمير ، جدّ في التجوال فى كل مكان ذى أهمية . غير أن الوجبة كانت دسمة بحيث أنه سرعان ما شعر بالإشباع . تورمت قدماه وهو يركض من مكان أثرى إلى آخر ومن متحف إلى متحف ، وفى نهاية كل يوم كان يشعر وكأنه ابتلع كتيباً سياحياً كاملاً لايستطيع هضمه . وحين وصل إلى روما كان قد أخذ يحنّ للحساء الروسى وجريش الحنطة السوداء ، فالمدينة الخالدة ذكرته بخاركوف . وفى نابولى أعجب بخليجها وأبدى أسفه لشوارعها القذرة . غير أنه رأى فى إيطاليا ، على وجه الإجمال ، بلداً باركته السماء ، إذ يقول فى رسالته لشقيقته : « بالإضافة إلى جمالها وطقسها الدافئ ، فإن إيطاليا هى البلد الوحيد الذى تشعرين فيه بأن الفن هو الأمر الناهى ، وهذه قناعة لها أثرها الإيجابى بالتأكيد » .

لم يكن يمر يوم واحد دون أن يعانى من القلق من تكاليف رحلته ، إذ يردد باستمرار بأنه لو كان يسافر وحده لاكتفى بأربعمائة روبل . أما مع سيفورين ، فإن عليه أن يعيش كواحد من كبار القضاة (فى البندقية وجنوة) ، أو كأحد الكرادلة بحيث يقيم فى أفضل الفنادق ويتناول طعامه فى أفخر المطاعم . وكان يخشى أن تصل ديونه إلى الألف روبل على أقل تقدير ، وهو مبلغ عليه أن يجاهد ليستطيع سداده .

البلد التالى على خط الرحلة كان فرنسا ، ومن نيس توجهوا إلى مونت كارلو حيث انتابته حمّى المقامرة وخسر خمسمائة فرنك فى القمار. وقد كتب لشقيقه ميخائيل يقول : « ستقولون بالطبع ياللقذارة ! إنه يلعب القمار ونحن نتضور جوعاً ! هذا صحيح ، وإننى أعطيكم كل الحق

فى أن تجزوا عنقى ، وإن كنت راضياً عن نفسى شخصياً كل الرضا ، إذ يمكننى على الأقل أن أقول لأحفادى بأننى لعبت القمار وأحسست بالمشاعر التى تثيرها المقامرة » . غير أن هذه العاطفة المفاجئة لم تغمض عينيه عن الجو المتفسخ حيث يعيش كل من فى مونت كارلو من أجل المال وورق القمار فقط ، وكل شئ إنما هو للمظهر فقط ، فيقول فى نفس الرسالة : « أحب الترف والبحبوحة ، إلا أن ترف القمار يثير فىّ الإحساس بمرحاض مترف ، ففى الجو دائماً ما يشعرك بما يمسّ إحساسك باللياقة ويرخّص جمال الطبيعة وصوت الموج وضياء القمر » .

وإذا كانت مونت كارلو البراقة قد أزعجته ، فإن باريس ، موئل الحضارة أغوته وأوقعته فى حبها . وإن كانت أول ملامسة له منها اتخذت طابعاً قاسياً .

ففى طريقه لزيارة المعرض الدولى وجد نفسه وسط مظاهرة الأول من أيار / مايو العمالية ، فلقى جزاءه على أيدى البوليس* . ولكن هذا لم يدفعه لتغيير خطته الأصلية ، إذ بعد زيارة المعرض طاف ببرج إيفل « أجل ، برج إيفل مرتفع جداً » وشاهد تماثيل الشمع فى متحف جريفن ، وبعد ذلك حضر جلسة عاصفة فى مجلس النواب ، وفى ذلك اليوم كان

* فى القرن التاسع عشر كانت روسيا ماتزال تتبع التقويم اليوليوسى الذى يتأخر عن التقويم الجريجورى المستعمل فى الغرب بمقدار اثنى عشر يوماً . لذا فإن المظاهرة بالنسبة لتشيخوف كانت فى ١٩ نيسان / إبريل ، إذ كان تشيخوف يؤرخ فى رسائله المرسلة من أوربا بالتاريخ اليوليوسى .

وزير الداخليـة يتلقى استـجواباً شديداً أثنـاء الجلسة بسبـب الحوادث التى جرت فى مظاهرات الأول من أيار فى فـورميس ، حيث فتـحت الشرطة النار على المتظاهرين المضربين وقتلت تسعـة منهم وأصابت ستين آخرين . وكمواطن روسي ، كانت فكرة قيام ممثلى الأمة بمحاسبة الحكومة أمراً يثير الدهـــشة والاستغراب » . من الواضح أن ثورة ١٧٨٩ لم تمت !! » .

وقبل أيـام من مغادرته باريـس توجه إلى معـرض الفنانين المستـقلين المشهور . وقال فى رسالة لشقيقـته : « الرسامون الروس أكثر صلابة من الفرنسـيين ، وليتـفيان يمكن أن يعـتبـر ملكاً إذا ما قارناه برســامى المناظر الطبيعية التى رأيتها أمس » . وعلى الرغم من أن نظارته كانت قد كسرت بحيث لم يستطع أن يرى أكثر من نصف ما احـتوته اللوحات بسبب قصر النظر الذى يعانى منه ، فإنه شأنه فى باريس كـما كان فى البندقية انصب اهتمـامه على التـفاصـيل الصغيـرة التى يراها فى حيـاة الشارع الضـاجة الصاخبة المرحة أكثر مما انصب على المـتاحف : حشود الفرنسيين الجالسين خارج المقاهى أمام الطاولات الصغـيرة « وكأنهم يجلسون فى بيوتهم » ، ندرة البـزّات العسكرية فى الأمـاكن العامـة وطابع الحرية الذى يتـبع ذلك والذي يصل إلى حـدود الفوضى . ويختـتم كلامـه قائلاً : « شـعـــب رائـــع ! » غـير أنه مـا لبث أن عبـر عن استيـائه المرير حين أخـذه أحد أعضــاء الكولونة الروسية فى جولة فى « باريـس أثناء اللـــيل » ، حيث يقول : مختصون بعلوم الإنسان ، يتزنرون بلفاعات طويلة من الفرو كأنها الأفاعى التى تعتـصر أجسامهم ، ســيدات يرفسن بسيقـانهن نحو السقف وهنّ يرقصن ، الناس يطيرون ، الكباريهـات ، دعوات العشاء والغداء ، كل هذا بدأ يثير اشمئزازى » .

كان هذا أول عيد فصح يقضيه بعيداً عن أرض الوطن ، والقداس فى كنيسة السفارة كان بديلاً هزيلاً لشوارع موسكو وأجراس الكرملين والمائدة التى تنوء بأطعمة عيد الفصح الشهية ، وقبلة السلام الثلاثية للغرباء وهم يقولون لبعضهم البعض : « المسيح قام ، غير أن سيفورين لم يكن يتعجل جمع أمتعته للعودة ، ولم يتمكن تشيخوف حتى ٢٧ نيسان / إبريل من الكتابة لإيفان حيث يقول له : « سأغادر اليوم فى طريقى إلي روسيا . . . إننى تعب من السفر وأتوق للعمل من جديد » . ثم يوقع باسمه بالفرنسية : « أنطوان » .

وصل إلى موسكو فى ٢ أيار / مايو بعد ستة أسابيع قضاها فى الخارج . ولقد رأى فى ساخالين أعمق أعماق العبودية ، بينما شهد في أوروبا قمة الحضارة . أما روسيا التى يعود إليها بعاطفة الابن فتبدو له تراوح فى مكانها بين هذين القطبين المتعاكسين .

٩ - الملاك

بعـد يوم واحـد من عـودته إلى أهله ، ودون أن يـتـسنّى له الوقت الكافى لتفريغ حقائبه ، غادر تشـيخوف موسكو للإقامة فى بيت ريفى فى قرية اليكسين . ففي غـياب تشيخوف عمد شـقيقه ميخائيل إلى اسـتئجار بيت صغير مكون من أربع غرف يطلّ على نهـر « أوكا » (أحد فروع نهر الفولجا) ، وعلى جـسر لسكة الحديد فى المنطقة . ولكن تشيـخوف شعر منذ البداية بـضيق المكان وبسيـماء حزينة مملـة تغمر جـوّه ، ولذا قرر فى غضون أسبوعين فقـط أن يجـمع أمتعـته ويمضـى بالقبـيلة إلى قـرية « بوجيموفو » التـى تبعد مسافة عدة كيلو متـرات ، استأجر هناك الطابق الأرضى من بيت كبير أنـيق ذى حجرات واسعة وأعمدة منحـوتة وخشبة مرتفعـة للموسيقيين فى البـهو الرئيسى . أما البسـاتين المحيطة فتختـرقها ممرات متصالبـة مهجورة تحيط بها أشجار الـزيزفون من الجانبين وتمتد على مدّ النظر ، وتحوى بركة ماء تمتلـئ بالأسماك وطاحونة هواء ، بل وحتى كنيسة صـغيرة يمكن « للوالدين » المسنين أن يؤديا صلواتهما فـيها . على وجه الإجمال ، كان الموقع مخبأ مناسباً للاستجمام والعمل فى آن معاً .

ولكن المصاعب المالية ظلت تقلق تشيخوف . فـقد أوقعته رحلته إلى أوربا تحت وطأة ديون ثقيلة اسـتلفها من سيـفورين . وعلى الرغم من أن شقيقته ماريا وشقيقه ميخائيل* وإيفان كانوا يكسبون قوتهم بأنفسهم ، غير أنه كان عليه أن يتـدبر أمر شقيقه ألكسندر الذى ظلّ ينعى الفـقر والفـاقة

* ميخائيل تشيخوف الذى أصبح فيما بعد نجماً مشهوراً من نجوم مسرح الفن فى موسكو.

منذ مولد ابنه الأخير ، بالإضافة إلى والده الذى ترك عمله وأصبح يعيش فى البيت أيضاً . ولقد وضع تشيخوف خطة من ثلاث شعب لتأمين احتياجات العائلة : العمل على كتاب ساخالين فى أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء حيث كان يريد التركيز بشكل خاص على فقدان المحكومين لأى أمل فى رؤية مواطنهم الأصلية ثانية ، وبالتالى فقدانهم لأى إحساس بأية قيمة أخلاقية أو واقعية . أما فى أيام الخميس والجمعة والسبت فسيتابع العمل على قصته الطويلة « المبارزة » وفى يوم الأحد يكتب قصصاً قصيرة ، من باب الترفيه .

كان يستيقظ عند الفجر ، فى الرابعة أو الخامسة صباحاً ، ويعدّ قهوته بنفسه ثم يبدأ العمل . وكان يفضل أن يكتب على حافة النافذة بدلاً من الجلوس إلى المكتب بحيث يرى الحديقة حوله كلما رفع ناظريه عن الورق . وفى الحادية عشرة يذهب لجمع الفطر وصيد السمك . وبعد الغداء ، الذى يقدم فى الواحدة تقريباً ، يسمح لنفسه بإغفاءة قصيرة ، ولكنه يلتقط قلمه حال استيقاظة ليتابع الكتابة حتى المساء . ولقد كان يحس بخيبة الأمل لأن قصته « المبارزة » تبدو له أقل صعوبة من « جزيرة ساخالين » بحيث كان يعمد إلى الغش فى بعض الأحيان بحيث يقتنص يوماً من الأيام المخصصة « لساخالين » لمصلحة « المبارزة » . وهو يعترف لسيفورين فى رسالة وجهها إليه حيث يقول: « أكتب « ساخالين » «وأشعر بملل لاحدود له» ، وفى رسالة أخرى كتبها بعد ثمان وأربعين ساعة يقول : « أشعر أحياناً بالرغبة في أن أصرف عليها فترة تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات مكبّاً بكل عزيمة ، وفى أحيان أخرى أحس بالاكتئاب وأود لو أرميها برمتها فى سلة المهملات » .

وبعد هذا العمل الشاق طوال الصباح وبعد الظهر كان يستمتع بكل ارتياح بالعشاء مع أفراد العائلة والأصدقاء . وبعد ذلك يجتمعون فى البهو الفسيح ويتحدثون حديثاً لاهياً لاهدف له ، كما يحب الروس أن يفعلوا ، ودون أن يشعروا بمرور الوقت ، البيت ملئ بالناس بالطبع وكأنك ، كما يقول تشيخوف ، سمكة ربيان وقعت فى الشبكة مع مجموعة هائلة من سمك الربيان . ومن ضمن هؤلاء ناتاشا لنتفاريوفا ، ومتخصص فى علم الحيوان اسمه « واجنر » يجرى دراسة حول حشرات العناكب ، ويتحدث دون كلل حول قضايا الوراثة والبقاء للأصلح ، وعائلة كسيلوف والرسام ليفيتان ، وأولاً وقبل الجميع ليكا فيرينوفا .

كانت ليكا قد أصبحت الصديقة الصدوقة للعائلة خلال العام أو العامين المنصرمين . كانت تصغر تشيخوف بعشر سنوات وتعبده بخجل وتنتظر يوماً بعد يوم أن يعلن لها عن حبه . أما تشيخوف ، فعلى الرغم من إعجابه غير أنه ظل يعاملها كأخ محبٍ ولكنه ثرثار . وكان يلجأ ، دون أن يعترف بذلك لنفسه ، إلى أسلوب المزاح ليحمى نفسه من تصرفاتها العذبة الساحرة والتى تتسم بسمات الحزن . فقد كان يجهد ليحمى خصوصيته وذاته الداخلية المتوحدة التى يحتاج إليها فى إنجاز عمله . وما أهمية المرأة بالنسبة له ، مهما كانت مرغوبة ، إذا كان يكرس كل حياته لقلمه وأوراقه ؟ وعلى الرغم من أن حب ليكا المنفتح كان يرضى غروره ، غير أنه كان يحرص على ألا يشجعها على الاستمرار فيما تفعل ، وإن كان لايثنيها عما تفعل . كان يكتب لها رسائل قصيرة بهدف نرفزتها ويطلق عليها ألقاباً غريبة وينصحها أن تهرب بجلدها من ليفيتان المغرم بإغواء الفتيات الصغيرات ، ويزعجها باستمرار ، بحديثه عن إفراطها فى تناول النشويات وفى التدخين والكسل والفوضى . وقد كتب لها يقول : « بينما كنت تجأرين بالبكاء يا ليكا اللؤلؤة المفتولة كخيوط

القطن الناعـمة ، وتسكبين دموعك على كـتفى الأيمن (لقـد أزلت البقع بالبنزين) وتأكلين الخبـز واللحم نسرةً نسرة ، كنا نلتـهم وجهك وعنقك بعيوننا التهاماً ، يا لجمالك الجـهنمى الأخاذ يا ليكا » . كما كتب لها بعد أشهر قليلة يقول : « أحبك بعنف ، حـباً كحب النمر ، وأقدم لك يدى طوعاً وعن طيب خاطر » .

ولكنه ظل مصمـماً على إبقاء يده حرة طليقـة ليستخدمـها لأغراض الكتابـة فقط ، ولذا ظل متـمسكاً بعـزوبيتـه حتى وإن كانت ليكا الـفاتنة تعيش تحت سقف بيته نفسه . ولقد كتب لسيفورين يقول : « ليست لدى النية للزواج ، وأتمنى لو أنني عـجوز ضئيل الجسم سقط الشـعر من فوق رأسه ، يجلس خلف مكتب كبير الحجم فى غرفة مكتب فسيحة » .

كانت تزيد من حـيوية أمسيات بوجـيموفو فى بعض الأحـيان عجلة روليت من صنع تشيـخوف الذى كان يقـوم أيضاً بدور مدير اللعـبة الذى يجمع أموال اللعب وبوزعـها على الفائزين . كما تتخلل تـلك الأمسيات عروض مـسرحيـة على صورة لوحات حـية . أما النمس فـقد خلب لبّ الأطفـال ، ولكنه تاه فى الغابة فى أحـد الأيام مما سبـب إزعاجاً شـديداً للعائلة التى سـرعان ما غمـرها الفرح حين ظهر من جديد . وكـالعادة ، تقاطر الفلاحـون لتلقى العلاج على يد تشيخـوف ، الطبيب الذى أرسلته إليهم السـماء . ومن بين هؤلاء جاءت امـرأة فلاحة أصيبت بجرح بالغ لدى وقوعها مـن العربة . وكانت تئن وتتوجع وتنعى نفسهـا مرددة بأنها ستمـوت دون شك ، وتقطع نواحها بين آونة وأخـرى لتعطى توجيهـاتها لزوجها حول حصـاد محصول الشوفان . وقد كتب تشيـخوف لسيفورين يقول : « قلت لهـا أن تنسى الشوفان وأن هناك أموراً أهم ، فـأجابت :

وكيف ذلك ولديه محصول ممتاز من الشوفان . إننى أحسدها لروحها هذه فالبشر من أمثالها يواجهون الموت دون وجل » .

الرسالة التى تتحدث عن هذه الفلاحة جاءت ترافق مخطوطـة قصته « المبارزة » التى كان قد وعد بإنجازها منذ وقت بعيد . أما كتاب ساخالين فقـد أصبح بمثابة أشغـال شاقة بالنسـبة له ، مما آثار حنق تشيـخوف على نفسـه إذ يقول لسيـفورين : « لدى شعـور بأن بنطالى أصبح كبـيراً على خصرى وأننى لـم أعد أكتب كما يجب علي أن افـعل ، وأصف لمرضاي الأدوية غير المناسبة . لابد أننى مصاب بالذهان » . ويضـيف فيما بعد : « أود لو أجـد حولى بعض السـجاد ومـوقداً فى الحـائط وتماثيل برونزية وبعض الحـديث الراقى . وأخـشى أننى لن أكـون من بين من يعـتنقـون مذهب تولستوى على الاطلاق . إن ما أحـبه فى النساء هو الجمال ، وما أحب فى التاريخ البشرى هو الرقى كمـا يتجلى فى السجاد والعربات ذات النوابض والعقول النيرّة المتوقدة » .

وبحلول شهر أيلول / سبتمبـر كان قد عاد إلى العائلة في موسكو . ولم تؤد إقامته في الريف واحتكاكه بالطبيعة والفلاحين إلا إلى تعزيز عدم ثقتـه بالمثقفين مشـوشى الذهن .بل وصل به الأمر إلى حد الهـجوم علي تولستوي الذى كان قد قرأ لتوه كلمته الختامية لكتابه «السمفونية الريفية» ، إذ كتب يقول : « فلتذهب فلسفة عظماء هذا العالم إلى الجحيم . فجميع الحكماء العظام إنما هـم مستبدون كـالجنرالات ، كما أنهم كالجنرالات أيضاً فى افتـقارهم للأدب والحـساسيـة نظراً لأنهم واثقون من أنهم يتـمتـعون بحصانة تمكنهم من الإفلات من العقوبة . ولقد كان ديوجين* يبصق على

* ديوجين (٤٣٠ - ٣٢٣ ق . م) دعا إلى التقشف وعاش فى برميل .

لحى الناس وهو واثق كل الثقة بأن أحداً لن يحاسبه على ذلك ، وتولستوى يصف الأطباء بأنهم أوغاد ، ويزهو بجهله بالقضايا الهامة لأنه ديوجين آخر لن يشتكيه أحد للشرطة أو يهاجمه فى الصحف . ولذا فلتذهب فلسفة الرجال العظام إلى الجحيم » .

ولكنه مالبث أن اضطر للانحناء أمام شهامة وصلابة ذلك الشيخ الجليل الذى كان يحكم روسيا من ملجئه فى إقطاعته « ليسنايا بوليانا » ، إذ عمّت روسيا كلها مجاعة نجمت عن الجفاف الشديد الذى حل بالبلاد . وقد منعت الحكومة نشر الأنباء المرعبة عن هذه المجاعة فى الصحافة خوفاً من حدوث اضطرابات ، كما منعت جمع التبرعات الشخصية لمصلحة الضحايا مكتفية بتكليف الصليب الأحمر والكنيسة بهذه المهمة . ولكن ردّ فعل تولستوى كان فورياً إذا أصدر ، معتمداً على ما يملك من حصانة تؤمنها له مكانته الرفيعة ، أصدر نداءات متكررة لتقديم التبرعات وجمع مبالغ كبيرة نتيجة لذلك . كما توجه بنفسه إلى المناطق التى أصابتها المجاعة وساعدت بناته في إقامة المئات من مطابخ إعداد الحساء للمتضررين . وجد تشيخوف حملة تولستوى أمراً رائعاً مذهلاً فكتب لسيفورين يقول : « ما أروع تولستوى ، فهو فوق مستوى البشر بمقايس هذه الأيام بل إنه يرقى إلى مستوى جوبيتر * ».

وسعياً لاستغلال مهاراته كطبيب فى مساعدة آلاف الفلاحين الذين يتضورون جوعاً أجرى تشيخوف اتصالات مع صديق قديم هو « يفيجراف ييجوروف » والذى كان رئيساً للمجلس الإقليمى فى «نيزنى نوفوجرود» . ولكنه لم يستطيع القيام بأى عمل لعدة أسابيع نظراً لإصابته بالأنفلونزا التى رافقتها مضاعفات فى الرئتين ، وقد تماثل للشفاء من تلك الحالة ببطء ، كما توفى العديدون من بين المحيطين به فى تلك الفترة منهم

* جوبيتر : كبير آلهة اليونان .

خالتــه « فـيـدوسيـا » والشـاعـر « بالمين » بالإضـافـة إلي « زينا يديا لنتفاريوفـا » الـطيبة . قضت خالته بسـبب المرض الشائع في العائلة ،أى السلّ ، كما أن تشيخوف لم يعد قادراً على خداع نفسه بشأن حالته ، وإن ظل يرفض أى علاج جدى متـصل ، وفى ذلك يقول : « بدأت أقتنع بأن صحـتى لن تعـود إلي سـابـق عهــدها قـط . حـسـناً ، العـبـد فى التفـكيـر والرب فى التدبير ، وعـلاجى والعناية بوضعى الجسـمى يبعث لدى شعـوراً يشابه القرف . سـأشرب المياة المعـدنية والكينين* ، ولكننى أرفض أن أسمـح لأحد بفحصى » .

وما أن أصبح قـادراً على الوقوف علي قدميه - وإن كـان يبدو عليه وكأنه إنسان غريق - حتى بدأ يساعد ييجوروف بعمليات الإغاثة التى يقوم بها . وكـانت خطتهم هى شراء خيـول من الريف وتسمينها خـلال فصل الشـتاء ثم إعـادتها إلى الفـلاحين في الربيع ، فى الوقت اللازم لزراعـة الأرض ، تكاليف هذه العملية كـانت كبيرة ، ولذا أخذ تشيـحوف ينشر إعلانات في الصحف ويكتب مئات الرسائل إلى الأصدقاء والمعارف ويزور من يمكن لهم أن يقدموا تبرعات ، وقد كتب لمهندس معمارى صديــق : « إننى أقـوم بدور عضوات الجـمعـيات الخـيرية » . وهكذا بدأت مـبالغ صغيرة تتجـمع لديه وأخذ يجرى حساباتها بدقة متنـاهية ، وما أن يتجمع عـدد من الروبلات - نقطة مـاء فى السـطل - حــتى يرسلــهـا إلـى ييجورروف فى « نيزنى توفوجرود » .

وما لبث تشيخوف أن توجـه إلى بطرسبرج فى نهاية كانون الأول / ديسمبـر آملا بتحصيل مبـالغ أكبر . وما أن وصل إلى هناك حتى أغـرقته

* شراب غازى منكّه بالكينين والليمون الحامض .

الدعوات . وكـان يلتقي في مـآدب الغداء والعـشاء تلك ، يلتـقى بأناس لايعرف فيما إذ كان يود أن يتجنب الالتقاء بهم أو السعى للقياهم . وفى ليلة رأس السنة ؛ ، وبينما كـان يحضر مأدبة عـشاء بمناسبة مـرور خمس وعشـرين سنة على صدور صحـيفة « بطر سـبرج جازيت » التـقى بليديا أفيلوفـا ثانية وعلى الرغم من أنه لم يكن قد التـقى بها منذ ثلاث سنوات إلا أن حديثهما ما لبث أن اتخذ منحي عاطفياً على حد قولها . فقد جرى الحديث في مسار لايتلاءم على الإطلاق مع طبيعة تشيخوف المعروفة ، إذ جرى ، كـما تزعم حول لقاء لهـما فى حيـاة سابقة ثم تقدمـا ببطء نحو بعـضهـما البـعض عبـر القرون حـتى وصلا إلى الوقت الحـاضر حـيث يتواجهان الآن . وإذا كـان تشيخوف قد تحدث بهـذه الطريقة ، فلا بدّ أنه فعل ذلك من باب المزاح ، أمـا ليديا فقـد أخذت الحديث مأخـذ الجد ، وحين عرّفته علي زوجها أحست بنوع من المجاملة الباردة فى الطريقة التي تصافحا بهـا ، وهى تدعى فى الكتاب الذى كتبته بعد خـمسين عاما تحت عنوان :« تشيخوف فى حياتى » بأن قصتـها مع تشيخوف إنما كانت قصة حب لم يلحظها أحد على الرغم من استمرارها لمدة عشر سنوات كاملة» .

ولكن تشيخوف كان بعيداً كل البعد عن الشعور « بقصة الحب » هذه بحيث أنه لم يحاول أن يـرى تلك الشابة المتقدة مرة أخـرى خلال تواجده فى بطرسـبـرج . ولكنه أبدى اهتـمـامـاً بمـمثلة أوكـرانيـة ، وهى مـاريا زانلوفتسكايا ، حيث وعد بكتابة مسرحـية لها وقضى ليلة يشرب الشمبانيا مـعهـا واصطحـبهـا فى رحلة تزلج عـلى التلال الجليـدية فى ضـواحى بطرسبرج .

أمـا المجاعـة ، فلم تفارق تـفكيره على الرغم مـن المظاهر الـتى تحيـط به ، إذ مـا أن عاد إلى موسكو حتى توجه إلـي نزنى نوفوجرود ،

وحين أخذ يعمل مع صديقه بيجوروف سيطر عليه بأنه لم يبرح ساخالين بعد ، فهدفه فى الحالتين كان الارتقاء بالكرامة الإنسانية إلى مواقع أعلى ، وعلى الرغم من البرد القارس فقد كان ينتقل من قرية إلى أخرى على عربة جليدية . وقد وقع فى احدى المرات فى وسط دوامة ثلجية وكاد يضل طريقه وحلّ به خوف شديد كما يعترف هو نفسه .

كان الوضع مأساوياً ، وعلى الرغم من أن السلطات الحكومية التى لم تعد تعرف كيف تتصرف سمحت فيما بعد بالمبادهات الفردية ، إلا أن التبرعات أخذت تتضاءل ، وقد كتب لسيفورين يقول : « لو أن ما يقال ويعمل فى موسكو وبطرسبرج حول المجاعة يماثل ما يحدث فى نزنى لما كانت هناك مجاعة أصلا ! » وبعد أسبوع من التنقل بين القرى المتناثرة التى يحاصرها الجليد أصيب بنزلة برد وبألم حارق فى الظهر أجبراه على العودة إلى موسكو للعلاج .

وجد البيت هناك فى حالة أتعس بسبب ألاعيب النمس ، ولذا قرر ، على الرغم من تأنيب الضمير ، أن يرسل هذا الحيوان الصغير الشقى لينضم إلى شقيقيه الآخرين فى حديقة حيوانات موسكو ، وما كاد يلتقط أنفاسه ويكتب عدداً من الرسائل حتى غادر موسكو من جديد ، حيث توجه هذه المرة إلى مقاطعة فورونيز بصحبة سيفورين . كانت جهود الإغاثة من المجاعة أكثر نجاحاً فى هذه المنطقة مقارنة بنزنى نوفوجرود ، ولكن وجود سيفورين أعطي الرحلة طابعاً رسمياً غير مستحب بالنسبة لتشيخوف ، فباعتباره رئيس تحرير الأزمنة الحديثة وشخصية معتبرة تجد آذانا صاغية في أوساط الحكومة ، فقد قوبل سيفورين بحفاوة من قبل المسؤولين المحليين ، ووجد تشيخوف نفسه يتردد على مآدب وحفلات استقبال سخيه فى حين كان الفلاحون الذين جاؤوا بأسمهم يتضورون

جوعـاً فى القرى المحيطة . وقد أثار هذا حـنق تشيخوف وبدا له صـديقه إنساناً مـشوش الذهن ومثيـراً للسخرية وهو يلعب دور المسـئول الحكومى المهيب .

بعد مرور عشرة أيام لم يعد تشيـخوف قادراً على احتمال المزيد وعاد إلى موسكو وهو تحت وطأة اكـتئاب شديد نظراً لأنه أضـاع عشرة أيام في كلام لافائدة منه ، وبدا له تولستوى مذهلا إذا ما قارنه بفشله ، فقد تمكن ذلك النبى ذو المنحى الاصطلاحى الخـيالى من تـنظيم أعمـال إغاثة أكـثر فعالية مما فعل الطبيب ذو التفكير العـملى وأخذ تشيخوف يحس بأنه يفتقر إلى الشروط الحياتية الضرورية له لمـمارسة قدراته الفنية ، إذ كتب يقول : « إن كنت طبيباً . فـإننى أحتاج لمرضى ومستشفـى ، وإن كنت كاتباً فإننى أحتاج لأن أعيش وسط الناس وليس فى بيـت بمنطقة مالا ياديميتروفكا إلى جانب حـيوان من فصـيلة النمس . يعوزنى قـدر من الحياة الاجـتماعـية والسياسيـة ، قدر قليل على أقل تقدير ، أما هذه الحياة التى أقـضيها بين أربعة جدران ، بعيـداً عن الطبيعة أو الناس أو روسيـا ، ودون أن استمتع بالصحة والشهية - فهى ليست حياة على الإطلاق ! » .

ما الحل إذن ؟ شراء بيت مريح في الريف ، فالحياة هناك أقل كلفة ، وبذا يستطيع أن يخفض من مـصاريفه كما أن الهواء النقى سـيساعده على استعادة صحته وسيصـبح ضجيج المدينة أمراً من أمور الماضي بالنسبة له . وأخيراً فإن عزلته ستمكنه من التـركيز على عمل أكثر طولاً ، وإلي جانب ذلك ، مهـما حاول أن يدفـن نفسه فليس هناك مـا يمنعه من التـوجه إلى بطرسبورج في الشتـاء ، للالتقاء بالأصدقاء ومشاهدة آخـر المسرحيات . وقد كتب لسيفورين يقـول : « الحرية هى ما أتوق إليه ، فلو استطعت أن أعيش على ألفى روبل ، وهو أمـر غير ممكن إلا إذا عشت فـى مزرعة ،

لأمكننى أن أتحرر من همومى الحالية ومن هم الجمع والطرح ، وحينئذ يمكننى أن أكتب وأقرأ كما أشتهى » .

ونظراً لولعه بأوكرانيا فقد طلب إلى صديقه ألكسندر سماجين أن يبحث له عن مزرعة فى منطقة نهر يسيول ، خسروا عرضين أحدهما بعد الآخر حين اختفى أصحابهما ، فنفذ صبر تشيخوف مما دفعه إلى تتبع الإعلانات فى الصحف حيث وجد عرضا لبيع مزرعة تقع على بعد ثمانين فرسخا من موسكو فأرسل ماريا وميخائيل على الفور لاستكشاف المكان . وعلى الرغم من أن الثلج لم يمكنهما من تكوين فكرة واضحة حول وضع المزرعة غير أنهما عادا بانطباع حسن ، فبدأ تشيخوف مفاوضاته مع المالكين على الفور ، حتى قبل أن يرى المنطقة . وحين فعل بعد ذلك بأسبوعين حازت المزرعة قبوله وتبين أنها قريبة من قرية ميليخوفو وعلى مسافة ساعتين ونصف الساعة من موسكو بالقطار . كانت مساحة المزرعة ٥٧٥ فداناً تغطى نصفها أشجار ذات نوعية ردئية من الأخشاب ، أما الباقى فيتكون من مراع وبركتين ونهر صغير قذر بالإضافة إلى الحدائق المحيطة بالبيت . والبيت نفسه كان حديث البناء نسبياً إلا أن طرازه المعمارى سيئ ولا توجد فيه مراحيض ، فى حين كانت الأبنية الملحقة فى حالة جيدة . اختار تشيخوف لنفسه غرفة مكتب تحوى ثلاث نوافذ فى واجهة المنزل . ولقد كتب تشيخوف لألكسندر قائمة بما آل إليهم مع المزرعة : ثلاثة خيول ، بيانو ، بقرة ، عربة جليدية ، عربات لحمل الأثقال ، مشاتل وكلبان .

وقد زعم البائع بأن بإمكان المزرعة إنتاج ما قيمته ألفا روبل فى العام إن أحسن استثمارها ، ولهذا كان يطلب فيها ثمناً باهظاً هو ثلاثة عشر ألف روبل .

لم يكن تشيخوف يحلم بأنه سيكون قادراً على دفع مثل هذا المبلغ فى أى يوم من الأيام ، فمن أين يتدبر المبلغ وضمانته الوحيدة هى قلمه ؟ جاءته النجدة من سيفورين هذه المرة أيضاً . إذ تولت « الأزمنة الحديثة » دفع المبلغ المقدم اللازم لإتمام الصفقة ، وهو أربعة آلاف روبل ، بل وقعت على صك الرهن ومدته خمس سنوات . ووجد تشيخوف نفسه وهو يقوم بالترتيبات المالية الخاصة بهذا الأمر فى خضم أحاديث لا تنتهى مع محامين وموظفى بنوك ومندوبى تأمين وغيرهم من الطفيلين المشابهين » . وكان اضطراره وكانت مطالبهم التي تتمسك بالشكليات تثير غضبه ، إذ يثير البيروقراطيون لديه شعور إنسان معتوه أبله يدس أنفه فيما لايعنيه . وقد أزعجه بشكل خاص اضطراره لدفع مبلغ يصل إلى حوالى ألف روبل فى نفقات متفرقة أضيفت إلى ثمن شراء المزرعة . غير أنه شعر براحة لاتوصف بعد توقيع مستندات البيع وكتب فى ذلك يقول : « كم يسعدنى ألا تكون لى شقة فى موسكو ، فهذا ترف لا أذكر أننى تمتعت به من قبل !» .

وفى ٤ آذار / مارس توجه إلى ميليخوفو برفقة والديه وشقيقته وشقيقه الأصغر ميخائيل يحملون جبلاً من الصناديق والحقائب والحزم ، وكمية كبيرة من الأدوية . كان الثلج ما زال يغطى الأرض . وبدا البيت الذى كان مهجوراً منذ فترة طويلة « سخيفاً وساذجاً » فى عيون ساكنيه الجدد ، غير أنهم ما أن نفضوا عنه الغبار وأوقدوا النار فيه حتى بدا لهم أنيساً وكأنهم يعيشون فيه منذ سنوات . تعاونت العائلة برمتها على إعداد البيت ليصبح قابلا للمعيشة فيه . وفى اليوم التالي لوصولهم كتب تشيخوف رسالة لإيفان يطلب فيها إحضار مسحاة (فأرة النجار) وفرشاة للخيول وستة عشر رطلاً من لحم البقر وعشرين رطلاً من خبز الجاودار وخمسة أرغفة من الخبز الفرنسى وإحدى اللوحات وحنفية برونزية صغيرة.

وبعد يوم واحد كتب لسيفورين يقول : « إننى أجلس واستمتع بترف غرفة مكتبى ذات النوافذ الـثلاثة وأخرج حوالى خمس مـرات فى اليوم لأجرف الثلج إلى البـركة . الماء ينقط من السـقف . ولكن روائح الربيع تلوح فى الهواء وإن كانت درجة الحرارة تنخـفض إلي ١٥ أو ١٣ درجة تحت الصفر ليلاً . مزاجى رائق حاليـاً ، ونحن منشغلون جداً - تنظيف وغسل ودهان وتصليح الأرضيـة هنا وهناك ، كما أننا ننقل المطبخ إلى القـسم المخصص للخدم ونبنى بيـوتاً للعصافـير ، ونغالى فى الاهتـمام بأحواض اسـتنبات النباتات ، وهكذا دواليك ، ولو لم يكن عملى يشغلنى لقضيت وقتى كله خارج جدران البيت » .

ووسط كل ذلك الهـرج والمرج ، بين طرق المطارق وتعليـق الستـائر ونقل الأثاث من هنا إلى هناك تلقى تشيخوف رسالة غـير متوقعة من ليديا افيلوفا التى كانت قد كتبت له من قـبل وأرسلت قصصاً تطلب رأيه فيها ، فأجـابها من باب التـأدب ناقداً بعض الجوانب ، مـادحاً جـوانب أخرى ، وهذا ما كان يفعله بالنسبة لمعظم المبتدئين الذين يطلبون رأيه فى كتاباتهم . غـير أن مـا تحدثت عنه هذه المرة كـان يتجـاوز نطاق الأدب ، فقـد روت بعبارات تـتسم بالسخط شائعـة وتشنيعة تتردد فى بطرسـبورج وصلت فى النهاية إلى أسماع زوجها ، ومفادها أن تشيخوف وصل به الأمر إلى درجة السكر فى الليلة التى التقيـا فيها ، قبل شهرين فـأبلغ أصدقاءها بأنه ينوى إغواءها ودفعها للانفصال عن زوجها من أجل الاقتران به .

وقد أجابها تشيخوف إجابة قاسية إذ لايمكنه يسمح لهذه المرأة الساحرة الهسترية بأن تلومـه وتدعى أنه يلطخ سمعتها حـيث يقول لها : « ما هذه القصة الوهمـية التى تختلقينها ؟ كرامـتى لاتسمح لى بأن أدافع عن نفسى

فى مثل هذا الموقف ، كما أن اتهاماتك غامضة بحيث لايمكننى .أن أجد ركائز أعتمد عليها فى الدفاع عن نفسى . وكل ما أستطيع استنتاجه هو أن الأمر كله مجرد أقاويل ، فهل هذا صحيح ؟ كل ما أرجوه ، وبكل إخلاص ، وإذا كنت تشقين بى كما تشقين بأولئك الثرثارين ، هو ألا تصدقى الأقاويل السيئة التى تقال عن الناس فى بطرسبورج .أما إذا اخترت أن تصدقيها فصدقيها كلها ، مجتمعة وبرمتها ، زواجى من خمسة ملايين روبل . قصصى الغرامية مع زوجات أقرب أصدقائى ، وغير ذلك من أقاويل . ولكن عليك أن تهدئى فمحاولَة المرء أن يدافع عن نفسه فى وجه الأوقاويل تماثل طلبك قرضاً من المال من يهودى ، فكلا الأمرين غير ممكن . وعلى أية حال يمكنك أن تظنى بى ما شئت ! » .

وفى بداية رسالته هذه ، وبحكم نفسيته التى لاتضمر أى حقد يقدم لمراسلته الغضبى نصائح أدبية تحدد إلى درجة كبيرة مفهومه الخاص بالفن ، إذ يقول : « حين تصورين البائسين والمسحوقين وتريدين أن تثيرى عطف قرائك ، فعليك أن تكونى أكثر بروداً ، فمن شأن هذا أن يكون خلفية لحزنهم بحيث تكون الصورة أكثر وضوحاً وبروزاً ، كل أبطالك يذرفون الدموع وأنت تتنهدين معهم . أجل ، كونى باردة » مختصر القول هو أن يقول إن على الإناء الملئ بالماء الموضوع على النار أن يكف عن الغليان .

حملة التشنيع التى راجت فى بطرسبرج ذابت مع جليد ميليخوفو لحسن الحظ ، وما لبثت خصلات العشب أن بدأت تطل برأسها فوق التربة وأخذت الجداول الصغيرة تشق طريقها إلى النهر والعصافير تزقزق بين الأغصان وفى ثنايا البراعم الربيعية الغضة ، ولكن ، وعلى الرغم من كل الدلائل المحيطة ، فإن تشيخوف لم يكن بعد قادراً على الاقتناع بأن حلمه القديم قد تحقق : وهو أن حفيد أحد الأقنان قد تمكن ، وهو فى سن

الثانية والثلاثين ، من أن يصبح مالكاً للأرض ، مثل تولستوى ، وأن كل هذه الأرض والغابات والحجارة قد امتلكها بفضل قلمه ولم يرثها عن والديه . إنها هدية شخصياته ، من أكثرها عنفاً ووحشية إلى أدناها شأناً . وقد قارن نفسه مازحاً بالشخصية الرومانية « كونتيكوس سنسيناتوس » البسيط المتقشف والذى فضلّ مزرعته على الأوسمة العسكرية ، وكتب لألكسندر يقول بفخر : « إننا نعيش فى مزرعتنا ، شأن سنسيناتوس ، وإننى أقضى وقتى وأنا أكد وأعمل لأكسب قوتى بعرق جبينى . إنى صامت هذا اليوم وتوجهت إلي الكنيسة بعربة يجرها حصان ، أما أبى فقد سقط من الزلاجة التى كانت تسير بسرعة كبيرة ، ولكنه مازال يتفلسف ، وشأنه شأن جميع أهل تاجنروج لايستطيع أن يفعل شيئاً فيما عدا إشعال فوانيس الزيت : إنه يتحدث إلي الفلاحين بلهجة صارمة . . تصور مدى سعادتك حين تستيقظ في الخامسة صباحاً ، تتذكر بأنك غير ملزم بأن تتوجه إلي أى مكان وبأن أحداً لن يأتى لرؤيتك . تخيل أنك تسمع أصوات الزرازير والعصافير والعندليب . . . » وقد دفع الرسائل باسم « داعيك سنسيناتوس » .

وفيما كان يتأقلم مع وضعه الجديد فى الحياة كانت كمية ما كتبه أقل من المعتاد ، كما أن قصته الأخيرة « المبارزة » كلفته الكثير من الإرهاق العصبى : تجرى أحداث القصة فى مرفأ بليد وتصور طبيعتين بشريتين متضادتين : لايفسكى الضعيف المتململ - وهو مثقف فاشل و « هملت موسكوفى » - مقابل فون كورين ، الشاب الديناميكى المتخصص بعلم الحيوان والذى يعتبر لايفسكى مجرد مخلوق طفيلى فيقسو عليه أشد القسوة لأنه يعزو انهياره المعنوى إلى أسباب تعود لمجتمعه وعصره الراهن*.

* من الواضح أن الكثير من أقوال فون كورين فى القصة استوحاها تشيخوف من أحاديثه فى بوجيموفو مع واجنر اخصائى علم الحيوان .

احتـقار فون كـورين للايفسكى لما يمثله من مـزيج الرخاوة والنفاق يدفـعه لتحديه للمـبارزة ، وعلى الرغم من أن أياً منهما لـم يصب حتى بخدش بسيط نتـيجة للطلقات التى يتـبادلانها ، إلا أن مواجـهتهما للـموت تترك أثرها عليهما ، فلايفسكى يقرر انتـهاج حياة أكثر جدية ، فى حين يصبح فون كـورين أقل تصلباً فى أحكامـه بحيث أنه يقـرر قبل سـفره أن يزور لايفـسكى الذى كـان ينوى قـتله ويقـول له : لاتـسئ الظن بى يا إيفـان اندريتش ، فـمع أنه اتضح لى بـأننى أخطأت الحكم علـيك ، وهذا من دواعى سرورى ، إلا أن من سمات بنى البشـر أن يتعثروا ، حتى لو كان الطريق ممهداً . أما لايفسكى فهو يفكر وهو يرقب الزورق يمضى بعزيمة : « بنو البشر فى بحثهم عن الحقـيقة إنما يمضون خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الوراء . فالعذاب والأخطاء والضجـر من الحياة تدفعهم إلى الوراء إلا أن تعطشهم للحقيقـة وإرادتهم العنيدة تسوقهم إلي الأمام . ومن يدرى ، فقد يتوصلون إلى الحقيقة الفعلية » .

إلا أن هذه النهـاية المتفـائلة ظاهرياً لايمكنهـا أن تخفى النبـرة المريرة العنيفـة التى تسرى فى القـصة ككل . فـفى شخصـية لايفسـكى يصفى تشيخوف حـسابه مع الجانب الأكبر من الطبقـة المثقفة ، إذ أنه لا يكنّ إلا الاحتقـار لتلك العقول الخـاملة والقلوب الفارغة والألسن الطليـقة . كان أولئك المثقـفون الذين يتظاهرون بالصلاح والتقـوى يثيرون غضـبه بحيث شبههم بالفريسيين* . وقد كتب عنهم مقالا شن فيـه هجوماً شديداً عليهم وعلى غرورهم وأرسله إلـي سيفوريـن طالباً نشره مـغفلاً من التـوقيع . يحمل المقال عنوان : « فى مـوسكو » ووقعه باسم « متذمر» ويهـاجم فيه

* الفريسيون : طائفة من اليهود فى عهـد المسيح عرفوا بتمسكهم بالطقوس والتقوى الكاذبة .

بشدة أولئك المثقفين الذين يسحـرهم أن يتأملوا بطونهم ، وتعوزهم القدرة على وضع أفكارهم السـامية إن لم نقل الدعـية الطنانة ، موضـع التطبيق العملى والممارسة ، وحين يعبر أحد الناطقين باسمهم عن خيبة أمله المزمنة قائلاً : « إننى أتقلب وأتلوى تحت لحافى ، لا أجد للنـوم سبيلاً وأتساءل باستمرار : لم يعذبنى الملل دائماً ! » فيجيبه المتذمر فى مقاله قـــائـــلاً : « خذ ذراعاً من سلك الهاتف واشنق نفسك على أقـرب عمود من أعمدة الكهرباء » .

هل يمكن للمرء أن يجد في عقيدة تولستوى الأنجيلية ترياقاً له ؟ كلاً يجيب تشيخوف الذى يضع كل ثقـته فى العلم وفى تقدم الإنسانية المعنوى والمادى . وهذا التقـدم لايمكن تحقيـقه بانتهاج نهج حكـيم يا سنايا بوليانا بهبـوط الإنسان المتحـضر إلى مسـتوى الفلاح الـروسى البائس ، بل من خلال الارتقاء بهذا الفلاح إلى مستوى الإنســان المتحضر . كان تشيخوف يرى أن من السـخف أن تعظ الناس لتـدعوهم إلى العـفة وضـبط النفس وتلعن الأطباء وتشتم الأعمـال الفنية ، وأن من غير المنطقى على الإطلاق أن تحاول بناء عـالم جديد من خـلال الزراعة والجـهل مولياً ظـهرك لكل الاختـــراعـات العلمية المذهـلة ، فالمستـقبل يصنع فى المختـبر وليس فى المزرعة ، وتولستوى بـترويجه للظلام وإعاقة التقـدم . وانتـشار المعرفة ، إنما ينكر قوة إنسانية وحقيقة حيوية ، فهو ينكر السبيل الطبيعى الذى تسير عليه البـشرية باتجـاه النور وتحقـيق الرفاه . وعلى الرغم من أن تولسـتوى يدعى الدفاع عن المسحوقين فـإن فكره إنما يكشف عن فكر متطرف يتبدى فى الطريقـة التى يعبر فـيهـا عن أفكاره ، وعن آرائه وغضـبه واتهـاماته وتبريكاته . هذا الموقف الأوتقراطى يصدم تشيخوف إذ أنه يشعر بأن أحداً لايملك الحق قط فى الحـكم على أقـرانه من بنى البـشـر . ولقـد كـتب لليونـيـيف وشيـشيـجلوف قبل ذلك بسنوات يقـول : علينا أن نعلن بكل

صراحة بأن أى إنسان لايستطيع فى الحقيقة أن يدرك ما يدور فى هذا العالم . والأغبياء والمشعوذون هم وحدهم الذين يظنون أنهم يعرفون كل شئ ويفهمون كل شئ » .

وعلى الرغم من أن حصانته وفطرته السليمة كانت ترفض طوباوية تولستوى ، غير أن تشيخوف ظل يكنّ له احتراماً رقيقاً . وقد كتب لسيفورين قبل سنة من ذلك : « إننى أستيقظ من نومى كل ليلة وأقرأ الحرب والسلام ، ويسيطر علىّ حب الاستطلاع والدهشة الساذجة التى يحس بها من يقرأ الرواية لأول مرة . رواية جيدة بصورة ملفتة للنظر . غير أنه بقدر إزدياد إعجابه بتولستوى الروائى كان تحديه له كواعظ أخلاقى يزداد بنفس الدرجة ، بحيث بدا كما لو أن تولستوى بابتعاده عن الأدب لايخون مهمته فحسب بل مهمة تشيخوف ورسالته ، تشيخوف الذى يعتبره أعظم كتاب روسيا . وفى حين كان تولستوى يعلن بكل غطرسة بأن « الملكية ليست إلا لصوصية ويعانى من تأنيب الضمير الشديد بسبب امتلاكه إقطاعات واسعة من الأرض فإن تشيخوف كان يزهو بالأرض التى إمتلكها لتوهّ ويعترف بمرح بأنه يسعده أن يستيقظ ليجد نفسه رأسمالياً بعد حياة من الجهد الشاق . وفى حين كان الأول يكافح التيار السائد فى أيامه وعصره دونما هوادة كان الثاني راضياً بأن يطفو مع التيار ، يراقب ما يجرى أمام ناظريه .

١٠ ميليخوفو

ما إن بدأ الطقس يتحسّن حتى أخذت عيون « دوقية » ميليخوفو تتوضح بصورة جليّة واضحة ، وحلّت النظرة الواقعية مكان الحماس لدى تشيخوف ، شأنه دائماً ، فالموصلات بين الجدران في البيت ذي الغرف العشر والطابق الواحد آخذة في التداعي ، والمنزل يعج بالبق والصراصير ، ومصيدة الفئران تمتلئ كل صباح ، ولرقة قلبه كان يكتفي بإطلاق سراح هذه الفئران تحت الأريكة القريبة ، أملاً أن تكون قد تعلمت الدرس اللازم بحيث تبتعد عن البيت .

كان لابدّ من استخدام فريق من النجارين والدهانين والبنائين إذن لإنجاز الإصلاحات التي تجعل الحياة في البيت ممكنة . وتحت إشراف تشيخوف تم إصلاح السقف والأرضية ، وإعادة طلاء جدران غرف النوم وتركيب ورق جدران جديد لها ، وإصلاح البلاط المرصوف على المواقد ، وحفر بئر جديدة ، وإصلاح الحظائر والأسيجة ، وتركيب باب يمنع تيار الهواء عن غرفة المكتبة ، وأخيراً إنشاء دورة مياه حديثة مترفة . اشتركت العائلة كلها في أعمال الإصلاح هذه حيث كانت يفجينيا ياكلوفليفنا تقوم بأعباء المنزل بينما يشذب بافل ييجورفيتش العشب في الممرات وتعزق ماريا مساكب الخضار ويوجه ميخائيل العمل في الحقول . أما تشيخوف فقد كان مسئولاً عن البستان والحديقة فزرع ثمانين من أشجار التفاح وستين من

أشجـار الكرز وعدداً كبيـراً من أشجار الدردار والتنوب وشجـيرات الورد والليلك . كـان منظر الأزهار يثيـر فى نفسـه شعـوراً بالدهشة والعـرفان ويسعـده أيما سـعادة أن تقوم أنامل إنسـان مثقف بتـشجيع الطبيـعة على التفتح ، وقد كتب لسيفورين يقول : «ما تفجره الطبيعة هو شئ مدهش، يمس شغاف القلب ، فـشاعريتها وتجددهـا يعوضك عن كل المتاعب التى يمكـن لك أن تواجـههـا فى حـياتك بالريف . كـل يوم يأتيك بمفاجـآت جديدة ، كل منـها تتفـوق على سابقـتها ، الزرازير تأتـى ، وخرير الماء يسمع فى كـل مكـان ، والعـشب يخضرّ ويطل برأسه من تحت وقع الثلج الذائب . كلما رأيت جمال الربيع تمنيت أن يـكون هنـاك فردوس حقاً فى العـالم الآخر . . » .

وبالإضـافة إلى الفـلاحين اللذين يحـرثان الأرض كان لديهم طبـاخ وخادمة وأصبحوا يعيشون كأنهم « اللوردات » كما يقول تشيخوف ، وهـم جمـيعـاً : الوالدان والأخوة والشقـيقـة ، يرعون الأرض باهتـمام المالك الشخـصى لها . كـانت كل غرفة تحـمل سيـماء ساكنهـا ، فغـرفة بافل ييجورفيتش لها طابع صومـعة الناسك بما فى ذلك الكتب الكنسية الفخمة وعبق البخـور النفاذ . أما جناح يفجـينا ياكوفليفيـا فهو متـجدد الهواء ، يفاخر بالستـائر المنشاة وسلاسل الغسيل وماكينة الخـياطة ، فى حين تتخذ غرفة مـاريا الطابع العذرى فتـضم سريراً ضيقـاً وبعض المزهريات وصورة فخـمة لأنطون يطلّ عليهـا من عل . أما مكتب تشيـخوف فيـضم نوافذ عالية مطليـة ، وسريراً صغيـراً يستلقى عليه وقت القيلولة ورفـوفاً تفيض بالكتب ومكتباً يعج بالأوراق .

كانت يفجينا ياكوفليفيا شغوفة بابنها المشهور ، تقضى وقتاً فى إعداد الطعام له . أما بافل ييجورفـيتش والذى اضطر منذ زمن طويل أن يعترف

بمكان الصدارة لـولده ، فقد ظلّ يجـد صعـوبة فى تقبل مركـز ثانوى فى البيت ، أما أنطون الذى يتـسم سلوكه بالتسامح فى العادة فقـد كان يتخذ موقفاً عدائياً من استبداد والده ذى الأفق الضيق . وفى حين تمس تصرفات أمه مشاعره فإن تصرفات أبيه تـشعل غضبه بحيث لايستطيع تقبل فكرة أن يستمر شخص فشل فى كل ما فعله إبان حياته فى تمثيل دور الرجل العظيم بعد أن وصل إلى أرذل العمـر ، وأن يتابع الوعظ والتعنيف وسن الأحكام بغباء يتسم بالسرور . فقد كان بافل ييجـورفيتش يستخدم سجلاً يدوّن فيه بدقة وبخط صـقيل مواعـيد وصول ومغـادرة الضيوف ، وهبـوط وارتفاع درجة الحرارة . وبتـقدمه بالسن أصبح أكثر تديناً وتقـوى ، لايهمل صلاة فى الكنيسة ويتلو صـلواته فى حجرته بصوت عال ويرتل المزامـير ويحمل مبخرة يطوف بها فى أرجاء البيت بهيئة احتفالية فى المناسبات والأعياد .

كان أخوة أنطوان الثلاثة يمارسون أعمـالاً مجزية ، فإيفان شق طريقه إلى أن وصل إلى منصب مـدير مـدرسة ، ويعـمل مـيخـائيل مـــوظفـاً حكومياً ، أما ألكسندر الذى ظل يشتغل كصـحفي فقد أصبح فى مستوى أخذ يفكر معه بشراء مزرعة له شخصياً . كانوا يأتون جميعاً إلي ميليخوفو لقضاء إجازاتهم فى الصيف ، كمـا يحضرون في عطلة نهاية الأسبوع من حين لآخر ، وكان تشيخوف مغرماً بهم جميعاً ولكنه متعلق بشكل خاص بشقيقته ماريا .

وماريا كـانت تقوم بـعمل أربعـة أشخاص فى الحـقول وهى تنـتعل الجزمة الطويلة فى قـدميها وتلف رأسها بغطاء أبيض . ومع كل انـشغالها فقـد كانت تحرص على توفيـر جو الهدوء اللازم لأخـيها باهتمـام يقارب درجة الغيرة من الآخرين . . كان حبـها له مطلقاً لايلين ، ويتـسم بسمات التضحية بالذات ، ولا شك أن هذا هو سبب رفضها الزواج ، إذ لم تكن

تتخيل نفسها تخون أهم رجل فى حياتها لقاء ارتباط عاطفى بشخص عادى . وتشيخوف نفسه كان تحت تأثير كبح مماثل لعواطفه : فلماذا يتخذ لنفسه زوجة ولديه ماريا ؟ قد يغازل هذه أو تلك من حين لآخر ، ويعيش قصة عاطفية فى صيف ما ، وهذا كل ما فى الأمر . ولقد كتب لسيفورين يقول : « ليست لى رغبة في الزواج ، وليس هناك من تتزوجنى ثم لماذا أحتاج لهذا الأمر الذى سيقف حائلاً فى طريقي ، أما الوقوع في الحب فهو أمر آخر ! » .

كان ألكسندر قلقاً على مستقبل أخيه وقد أنّبه على سلوكه السلبى هذا إذ يقول فى رسالة له : « إنك تعيش عيشة الكاهن وتسمح لأيامك الذهبية بأن تتسلل من بين أصابعك دون أن تترك وراءها أيما أثر . وبعد حين لن تجد أمامك إلا أن تذهب إلى حديقة الحيوانات لتتبادل الحديث من نمسك هناك حول مباهج حياة العزوبية » . ثم يتابع قائلاً : « هنالك قضية أساسية واضحة وهى الخطأ القائم فى علاقتك بماريا . فكلمة واحدة منك ، أو نغمة دافئة فى صوتك تحملها علي أن تفعل كل ما تأمرها به . إنها تخشاك ولا ترى إلا أفضل وأنبل جوانبك » . وسرعان ما وقع حادث غريب يؤكد صحة رأى ألكسندر هذا .

فى صيف عام ١٨٩٢ ومن بين الضيوف الذين وفدوا على ميليخوفو فى ذلك الحين كان هناك شاب جذاب التقى به آل تشيخوف من قبل لدى آل لنتفاريوف . كان اسم هذا الشاب ألكسندر سماجين ، وبعد فترة من التودد اللطيف أعلن سماجين فجأة ، وبصورة تتسم بعاطفة جياشة عن حبه لماريا طالباً منها الزواج . وما كان منها وسط ارتباكها الذى وصل إلى درجة الرعب إلا أن تبحث عمن تسترشد برأيه . هل تلجأ لوالدها ، لاطبعاً ! لأمها ، لاأيضاً ! أنطون إذن ، أليس هو حكيم العائلة ؟ ولذا استجمعت كل ما لديها من شجاعة وتوجهت إلى مكتبه لتقول : « أتعرف

يا أنطون ؟ لقـد قررت الزواج » . وبما أن أنطون يعرف مـن هو العريس المنتظر فإنه لم يستفسر منها . ، ولكن قسماته تجمدت تمامـاً ، صمته هذا أرعب ماريا وكتبت في مذكراتها تقول : « أحسست أنه وجد الخبر مزعجاً فالتزم الصمت ، فمـاذا يمكننى أن أقول ؟ أدركت أنه لا يستطيع الاعتراف بأن من الصعب عليه أن يتقبل أمر رحيلى إلي بيت آخر وعائلة أخري » ، وهكذا انطلقت إلي غـرفتها ودمـوعها تنهـمر وقد آلمهـا أن تفشل في دفع أخيهـا إلـــى قول كلمة واحدة . وتتابع مـاريا قائلة : " فكرت فى الأمر ملياً ، وكانت نقطة الفصل فى إتخاذ قرارى هى الحب والعاطفة التي أكنّها لأخى ، فليس باستطاعتى .الموافقة على أمر يسبب له ألماً أو يربك أسلوب حيـاته ويحرمه من الجـو الخلاق الذى جهـدت دوماً لتوفـيره له . أبلغت سماجين بقرارى الذى سبب له الكثير من العذاب هو الآخر » .

أطلق تشيـخوف زفـرة ارتياح ، فقـد أرعبـه هذا الموضوع إذ أحسّ بالدور الحاسم الذى تلعبه شقيقته لتوفيـر جو التوازن فى معيشته اليومية ، وبدونها لابد لعـالمه الحميم أن يتهـاوى . لم تكن غريزة الغيرة هـي دافعه الأساسى ، بل غـريزة الحرص على الذات . فلكى يكون سعـيداً لابد أن تكون إلى جانبه شقيقته الفـريدة الكادحة المحبة ، وكان يريد أن يتأكد بأن أى خاطب لن ينتزعها منه ويصرفها عن مهمتها الأخوية إزاءه . لقد خلقا لبعضهـما البعض وليست لأى منهمـا حاجة لغرباء لأشباع عـواطفهما أو لشعـور أى منهمـا بالتقـدير ، إنهمـا زوج يكملّ أحدهمـا الآخر دون أن تكبلهما احـتياجات الجسد . وفى رسـالة إلى سيفورين يتصنع تشـيخوف الدهشة لأن شابة فى السابعة والعشرين ترفض زواجاً كامل الشروط حيث يقول : « شقيقتى لم تتزوج ، وإن كانت العلاقـة الغرامية مازالت مستمرة فى الرسائل فـيما أعتـقد . لست أفهم شـيئاً وحدسى أنهـا قالت « لا » مجدداً . إنها الفتاة الوحـيدة على وجه البسيطة التى لاتريد الزواج ! » . ولقد سرّه فى الواقع أن يعتقد بأنها ملتزمة شأنه بعدم الزواج .

معظم الموجودين لم يلحظوافى الحقيقة العلاقة العاطفية العابرة بين ماريا وألكسندر . فسيل الضيوف متصل بحيث أن أحداً لايستطيع الإدعاء بأنه يلقى معاملة خاصة : أصدقاء أنطون ، صديقات ماريا ، الجيران ، الطفيليون ، أطباء المنطقة ، الأقارب غير المقربين الذين يأتون مصطحبين أبناءهم ، كل هؤلاء بحيث أن أربعة أشخاص ينامون فى كل غرفة ، كما ينامون في الردهات ويتناوبون النوم على الأسرة المتنقلة المبعثرة فى طول البيت وعرضه ، وقد كتب تشيخوف لسيفورين يقول : « لو تدرى مدى الإجهاد الذى أعانى منه والذى وصل إلى حد التوتر . . ضيوف ثم ضيوف . . . كل مثقف متجول يرى من واجبه أن يتفقد أحوالى ويشعرنى بمودته ، وقد يقضى الليل لدى فى بعض الأحيان . الأطباء وحدهم سرب كامل . قد يكون من اللطيف بالطبع أن يكون الإنسان مضيافاً ، إلا أن الاعتدال هو الأصوب دائماً . ألم أغادر موسكو هرباً من الضيوف أساساً ؟ . . » .

غير أنه كان هناك ضيوف مفضلون بالطبع من بين كل تلك الجموع : ليكا ميزونوفا الجميلة ، وشاعرة شابة اسمها تاتيانا - شيشيبكينا كوبرنيك وناتاشا لنتفاريوفا بضحكتها المتموجة وليتفيان المزاجى بطبيعة الحال والذى أعجب بميليخوفو واعتبرها نموذجاً للريف الروسى ونفذ هناك عدة لوحات تحمل طابع الحزن . كان يصطاد فى الغابة مع أنطون فى أحد الأيام فأصاب دجاجة برية ، ولكنه لم يجد فى نفسه القدرة على ذبحها ، إذ أن عينى الدجاجة السوداوين كانتا تنظران إليه باستغراب ودهشة . فما كان

من ليتفيان إلا أن اغلق عينيه فتشابكت رموشه وهو يرجو تشيخوف أن يجهز عليها بعقب بندقيته . رفض تشيخوف أن يفعل ذلك فى البداية ولكنه ما لبث أن استسلم وقتلها ، وكتب رسالة إلى سيفورين يقول فيها : « وحين توجه غبيان عائدين إلى البيت وجلسا ليتناولا عشاءهما كان العالم قد فقد مخلوقاً فاتناً جميلاً آخر . . ! » .

فى حوالى تلك الفترة تقريباً كتب قصة مطولة بعنوان : « الجرادة » من الواضح أنه استوحاها من علاقة ليفتيان بصوفيا كوشينيكوفا زوجة أحد أصدقائه ، وهو طبيب كان قد ودّع تشيخوف حين توجه إلى ساخالين ، وعلى الرغم من أن تشيخوف حرص على تغيير أعمار ومظهر أبطال القصة إلا أن الشبه ظلّ واضحاً . وشأن الشخصية الموجودة فى الواقع فإن بطلة قصة « الجرادة » شابة جميلة ذات مكانة بارزة فى المجتمع ملّت حياتها مع زوجها المجتهد الجدى الدكتور دايموف ، ولذا أخذت تعاشر الفنانين وتوهم نفسها بأنها رسامة موهوبة . وتؤدى رحلة لها فى نهر الفولغا مع الرسام رايابوفسكى إلي علاقة عاطفية فيما بينهما . وكانت تتصور بذلك أنها إنما تخدع رجلاً عادياً جداً وتقيم علاقة مع نابغة من النوابغ . ولا تكتشف مدى خطئها فى ذلك إلا حين يموت زوجها فيتقاطر كل من يعرفه ويعجب به . وهكذا فإن تشيخوف إنما يصوّر فى قصة « الجرادة » كما فى كثير من قصصه الأخرى ، تواضع ونبل حياة يقضيها صاحبها فى كدّ صامت مقابل البهرجة التافهة لحياة الطبقة الناجحة .

قوبلت هذه القصة بالترحاب من الرأى العام فى حين واجهت سخطاً ونقمة فى أوساط الفنانين . وليتفيان الذى أدرك أن الرسام فى القصة إنما يمثل شخصيته قطع كل علاقة له بتشيخوف ، بل فكر بتحديه للمبارزة . أما « الجرادة » نفسها والتى أحسّت بأنه صوّرها بطريقة كاريكاتورية شائنة

فقد أعلنت أنها لن تسمح له بدخول بيتها . وعلى الرغم من أن تشيخوف كان يعى بأنه يستخدم حياة معارفـه لبعث الحياة فى قصصه فقد ادّعى بأنه يجهل الدافع لكل هذه الضجة . وقد كـتب لليـديا دافيـلوفا يقـول : « تصورى امرأة أعرفها فى الثانية والأربعين من عـمرها اكتشفت نفسها فى بطلة قصتى « الجرادة » التى لايتجاوز عمرها العشرين عَاماً (العددان ١ ، ٢ من مجلة الشمال) ، وكل موسكو تتهمنى بالتـشهير . والأدلة الرئيسية كلها ظاهرية ، فالمرأة ترسم ، وزوجها طبيب ، وهى تعيش مع فنان » .

أزعجت تشيخوف قطيعتـه مع صديقه إلي أقصى حد ، وإن كان قد رفض الاعتراف بأنه مذنب . فمن حق الكاتب ، بل من واجبه من وجهة نظره ، أن يغذى عمله بما تقدمه له الحياة من طعام . والأدب لابد سيذوى بدون ذلك التناضح المستمر بين الواقع والأدب القصصى . غير أنه ما لبث أن وجد السلوى بعلاقة تتزايد حـرارة مع ليكا الجميلة التى أخذت زياراتها المتكررة لميليخوفو تحتل موقعاً مهـماً في حياته ، وفى ثنايا السخرية المعتادة فى رسالته تبدو لمحة صدق إذ يقول : « أنتظر لقاءك وأحلم بوصولك كما يحلم البدوى بالماء وهو يجول الصحراء » . أو « أفتقدك ، ومستعد لدفع خمسة روبلات لقاء أى فـرصة للحديث معك ، ولو لخمس دقـــائق » . أو « تعـالى ! تعلمين كم أحتـاجك . لاتخـذلينى يا لوكوسـيا ، تعـالى أرجوك » .

هذا الاهتمام المتجدد بليكا لم يكن خافياً ، وكانت ماريا تراقب لعبة التآلف هذه مـراقبة حـريصة . لكن تشـيخوف ، مـا أن كان يقطع خطوة باتجاه ليكا حتى يرتد إلي الخلف من جـديد ، وكأنما بدافع الخوف . كتب لها رسالة تثبط عزيمتها في أوائل الربيع حيث يقول : « لقد تقدم بى العمر

وحبى ليس شمساً تبشر بفائدة . ليس شمساً تبشر بربيع يظللنى ويظلل الطير الصغير الذى أحب » ، ولكنه ما لبث أن اتخذ مساراً آخر إذ يقول : « أكتبى ولو بضعة أسطر . لاتلقى بنا فى زاوية النسيان ، بل أوهمينا على الأقل بأنك مازلت تذكريننا . أخدعينا يا ليكا ، فالخداع أفضل من عدم الاكتراث . . » ويوقع على هذه الرسالة : « لك إلي الأبد من أخمص القدم إلى قمة الرأس ، وبكل ما فى قلبى وروحى ، وحتى حافة القبر ، حتى النسيان ، حتى الدوار والجنون . . » .

وإستجابة لندائه ، توجهت ليكا إلى ميليخوفو ، غير أن التردد والتفاهم الهامس ومحاولات الغزل المتَعلثمة والخلافات المريرة ، ظلت كلها على حالها ، وقد أرعبها هذا الغموض إلى أبعد حد ، خصوصاً وأن تشيخوف كان يستمتع به فيما يبدو . ورسالته التى وجهها إليها فى ٢٨ حزيران / يونيو تختصر مشاعره إذ تعكس البهجة التى يستشعرها من علاقتهما وخوفه من الزواج ، إذ يقول : « ليكا النبيلة الصادقة ، منذ أن كتبت بأن رسائلى لاتعبّر عن أى التزام من ناحيتى شعرت بالارتياح ، وها أنذا أكتب لك رسالة طويلة دون أن أخشى وقوعها بين يدى عمة مرعبة فتجبرنى على الزواج من وحش مثلك . وأنا من جانبى أود أن أريح فكرك ، فرسائلك زهور عابقة بالنسبة لى وليست وثائق ملزمة . . أو بعبارة أخرى : أنت حرة . . أهربى ولا تتوقفى . . . ولكن لا ، دعى الأيام تفعل ما تشاء يا ليكا . اسمحى لراسى بأن يدور بعبقك وساعدينى على إحكام الأنشوطه التى طوقت بها عنقى . يمكننى أن أتخيلك وأنت تتهللين بخبث وتتضاحكين بعفرتة وأنت تقرأين هذه السطور . ولكن ما هذا الهراء الذي أكتبه ؟ مزقى هذه الرسالة أرجوك واغفرى لى كتابة مثل هذه الرسالة غير المفهومة والتى أرجو الا يطّلع عليها أحد . . . وداعاً يا غذاء روحى . . . أقبل علبة مكياجك باحترام وأحسد نعليك

القديمين لأنهما يلمحان وجهك كل يوم . أكتبي لى عما تفعلين . أتمنى لك كل خير ولا تنسى أنك انتصرت على عزيزك الملك ميداس » .

غير أن شيئاً لم يكن ليمنع تشيخوف من الاستغراق في العمل فى مكتبه ، حتى ممازحة ليكا أوسيل الضيوف الذى لاينقطع . وكانت الكتابة فى ميليخوفو تبدو شبه إجازة بالنسبة له ، وقد أنجز عدة قصص فى ذلك الصيف منها : « زوجتى » و « الجيران » . والأهم من ذلك كله « العنبر رقم ٦ » والتى تجري أحداثها فى مستشفى بأحد الأقاليم .

وعلى الرغم من كل النجاح الذى حققه ككاتب إلا أن تشيخوف لم يقطع صلته بالطب نهائياً . كان الطلب عليه كطبيب فى الريف يفوق ما كان عليه فى موسكو ، حيث يتقاطر عليه الفلاحون والعمال من المنطقة المحيطة ، رجالاً ونساءً وأطفالاً سعياً لعلاجهم مما يعانون من أمراض . كانوا يصطفون ببابه عند الفجر ، وسرعان ما يستيقظ البيت كله ليصبح عيادة تعج بالمراجعين ، يفحص تشيخوف كل مريض بكل دقة وعناية ويسجل ملاحظاته في بطاقات مخصصة لكل واحد من المرضى ويوزع عليهم مجاناً الأدوية التى أحضرها معه من موسكو . أما المرضى الذين يدفعون له أتعاباً فكانوا قلة ضئيلة .

اتسعت شهرته كطبيب بحيث أن المجلس المحلى طلب منه أن يكون مسئولاً عن الحملة التى نظمت في عام ١٨٩٢ لمكافحة وباء الكوليرا ، وذلك حين أصبحت المنطقة مهددة بانتشار هذا الوباء فيها . وقد تقبل هذه المسؤولية بصدر رحب ودون تردد ، وانكبّ علي قراءة أحدث ما كتب عن الموضوع . كانت خطوته الأولى هى إنشاء مناطق عزل فى كل من القرى الخمس والعشرين والمصانع الأربعة الموجودة فى المنطقة . ونظراً لأنه لم

يكن قادراً على تمويل هذه الحملة فقد استنجد ببلاغته لإقناع الأصدقاء والمعارف والجوار وأصحاب المصانع الأثرياء فى المنطقة بتقديم المساعدة . وأخذ ينتقل من قرية إلي أخرى فى عربة متداعية ليرشد الفلاحين حول سبل الوقاية من الوباء وليعالج حالات التيفوس والخناق والحمى القرمزية التى تصادفه بحيث زار حوالى ألف مريض فى غضون فترة أسابيع قليلة . وقد كتب لسيفورين يقول : روحى متعبة والملل يكاد يقتلنى ، فأنت حينما لاتكون سيد نفسك ، لاتفكر إلا بالإسهال ، وتستيقظ مذعوراً فى وسط الليل على صوت نباح الكلاب والطرق على البوابة (هل أتوا لاستدعائى ؟) ، وتركب خيولاً كريهة وتسير علي طرق غير معبدة ، ولا تقرأ إلا ما يتعلق بالكوليرا ولا تنتظر قادماً إلا الكوليرا ، ومع ذلك تشعر بلا مبالاة بالداء وبالناس الذين تقوم على خدمتهم - فإنك ستشعر في مثل هذه الحالة - دون شك بأن مثل هؤلاء الطباخين لابد لهم أن يفسدوا الطعام ! » . وفى رسالة أخرى إلى سيفورين يقول : « الفلاحون أجلاف ، لايهتمون بالنظافة ، ومتشككون ، غير أن إيمانك بأن جهودك لن تذهب هباءً يجعلك تتجاوز كل هذه المتاعب . غير أننى أجدنى في وضع أكثر إثارة للشفقة من كل الأطباء فى المنطقة . فعربتى وخيولي وضعها بائس ، ثم إننى أجهل الطرق ولا أستطيع أن أتبيّن طريقي أثناء الليل ولست أملك نقوداً وأتعب بسرعة . ولكن الأهم من كل ذلك هو أننى لا أستطيع أن أنسى بأنه كان من الأفضل لى أن أستثمر وقتى هذا فى الكتابة ، وتصل بى الأمور فى بعض الأحيان إلى التفكير برمى كل ما يتصل بالكوليرا وراء ظهرى لأنصرف للكتابة من جديد » .

غيـر أنه « لم يلق كل ما يتـصل بالكوليرا » وراء ظهـره ، بل أمكن بفضل جهوده ومثابرته إبعـاد الكوليرا عن المنطقة ، وإن كان لم يحاول أن ينسب الفـضل فى ذلك لنفسـه ، فنزوعـه للتشكك كـان يمنعه دائمـاً من الشعور بالرضا عن النفس . ولكن ما أرضاه عما قام به من عمل فى ذلك الصـيف .فى الأقـاليم هـو أنه اكـتـشف بين صـفـوف مـلاك الأراضي والمسؤولين فى المنطقة عدداً لايستهان به من الأشخاص المستعدين للبذل . وقد فاجأه أن يجد طبقة كاملة من المتعلمين المثقفين الكرماء الذين يختلفون اختلافـاً جذرياً عن مثقفى المدن الكبـيرة الذين كان تشيـخوف يضيق بهم ذرعاً ، إذ كـان هؤلاء يعتـبرون مـثل هذه المواقف مناسـبة لإثارة النقـمة السياسيـة . وهو يقول فى ذلك : « إذا كان اشتراكيـونا يريدون استغلال الوباء لأهدافهم الخاصة فـلابد لى أن أحتقرهم غاية الاحتـقار . فالوسائل الخسيـسة للوصول إلى أهداف نبـيلة إنما تجعل من تلك الأهداف خسـيسة أيضاً . فليخـدعوا الأطباء والمساعدين ، ولكـن لِمَ يخدعون الناس ؟ لِمَ يؤكدون لهم بأن مـن الأفضل لهم أن يبقـوا على جهلهم وبأن انحـيازهم الأعمى هو الحقيقة الوحيـدة التى لايرقى إليها الشك ؟ وهل يمكن لمستقبل جميل أن يكفّـر عن هذه الكذبة الدنيئة ؟ لو كنت سياسيـاً لما سمحت قط بأن يساء للحاضـر طمعاً فى كسب المستقـبل ، حتى ولو وعدونى بأطنان من النعيم مقابل قدر ضئيل من الأكاذيب الوضيعة » .

كـانت روح تشيـخوف المعنويـة تتردى مع حلول الشـتاء ، ومـرأي الحقول الجرداء المغطاة بالثلج والفلاحين وهم يلتقون بأسمالهم البالية . كل هذا كـان يعزز من شـعوره بالحـزن ، ويقول فى ذلك : « ليس هنـاك ما تفعله فى الريف أيام الشـتاء بحيث أن الإنسان يـتحول إلي مجـرد حيوان شره وسكير إذا لم يكن من المولعين بأعمـال تتطلب تشغيل العقل . رتابة العواطف الثلجية ، والأشجار العـارية ، والليالى الطويلة ، وضوء القمر والصمت الميت طوال ساعات الليل والنهـار ، والنساء الفلاحات الشابات

والمتقـدمات بالسن - كل هذا يبعـث على الخمول وتبلد الحس ، كـما أنه يضخم الكبد » . وحين أخـفقت سفراته القصيـرة إلى موسكو فى إدخال السرور إلى نفسه جرّب بطرسبـورج وسفورين . كان هذا قد أصيب بمرض فى فصل الخريف بحيث أن تشيخوف كتب لليونتييف وشيشيجلوف يقول : « ستكون خسارتى به فادحة بحيث أننى قد أشعر بأننى شخت عشر سنوات مرة واحدة » . وبعد أن تماثل للشفاء بعد عدة أشهر كتب لسفورين يقول : « يتتابنى مزاج شنيع حين أشعر بضرورة التحدث أو الكتابة لشخـص ما . أما أنت فـإنك الوحيد الذى أكـتب له أو أتحدث معـه أحاديث طويلة » ، ولكن تشيـخوف ما لبـث أن قرر فى أواخر عـام ١٨٩٢ أن يترك « الأزمنة الحديثـة » ويكتب فى مـجلة « الفكر الروسى » . ولا شك بأن هذا أزعج سيفورين وإن كانت صداقتهما قد استمرت .

ما إن أعاد تشـيخوف إلي ميليـخوفو حتى غـرق من جديد فى ذلك الصمت الشتائى الأبيض البارد ، بحيث يئس من رؤية الشمس من جديد . ولذا أخـذ يحلم من جديد بأمـاكن بعيـدة : الهند ، اليـابان ، جـنوب أفريقيا ، جزر الماديرا * ، بل ويحلم حتى بساخـالين ! ولم لا ؟ وكان قد التقى فى بطرسبورج بأحد أبناء تولستوى وهو ليف ليفوفيتش ، وقد وضعا معـاً خطة للسفـر فى فصل الربيع إلى شيكـاغو لحضـور افتتـاح المعرض الكولومبى للعام ١٨٩٣ هناك ، غير أن تشـيخوف ما لبث أن عدل عن منه الفكرة بسبب تكاليف السـفر ، كما أن حالتـه الصحية كانت ستمنعه عن السـفر على أية حـال إذ أن سعـاله كان يزداد حـدة . وحين فاجـأه أخوه ميخـائيل وهو يبصق دماً هبّ فيه صـارخاً : « ليس هذا بالأمر المهم . . . لاتقل كلمة واحدة من هذا الأمر لأمي أو لماريا » . وفى رسـالة لسيفورين

* جزر تتبع البرتغال فى شمال المحيط الأطلسى .

يحاول تبرير رفضه الخضوع للعلاج إذ يقول : « العدو الذى يقتل الجسم يتسلل إليه خفية ، مرتدياً قناعاً على وجهه - فقد تصاب بالسل ولكنك تفكر بأنه لاشىء . الناس يخافون السرطان لأنهم يظنون بأنه لاشىء . إن المرعب هو مالا تخاف منه . وليس ما يقلقك ، وإننى أعرف أننى سأموت بسبب داء لا أخشاه » .

السل والخفقان لم يكونا علتيه الوحيدتين ، بل كان يعانى من داء كريه بشع لم يكن يذكره إلا لألكسندر وسيفورين . « ليس ما أعانى منه هو الزهرى ، بل أبشع منه : البواسير . . . ألم وحكة وتوتر . لست أستطيع أن أجلس أو أمشى ، وجسمى كله يتألم بحيث أود لو أشنق نفسى. » . هذا الألم جعله سيىء المزاج ، بحيث أصبح يصعب عليه أكثر فأكثر أن يحتمل هذر أبيه ذا الطابع الجدى ، أو نواح أمه أو روتين الحياة اليومى . كان ميخائيل علي وشك الزواج ، ولكن هذا الزواج ألغى فى آخر لحظة . وكان يتصور نفسه فى وسط دراما مسرحية لامثيل لها ، إذ أن إيفان كان ينوى الزواج من فتاة من طبقة النبلاء : فتاة لطيفة طويلة الأنف ! » أما أبناء ألكسندر فإن ضجيجهم لاينقطع .

حتى الكتب لم تكن قادرة على إنقاذه من ذلك المزيج المتغلغل من التوتر والاكتئاب . كان يغرق نفسه فى تورجنيف ، وقد كتب لسيفورين فيما بعد يقول بأنه يجد تورجنيف « ساخراً » ولكنه أقل وسامة من تولستوى ! لست أظن بأن تولستوى سيشيخ فى أى يوم من الأيام ، وقد تصبح لغته قديمة الطراز ، ومع ذلك سيبقى هو شاباً . ومن بين روايات تورجنيف الرئيسية جميعاً كانت « آباء وأبناء » هى الرواية الملهمة الوحيدة من وجهة نظره . وكان تشيخوف يمقت الشخصيات النسائية فى كتابات تورجنيف ويعتبرهن « متصنعات وزائفات » . وقد كتب فى ذلك يقول : « حين تفكر بأنا كاريننا تولستوى فإن جميع نساء تورجنيف يمضين أدراج الرياح على الرغم من أكتافهن المكشوفة » .

لم يجد أمامه وهو محاصر بالمزرعة وبالكتب التى قرأها مرات ومرات من قبل إلا أن يحلم بالسفر والأصدقاء ومواعيد اللقاء بالمحبين ، وقد كتب لسيفورين معترفاً : « بى شوق مريع لممارسة الحياة الفعلية ، فالبحر يشدنى بقوة شيطانية ، وأسبوع واحد فى يالطا أو فيودوسيا سيكون نعيماً خالصاً بالنسبة لى . تسير الأمور سيراً حسناً في البيت إلا أن سيرها سيكون أفضل ألف مرة لو كنت أنا أركب ظهر زورق ، وأجلس على ظهر السفينة لأعب النبيذ وأتحدث عن الأدب ، وفى الليل أتفرغ للسيدات » .

ومهما كانت الأحلام التى تعتمل فى خياله حول الهروب إلى الشمس فإن تعلقه بوالديه كان يكبله فى البيت . وعلى الرغم من إنه لم يكن يتبادل الكثير من الحديث مع والديه ضيقى الأفق غير أنه لم يكن ليستطيع أن يتركهما وراء ظهره ويمضي . أما ألكسندر فقد كان يشجعه على الإنطلاق ، إذ كتب له بعد أن قضي عدة أيام فى ميليخوفو : « أترك كل شىء وراءك . تلك الأحلام عن الحياة في الريف وعن حبك لميليخوفو ، وكل تلك الأحاسيس والأعمال التى تقوم بها فى ميليخوفو ، ليس فيها شىء فريد . أى منطق أن تسمح لأليا تريمانتران* بالتهامك كما تلتهم الفئران الشموع ؟ » . غير أن تشيخوف ظل في مكانه لم يبارحه على الرغم من كل ذلك .

ومع تحسن الطقس أخذت سماؤه الداخلية تصفو أيضاً ، فزرع أشجاراً وشجيرات جديدة وأخذ يتقدم في كتابة مخطوطة ساخالين التى كانت تثقل صدره منذ عدة أشهر بل إن نذر وقوع موجة جديدة من وباء الكوليرا لم تؤثر فى روحه المعنوية . ولقد بذل كل ما فى وسعه هذه المرة لإنقاذ الفلاحين ، وكان ما أن يعود من إحدى القرى حتى يجد فلاحاً في انتظاره لاصطحابه لقرية أخرى ، وبذا كان عليه أن يؤجل اهتماماته الأدبية ليلتفت لواجباته كطبيب ، قد يلعن الأسباب التى تصرفه عن عمله

* لقب كان الأخوة تشيخوف يطلقونه على والدهم .

الأدبى ، ولـكنه لايـتهـرب من واجـبـاته قط ، وقـد مـرت تلك السنة كسابقتها ، دون أن تخلف وراءها ضحايا فى منطقته .

ومع حلول الصـيف بدأت جـمـوع الزوار فى التـوافـد من جـديد وأصبحت ميليخوفو ثانية مسرحاً للمشاوير والألعاب والمداعبات كان هناك كلبـان من نوع الدشهند (وهو كلب ألمانـى صغيـر طويل الجـسم قصـير القوائـم) أطلق عليهـما اسمى بـرومايد وكوينـين ، يركضان عنـد قدمى تشيخوف ، وقد أهداهما له الكاتب لايكن ، وقـد كتب عنهما لسيفورين يقول : « إنهـما مـريعان ، فلهمـا سيقـان معوجـة وجسـمان طويلان ، ولكنهما ذكيان بصورة غير عادية » . وعند العشاء كانت يفجينيا ياكوفليفنا تعبر بلا انقطاع عن خوفها بألا يكون الحـضور راضين عما تقدمه لهم من طعام ، بينما يلقى بافل ييجوروفـيتش مواعظة الإنجيلية ذات اليمين وذات الشمال . أمام أنطون فيحاول ، وهو يعتمل غيظاً فى بعض الأحيان ، أن يأخـذ الأمر مأخـذ المزاح ، كمـا يحاول أن يرتقى بمستوى الحـديث إلى مستويات أرفع ، وبعد ذلك يسترخى الجميع فى الصالون الرئيسى للتدخين وتبادل الحديث وسماع الموسيـقى ، كانت ليكا تغنى وتعزف علي البيانو ، أمـا أجناتى بوتابينكو ، وهو كـاتب من الرواد الجدد لميليـخوفـو ، فكان يعزف عـلى الكمان أو يغنى مـقاطـع لتـشكايـكوفسـكى أو جـيلينكا * بصوت جهورى دافئ .

كان تـشيخـوف ودوداً مع الجمـيع ولكنه يتـوقف بشكل واضح عند حدود معـينة دائماً . وكان بوتابينكو يتسـاءل بينه وبين نفسه فيـما إذا كان يمكن لإنسان اجتـماعى بهذا الشكل ، ولكنه يرسم حدوداً معـينه لعلاقاته مع الآخـرين دائماً ، أن يكون صـديقـاً صدوقـاً فى أى يوم من الأيام .

* ميخائيل إيفانوفيتش جيلينكا (١٨٠٤ - ١٨٥٧) مؤلف موسيقى روسى .

وحتى حين يبدو تشيخوف مندمجاً تماماً مع ما يجرى حوله ، فإنه ربما يكون منشغلاً فى الوقت ذاته بالمخطوطة التى تركها على مكتبه ، ولذا تكفهرّ عيناه فجأة ويغادر الغرفة ليسجل جملة برقت فى مخيلته . وحين يعود من مكتبه يعتذر للموجودين قائلاً إنه كسب لتوه ستين كوبيكاً ، بل لم يكن ليتورع عن مقاطعة جدال حول موضوع جاد مثل الماركسية ليوجه سؤالاً ينم عن شرود الذهن مثل « هل سبق لك أن زرت مزرعة لاستيلاد الخيول ؟ » ولكنه ما يلبث أن يعود إلي موضوع المناقشة الأصلية دون أن يبدو عليه إلا أقل قدر من الحرج . لم يكن ليطيل الحديث عن نفسه قط ، ويحاول دوماً ألا يكون قبلة الأنظار . وكان يبدو كما لو أن يتكىء على يده ويراقب الحياة وهى تجرى أمام عينيه ، مكتفياً بالمراقبة دون المشاركة فى الحدث ما أمكن ذلك .

كان هذا شأنه فى الأمور المتعلقة بالحب دون شك . إذ على الرغم من أنه كان يسعى لصحبة النساء الحسناوات إلا أنه كان حريصاً على ألا يقيم علاقة جدية مع واحدة من النساء بالذات . وليكا التى كان يمطرها بالرسائل الساخرة حينا والمتقدة حيناً آخر لم تكن قادرة على التوصل إلي قناعة مؤكدة حول موقفه منها على وجه التحديد . وفى صيف ذلك العام ، ١٨٩٣ ، لم تكن تدرى هل تذهب إلى ميليخوفو أم تتجنب ذلك ، وقد كتب لها يقول : « تعالى لرؤيتنا يا ليكا الحلوة الجميلة. سنتحدث ونتجادل ونتخاصم ثم نتصالح . . . تعالى وغنّى يا ليكا ، يا أجمل الجميلات » .

جاءت بالفعل لتكتشف بأن هذر تشيخوف لم يكن في الحقيقة إلا ستاراً يخفى نيته الباردة والمبيتة بعدم الزواج . وفى محاولة لإثارته تعمدت مغازلة بوتابينكو . غير أن تشيخوف لم يظهر أى مشاعر تنم عن

الغـيرة ، وحين كـانت ليكا ترافق بوتابينكـو وهو يعزف أو يغنى وتعـزف على البيانو كان يتأملهما مبتسماً وكأنما يسره هذا الأمر غاية السرور .

عادت ليكا إلي موسكو تعسة مشوشة وكتبت لتشـيخوف تقـول : « إننى أحرق الشمعة من طرفيها ، فتـعال وساعدنى علي إحراقها بأقصى سرعة ممكنة ، وكلما تمّ ذلك بسرعـة أكبر ، كان هذا أفضل » بل وكانت أكثـر وضوحـاً وصراحة فى بـعض الأحيان ، إذ تقـول : « هنالك رجل واحد فقط فى هذا العالم يستطيع أن يمنعنى من تحطيم نفسى بهذه الصورة الواعـية والمتـعـمدة ، غيـر أنه لايكترث بى ، لقد انتـهى الأمر على أية حال . . لاتنس الفتاة التي خلفتها وراء ظهرك » .

وفى النهاية تقول : « أنت تعرف شـعورى نحوك تمام المعرفة . ولذا فلست أتحرج من الكتابة لك ، فأنا أعـرف أن موقفك هو مجـرد تـودد ولا مبالاة ، وكل أملى هو أن أشفى نفسى مـن الحالة البائسة التى أجدنى فيـها . إلا أنه يصعب علىّ أن أفـعل ذلك بمفردى ، أرجوك سـاعدنى ، وأتوسل إليك ألا تطلب منى أن آتى لرؤيتك ، كما أرجو ألا تحاول رؤيتى بعد » . ولكى تهـرب من سحر تشيـخوف الذى يسيطر عليهـا حتي ولو كانت بعيدة عنه ، أصبحت عشيقة لبوتابينكو .

أما تشيخوف فقد حـوّل انتباهه فى ذلك الصيف إلي امرأة التقى بها فى مـوسكو ، وهى ممثلة شـابة اسمـهـا « ليديا يافـورسكايا » . كـانت أساليبهـا فى الغزل وصوتها الخشن بعض الشىء وحبها للأشـياء الغريبة ، كلها أشياء تتعارض مع البساطة التى تلفت انتباه تشيخوف فى العادة ، بل أن تصنعها هو ما جذبه إليـها فيما يبدو . وسرعان ما أصبـحت علاقتهما حديث المجالس في موسكو ، فقد وعد بـأن يكتب لها مسرحية ، وكانت تكتب له رسائل تختمها بالقول : « حبى وقبلاتى ! » .

وسرعـان ما أدركت ليـكا أن يافورسكايا احـتلت مكانتهـا فى قلب تشيخـوف فمن ناحية ، كانت ضمن الجـوقة التى كانت تستقـبله بترحاب كلمـا جاء إلي مـوسكو . وكانت النسـاء المغرمـات به بدرجة أو بـأخرى يعرفن بعضهم البعض ويحتقـرن بعضهن البعض ، وإن كنّ يتظاهرن بغير ذلك . وقد لجأت ليكا إلى حيلة مسـتهلكة آملة أن تحقق من ورائها بعض النتائج ، حـيث كتبت لتـشيخوف فى ٧ تشـرين الثانى / نوفمـبر ١٨٩٣ تقول : « قـضت السيـدة يافوربسكايا أمـسية مـعنا مؤخـراً ، وقالت بأن تشـيخوف سـاحر وأنهـا مصـممـة على الزواج منه وقـد طلـبت منـى مساعـدتها في هذا الأمر ووعدتهـا بأن أبذل قصارى جهـدى حرصاً على سعادتكما كليكما . أرجو أن تفيدنى إن كنت تحبها . أكتب لى وليس لها بالطبع ، وداعاً يا قاتل روحى ! أرجو أن تكتب . . . » .

ولكن هذه الحيلة لم تنطل عليـه ، وجاء جواب تشيـخوف فورياً فى قصـاصة من خمـسة أسطر يلقب ليكا « بالوسـيطة العزيزة » دون أن يبين مشاعره إزاء يافورسكايا . ولـم يكن في الحقيقة يعترض على فكرة أن تحوم حوله مـجمـوعة من الشابـات اللاتى يتنافسن عليـه بلهفة ، وكـان يطلق عليهن لقب « السـرب » ، وعلى نفسه لقب « الأميرال » . أمـا هنّ فقد لقبنه بـ « أفيلان » وهو قـائد السرب الروسى الذى توجه إلى طولون عام ١٨٩٣ لإبرام معـاهدة روسيـة - فرنسيـة . . وفى موسكو كـان يقيم فى فندق « جراند أوتيل » حيث كانت الـغرفة ر قم « ٥» فى انتظاره دائماً ، والتى يأتى إليها المعجبون للالتـقاء به ، وقـد كتـب لسيفورين يقـول : « بنات ثم بنات ثم بنات . . . » تعبيراً عن شعوره بأنه لم يحسّ مثل هذا القدر من الحرية من قبل . إلا أن شيسـيكيبا كوبرنيك تدعى بأنه كان يبدو دائماً بوجـود هؤلاء الفتـيات وكأنه مـشغول عنهن ، وكـأنه رجل يداعب أطفـالاً ، وحين رأى صـورة له وهو يقـف مـحـدقـاً بآلة التـصـوير ين

شيسبيكيبا - كوبرينك وبـاتى فورسكايا وهما تبتسمان بتكلف وضع لهـا عنواناً : « إغراء القديس أنطوان » . وعلـى الرغم من أنه كان يصر على أن الغـرائز الجنسيـة هى الأسـاس فى الحب إلا أنه لم يكن يجـد سبباً يدفعـه لتمجيـد مغامـرات الجسد . كمـا إنه لم يكن يبدى نشاطاً جنسـياً ظاهراً . ولقد كتب لسيفورين يقـول : « كل المفكرين يصبحون عاجزين جنسيـاً فى الأربعين ، فى حين أن المتوحـشين يتخـذون لأنفسهـم تسعين زوجة فى « سن التسعين » . بـل إنه دعا ليكا وبوتابينكو لحفلة رأس سنة عام ١٨٩٤ ، إما دونما قصد أو من باب المجاملة .

فى ذلك الوقت كانت مخطوطة « جزيرة ساخالين » قد بدأت تنشر على شكل حلقات فـى مجلة « الفكر الروسى » ، وإنجازه لهـا ازاح هماً ثقـيلاً عن كـاهله . وقـد كتب حـول ذلك يقـول : « لايمكن للطب أن يتهمنى بالخيانة بعد . لقد دفعت الدين المستحق علىّ للعلم المجرد ولما كان يسميـه الكتاب القدماء بالـتعليم من الكتب وليس من الممارسة العـملية ، ويسرنى أن أعلق فى خـزانتى الأدبية رداء المحكومين الخـشن » . كان فى ذلك الحين قد أصبح الكاتب الأول من كتاب جيله ، وكان النقاد يمتدحون فنّه وقدرته على ملاحظة الأعـراف والتقاليد المتبعـة فى عصره . وأخذت الصحف والمجلات تلاحقه للحصول على كـتاباته وأخذت كتبه تطبع مرة بعد أخرى وتتـرجم إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانيـة . فلا غرابة إذن أن يقبل القراء على « ساخالين » بكل حماس ، وإن كان معظمهم قد أصيب بخيـبة أمل . فقـد كانوا يتوقعـون كتاباً عـاصفاً درامـاتيكيا يدير الرؤوس ويكمل ما بدأه ديـستويفـيسكى فى « ذكريات مـن بيت الموتي » إلا أن ما وجدوه كان تقريراً وقوراً غير متحـيز وصفه البعض بأنه جاف - حول فترة إقامـته بين المحكـومين ولكنه ، سواء أكـان جافـاً أم غير جـاف ، حظى باهتـمام المسـئولين على الفـور إذ تم إيفـاد لجنة فى الحال للتـحقـيق فى

إدعـاءات تشيـخوف ، وأدت الإصـلاحـات التى اقتـرحـتهـا اللجنة إلى التخفيف من حدة الظروف السيئة التى يعيش المحكومون فى ظلها . وبذا غدا بإمكانه أن يتنفس الصعداء إذ لم تذهب جهوده أدراج الرياح .

وعلى العكس من « جزيرة ساخـالـين » حظـيت قصـته الطويلة : « العنبـر رقم ٦ » والتى كانت قد نشـرت فى العام السـابق وكانت أكـثر قصـصه كآبة . حظيت باستـقبال واسع ومتـحمس من جمهـور القراء . والعنبر هذا هو عنبر لمرضى الأمراض العقلية فى مستشفى بأحد الأقاليم . وكبير أطبائه ، الـدكتور راجين ، هو طبيب ضعيف الشخصـية فاتر الهمة استكان منذ وقت طويل لمعاقرة الفودكا وتناول الخـيار المخلل مسترسلاً فى أحلام اليقظة . وهكذا يستغرق في أحلامـه الذاتية متجاهلاً عن عمد كل مظاهر الفسـاد والعنف والقذارة والبؤس التى تحـيط به ، وكل ما يمكنه أن يجيب به لدى سماع قصص عـذاب مرضاه هو القول : « لافائدة » . أما نيكيتا الحارس المستبد فهو القيّم علي المرضى ، إذ يتولى ترويضهم بضربهم ضربـاً مبرحـاً بإنتظام ، وحين يقـرر راجين أن يمسك بزمام الأمـور يكون الأوان قد فـات ، فغـرابة أطواره سـمحت للعالم الخـارجى بأن يعتـبره مجنوناً . وينـتهى به الأمر بأن يصـبح هو نفسه نزيلاً مـن نزلاء العنبر ، تنهال عليـه بدوره ضربات نيكيتا العنيـفة ، ولا يدرك إلا حين يأتى أجله مدى الجـرائم التى ارتكبـها بتـجاهله الأهوال التى كـان يمكنه أن يقف فى وجهها ويستنكرها .

يقدم تشيخوف في « العنبر رقم ٦ » مزيجاً قوياً من التصوير الواقعى والمرضى ، بحيث أن القصـة أثارت قدراً كبيراً من الجـدل والنقاش ، وقد رأى فيهـا البعض نقداً مقنعاً لـفكر تولستوى القائم على عدم مـقـاومتـه الشر ، فى حين رأى فـيها البـعض الآخر نشـرة دعائية سـياسيـة تهاجم السلطات بحيث أن العنبر رقم ٦ إنما هو تجـسيد لروسيا برمتـها ، ونيكيتا هو السلطة القيـصرية والطبيب المتـحرر من أوهامه هو الطبقـة المثقفة غـير

الفاعلة في روسيا ، أما تشيخوف ، فبتحفظه المألوف ، رفض تفسير هدفه من القصة ، فمهمة الكاتب في رأية هي أن يخلق العمل لا أن يفسره .

وعلى الرغم من الشعبية التي لاقتها قصته « العنبر رقم ٦ » إلا أن سيفورين أعرب عن اعتقاده بأنها تخلو من الكحول ، ويمكننا أن نفهم ما يعينيه بذلك من رد تشيخوف المتواضع إذ يقول « تذكر أن الكتاب الذين نصفهم بأنهم خالدون ، أو ببساطة كتاباً جيدون ، الكتاب الذين تثملنا أعمالهم ، إنما يتصفون بصفة عامة بصفة مشتركة : وهي أنهم يتجهون إلي هدف محدد ويومئون لك بأنت تقتفي أثرهم . وأنت تشعر بكامل كيانك ، وليس بعقلك وحده ، بأن لديهم هدفاً معيناً ، مثل شبح والد هاملت الذي يمثل بمجيئه دافعاً يحرك مخيلة هاملت ، وتبعاً لمقدرة هؤلاء الكتاب ومنزلتهم ، فإن لبعضهم أهدافاً مباشرة مثل إلغاء الرق أو تحرير أرض الوطن ، أو تحقيق أهداف سياسية أو جمالية ، أو مجرد الفودكا - بينما يجد البعض لأنفسهم أهدافاً أبعد - الله ، الحياة الأخرى ، سعادة البشرية ألخ . . . وأفضلهم هم الواقعيون الذين يصفون الحياة كما هي في واقع الأمر ، وهذا هو ما يأسر لبك . أما وضعنا نحن ، فإننا نكتفي بوصف الحياة كما هي عليه ، ثم نحزن ونقف عند هذا الحد ، ولا نرفع حافراً ، حتى لو هاجمتنا بالعصا بكل عنف . ليس لدينا أهداف قريبة أو بعيدة ، بل هناك فراغ في أرواحنا ليس لدينا مفاهيم سياسية ولا نؤمن بالثورة ، وليس لنا إله ولا نخاف الأشباح ، وأنا شخصياً لا أخاف حتى الموت أو العمى . فإن لم تكن تطمح للوصول إلى شيء ولا تأمل بشيء ولا تخشى شيئاً فلن تكون فناناً على الإطلاق » .

غير أن رفض تشيخوف اعتبار نفسه فناناً لم يكن ليخدع أحداً ، إذ خلبت العقول قصته المطولة التالية : « قصة رجل مجهول » والتي كان قد بدأها قبل خمس سنوات ثم ألقى بها في أحد الأدراج خشية أن يشوهها

الرقيب ، ولكنه حين قدمها فى النهـاية أجيزت دون أن يحذف منها سطر واحد ونشـرت كاملة فى مجلة الفكر الروسى عام ١٨٩٣ . تروى الـقصة بصيغة المتكـلم حكاية إرهابى ثورى يعمل خادماً لدى ابن مسئـول كبير ، بنية اغتـيال هذا المسئول ، وتكمن قـيمة القصة فى التـحليل السيكولوجى لأورلوف ، وهو شخـصية ساخـرة ذات تجربة واسعة بالحـياة ، وعشيـقته وهى امراة عاطفية هشة اسمها زينا ، وشيئاً فشيئاً تتلاشي حماسة الإرهابى بالنسبـة لتنفيذ عمليـة الإغتيال بحكم حـبه لزينا ، وقد ووجه تشـيخوف بغضب النقاد الليبراليين نظراً لأنه نسب مثل هذا الضعف لشخصية يسارية مثالية ، إذ هاجـموه لأنه يصور البطل على أنه رجل يفتقر لـلشجاعة التى تتطلبها قناعاته .

أما قصــــته الرئيسية التـالية « الراهب الأسود » فقـد وجدها القراء محيـرة ، ولكن لأسباب مخـتلفة عن سابقتهـا ، فبعد ظهـيرة أحد الأيام اندفع من غرفته فى ميليخوفـو وملامح الألم مرسومة على وجهه ، وكان الجميع نـياماً باستثـناء أخيه ميخـائيل ، فبادره قائلاً : « لقـد رأيت لتوى حلماً مرعباً لـم أر مثله من قـبل ، فقد زارنى راهب أسود » . استبدت به قصـة هذا الحلم فحاول أن يتخلص مـنها بكتابتهـا ، وبذا دخل لأول مرة نطاق عالم ما وراء الطبيعة .

وقصة « الراهب الأسود » ، كما رآها تـشيخوف ، هى دراسة لحالة العُصـاب (الاضطراب العصـبى الوظيفى) ، وبطلها كـوفرين فـيلسوف عادى الموهبة تصاب أعصابه بالوهن بسبب الإجهاد العقلى فتنتابه هلوسات حول راهب أسود يحلق فوق الحقول . ويقوده هذا الأمر إلى الاعتقاد بأن العناية الألهية قد اختـارته ليصبح خادماً للحقيقة المطلقة ، فـيشتعل فخراً

بتفوقه على غيره من بنى البشر إلى أن تصرّ زوجته ووالدها على ضروره خضوعه للعلاج . وحين يعود إلي طبيعته يعاني معاناة شديدة من كونه واحداً من بنى البشر العاديين : « كنت أفقد صوابى فتنتابنى أوهام العظمة ، لكننى كنت مرحاً أشتعل بالحياة ، بل سعيداً . وكنت ممتعاً وأصيلاً . أما الآن فقد أصبحت أكثر عقلاً ورصانة ، ولكنى صرت مثل كل الناس ، عادى المقدرة ، وأضحت حياتى مملة » .

يحنق على زوجته لأنها أجبرته على تلقى العلاج فيهجرها ليمضى وراء حلمه ، ولكن فى اللحظة التى يعاود فيها راهبه الأسود الظهور أمام عينيه يموت كوفرين المصاب بالسل وهو ينفث دماً .

أعتبر البعض هذه القصة الغريبة عملاً فنية فذاً من الأدب الخيالى ، بينما اعتبرها البعض الآخر بمثابة سخرية من المثقفين الذين يدعون أنهم يمتلكون أسرار السعادة الكلية وينكرون القوانين ، ولقد أسعد تشيخوف أن يسمع من أحد أصدقائه بأن تولستوى الذى قلما يمتدح أحداً فى العادة قد هتف بعد قراءته للقصة قائلاً : « ساحرة . . . أجل ، إنها ساحرة ! » بحيث اعتبر تشيخوف وكأنما منح علامة مرتفعة من أستاذ مرموق على مستوى عالمى . ولكنه كان يبتعد فى الواقع شيئاً فشيئاً عن تعاليم حكيم « يا سنايا بوليانا » . كان يتقبل مثلاً تعليم تولستوى بشأن حب المسحوقين وكراهية العنف والطموح للعدالة ، ولكنه يتوقف فيما يتعلق بتمجيد الفلاح الروسي واعتباره مقدساً . ولقد كتب فى ذلك لسيفورين قائلاً : « إن دماء الفلاح تجرى فى عروقى ، ولذا فلست من النمط الذى تأسره فضائل الفلاح . وفلسفة تولستوى أثرت بى وخلبت لبى لست سنوات أو سبع ولكن ما تأثرت به لم يكن مسلماته الأساسية- فأنا أعرفها من قبل - بل طريقته فى التعبير عن نفسه ، وحصافته وربما أيضاً نوع من التنويم المغناطيسى . إلا أن شيئاً فى داخلى يتمرد الآن ، فالمنطق

والعدالة يقـولان لى أن فى الكهرباء حـباً للإنسانيـة أكثر مما فى التـعفف والامتناع عن أكل اللحـوم . الحرب شر ، ونظام القضـاء شرير ، إلا أن هذا لايعنى أن علىّ أن أرتدى حذاء مـصنوعاً من لحاء الشجـر وأنام قرب المدفأة إلى جانب الـفلاح الأجير وزوجته وما إلى ذلك من أمور . ولكن هذه ليست القضية ، ليس الأمر أمـر حجج مؤيدة وأخرى معارضة ، بل المسألة أن تولسـتوى خرج من حيـاتى بطريقة أو بأخري . لم يعـد يحتل قلبى ، وغادرنى وهو يقول : « أنتـبه إننى أترك بيتك خالياً لامـتاع فيه ! أجل ، إننى متحرر الآن من كل المستأجرين ! » .

بعـد « الراهب الأسـود » نشرت « الـفكر الروسى » قـصة أخـرى لتشـيخوف ذات طابع مخـتلفه كل الأختلاف ، فـأنا بطلة « مملكة امرأة » ورثت مصنع والدها ، وأصبحت وهى فى سن السادسة والعشرين سجينة ثروتها ووضـعها الاجـتماعى ، وهى تحلـم بالزواج من أحد عمـالها فى المصنع واسمه « بيمينوف » ولكنها تستسلم للضغط الواقع عليها من جانب العالم الذى قـدّر لها أن تعيش في كنفه : « أدركت بكـل جلاء ووضوح بأن كلّ ما فكرت به وقالته حول بيـمينوف والزواج من عامل بسيط ما هو إلا مجرد هراء وكـلام فارغ وحماقة . . . أحـلامها حول بيـمينوف كانت صادقة وسامية ونبيلة ، ولكنها تشعر في نفس الوقت بأن لا يفيتش ، بل وكرايلين (وهو محامـيها ومسئول كبـير فى نفس الوقت) ربما كانا أقرب لها من بيمينوف وكل العمال مجتـمعين ! » قصة أخرى حول مُثُل ساذجة تتحطم على صخرة الواقع الكئيب .

أخذت مسحـة التشاؤم تنتقل من عمل أدبى إلى الذى يلـيه ، فتردى حالتـه الصحية لم يكـن ليسمح له بالشعـور بالخفة والنشـاط ، إذ كانت نوبات السعـال التي يعانى منها فى الصبـاح الباكر تتركـه فى حالة منهكة تلازمة لساعـات عدة . وفى شهر شـباط ١٨٩٤ قرر فجـأة أن يتوجه إلى

الجنوب ، فوصل إلى يالطا بشمسها المشرقة فى ٥ آذار / مارس ، وأسعده أن يرى من جديد الفلل البيضاء الممتـدة على طول شاطئ البحر ، وأشجار السرو والسماء دائمة الزرقة ، تماماً كما يتذكرها . أقام فى فندق ريسيا على أمل أن ينعزل عن العـالم لينجز الجـزء الأساسى من مسـرحية كـان بصدد كتـابتها ، غـير أن الأصدقـاء والصحفـيين والممثلين المتـجولين مالبـثوا أن اقتحـموا عليه عزلته بحـيث كان يتميز غيظاً للـساعات التى تفلت من بين يديه وهو يتحدث إليهم .

وفى بداية إقامـته هناك تلقى رسالـة يائسه من ليكا ، فقـد كانت في برلين فى طريقها إلى باريس للقاء بوتابينكو ولتلقى دروس فى الغنـاء هناك . اشتكت ثانية من « رفض » تشيخوف لـها وبأنها لاتستطيع أن تحزم أمرها وإنها قد تنـهى الموضوع برمته . غيـر أن تشيخوف ، وقـد أكسبتـه خبرته صلابة يرفض الخـضوع أمـام هذه اللهجة المأسـاوية فيكتب لهـا قائلاً : « شكراً لرسالتك ، وعلى الرغم من أنك أرعبتنى بقولك إنك ستموتين قريباً ، وعلى الرغم من أنك تغيظيننى بقولك أننى رفضتك ، فإننى أشكرك على أية حال . إننى أعرف تمام العرفـة أنك لن تموتى وأن أحداً لم يرفضك » . وما يلبث أن يحدثها عن فرقة من الـهواة ساعدها على تمثيل « فاوست » ، كما يحدثها بأنه تناول طعام الغذاء مع مديرة مـدرسة ، وبأنه يفتقد « فتياته » ، وأن أقسى طـموحاته هـو أن يعيش حـياة الكسل ويحب فـتاة عـامرة بالصحة . وهو يرجو مـكاتبته الساحرة أن تتزوج منه بعد أن تـصبح مغنية مشهورة ثرية بحيث تجنبه عناء العمل ، ويختم رسالته بأن يرجوها أن تعود إلى روسيـا فيقـول : « تكلمى مع بوتابينكو ، فـهو عائد إلى روسـيا فى الصيف وستكون الـرحلة معه أقل كلفة . اطلبى منه أن يشـترى لك تذكرة القطار وتناسى أمر دفع ثمنها له (ولن تكون هذه المرة الأولى !) » .

ونظراً لأن صحته لم تتحسن على الرغم من طقس يالطا الدافئ وهوائها المالح فقد عاد إلى ميليخوفو بعد أربعة أسابيع فقط . . . وما لبث أن تهاوى من جديد أمام سحر ربيع الريف الروسى . كان يخرج إلى الحديقة وهو يرتدى «الروب» ويجلس عند حافة البركة غارقاً فى أحلام اليقظة ويزرع الزهور ويحدد ممرات جديدة فى الحديقة ويذهب فى نزهات على ظهر الحصان ، والكلبان برومايد وكوينين يقتفيان أثره . رائحة قش الحصاد تدير رأسه كما يقول فى رسالة لليونتيف - شيشجلوف ، ويضيف « اقض ساعة أو ساعتين على كومة من القش وستتخيل نفسك فى أحضان امراة عارية » أما لسيفورين فهو يقول « العيش فى أحضان الطبيعة دون أن تقوم بأى عمل هما فى اعتقادى عنصران أساسيان من عناصر السعادة » . كان له بيت صغير بناه خلف بستان الكرز وكلفه ١٢٥ روبلاً وكان يطلق عليه بغرفتيه وسقيفته اسم « بيت اللعبة» ، ويهرب إليه حين يحتدم الضجيج فى البيت العامر بالضيوف. وفى هذا البيت الصغير كتب « طائر النورس» .

ولكنه كان يستحث السفر ذلك الصيف ، فقد حاول أن يحث سيفورين على مرافقته فى رحلة على طول نهر الفولجا - حيث يمكنهم زيارة أديرة ومقابر قديمة ، أو التوجه إلى فيدوسيا وسويسرا ، أى رحلة والسلام كما يقول فى رسالة له : « هناك قوة ، أو قل نذيراً يحثنى على الإسراع . قد لا يكون نذيراً بل هو شعور بالأسف لأن الحياة تمضى بنا بصورة روتينية رتيبة مملة ، يمكنك أن تصف هذا الشعور بأنه تمرد الروح » .

ونظراً لأن سيفورين لم يبد حماساً فقد تحول إلى بوتابينكو الذى كان قد عـاد برفقـة ليكا من الخارج . وبما أن بوتابـينكو نفسـه لم يحاول إيضـاح تطورات علاقتـه العاطفية فإن تشـيخوف لم يحاول توجيـه أية أسئلة حول الموضوع . كانا يسـتمتعان بصحبـة بعضهما البعض ويتطلـعان كلاهما إلى رحلة الفـولجا . وفى سـوق نزنى نوفـرجرود الصـاخبـة التـقيـا بالكاتب سيرجينكو ، وهو كاتب مهذار ذو طبيعة أنانية ينتهج تولستوى ، وقد أفسد وجوده عليهما الجو الجميل الذى كانا يستمتعان به بحيث أن تشيخوف حزم امتعته وعاد إلى ميليخوفو .

وحين علم هناك بأن عمه متروفان على فراش الموت استقل القطار على الفور متوجـهاً إلى تاجنروج بهدف تقديم العون لمتروفـان وعائلته فى المقام الأول ، ولأنه يريد أى حجـة تمكنه من الرحيل من جديد . غيـر أنه ما أن وصل إلى هناك حـتى ندم على قـراره بالقيـام بهـذه الرحلة ، فـالقضـايا المشتركة بينه وبين أفراد عائلته تضاءلت ، كما أنه كان عليه أن يستقبل سيلاً لا ينقطع ممن يأتون لرؤية الكاتب الكبير بعد أن نـشرت الصحف المحلية نبأ وصوله إلى المـنطقة . وبعد أن بقى هـناك لمدة ستة أيام إلى جـوار فـراش عمـه ، أدرك أنه لا يستطيع أن يفعل له شـيئاً ولذا هرب إلى فـيـدوسـيا حيث استقبله سيفورين بترحاب في فلته الخاصة . غير أن الطقس كان بارداً وكان هو يسعل بشدة بحيث أن شيئاً لم يكن قادراً على تبديد شعوره بالملل ، حتى أحاديثـه الحميمـة مع سيفورين ، ولذا أبحـر إلى يالطا حيث علم بوفاة عمه . وقد كتب لابن عمـه جيـورجـى يـقول : « أحببت عمى الراحل من كل قلبى ، كنـت أحبـه وأحـتـرمـه » . ذكرياته عن عـمـه كـانت تثير فى نفسـه أيضـاً ذكريات أيـام البؤس فى تـاجنـروج التى

كـانـت تغـط فى نوم عميق،والمدى الذى قطعـته حياته منذ أن غادرها . وما لبث أن سيطر عليه الحنين للرحـيل من جديد ، ففى اللحظة التى يحط فيهـا الرحال تلتهب الأرض تحت قـدميه من جديد ويخـزه دافع قوى على السفر باستمرار .

توجه من يالطا إلى أوديسا ومنها ، عبـر فيينا ، إلى أبازيا وهى منتجع للميـاه المعدنيـة على البحر الأدريـاتيكى ، وقد رافقـه سيـفورين فى هذه المغامرة . كان تشيخوف يشعر بتـأنيب الضمير ، لقيامه بهذه الرحلة بسبب تكاليفها ، ولذا أخفى أمرها عن عائلتـه ، حتى عن شقيقته ماريا التى طالما كان يطلعها على أسراره . وقد كـتب لليكا من فييـنا يقـول : « لا تكتبى لأحد فى روسيا رجاءً بأننى فى الخارج،فقد غادرت سراً ،وكأننى اللص ، وماشا تظننى فى فيدوسيا . سيزعجهم أن يعرفوا أننى فى الخارج فقد زادت رحلاتى عن الحـد المقبول فى الأونة الأخيـرة . لست فى حـالـة حسـنة ، وأنا أسـعل باستـمـرار تقـريباً ، ويبـدو أننى فرطـت بصـحتى كـما فرطـت بك ! » .

وبعد ثلاثة أيـام كتب لليكا من أبازيا بأن الطقس السيئ يلاحقـه أينما ذهب ، وأنهم يودون البـحث عن الشـمس فى نيس . وفى طريقـهم إلى هناك توقـفوا فى تريسـتا والبندقـية وميـلانو وجنوة . ومن ميـلانو أرسل لشقيقـته رسالة مطولة مليئة بأحاسيـس تأنيب الضمير ، ينبئها فـيها بهروبه ويتسـاءل فيمـا إذا كانت تملك من المال ما يكفى احـتياجـات العائلة . ثم يلخص انطباعاته فـيذكر أنه اشترى من فـيينا قبعة خـيال (جوكى) تغطى الأذنين . وفى البندقـية ابتاع ثلاث ربطـات حريرية وكأسـاً « ملونة بألوان

الفردوس » . كما حضر فى ميلانو عرضاً مسرحياً « للجريمة والعقاب » - وأدى الممثلون أدوراهم بصورة أفضل من أقرانهم الروس - وزار فرناً لإحراق الموتى،وأنه يتطلع الآن للقيام بجولة فى مقبرة جنوة . وقد أبدى سيفورين استغرابه لهذا الذوق الذى ينم عن المرض لدى رفيقه . وعلى الرغم من أن تشيخوف كان يقلل من أهمية الموت باستمرار ويستهين بأمره ، الا أنه كان فيما يبدو يشغل تفكيره دائماً .

وفى تشرين الأول / أكتوبر ، وبينما كان فى نيس ،تلقى رسائل عدة من ليكا أرسلتها من سويسرا ، فقد قررت فى النهاية أن تبتلع ما تبقى لديها من كبرياء وتحدثه عن خيبة أملها فى الحب . فبعد أن « رفضها » تشيخوف استسلمت لبوتابينكو وتبعته إلى باريس . ولكنه ما لبث أن سئمها وعاد إلى زوجته وتوجهت العائلة السعيدة إلى ايطاليا بينما بقيت هى فى مكانها تحمل طفل بوتابينكو . وهى تقول لتشيخوف : « من الواضح أننى سأواجه مصيرى المحتوم ، واحتقار من يحبوننى ، وتضيف إنها تود أن تحدثه بسبب وحدتها وتقول : « إننى تعسة إلى أقصى حد ، ولم يبق شئ من ليكا التى تعرفها ، ومهما اتخذ تفكيرى من اتجاه فلست أستطيع بصدق أن ألومك واعتبر الذنب ذنبك كلياً » . وفى اليوم التالى تلقى منها رسالة أخرى تستعطفه فيه أن يذهب لرؤيتها حيث تقول : « تعال إن كنت لا تخشى خيبة الأمل التى ستنتابك وأنت ترى ما آل إليه حال صديقتك ليكا التى لم يبق منها مما تعرفه إلا القليل . . . أجل ، فالأشهر الستة هذه غيرت حياتى حقاً . ولكننى لست أتوقع منك أن تدعم موقفى ، فأنت لا تكترث قط بالآخرين ونقاط ضعفهم وعيوبهم ! » .

استشاط تشيخوف غضباً لتصرف بوتابينكو ،وكتب لشقيقته رسالة يصفه فيها بأنه خنزير . ولكنه حرص على ألا يسارع لإنقاذ ليكا ، بل إن إجاباته على رسـائلها اتخذت لـهجة البـرود إذ يقول : « لا أسـتطيع الذهاب إلى سويسـرا مع الأسف إذ أنني برفقة سيـفورين الذى يتوجب عليه أن يـتوجه إلى باريس . سأبقى فى نيس لمدة خمسة أو سبعة أيام أخرى ثم فى باريس لثلاثة أو أربعة أيام ، ومن ثـم سأعود إلى ميليـخوفو . لم تصيبى بقولك إننى لا أكترث للآخرين . لاتتـهالكى ولا تبتئسى واعتنى بصحتك » .

عاد إلى ميليخوفو فى ١٩ تشرين الأول / أكتوبر . وعلى الرغم من أنه ربما كان حـانقاً على نفسـه للطريقة التى تعامل بهـا مع ليكا ، إلا أنه كان حانقاً عليها لأنها وصمته بعدم الاكتراث بالآخرين . كما أنه كان يخشى أن تطغى عليه موجة الاشفاق عليها إذا ما رآها ، ولم يكن يريد أن يقضى بقية حياته مع امرأة تندب حظها ، خصوصاً وأنها لم تعد المرأة التى يحب .

أما هى فلـم تستسلم . وقـد كتـبت له فى كـانون الأول / ديسـمـبر تقـول : « مرّ شـهر مـنذ وصولى إلى باريس ، ومـع ذلك لم تكـتب لى كلمة واحدة. هل أنت حـانق علىّ ؟ أشعر بأننى ضائعة ومـرفوضة ، وأنا مستـعدة لتقـديم نصف حياتى مقـابل أن أكون فى ميليخـوفو لأجلس إلى جانبك على الأريكة ونتحـدث معاً ونتناول طعام العشاء . أو بـاختصار ، نعيش كما لو أن هذه السنة الماضية لم تكن على الإطلاق ، وكأنما لم أغادر روسيا أبداً ، وكل شئ مازال كما كان من قبل ! » .

غير أن جـهودها هذه كلـــها ذهـــبت أدراج الرياح ، فبمــجرد أن قرر الا يهبّ لنجدتهــا توقف عن الكتابة لها أو التـحدث حول موضوعــها مع شقيقتـه (وبما أن ماريا استمرت فى مراسلة ليكا فقد علمت فـيما بعد أنها انجبت بنتاً ورأت بوتابينكو فى باريس ثانية وأنها تأمل فى العودة إلى روسيا قـريباً) . بل إنه مـا لبث أن نسى مـشـاعر الغـضب التى أحس بهـا ازاء بوتابينكو « الخنزير » وأستأنف علاقـته به . وبذا خسرت ليكا المسكينة على كل الجبهـات . وفى محاولة لفهم موقف أخـيها كتبت ماريا في مـذكراتها قائلة : « لست أدرى مـا يدور برأسه ، ولكننى أعـتقد أنه يجـاهد للتغلب على مشاعره إزاء ليكا . فهناك جوانب مـعينة لديها غريبة عنه : اذ تعوزها الشخصية ، كما أنها مفتونة بالحياة البوهيمية بصورة مــبالغ فيها » .

وفى النهاية أثبتت ليكا أن قدراتها على جذبه غير كافية ، بحيث أنه لم يتجاوز الإشارات الدالة على الفروسية . ولم يكن بطبعه شهوانياً . ولذا لم يكن من الصـعب عليـه أن يسـيطر على رغـبـاته الجـسـدية . والخطوات التمهـيدية هى ما يعجبـه فى قضايا الحب بصورة رئيـسية ، ويرى فى هذه الخطوات لعبة كافية فى حد ذاتها ، ولقد اعترف لسيفورين فى لحظة صدق بأن قصص الغـرام في حيـاته قليلة . وأنك إذا قارنتـه بكاترين العظمى ، المعروفة بشبقها الجنسى الذى لا يرتوى ، فكأنك تقارن بين « حبة بندق » و « مدمرة حـربية » . أما بوتابينكو المتقلب الذى نافســه على حب ليكا فهو يقدم تفسيراً معقـولاً لأسلوب تشيخوف الحذر ، إذ يقــول فى مــذكراته : « كان يتجنب أن تكون له حياته الخاصة ، إذ يشعر بأنها تستهلك الكثير من القوة والتركيز اللذين يحتاجهما فى قدراته الخلاقة » .

وما أن عـادت ليكا إلى روسيا حـتى ماتت ابنتـها . أما بوتابينكو فـقد احتمى بحضن أسرته من جديد ، فى حين أخذ يتـساءل تشيخوف فيما إذا كانت تطورات هذه الحـادثة البائسة صالحـة لأن تشكل محوراً لمسرحـيته . وعلى أية حال فـقد كـان هناك شئ واحد واضح ، وهو أنه كلمـا تقدم به العمـر بدت الحياة بالنسـبة له مجـرد مبرر للكتـابة . وبقدرة غامـضة على تحـويل الأمور العـادية إلى مواضـيع نفسـية كـان الناس الذين يلتـقى بهم والحوادث التى تصـادفه تتـحول إلى كلمات يجـدلها مـعاً على صفـحات أوراقه .

١١ - طائر النورس

ما أن إنهت العائلة عشاءها فى إحدى ليالى كانون الثانى / يناير لعام ١٨٩٥ حتى بدأت كلاب ميليخوفو فى النباح وسمع صوت طرق على الباب . هبّت ماريا لتحرى الأمر ، وحين رفعت القنديل لتتبين وجوه الزائرين وجدت أمامها وجه تاتيانا شيشيبكينا - كوبرنيك المبتسم ، وخلفه ليفتيان المتغضّن المحرَج . فلمدة عامين ظل الرسام حاقداً على تشيخوف لتصويره له فى هيئة إنسان أنانى فاسق فى قصة « الجرادة » . ولكن شيشيبكينا - كوبرنيك تمكنت من إقناعه بتناسى خصومته مع تشيخوف ، وها هو يقف بباب ميليخوفو يتنازعه شعور بالغضب والسعادة فى آن معاً . تحركت مشاعر تشيخوف فهبّ للترحيب به ، وبعد لحظة صمت هزّيده مصافحاً وكأنهما اتفقا على الا يتبادلا كلمة واحدة حول الموضوع ، وأن يتجنبا الإشارة إلى الماضى . وخلال الحديث العادى الذى تلا وصول الضيفين كانت عينا ليفتيان تطفران بالدمع بينما عينا تشيخوف تشعان حبوراً كعينى طفل . وقد كتب ليفتيان لتشيخوف من موسكو يقول : « لم تكن عودةً لإنسان كان أثيراً لدى فى يوم من الأيام ، بل لإنسان لم يكف عن أن يكون أثيراً لدى فى أى يوم من الأيام » .

ما لبثا أن التقيا مجدداً فى موسكو ، فى ستوديو ليفتيان ، وعلى الرغم من إعجاب تشيخوف بلوحات هذا الفنان الأخيرة ، إلا أنه رأى فيها بعض التصنع ، وقد كتب فى ذلك يقول : « لقد فقد لمسة الشباب وأخذ يرسم

ببراعة . واعتقادى أن النساء أهلكنه . فـهذه المخلوفات الحبيبة تمنح الرجل الحب وتأخذ شيئاً ضئيـلاً مقابل ذلك : الشباب وحسب . إن رسم المناظر الطبيعـية هو أمر مســتحيل دون أن تتوفر لديك الروح والـنشوة ، والنشوة مستـحيلة إن كانت معـدتك ملأى . لو أننى أرسم المناظر الطبيعـية لعشت حياة زاهد ، لا أمارس الجماع إلا مرة واحدة فى السنة ، ولا أتناول الطعام إلا مرة واحدة كل يوم » . وإذا تركنا الهزل جانباً يمكننا القول إن تشيخوف كان يقدر أشد التـقدير نظام الحياة الذى يتسم بالزهد ، وقـد كتب بعد عام من ذلك لسيـفورين يقـــول : « لو أن الأديرة تقـبل غير المتـدينين وتسمح بالامتناع عن الصلاة لأصبحت راهباً » . كـيف يمكنه التوفيق بين متطلبات الحياة اليومية العادية ومتطلبات الأدب ؟ وهل الحـياة العادية بطبيعتها تتوافق مع طبـيعـة حيـاة من اتخذ الكتـابة مهـنة له ؟ هذه الأسئلة ظلت تعـذب تشيخوف منذ أن بدأ يكتب بصورة جدية .

فى تلك الفترة تقريباً استكمل كتابة قصة طـويـلة تحـمل عنـــوان : « ثلاث سنوات » تحكى قصة انهـيار عائلة فى البيـئة المتعفنة لطبقـة التجار بموسكو . وعلى الرغم من أنه لم يكن راضيـاً عما كتـبه ، إلا أنه لم يجد لديه القدرة على تنقيح القصة أو توسـيعها ، ولذا أرســلـــهـا إلى مجـلة « الفكر الروسي » كمـا هى . وحين خضعت القصة لمقص الـرقيب بحيث حذفت منها الكثير من المقاطع التى تتناول موضوع الدين ، كتب لسيفورين يقول : « مثل هذا يقتل أى رغبة لديك للتـعبير عن نفسك بحرية إذ أنك تشعر وأنت تكتب بأن هنالك عظمة تخز جنبـك باستمرار » .

لم يكن هذا ليعني بأنه سيسمح لتلك العظمة بأن تؤثر على إنتاجه ، ولكن مقابل كل فكرة تدور برأسه ، كان هنالك أربعة مرضى فى انتظاره ، ورؤيتهم تعنى أن يتنقل بين الأركان الأربعة للمقاطعة التى يقطنها . علاوة على ذلك كان يبنى مدرسة في قرية تاليز المجاورة ، ويحتل منصب المدير الفخرى لتلك المدرسة . كما أنه عين عضواً فى هيئة المحلفين ، ثم رئيساً للمحلفين فى محكمة سيربوجوف . وإلى جانب كل ذلك ، كان بطبيعته غير قادر على تجاهل طموحات الكتاب الناشئين الذين يرسلون مخطوطاتهم إليه متوسلين إبداء ملاحظاته عليها . وفوق كل ذلك كان قد آل على نفسه أن يغنى مكتبة بلدته تاجنروج فكان يرسل إليها رزماً من الكتب التى يزوده بها الناشرون أو التى يدفع ثمنها من مدخراته الشخصية .

وحين أعرب سيفورين عن هلعه وهو يراه يبدد طاقاته وقدراته ، ونصحه من جديد بالاستقرار والزواج ، كان جوابه واضحاً : « حسناً ، سأتزوج إن كنت ترغب فى ذلك ، ولكننى أشترط ما يلى : أن يبقى كل شئ على ما كان عليه من قبل ، وبتعبير آخر : عليها أن تعيش في موسكو وأعيش أنا فى الريف ، على أن أذهب لزيارتها . لست قادراً على احتمال ذلك النوع من السعادة الذى يمتد من اليوم إلى اليوم التالى ، ومن الصباح حتى الصباح الذى يليه . وأنا أتحول إلى وحش ضارٍ حين أكون بصحبة سيرجنكو مثلاً نظراً لأنه يشبه المرأة فى الكثير من نواحيه (المرأة الذكية المتجاوبة) ، ويخطر لى حين أكون برفقته بأن زوجتى قد تكون مثله . أتعهد لك بأن أكون زوجاً رائعاً شريطة أن تمنحنى زوجة

لا تسطع في سمائي كل يوم ، شأنها في ذلك شأن القمر . ولست أعتقد بأنني سأكتب بشكل أفضل إذا ما كنت متزوجاً » . وبعد شهور قليلة يضيف « إنني بطبيعتي التي تفتقر للنظام أخشى أن أتخذ زوجة وأنتهج حياة تتسم بالروتينية العادية . غير أن هذا أفضل من أن أبقى منساقاً على هامش الحياة تتقاذفني الأمواج مكتفياً بركوب متن قشرة هشة مثل لحاء الشجر تقوم على الرذيلة . لست أكترث للعشيقات بعد ، وأجدني أصاب تدريجياً بالعجز الجنسي معهن » .

فقدَ تشيخوف اهتمامه بالنساء فيما يبدو ، إلا أن اهتمامهنّ به لم يتضاءل بالمقابل ، وكانت أكثرهن إلحاحاً وتحايلاً ليديا أفيلوفا التي ظلت مقتنعة بأن تشيخوف مازال مفتوناً بها على الرغم من أنه لم يكتب لها رسالة واحدة منذ عام ١٨٩٤ . ولقد دعته لتناول العشاء في جلسة خاصة بمفردهما لدى مروره ببطرسبرج في شباط / فبراير ١٨٩٥ ، إذ كان زوجها خارج المدينة . غير أن بعض الأصدقاء فاجأوها بزيارة غير متوقعة تلك الليلة ، ولم يكتفوا بالتهام أطباق المشهّيات التي كانت قد أعدتها للمناسبة، بل احتكروا أيضاً الحديث مع ضيفها بصورة كلية لدى حضوره . وفي النهاية نجحت في التخلص منهم وتوديعهم لتصبّ سحرها على ضيفها العزيز .

وهي تدّعي في مذكراتها بأن تشيخوف أعلن لها في تلك الليلة عن حبه الذي بدأ منذ بعض الوقت ، وأنه قال : « هل تذكرين لقاءاتنا الأولى وهل تعرفين . . . أتدرين أني كنت غارقاً بحبك ؟ أنني كنت أحبك حقاً ؟ أجل، أحببتك ، وبدا ليّ أنني لن أستطيع أن أحب امرأة

أخرى فى هذا الكون مثل هذا الحب . كنت جميلة ورقيقة ، وكان هنالك نوع من الحيوية فى شبابك ، سحر يبعث على الدوار . ولكننى كنت أعرف أنك لست كالأخريات ، وأن حب أى إنسان لك يجب أن يبقى نقياً مقدساً ، وأن يستمر طوال الحياة . كنت أخاف أن ألَمسك » .

غير أن الرسالة الى كتبها تشيخوف لليديا أفيلوفا فى اليوم التالى كانت عادية فى لهجتها بحيث أنها تكذّب كل تأكيداتها ، حيث يقول لها : « أخطأت بقولك إننى كنت أشعر بالملل فى أعماقى ، لم أكن أشعر بالملل ، وإن كنت مكتئباً بعض الشئ لأننى كنت ألمح فى وجهك مدى انزعاجك من ضيوفك » . وبعد يوم آخر كتب لها رسالة أكثر جفافاً من سابقتها حول تعليقات صريحة حوت قصص لها طلبت منه إبداء رأيه بها : « بإيجاز ، لديك الموهبة ، ولكنك ثقيلة الوطأة ، أو بعبارة سوقية ، رخوة . إنك تنتمين للفئة الرخوة من الكتاب ، وأسلوبك متكلّف شأن رجل عجوز » . وقد وقّع الرسالة باسم : المخلص ، تشيخوف . كما أرفقها بنسخة من مجموعته الأخيرة « قصص وحكايات » تحمل إهداءً كتب بعبارة باردة تقول : « إلى ل . آ . أفيلوفا ، من الكاتب » . وهذا الكاتب عاد إلى موسكو دون أن يقوم بأى محاولة لرؤية المرأة التى تزعم أنه كان يتحرق لرؤيتها منذ سنين ! .

ونظراً لأنها كانت واثقة من سبب هروبه فقد قررت أفيلوفا أن تجرب سبيلاً يتسم بالشاعرية . فقد أوصت على جيب ساعة على هيئة كتاب حفر على أحد وجهيه عنوان كتابه « أقاصيص وحكايات بقلم أ . تشيخوف » وعلى الوجه الآخر عبارة : « صفحة ٢٦٧ ،

السطران ٦ ، ٧ » وهذه إشارة إلى عبارة من قصة « الجيران » تقول : « إن كانت بك حاجة لعمرى فتعال وخذه » . وقد كلّفت أخاها بحمل هذه الهدية إلى مجلة « الفكر الروسى » وانتظرت الإجابة بفارغ الصبر ولكن ها لم تتلق أى جواب ، بل إن تشيخوف لم يكتب لها لإبلاغها بوصلوا الهدية . وهذا ما أحزن أفيلوفا غاية الحزن . وقد توجهت إلى موسكو وكتبت لتشيخوف فى ميليخوفو طالبة منه لقاءها، ولكنها لم تتلق منه إجابة هذه المرة أيضاً ، وكان تشيخوف قد ترك خبراً فى مجلة الفكر الروسى بأنه توجه إلى تاجنروج .

لم يكن قد ذهب إلى هناك بالطبع ، بل كان فى ميليخوفو ينتظر البشائر الأولى للربيع . وفى النهاية ، وبعد أشهر من الثلج والسبات والوحدة ، استطاع أن يكتب لسيفورين قائلاً : « طيور العندليب تغرد فى الحقول والسمّن ينادى فى الغابات والطقس دافئ جميل » .

وكالعادة ، تدفق سيل الزوار مع بداية تحسّن الطقس ، وما لبث شمل العائلة أن اجتمع . وكان ميخائيل الذى يعيش فى ياروسلافل قد حقق المزيد من التقدم فى السلّم الوظيفى ، أما إيفان فقد أخذ يحقق سمعة مرموقة فى سلك التعليم بموسكو ، وماريا كانت تدرّس فى معهد رايفسكى بموسكو وتتلقى دورات طبية فى الوقت نفسه لتساعد شقيقها فى العناية بالفلاحين . أما ألكسندر ، فلم يحافظ فقط على موقعه فى « الأزمنة الحديثة » ، بل كان ينشر أيضاً قصصاً باسم « سيدوى » ، وقد أبلغ أنطون بكل فخر بأنه لم يفتح حساباً فى البنك باسمه فحسب بل إنه يخطط إيضاً لاستئجار بيت خاص به فى الريف .

زارت ليكا ميليخوفو ثلاث مرات ذلك الصيف ، ولم يعد يبدو عليها أنها تخطط للإيقاع بتشيخوف ، وبذلك أصبح بإمكانها الاستمتاع بصحبة بعضهما البعض . وكان من دواعى سرور تشيخوف أن يرحب بعودتها إلى المجموعة ، كما رحب بعودة بوتابينكو الذى أغواها والذى أصبح يعتبره مجرد صديق ودود .

أما ليفيتان ، الصديق الصدوق الآخر الذى تصالح معه فى الآونة الأخيرة فقد سئم « جرادته »واستبدلها بأخرى اسمها « آنا تورخانينوفا» ، وهى امرأة لم تكن صغيرة السن ولكنها تمتلك ثروة لا بأس بها ، وفجأة تلقى تشيخوف رسالة من تورخانينوفا فى تموز / يوليو تبلغه فيها بأن صديقه الرسام الذى كان يعيش فى إقطاعتها فى ذلك الحين قد حاول الانتحار . وعلى الرغم من أن المحاولة لم تكن قاتلة ولم تسفر إلا عن إصابته بجرح ، إلا أنه كان فى حالة اكتئاب لا يمكن أن ينتشله منها إلا صديقه تشيخوف . وتغفل الرسالة السبب فيما أقدم عليه ليفيتان ، وهو النزاع الذى شبَّ بينها وبين ابنتها للاستئثار بعواطف الرسام . ما كان من تشيخوف ، بما عرف عنه من الإخلاص فى صداقته ، إلا أن أسرع إلى نوفوجرود حيث وجد ليفيتان شاحباً شحوب الموت وقد عصب رأسه بضماد. فقد كانت الرصاصة قد مسّت فروة رأسه مساً رقيقاً فحسب لحسن الحظ . قضى تشيخوف خمسة أيام وهو يحاول أن يرفع من معنويات صديقه ، وما حققه من النجاح فى ذلك تشير إليه الرسالة التى أرسلها إليه ليفيتان بعد عودته إلى ميليخوفو حيث يقول له : « لست أستطيع أن أفسر الأمر ، ولكن الأيام القليلة التى قضيتها معى هنا كانت أكثر أيام هذا الصيف صفاءً وراحة بالنسبة لى » .

وما كاد يمرّ أسبوعـان على مهمته المتعلقة بليفيـتان حتى كان في طريقه لإنجاز مـهمة أخـرى ، كانت لها فى هذه المرة طبـيعة الحجّ . فـقد انطلق ليزور تولسـتوى فى إقطاعتـه « ياسنايا بوليانا » ، وهى رحلة كان يتـجشّم عناءها الكثيرون من الكتّـاب الروس والأجانب . البعض من باب الإجلال والإحتـرام ، والبعض الآخر من باب حب الإسـتطلاع . وعلى الرغم من إعجاب تشيخوف الشديد بمؤلف « الحرب والسلام » و « آنا كارنينا » ، إلا أنه كان يتحفـظ فيما يتعلق بالانحناء أمام هذا النبى المهـيب الذى يعبّر عن رفض أثر التقـدم العلمى في تعزيز تقدم الطبـيعة الروحـية للناس . ولكن أحد أنصار تولسـتوى ، واسمه إيفان جـوربونوف - بوسادوف ، تمكن من التـغلب على اعـتـراضاته . فى الـثامن من آب / أغـسطس ١٨٩٥ كـان تشيخوف يواجه ذلك الحكيم الروسى الكبير .

التـقيـا فى الممر الذى تحف به أشـجار الزّان المؤدى إلى المنـزل . وكان تولستوى يرتدى ثـوباً فضفاضاً ويضع فـوطة على كتفيـه إذ كان فى طريقه للاستحـمام فى النهر ، فدعـا تشيخوف لمشاركـته فى ذلك . خلع الاثنان ثيابهما وقفزا فى الماء ، وبدءا أول حديث لهما ضمن أحضان الطبيعة وهما يخوضان حتى عنقيهمـا فى أمواج الماء . أخذته بساطة تولستوى بحيث أنه سرعان مـا نسى أنه يواجه معلَمـاً منَ معالم الأدب الروسى . وما لـبثا أن ذهبا فى دورة على العجلة على طول شـارع تولا وتولستوى يطرى الدراجة التى يركبها على الرغم من سنواته السبع والسبعين .

وفى تلك الليلة قرأ جوربونوف - بوسـادوف جزءاً من رواية « البعث » التى كـان تولستـوى قد أنجزها لتـوّه ، وذلك أمام جـمع من أفراد العـائلة والأصدقـاء . وبفضـل الاستقـبال الحـار الذى لقيـه من مضـيفه امـتلك

تشيخوف الشجاعة بحيث أعلن أنه على الرغم من إعجابه الشديد بمشهد المحاكمة الوارد فى الرواية إلا أنه يشعر بأنه من غير الواقعى أن يقتصر الحكم على بطلة الرواية كاتيا ماسلوفا على فترة سنتين فقط : فالمحاكم الروسية تميل إلى القسوة فى العادة حينما يتعلق الأمر بالأشغال الشاقة . وقد تقبّل تولستوى نقد تشيخوف وغيّر هذه الفقرة على أساس هذا الرأى .

رأى تولستوى فى هذا اللقاء جاء فى الرسالة التى كتبها لابنه ليو فى ٤ سبتمبر ١٨٩٥ حيث يقول : « إنه يشتعل موهبة وله قلب كبير دون شك ، غير أنه مازال يفتقر إلى وجهة نظر محددة بالنسبة للحياة فيما يتراءى لى » . أما تشيخوف فقد كان من دواعى أسفه أن يجد أبطال رواية « البعث » عبارة عن ناطقين باسم المؤلف بصورة أو بأخرى . ولكنه اعترف بتولستوى كإنسان ذى شخصية اعتبارية استثنائية إذ يقول : « حين تتحدث إلى ليو نيقولايفيتش فإنك تشعر بأنك أصبحت تحت سيطرته كلياً . ويمكننى القول بأننى لم ألتقِ قط بإنسان يتمتع بمثل ما يتمتع به من سحر ، إنسان قادر على التعبير بانسجام كلى . إنه رجل كامل تقريباً » . وكتب لسيفورين يقول : « استغرقت زيارتى لآل تولستوى يوماً ونصف اليوم ، ولقد ترك لدىّ انطباعاً مذهلاً إذ شعرت بالحرية والبساطة ، وكأننى فى بيتى ، وكان حديثى مع ليو نيقولايفيتش حراً بسيطاً هو الآخر » . وبعد أيام عديدة يضيف قائلاً : « بنات تولستوى رائعات جداً ، فهنّ مغرمات بوالدهن لدرجة العبادة ويؤمنّ به لدرجة التعصب . وهذا يعنى أن تولستوى هو فى الحقيقة قوة معنوية ، ولو لم يكن مخلصاً وفوق النقد ، لكانت بناته أول من عامله بشك وريبة . فالبنات مخلوقات صغيرة حانقة ، لا يستطعن أن يغمضن

عيونهن عن الواقع . يمكن أن تخدع خطيبتك أو عشيقتك أو من شئت من النساء ، فالحمار يصبح فيلسوفاً فى نظر امرأة محبة . أما بناتك فأمرهن يختلف ! » .

وبعد سلسلة من القصص شملت « الزوجة » و « قلاده آنا » و « الجبين الأبيض » و « حادثة القتل » و « أرايدنى » ، عاوده الحنين إلى المسرح من جديد . وفى ٢١ تشرين الأول / أكتوبر ١٨٩٥ كتب لسيفورين معلناً له بسرور : « صدق أو لا تصدق ، إننى أكتب مسرحية. قد لا أنهيها قبل نهاية تشرين الثانى / نوفمبر ، ولا يمكننى الادعاء بأننى لا أستمتع بكتابتها وإن كنت أتجاهل بصورة فاضحة كل الأصول المتعارف عليها لكتابة المسرحية . ففي هذه الملهاة ثلاثة أدوار نسائية وستة أدوار رجالية وأربعة فصول ومشهد (هو منظر بحيرة) والكثير من الحديث حول الأدب والقليل من الحدث وخمسة أطنان من الحب » . وقد سمّى هذه المسرحية « طائر النورس» .

وبعد شهر واحد من مسودة السطور الأولى أبلغ صديقة كاتبة اسمها « يلينا شافروفا » عن إنجازها بقوله : « أنهيت مسرحيتى ، وهى ليست عملاً خارقاً فأنا كاتب مسرحى« متواضع على وجه الإجمال » . وعلى الرغم من تواضعه وتقليله من شأن نفسه على هذه الصورة فقد بذل جهوداً مضنية لصقل النص فى نفس الوقت الذى كان يكرس فيه وقتاً لوضع الخطط والتقديرات الخاصة بإنشاء مدرسة فى قرية « تاليزة » ، ولكتابة خطابات لمصادر عديدة بهدف إنقاذ المجلة الطبية الجراحية ومنعها عن

التوقف ، وجمع التبرعات للمعوزين ، والكشف عن الكثيرين من المرضى دون مقابل. وعلى الـرغم من كل مشاغله هذه فقد كـان يقتنص كل وقت تسمح به الظروف إلى أن تمكن فى النهاية من إنهاء النسخة الأخيرة وطبعها على نسختين على « الرمينجتون » وأرفق بالنسخة التى أرسلها إلى سيفورين عبارة تقول : « بدأت المسـرحية بنغمة حادة ، وأنهيتهـا برقّة فائقة ، وهذا يتعارض مع كل أحـكام فنّ الدراما . ويمكننى القول بأننى غيـر راضٍ عما كتـبت أكثر مما أنا راضٍ بهـا ، وحين أقرأ سطور مـسرحيـتى الوليدة أزداد قناعة بأننى لست كاتباً مسرحياً . احرص على ألا يقرأها أحد !! » .

هل على الكاتب أن ينقّب ويبـحث فى مآسى الآخرين ليـصل إلى نبرة الصدق ؟!! فـفى مسرحـية « طائر النورس » يخضـع تشيخـوف ثانية لميله الطبيعى لاستعـارة العناصر المهمة فى حبكته من الحياة الـفعلية لأصدقائه . ومن الواضح أنه استوحى الأحداث من حـكاية « ليكا » مع « بوتابينكو » بكل ما فى هذه الأحـداث من بهرجة . فـبطلة المسرحيـة الحزينة . نينا ، يغـويها كـاتب مشـابه لبوتابينكو اسـمه « تيـجورين » ، ثـم مـا يلبث أن يهجرها بـعد أن تحمِل منه طفلاً يموت فى المراحل المبكرة من طـــــفولته . إلا أن المثيـر فى المسرحيـة لا يكمن فى حبكتهـا التى يمكن اعتبـارها حبكة عادية ، بل حوارهـا الجميل بوقعه والغنى بـإيحاءاته ووقفاته المثيـرة للتأمل والتفكير . فالجو النفسى يحل محل الحبكة ، والتعبير عن العواطف لا يتم بالتـعبيـرات الخارجـية بل عن طريق إيماءة أو صـرخة ، كـأنما تنطـلق من أعمـاق مواطن النفس البشـرية . وما يسيطر على الجـمهور ليس التـحول

المفاجئ في الأحداث بل التطور الصامت للعواطف . فالكاتب ، باختصار ، لم يعد يوجه ضربات حادة مثيرة ، بل يلقى شباك سحره الخفى .

كان التشابه مع قصة ليكا واضحاً منذ القراءة الأولى للمسرحية أمام الأصدقاء ، بل إن الحاضرين وجدوا شبهاً بين شخصية الممثلة أركادينا وزوجة بوتابينكو . وكان الانطباع مماثلاً لدى القراءة الثانية في بيت « ليديا يافروسكايا » بموسكو ، وحين أثار سيفورين الموضوع أيضاً أجاب تشيخوف بمرارة : « يبدو أن مسرحيتي « طائر النورس » قد تهاوت وانهارت قبل أن يتم إخراجها وترى النور ، فإن كنت قد صورت فيها بوتابينكو فعلاً فمن الواجب بالطبع ألا يتم إخراجها على المسرح وألا تطبع » .

إلا أن ما شغل أصدقاء تشيخوف في واقع الأمر ليس الإيحاءات التى تتعلق بقصة ليكا وبوتابينكو بشكل أساسى . فعلى الرغم من كل ما يكنون لتشيخوف من إعجاب إلا أنهم كانوا يشعرون بأنه ضلّ الطريق هذه المرة ، إذ كيف يمكن للكاتب أن يشدّ انتباه الجمهور إلى الصراعات الداخلية الدفينة وإلى التساؤلات داخل الروح ؟ فأى شئ لا يغذى الحبكة أو يغنيها أو يحرك الحدث يبقى غير مجدٍ .

من الواضح أن هذه الآراء أزعجت تشيخوف فكتب لسيفورين يقول : « يبدو أنى لم أخلق لأكون كاتباً مسرحياً . لست محظوظاً ، ولكننى لن أيأس ، بل سأستمر فى كتابة القصص ، ففى هذا النطاق أشعر بالألفة

التامة . أما حين أكتب مسرحية فإننى أشعر بعدم الإرتياح وكأن هناك من يلكزنى فى عنقى » .

احتاج تشيخوف لقدر كبير من قوة الإرادة للتغلب على امتعاضه والعودة للعمل على مسرحيته من جديد . ولكنه استطاع إعادة كتابتها كلياً فى الأسابيع الأولى من عام ١٨٩٦ . ولم يجد بوتابينكو الذى أرسل له تشيخوف النص الجديد بكل إخلاص ، لم يجد فيه ما يثير امتعاضه : فقد أصبح الآن زوجاً مثالياً ولم يعد يعير الكثير من الاهتمام لموضوع ليكا فى مجمله . وحين زار تشيخوف بطرسبرج فى شهر كانون الثانى / يناير من ذلك العام اصطحب بوتابينكو وزوجته إلى دار مسرح جديد اشتراه سيفورين فى الآونة الأخيرة ، وكانت تعرض عليه مسرحية « الأميرة المتشامخة » من تأليف إدموند روستاند * من ترجمة تشيبيكينا - كوبرنيك . وقد كتب تشيخوف لشقيقه يقول : « أزور بوتابينكو يومياً ، وهو ملئ بالحيوية ، وهذا شأن زوجته أيضاً » .

أقام تشيخوف فى فندق « انجلترا » وقضى وقته فى رؤية الأصدقاء وارتياد مآدب العشاء الأدبية . كان مغرماً بالحياة الصاخبة للعاصمة ، ويود لو يمدد إقامته فيها ، غير أنه كان عليه أن يعود إلى ميليخوفو ليحضر زفاف شقيقه ميخائيل الذى كان سيتزوج فتاة لطيفة كريمة ، وهى طباخة ممتازة أيضاً . وما أن انتهى حفل الزواج حتى عاد إلى بطرسبرج مسرعاً . وفى ٢٧ كانون الثانى / يناير حضر حفلة تنكرية فى مسرح سيفورين لاحقته خلالها « ليديا أفيلوفا » وهى ترتدى قناعاً يخفى عينيها . وقد روت ما حدث قائلة إنها توجهت إليه وحدثته عن الحب .

* شاعر وكاتب مسرحى فرنسى (١٨٦٨ - ١٩١٨) .

وعلى الرغم من أنه عرفها دون شك إلا أنه تظاهر بأنه يظنها امرأة أخرى ، وحين سألته إن كان استلم هديتها أجاب جواباً مبهماً ، قائلاً إنها ستجد الجواب في مسرحيته التي كانت على وشك العرض في بطرسبرج .

وفي طريقه إلى ميليخوفو توقف في موسكو حيث قام هو وسيفورين بزيارة تولستوى . وفي تلك الزيارة هاجم ليو نيقولا فيتش بشدة الشعراء الروس الرمزيين الحديثين ووصفهم بأنهم « متفسخون » . كما بدت زوجته غاضبة ، ولكن من الرسام المتديّن « جى » . وقد سعد تشيخوف بشكل خاص بمراقبة اثنتين من بنات تولستوى وهنّ يلعبن الورق بكل هدوء ودون اكتراث طوال الجلسة .

وما أن عاد إلى الريف حتى انصرف إلى العمل ، وإن لم يقتصر هذا العمل على الأدب فحسب . فلم يكن ليرضى بتحسينات تجميلية في الإقطاعية ، ولذا شنّ حملة للإلحاح عل السلطات المحلية بهدف إصلاح الطرق، وفتح مكتب للبرق والبريد ، وإعادة بناء أحد الجسور ، وإصلاح إحدى الكنائس في منطقة مجاورة ، واستكمال المدرسة في تاليزة . مشروع المدرسة بالذات كان الأثير إلى نفسه ، وعلى الرغم من أنه نظم حملات لجمع التبرعات وحفلات موسيقية وعروضاً مسرحية لتمويل المشروع غير أن يده كثيراً ما كانت تمتد لجيبه الخاص لدفع بعض المصاريف . وبالإضافة إلي وضع مخططات البناء ، كان يشترى المواد ويشرف على أعمال النجارين والبنائين . أصبحت المدرسة جاهزة في شهر آب / أغسطس ١٨٩٦ ، وخلال حفل التدشين تولّى ثلاثة من القسس

قراءة بركاتهم على جدرانها ، وقام الفلاحون بتقديم أيقونة وعدة أرغفة من الخبز ومملحتين لتشيخوف * .

كان تشيخوف يشعر بأنه ببناء المدارس وتأسيس المكتبات وعلاج المرضى يمكنه أن يخدم بلاده بصورة أفضل من الاكتفاء بشجب مبادرات القيصر الجديد ، نيقولا الثانى ، الذى كان يبدو ، على الرغم من حداثة سنه ، أقل استعداداً من والده ألكسندر الثالث لاتخاذ مواقف ليبرالية . وبينما كان فى موسكو فى شهر حزيران / يونيو من ذلك العام زار تشيخوف قبور ضحايا مذبحة « خودينكا » والذين تجاوز عددهم ألف شخص داستهم الأقدام حتى الموت أثناء احتفالات التتويج ، وذلك بسبب سوء إدارة قوات الشرطة للاحتفال . غير أنه ، وبحكم تفكيره العقلانى ، لم يستسغ وجهة النظر العامة التى سادت حينذاك - وهى أن الكارثة إنما هى نذير شؤم للإمبراطور والإمبراطورة .

وبعد أن أرسل لمجلة الفكر الروسى قصة « المنزل ذو العلية » والتى تعالج قصة زوجين تضاربت أقدارهما ، بدأ يكتب عملاً أطول يحمل عنوان : « حياتى » ويجمع بين ذكريات شاب فى تاجنروج وتجربته الأخيرة فى بناء المدرسة ، وإن كانت القصة تعالج بشكل أساسى موضوع تمرد شاب ضد أبيه البرجوازى المحافظ ضيق التفكير . يحاول الشاب جاهداً الانفصال عن هذا الواقع الاجتماعى الذى يمقته ، كما يحاول أن يعمل دهاناً يصبغ البيوت . وعلى الرغم من أنه سرعان ما يدرك بأنه لن

* الخبز والملح هما رمز التكريم بالنسبة للروس .

يفلح مهما فعل فى كسب ثقة عامة الناس الفقراء وتقبلّهم له فإنه يعتبر إخفاقه هذا أفضل مما يعتبر نجاحاً يحققه أصدقاؤه السابقون من ذوى الامتيازات . وقد فهمت قصة « حياتى » هذه على أنها سخرية عنيفة من فكر تولستوى ، وفيها يرفض تشيخوف فكرة الذوبان فى العامة كطريقة للتخلص من أمراض الحياة الريفية الضيقة ، وإن كان لا يقدم من جانبه ترياقاً أو حلاً ، فهو بحكم كونه متشككاً فإنه لا يلجأ للاستنتاجات الفلسفية بل يكتفى بعرض الحقائق تاركاً أبطاله ينغمسون فى عملية بحث لا تنتهى عن الحقيقة التى تصل بهم إلى مرحلة الاتزان ورباطة الجأش .

هذا الحرص على الموضوعية واضح أيضاً فى « طائر النورس » ، إذ نجد المؤلف ينزوى خلف أبطاله ، وإن كان لا يستطيع التخفى أمام عينى الرقيب الذى كان تشيخوف يخشى أن تمتد أصابعه لتقّص أجزاء تشلّ المسرحية . بل إنه طلب من بوتابينكو بأن يهئ نفسه للتدخل لصالحه . غير أن المسرحية ما لبثت أن نجحت فى الامتحان الدقيق دون أن تتعرض إلا لتعديلات طفيفة وذلك فى ٢٠ آب / أغسطس ١٨٩٦ . وفى أيلول / سبتمبر تلقى تشيخوف برقية من بوتابينكو يبلغه فيها بأن مسرح ألكسندريسكى فى بطرسبرج قد وافق على المسرحية وأن المجموعة التى ستمثلها مجموعة متألقة ، وأن الافتتاح سيكون فى ١٧ تشرين الأول / أكتوبر .

وعلى الرغم من ارتياح تشيخوف لهذا النصر إلا أنه ظلّ قلقاً فيما يخص تقبل الجمهور للمسرحية ، إذ أنه حتى أولئك الذين أشادوا بشاعريتها كانوا يشعرون بأنها تعانى من الجمود الزائد . وكانت إجابة تشيخوف هى أنه حاول تصوير الحياة كما

هى وفى الواقع ، بمزيج عبثيتها واندفاعها ، سوقيتها وأحزانها ، تفاهتها وغموضها . ولكن هل سيكون الجمهور العادى فى مستوى هذا التحدى ؟ .

توجه تشيخوف إلى بطرسبرج فى ٧ تشرين الأول / أكتوبر ، وجلس فى اليوم التالى فى قاعة مسرح ألكسندريسكى المظلمة ليشاهد التدريبات على المسرحية . غير أن ما رآه وسمعه ملأ قلبه هلعاً ، وأخذت نذر الشؤم تتنامى فى داخله يوماً بعد يوم . وقد كتب رسالة لأحد جيرانه فى ميلوخوفو يصف فيها كوابيس تنتابه على شكل أحلام بأنه متزوج من امرأة لا يحبها وأن الصحف تصب شتائمها على رأسه . فقد أخذ مدير المسرح والإنتاج « يفجينى كاربوف » فى وضع إصبعه على اللمسات الدقيقة التى تعبر عنها المسرحية ، وكان الممثلون يؤدون أدوارهم بأسلوب خطابى طنان مصطنع ، يتعارض كل التعارض مع ميل الكاتب لتجسيد الفكرة دونما ضجيج . أخذ تشيخوف يطلب منهم التوقف المرة بعد المرة متوسلاً إليهم أن يكونوا أكثر طبيعية ، حيث كان يقول لهم : « لا فائدة على الإطلاق من الحركات المسرحية الافتعالية يا أصدقائى ، فالقضية فى غاية البساطة : الشخصيات بسيطة ، أناس عاديون » . غير أن الممثلين كانوا يصرّون على الادعاء بأنهم أدرى بما يفعلون ، فيمضون فى طريقتهم الطنانة . وقد أسرّ تشيخوف لبوتابينكو وهو يغادر المسرح بعد إحدى البروفات : « لافائدة ، فالعرض ممل ورتيب ولم يعد قادراً على التعبير عن شئ . والممثلون لا تشدهم المسرحية ، ولذا فإنها بالتالى لن تشدّ الجمهور » ولقد كتب لماريا يقول « بطرسبرج مملة ، والموسم لن يبدأ حتى تشرين الثانى / نوفمبر ، الناس وضيعون ، ضيقو الأفق وزائفون ، والشمس والضباب

يتناوبان فى الأفق ، وعرض المسرحية سيمضى مع الأسف دون أن ينبس أحد ببنت شفة . مزاجى « بين بين » بشكل عام! » . وقد نصحها بعدم التوجه إلى بطرسبرج لحضور حفل الافتتاح . أما سيفورين الذى كان تشيخوف يقيم فى بيته فقد كتب فى مذكراته بأن تشيخوف أخذ يسعل وينفث دماً من جديد .

فجأة ، وقبل خمسة أيام فقط من بدء العرض ، قررت « ماريا سافينا » أن دور نينا لايتلاءم معها وأن من الضرورى استبدالها بممثلة أخرى . وفى وسط هذه الفوضى تقدمت ممثلة شابة اسمها فيرا كوميسارسفسكايا مبدية استعدادها لتمثيل الدور . كانت هذه إنسانة هشة ضئيلة الجسم ، وبعينيها الواسعتين السوداوين ووجهها الطفولى وصوتها الموسيقى استطاعت أن تخلق من نينا شخصية هزت بقية المجموعة . وقد كتب بوتابينكو الذى أدارت هذه الممثلة رأسه يقول « لقد أضاءت خشبة المسرح وكأنها شعاع من ضوء الشمس » أما تشيخوف فقد كتب لميخائيل يقول : « كوميسار سفسكايا مذهلة » .

ولكن الممثلين ما لبثوا أن عادوا فى اليوم التالى إلى أسلوبهم الطنان فى الإلقاء ، وفقد تشيخوف كل أمل فى إقناعهم وبدأ يتحدث عن سحب المسرحية كلياً ، ولم يعدل عن موقفه هذا إلا بعد أن اتضحت له كل المضاعفات التى يمكن أن تنجم عن ذلك .

وفى يوم الإفتتاح ، ١٧ تشرين الثانى / نوفمبر ، ذهب لاستقبال شقيقته فى محطة القطار حيث كانت وليكا قد استقلتا القطار الليلى . كان يبدو تعباً مريضاً تهزه نوبات السعال ، وقال لماريا : « الممثلون لم يحفظوا

أدوارهم ، وهم لا يفهمون ما يفعلون على الإطلاق . إنهم مريعون ، باستثناء كوميسار سفسكايا . ستفشل المسرحية ولم يكن هنالك من داع لحضورك » .

تصور « طائر النورس » مجموعة من الناس يجتمعون فى إقطاعة على شاطئ إحدى البحيرات ويتصارعون مع سبل الهرب من حياتهم الرتيبة المملة : ممثلة اسمها أركادينا تسيطر عليها فكرة تقدمها فى السن ، وشقيقها سورين الذى يريد لحياته أن تكون أكثر حيوية وبهجة ، وحبيبها الكاتب تريجورين الذى يتحرق لتذوق طعم مشاعر أخرى غير الكتابة ، وابنها تريبليف الذى يطمح لابتكار أشكال فنية جديدة ، وجارتهم الشابة المندفعة التى تمتلئ حيوية وتحلم بأن تصبح ممثلة تحقق « شهرة حقيقية مدوية » . ترفض « نينا » حبّ تريبليف وتقع فى حب تريجورين الكاتب المعروف ، فيحاول تريبليف الانتحار ولكنه يفشل فى تنفيذه ، وترحل نينا إلى موسكو للقاء تريجورين . وبعد مرور سنتين ، تعترف شخصية بعد أخرى بأن أحلامها الوردية تحطمت على صخرة الحياة اليومية العادية : سورين الذى يخشى أن يصبح عديم الطعم ، كبزّازة سجائر قديمة ، أصبح مشلولاً خائب الأمل ، وتريجورين غرق أكثر فأكثر فى حرفته ككاتب تقليدى ، ونينا التى لا تفقد تريجورين فحسب بل طفلها الذى أنجبته نتيجة لهذه العلاقة أيضاً ، انضمت لفرقة مسرحية إقليمية متجولة ، وحين يعترف لها تريبليف بحبه من جديد ترفضه فيعمد إلى الانتحار من جديد ، وينجح فى ذلك هذه المرة .

المسرحية شهادة على عبثية الظروف الإنسانية . فكل الخطط التى تتسم بالمبالغة الحمقاء مصيرها الفشل ، ويلزم المرء جهد يتجاوز طاقة البشر لكى يبنى جسراً يعبر عليه الهوة التى تفصل بين الحلم والواقع . وفى الفصل

الرابع يتحدث سورين عن قصة يود أن يقترحها على تريبليف والتى تحمل عنوان : « الإنسان الذى أراد أن يكون . . » ويقول : « حين كنت شاباً كنت أنوى أن أصبح كاتباً ولكننى لم أصبح كاتبا قط . . . أردت أن أتزوج ولكننى لم أفعل ذلك قط . . . كنت أنوى أن أعيش فى المدينة ، وها أنذا أنهى حياتى فى الريف . . . » وفكرة « الانسان الذى أراد أن يكون . . . إنما تلخّص الفكرة الرئيسية للمسرحية أكثر مما يلخصها رمز «طائر النورس» الذى يسقطه من عليائه صياد طائش عديم التفكير* .

الأمر المشترك بين جميع الشخصيات التى تعيش فى جو المستنبت الزجاجى الحار هذا هو إحساسها الداخلى بالفشل فى الحب والفن . إنها تحلم بعواطفها وتتحدث عنها ، ولكنها لا تعيشها قط .

يضفى تشيخوف على الكاتبين اللذين تضمهما المسرحية بعضاً من سمات قلقه الخلاق . فتريجورين ، الكاتب المشهور الذى يفترض أن تهزه شهرته يصل إلى حد اعتبار الكتابة مجرد خندق وقع بين دفتيه ، وأمراً عليه أن يتقبله شاء أم أبى وكأنما هو الوهن الذى يحلّ بالإنسان مع تقدمه فى السن . ويقول تشيخوف بصدق معذّب على لسان تريجورين « يالها من حياة مجنونة . . . أرفع رأسى فأرى غمامة لها شكل بيانوضخم ، فأقول لنفسى : علىّ أن أستخدم هذه الصورة فى موضع ما فى إحدى قصصى : غمامة على شكل بيانوضخم تدفعها الريح . . . لست أستطيع أن أترك جملة أو كلمة تقولها أنت أو أنا - تمضى فى سبيلها دون أن أحفظها فى خزانتى الأدبية . . . فقد أحتاجها فى الوقت المناسب . . . لست أعطى

* وفى هذه الحادثة إشارة واضحة إلى الديك البرى الذى أصابه ليفيتان إصابه غير مميتة وأجهز عليه تشيخوف .

نفسى لحظة راحة ، بل ألتهم حياتى بنفسى التهاماً . . . أجل ، إننى أستمتع بما أكتب حين أكتبه ، كما أستمتع بتنقيح ماكتبت ، ولكن ما أن ينشر هذا حتى أمقته . أدرك بأن هذا لم يكن ما كنت أقصده ، كله خطأ وما كان لى أن أكتبه ، فيحلّ بى اكتئاب كلى وأشمئز من نفسى . وما يلبث الناس أن يقرأوا ذلك ويقولون : « أجل هذا ساحر ، حاذق وساحر ، ولكن أين هذا مما يكتبه تولستوى » . أويقولون : « قطعة أدبية جيدة ، ولكن « آباء وأبناء » لتورجنيف أفضل منها » حاذق وساحر . . . ساحر وحاذق ، حتى اليوم الذى أموت فيه . وبعد ذلك ، وحين يصطف أصدقائى أمام قبرى سيقولون : « هنا يرقد تريجورين ، كاتب جيد ولكنه ليس فى مستوى تورجنيف » .

أما تريبيليف ، التجسيد الثانى لشخصية تشيخوف ، فهو يتهم تريجورين بالتمسك بأسلوب الواقعية البالى بدلاً من البحث عن أشكال فنية جديدة . ولكنه يدرك وهو يحلم بإحداث هزة أدبية عنيفة بأنه غير قادر على الإفلات من التقاليد التى يستنكرها . وفى الليلة التى يقدم فيها على الانتحار يقول : « بعد كل ذلك الكلام عن أشكال فنية جديدة بدأت أنا نفسى أنزلق فى خندق أيضاً . . . أشعر بالبرد وكأننى فى قبو ، كل ما أكتبه جاف ، عديم الحياة ، قاتم . . . مازلت أعدو فى متاهة من الأحلام والصور الخيالية دون أن أعرف علامَ تدلّ أى منها ، أو ماذا تعنى . ليس لدىّ إيمان أو إخلاص ، ولا أعرف ما الهدف الذى أسعى إليه » . وهذه الأسطر كأنها أخذت من رسالة إلى سيفورين ، وهى إنما تعكس قنوطاً مزمناً طويل العهد . . .

تنامى هذا القنوط قبل ساعـات من عرض « طائر النورس » بحيث أن تشيخوف أخذ يتساءل فيما إذا كان عليه أن يتوجه إلى المسرح . كانت الليلة قد أعلنـت تـكـريماً لـلمـمـثلة الـكوميـدية المـعروفة يليـزافيتا ليفيكيفا * كان من المقرر لليفيكيفا أن تظهر فى مسـرحية كوميدية من ثلاثة فصول بعد «طائر النورس» ومعظم الجمهور إنما جاء ليشاهد تلك المسرحية الكوميدية . ولذا تجمـد المسرح حين ارتفـعت الستـارة ليظهر أبطال تشـيخـوف الحالمون المكتئبون. فقد كان الجمهور قد جاء ليضحك ، لا ليكفّر عن ذاته . وحين وصلت فيـرا كوميـسارسفسكايا إلـى مشهد المونولج الـذى تخاطب به نينا نفسها قائلة: « أيها الرجال ، الأسود ، النسور، طيور السمّن ، الوعول ، البط ، العناكب ، الحيوانات الصامتة التى تسـتوطن الأعماق » بدأ الجمهور يطلق الضحكات أولاً ثم مالبث أن تحول إلى الصفير وصيحات الاستهجان . وطغت على أصوات التـصفيق الضـئيلة فى نهاية الفـصل الأول أصوات الشتـائم الصاخـبة . وما أن جـاء الفصل الثانى حـتى تحول الضـجيج إلى ضوضاء صاخـبة تصمّ الآذان ، إذ كان الناس يقهقهـون فى أكثر اللحظات شفافية ويـديرون ظهورهم لخشبة المسرح ليتبـادلوا الأحاديث . أما الممثلون فقد ارتبكوا أولاً ثم ما لبثوا أن أصابهم الاهتـياج . وفيما بين الفصول أخذ الكتّاب والصحفيون الذين أسعدهم هذا الفشل الذى يحلّ بزميل لهم طالما رأوه ناجحاً ، أخذوا يتبارون فى تعليقـاتهم اللئيمة « رمزية تافهة » ، لـم لا يكتفى بقصصه . . . » ، أما تشيخوف فـقد وجد لنفسه ملجأ فى غرفة تبديل الملابس للممثلة ليفيكيفا .

* كانت التقـاليد المسرحية المتعارف عليها فى روسيـا أن يكون العرض الأول لأى مسرحـية تكريماً لممثل معروف ، وفى كثير من الأحيان تعرض مسـرحيتان فى نفس الليلة ، كما حدث فى تلك الليلة فى ١٧ تشرين الأول / أكتوبر .

الفصلان الأخيران كانا مجرد استكمال نهائي للكارثة . وحين أسدلت الستارة أطلق الجمهور عاصفة من الاستنكار ، في حين هرب تشيخوف من المسرح منحنى الظهر رافعاً ياقته ليخفى ما أمكنه من رأسه . وسمع وهو يأخذ طريقه وسط ذلك الجمهور ، سمع متفرجاً حانقاً ضئيل الجسم يهتف قائلاً : « لست أفهم هؤلاء المخرجين . من الإهانة أن يعرضوا مثل هذه المسرحية ! » . توجه إلى مطعم رومانوف حيث تناول عشاءه ثم أخذ يمشى ذارعاً الشوارع التى يغطيها الجليد حتى وصل به الأمر إلى درجة الإنهاك .

أما شقيقته وليكا فقد أخذتا تنتظرانه في غرفتهما بالفندق حيث وعد بالالتقاء بهما عقب العرض . وبمرور الوقت أخذ قلقهما يزداد حدة باضطراد . أرسلوا ألكسندر ليبحث عن الهارب ، ولكنه مالبث أن عاد صفر اليدين . وما لبث أن غادر بعد أن كتب له ملحوظة تقول : « لم أكن أعرف شيئاً عن طائر النورس إلى أن رأيتها على خشبة المسرح هذه الليلة . ليست مسرحية جيدة فحسب ، بل إنها رائعة مليئة بالتحليل النفسى والتفكير العميق . إنها تمسّ شغاف القلب . . . » وفى الساعة الواحدة فجراً توجهت ماريا إلى منزل سيفورين حيث كان شقيقها يحل ضيفاً فى شقة منفصلة . ولكنه لم يكن هناك فاحتدت أعصابها إلى نقطة الانفجار وهى تستمع إلى سيفورين وهو يبدى رأيه حول كيفية تطويع « طائر النورس » لتصبح صالحة للعرض على خشبة المسرح ، إلى زوجته وهى تردد أخبار المجتمع .

فى حوالى الثانية صباحاً وصل تشيخوف فى النهاية ، ولكنه رفض رؤية ماريا حين أبلغه سيفورين بوجودها ، مدعياً بأنه تعب لدرجة الإرهاق . وقد سجل سيفورين أقوال تشيخوف فى مذكراته قائلاً : « جبت الشوارع ، جلست ، ولكننى لم أستطع أن أنسى العرض بكل بساطة . لن أقدم

مسرحية أخرى قط للمسرح ، حتى ولو عشت سبعمائة سنة ، إذ أننى لا أواجه إلا الفشل والإخفاق فى المسرح » .

وفى اليوم التالى استقل القطار عائداً إلى موسكو . كان يريد تجنب الالتقاء بأحد . كان يهرب من أصدقائه وأعدائه على حد سواء . غير أنه كتب لماريا ملحوظة سريعة تقول : « ما حدث بالأمس لم يكن مستغرباً ، ولم يزعجنى على وجه الخصوص ، فقد هيأتنى البروفات لما حدث ، وشعورى ليس سيئاً جداً . . . » وكتب ملحوظة أخرى لميخائيل يقول فيها : « المسرحية أخفقت تماماً ، وغمر المسرح جوٌ ثقيل قاتم من الحيرة والخزى . الممثلون كانوا مريعين وتافهين ، والاستنتاج هو الكاتب للمسرح خطأ ! » وفى ملحوظة ثالثة لسيفورين يقول : « لن أنسى ليلة البارحة قط . ولكننى نمت جيداً ، وهاأنذا أغادر فى مزاج مقبول . . . ملحوظة هامة : لن أكتب أو أقدم قط أى مسرحية » . كما طلب من سيفورين أن يتوقف عن طبع مجموعة مسرحياته التى كان من المقرر أن تضم « طائر النورس » .

رافقه بوتابينكو إلى محطة القطار ، وأثناء انتظار القطار أطلق تشيخوف عدة نكات مغتصبة ورفض أن يشترى أى صحيفة خشية أن يجد فيها تعليقات تنضح سمّاً . وكتب بوتابينكو فيما بعد : « كانت عيناه تقطران مرارة » . وقد سيطر هذا الإخفاق على تفكيره بحيث أنه ترك أمتعته فى القطار وأرسلت إليه فى اليوم التالى .

ختم ملحوظته لشقيقته بالقول : « أحضرى ليكا معك لدى عودتك إلى ميليخوفو » وهو أمر كان يسرّ ماريا غاية السرور . ولذا عادتا معاً إلى البيت وهما على أتمّ استعداد لتقديم الرعاية لإنسان هدّه ما حدث . ولكن تشيخوف مالبث أن أوقفهما عند حدهما : « لن أقبل كلمة أخرى عن المسرحية » . ولذا اكتفيتا بالحديث عنها فيما بينهما .

أما ليكا ، طائر النورس الحقيقى ، فقد كان من شأنها أن تصدم وهى ترى تجربتها الحزينة وبوتابينكو تتجسد على خشبة المسرح ، إلا أن تشيخوف أسبغ على شخصيتها فى المسرحية سمات مثالية بحيث تقبلتها بصورة ترضى غرورها .فقد جسّدها بالفعل كمخلوق حسّاس جريح يجاهد بأناقة كى يظل على قيد الحياة . وبعد أسابيع قليلة من العرض كتبت له تقول : « أجل ، الجميع هنا يقول إن « طائر النورس » مأخوذة من قصة حياتى وإنك وضعت شخصاً معيناً قيد المساءلة والحساب » .

امرأة أخرى تابعت « طائر النورس » بتحرق ، وهى ليديا أفيلوفا . فقد كانت قد نسيت وعد تشيخوف لها قبل تسعة أشهر بأنها ستجد جواباً على سؤالها فيما إذا كان قد تسلّم هديتها أم لا . وقد تابعت حوار المسرحيةسطراً سطراً دون أن تجد جواباً للقضية التى تعذبها . وفى النهاية رأت نينا تقدم لتريجورين فى الفصل الثالث ميدالية كانت قد تولت حفر الأحرف الأولى من اسمه عليها بالإضافة إلى عنوان أحد كتبه مع أرقام السطرين ١١ ، ١٢ من الصفحة ١٢١ فى ذلك الكتاب . إلا أن هذه الأرقام لم تكن موافقة لتلك التى كانت ليديا قد رتبت لنقشها على جيب الساعة التى أرسلتها لتشيخوف . ولذا لم تعد تتابع المسرحية بل استغرقت فى أفكارها الخاصة . وحين عادت إلى البيت كان صبرها قد نفد ، ولكن كان عليها أن تنتظر حتى يأوى زوجها إلى فراشه لتبحث عن الأسطر المذكورة فى كتابات تشيخوف . ولكن ما وجدته لم يكن يعنى لها شيئاً ، فذهبت إلى فراشها دون أن تجد ما يشفى غليلها . ،ما لبثت وقد استعصى عليها النوم أن واتتها فكرة مفاجئة . هل كان يشير بذلك إلى فقرة مقتبسة من إحدى قصصها هى والتى كانت قد أرسلتها لتشيخوف كى يقرأها . ألقت الأغطية وركضت إلى غرفة المكتب وفتحت المجموعة على الصفحة ١٢١ وبحثت عن السطرين ١١ ، ١٢ لتجد فقرة تقول : « لا يليق بالنساء

الشابات أن يشاركن فى الحفلات التنكرية » . وبعد فترة من الحيرة أدركت أنه حدس ميولها الغرامية ، وإن كانت كبرياؤها قد منعها من التوصل إلى الاستنتاج المنطقى بأنه إنما يعلن بذلك عن رفضه لها بطريقة تهكمية ، ولكنها قاطعة . وهكذا فإنه إنما كان يتهرب من جديد من المحاولات الغرامية لامرأة أخرى بالاستهانة بعلاقتها به .

أما جيب الساعة فلم يكن ذا معنى كبير بالنسبة له بحيث أنه أهداه فى النهاية لفيرا كوميسارسفسكايا التى كانت أول من مثّل بنجاح دور نينا فى « طائر النورس » ، وهذه الهدية دفعتها بدورها إلى التساؤل فيما إذا كان يكنّ لها شعوراً خاصاً . غير أنه أبلغ ليكا أيضاً بأنه ينوى إهداءها ميدالية كتبت عليها عبارة «كتالوج مسرحيات أعضاء جمعية المسرحيين الروس ، ١٨٩٠ ، صفحة ٧٣ ، السطر ١ » . وحين بحثت فى هذا المرجع وجدت عنوان مسرحية هزلية اسمها « اجناشا الغبى » أو « غباء غير متوقع » ، فى إشارة واضحة لإيجناتى بوتابينكو . ولقد كانت ليكا ، شأن ليديا أفيلوفا وفيرا كومسكارسفسكايا ، تود أن تجد لدى تشيخوف تجاوباً أكثر عاطفية . أما هو فقد كان يكتفى بتنشق عبيرهن ، وكل ما يطلبه منهن أن يكن جميلات ، ساحرات مرحات يكتفين بما يقدمه لهن من عواطف متحفظة .

فشل « طائر النورس » كان تجربة هزته معنوياً وبدنياً . وعلى الرغم من مرور الأيام ، فقد كان لا يستطيع أن ينسى قاعة المسرح وهى تضج ضحكاً على عمل وضع فيه الكثير مما يعتمل فى داخله . ولقد اشتعل غضباً حين وصفه سيفورين بالجبن لأنه هرب من مسرح الجريمة إذا قال : « لو كنت جباناً لركضت إلى جميع الصحف وكل الممثلين مستجدياً رحمتهم وتسامحهم ، ولأدخلت عليها بعصبية تعديلات طفيفة لا مجدية ، ثم جلست فى بطرسبرج أسبوعين أو ثلاثة وأنا أتردد على المسرحية والقلق يعصف بى ونوبات العرق البارد تغرقنى وأنا أشكو وأتذمر .

أنت نفسك قلت لى حين أتيت لرؤيتى بعد العرض بأن أفضل ما أفعله هو أن أرحل ، وفى اليوم التالى كتبت لى ملحوظة تودعنى فيها . فما الجبن فى ذلك لقد تصرفت بالكياسة الممكنة ، شأن رجل تقدم لخطبة فتاة فرفضته ، فلم يكن أمامه من خيار غير أن يرحل . لقد جرحت كرامتى، هذا صحيح ، ولكننى لم أفاجأ ، فقد كنت أتوقع الفشل وكنت مهيأ له كما سبق لى وأن حذرتك ، وبصدق . وما أن وصلت إلى البيت حتى تناولت بعض زيت الخروع واغتسلت بالماء البارد وأنا الآن مستعد لكتابة مسرحية جديدة » .

وعلى الرغم مما أظهره من رباطة جأش إلا أنه تألم أشدّ الألم تحت سياط تعليقات النقاد اللاذعة . والمديح الوحيد ، إلى جانب ملحوظة قصيرة مؤيدة ذيّلت بالأحرف الأولى لاسم ليديا أفيلوفا فى صحيفة سانت بطرسبرج جازيت ، كان بقلم سيفورين فى « الأزمنة الحديثة » . أما الصحف الأخرى فكان هجومها وحشياً ، إذا وصفت إحدى الصحف المسرحية بأنها سخيفة كلياً ، بينما عابت عليها أخرى تشوشها واضطرابها ، وقالت ثالثة إن فصل من فصولها يعج بشخصيات يائسة مجهدة زائفة وغير مفهومة . وقد شاركهم تولستوى رأيهم هذا ، وكتب سيفورين فى مذكراته يقول إن تولستوى وصف « طائر النورس » بأنها تقليد لأعمال إبسن ، وأضاف يقول : « لقد استجمع عناصر لاتمت بصلة لبعضها البعض ولاهدف واضح لها . تشيخوف هو أكثر الكتاب (الروس) موهبة ، غير أن « طائر النورس » مسرحية سيئة جداً » .

غير أن هذا الهجوم الصحفى والإشارات السلبية لم تحل كلها دون تحقيق المسرحية نجاحاً عظيماً لدى إعادة تمثيلها بعد أيام . وكان تشيخوف قد أصغى لنصيحة سيفورين فى الحقيقة و أجرى بعض التغييرات القليلة فى النص . والأهم من ذلك أن الجمهور حضر دون أن يتوقع أن يشاهد ملهاة

تضحكه . وهذا التحـول فى موقف الجمهور دفع فـيرا كوميســار سفسكايا على أن تكتب لتشيخوف قائلة : « عدت لتوى من المسرح . لقد انتصرنا . نجحت المسرحية نجاحـاً عظيماً وحققت ضربة . كم أود لو أراك الآن ، أو لو أنك سمعت الجـميع وهو يصيحـون « المؤلف » . . . » أما بوتابينكو ، فقد أرسل له برقيـة تقول : « ضربة جبارة . بعد كل فصل كـان الجمهور يصفق طالباً الإعـادة ، ثم الإعادة مرة بعد مرة ، مع التصـفيق فى الفصل الرابع . الممثلون يطلبون منى أن أعبّر لك عن مدى فرحهم » .

وصلت مكتبه فى الأيام التالية رسائل عـديدة من الأصدقاء يهنئونه فيها على هذا النجاح ويحثونه على العودة إلى بطرسبـرج للمشاركة فيه . وأكثر إطراء مـسّه جـاءه من أناتولى كـونى ، وهو قاض بارز ، مـعروف بدقـة ملاحظته لـلنفسية الإنسانيـة . وقد كتب فى رسالة تحـمل تاريخ ٧ تشرين الثانى / نوفمبر ١٨٩٦ ، تقول : « طائر النورس عمل يسمو فوق المستوى العادى والمألوف بحكم مـا فيهـا من مفاهيم ، وبحكم حـدة أفكارها ودقة ملاحظتها لأمور الحياة . إنها الحياة نفـسها مجسّدة على خشبة المسرح بكل خصائصها الدرامية ، وببلاغة عبـثيتها وعذاباتها الصامتة - ذلك النمط من الحياة اليومية التى يعيشها كل إنسان دون أن يدرك أحد منهم مدى السخرية اللئيـمة الكامنة فى أقدارها » . وقـد ردّ تشيخوف على هذه الرسـالة قائلاً إنها حملـت معانى كبيـرة بالنسبة له لأن ثقتـه بكونى أكبر من ثقتـه بالنقاد برمتهم مجتمعين .

غير أن جرحه ظل ينزّ ، وبمرور الوقت أخذ يشعر بأن ما حدث فى ليلة الافتـتاح كان خطة مدبـرة ضده وضد المسرحـية ، وبأن الكثيـرين ممن كان يعتبرهم أصدقاءه قد وضعوا أيديهم بأيدى أعدائه ليصبوا سوء نواياهم عليه ، وبأن الصحفيين والكتاب قد تضـافروا جميعاً ، باستثـنـاء قلة من أنصاره ، كى يقضـوا عليه . وقد أكـدت شـكوكه هـذه مقـالة نشرتها مجـلة

« انبكتاتور » فى عددها الصادر فى تشرين الثانى / نوفمبر إذ تقول : « لقد وضع كاتب المسرحية وممثلوها موضع الهزء والسخرية ، وكان جزء من الجمهور مبتهجاً بغلّ وضغينة ، بل إن نصف مقاعد الصالة احتلها أعداء تشيخوف ، وكان أكثرهم رداءة أولئك المنتمون لرابطة المؤلفين التافهين الذين جاؤوا ليصفّوا بعض حساباتهم الشخصية الوضيعة » .

لم يسمح تشيخوف بنشر « طائر النورس » إلا بشق الأنفس . وقد أوضح وضعه النفسى فى رسالة وجهها إلى سيفورين يقول فيها : « لست أشعر إزاء مسرحياتى إلا بالامتعاض والقرف ، بحيث أننى أجبر نفسى قسراًعلى تنقيح مسوداتها . وقد تقول ثانية بأن موقفى هذا إنما يعبر عن الغباء والسخف والتعالى والأنانية ، ومال إلى ذلك من أوصاف. وأنا أعرف هذا ، ولكن ما باليد حيلة ، وكم يسعدنى لو تخلصت من هذا الشعور السخيف . ولكننى ، بكل بساطة ، لا أستطيع ذلك . ليست المشكلة فى أن المسرحية فشلت ، فكل مسرحياتى السابقة واجهت الفشل فى حينها على أية حال ، كان الأمر يمرّ فى كل مرة دون أن يترك أى أثر . ولكن ما حدث فى ١٧تشرين الأول / أكتوبر لم يكن إخفاقاً للمسرحية ، بل لى أنا شخصياً . أمر معيّن لفت نظرى منذ الفصل الأول ، وهو إدراكى بأن وجوه أناس طالما استمتعت بمشاركتهم موائد العشاء ، أشخاص كسّرت رماحى وأنا أدافع عنهم (ياسنسكى مثلاً) ، وجوه هؤلاء كانت تحمل تعابير معينة واضحة كل الوضوح . لقد استعدت هدوئى وعدت إلى حالتى الطبيعية ، ولكننى لا أستطيع أن أنسى ما حدث ، كما قد لا أستطيع أن أنسى لكمة توجه لى على وجهى » .

وبالنتيجة ، شعر تشيخوف باغتراب أكبر إزاء زملائه الكتّاب . بل إنه فكر فى مرحلة من المراحل بقطع صلته بالطبقة المثقفة نهائياً والانخراط فى الجيش ، إذ كتب لسيفورين بعد أن سمع عن احتمال قيام صراع بين

روسيا وبريطانيا حول الشرق الأدنى فى شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٨٩٦ : « إذا حدثت حرب فى الربيع فسأشارك فيها . وخلال السنة والنصف أو السنتين الأخيرتين من حياتى واجهت أحداثاً فى حياتى الشخصية (حتى أن حريقاً حدث فى بيتنا مؤخراً) ، بحيث أنه لم يعد أمامى إلا أن أذهب للحربَ ، تماماً كما فعل فيرونسكى* لن أحارب بل سأسعف الجرحى » .

غير أن الحرب لم تقم وظل تشيخوف معزولاً فى مليخوفو يخوض معركة شاقة مع قصة مطولة بعنوان « الفلاحون » ترسم صورة قاسية للفلاح الروسى . وفى الوقت نفسه الذى كان يستنكر فيه على صفحات الورق الظلم الذى تعيش القرية فى ظلالة كان لا يوفر جهداً لتحسين ظروف الحياة الفعلية فى القرى المحيطة . وقد كتب فى دفتر مذكراته يقول : « كم يكون جميلاً لو أن كل واحد منا خلّف وراءه مدرسة أو بئراً أوشيئاً من هذا القبيل بحيث لا ينزلق إلى العالم الآخر إلا بعد أن يترك وراءه أثراً جاهد لتحقيقه » .

تولى فى ذلك الشتاء مهمة تشييد مبنى مدرسة جديدة فى قرية نوفوسيلكى القريبة ، وجمع التبرعات لهذه القرية ، كما فعل بالنسبة لقرية « تاليزة » . وقد قدم مبلغاً من جيبه الخاص وقام بدور المهندس المعمارى فى تحديد طراز البناء ، وكانت مخطوطات كتاباته تتزاحم مع رسوم البناء وتقديرات الكميات لاحتلال مكانها فوق مكتبه .

وفى الوقت نفسه ، وافق على المشاركة فى تنظيم إحصاء للسكان تجريه الحكومة ، وأخذ يتنقل من عزبة إلى أخرى فى المنطقة فيما بين ١٠ كانون الثانى / يناير و ٣ شباط / فبراير ، ورأسه يرتطم بباب بعد آخر من أبواب بيوت الفلاحين الواطئة . كما أوكلت إليه مهمة الإشراف على

* إشارة إلى عشيق آنا كارنينيا الذى تطوع للمشاركة فى الحرب التركية العربية انتصار عشيقته .

عشرين شخصاً ممن تولوا جمع البيانـات الإحصائية ، وكذلك كتابة التقرير النهـائى . وقد تراكـمت مـئات البـطاقات فى أدراج مكتـبـه حـامـلة هذه البيانات ، وكتب ساخراً بعد انتهاء هذه المهمة : « منحونى ميدالية لجهودى فى هذا الإحصاء » .

ولكن المشروع الذى أثاره أكـثر من كل المشاريع الأخرى كـان « قصر الشعب » وهو مركـز ثقافى لأبناء موسكو يشمل مسـرحاً ومكتبة ومتـحفاً وغرفاً للقراءة والاجتماعات . فـقد بدا له بأن مثله القديمة حول توفير سبل الثقـافة الإنسـانية إنما تجد ترجـمة لهـا فى واقع الحيـاة . وحين توجه إلى موسكو للاطلاع على الخطة هاله أن يـجد أن التكاليف المطلوبة أكبر بكـثير من إمكانيات التنفيذ ، وسرعان ما توقف هذا المشروع ولم ينفذ .

وفى ١٩ شباط / فبراير ١٨٩٧ ، عاد إلى موسكو لحضور حفل فاخر فى فندق الكونتيننتال احتفالاً بالـذكرى السنوية لتحرير الأقنان . وقد كتب فى دفتر مـذكراته فيمـا بعد يقول : « حفل ممل ومـثير للسخـرية . طعام وشرب شمبانيا وضجيـج وإلقاء خطابات حول وعى الشعب وفلسفة الحرية وما إلى ذلك من الشعارات ، بينما العـبيد مازالوا أقناناً ، يذهبون ويغدون بمعاطف الفـراك متزاحـمين حول الموائد لأداء مهـامهم ، وسائقـو العربات ينتظرون فى الخارج فى البرد القارس - كأنك تسخر من الروح القدس » .

وبعد أسبوعين من حفلات الاستقبال والعشاء والولائم عاد تشيخوف إلى ميليخوفو ولقصتـه « الفلاحون » . كان منهكاً وأخذ يسعل وينفث دماً من جـديد وإن كان يرفض أن يعتبر نفسه مريضاً . وبعد شهر واحد استقل القطار ثانية متجهاً إلى موسكو للقاء سـيفورين ولمتابعة السفر إلى بطرسبرج

.

وصل إلى موسكو فى ٢١ آذار / مارس ، ونزل فى فندق «جراند» . وما أن توجه لتناول طعام العشاء مع سـيفورين فى مطـعم « الهيرميـاج »

فى ذلك المساء حتى بدأ الدم يتدفق مـن فمه ، ولم يتوقف على الرغم من وضع الثلج على الفم . وما كان من تشيـخوف الذى لم يكن من طبعه أن يجعـل من نـفسـه عـرضة لأعـين الآخرين إلا أن طلب نقلـه إلى فـنـدق « سلاف مازار » حيث يقيم سيفورين ، وبعث هذا فى طلب طبيب يعرفانه كلاهما هو نيـقولاى أبلونسكى . وفى الصباح التالى أصر تشـيخوف على العودة إلى فندق جراند - فقد كان عليه أن يكتب العديد من الرسائل ويرى بعض الأشـخاص . ولكـن الدم مالبث أن عـاد للتـدفق من جـديد فأمـر الدكتـور أبلونسكى بنقله الى عـيادة يديرها أخـصائى فى الأمـراض الرئوية اسمه الدكتور أليكسى أوستروموف .

ونظراً للحرج الذى أحس به نتيـجة « للفضيحـة » فى المطعم ، فقد ظل تشيخوف يصر على نفى شدة حالته . وقد كتب سيفورين فى مذكراته بعد زيارته له فى المصح : « كان يضحك ويطلق النكات كالعادة وهو يبصق دماً فى إناء كبير » . وللتسرية عن تشيخوف ذكر له سيفورين أن الجليد بدأ يتكسر فى نهـر موسكو . وما أن تفـوه بهذه الكلمات حـتى اكفهـر وجه تشيخوف . وحينـذاك تذكر سـيفورين أن صـديقه قـال منذ فـترة وجـيزة : « حين أجد أحـد الفلاحين مصـاباً بالسل فإنه يقول : لا أسـتطيع أن أفعل شيئاً . كل ما أمامى هو أن أمضى فى الربيع حين يذوب الثلج » .

ما أن دخل تـشيخـوف المصح حتى سلّم بزيـف كل أوهامه المتعـلقة بحالتـه الصحية . ولكـنه طلب من إخوته وشقيـقته أن يخـفوا عن والدته حقيقة تشخيص الطـبيب لحالته ، وهى السل الرئوى ، وظل يمنّى نفسه بأنه ماتزال أمامه سنوات عـدة يعيشها على الرغم من حالـة رئتيه . وقد طلب الدكتور أوستـروموف منه تغيير نمط حياته جذرياً بحـيث يتجنب الإقامة فى المدينة ويعتنى بنفـسه بحرص ويتوقف أولاً وقبل كل شـئ عن ممارسة مهنة الطب . ولقد كـتب لسيفـورين فى ذلك يقول : « إن فى هذا الأمر نقـمة

ونعمة فى آن واحد . سأتخلى عن كل مهماتى فى المقاطعة ، وسأشترى لنفسى ثوباً كى أتشمس وأنا أرتديه تحت أشعة الشمس وسآكل إلى ما لانهاية . لقد أمرنى بتناول ست وجبات فى اليوم ، وهو مستاء لأننى لا آكل إلا القليل . كما منعونى من الإسراف فى الكلام ومن السباحة وما إلى ذلك من الأمور . لقد تبين لهم أن جميع أعضائى الأخرى ، باستثناء الرئتين ، سليمة تماماً . ولكننى أخفيت عن أطبائى أننى أعانى من العجز الجنسى ليلاً فى بعض الأحيان » .

انتشرت أنباء إصابة تشيخوف بالسل انتشار النار فى الهشيم فى موسكو ، وتدفق عليه الزوار ، واعتراه الإرهاق بسبب هذرهم ، فكتب لسيفورين يقول : « علىّ أن أتزوج ، فوجود زوجة سليطة اللسان قد يقلل من عدد الزوار إلى النصف . كان سيلهم لا ينقطع بالأمس - وهذه كارثة . كانوا يأتون أزواجاً ويطلب كل منهم منى أن أمتنع عن الكلام ، ولكنهم لا يلبثون أن يمطرونى بالأسئلة » . امتلأت الطاولة المحاذية له بباقات الزهور وأوعية الكافيار وزجاجات الشمبانيا ولفافات جاء بها كتّاب مبتدئون يطمعون بتوصية منه . وكان تشيخوف يقرأ كل مخطوطة منها بصبر وأناة ويتحامل على نفسه ليجيب برسالة بخط يده . ومن بين هؤلاء كاتبة شابة تدرس لتصبح معلمة وقد بعثت له بقصص عدة ، فأعادها إليها مرفقة بنقد شديد اللهجة . وحين كتبت له من جديد قائلة إنها كانت تتوقع منه عطفاً وكرماً أكبر أجابها شارحاً صعوبة كتابة الرسائل بالنسبة لشخص طريح الفراش ، وضمّن رسالته المزيد من النصائح .

أما ليديا أفيلوفا ، التى لاتتعب ولا ترعوى ، فقد صادف أنها كانت مارّة بموسكوفى ذلك الحين . وحين علمت أن تشيخوف نقل إلى المصح أسرعت لزيارته . سمح لها بزيارته لمدة ثلاث دقائق فحسب ومنعت من حمله على الحديث . ولكنها لم تدّع فقط بأنها استمتعت معه بحديث

صريح بل عادت فى اليوم التالى وهى تحمل زهوراً . كانت أخته ماريا تجلس إلى جانبه فى ذلك اليوم ، وقد كتبت فى مذكراتها تقول : « كان أنطون بافلوفيتش يرقد على ظهره وقد منع من الكلام ، وبعد أن حييته اتجهت إلى الطاولة لأخفى عنه مشاعرى ، وهناك رأيت رسماً لرئتيه مرسوماً بالأزرق ، ولكن الجزء السفلى ملوّن بلون أحمر ، وأدركت أنهما مصابتان .

وبعد يومين ، وكان تشيخوف مازال ممنوعاً عن الحركة ، أتى تولستوى لزيارته . ولم يجرؤ الأطباء والممرضات على منع مثل هذه الشخصية المرموقة من الدخول . أما تشيخوف المتواضع ، شأنه دائماً ، فقد مسّه هذا العطف من شخصية عالية المقام . جلس المعلم المرموق فى مقعد مجاور لسرير رفيقه الضيق ، وأنسته غطرسته أنه إنما يوجه كلامه إلى شخص قد تكون حياته فى خطر ، فأخذ يلقى خطبة حول خلود الروح . ولقد كتب تشيخوف لصديقه ميخائيل منشيخوف بعد ذلك بعدة أسابيع مازحاً « كان حديثاً شيقاً ، بالنسبة لى بصفة أساسية ، إذ أننى أصغيت أكثر مما تحدث . ناقشنا مسألة الخلود ، فهو يعترف بالخلود حسب فلسفة « كانت » ، مفترضاً بأننا جميعاً (بشراً وحيوانات على حد سواء) إنما نعيش على مبدأ رئيسى (مثل الحكمة أو الحب) دون أن ندرك جوهر أو هدف هذا المبدأ الذى سيظل لغزاً بالنسبة لنا . أما أنا ، فإننى أتصور هذا المبدأ أو القوة بمثابة كتلة هلامية عديمة الشكل تندمج فيها ذاتى ، ذاتى الفردية ووعيى الشخصى . لا يهمنى ذلك الخلود ولست أفهمه ، وقد أدهش تولستوى أن أقول ذلك ! » .

وحين التزم المريض المنهك جانب الصمت انتهج المعلم الذى لا ينهك طريقاً آخر ، وأخذ يشرح مفهومه للفن . فقد أبلغ تشيخوف بأنه وضع رواية « البعث » التى كان يكتبها جانباً لبعض الوقت وبدأ بقراءة ستين بحثاً

فى علم الجمال لكى يكتب بحثاً عن الموضوع . فقد كان إحساسه هو أن الفن يصبح أمراً لا مبرر أو مسوّغ له إن لم يكن فى خدمة الأخلاق أو الدين . وحين لاحظ أن تشيخوف يجمع شتات قوته للاعتراض على ما يقول أخذ يتحدث بصوت أكثر ارتفاعاً قائلا : « الفن الحديث الذى يكرّس نفسه للفساد والعفن لا يستحق إلا الاحتقار الكلى » . إلا أن هذا النبى الصريح ذا اللحية الجليلة البيضاء والعينين اللامعتين لا يسمح لأحد بأن يناقض ما يقول ، ولذا أقلع تشيخوف عن أى محاولة من هذا القبيل ، ولكنه يقول فى رسالة كتبها لصديقه ألكسندر أرتيل : « فكرته ليست جديدة ، فلطالما رددها المتقدمون فى السن بأشكال مختلفة فى كل قرن من الزمان . فالمتقدمون فى السن يعمدون إلى التفكير دائما بأن نهاية العالم أصبحت وشيكة ، ويؤكدون بأن الأخلاق قد هبطت إلى الدرك الأسفل ، وأن الفن أصبح ضحلاً ومكرراً لدرجة الابتذال ، وأن الناس غدوا ضعافاً ، وهكذا دواليك . ولقد آل تولستوى على نفسه أن يقنع الجميع فى كتابه بأن الفن قد وصل فى وقتنا الحاضر إلى مرحلته النهائية ، وأنه قد انحشر فى متاهة لا يستطع منها خروجاً » . وحتى بعد مغادرة تولستوى لم يستطع تشيخوف أن يستعيد رباطة جأشه وغرق فى نوم متقطع وبدأ ينزف دماً عند الفجر .

وفى النهاية سمح له الأطباء بالحركة والتنقل ، فبدأ يتجول فى ممرات المصح وحدائقه . وفى أحد الأيام وصل إلى دير نوفوديفيتشى القريب حيث وقف متأملاً فوق قبر صديقه بليشيف الذى كان قد دفن هناك قبل أربع سنوات . وقد قال لسيفورين إن ما كتبه فى مذكراته هو « فكرة الموت تولّد شيئاً أكبر من الخوف . فالناس يحملونك إلى المقبرة ويعودون لاحتساء الشاى وترديد عبارات منافقة » .

منذ ذلك التاريخ أخذ يعيش حياة إنسان شبه عاجز ، ولكنه كان قلقاً على مستقبل عائلته أكثر مما هو قلق على نفسه ، هل سيملك القوة التي ستمكنه من تأمين سبل العيش التي يحتاجونها ؟ وحين قال له سيفورين مازحاً بأنه سيتعرف على متع الكسل مرة واحدة في حياته ، ردّ عليه قائلاً : « إنني أحتقر الكسل ، تماماً كما أحتقر جميع أنواع الضعف أو الوهن في اندفاعات الروح » .

وعلى الرغم من تحرقه للعودة إلى العمل ليثبت لنفسه بأن الأزمة التي اجتازها لتوه لم تترك أيما أثر على قدراته الإبداعية إلا أنه لم يسمح له بمغادرة المصح حتى ١٠ نيسان / أبريل . وفي اليوم التالي وصل إلى ميليخوفو يرافقه شقيقه إيفان ، وسرّه أن يرى والديه وأوراقه وكتبه من جديد ، وأن يشاهد الريف وهو يلمع تحت ضياء أشعة شمس الربيع الصافية . ولقد أبلغت ماريا الفلاحين في المنطقة بأن عليهم ألا يتوقعوا بعد من أخيها أن يتولى علاجهم . كما وافق هو على أن يتخلى عن المشاوير الطويلة وأعمال الحديقة الشاقة مكتفياً بتقليم شجيرة من شجيرات الورد كل يوم وتقديم بذور القنب للعصافير . ولكنه لم يستطع مع ذلك تجاهل بعض الواجبات . وعلى الرغم من تعنيف ماريا فقد استمر في إرسال طرود الكتب إلى مكتبة تاجنروج والإشراف على بناء مدرسة نوفوسيلكي وامتحان طلبة مدرسة تاليزة واستقبال الزوار والاستمرار في مراسلة الأصدقاء والكتاب والمتوسلين من مختلف الأنماط .

وبالإضافة إلى هموم حياته اليومية كان على تشيخوف أن يواجه الضجة التي قوبلت بها قصته « الفلاحون » لدى نشرها في الفكر الروسي . فقد كان الرقيب ، وقد أرعبه تصوير تشيخوف الذي لا يرحم للفلاح الروسي ، قد اقتطع أجزاء أساسية من القصة . ومع ذلك فقد ذهل الجمهور لمدى جرأته . تصوّر القصة اكتشاف شابة من المدينة لطبيعة الحياة

في الريف، إذ تتزوج هذه الشابة ، واسـمها أولجا ، تتزوج فلاحـاً يتحول إلى جرسون فى فندق . وحين يصاب بمرض خطير ويفـقد عمله تعيده إلى قريتـه الأصلية . وما تشـهده هناك إنما ينتـمى إلى عالم آخر مـختلف كل الاختلاف عـما ألفته ، عالم غـارق فى الفقر والخرافـات والقذارة والجهل والطبائع الفظة واللؤم والكسل . تجد عشرة أو اثنى عـشر شخصاً يتكومون فوق بعـضهم البعض فى كوخ تملـؤه أسراب الذباب ، لا يتجاوز طعـامهم الخبز الأسود والماء .

كما تجـد رجالاً يضربون النساء بوحـشية ويغرقـون بأسهم فى كؤوس الفودكا . وبما أن من يملك طبعاً معتدلاً لطيـفاً لا يتحمل المعيشة وسط مثل هذه الوحشيـة ، فإنها ، حال وفاة زوجهـا ، تحمل ابنتها محـاولةً التسول لتتمكن من العودة إلى موسكو .

أحدثت « الفـلاحون » ضجـة أدبية وصلت إلى حـدود الفضيـحة ، وواجهت جدلاً عنيـفاً فى الصحافة . وفى نهاية المطاف التـزم النقاد جانب القصـة ، وقال ناقد « أنبـاء الشمـال » : « إن نجاح « الفلاحـون » يذكرنا بالأيام التى كانت تظهر فـيها قصة لتورجنيف أودستـويفسكى » . وما لبث تشيـخوف أن بدأ يتلقى عدداً من الرسـائل المتحمـسة ، فقـد كتب لايكن مثلاً: « الفلاحون » . إنها لرائعة ، « قررت قراءتها فى ليلة واحدة ، فى جلسة واحـدة ، ولم أستطع النوم بعـد أن أنهيت قراءتهـا » . أما الكاتب المسرحى والمخرج ألكـسندر سومباتوف - يوزهين فقـد ذهب إلى أبعد من ذلك إذ يقول : « إنها قطعـة من أعظم ماظهر فى الأدب فى أى مكان منذ فترة طويلة . فهـى مشبعة بروح الصدق وتملك قوة لاتقـاوم . إنها تذكرنا بعفـوية شكسبـير فى نسج أعمـاله ، بحيث أن المرء يفكر فـيك على أنك الطبيـعة ذاتهـا ، أكثر من كـونك مجرد كـاتب . . . ففى « الفـلاحون » أستـطيع أن أتحسس الطقس فى يوم مـا ، وموضع الشـمس فى السـماء ،

والمنحنى الذى تأخـذه الأرض فى انحدارها نحو الـنهر ، . أرى كل هذا ، وبرمته ودون أن تكون هناك حاجة لوصفه لى » .

غير أن آخرين مثل أنصـار الحركة الشعبية والتولستـويين ، فقد اتهموا تشيخوف بأنه حاول جهده أن يظهر الفلاحين فى أسوأ صورة . وكان يمكن لتـشيـخـوف أن يجيب على ذلـك بالقول بأنه ، بعـد خـمس سنوات من الاتصال المباشر مع الفلاحين كطبيب والحياة فى وسطهم ، أصبح أكثر قدرة من الكثيرين على تسجيل مدى الانحطاط الذى وصل إليه هؤلاء الفلاحون فى حياتهم . ولكنه آثر هنا أن يتمسك بالقاعدة التى طالما التزم بها ، وهى الامتناع عن المشـاركة فى الجدل الذى تثيـره كتاباته . فقد كـان يعرف حق المعـرفة بأن عـمله قد أحـدث قلقـاً عمـيقـاً ، خاصـة لدى أولئك الذين يصرخون أكثر من سواهم بأعلى الأصوات .

جاء نجـاح « الفلاحـون » أكثر مـن تعويض كاف عن كـارثة « طائر النورس » ، غير أن ازدياد شعبيته - فقد أكد له ألكسندر بأن حب الجمهور له وصل إلى حدود لم يصل إليها من قبل - هذه الشعبية المتزايدة كانت فى الحقيـقة مصدر قلق وارتياح له فى آن مـعاً . وعلى الرغم من أنه كان لديه مـعين لا ينضب من الأفكار الجـديدة المبتـكرة التى يمكنهـا أن تتحـول إلى قصص ومسرحيات ، إلا أن مـرضه ترك تأثيره الواضح عليه ، وكانت تمر به أوقات يجلس خلالها سادراً فى أحلامه لفترات تمتد طويلاً وصفحة ورق بيضاء تتربع أمام عينيه . كمـا أن الزوار مالبثوا أن بدأوا يتدفقون من جديد مع بداية تحسّن الطقس بـحيث امتلأت مـيليخوفـو بالزوار وطفحت بهم : أخوانه المتزوجون مع زوجاتهم وأطفالهم ، كانوا يمكثون أسبوعاً فى كل مرة يحضـرون فيها . أمـا الأصدقاء ، فعلى الرغم من أنه يسـرّه دائما أن يرى أصدقاء مـثل ليفيتان وليكا وألكسـندر إيفانينكو ، فقد كان هناك مـتسولون وطفيليون عليه أن يحتملهم أيضاً . ولقد قال لليونتيف - شيشيجلوف مرة :

« تصور ، لقد جاءنا أكثر من عشرة زوار من موسكو خلال الأيام القليلة الماضية . وكأننى أدير نزلاً ، وعليك أن تقدم الشراب والطعام والفراش لكل واحد من هؤلاء » .

هذه الجلبة كانت تمنعه عن العمل بحيث كان ينتظر خلودهم للنوم فى كثير من الأحيان ليتمكن من إنجاز عمله . ويقول ليونتييف - شيشيجلوف إنه كان شاحب الوجه متغضن القسمات ، تدلّ عيناه على أنه يعانى من الحمى . وكان يسعل كثيراً ويحاول بصوته الأجش أن يخفى ما يعانيه فى الواقع وهو يتدثر بدثار سفرى سميك حتى فى الأمسيات الدافئة .

كما أصبحت سفراته التى نادراً ماكان يختلسها إلى موسكو وضواحيها تنهكه أشد الإنهاك . وبعد زيارته لمزرعة التاجر المليونير « سيرجى موروزوف » (بناء على اقتراح من ليفيتان) كتب لسيفورين يقول : البيت كبير وكأنه الفاتيكان ، والخدم يرتدون السترات المطرزة التى تتدلى منها السلاسل الذهبية لتغطى بطونهم أم الأثاث فهو عديم الذوق . وللمالك نظرة جوفاء ترتسم على قسمات وجهه . ولهذا هربت » .

وعلى الرغم من أنه لم يكن يكتب الا القليل ، إنه كان يقرأ الكثير . كان موباسان يمتعه ، وعلى الرغم من أن معرفته بالفرنسية كانت قليلة غير أنه فكر بترجمة عدد من قصصه . كما اجتذبه الطابع الغريب لمسرحيات مترلينيك* بل إنه اقترح على سيفورين تقديم مسرحية « الأعمى » على مسرحه ، وأضاف : « قد يكون الجمهور فى معظمه أقرب للغباء . غير أن بإمكانك أن تنقذ المسرحية من الفشل بكتابة الخطوط العريضة للمسرحية فى النشرة التى توزع على الجمهور » .

ويقول فى الرسالة ذاتها : « لدىّ أكوام من المقيمين . فألكسندر فرض أولاده علىّ دون أن يترك لهم حتى ملابس داخلية أو خارجية مناسبة ،

* الكونت موريس مترلينيك (١٨٦٢-١٩٤٩) شاعر وكاتب مسرحى بلجيكى .

يعيشون لدينا الآن ولا أدرى متى يرحلون . يبدو أنهم سيقيمون حتى نهاية الصيف) بل ربما كانوا ينوون الإقامة الدائمة . ما أكرم أبويهم !! » . وقد اشتكى من الأمر ذاته لايكن إذا يقول فى رسالة له : « الضيوف يزحفون زحفاً ، وليس لدينا مايكفى من الغرف والملاءات والصبر لتبادل الأحاديث معهم والقيام بدور المضيف الكيِّس المؤدب » .

وما أن حلَّ شهر آب / أغسطس حتى كان صبره قد نفذ وأحس بتعب شديد بحيث بدأ يفكر بالالتزام بنصيحة أطبائه بالرحيل إلى الجنوب قبل أن يبدأ صقيع الشتاء . وحين كتب له صديقه فارسيلى سوبولوفسكى ، عضو هيئة تحرير « الأنباء الروسية » من بياريتز* قرر تشيخوف أن يخلّف كل شئ وراء ظهره لينضم إليه . وقد كتب له يقول : « أرجو أن تخبرنى فيما إذا كان علىّ أن استقل قطار برلين أم فيينا من موسكو ، وأى قطار أستقله من باريس ، وفى أى فندق تقيم . فأنا لم أذهب قط إلى بياريتز من قبل ، وأشعر بالخوف . وأنا كما تعرف ، أتكلم جميع اللغات ، ماعدا الأجنبية منها ، وحين أكون فى الخارج وأحاول استخدام ألمانيتى أو فرنسيتى لدى مخاطبة قاطعى التذاكر فإنهم يضحكون منى . كما أننى أحس بأن تنقلى من محطة إلى أخرى فى باريس هو بمثابة ممارسة لعبة من ألعاب العميان » .

كل ما بقى له كان أن يجهّز المستلزمات المالية للرحلة . وبعد أن راجع حساباته ، وصل إلى قناعة بأن عائداته من « طائر النورس » التى كان قد بدأ عرضها هنا وهناك ، إضافة إلى المبلغ المقدم الكبير الذى تلقاه من قصة « الفلاحون » سيكفيه لعدة أشهر . لذا غادر ميليخوفو فى ٣١ آب / أغسطس ١٨٩٧ ، وهو يشعر بأنه لا يخلّف وراءه متاعب الحياة اليومية فقط ، بل مرضه أيضاً .

* منطقة فى جنوب غربى فرنسا .

١٢ - يالطا

« كانت الرحلة حسنة ، والصحبة ممتعة إلى أن وصلت إلى برلين . ومن برلين إلي كولون خفقني الألمان ، أو كادوا بسيجارهم . أما من كولون إلى باريس فقد نمت » .

ماأن وصل إلى باريس حتى توجه إلى بيت آل سيفورين حيث قضى معهم أياماً عدة يتفرج على معالم المدينة . وقد تمكن من التغلب على تعبه ليتجول في الكازينوهات المرموقة (رأى فى الطاحونة الحمراء راقصة شرقية ترقص على أنغام الدفّ) ، والحوانيت (اشترى من حانوت ماجازان دو لوفر شمعة وعصا وربطتين وقميصاً) . وبعد أن وصف المدينة بأنها « فاتنة وجذابة » استقل القطار إلى الجنوب ، إلى منتجع بياريتز .

ما أن حطّ الرحال فى فندق فيكتوريا حتى غرق فى زحمة الشوارع وشاطئ البحر ، وكان أهم ما اقتناه قبعة حريرية ليحمى رأسه من أشعة الشمس . أخذ يقضى أيامه مسترخياً فى كابينة من القصب على شاطىء البحر ، يتشرب الأمواج المتكسرة ولا يفعل شيئا سوى قراءة الصحف أو مراقبة النساء الجميلات اللاتى يكتفين من الثياب بأقلها ، ويتسكعن وهن يحملن مظلاتهن الملونة ، أو يسحبن كلابهن المدللة خلفهن وقد يستمتع بمراقبة المغنين المتسكعين وهم يحملون قيثاراتهم . أحسّ هناك بأن « آلاف الفراسخ تفصله عن ميليخوفو » وبأنه لا يشعر بأى حنين للوطن على

الإطلاق ، بل إن ما يؤسفه هو كثرة الروس المتواجدين فى المكان . ولكى يحسّ بأنه جزء من فرنسا أخذ يتلقى دروساً بالفرنسية على يد فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها تدعى « مارجو » . غير أن الطقس مالبث أن أصبح عاصفاً وممطراً فى غضون أسبوعين ، ولذا انتقل إلى نيس بحثاً عن الشمس .

أقام هناك فى « بنسيون روس » ، ٩ شارع جونود حيث وجد نفسه بصحة ما يناهز الأربعين من أبناء وطنه ، يعانى الكثيرون منهم من المرض . أما غرفته التى كانت فى الطابق الثانى فلم تكن فسيحة ، بل لها نوافذ واسعة تطل على الخليج من الناحية الجنوبية ، وسرير كأنه «سرير كليوباترا» وحمام خاص . أما الطباخ الروسى فقد كان يغدق عليهم ؛وجبات حساء الخضر الروسى (البرش) والبفتيك . كان تشيخوف يتخذ موقف الناقد الساخر من صحبه على المائدة - الأرملة سريعة الإنفعال التى تنظر إليه شزراً خشية أن يستأثر بأفضل قطعة لحم حين تمر الأطباق أمامهم ، والعوانس اللاتى جف ماء الحياة فى عروقهن وهن يثرثرن ويتبادلن الأقاويل دون انقطاع ويعترف تشيخوف بأنه يخشى أن يشابههن فى يوم من الأيام .

كان يهرب من الفندق كلما استطاع ذلك ليستمتع بالشمس والزهور وأشجار النخل والبحر الأزرق الهادئ ، ولكها عوامل كانت تتآمر لتحريضه على الكسل . كان يتمشى ذاهباً غادياً فى شارع « بروميناد ديزانجليه » ، يتوقف فى أحد المقاهى ، يقرأ صحيفة ، يستمع إلى الفرق الموسيقية وهى تعزف ألحان فى الهواء الطلق ، باختصار يفعل أى شئ يؤمن له خلو البال . تابع دروس الفرنسية ، ولكن دون جدوى ، وعدم إتقانه

الفرنسية منعه من إقامة صلات وثيقة مع سكان المنطقة . غير أنه صاحب العديدين من الروس المرموقين منهم مكسيم كوفلافسكى ، وهو حقوقى ومؤرخ وعالم اجتماع التجأ إلى فرنسا بعد طرده من جامعة موسكو بسبب آرائه السياسية التقدمية ، وفاليريان ياكوبى وهو رسام ذكى ميال للتشاؤم ، ونيكولاى يوراسوف القنصل الروسى الخجول ذو الطبيعة الحييّة الهادئة . كان يلعب الورق معهم ويرافقهم فى جلساتهم فى حانة « تافيرن جونيك » حيث يتناولون المحار ، أو يجلسون فى الكازينو البلدى بهدف التسلية .

ولكنه كان يشعر بتأنيب الضمير ، حتى لهذه التسليات البريئة . وعلى الرغم من أنه كان يسجل فى دفتر مذكراته دون انقطاع مواضيع لقصصه إلا أنه لم يكن لديه من الإرادة ما يحمله على تطوير هذه الأفكار . ولقد كتب لفيودور باتيوشكوف ، المحرر الروسى لمجلة كوزموبوليتان التى تصدر بلغات متعددة ، كتب له يقول : « الكتابة بالنسبة لى هى عادة عملية بطيئة مدمرة للأعصاب . أما هنا ، فى غرفة بأحد الفنادق ، وعلى مكتب غريب ، ومع هذا الطقس الجميل الذى يلحّ عليك بالخروج ، فإن الكتابة تصبح أمراً شديد المشقة » . وهو يقول إن الكتابة فى مثل هذه الظروف مثل الخياطة على ماكينة شخص آخر . كما كان يشتكى من أن وجبات الطعام الدسمة تجعله يميل للنعاس . ومع ذلك ، فقد أجبر نفسه على استكمال ثلاث قصص واحدة بعد الأخرى وهى : « البشناقى » * ، « والعودة » ، و« فى العربة » . ولكن هذا الجهد أعياه واعتبر ما أنجزه قليل الأهمية ، ومع ذلك أرسل القصص إلى « الأنباء الروسية » .

* من أقوام الأتراك الذين كانوا يغزون جنوب روسيا ومناطق الدنواب وسهوب مولدافيا فى أوئل القرون الوسطى .

وحين بدأ يسعل وينفث دما من جديد بعد فترة راحة قصيرة تظاهر باللامبالاة ، وكتب لـ « يلينا سَافروفا » قائلاً : « أسعل دماً في بعض الأحيان ، غير أن هذا لا يؤثر على ما أحس به ، وأمضى أتواثب بفرح وكأنني فتى غرّ أعزب . ما أروع أننى لم أتزوج بعد ، كم أجد هذا الأمر مريحاً » .

غير أن أطباءه نصحوه بالانتقال إلى غرفة في الطابق الأرضى وبالعودة إلى البنسيون قبل حلول الظلام . ولكن النزف استمر لديه على الرغم من كل هذه الاحتياطات ، وإن كان أقل خطورة من النوبة التى لمت به فى موسكو ، ولقد كتب لسيفورين يقول : « إننى رهن الإقامة الجبرية ، ولذا فإننى اجاهد وأنا أكتب لك لا ستنباط ما يمكننى أن أكتب لك عنه . إننى احس بأن حياتي وحيداً تبعث على الملل والحزن » .

ولمواجهة آثار إقامته الجبرية بدأ يعيد صلاته بالأصدقاء عن طريق المراسلة ، حتى لأولئك الذين كان يحاول التهرب منهم . كيف يجرى الأمور فى ميليخوفو فى غيابه ؟ بدأت ماريا التى ترك الأمور فى عهدتها تتلقى منه توجيهات منفصلة : إذا احتاجت للمال يمكنها أن تطلب دفعة مقدمة من مجلة « الفكر الروسى » . عليها أن تتذكر إعطاء روبل واحد لراعى البقر وثلاثة روبلات للقس فى عيد الميلاد ، ولتتذكر أن تشكر أحد الجيران لتبرعه ببعض الأجر لمدرسة نوفوسيلكى ، وأن تبلغ والدها بأنه أسعده أشد السعادة أن يتلقى نسخة من سجل النشاطات اليومية فى ميليخوفو .

وما لبث أن تابع رسائله الجادة - الساخرة لليكا ، أبلغها فى إحداها بلهجة الاستنكار عن لفتة تتسم بالإسراف جاءت بتحريض من ليفيتان :

وهى هدية بمبلغ يقدر بألفى روبل مقدمة من ثـرى اسمه سيرجى موروزوف كمساعدة . ويقول تشيخوف فى رسالته : « لم أطلب هذه النقود ، ولست أريدها ، ولقد طلبت من ليـفيتـان أن يسمح لى بإعادتها بشـرط ألا أسبب إساءة لأحـد بالطبع . وهو يعارض فى ذلك ، إلا أننى سأعـيد المبلغ على أية حالة وسأنتظر أسبـوعين أو شهراً ثم أعيدها مع رسالة شكر مقـتضبة ، فلدى من النقود ما يكفـينى » . أما فى رسالته التالية فـإنه يتساءل بود هل هناك من يخطب ودّها !! ، وفـيمـا إذا كانت تخطط فـعلاً لفـتح مشـغل خياطة ، وهـو يقول لها : « لست أود أن ألقى عليك محـاضرة ، ولكننى أريد أن أقول إن العمل سيمنحك الاستقـلال وراحة البال وثقة فى مستقبل أيامك مهما كان الأستديو أو المحل الذى سـتعملين فيه قليل الشأن فى نظر الآخرين » . كما وعدها بأن يأتى لزيارتهـا فى المشغل ليغازل البنات اللاتى يقمن بأعمال الخياطة !! .

أما ليديا أفيلوفـا فلم يثبط عزائمها رحيل تشيـخوف بحيث تحجم عن استئناف حبل رسـائلها ، بل لقد أرسلت له العديد من قصـصها من جديد ليبـدى رأيه فيـها . وفى ذلك تقـول : « حين كتـبت له كنت أحس أننى أفرض نفسى عليه ، ولكننى لم أسـتطع وقف مراسلاتنا ، وهو أمر يوازى بالنسبـة لى التوقف عن الحيـاة ذاتها » . ولقد اغـتاظ تشيـخوف لذلك ، ولكنه بحكم أدبه وتهذيبه المعهـودين أجابها بمزيج حاذق من المديح والنقـد إذ يقـــول : « قلة تجربتك وثقتك بنفسك ، وكـذلك كسلك ، كلها أمور تلوح فى سطور كل قصة من قصصك . فلست تصقلين جملك ، وهو أمر لابد منه باعتباره الأساس فى العمل الفنى » .

وحين عنّفته لأنه لا يبرز إلا النواحى القاتمة فى الحياة أجاب بقوله : « ليس الذنب ذنبى ، مع الأسف ، بل هو شئ عفوى . ولست أشعر بالتشاؤم حين أكتب ، بل أشعر فى الحقيقة بأن مزاجى حسن حينذاك . يقال إن الناس الحزينين القاتمين يكتبون أشياء مرحة ، بينما يستخدم المرحون كتاباتهم لدحر الحزن . وأنا بطبعى إنسان مرح . ويمكننى القول إننى عشت السنوات الثلاثين الأولى من حياتى على الأقل كإنسان سعيد » . ويختم رسالته بالقول : « لست أقوم بأى عمل ، لست أكتب ولا رغبة لى بالكتابة بل أصبحت إنساناً كسولاً » .

فمن ناحية ، لم يكن هناك ما يثير تخيلاته فيما يحيط به . والأهم من ذلك أنه بطبعه لم يكن قادراً على تحويل إدراكه الحسى اليومى إلى عمل أدبى فى اليوم التالى ، بل كان يحتاج إلى مسافة زمنية تفصله عن الناس والأمكنة ، وبعد ذلك يمكنه أن يستحضر أولئك الناس والأمكنة ويبعثها فى قصصه من جديد . وهذه العملية الخفية التى يحوّل خلالها المادة الخام إلى عناصر أدبية قد تستغرق شهوراً ، أو حتى سنوات . وحينما طلب منه باثيوشكوف أن يزوّد مجلة « كوزموبوليتان » بأعمال جديدة ألهمته إياها إقامته فى الخارج أجابه قائلاً « لست أستطيع أن أكتب قصة من هذا النوع إلا فى روسيا ، بعد أن أعيد التفكير فيما رأيت . فأنا لا أستطيع الكتابة إلا بالعودة فى تفكيرى إلى الوراء ، ولم يسبق لى قط أن كتبت على الطبيعة مباشرة . فأنا أحتاج لغربلة الموضوع ولتصفية ذاكرتى بحيث لا يرشح منها إلا ما هو مهم أو نموذجى » .

لم يعجب تشيخوف بنيس كمكان ، غير أن سكانها خلبوا لبّه . فقد وجد الفرنسيين شديدى التهذيب ، ومتحضّرين ، مستقيمين ، ودودين ، أو كما قال : « كل كلب هنا فيه نفحة من الحضارة » . وفى رسالة لإيفان، يبدى دهشته لأنه شاهد قساً يلعب كرة القدم مع بعض التلاميذ فى الشارع ، ولأن خادمة الفندق المرهقة تبتسم فى وجهه وكأنها « دوقة » . كما أسعده أن كل امرئ يقول « بونجور » للآخرين فى الحوانيت وعربات القطار ، وأن الناس يخاطبون حتى الشحاذ أو الشحاذة بـ « مسيو » أو « مدام » .

ولقد ازداد إعجاب تشيخوف بالمكانة التى تحتلها فرنسا فى مقدمة الدول الأوربية المتحضرة وبروح الإستقلال لدى الإنسان الفرنسى حين أعادت بعض الصحف الفرنسيه فتح ملف قضية دريفوس فى ذلك الحين . فقد أثارت تلك الصحف احتمال براءة النقيب دريفوس الذى كان قد قدم للمحاكمة فى عام ١٨٩٤ بتهمة التجسس لصالح الألمان وحكم عليه بالسجن المؤبد فى جزيرة الشيطان . وتساءلت الصحف فيما إن كان دريفوس ضحية للاسامية العمياء التى كانت سائدة حينذاك فى القيادات العليا للجيش ، كما أثارت احتمال أن يكون المجرم الفعلى هو الرائد « استرهنرى » وهو هنغارى كان شقيق دريفوس قد أعلن مؤخراً أنه هو المتهم الحقيقى .

تابع تشيخوف المناقشات التى كات تجرى حول الموضوع بكل حماس ، وهو يدرك أن ضمير فرنسا ووحدتها ربما كانا يوضعان على المحكّ . وقد كتب لسوبولفسكى يقول : « إننى أقرأ الصحف طول النهار وأمعن فى

قضية دريفوس وأعتقد أنه بريئ » .

وبعد شهر واحد ، أى فى ١٣ كانون الثانى / يناير ١٨٩٨ ، قرأ تشيخوف رسالة مفتوحة وجهها الأديب المعروف إميل زولا إلى رئيس الجمهورية تحمل عنوان : « إنى أتهم » يصم فيها الحكومة بمحاولة طمس الحقيقة . وقد استثاره الأمر بحيث كتب لسيفورين يقول : « قضية دريفوس تغلى وتمور وتتابع طريقها ، وإن كانت لم تصل بعد إلى سرعتها القصوى . وزولا ذو روح نبيلة ، وأنا مسرور لهجومه . إن فرنسا بلد رائع وفيها كتّاب رائعون » . كما كتب لباثيوشكوف يقول : « الغالبية العظمى من المثقفين يقفون إلى جانب زولا ويعتقدون أن دريفوس بريئ . وزولا يقفز قفزات سريعة ومتواترة ورسائله الاحتجاجية مثل نفحات من الهواء العذب ، وكل فرنسى يشعر بأن العدالة مازالت موجودة على وجه الأرض بحمد الله ، وأنه إذا حكم على إنسان بريئ فإن هناك من يدافع عنه » .

وفى شهر شباط / فبراير . قدم زولا نفسه للمحاكمة وحُكم عليه فى النهاية بالسجن لمدة عام واحد وسحب منه وسام جوقة الشرف . ولكن إعجاب تشيخوف به كان يتزايد كلما ازداد الهجوم عليه بحيث كان يلتهم التقارير الصحفية التى تتحدث عن الموضوع بنفس حماسة الفرنسيين . ولقد كتب لإحدى صديقاته ، وهى الكسندرا جوتيينتسيفا يقول : « تتساءلين فيما إن كنت مازلت أعتقد بأن زولا على صواب ، وكل ما يمكننى قوله هو : هل تعتبريننى من السوء بحيث تشكّين ولو للحظة واحدة بأننى

ضد زولا . إن قصاصة ظفره أفضل من الجنرالات والشهود المتمين للطبقة العليا والذين يصدرون عليه أحكامهم أمام المحكمة » .

كان تشيخوف يود لو يستطيع حمل جميع أصدقائه فى روسيا على تبنى وجهة نظره حول هذه القضية . ولكن الموقف الذى أزعجه أشد الإزعاج هو موقف أعز أصدقائه سيفورين الذى اتخذت صحيفته « الأزمنة الحديثة » موقفاً ضد دريفوس وإميل زولا . وفى محاولة لحمل سيفورين على تعديل هذا الموقف كتب له تشيخوف رسالة يمكن اعتبارها مذكرة قانونية أو دفاعاً متقداً وعظة يوجهها إلى ضمائر المثقفين ، حيث يقول له : « تقول إن إميل زولا يثير غيظك ، فى حين أن الجميع هنا يعتقدون أن زولا آخر متفوق على نفسه قد ولد من جديد . ولقد كان لمحاكمته تأثير هائل فى غسل كل الأدران العارضة التى كانت عالقة به بحيث يراه الفرنسيون الآن وهو يشع بإشراقه الحقيقى . ففيه من النقاء والمتانة المعنوية ما لا يستطع أحد أن يشكك فيه » . وما يلبث تشيخوف أن يلخص القضية منذ بدايتها متهماً من ناحية الصحافة اليمينية بإذكاء العواطف المعادية للسامية فى فرنسا بهدف منع ظهور الحقائق ، ومهنئاً زولا من ناحية أخرى لدخوله حلبة النزاع بهدف تصحيح خطأ قانونى شديد السوء حيث يقول : الشئ الأساسى هو أنه (أى زولا) صادق ، بمعنى أنه يبنى أحكامه على ما يمكن رؤيته وليس على التخيلات والأشباح كما يفعل الآخرون . ولا شك أن كل الناس ، حتى الصادقون منهم ، معرضون للخطأ ، غير أن أخطاء هؤلاء أقل أذى من الأكاذيب المتعمدة والتحامل أو الأعمال التى تنتج عن دوافع سياسية . وحتى لوافترضنا أن دريفوس مذنب ، فإن زولا مصيب

فى مـوقفـه إذا أن مهمـة الكاتب ليـست أن يتهم أو يجـرّم ، بل أن يقف مـدافعـاً حتى عن المذنب بمجـرد أن يصـدر ضده الحكم ويبـدأ فى تنفيـذ عقوبته. وقد يتساءل الناس : وماذا عن الأمـور السياسية وما يتعلق بمصالح الدولة ؟ وفى ذلك أقوال إن على الكتاب والفنانين المرموقين ألا يشاركوا فى أعمال السياسة إلا بالقدر الذى يمكّنهم من حماية أنفسهم من هذه السياسة» على وجه الإجمال ، اعتبر تشيخوف زولا المثال الحىّ المتكامل للإنسان الحرّ الذى لا يصغى إلا إلى ما يقوله قلبه . وقد دافع تشيخوف عن حق الكاتب فى ألا ينحـاز إلى أى حزب من الأحزاب وبأن يـوجه ضرباته إلى الـيمين وإلى اليسار حسبما يمليه عليه ضميره .

وحين استـمرت « الأزمنة الحـديثة » فى حـملة الكراهية المتـقدة التى كانت تشنها ضد دريفوس وزولا ، حاول تشيخوف أن يفسر الأمر على أنه ناجم عن عـدم قدرة سيفـورين على مقـاومة الضـغط الذى يمارسه علـيه أصدقاؤه السياسيون . ولقد كتب لليـونتييف - شيشيخلوف يقول : « إننى أكنّ مودة خاصة لسيفورين ، أحبـه بالفعل حباً جماً. غير أن الناس الذين يفتقرون إلى الخـلق قد يتصرفون كأسوأ الأوغـاد ، ويعمدون إلى ذلك فى أكثـر اللحظات حسـماً فى حيـاتهم » . وبعد أن قرر أن يـتوقف عن هذا الجدل مع سيفورين كتب لشقـيقه ألكسندر يقول : « لقد انتهجت « الأزمنة الحديثة » نهجاً بغيضاً إزاء قضية زولا ، ولقد تبادلت الرسائل مع « العجوز » حول هذا الموضع (وإن كانت اللهجة اتخذت صـفة الاعتدال) ثم ما لبثنا كلينا أن التـزمنا الصمـت بعد ذلك . لست أود أن أكـتب له ولا أريده أن

يكتب لى المزيد من الرسائل التى يحاول فيها أن يبرر موقف صحيفته الذى تعوزه اللباقة بالتحدث عن حبه للعسكريين ! » .

وعلى الرغم من خيبة أمل تشيخوف ، إلا أنه لم يفكر قط بقطع علاقته بسيفورين . وحين كانت تقوم بينهما خلافات تنذر بقطع علاقاتهما فى الماضى ، كان تشيخوف يعمد إلى تلطيف الموقف بحكم طبيعته المرنة . أما هذه المرة فقد تخلّى تماماً عن أوهامه ولم يعد قادراً على استعادة مشاعر احترامه للرجل . وعلى الرغم من أن صداقتهما استمرت ، إلا أن ذلك كان من قبيل العادة أكثر مما هو على أساس الاحترام .

مقابل هذا الجو الصحفى الذى هزّ عالم تشيخوف الداخلى ، ظلت حياته اليومية العادية فى « بنسيون روس » هادئة وادعة إلى درجة الرتابة ، بحيث أخذ يشعر أحياناً وكأنه متقاعد فرنسى يدفئ عظامه تحت أشعة الشمس . وكان الإنذار الوحيد هو ألم ممضّ فى أحد أسنانه استلزم إجراءً جراحياً . أما النزف فقد توقف حتى أنه أخذ يفكر بالقيام برحلة مع كوفاليفسكى إلى شمالى أفريقيا (إلى الجزائر وتونس وغيرها من أقطار شمال أفريقيا) . ولكن كوفاليفسكى ما لبث أن مرض فنكث بوعده فعاد تشيخوف وهو يشعر بخيبة أمل مريرة إلى حياته الرتيبة وأخذ يحسّ كما لو أنه فى التاسعة والثمانين وليس فى الثامنة والثلاثين من عمره كما يقول .

ما لبث بوتابينكو أن وصل إلى نيس ليقلب « بنسيون روس » رأساً على عقب . فقد كان بوتابينكو مقامراً ، ووصل إلى الريفيرا فى ٢ آذار / مارس على أمل أن يكسب مليوناً بصورة سريعة على مائدة القمار لكى يتمكن من الكتابة على هواه دون أن يضطر للاستعطاف للحصول على

مبالغ مـقدمة لكتاباتـه . وما لبث أن دفع تشيخـوف لمشاركته فى حـماسه الطفولى وفى اعـتقـاده بإمكانية جمع ثروة من وراء مـوائد الكازينوهات . السر كله يكـمن ، فى اعتقـاده ، فى عدم السمـاح بترك الأمـور لضربات الحظ . ولذا ابتاع تشيخوف وبوتابينكو عـجلة روليت صغيرة وبدآ يلازمان الغرفة سـاعات متصلة والكرة العاجيّـة الصغيرة تدور وتدور وهما يتـتبعان الأرقام التى تتوقف عندها على أمل اكتشاف الصيغة التى تضمن لهما الفوز . وما لبثا أن بدآ يتوجهان إلى مونت كارلو يوماً بعد يوم ليجربا حظهما فى اللعب وبحكم طبيـعته المندفعـة ، عمد بوتابينكو إلى المقـامرة بمبالغ كبـيرة على كل رقم من الأرقام ، فى حين التـزم تشيخوف جـانب الحذر . ومع ذلك لعبت تقلبات الحظ بأعصابه بحـيث كان يعود من الكازينو وكأنه عائد من ميدان معركة . ولكنه لم يعتـرف بأن هذه اللعبة المثيرة إنما هى مضرة له إلا بعد مـرور أسبوعين توقف بعـدهما عن ارتياد الكازينـو . أما بوتابينكو فقد ظل يتردد على موائد القمار إلى أن خسر كل ما بحوزته واستدان أجرة الطريق من تشيخـوف لكى يتمكن من مغادرة نيس . وقد كتـب تشيخوف لشقيقته ماريا فى نفس يوم مغادرته ، وهو ٢٨ آذار / مارس يقول : « إننى أفتقد بوتابينكو » .

وصل فى هذه الأثناء إلـى نيس الرسـام يوسف برازكى يرسم صـورة شخصيـة لتشيخوف بناء على طلب من الثرى « بافـل تريتياكوف » . ولمدة أسبوعين ظل تشيـخوف يجلس منتصباً فى الوضعـية المطلوبة طوال ساعات

الصباح متحملاً العذاب الـذى جرّته عليه موافقته على الفكرة فى لحظة من لحظات الضعف . وزاد الطين بلة أن الصورة لم تعـجبه فى نهاية المطاف ، وقد كتب لألكسندرا خـوتييتسفا حـول هذا الموضوع قائلاً : « أجلس فى مقعد ذى ذراعين مكسـوّ بالمخمل الأخضر وفى جلسة جانبـية مرتدياً ربطة بيضاء . يقول الناس إننى والربطة البيضاء ننبض بالحياة كلانا . إلا أننى من ناحيـتى أعقـد بأن التعـبيـر المرتسم على وجهى يجـعلنى أبدو وكأنـنى قد شممت خردلاً لتوى ! » . كما كتب لشـقيقته ماريا يقول : « هنالك شئ فى الصورة لا يعبّر عما فىّ ، وشىء فىّ لا تعبّر عنه الصورة » . وقد كان اعتقاده بأن الصورة بالغت فى دقتها الفوتوغرافية . وقد كتب مازحاً فى ذلك يقول : « إن تحّولت إلى إنسان متشائم وبدأت أكتب قصصاً حزينة فالصورة هى السبب ! » * .

وما أن بدأت أنسام الربيع تهب حتى أخذ يتحرق للعودة إلى روسيا . أصبح يحلم بميليـخوفو ويسـائل ماريا عن مـدى ذوبان الجليد . ومع بداية نيسان / أبريل أخذ يوجه لها نصائحه حول الحديقة : « لا تقلّموا شجيرات الورد قبل عـودتى . يمكنكم قصّ الأعواد التى تعفّنت أثناء الشـتاء فقط ، أوتلك التى لا تبشر بالخيـر ، ولكن بحذر . لا تنسى أن الجذوع التي تبدو مريضة ما تلبث أن تسترد عافيتها فيما بعد أحياناً . أما أشجار الفاكهة فهى

* لوحة يوسف برازهى ضمن متحف تريتياكوف بموسكو .

تحتاج للطلاء بالجيرة ، وأشجار الكرز يمكن أن يفيدها وضع الجير فى أسفلها أيضاً » .

حين كتبت له ماريا بأن الطقس لم يصل إلى درجة الدفء المناسبة له فى ميليخوفو بعد ، قرر أن ينتظر فى باريس إلى أن تنتهى موجات البرد فى روسيا . وبعد وصوله إلى هناك بأسبوع واحد وصلها سيفورين أيضاً ، وكان لقاؤهما متحفظاً ، وإن ظل ودياً . وافق تشيخوف على ترك فندق ديجون للإقامة مع سيفورين فى فندق الفاندوم . ونظراً لتحسن صحته بعض الشئ ، فقد تمكن تشيخوف من مشاهدة العديد من المسرحيات والمعارض ، وتجول فى قصر فرساى ، وشارك فى الكولونة الروسية ، والتقى بماثيو شقيق ألفريد دريفوس وبالصحفى المدافع عن دريفوس برنارد الذى أهدى تشيخوف نسخة موقعة من الكتيب الذى كان يوزعه عن القضية .

خصص تشيخوف جزءاً كبيراً من الوقت الذى قضاه فى باريس لصالح بلدته الأصلية تاجنروج . وكان قد اشترى أثناء وجوده فى نيس أكثر من ثلاثمئة كتاب من الكتب الفرنسية الكلاسيكية وشحنها إلى مكتبة تاجنروج العامة . وفى باريس جمع ملفاً غنياً عن قضية دريفوس للمكتبة نفسها . وبعد أن توثقت علاقته بالنحات مارك أنطوكونسكى تمكن من إقناعه بإهداء المدينة تمثالاً لمؤسس المدينة بطرس الأكبر وهو يمتطى حصاناً .

وفي غضون كل ذلك كان ينتظر بفارغ الصبر برقية من شقيقته تبلغه فيها بأن الطقس أصبح مناسباً وأن الطرق أصبحت في وضع يمكنه من اجتيازها . وصلت البرقية في الوقت المناسب ، حين كان الطقس في باريس قد أخذ يتحول إلى طقس ماطر وبارد . وفي ٢٦ أو ٢٧ نيسان / أبريل كتب لألكسندر يقول : « لمعّ حذاءك وارتد ملابس لائقة لتستقبلني في المحطة ، فهذه هي قواعد الإتيكيت أولاً ، ثم إنني أستحق مثل هذا الإستقبال باعتباري القريب الثري . لا تخبر أحداً بوصولي » . وفي ٢ أيار / مايو استقل قطار الشمال السريع إلى بطرسبرج ، وفي ٥ أيار / مايو كان في ميليخوفو . ويشير السجل اليومي لوالده : « عاد أنطوشا من فرنسا وأحضر معه العديد من الهدايا » . أما أمه فقد كتبت لميخائيل تقول : « وصل في الخامسة مساءً . لقد انخفض وزنه كثيراً ! » .

بعد فترة قصيرة من استقراره في ميليخوفو تلقى رسالة من فلاديمير نيميروفيتش - داشينكو طالباً السماح له بعرض « طائر النورس » على المسرح . وكان هذا صديقاً لتشيخوف منذ عهد طويل ، كما أنه كاتب مسرحيّ مرموق وأستاذ للفن المسرحي ، وقد انضم لتوه إلى قسطنطين ستانيسلافسكي في تأسيس ما عرف فيما بعد بمسرح موسكو للفن . كانت هذه الفرقة الجديدة مكونة من ممثلين شبان من مجموعة الهواة التي تعمل مع ستانيسلافسكي ومن طلاب نيميروفيتش - داشينكو ، وكان هؤلاء يشتعلون حيوية ويحلمون بتجاوز الأساليب المسرحية الطنانة التي كانت سائدة في ذلك الحين واستبدالها بأساليب مسرحية أكثر بساطة

وطبيعية . وقد وجد نيـميروفيتش - داشينكو « طائر النورس » مطابقة تماماً لما يهدفون إليه ، خـصوصاً وأنه كان معجبـاً بها منذ وقت طويل . غير أنّ تشيخوف لم يكن قـادراً بعد على نسيان الاستقبال المشئـوم الذى لقيته هذه المسرحيـة فى بطرسبرج فى العام السـالف . وكان قد كتب لسـيفورين من نيس يقول : « كانت أمتع أوقاتى هى تلك التى أكون فيها فى المسرح . أما الآن فإننى أحس كلما جلست فى قاعة مسرح بأن أحدهم سيطل من إحدى المقصورات ليصيح « حريق ! » . كـما أننى لا أحب الممثلين بعد ، وكتابة المسرحيات أفسدت الأمر على » .

ولذا ، وطمـعاً فى راحـة البال علـى أقل تقدير ، رفض أن يسـمح لنيـميـروفيـتش - داشينكـو بعرض « طائر النورس » ، وأخـذ يشعـر بأن القصص هى برّ الأمـان بالنسبة له ، فى حين أن المسرح يـبقى مغامـرة غير مأمونة العواقب . وبعـودته إلى غرفة مكتبه عاوده الاشـمئزاز من الدخول إلى عالم الممـثلين المغرورين وألاعـيب ما وراء الكواليس ونزوات جمـهور المتفرجين ، غـير أن نيميروفـيتش - داشينكو لم يقتنع برفـضه وظل يحوم حوله بكل ما لديه من دفء وسحر إلى أن استطاع إقناعه فى النهاية .

غير أنه كان على داشينكو أن يظفر أيضاً بموافـقة ستانيسلافسكى الذى كان يخشى أن تكون المسرحية غير مناسـبة للتمثيل على خشبة المسرح . إلا أن نيميروفـيتش - داشينكو كتب لستانيسـلافسكى فى ٢١ حزايران / يونيو يقول : « مسرحية تشيخوف تعـبّر عن نبض الحياة الروسية المعاصرة بـكل ما فـيها ، ولهذا السـبب فهى تجذبنى » . وقـد توصل إلى ما يريد ، وإن كان الممـثلون الشبـان الذين اجتـمعـوا فى مزرعـة خارج موسـكو لإجراء

التدريبات ظلوا خائفين من احتمال عدم تمكنهم من فهم مسرحية صعبة كهذه سبق أن قوبلت بغضب الجمهور فى أول ليلة تعرض فيها فى بطرسبرج ، علماً بأن ممثلين مجربين كانو قد تولوا تمثيلها حينذاك . وكان على ستانيسلافسكى ونيميروفيتش - داشينكو أن يواجها هذه المشكلة .

وبينما كان هؤلاء يجهدون للتغلب على خفايا « طائر النورس » ، كان تشيخوف من ناحيته منهمكاً فى العمل فى ميليخوفو . فقد كان يشعر بأنه أحسن حالاً من الناحية الصحية ، فشرع يمارس نشاطاته السابقة جميعاً مخالفاً تعليمات أطبائه . وقد كتب للأرشمنديت سيرجى ، وهو صديق قديم للعائلة ، يقول له : « لقد كنت مريضاً كما ذكرت لك وارتدت المصحات وتبيّن أن لدى عصّيات وما إلى ذلك . إلا أن الأمور عادت إلى طبيعتها وأشعر بأننى فى تمام الصحة والعافية ، أو على الأقل لست أعتبر نفسى مريضاً وأعيش نفس نمط الحياة الذى كنت أعيشه من قبل . وقد عدت إلى نشاطى فى نطاق الطب والأدب ، حيث أعتنى بالفلاحين وأكتب القصص ، وفى كل عام أبنى شيئا جديداً » .

كان قدقرر فى ذلك العام أن يبنى مدرسة فى ميليخوفو ، قريته ذاتها . غير أنه نظراً لأن قائمة الأطفال الذين ينتظرون الانخراط فى المدرسة كانت قد أصبحت طويلة فقد استأجر كوخاً واشترى مقاعد ووظف مديراً للمدرسة .

وفى غضون أسابيع من عودته إلى ميليخوفو ، أبلغ فيكتور جولتسيف رئيس تحرير « الفكر الروسى » بكل فخر : « لقد عادت ماكينتى للعمل ثانية » . وعلى الرغم من تدفق العديدين من أصدقائه لزيارته ذلك الصيف

فقد انكبّ على العمل ، وكتب أربع قصص متتالية معتمداً على مادونّه فى دفتر مذكـراته من ملحوظات ، وهذه القصص هى « إيونيش » و « الرجل الملّعب » و « الكشـمش » و « حبّـوبة » . وفى القصص الـثلاث الأخـيرة شخـصيتـان مشـتركتـان هما المعلم « بيـركن » والجراح البـيطرى« « إيفان إيفانيش » فقد كان تشيخـوف يحلم دائما بكتابة سلسة من القصص تشترك فى نفس الخلفية والأبطال بحيث تشكل سلسلة موحدة متصلة الحلقات على الأقل ، إن لم تكن رواية كاملة . غـير أن مشروع بيركن - إيـفان إيفانيش لم يتـجاوز تلك الحلقـات الثلاث ، فعلـى الرغم من شعوره بـالأمان فى أعمال قصيرة أو متـوسطة الطول ، إلا أنه لم يكن قادراً فيما يبدو على أن يسـوس أبطاله فى طريق طويلة المدى ، كـما تتطلب الرواية . فـرعبـه من الخروج عن الموضوع أو اللجـوء إلى الأسلوب الفخم الطـنان ، أو أى نـوع من المبالغـة أو الإفراط ، كل هذا كان يـدفعه إلى الإسـراع فى العودة إلى صلب الموضوع وعلى الرغـم من إعجابه الشـديد ببعض الأعمـال المعينة « ذات الوزن » إلا أنه هو نفسه كان نصيراً للخفة فى الفن .

بعد تلك السلسـة الإبداعية المتـصلة جاءت فترة انحـدار ، ومع نهاية تموز / يوليو كـان تشيخوف يشكو فى رسـالة كـتـبها لليديا أفـيلوفا: « أن عدد ما لدينا من الضيوف يمنعنى من الرد على رسالتك الأخيرة . وقد كنت أود أن أكتب لك رسالة مطولة إلا أن يدى ترفض الاستجـابة ، متوقعة أن يأتى فى أى لحظة من يقطع عليهـا حبـــل الكـتابة . وبينمـا كنـت أكتـب كلمة « يقطع » هذه ، جاءت فتاة صغيرة لتبلغنى بأن المريض وصل ، على أن أمضى . لقد عافت نفسى الكتـابة ولست أعرف ماذا يمكننى أن أفعل .

كم أود لو أعود لمزاولة مهنة الطب وأتخـذ لى وظيفة فى مكان ما ، إلا أن جـسمى لم يعـد من المرونة واللدانة بحـيث أستطيع أن أفـعل ذلك . حين أكتب أو أفكـر فيمـا يجب أن أكتب أشـعر بالقـرف وكأنما التقـطت لتوى صرصاراً من طبق الحساء الذى أتناوله . وأرجو أن تعذرى لى هذا التشبيه . وما يثير اشمئزازى ليس عمـلية الكتابة فى حد ذاتها بل البطانة الأدبية أيضاً والتى لا تستطيـعين الهرب منها بل تحـملينها معك أنّى ذهبت ، تماماً كـما تحمل الأرض جوّها المحـيط بها أينما توجهت » . غـير أننا إذا أخذنا بعين الاعتـبار العناية التى كـان يوجههـا للكتـاب الذى يـأتـون إلى ميليخـوفو لرؤيته يمكننا القـول بأن تلك « البطانة » أو ذلك « المحيط » الذى يلعنه إنما كان ضرورياً وحيوياً بالنسبة له .

وفى أول أيلول / سبتمبر أبلغه نميـيروفيتش - داشينكو بأن المجموعة المسرحية قد عادت إلى موسكو ، وقرر تـشيخوف حضور بعض التدريبات هناك . كانت لحظة دخوله إلى قـاعة المسرح فى ٩ أيلول / سبتـمبر لحظة تجربة عاطفـية عظيمة بالنسبـة للممثلين الشبان ، وقـد هزّ إعجابهم به من ثقتهم بأنفـسهم . أما تشيـخوف الذى لم يكن أقل منهم ارتباكاً فـقد أخذ يدارى الحرج بالسعال وبشد لحيتـه والعبث بالنظارة المثبتة على أنفه . ولكنه مالبث أن اسـتقر بعـد استكمال فصل واحـد ، وشعر لأول مـرة بأن ممثليه يفـهمـون مـا يرمى إليـه . وخـلال جلسة التـدريب التـاليـة أبدى بعض الملاحظات حول التمثيل وطلب أن يحلّ ستانيـسلافسكى نفسه محل الممثل الذى يؤدى دور تيجورين .

كانت لستانيسلافسكى الذى يخرج المسرحية أيضاً أفكار محددة تماماً حول المسرح ، أحدها استخدام المؤثرات الصوتية ، مثل نفيق الضفادع ونباح الكلاب ، لخلق جو ريفى كامل ، وهذا الحرص الشديد من جانب ستانيسلافسكى على الواقعية أثار سخرية تشيخوف إذا قال له : « للمسرح تقاليده الخاصة ». ليس هناك جدار رابع ، كما أن المسرح يعكس جوهر الحياة ولا يتطلب أى شئ زائد أو غير ضرورى » .

ويتتابع التدريبات أخذ تشيخوف يلحظ بشكل خاص جمال وتألق الممثلة أولجا ليوناردوفنا كنايبر فى أدائها لدور أركادينا الصعب . كانت أولجا فى الثامنة والعشرين من عمرها فى ذلك الحين ، ذات وجه عريض يوحى بالنشاط وعينين ذكيتين وشعر أسود كثيف ، وقد استكملت لتوها دراستها مع مجموعة نيميروفيتش - داشينكو وقررت أن تكرس حياتها للمسرح . وما أن وقعت عيناها على تشيخوف حتى أحسّت إحساساً غامضاً بما ينتظرها فى مستقبل أيامها .

رآها تشيخوف أيضاً فى تدريبات مسرحية القيصر فيودور أيونوفيتش ، وهى دراما شعرية كتبها ألكسى تولستوى وكان من المقرر أن يفتتح بها الموسم المسرحى لمسرح الفن . جلس متسمّرافى مقعده فى القاعة الباردة الرطبة ، يراقبها وهى تؤدى دور زوجة القيصر ، إيرينا ، على خشبة مسرح فارغ تضيئه شموع ترتكز على قوارير . وقد كتب بعد قليل لسيفورين يقول : « إيرينا بالنسبة لى كانت هائلة : الصوت ، النبل، الصدق . كل شئ فيها رائع بحيث تشعر بالتوتر وهو يحكم قبضته على تلابيبك . لو بقيت فى موسكو لوقعت فى حب إيرينا هذه بالتأكيد » .

ولكنه غـادر موسكو إلى القـرم فى اليوم التـالى « للبروفـة » . كان الخـريف على الأبواب ، وبدأ يبصق دمـاً من جـديد . ولذا كان عليـه أن يصغى لنصيحة أطبائه ، سواء شـاء ذلك أم أبى ، ويقضى أشهر الشتاء فى منطقة دافئة . ولكن الرحلة التى كان يتحرق للقيام بها فى الماضى أصبحت تبدوله وكأنها رحلة للمنفى ، وراوده مرة أخـرى الشعور بأنه يخون الشمال الذى تفتنه أشـجاره العارية بعلاقتـه بالجنوب الذى يحتاج لشمـسه إذا كان يريد أن يبقى على قيد الحياة .

ما أن وصل إلى يالطا حتى استأجر غرفتين فى فيلا لها حديقة جميلة . غير أن المتجع فى جوهره ، بفنادقه الفخـمة ، وأشجار النخيل والصبار ، وببحره الأزرق البراق ، كل هذه المظاهر كانت تـبدو له مصطنعة تتنافر مع ذوقه الخاص ، فـالناس الذين يعيشـون فى يالطا إنما يعيشون خـارج المسار الرئيسى للحياة .

كانت مشـاويره اليومية على طول كورنـيس البحر كثيـراً ما تنتهى فى مكتبة سنانى ، مـركز الحياة الثقافيـة فى يالطا ، ويلتقى هناك بكل الكتاب والفنانين الذين يتـصـادف أن يكونوا فى المدينة . وفى هـذه المكتبـة التـقى بالشاعـر « قسطنطين بالمونت » ومغنى الأوبرا « فيـودور شابلين » والمؤلف المـوسـيـقى « سـيرجى رحمـانينوف » الذى كان قد اسـتوحى مقطوعـته «فانتازيا للأوركسترا» من قصة تشيخوف « على الطريق » وأهداها بالتالى له . ولكنه بارتياده ذلك المكان أصبح ضحيـة لأولئك الذين يلاحقون المشاهير ، وقد كـتب فى ذلك لتاتيـانا شيشـبكينا - كوبرنيك يقـول : « أحس بالملل وكأننى سـمكة من أسماك الحفش هنالك نسـاء فى كل مكان - فى المسرح

وخارج المسرح - ومع ذلك أشعر بالملل » . وليتجنب هذا الجو الذى يبعث على السأم كان كثيراً ما يتناول طعامه مع مديرة ومعلمات إحدى مدارس البنات فى المنطقة. وسرعان ما أصبح عضواً فى مجلس إدارة هذه المدرسة ، وكانت البنات الصغيرات بمراييلهن المدرسية يركعن أمامه احتراماً حين يصادفهن فى الممرات .

وفى أحد الأيام ، وبعد شهر واحد من وصوله إلى يالطا مَّر بمكتبة سنانى حيث سلمت له برقية من ماريا . لم تكن البرقية موجهة إليه ، بل إلى سنانى ، وكانت تقول : « كيف تلقى أنطون بافلوفيتش تشيخوف نبأ وفاة أبيه ؟ » كان تاريخ البرقية هو ١٣ تشرين الأول / أكتوبر ، وكان والده قد مات فى اليوم السابق .

لم تشأ ماريا أن تنبئه بخبر وفاة والده بصورة مباشرة ، وكانت تفترض أن النبأ سيصل إليه عن طريق الصحف . أرسل لها على الفور برقية تعبّر عن حزنه ، فعلى الرغم من أنه ظل يضمر مشاعر الضغينة ضد الاستبداد وضيق الأفق اللذين كان والده يجسدهما فى شبابه إلا أن وفاته هزته إلى درجة كبيرة . وقد كتب لماريا يقول : «إننى حزين من أجل والدى ، ومن أجلكم جميعاً ، وتثقل علىّ بشدة فكرة أن تتحملى أنت كل هذه المصاعب فى موسكو بينما أنعم أنا بالهدوء والدعة هنا فى يالطا ، بحيث أن هذا الأمر لا يكاد يفارق تفكيرى » .

أما الفكرة الخفية التى أخذت تلح عليه بصورة أكثر قوة فهى : هذا الرجل الذى طالما اعتبره مجرد ألعوبة متباهية وإنساناً دعياً . ألم يطبع هذا الرجل شخصيته هو (أى أنطون تشيخوف) بسمات تجاوزت مداركه حتى

ذلك الحين فى واقع الأمـر ؟ ألم تكن شكوكه المبكرة فـيمـا يخص الأمور الدينية ، وقـدرته الواضحـة على الاحتمـال والتسـامح ، وميله للبـساطة والتواضع فى العـلاقات الإنسانية وفى الفـن ، ألم تكن هذه كلها إنما تمثل ردود فعل تعبّر عن تمرده على تعصب والده الأعمى وفرديته الواضحة وميله الشـديد الذى لا يطاق للإطالة والإطناب ؟ ألا يمكـن أن يكـون الآباء فى بعض الأحيـان معلمين لأبنائهم حين تعـمل صورتهم على إبراز مـحاسن الصورة المعتادة بحـيث يمثلون مثالاً معاكساً لـهؤلاء الأبناء ؟ ربما كان مديناً لأبيه بأكـثر مما هو مدين لأى فـرد آخر من أفراد عـائلته ، فكل ما عـاشه وكتبه إنما تولّد فى الحقيقة من فترة الطفولة التى عاشها تحت سقف بيت هذا الوالد .

عرف فـيما بعد كـيف حدثت الوفاة ، إذا بافل يـبغوروفيـتش أصيب بفتـق خطير وهو يحـاول رفع صندوق للكتب فى ميليـخوفـو ، فنقل إلى مسـتشفى موسـكو حيث أجريت له عـملية مطولة ومؤلمة فـشلت فى نهاية المطاف . هذه المعلومـات أثارت أسى تشـيخـوف من جـديد لأنه لم يكن موجوداً لدى حدوث ذلك . وقد كتب لسيفـورين يقول باعتباره ابناً وطبيباً فى آن واحـد : « لو كنت فى البـيت لما حـدث مـا حـدث ، إذا لـم أكن لأسمح بأن تسـتمـر الأمور حتى يصـاب بنخر فى الأنسـجة » . ولكن وضعه الصحى لم يسـمح له بأن يستقل القطار متجهـاً إلى موسكو لحضور الجنازة ، وإن كان قد أسعده أن يعلم بأن بافل يبغـوروفيتش دفن فى مقبرة جميلة وادعة هى مقبرة دير نوفوديفشى .

على الرغم من تعلّق والدته ببيتهم فى ميليخوفو إلا أنه وجد أنه ليس من الحكمة لها أن تبقى هناك طوال فصل الشتـاء لا يرافقها أحد للعناية بها غير ماريا . كما أنه كان يدرك بأنه برحيـل بافل ييغوروفيتش فإن الحياة فى ميليـخوفـو لن تعود إلى سـابق عهدهـا قط ، وأن نهاية مرحلـة « السجل اليومى للنشاطات إنما يمثل فى الواقع نهاية لتـواجدنا فى ميلوخوفو » . وبما أن حالتـه الصحية كـانت تحتم عليه أن يعيش فى الجنوب ، فـقد ارتأى أن يعرض ميليخوفو للبيع وأن يبنى عـشاً جديداً للعائلة فى القرم .كانت فكرة الاستقرار هناك قد أخذت تراوده حتى قبل وفاة والده . وكان قد توجه هو وسنانى لتفقد فيلا ساحرة ذات أربع غرف تتربع على جانب جبل قرب قرية كوتشكـوى التترية . ومـا لبث أن رأى قطعة أرض فى أوتكا ، عـلى بعد عشرين دقيقة من يالطا . وقد سحره هذا الموقع الذى يطل على البحر وقرر تحت تأثير انفعاله الفورى أن يشترى هذه الأرض ويـبنى لنفسه بيتاً عليها ، ولم يكن يعـوزه إلا التمـويل . حصل على مـقدم على مـسـتـحقـاته من سيفورين بمبلغ خـمـسة آلاف روبل ، واقترض مبلغ سـبعة آلاف روبل آخر من بنك محلى . ومع نهاية شهر تشرين الأول / أكتوبر كان قد وقّع العقد واتفق مع مهندس معمارى شاب اسمه ليف شابوفالوف على وضع مخطط البناء ، على أن يبدأ العمل فعلاً فى كانون الأول / ديسمبر .

حين جاءت ماريا إلى يالطا لتفقد ما اشتراه شـقيقها لم تستطع كتمان خيبة أملها . فـقد اعتبرت قطعة الأرض هذه فى أوتكا مجـرد كوم مهجور

تملؤه الحشائش الطفيلية . كما أنه بعيد جداً عن مصادر الماء ، وقريب جداً من المقبرة التترية . عادت ماريا إلى الشمال وهى واثقة كل الثقة بأن أمها لن تفارق ميليخوفو العزيزة عليها .

ولكن تشيخوف ما لبث أن بدأ يمطرها بوابل من رسائله المتحمسة : فقد أخذ يصف لها بستان الفاكهة ومساكب الخضار وحديقة الأزهار التى سيزرعها ، ويتحدث عن جنة تغمرها الشمس بعيداً عن ضوضاء الزحام . أما لأمه فقد كتب عن المطبخ الواسع « المزود بصنابير المياه وألوان الراحة على الطراز الأميركى » . وكما أشار إلى أن البيت سيضم مكاناً للغسيل وقبواً للحطب والفحم ، وأجراساً لاستدعاء الخدم ، بل وحتى هاتف ، كما أن صلاة الصبح فى أوتكا تقام فى العاشرة،وهو الوقت المفضل لديها، ويمكنها أن تجمع الفطر طوال فصل الخريف فى الغابات المشاع .

ولكنه فى نفس الوقت الذى كان يتغنى فيه بمحاسن أوتكا لم يكن قد توقف عن التفكير بالفيلا فى قرية كوتشوكوى التترية ، وفجأة ، ووسط رسائلها عن أوتكا تلقت ماريا رسالة أذهلتها حيث يقول : « دعينى أبدأ بهذا الخبر ، خبر مفرح وغير متوقع . لا ، لا تظنى بأننى مقبل على الزواج وأننى خطبت عروساً ، ولكننى لم أستطع أن أقاوم رغبتى فى شراء البيت فى كوتشكوى ، وفعلت ذلك فى لحظة انفعال آنية . اشتريته بألفى روبل ووقعت الأوراق فعلاً ، وسأنطلق إليه بعد أيام حاملاً مرتبة وبعض الشراشف لأقيم فيه. إننى أملك الآن أحد أجمل وأغرب إقطاعة فى القرم . لاتخبرى أحداً بذلك ، وإلا فإن الخبر سيصل إلى الصحافة التى ستقول إننى اشتريت إقطاعة بمائة ألف روبل .

وعدت ماريا بالتكتم على الأمر ، إلا أن تبذيره أقلقها . فقد أصبحت فى غيابه عماد العائلة ، حيث كانت تدير شئون ميليخوفو وتعتنى بأمها وتشرف على بناء مدرسة القرية وتمسك بزمام المصاريف بإحكام . غير أن عمل تشيخوف كان هو أكثر ما يهمها ، ومع اقتراب موسم افتتاح عرض « طائر النورس » بدأت تنتابها المخاوف من وقوع كارثة جديدة ومن تأثير ذلك على صحة أخيها الهشة . ودون أن يعرف ذهبت إلى مسرح الفن ورجت مؤسسيه وهى تبكى أن يرجئوا العرض . غير أنهم أبلغوها بلطف بأنهم أنفقوا مبالغ لا يستهان بها على المسرحية وأن عدد « البروفات » التى تمت لها بلغ ستاً وعشرين ، أو بعبارة أخرى لم يعد هناك مجال لسحبها .

وفى مساء ١٧ كانون الأول / ديسمبر كان الممثلون فى حالة يرثى لها خشية أن يسببوا لعزيزهم تشيخوف ضربة قاضية إن هم أخفقوا . كانوا جميعاً قد تناولوا نقط « فاليريان » وهو مهدئ شائع الاستعمال فى روسيا ، وارتفعت الستارة عن قاعة امتلأ ثلاثة أرباعها فقط . ستانيسلافسكى الذى كان يتصرف على المسرح وفقاً لفهمه الخاص للمسرحية ، كان يجلس وهو يعطى ظهره للجمهور ، ولم يكن قادراً على إخفاء الارتعاش فى ساقيه . وقد كتب نيميروفيتش - داشينكو فى مذكراته قائلاً : « حين أسدل الستار فى نهاية الفصل الأول حدث شئ لا يشهده المسرح إلا مرة واحدة كل عقد من الزمن . أغلقت الستارة وتلا ذلك صمت ، صمت تام فى القاعة وعلى خشبة المسرح ، كأنما الجميع قد علّق أنفاسه ، وكأنما لم يفهم أحد تماماً ما يحدث . استمر ذلك فترة ليست بالقصيرة ، بحيث أن أولئك الذين كانوا

على المسرح ظنوا أن الفصل الأول قد فشل ، وبصورة مريعة بحيث أن صديقاً واحداً فى القاعة لم يجرؤ على التصفيق . سيطرت على الممثلين قشعريرة عصبية تقارب الهستيريا . وبعد ذلك ، وكأنما انهار سدّ أو انفجر قنبلة ، اندفع شلال يصمّ الآذان من التصفيق من الأيدى جميعاً ، الصديقة والعدوة على السواء » . وبانتهاء الفصل الأخير ، كان العرض قد سار من النجاح إلى النصر . وما أن أنهى الممثلون انحناءاتهم أمام الجمهور حتى اندفعوا ليعانقوا بعضهم البعض وهم يبكون فرحاً . أدى ستانيسلافسكى رقصة ظفر على المسرح ، وكان التصفيق يصمّ الآذان وقبل أن ينتهى كان الجمهور يقف على قدميه طالباً إرسال برقية إلى المؤلف .

وصلت البرقية إلى يالطا فى صباح اليوم التالى ، وكانت تقول : « تمّ تواً عرض « طائر النورس » . نجاح هائل . مطالبة بإعادة رفع الستارة مرات عدة ، الكل يطير من الفرح » . وتلتها برقية أخرى تقول « الصحافة تتفق بصورة مدهشة فى القول إن « طائر النورس » كانت رائعة ، وأنها نجحت نجاحاً عظيماً . النقاد متحمسون » . وقد أجابهم تشيخوف فرحاً فى برقية تقول : « بلغوا الجميع امتنانى العميق الذى لا تحدهّ حدود . إننى منفى فى يالطا شأن دريفوس فى جزيرة الشيطان . برقيتكم أسعدتنى وأعادت لى صحتى » .

وبعدانقطاع لعدة أيام - إذ أصيبت أولجا كنايير بالتهاب فى القصبات - بدأت المسرحية تعرض أمام قاعة مليئة بعد ليلة ، وأصبحت طوابير الناس الواقفة للحصول على التذاكر أمراً مألوفاً . وقد انضم إلى المعجبين

بالمسرحية والمصرين على مشاهدتها العديدون من الشبان الذين يحضرون مقاعد متنقلة ويقرأون على ضوء فوانيس الشارع أو يرقصون ليدفئون أجسادهم وهم ينتظرون شراء تذاكرهم . والقلائل الذين يحالفهم الحظ فى الحصول على التذاكر فى النهاية يعودون إلى أعمالهم راكضين وقد غمرتهم النشوة .

ما لبث تشيخوف أن غرق تحت تل هائل من رسائل وبرقيات التهنئة ، وكان فى هذا تعويض جزئى عن المشاعر التى يعانى منها لأنه حضر فشل المسرحية بدلاً من حضور نجاحها . إلا أن هذا النجاح كان يتجاوز حدود الانتقام بالنسبة له . وقد كتب له الكاتب الشاب مكسيم جوركى والذى كان قد بدأ يتبادل الرسائل معه فى الآونه الأخيرة ، كتب له يقول : « بدموع الفرح أقول لك إننى لم أشهد مسرحية فى مثل روعة طائر النورس» . ويضيف قائلاً :« وبعد ذلك ، لا تريد أن تكتب للمسرح !! . . . يا للعنة ! » . هزت تشيخوف وصيّة جوركى الهازئة هذه . أيمكن أن يكون مصيباً ؟! كان ممثلو المسرح الحديث يحترمون مرامى المؤلف ، بحيث أنه لم تعد به حاجة لتوخى الحذر فى تقصى اتجاهات جديدة . وها هو ، وبفضل مسرح الفن ، قد وجد الجمهور الملائم والفرق الملائمة التى تحسن تفسير أعماله . وهكذا شعر بنوع من التناغم والانسجام بين ما يريد أن يعطيه للعالم وما يمكن للعالم أن يتوقعه منه ولم يعد عليه الآن إلا أن يتابع عمله .

ولكنه بدأ مع الأسف ينفث الدم من جديد فى أواخر تشرين الثانى / نوفمبر . وكان طبيبه الخاص ، الدكتور اسحق ألتشولر يعوده باستمرار وإن كان عـاجزاً عن إقناعـه بانتهـاج خطة علاجـية منتـظمة . ولقـد أخذ هذا الطبيب أيضـاً بما يتمتع به مـريضه من مزيج الهـدوء والشجاعـة ، وبنبرته الهادئـة المتأنية الخـافتـة فى الكلام ، وبطريقتـه فى التخلـص من إفرازات اللعاب فى أوراق صغيـرة ملفوفة . أما تشيخـوف ، فقد كان يرفض من ناحيـته أن يصدق مدى خطورة حـالته . وحين كتـبت بعض الصحف فى شهر تشرين الأول / أكتوبر تقارير عن سوء حالتـه الصحية ، احتدم غضبه وأرسل نفياً للصحافة . وقد كتب حول نبـأ من هذا القبيل نشر فى صحيفة الأنباء ببطرسبـرج : « لست أعرف من شعر بضرورة إفـزاع عائلتى بإرسال مثل هذه البرقية اللئيمة والمختلقة تماماً . لقد كانت حرارتى طبيعية باستمرار - حتى أننى لم أحاول قياسـها - فلم تكن هناك حاجة لذلك . أعانى من بعض السـعال فـعلاً ولكنه ليس أسـوأ من ذى قبل ، كـما أننى آكل مـثل حصان وأنام كلوح من الخشب وأشرب الفودكـا والنبيذ وما إليها » . ولكنه يقول بعد شـهر واحد من هذا التاريخ : « أسعل دماً منذ خـمسة أيام ولم يتوقف النزيف بعـد . ولكن أرجو أن يظل هذا الأمر بيننا وألا تخـبر أحداً بذلك . لقد توقف السعال وحرارتى طبيـعية ، والدم يخيف الآخرين أكثر مما يخيفنى ، ولذا أحاول أن أكتم الأمر عن عائلتى » .

كانت حياة تشيخوف فى يالطا تأخذ نمطها على أساس نوبات اشتداد وخمود سعاله . فحين يحس بالضعف ينسحب إلى غرفته ، ولكنه ما أن يشعر بأنه أحسن حالاً يرهق نفسه لتعويض ما فاته من وقت ، فبالاضافة إلى الكتابة ، كان يشرف على بناء المنزل فى أوتكا ، ويعود المرضى ، ويتجول في المدارس ، ويشارك فى نشاطات فرع الصليب الأحمر ، ويجمع التبرعات للشبان من ضحايا المجاعة فى مدينة سامارا*. ويقول الدكتور ألتشولر عنه : "إن رقته ورغبته فى العمل من أجل القضايا الصغيرة والكبيرة على حد سواء تصل إلى حدود استثنائية " .

وعلى الرغم من أنه أقام صداقات فى يالطا بسرعة إلا أنه كان يفتقد عائلته وأصدقاءه ولم يتجشم عناء السفر لرؤيته إلا شقيقه إيفان الذى مكث معه بضعة أيام فقط فى عيد الميلاد ، أما أمه وشقيقته اللتان انتقلتا إلى شقة فى موسكو فقد كانتا ترفضان بإصرار تجشم عناء الرحلة ، وعلى الرغم من أنه كان يتغنى لهما باستمرار بشمس القرم وسمائها الزرقاء فقد كان هو نفسه يحلم بالثلج والشوارع المزدحمة والمطاعم والمسارح ، وكتب لزميل كاتب هو فلاديمير تيخونوف يقول : "كم أحّن للعاصمة . أشعر بالملل هنا بحيث تحولت إلى إنسان متمسك بالقديم ، ويبدو لى أن الأمر لن يطول بى حتى أؤسس بيتاً لى هنا وأتخذ زوجة فلاحة مبرقعة بآثار الجدرى تضربنى

* سامارا : مدينة فى وادى الفولغا فى جنوب روسيا تسمى حالياً كويبشيف .

فى أيام الأسـبوع وتأخذها الـشفقـة بى فى العطلات . إن الحـياة فى الأقاليم لا تناسبنا نحن الكتّاب ، ولا تختلف يالطا عن جحور صغيرة مثل يلتسن وكريمنشوج ، بل إن كل شئ يهجـع هنا ويخلد للنوم حتى عصيّات السل " .

ولولا رسائل الأصدقاء لشعر بالإنقطاع عن العالم تماماً ، وكان يجيب على رسائلهم هذه بإفاضة واندفـاع ، وأحد الأمثلة على ذلك مراسلاته مع مسكسيم جوركى الذى كان قد كتب له رسالـة مليئة بالمشاعر العفوية حيث يمتـدح أعمـاله ، حتى دون أن يكـون قد رآه . كـان جوركى حـينذاك فى الثلاثين من عمره علّم نفـسه بنفسه ، وكان ينتمى لعائلة فـقيرة فى نيزنى نوفوجـورود ، واسم جوركى فى الواقع هو اسم مستـعار ، ويعنى "المر" «واسمه الحقيقى ألكسى بيشكـوف » . وقد آثارت أولى القصص التى كتبها موجة من الاهتمام نظراً لأنها كانت تكشف عن المعايب الكامنة فى المجتمع البرجوازى ، وما لبثـا أن تبادلا الكتب بعد فترة وجيزة كـما أخذا يتبادلان الرسائل بانتظام .

كان إعجاب جوركى بتشيخـوف لا حدود له ، وهو يعترف بأنه كثيراً ما كانت تسـيل دموعه لدى قراءته قصـصاً معينة له ، أما تشـيخوف فكان يمتدح الموهبة الهائلة التى يمتلكهـا زميله الشاب حيث يقول : "حين تصف شيئاً فإنك تراه وتتحسسه بيديك ، وهذا هو الفن الحقيقى " . ولكنه يحذر جوركى فى نفس الوقت من الإنزلاق فى هوة فجـوة لاحظها فى كتاباته ، وهى ميله للإستـفاضة : "هذا الافتقار إلى الإيجـاز ملحوظ لديك بصورة خاصة فى وصف الطبيعة الذى تلجأ إليه كفواصل بين الحوار ، وأحس وأنا

أقرأ مـن هذا الوصف بأننى أودّ أن يكون أقصـر وأكثـر إحكاماً بحـيث لا يتجاوز السطرين أو الثلاثة ، ثم أن هـذه الإشارة المتكررة للضنك والدمدمة والترف ، وما إلـى ذلك من الأمور إنما تعطى لوصفك طابعاً منـمقاً متكلفاً وتجعلـه رتيباً ، عـلاوة على أنه يثـبط من عزم القـارئ بل ويتعـبه ، وهذا الافتقار إلى الإيجاز واضح فى وصفك للنساء . . . لست أعرفك ، ولست أعرف من أى منطقة أنت ، أو من أنت ، ولكننى أعتقد أن عليك أن تهجر نزنى لمدة سنتين أوثلاث سنوات، خصـوصاً وأنك مازلت شـاباً لتنغمس فى غمار الأدب وعالم الأدب ، لا لتتعلم منـا شروط الكتابة الأدبية وقواعدها وتصبح محترفاً ، بل لتنغمس فى الأدب كلية وتتعلم أن تحبه " .

وبعد أشـهر عديده وجـه لجوركى نصائح أكـثر وضوحـاً فيمـا يتعلق بالأسلوب إذ يقول : "إنك تسـتخدم الكثير من الأوصـاف بحيث يصعب على القارئ أن يقرر أيها يـستحق اهتمامه بشكل خاص وهذا مـا يتعبه ، فإذا كتـبت " جلس رجل على العشب " فهذا المعنى واضح ومـفهوم ولا يتطلب إعادة قـراءة ، غير أنه سيـصعب عليك أن تتابعنى بسـهولة دون أن ترهق دماغك لو أننى كـتبت " رجل طويل ذو صدر ضـيق ولحية حـمراء متوسطة الطول جلس دونما ضجة وهو يـسترق النظر حوله بخوف وتوجس على رقعـة من العشب الأخضـر الذى داسته أقدام المشـاة !" ، فالذهن لا يستطيع استيعاب كل هذه الأوصـاف فى الحال ، والمهارة الفنية فى الموضوع تتجلى فيما يمكن استيعابه وفهمه مباشرة وعلى الفور " .

وهكذا ، ومنذ بداية تبادلهما للرسائل أرسيا دعائم علاقة أدبية صريحة تتسم بالاحترام والتقدير الشديدين من جانب الكاتب الأصغر سناً، ورنة من التواضع والرعاية من جانب أكبرهما سناً .

أما أغرب علاقة مكاتبة لتشيخوف فقد كانت تلك التي كانت تربطه بليديا أفيلوفا ، فهو من ناحية كان يرفض أن يتقبل حبها ، بل ولم يكن ليعترف بوجوده أصلاً ، ولكنه من ناحية أخرى لم يكن راغباً في أن يلقى بها جانباً بصورة كلية .

وقد استمرت بعد زيارتها له في مستوصف الدكتور أوسترانوف تدعوه لزيارتها وتشكى بمرارة من عدم اكتراثه بها . وقد أجاب على ذلك بقوله: " إذا كانت رسائلي قاسية وباردة ، فهذا إنما يعود لطبيعتي العابثة في الحقيقة " .

وحين نشرت مجلة "الفكر الروسى " قصة جديدة لتشيخوف تحت عنوان "حول الحب " انتابت أفيلوفا حالة من الاهتياج كما تقول في كتابها: "تشيخوف في حياتي " فقد هرعت إلى بيتها وهي تحتضن المجلة بكل قوة مختلف الصور والأخيلة تسيطر على ذهنها ، وبعد أن قرأت القصة وهي تحت تأثير حالة من الحمّى استقر رأيها بأنه إنما يروى بصورة مموهة المشاعر التي تربطها بالمؤلف . ها قد فعلها أخيراً إذن ، فيما تراءى لها ، واستخدم شخصية أليوخين ، وموضوع الحب غير المتبادل ، ليوضح لماذا أحجم عن الإعلان عن عواطفه وهي تضيف قائلة : "لم أعد أبكي ، بل أنتحب انتحاباً هستيرياً فهو لا يعتبرني ملومة ، لا يلومني ، بل يحاول أن يلتمس لي العذر ويبرر ما أفعل لقد فهمني وحزن معي . وإذا كانت

عائلتي تمنعنى من السعادة مع تشيخوف ، فإن تشيخوف إنما يمنع عنى السعادة مع عائلتى ، وكان علىّ أن أمزق نفسى إلى نصفين " . وبعد أن أشعلتها القصة ثانية توجهت بأنظارها إلى تشيخوف من جديد ، ولكى تثيره لجأت للهجة ساخرة ، كتبت له رسالة عرفان غاضب بالجميل لأنه شرفّها بانتقائها بطلة لإحدى قصصه ، وشبهته بكاتب ينغمس فى أفعال مقيتة لكى يتمكن من وصفها بواقعية فى كتاباته ، وتضيف " باختصار الكاتب شأنه شأن النحلة تمتص رحيقها حيثما تسنى لها ذلك ، فقد سئمت نفسه الكتابة وعافتها ولكن موهبته تلّح عليه ولذلك فإنه يستمر فى كتابة وصف بارد وفاتر الشعور لأحاسيس لم تعد روحه قادرة على الإحساس بها بعد أن زحمتها الموهبة وسيطرت عليها كلياً ، كلما كان الكاتب أكثر بروداً كانت قصته أكثر مساً للمشاعر ، بحيث أن قراءه يذرفون الدموع على أوراقها ، وهذا هو ما يستهدفه الفن " .

صاغ تشيخوف إجابته لها بحرص شديد ، وكأنما يوجهها إلى شخص فقد توازنه بعض الشئ ، إذ يقول : "أخطأت بشأن النحلة ، فهى أولاً ترى أزهاراً براقةَ جميلة ، وحينذاك فقط إنما تجمع العسل ، أما بالنسبة للأمور الأخرى مثل فتور الشعور والملل ، وفكرة أن أصحاب الموهبة إنما يعيشون ويحبون ضمن عالم أخيلتهم وأحلامهم فقط ، فكل ما يمكننى قوله هو أن روح الإنسان الآخر عصية على الفهم . . أشد على يدك وأرجو أن تكونى بخير صحة وسعادة . . . المخلص تشيخوف " .

استشاطت أفيلوفا غضباً لأن تشيخوف أحجم عن الدخول فى اللعبة التى تلعبها ، فكتبت تتهمه بمحاولة إنهاء مراسلاتهما وبدلاً من أن ينتهز

هذه الفرصة لإنها مراسلتهما بالفعل عمد تشيخوف إلى تراجع واهن حيث كتب لها يقول : "قرأت رسالتك ، وليس بوسعى إلا أن أرفع يدى مستسلماً فإذا كنت تستنبطين من رسائلى أموراً ليست موجودة فيها فإنما مردّ ذلك هو أننى لا أتقن كتابة الرسائل على أية حال ، لا تغضبى واغفرى لى إن كتبت أشياء غير مريحة أو مزعجة فى رسائلى الأخيرة ، فلم أكن أقصد أن أثير غضبك " .

وبعد ثلاثة أيام كتب لليكا رسالة بنفس اللهجة الودية ليشكرها لأنها أرسلت صورتها له ، ويختم رسالته قائلاً : "أتمنى لك الصحة والسعادة وأرجوألا تنسى الإنسان الذى كان يعبدك . . أ . تشيخوف " وعلى الرغم من أنه كان يرتعد لمدى الأثر المدمر الذى يمكن أن يصيب هدوءه وراحة باله من وراء نزوات السماء فإنه لم يكن راغباً فى التخلى عن المكانة التى يحتلها فى قلوب أولئك الحسناوات اللاتى يتبادل الرسائل معهن .

وحين حاول شقيقه ميخائيل أن يضغط عليه ثانية فى موضوع الزواج فى تلك الفترة، أجاب موضحاً وجهة نظره قائلاً : "الزواج الناشئ عن الحب هو الوحيد الذى يمكننى أن أرغب به ، أما أن تتزوج لمجرد مصادفتك فتاة لطيفة ، فهو شأن شرائك شيئاً لا تحتاجه من السوق لمجرد أن هذا الشئ لطيف فالنقطة الأساسية التى تدور حولها الحياة الأسرية هى الحب والجاذبية الجنسية والوحدة الجسدية وفيما عدا ذلك فهو كئيب لا يمكن الركون إليه مهما حاولت أن تتشاطر فى حساب الأمور ، ولذا فإن الشئ

الأهم هو أن تعثر على فتاة تحـبها لا مجرد فتاة تعتـبرها إنسانة لطيفة " .
وتشيخوف لم يخفق فى العثـور على مثل هذه الفتاة ، بل إنه كان يخشى العثور عليها ، فـمثل هذا الأمر سيحدث تغييـرات لا نهاية لها فى حياته هل مازال فى الحقيقـة قادراً على الوقوع فى الحب ؟ إذا بعد أن تغلب عليه مرضه انسحب من الدنيا بمحض اختيـاره ، وأحر العواطف التى يعبر عنها إنما تتم عن طريق البريد غير أنه حتى فى أعماق كسله ، وتراخيه كان يشعر بإنفجار رغـبات مفاجئة ،تدفـعه ، مثلاً لبناء بيت جديد ، أو كتـابة قصة أفضل من تلك التى كـتبها ، أو حب امرأة لطيـفة ، مرحة وذكـية ، مثل تلك التى لعبت دور أركادينا فى طائر النورس ، أولجا كنايير .
ولكنه اكتـفى مؤقتـاً بمتع البناء والكتابة ، فمنـزله فى أوتكا بدأ يأخذ شكله ، وطائر النورس ماتزال تستمتع بالظفر فى موسكو ، وكتبه تباع على نطاق واسع ، بل إن سيفورين تعهد بإصدار طبعة كاملة لكل مؤلفاته .
غير أن تشيخوف مالبث أن شعر بتـثاقل فى همة سيفورين بهذا الشأن بحيث قال مازحاً إن المجلد الأخير من أعماله لن يصدر قبل عام ١٩٤٨ ، تبعاً لسرعة سـيفورين فى ذلك الحين ، وحين علم الناشر أدولف ماركس من سيـرجنيكو بأن تشيـخوف منزعج من تصـرف سيفـورين بالنسبـة لهذا الموضوع عـرض شراء حقوق نشـر كل ماكتـبه تشيخـوف حتى ذلك الحين ونشره فى طبعة متكاملة على الفور ، وبدلاً من العـوائد المعتادة التى تعتمد على عدد النسخ المباعة عرض دفع مبلغ إجمالى وفى النهاية انتصرت رغبة

تشيـخوف فى الحصول على ثروة صـغيرة ، فوافق على عـرض ماركس إذ رأى فى ذلك مخـرجاً يمكنه من تسديد ديونه ، وتغطيـة تكاليف بناء منزل أوتكا ، وانقـاذ أمه وأختـه ماريا من براثن الحـاجة ، وعرضـت أن تتولى عملية تحرير أعماله برمتها (كـما كانت زوجة تولستوى قد بدأت تفعل) إلا أن تشيخوف حاول أن يخفف من قلقـها مؤكداً أنه ينوى جدياً التوصل إلى صفقة ممتازة ، وقد عرض مـاركس خمسين ألف روبل ، وطلب تشيخوف ثمانين واتفقا فى النهاية على خمسة وسبعين ألف روبل .

غير أن العقـد الذى وقّع فى ١٦ كانون الثانى / يناير ١٨٩٩ لم يكن فى صالح تشيخوف على الإطلاق فلقاء مبلغ الخمسة وسبعين ألف روبل ، (والذى كـان أقل من مبـلغ أربعين ألف دولار بقليل ، أو يزيد قليـلاً عن قـيمـة ثمانـية آلاف جنيـه استـرلينى فى ذلك الحين) والذى سـيـتلقى منه تشيخـوف مبلغ عشرين ألـف روبل لدى توقيع العقد بينمـا يتم دفع الباقى على أربعة أقساط خلال السنوات الأربع التـالية ، لقاء ذلك وافق تشيخوف ، وفقـاً لنصوص العـقد ، على منح ماركس حق نشـر أعمـاله جميـعاً ، الحالية وتلك التى سيكتبها فى المستقبل ، باستثناء المسرحيات ، فيما يخص الأعمال المسـتقبلية ، احـتفظ الكاتب بحقه فى النـشر الأول ، وبعد ذلك تؤول ملكية تلك الأعمال إلى الناشر لقاء دفع تعويض إضافى يحتسب على أساس ثمن كل ست عشرة صفحة مطبوعة .

وعلى الرغم من أنه يعترف فى رسالة لماريا لهذا الترتيب مثالبه أيضاً ، فإنه يقول بأنه سيضمن على الأقل ، بأن يتم طبع كتبه بعناية ، وأنه لم يعد مجبراً على ملاحقة حسابات كتاباته ، أو بتعبير آخر يمكنه أن ينصرف لكتابه بسلام دون أن تعكر مزاجه أمور هامشية ، غير أن السبب الحقيقى فى موافقته على التنازل عن حقوق النشر هو أنه كان يدرك بأن ما يبقى أمامه ، من حياته لم يعد طويلاً ، وأن ماركس سيكون مخلّصه فى سنواته الأخيرة ولقد أعلن النبأ بمرح لبعض أصدقائه قائلاً : "إليك خبر الأخبار فى حياتى : حدث مهم ! هل أتزوج ؟ احزر " هل سأتزوج ، وأتزوج ممن ؟ لا لست مقدماً على الزواج ، بل إننى بصدد بيع قصصى لماركس ، بصدد بيع حقوقى بها ، المفاوضات جارية الآن ، وفى غضون أسبوعين أو ثلاثة أسابيع سأغدو إنساناً موسراً " . بينما يعلن لأصدقاء آخرين : لقد أصبحت ماركسياً !! " .

ولكنه كان يحس بتأنيب الضمير دون شك لتراجعه عن اتفاقه مع سيفورين ، بعد أن عملا معاً لمدة ثلاثة عشر عاماً ،ومن باب اللياقة كان يبلغ سيفورين أولاً بأول بتفاصيل مفاوضاته مع ماركس ، وإن كان يغض النظر عن اعتراضات سيفورين وقد أوجز مجمل الدوافع التى دفعت به إلى هذا الإتفاق وبالإلتزام الدائم مع ماركس بالقول إنه ما يحتاجه هو مبلغ ضخم من المال ، وإنه قاتل بكل ما لديه من قوة للاحتفاظ بحقوقه بالنسبة للمسرحيات ولكنه يعترف قائلاً : "غير أنى لست سعيداً ، بل أحس

وكأننى تزوجت امـرأة غنية ، كما يقـول أولئك الذين يعملون فى مضـمار التجارة : إننا نتقاتل حتى نتقابل ، ولكننا نفترق بصفاء ووئام ، إننى وإياك نفترق بوئام ، وإن كنا أيضاً نتفق حين نكون مـعاً ولست أعتقد بأننا اختلفنا حول أى أمر من الأمور طول الفترة التى كنت تتولى خلالها طباعة كتبى ، هذا بالإضافة إلى أننا أنجزنا أشياء عظيمة أخرى معاً " .

كان على تشيخوف ، طبقاً لنـصوص العقد ، أن يقدم نسخة من كل قصة من قـصصه ، من أقدمـها حتى أحدثهـا ، فى غضون سـتة أشهر ، وكانت هذه مهمـة شاقة ، وخصوصاً وأن العديد من قـصصه المبكرة كانت قد نشـرت فى مجـلات ما لبـثت أن توقفت عن الصـدور بحيث أنه شـبه مهمـته هذه بمحاولة وضع قائمة مـضبوطة بجميـع الأسماك التى اصطادها خلال السنوات العشرين الماضيـة ، وقد أخضع القصص القليلة التى أمكنه اقتفاء أثرها بنفـسه لعملية اختيار مـتأنية وأخضعها لتـغييرات فى الأسلوب حيثما وجد فيها ضعفاً واضحاً ، وقد أصبح ما أسماه بـ "الحكم بالأشغال الشاقـة " عملية مضـنية جداً بسبب ندرة المـكتبات ومصـادر الأرشيف فى يالطا ، وبعـد أن وصل إلى حالة يائسـة طلب من مـاريا ، وألكسندر بأن يهـبا لنجـدته فعـادا إلى محـفوظات مـجمـوعات الدوريات فى مـوسكو وبطرسبـرج واستحـصلا على نسخ من كل القـصص التى تمكن من نفض الغبار عنها .

وللحصول على القصص التى كانت قـد نشرت فى "سانت بطرسبرج

جاريت " طلب مساعدة ليديا أفيلوفا نظراً لأن زوج أختها كان هو المحرر المسئول ويختم الرسالة التى يرجوها فيها أن تعثر له على ناسخ ينسخ له القصص ، ويختمها بنبرة مصالحة مشيراً إلى رسائلهما المتبادلة الحادة حيث يقول : "أكتبى على الأقل بأنك لست حانقة على حتى ولو كنت غير راغبة فى الكتابة لى حول أمور أخرى " . إلا أنه كان من دواعى سعادة أفيلوفا أن تؤدى أية خدمات قد يطلبها منها هذا الرجل العظيم الذى مازالت تعتبره مغرماً بها ، ولقد قامت بالجانب الأكبر من العمل بنفسها ، وأدته بدقة فائقة ، ولذا كان تشيخوف ممتناً لها أشد الإمتنان ، وكانت الرسائل التى كتبها لها إبان فترة التعاون هذه أكثر سلامة ، إذ يعبر فيها عما يجيش بنفسه بحرية أكبر ، دون أن يبدو أنه يخشاها بعد : "لم أنا موجود فى يالطا ؟؟ ولم الجو مريع بصورة رهيبة لى هنا ؟ الثلج يهطل وهناك عاصفة والريح تصفق النوافذ ، والحرارة تتسلل إلى الموقد ، وليست بى أدنى رغبة للكتابة ، ولست أكتب شيئاً على الإطلاق ، إنك إنسانة رقيقة ، ولقد قلت هذا ألف مرة ، وها أنذا أردده من جديد !! " .

كان ذلك الشتاء بارداً جداً بالنسبة لما هو معتاد فى القرم ، وتوقف عن العمل فى بيت أوتكا إلى أن يعتدل الطقس ثانية ، كان بناء ضخماً بالفعل ، مكوناً من طابقين يواجهان الشمال ، وثلاثة طوابق تواجه الجنوب ، ويضم برجاً وشرفة ومدخلاً محاطاً بألواح الزجاج ، غير أنه يفتقر إلى طراز موحد ، وكان تشيخوف يطلق عليه مسمى "علبة السردين " فقد كان من عادته أن يندفع فى مشاريع معينة غير أنه ما يلبث أن يشعر بخيبة الأمل للنتائج ، وكلما بالغ فى

توقعاته ازدادت معاناته. وما برح أن شغل نفسه بتصميم طراز الحديقة ، ممراتها والمساحات التى سيزرع فيـها العشب ومساكب الزهور . وكان هناك تركيان. يرتديان طربوشين من اللون الأحمر يحفران التراب ويهيئان الأرض ، بينما يمضى هو من حـفرة إلى أخرى يزرع الأشجـار والشجيرات الصـغيرة والورود . وقد كتب لماريا يقـول : « إنها متعـة خالصة . . . زرعت اثنتى عشـرة شجرة كـرز وأربع شجيـرات توت . . . وشجـرتى لوز وعدداً من الأشجار الأخـرى كلها جيدة، وستـثمر فى وقت قريب . أما القـديمة فقد بدأت تزهر وشجرة الأجاص تتفتح وأشجار اللوز تحمل زهراً وردياً ، بينما الطيور تتوقف ليلاً فى البستان وهى فى طريقها عائدة إلى الشمال وتبدأ فى الغناء فى الصباح ، ومن بينها طيور السمّن » .

وتشيخوف ، الذى أنفق مبالغ كـبيرة على بيت أوتكا ، لم يكن ليبخل حين يتعلق الأمر بالقضايا الخيـرية ، وما أن تلقى الدفعة المقدمة الأولى من ماركس حـتى تبرع بخمـسمائة روبل لبناء مـدرسة فى قرية قـريبة . وحين التقى مصادفة بجافيريوشكا ، وهو أحد الفلاحين الذين كانوا يتولون خدمة الزبائن فى حانوت والده بتاجنروج حتى عـرض أن يدفع مصاريف مدرسة ابنته . كـما أن الكتّاب الشـبان كانوا يعـرفون أن بإمكانهم الإعتـماد على مساعدته . وحين فكر شقيـقه ألكسندر ببناء بيت ريفى له خارج بطرسبرج أرسل له أنطون ألف روبل كدفعة مقـدمة ، وأخذ يوقع رسائـله بـاسـم

« شقيقك الثرى » أو « الغنى المحسن » .

ومع ازدياد شهرته كان يزداد عدد الناس الـذين يقصدونه ، لا للحصول على مساعدة مالية أو نصيحة فيما يتعلق بأساليب الكتابة أو خطابات توصية للناشـرين فحسب ، بل أيضـاً لاستـشارته فى أمـور تتعلق بنواحى الحـياة اليـومية . وحـين عصفـت بالبلاد مـوجة من مظاهرات الطلبـة بدأت فى بطرسبرج ، وتم طرد عدد من الشبان من الجامعة وإلقاؤهم فى السجن بعد اصطدامـات عنيفة مـع الشرطة ، تلقى تشـيخوف رسـائل تطالبـه بإصدار تصريحات علنيـة حول موقفه من هذه القضـية . وبما أنه كان يرفض طوال حياته المشاركة فى القضايا السياسية ، فقد احتمى خلف قاعدة ضرورة عدم تدخل الفنان فى أمور الحياة العامة ، حـيث يتساءل : « هل مهمتنا إصدار الأحكام ؟ أليـست هذه هى مهمـة رجال الدرك والشـرطة والموظفين الذين هيأهم القدر لمثل ذلك ؟ إن مهمـتنا هى الكتابة ولا شئ سواها ، وأى قتال أو غضب أو أحكام نصدرها إنما يجب أن تتم عن طريق أقلامنا » .

غيـر أنه كتب وتحدث عـن إجراءات العنف التعـسفيـة والوحشـية التى اتخذتها الحكومـة ، وكان كلما تقدم به العمـر يصبح أكثر مقتـاً لتجاوزات نظام الحكم الأوتوقراطـى. فقد كان ليـبراليـاً مـتمسكاً ، يسـتنكر العنف ، سواء من جـانب الطبقات العلـيا أو الدنيا . ولهـذا السبب لم تستـهوه قط اشتراكية جوركى الاجتماعية . فالحركات الجماهيرية كانت ترعبه إذ أنها لم

تكن تعطى الأمل بالتطور الطبيعى للأمور . ولقد كتب لأحد أصدقائه القدامى، وهو طبيب ريفى اسمه إيفان أورلوف ، كتب له يقول : إننى أمن بالأفراد، أرى الخلاص فى أفراد مبعثرين هنا وهناك فى أنحاء متفرقة من روسيا ، سواء أكانو مفكرين أم فلاحين . فهم وحدهم سيكون لهم وزناً مهما كان عددهم ضئيلاً . وتبعاً للقول القائل : لا نبى بين أهله ، فإن هؤلاء الأفراد الذين أتحدث عنهم يلعبون دوراً غير واضح للعيان فى المجتمع . إنهم ليسوا فى موضع الهيمنة ، ولكن عملهم واضح جلى . ومهما كان رأيك فى هذا الأمر فإننى أقول إن العلم يتقدم دون شك ، والوعى الاجتماعى فى ازدياد ، والقضايا الاجتماعية بدأت تأخذ منحى يثير القلق المتزايد . وهكذا دواليك وكل هذا يحدث خارج نطاق النخبة الفكرية بمجموعها ، وبالرغم من كل المعوقات .

اتخذ سيفورين ، كما هو متوقع ، موقفاً متصلباً ضد التظاهرات الطلابية ، إذ كتب مقالتين يستنكر فيهما بشدة سلوك الطلبة ، ويطالب بصدور قرار من القيصر لتعيين لجنة تحقيق بهدف اجتثاث هذه الحركة من جذورها . وكنتيجة مباشرة لهاتين المقالتين قاطع المثقفون «الأزمنة الحديثة»، ونشر جوركى رسالة مفتوحة حادة جداً ، وسرت شائعات بأن سيفورين تلقى مبلغ عشرة آلاف روبل من الحكومة . ولم يؤد ذلك إلى تدنى تداول « الأمنة الحديثة » فحسب ، بل إلى دفع العديدين من أعَضاء هيئة التحرير

لتقديم استقالاتهم . وما لبثت جمعية المساعدة المتبادلة للكتاب الروس أن استدعت سيفورين للمثول أما محكمة شرف لإيضاح تصرفاته ، وإلا فإن عضويته فى الجمعية ستعلّق ! . . .

حين وجد سيفورين نفسه محاطاً من جميع الجوانب ، والهجوم ضده يوجعه من كل جهة ، كتب لتشيخوف طالباً نصيحته ، ولكن تشيخوف أجاب على محاولة تبرير موقفه بتوجيه النقد إلى مقالتيه ، واتهم سيفورين بالتصرف برعونة فى مسألة شديدة الخطورة بتوليه مهمة الدفاع عن حكومة تجاوزت كل حدود سلطانها . وبيّن تشيخوف أن ميزان الحقوق والواجبات ميزان واحد بالنسبة للدولة والفرد على حدٍ سواء ، وأن « مفهوم الدولة يجب أن يبنى على أساس العلاقة القانونية المحددة ، وإلا فإن الدولة ستصبح بعبعاً وصوتاً فارغاً لا يبعث إلا على الخوف الوهمى » .

وما لبث أن تناول الموضوع ذاته بعد عدة أسابيع إذ يقول : « حين يحرم الناس من حق التعبير عن أنفسهم بحرية فإنهم سيعبرون عن آرائهم بغضب وحنق وبشكل تعتبره الحكومة بشعاً ، بل ورهيباً من وجهة نظرها . اسمحوا بحرية الصحافة وحرية الضمير ، وحينئذ ستجدون الهدوء الذى ترغبون . قد لا يستمر هذا الهدوء طويلاً بالفعل ، ولكنه سيظل قائماً على الأقل إبّان فترة حياتنا نحن » .

غير أن تشيخوف لم يكن يوافق على فكرة « محاكمة » سيفورين أمام محكمة شرف . فالمحاكمة قد تكون واردة بالنسبة لضباط الجيش ، ولكنها غير واردة بالنسبة للكتاب الذين يتمثل دورهم الأساسى فى الحياة فى التعبير عن آرائهم بحرية دون أن يخشوا أحكام أقرانهم (وقد رفض سيفورين فى الواقع المثول أمام المحكمة) . كما أن تشيخوف كان يشعر بأن هيئة التحرير هى المسؤولة كلياً عن الإساءة لسمعة « الأزمنة الحديثة » ، إذ يقول : « أصبح الناس يعتقدون بأن « الأزمنة الحديثة » تتلقى إعانة مالية من الحكومة ومن هيئة الأركان الفرنسية ، ولقد بذلت « الأزمنة الحديثة » كل ما فى وسعها لتأكيد هذه السمعة غير المبررة ، وأنت فى نظر معظم الناس إنسان له نفوذ كبير فى الحكومة ، إنسان قاس لا يرحم . والأزمنة الحديثة بذلت كل ما فى وسعها فى هذا النطاق أيضاً لتأكيد سوء الفهم هذا من جانب مجتمعنا ،ولأطول فترة ممكنة » .

وحين اتهمت زوجة سيفورين تشيخوف بالتخلى عن زوجها فى ساعة محنته أجاب تشيخوف على هذه التهمة بالقول : « تتهميننى بالغدر وتكتبين بأن ألكسى سيرجيفيتش طيب القلب ، غيرىّ بطبعه ، وأننى لا أقابله بالمثل. ولكن ما عساى أستطيع أن أفعل بحق الله ؟ الجو الراهن لم يتكون على حين فجأة ، بل تشكل على مدى سنوات عدة ، والأشياء التى تقال الآن قيلت منذ زمن طويل وفى كل مكان ، ولكن هذه الحقيقة كانت

تحجب عنك وعن ألكسى سيرجيييف ، شأن العائلة المالكة . أما أنا فلست أحاول التخمين بل أقول ما أعرفه ، وهو أن الأزمنة الحديثة تمر بمرحلة صعبة ولكنها مازالت تمثل قوة ، وستظل كذلك . ولابد للأمور أن تعود إلى طبيعتها بعد مرور فترة من الوقت ، ولن يتغير شئ بل سيبقى كل شئ كسابق عهده » .

كان تشيخوف محقاً ، فذاكرة الرأى العام الروسى قصيرة المدى ، وما أن مرت العاصفة حتى عادت سفينة « الأزمنة الحديثة » إلى مسارها الملوكى كما كانت من قبل ، واستمر سيفورين يقود دفتها بحزم * . وعلى الرغم من أن أحداث الطلبة وقضية ماركس عمّقت الهوة بينهما غير أن تشيخوف لم يكن ليستطيع أن يمنع نفسه من الكتابة له . بل إنه دعا سيفورين إلى يالطا ، غير أن هذا أحسّ بجرح عميق فى كبريائه فلم يلبّ الدعوة على الإطلاق .

أما جوركى ، فقد أسعده أن يقوم بهذه الرحلة ، ومنذ أول لقاء لهما فى يالطا وقع أسير شباك تشيخوف الذى شعر من جانبه أيضاً بميل شديد لجوركى . وقد كانا يقضيان أياماً متتالية وهما يناقشان قضايا الفن والأدب والسياسة ، يتحدثان عن أساطين الحضارة الغربية ،والحالة المزرية للمعلّم الروسى : « ليتك تعرف مدى حاجة القرية الروسية للمعلم المثقف الواعى الجيّد ! فالمعلم يجب أن يكون

* عاش سيفورين واستمر محققاً نجاحاً حتى سن الثامنة والسبعين ، ومات عام ١٩١٢ .

فناناً ، مغرماً برسالته كمعلم ، أما نحن فإننا نعتبره مجرد إنسان مرتحل، قليل التعليم يذهب إلى القرية ليعلم أطفالها وكأنه ذاهب إلى منفى إجبارى ، إنه إنسان مسحوق يتضور جوعاً ، وفى رعب دائم من أن يفقد مصدر رزقه ، كلما رأيت معلماً روسياً أشعر بالخجل نيابة عنه بسبب جبيه ، وبسبب الأسمال البالية التى يرتديها أشعر وكأنما أنا المسئول شخصياً عن بؤس المعلم " وكان يرتاد يالطا عدد من معلمى المدارس المرضى المدمرين ، وكان تشيخوف يحلم بإنشاء مصح لهم .

ومع جوركى الإنسان المنتمى إلى الشعب ، كان تشيخوف يستطيع الكلام بسهولة وبساطة حول مثل هذه المشاريع ، وكان يرتاح لعفوية جوركى ومثاليته العنيفة ، أكثر مما يرتاح لأقرانه المتكلفين فى بطرسبورج وموسكو ، وقد كتب عنه لليديا أفيلوفا يقول : "يبدو فى مظهره الخارجى وكأنه شحاذ متسول إلا أنه فى منتهى الرقى فى داخله ، وأنا سعيد جداً بذلك ، أود أعرفه على بعض النساء ، فقد يكون هذا مفيداً له وإن كان ينحو للصدود بالنسبة لهذه القضية " . أما الناقد والمفكر المرموق فاسيلى روازنوف فقد وصف جوركى ، بأنه رجل بسيط ومتشرد ، لم يتعلم القراءة إلا فى سن متأخرة ، أما الآن ، وبعد أن ولد من جديد ، فهو ينهل ويعب كل ما تصدره المطابع ويقرؤها بنهم وشغف ، ودونما تحيز " .

وبالنسبة لجوركى ،فقد أدهشه أن يرى إنساناً بمثل نبوغ تشيخوف يتمتع بكل هذه السمات الإنسانية ، قد كتب لزوجته يقول : "تشيخوف إنسان استثنائى ، عطوف ، رقيق يراعى مشاعر الآخرين الناس مغرمون به ، ولا يتركونه لينعم بالهدوء ، أستمتع بالحديث إليه بشكل هائل بحيث لا أذكر أننى استمتعت بحديث مع أى إنسان آخر من قبل مثلما أفعل معه " غير أنه يذكر لها أن مرض تشيخوف جعل منه إنساناً متقلب المزاج ، بل كارهاً لبنى

البشر ، وبأنه يعيش وحيداً مستغرقاً فى التفكير ، خائب الأمل على الرغم من كثرة المعجبين الذين يحيطون به ، وقد قال لجوركى فى أحد الأيام بين نوبتين من نوبات السعال : "أن يعيش الإنسان وفكرة الموت المحتم تلازمه إنما هى أمر لا يبعث على أى سرور أما أن يعيش وهو يعرف أنه سيموت قبل الأوان فهو أمر فى منتهى السخف " .

ومع بدء أنسام الربيع بدأت تسيطر عليه رغبته الغافية العارمة للهرب من يالطا : "لقد ملّ لعب دور الرجل الذى يحيا حياة البلادة والخمول من أجل الحفاظ على صحته ، إننى أمشى على الجسر وفى الشوارع هنا ، وكأننى قس ليس له أبريشية دائمة " . وفى نيسان / أبريل غادر يالطا متوجهاً إلى موسكو دون أن يستشير الدكتور آلتشولر .

أقام فى البداية مع أمه وأخته فى شقتهما فى مالايا ديمتروفكا ، وأغرقه زواره المألوفون بحيث أن السماور كان يغلى منذ الثامنة صباحًا حتى العاشرة مساءً .

وكان على تشيخوف أن يقوم بأعمال مراجعة سريعة للقصص التى سينشرها ماركس ، ولكنه لم يكن قادراً على طرد أى شخص من بيته ، وكان يتنحى بماريا جانباً فى بعض الأحيان ليهمس فى أذنها قائلاً : "إليك! لست أعرف من يكون هذا الإنسان على الإطلاق ، ولم أدرس معه فى مدرسة قط ، كل ما أعرفه هو أن لديه مخطوطة يخفيها فى كّم قميصه وسيقرؤها لنا اذا بقى حتى وقت العشاء . هذا مستحيل . . ! " .

وفى غصون أربعة أيام ، انتقل إلى شقة خاصة به فى نفس الشارع قرب دير ستراستنوى وكان يسره أن يسمع الأجراس ، ولكن الجمع ما لبث أن تبعه من جديد ، وقد كتب للدكتور آلتشولر يقول : "بحلول ثانى أيام عيد الفصح كنت مجهداً بحيث لا أستطيع الحركة ، شعرت بانعدام

الحياة لدى وكأننى جثة هامدة " .

وفى خضم كل ذلك أسعدته رسالة دافئة من جوركى فى نيزنى نوفغراد تلقاها فى ٢٣ نيسان / أبريل يقول فيها : "أسعدنى جداً أن ألتقى بك ، إننى سعيد إلى أقصى الدرجات وأشعر بأنك أول إنسان حرّ طليق تماماً صادفته فى حياتى ، ما أروع اعتبارك الأدب أول وأهم شئ فى الحياة ، وإن كنت لا أعتقد بإمكانى أن أعيش كما تفعل مهما عرفت مزايا هذه الحياة ، فأنا أتعاطف مع أشياء كثيرة ، وأمقت أشياء كثيرة ، وهذا أمر يبعث على الضيق ، ولكن لا حيلة له بى ،أرجو أن لا تنسانى ، وسأكون صريحاً تماماً معك ، وأرجوك أن تكشف لى بين حين وآخر عن نواحى الخطأ الكامنة فى ، وأن تعطينى نصائحك ، بعبارة أخرى ، أرجو أن تعاملنى كصديق يحتاج للإرشاد والتوجيه " .

كما مسته الزيارة التى قام بها تولستوى فى موسكو ، وإن كان الممثلون الذين كانوا موجودين بالصدفة حالوا دون أى محاولة لإجراء حديث جدى بينهما غير أنه ذهب لتناول طعام العشاء مع آل تولستوى فى اليوم التالى وهناك تمكن الرجلان من التحدث بالقدر الذى يرضيهما ، وحين طرح موضوع جيل الشباب أشار إلى أن جوركى "ملفت للنظر مع تحفظ واحد : "كل شئ يمكن تلافيه إلا النواحى النفسية ، وجوركى ملئ بالتلفيقات النفسية ، فهو يصف أشياء لم يشعر بها قط " .

وبعد أسبوع واحد رأى تشيخوف ليديا أفيلوفا التى كانت مارة بموسكو مع أطفالها الثلاثة فى طريقهم إلى ضيعتهم وقد اقترحت أن تلتقى به فى المحطة ، أثناء استبدالها القطار ، أذعن تشيخوف لذلك تعبيراً عن شكره للجهود التى بذلتها فى مساعدته ، ولكنه ما أن وجد نفسه بحضورها

المتملك حتى عـمد إلى الارتداد ، كما هى عادته ، ولم يخف رغـبته فى أن يراها ترحل، أما أفيلوفا ، التى مازالت تعيش فى أوهامها الرومانيكية ، فقد قارنت وداعـهما بمشهـد الـوداع فى قصة تشـيخوف "حول بالحب" وإن كان الـعناق العاطفى الذى يمثل قـمة ذلك المشـهد لم يحـدث هنا فى الواقع على الإطلاق ، اكتـفى تشيخوف بوداع الأطفـال فى عربة القطار ، ثم انطلق إلى الممر ، وحين تبعته أفيـلوفا لتدعوه لزيارتها فى الريف ، قال بأنه لن يذهب لرؤيتـها حـتى ولووقعت صريـعة المرض ، وأنهمـا لن يريا بعضهما من بعد قط ، صافحها ومضى وكتبت تقول فى كتابها "تشيخوف فى حياتى" : "بدأ القطار يتحرك ببطء ورأيت جـسم تشيخوف يلوح أمام النافـذة ، غير أنـه لم ينظر وراءه ، ولم أكن أعرف حـينذاك ، ولم يكن ليدور فى خلدى عندئذ لن أراه مرة أخرى ! " .

وفى نفس اليوم الأول من آيار / مايو حـضر تشيخوف عرضـاً خاصاً لـ "طائر النورس" فى مسرح الفن امتدح الممثلين وإن كان قد انتقد إيقاع المشهد الرابع وبعـد أسبوع واحد ، فى يوم رحيله إلى ميلخـيوفو ، وافق على التقاط صورة له مع مجمـوعة الممثلين ، وتظهره الصورة وهو يجلس أمام طاولة وكـأنه يقرأ مخطوطة "طائـر النورس" لمجموعـة الممثلين الذين ينصتـون له باحترام هنالك امرأة شـابة تبرز من بين المجموعـة ، وتبدو فى لقطة جانبية (بروفيل) وكأنها مستـغرقة فى التفكير إنها أولجا كنايبر ، وقبل يومين من ذلك التاريخ كان تشيخوف قد أهداها صورة "لبيت اللعبة" فى ميليـخوفو وقـد كتب عليهـا : "بيتى ، حيث كـتبت طائر النورس ، إلى أولجا ليوناردوفنا كنـايبـر ، مع أطيب تمنياتى" وقد مستها هذه الكلمات دون أن تفصح عن ذلك .

١٣ - تحياتى يا آخر صفحة من حياتى

أثناء وجود تشيخوف فى يالطا وثقت شقيقته صداقتها مع أولجا كناير ، وكانت معجبة بأسلوبها الرفيع فى التمثيل وبطبيعتها المندفعة النابضة بالحياة . وقد كتبت لشقيقها تقول : « أنصحك بمراقبة كناير ، فهى فى رأيى جديرة بالاهتمام » .

كانت أولجا ابنة لمهندس ينحدر من أصل ألمانى ، تلقت تعليماً من النمط البرجوازى التقليدى ، بما فى ذلك دروس الموسيقى والرسم واللغات الأجنبية . وبموت الأب كان على الأسرة أن تقلص من مصروفاتها بصورة جدية ، ولذا تكومت « عائلة كناير المجنونة » تبعاً لوصف جوركى ، فى شقة من ثلاث غرف فى موسكو ، بمن فيهم أمها الأرملة التى كانت تعطى دروساً فى الغناء ، وعماها المشاكسان اللذان لايكفّان عن الشراب ، بالإضافة إلى أولجا ، وكانت هذه تحلم باعتلاء خشبة المسرح ولذا درست التمثيل على يد نيمير أو فيتش- داشينكو لمدة ثلاث سنوات مخالفة بذلك نصيحة أمها ، وقد ظهرت على السطح حين قدّمها نيميروفيتش - داشينكو ضمن الفرقة التى شكلها لمسرح موسكو الحديث،وكانت أولجا ملزمة بمهنتها ، تعيش حياة خليّة شديدة الاهتمام ، وتحفظ سطور أدوارها بينما تلامذة أمها يتلقون دروسهم الموسيقية ، أما عماها ، واحدهما طبيب والآخر ضابط فى الجيش ، فهما يعبّان الفودكا ويلعبان الورق ، أو يقرآن تولستوى وتشيخوف بصوت مرتفع .

لم تكن أولجا تمتلك فقط موهبة غـريزية فى التمثيل ، بل كانت تملك أيضاً شهية لاتنضب للحياة عـامة ، كما أنها لم تكن قادرة على إبداء آراء تنّم عن الذكاء والفطنة فى مضمار الأدب والفن فحسب ، بل كانت تظهر أيضاً ، ودونما تحرج اهتـماماً بالملابس والقبعات وحـتى وصفات الطبخ ، ولقد أدركت منذ البداية بأن تشيخوف لن تجذبه مجرد امرأة مثقفة وديعة ، ولذا دأبت فى حـضـوره على لعب دور المرأة المـغناج التى تنبض حـيـاة ومطالباً ، كما كانت صـورة تتجسد فيها الصحة ببشرتـها الفاتحة وشعرها القاتم الحـريرى وعينيهـا الضاحكتين ، وبسنيّـها الست والعشـرين كانت تصغر تشيـخوف بعشر سنوات فقط ، وإن كانت ينظر إليـها بعينى رجل عجوز بعـد أن أنهكه المرض وجعله يبدو أكـبر عمراً مما هو فى حقـيقـــة الأمر .

وما أن عـاد إلى ميليخـوفو فى أوائل أيار / مايو ١٨٩٩ حـتى دعاها لزيارتهم ورؤية الريف الروسى وهو يتفـتح ويزهر استجابت لـهذه الدعوة على الفور ، وبمجرد وصولها أغرمت بجو ذلك البيت البسيط الحميم وبأم تشـيخـوف ، « تلك المرأة الروسـية الهـادئة التى تـمتع بروح النكتـة » وبالأسلوب الرفيع البرىء الذى يؤدى به تشـيخوف واجبات الضـيافة وقد كتـبت فى مذكـراتها فـيمـا بعد تقـول : « إنه يحب كل شىء يأتى من الأرض ، وقد قضينا ثلاثة أيام يملؤها الإحسـاس بالتوقع وتغمرها السعادة والشمس » وبرحيلها كانا قد أفتتنا ببعضهما البعض وأخذا يتطلعان للزيارة المقبلة .

وفى حزيران - يونيو توجهت أولجا إلى القـوقاز لتقضى فصل الصيف مع شقـيقها فى مـيشخيت . وحين عـرف تشيخوف بذلك عنّفـها بنفس أسلوبه المازح الذى كان يلجـأ إليه مع ليكا ، فقد كتب لهـا يقول : « ما

مـعنى هذا ؟ وأين أنت الآن ؟ ترفـضين بإصرار إعـلامنا بمكان وجـودك بحيث نقضى الوقت فى الحدس والتـخمين ، وقد بدأنا نخشى أن تكونى قد نسيـتنا وتزوجت أحدهم فى القوقاز . فـإن كان الأمـر كذلك ، فمن هو ؟ لاتقولـى بأنك قررت هجر المسـرح - لقد نسـيت المؤلف - ياللؤم والخيانة والغدر ! » وفى اليوم التالى كتب ملحوظة فى رسـالة كتبتها أخته ماريا لهـا حيث يقول : « تحـياتى ، يا آخر صـفحة من حـياتى ، يا ممثلة البلاد الروسية العظيمة . إننى أحسد الشراكسة لأنهم يرونك كل يوم ! »

ولكن ما أن تفـرجـت أولجا على ميليـخوفو حـتى بدأ يتهيـأ للتخلى عنها ، إذ على الرغم من كل الذكـريات التى كانت تمثلها بالنسبـة له فقد كان جاداً تماماً فى مسألة الانتقال إلى يالطا ، وقد أعلن عن رغبته فى بيع ميليخوفو بمبلـغ خمسة وعشرين ألف روبل ، واستمر فى حـزم أمتعته - بما فى ذلك كتبه وأمـتعته الشخصـية وقطع الأثاث بالرغم من أن احداً لم يتقدم لشرائها .

وفى أو اخـر حزيران / يونيـو كتـبت له أولجا تقـترح أن يلتـقيـا فى الجنوب ، وقبل تشـيخوف اقتراحـها بامتنان ، وقد اتفقـا على اللقاء فى نوفوروسـيسك فى ١٨ تموز / يوليـو ، على أن يتوجهـا من هناك إلـى يالطا . نفذا مخططهما بحذافـيره ، وفى يالطا توجه تشيخوف إلى فندق مارينو ، بينمـا أقامت أولجا مع عائلة تربطهـا بها صـداقة مشـتركة هى عائلة سيريدين .

وزع تشيخوف وقته بين منزل أوتـكا الذى كان فى مراحله النـهائية أو بين مشاويره مع أولجا التى سحرته بالتغيرات المفاجئة فى مزاجها بحيث كتب لشقـيقته يقول : « كنايـر فى مالطا ومزاجها حـزين ، وقد جاءت أمس لتشـرب الشاى مـعى وجلست دون أن تتفـوه بكلمة واحـدة » كان

يزعجـها أن تشهـد طريقة معـيشتـه وهو يركض من مكان لمكان دون أن يتناول من الطعـام إلا أقله بحـيث يأكل قطـعة من الخـبـز أو الجبن ، أو يستغنى عن وجبة بكاملهـا ، وتسعد حين تراه يعطى نفسه الوقت الكافى لتناول وجبة من الأسماك والنبيذ القومى الابيض .

فى ٢ آب / أغسطس توجها إلى موسكو : إذ كان على أولجا أن تعود لمواصلة تدريباتها المسرحية ، استقلا عربة إلى باخشياساراى ، وهى أقرب محطات القطار فى ذلك الحين ، واستمتعا برؤية بساتين الورود التى تحيط بها أشـجار السرو ، والقرى التـترية والمقابر الإسـلامية المهجـورة . كان الهواء يعـبق بالروائح العطرية ، والحديث طلياً مـرحاً ، وكانا يتحـسّران على انتهـاء زيارة ممتعة قربتهـما من بعضهـا البعض ، إن لم تكن ربطت ربطاً محكماً .

وفى موسكو ، انشغلت أولجا بتدريباتها كلياً ، بينما انشغل تشيخوف بإعداد المجلـد الأول من أعماله الكـاملة ، بحيـث أنهـما نادراً مـا كانا يلتقيـان ، كما أن الطقس أصبح مـاطراً وبارداً فى منتصف آب ، مما أدى إلى مرض تشيخوف ، وكـتب حول ذلك يقول : « لست أدرى إن كانت العصيات تهاجمنى فى جديد ، أو أن الطقس هو السبب ، ولكننى منهك بحيث لااستطيع أن أبقى رأسى منتصباً » ولم يعد أمامه إلا الانسحاب إلى يالطا من جـديد ، حـيث وصلها وهـو مازال مـتعـبـاً فـى ٢٧ آب / أغسطس ، وانضمت إليه شقيقتـه وأمه بعد أسبوعين بعد أن نجحت ماريا فى العثور على مشتر لميليخوفو* .

* نص العقد مع التاجر الذى اشتري المزرعة وهو تاجـر أخشاب ، على دفع ثمنها على مراحـل ، غير أنه تأخر فى دفع الدفعة الأولى ولم يدفع الدفعات التالية قط . وفى النهاية بيعت ميليخوفو لبارون .

استقروا ثلاثتهم فى بيت أوتكا ما وسعهم الاستقرار ، حيث أن الصباغ لم يكن قد جفّ والعمال مازالوا يحتلون المنزل وقد كتب تشيخوف لـ« فيكتور جولتسيف » رئيس تحرير مجلة الفكر الروسى يقول : « النجارون يطرقون من الصباح حتى الليل ولايسمحون لى بالكتابة ، والطقس جميل بحيث أنى لا أقوى على البقاء بين جدران البيت » والطقس الجميل هو الذى تغلّب فى النهاية على والدة تشيخوف وتمكن من إقناعها ، وعلى الرغم من صعوبة الحياة فى بيت لم يكتمل بعد إلا أنها لم تعد تفتقد ميليخوفو ، وحين غادرت ماريا يالطا متوجهة إلى موسكو لم تجد سبباً يدعوها لمرافقتها .

وبمرور الوقت ، أصبح منزل أوتكا أكثر توفيراً لأسباب الحياة ، وقد أسعد تشيخوف أن تصبح له من جديد غرفة مكتب يكسو جدرانها ورق رسمت عليه أزهار الزنبق البرى ، وتطل نافذته التى تتخذ شكل المروحة على الحديقة والوادى والبلدة ، ومن ورائها البحر ، وفوق المدفأة علقت لوحة لمنظر طبيعى من رسم ليفيتان وغطت الجدران صور أفراد العائلة والرسوم المائية وصور لتولستوى وتورجنيف وجريجوروفيتش . أما طاولة المكتب فهى مغمورة بالأوراق والكتب والتماثيل المصغرة المصنوعة من الخشب والحجر . وعلى الرغم من وجود لافتة « ممنوع التدخين » فى مكان بارز فوق المكتب ، إلا أن تشيخوف لم يكن يشير إليها حين يشعل أحدهم لفافته عرضاً ، بل يفضل السعال على توجيه الأوامر ، أما إذا رغب أحدهم فى الاستلقاء برهة من الوقت ، فإن غرفة نومه البيضاء البسيطة ملاصقة لغرفة المكتب هذه .

إلى جانب الجهد الذى بذله تشيخوف لجمع أعماله فى ذلك الخريف ، تمكن من كتابة قصتين طويلتين هما : « صاحبة الكلب »

و « الوادى السحيق » . كما وضع الخطوط العريضة لقصة أخرى هى « الاسقف » . قصة « الوادى السحيق » شأن قصة « الفلاحون » تعطى صورة صادقة كل الصدق عن الحياة فى الريف . أما قصة « صاحبة الكلب » والتى أوحت له بها بيئة الحياة المصطنعة فى يالطا ، فهى تروى قصة علاقة غرامية خاطئة تبدأ كمغامرة عاطفية أثناء الإجازة ، ثم ما تلبث أن تتحول تدريجياً إلى حب لا أمل فيه ولا رجاء ، وقد تمكن تشيخوف فى هذه القصة وبتألق آسر من تصوير سحر المنطقة وما يشوب هذا السحر من شوائب طفيفة - المناظر الطبيعية فى الجنوب ، الطرق المغبرّة ، المطاعم على طول الشاطىء الذى يتنزه عليه المشاة ،ضوء القمر، تمتمة البحر الرقيقة - كما يراها العاشقان فى مخيلتهما . وهو يروى قصتهما بنبرة عفوية ولكنها لاترحم بحيث تساهم التفاصيل الدقيقة ، مهما قلّ شأنها ، فى تكوين النغمة الكلية الخافتة المتناغمة . والخاتمة هى نفسها التى يختتم بها العديد من قصصه ومسرحياته فى مرحلة النضج : الحل يبدو وكأنه آت فى وقت ليس بالبعيد . وبعد ذلك ستبدأ حياة جديدة رائعة . غير أنهما كليهما يدركان أن النهاية ماتزال بعيدة ، وأن الجانب الأصعب والأكثر مشقة إنما يبدأ الآن .

كان تجاوب جوركى مع القصة شديد الحماس ، فقد كتب له فى أوائل كانون الثانى / يناير ١٩٠٠ يقول : « أتدرك ما أنت فاعل ؟ إنك تمحق الواقعية وتسحقها ، وستنجح فى ذلك وبشكل نهائى وإلى الابد !! فالواقعية أسلوب عفا عليه الزمن ، فعلاً ، وليس هناك من يستطيع أن يمضى فى شعابها إلى أبعد مما مضيت أنت ، كما أنه ليس هناك من يستطيع أن يكتب بهذه السهولة حول الأمور البسيطة كما فعلت أنت . فبعد قصصك التى تتناول أقل الأمور أهمية يبدو كل شى آخر خشناً

غليظاً وكأنه كتب بجـذع شجرة بدلاً من القلم . والأهم من ذلك أن كل شيء يتوقف عن أن يبـدو بسيطاً ، أو بعبارة أخـرى صادقاً . إنك تؤدى خدمة كبرى بقصصك القصـيرة ، إذ تحمل الناس على الشعور بالاشمئزاز من وجودهم الخـامل الهاجع . قصصـك إنما هى زجاجات عطر صغـيرة تغمرها سطوح صغيرة كسطـــوح الجواهر وتحـــوى عبق الحياة بكل أنماط هذا العبق ! » .

وإذا كان تشيـخوف قد استعار الكثـير من حياة الآخرين لأعـماله فإن قصـة « صاحبة الكلب » تبـيّن أنه قادر على الاستـعارة من تجـــاربه هو نفســه . أفلا يمكننا القول بأنه إنما يفكر بنـفسه حين يقول : « كـان يبدو للنساء دوماً إنساناً آخر غير ما هو عليه بالفعل . إنهن يعشقن فيه شخصاً تبتدعه مخـيلاتهن بدلاً من شخصيته هو نفسه ، شـخصاً طالما سعين إليه بشوق طوال حـياتهن إنهن يمضين فى حبـهن له ، حتى بعد أن يكتـشفن خطأهن . لم يَسـعد أياً منهـن ، وكان الوقت يمضى وهو يتـابع الالتقـاء بالنسـاء ويخـوض المغامرات العـاطفية معـهن كما يخـوض آلام الفراق ، ولكنه لم يحب على الإطلاق ، فمهما سمـيت ما يفعل فإنه لم يكن حباً على الأطلاق . أما الآن ، وبعـد أن ابيضّ شعره فـقد وقع فـــى الحب فعلاً - ولأول مرة فى حياته » .

قضيــة تشيخوف كـانت بالطبع أقل وضوحاً من قضـية بطله جوروف فأحلام اليقظة الحزينة التى كانت تسـيطر عليه حول ايقاع أولجا فى حبائل حبـه ربما كانت تعـود فى الكثير مـن جوانبهـا إلى ذلك الحنين النابع من الوحدة والملل ، كما تعود إلى الحب . ولقد كتب لها تشيخوف من يالطا يقول : (لقد اعتدت عليك . افتـقدك ولا أكاد أتقبل فكرة تحمّل فراقك

حتى الربيع » وبعد شهر واحد يقول : « أكاد أحسد الفأر الذى يعيش تحت خشبة مسرحك » وبتتابع فراقهما بدأ صبره ينفذ ورسائله تتتابع . وفى ٨ كانون الأول / ديسمبر كتب لها يقول : المثلة العزيزة والمرأة الساحرة ، لقد توقفت عن الكتابة لك لأننى بدأت العمل ، ولا أريد أن أسمح لنفسى بالتشتت » .

غير أنه كان يتطلع لرؤيتها ، ولو لمتعة الحديث والتأمل فقط . كانت معاناته شديدة لبعده عن أصدقائه من الكتُاب والمحررين ، وعن المسرح . وقد كتب لماريا ، التى كانت على رأس من يبثهم خفايا نفسه ، متحدثاً بصراحة عن شعوره بخيبة الأمل والوحدة ، وعن إحساسه بأنه يعيش منفياً ، حيث يقول : « الثلج يغطى الجبال ، والريح الباردة تعصف ، ولا يعيش فى القرم إلا غبى فى هذه الايام . تكتبين لى عن المسرح والأوساط الأدبية وكل الأمور المغرية ، وكأنك تتعمدين إثارتى . كأنك لاتعرفين مدى مايشعر به الإنسان من ملل وضيق حين يأوى إلى فراشه فى التاسعة وهو يشتعل غضباً لأنه يدرك أنه لايجد مكاناً يذهب إليه ، أو شخصاً آخر يتحدث إليه ، أو شيئاً يسعى من أجله ، لأنه مهما فعل فلن يرى أو يسمع النتائج المترتبة على مايفعل . إننى والبيانو قطعتان بارعتان ، قضى حياتنا بصمت وكلانا يتساءل : لِمَ وُضعنا هنا إن لم يكن هناك إن من يمكنه أن يداعب أوتارنا ؟ » .

ولكن تشيخوف ، شأنه دائماً ، لم يكن ليدع وضعه الشخصى يحجب عنه آلام الآخرين . فالوضع المحزن الذى كان يشهده لدى ضحايا مرض السل الفقراء الذين كانوا يتقاطرون على يالطا للعلاج (أى ، حسب تعبيره : « ترميهم روسياً هناك تخلصاً منهم ») كان يذكره باستمرار بعزمه على إنشاء مصح لهؤلاء المرضى . ولقد كتب لصحفى

من تاجنروج هو ابرام تراخوفسكى يقول : « المسلولون يعذبوننى ، إذ يلجأون إلى طلباً للعون ، ولست أدرى ماذا يمكننى أن أفعل لهم . لقد صغت نداء ونحن نحاول الحصول على تبرعات ، وإذا لم نجمع شيئاً فليس أمامى إلا أن أهرب من يالطا . ولقد أرسلت النداء إلى جوركى أيضاً » . ويضيف : « من المؤلم أن ترى وجوههم وهم يستجدون ، وبطانياتهم المحزنة وهم يموتون » . وبعد مرور وقت ليس بالطويل استطاع جمع ماتمكّنه من تجميع حوالى ثلاثين مريضاً فى نزل صغير للاستشفاء ، وإن كان هذا لم يرضه على الإطلاق نظراً لأنه كان يتوخى الكمال دائماً فى كل أمور الحياة ، كما يفعل فى كتاباته . وقد تمكن فى النهاية ، وبعد مرور عامين ، من جمع أربعين ألف روبل بحيث استطاع انشاء مصح فعلى . والنقطة المظلمة فى الحملة كانت رفض جهات « تقدمية » معينة المساهمة فى المشروع بدعوى أن هذا المشروع من الطموح بحيث لايتوقع له النجاح .

المفارقة أن تشيخوف نفسه لم يكن يفكر بدخول المصح على الإطلاق . كان يتقبل خطورة مرضه ، ولكنه لايتقبل قط فكرة انتظار الموت وهو محتجز فى محجز صحى ، بل يفضل أن يعيش حياته بكليتها حتى ولو كانت قصيرة . كان يؤمن بالتداوى لمرضاه ، ويرفضه حين تكون صحته هو نفسه فى كفة الميزان * .

وحتى تقلبات موضوع المصح لم تستطع أن تملأ الفراغ الذى كان يشعر تشيخوف به فى يالطا . ولقد كتب لممثل شاب هو فزيفولود مايرهولد يقول : « الطقس هنا رائع ودافىء . غير أن هذا مجرد مرق ، وما نفع

* مازال هذا المصح يعمل حتى الآن ويحمل اسم تشيخوف حالياً .

المرق دون لحم ؟ » . والشيء الوحيد الذى كان يساعده على الاحتمال هو إنتاج مسرحية « الخال فانيا » التى كان من المقرر لها أن تعرض فى الخريف .

كانت الخال فانيا » وهى صياغة جديدة لمسرحية « شيطان الغابة » ، قد لاقت نجاحاً لابأس به فى الأقاليم ، ولكن تشيخوف كان يتخوف من السماح بعرضها فى موسكو أو بطرسبرج . ولم يستسلم إلا حين اتصل به أقدم وأفخم مسرح فى موسكو ، وهو مسرح مالى ، معرباً عن اهتمامه بإنتاجها . غير أن المجلس الأدبى للمسرح مالبث أن طلب إجراء تعديلات أساسية فيها بعد قراءة النص . فقد شعر المجلس أن فكرة إقدام شخص مثقف متنور ، مثل الخال فانيا ، على إطلاق نار مسدسه بحكم سيطرة ثورة من الغضب ، على أستاذ جامعى ، هى أمر غير قابل للتصديق ، إن لم يكن أمراً مشيناً قد يثير حساسية الطبقة المثقفة ، وبعد أن ضحك تشيخوف ملء شدقيه لهذا الرأى سحب النص وسلمه لمسرح الفن .

وكان قد حضر خلال وجوده فى موسكو آخر مرة عدة تدريبات للمسرحية فى مسرح الفن مبدياً من التيقظ والتصميم ما أثار الدهشة بحكم ميله المعتاد للبعد عن الأضواء . وأى سوء فهم ، أيا كان طفيفاً لنص المسرحية ، وأى محاولة لخلق تأثير متكلف مهما كان بسيطاً إنما كان يجرحه فى الصميم ، بحيث أنه لم يكن ليتردد أبداً فى إبداء رأيه للمخرج والممثلين .ونظراً لأنه كان يركز رقابته على الممثلات بشكل خاص ضمن المجموعة فقد أطلقوا عليه اسم « مفتش الممثلات » .

بعد عودته إلى يالطا كان ينتظر أخبار إنتاج المسرحية بقلق . كتبت له أولجا التى كانت تمثل دور « يلينا » فى المسرحية طالبة إيضاحات حول الأبعاد النفسية لهذه الشخصية . وقد أجابها بأن ستانيسلافسكى مخطئ فى افتراضه بأن الدكتور استروف يحبها حباً عنيفاً . فما يجذبه هو جمالها

ولكنه يدرك بأنه لن يصل معها إلى نتيجة . وفى الفصل الأخير يتحدث إليها وكأنما « يتحدث عن الحر فى أفريقيا » ويقبّلها لا لسبب محدد ، بل لأنه لايجد ما يفعله أفضل من ذلك . وأضاف إلى ذلك قول : « كم أتوق للتوجه إلى موسكو يا ممثلتى العزيزة ! ولكن رأسك يدور دون شك وأحلامك فسدت وأصابك الدوار ، ولن يكون لديك متسع من الوقت لى » .

حدثت حفلة الإفتتاح فى ٢٦ تشرين الأول / أكتوبر ١٨٩٩ ، وبيعت التذاكر كلها مسبقاً . وفى الليلة التالية ، وبعد أن آوى تشيخوف إلى فراشه بدأ بريد يالطا بالاتصال به هاتفياً لينقل له نصوص البرقيات حال وصولها : « كنت أصحو فى كل مرة وأركض إلى الهاتف فى الظلام حافى القدمين وأنا أكاد أتجمد . وما أكاد أغرق فى النوم من جديد حتى يبدأ الهاتف يرن ثانية . إنها المرة الأولى التى تمنع فيها شهرتى عنى النوم ! » .

كل البرقيات كانت تشير إلى نجاح واضح ، تصفيق مطوّل ، مطالبة الجمهور بعودة الممثلين من جديد إلى خشبة المسرح . . . غير أن تشيخوف ، بحكم حاسته السادسة التى أرتقت بحكم أحداث الماضى ، أحس بنبرة انزعاج واستياء مغلفة . والمزيج المدروس من المديح والنقد فى الكتابات الصحفية أكد شكوكه هذه. ولكن بمرور الوقت تحسنت نوعية الأداء وحققت المسرحية نجاحاً مدوياً .

فى « الخال فانيا » يعود تشيخوف لمعالجة مواضيع مألوفة - انسحاق الروح وتمزقها بحكم روتين الحياة اليومية ، عبء الحياة الخاملة فى الريف على أبناء الطبقة الأرستقراطية والفشل المحتم للتطلعات المثالية - غير أنه يركز بشكل أساسى على ذلك التضاد بين الأنانيين وأولئك الذى يجهدون

لمساعدة غيرهم من الناس . ويمثل القطاع الأول الشخصية الباهتة المغرورة وهو البروفسور سيبرياكوف بالإضافة إلى زوجته يلينا الشابة الجميلة ، بينما يمثل القطاع الثانى الخال فانيا وابنة أخته سونيا التى تتميز برقة قلبها وكلاهما يديران المزرعة التى ورثتها سونيا عن أمها ، زوجة سيبرياكوف الأولى - كما يمثل هذا القطاع الثانى أيضاً الدكتور أستروف الذى كان يوماً ذا أفكار مثالية .

يدرك الخال فانيا ، الذى أفنى حياته كلها لمصلحة البروفسور سيبرياكوف ، يدرك فى نهاية المطاف بأن « البروفسور النابغة » ليس فى حقيقة أمره إلا شخصية عديمة الأهمية يؤطرها إطار مذهّب ، ومجرد طفيلى متفاخر ، وحين يقترح سيبرياكوف بيع المزرعة واستثمار أموالها ، ينفّس فانيا عن كراهيته وشعوره باليأس بإطلاق رصاص مسدسه على سيبرياكوف دون أن يصيبه . ولكن هذا الحدث لم يسفر عن نتائج ظاهرة . وأحلام الحب التى يتغنى بها أبطال المسرحية - حب فانيا واستروف ليلينا وحب سونيا لاستروف - تتبخر كلها فى الهواء . وبعد مصالحة غريبة يعود سيبرياكوف ويلينا إلى بطرسبرج بينما يبقى فانيا وسونيا فى المزرعة ليتابعا عملهما الذى لا يكل ولا يمل من أجل رفاهية وشهرة « السيد البروفسور » .

وهكذا تنتصر التفاهة والضآلة مرة أخرى على الشهامة ، والهزيمة هى نصيب كل من يحمل لواء الدفاع عن قضية ما . وأكثر هؤلاء شفافية ، وهو الدكتور استروف ، يمضى فى علاج مرضاه على الرغم من اهتزاز ثقته حتى بمهنته ، فى حين يدرك الخال فانيا بحساسيته الشديدة « أن الدمار لم يلحق بماضيه فحسب ، بل بمستقبله أيضاً بفعل إحساسه الضال بالمسئولية العائلية » . أما يلينا فقد أصبحت تعتبر نفسها شخصية مهلهلة عارضة فى حين يشكو سيبرياكوف المتألق ، وهو المسؤول عن كل مايحدث ، يشكو من تقدمه فى السن ويتهم زوجته بأنها تجده مثيراً

للاشمئزاز ، أما سونيا المتوهجة فينتهي بها الأمر بتلاشي جميع أوهامها وتستمر بحياتها المرهقة الكادحة . وسونيا هذه يخصها تشيخوف بالسطور الأخيرة من مسرحيته حيث تقول : « لم تعرف السعادة في أي يوم من أيامك ياخال فانيا ، ولكن انتظر ... انتظر ... سنستريح ... سنستريح » فالاستسلام هو أفضل دفاع تلجأ إليه شخصيات تشيخوف الهشة في مواجهة ضربات القدر . وهي تدرك منذ البداية بأنها مسحوقة لامحالة ، بل إنها ربما تتوق في لاوعيها إلى تقديم تضحية متواضعة . طمأنينة الضجر .

وحين اشتكى نيميروفيتش - داشينكو بعد أسابيع من ليلة الافتتاح من الإرهاق في العمل وأبلغ تشيخوف بأنه ينوي الاستقالة من وظيفته التنفيذية في مسرح الفن ، أجابه تشيخوف بحماس ، وهو يدرك أهمية الدور الذي لعبه في إنجاح مثل هذه المسرحية الصعبة : « لاترهق نفسك ولاتدع همتك تفتر ولا تسمح لحماسك بأن يتلاشى لهذا المسرح فهو مصدر لكبريائك ، وهو المسرح الوحيد الذي أكنّ له الحب على الرغم من أنني لم أرتده قط . لو أنني أعيش في موسكو لحاولت الانضمام إلى العاملين فيه ، حتى ولو بوظيفة حارس بحيث أستطيع أن أقدم لك يد العون ، مهما كان هذا العون ضئيلاً ، أحميك من فتور الهمة والحماس لهذا المسرح العزيز على نفوسنا جميعاً » .

وبحلول أواخر كانون الثاني / يناير كان جوركي قد حضر « الخال فانيا » مرتين وكتب لتشيخوف عقب رؤيتها للمرة الثانية يقول : « رأيت

الخال فانيا ثانية ، ومرة أخرى سأحجز مقعداً وأتجشم عناء السفر ثانية لأراها . لست أعتبرها درة ، ولكنى أرى فيها محتوى أكبر مما يرى الآخرون . فالمحتوى غنى ومليء بالرموز ، والشكل يعطيها طابعاً أصيلاً كل الأصالة ولامثيل له » وبعد شهادات عديدة مماثلة تأكد لتشيخوف بأن مسرحيته ستعيش فترة طويلة وتحقق نجاحاً متألقاً .

وما لبث تولستوى أن أدلى برأيه ، إذ سأل الممثل ألكسندر سانينين وهو يتواثب من شدة الغضب : « أين النواحى الدرامية فيها ، وأين تتجسد هذه الدراما ؟ لست أرى فيها مايفضى بنا إلى أى شىء » . وقد حاول نيميروفيتش - داشينكو الدفاع عن المؤلف ، إلا أن تولستوى أجاب باقتضاب بأن الخال فانيا تفتقر إلى كل ما يمكن ان يمت بأى صلة للتراجيديا ، وأنها تستعيض عن التراجيديا بأصوات العزف على الجيتار وأصوات صرصار الليل . وحين تناهى لتشيخوف رأى تولستوى هذا اكتفى بابتسامة واسعة . وفيما بعد قال للكاتب بيوتر جنديش بعد أن ذكر بأن المعلم العجوز لايطيق مسرحياته : « إن ما يعزينى على أية حال هو أن تولستوى قال لى مرة : إننى أشمئز من شكسبير كما تعرف ، ومسرحياتك أسوأ من مسرحياته » . وأطلق تشيخوف ضحكة مجلجلة بحيث أن نظارته سقطت من فوق أنفه كما يزعم جنديش .

إلا أن تنديد تولستوى الدكتاتورى بالخال فانيا وانتقاداته لها ووصمه إياها بأنها تتسم بالتراخى الأخلاقى لم يمنع تشيخوف من الترحيب برواية

« البعث » لدى صدورها فى ذلك الشتاء ووصفه لها بأنها حدث أدبى بارز ، ولكنه أبدى بعض التحفظات حول هذه الرواية إذ كتب لجوركى يقول : « كل شىء فى الرواية ، كل ما فيها فيما عدا العلاقة الغامضة المفتعلة بين « نوخليودوف » و « ماسلوفا » يبعث فى نفسى الدهشة لهذه القوة والغنى والاتساع وعدم الصدق الذى يتصف به . إنسان يخشى الموت ، ولكنه يرفض الاعتراف بهذه الحقيقة ، ولذا يتمسك بنصوص الكتاب المقدس » .

ولكنه حين علم بأن تولستوى قد وقع صريع مرض خطير انزعج انزعاجاً شديداً وكان أحد أقرب أقربائه فى حالة حرجة ، وكتب للصحفى المعروف ميخائيل منشيكو يقول : « إننى أخشى وفاة تولستوى لأن موته سيترك فراغاً هائلاً فى حياتى . فلقد أحببته كإنسان كما لم أحب إنساناً آخر . وعلى الرغم من أننى لست مؤمناً إلا أننى أعتبر معتقداته أقرب المعتقدات إلى نفسى وأكثرها ملاءمة لى . ثم إنه حين يكون لدى عالم الأدب شخصية مثل تولستوى ، فإن كونك كاتباً يبقى أمراً سهلاً وباعثاً على السرور . وحتى لو كنت لم تنجز شيئاً ، ولن تنجز شيئاً على الإطلاق فإنك لن تشعر بالانزعاج الكلى لأنك تعرف بأن تولستوى ينجز ما يكفى نيابة عن الجميع . فنشاطاته تبرر كل الآمال والطموحات التى

يعلقهـا الناس على الأدب . كمـا أن تولستـوى ثالثاً يقف فوقنـا جميـعاً وسلطته هائلة ، وطالما هو على قيد الحـياة ، فإن كل ما هو اسيىء الذوق فى الأدب ، وكل مـاهو سوقى فى الأنماط التى تنحـو نحو الـصفـاقة أو التباكى ، وكل التفاهات المغرورة التى تتسم بالعـدوانية والحقد ستبقى فى الظل ، بعيدة عن الأضواء . سلطته المعنوية وحدها كافية للحفاظ على ما تعارفنا على تسميته بالاتجاهات والمدارس الأدبيـة وإبقائها ضمن مستوياتها الدنيا . بدونه سيكون الأدب قطيعاً لا راعى يقوده ، أو مجموعة مختلفة غير منجانسة لايمكن سبر غورها ! » .

ومقـابل هذا التبجيل من جـانب تشيخـوف كان تولستوى يسـبغ عليه عاطفة أبوية . وعلى الرغم من رفضة لمسـرحياته إلا أنه أمتدح العديد من قصصه مقارناً تشيخوف بموباسان* ولقد قال فى إحـدى المناسبات : « كل شيء حقيقى لدى تشيخوف إلـى درجة تصل إلى حدود الإبهام . قصصه تعطى الانطباع بأنها عبـارة عن ستيروسكوب** ، فهـو ينثر كلمـاته فى فوضى ظاهـرية ، ولكنه شأن رسام انطـباعى ، يتمكن من الـتوصل إلى نتائج رائعة بلمساته الصغيرة » .

* كاتب القصة القصيرة الفرنسى المعروف .

** للمجسام ، وهو أداة بصرية تبدى الصور للعين مجسمة .

وفى ١٦ كانون الثانى / يناير ١٩٠٠ علم تشيخوف بأنه وتولستوى وكورولينكو وسبعة من الكتّاب والعلماء أختيروا لعضوية أكاديمية العلوم بعد أن قررت الحكومة إنشاء قسم بوشكين للغة والأدب الروسى فى هذه الأكاديمية . وقد انهالت برقيات التهنئة على تشيخوف ، وأقرّ مجلس تاجنروج البلدى تخصيص منحتين باسم تشيخوف . أما هو فقد اعتبر الأمر مضحكاً برمته ، وإن كان يسعده أن يتم اختياره جنباً إلى جنب مع أكاديميين من وزن تولستوى ، ويدأ يوقع رسائله إلى أفراد العائلة ساخراً بتوقيع : « شقيقك الأكاديمى المرموق أ . تشيخوف » أو « تشيخوف الأكاديمى » . كما كتب لأخته بأن خادم الأسرة العجوز ظنّه ترقّع إلى رتبة جنرال بحيث أخذ يطلب من جميع الزوار أن يخاطبوا مخدومه بلقب « سعادتكم ! » . والنقطة الوحيدة التى وجدها مفيدة فى هذا الامتياز الجديد هى أنها تمنحه الوضعية القانونية « للحصانة الأكاديمية » ، بالإضافة لمنحه جواز سفر خاص يجنبه الإزعاجات التى يتعرض لها فى الجمارك . ولكنه كتب لمنشيخوف يقول : « سأكون سعيداً حين يتم إسقاط هذا اللقب الممنوح لىّ بعد أى نوع من سوء « التفاهم » .

وبازدياد شهرته كان ضيقه بمنفاه فى يالطا يزداد حدة . وقد كتب لجوركى يقول : « الكسل ، وفصل الشتاء الذى تصل فيه درجة الحرارة إلى مستوى التجمد ، وعدم وجود النساء الجميلات ، وأولئك الخنازير ذوى الخراطيم الضخمة والذين أراهم يتمشون على طول الكورنيش ، كل هذه أمور تنهك الإنسان وتسلبه بريقه بسرعة هائلة . إننى منهك ، وأشعر وكأنما فصل الشتاء مستمر منذ عشر سنوات » . وكان جوركى قد كتب له قبل شهر يقول : « يقال إنك ستتزوج من ممثلة ذات اسم أجنبى . لست أصدق ذلك ، وإن كان يسرّنى أن يحصل » .

التزم تشيخوف الصمت إزاء هذا الموضوع . فقد كانت الشائعات ترشحه للزواج مرة بعد مرة طوال خمس عشرة سنة ، وإن كانت هذه الشائعات أكثر قابلية للتصديق هذه المرة . فالجميع يرى أن ماريا تشيخوفا وأولجا كنايير رفيقتان لا تنفصلان ، وكانت الرسائل التى يتلقاها تشيخوف من شقيقته تفيض مديحاً بصديقتها الجديدة التى كانت تذيّل الرسائل بعبارات ودودة فى كثير من الأحيان . وكانت ماريا تبدو ذاهلة عن طبيعة العلاقة ، وترى فى تمازحهما مجرد مغامرة عاطفية عابرة . فهناك شىء واحد مؤكد ، وهو أن أنطون لن يتزوج . كما أن رسائله لأولجا كانت تتسم بشىء من الفظاظة . وحينما أعربت عن تخوفها من فكرة سفره إلى الخارج أجاب : « لِمَ تشاؤمك ؟ إنك تعيشين وتعملين وتتأملين وتشربين وتضحكين وخالك يقرأ لك ، فماذا تريدين بعد ذلك ؟ أما أنا فوضعى مختلف . فقد تقطعت جذورى ولست أعيش حياة كاملة . لست أشرب ، وإن كنت استمتع بكأس بين وقت وآخر ، أحب الضجيج ولكننى لا أسمع ضجيجاً من حولى ، أو بعبارة أخرى : « أنا شجرة مغروسة لاتدرى هل تمتد جذورها فى التربة أم تذوى وتموت ! » .

ومن باب الاسترخاء أخذ يعمل فى الحديقة محاولاً تكييف تربة أوتكا الجافة المليئة بالحصى بحيث تلائم أشجار البتولا والحور ، كما تلائم الأشجار التى اعتادت عليه مثل السرو والنخل وأشجار الأوكاليبتوس* . وقد نمت أشجار الأكاسيا المحيطة بأحد الممرات بسرعة كبيرة ، ومن بين شجيرات الورد السبعين التى كان قد زرعها فى الخريف الماضى لم تذوِ إلا

* شجر يستعمل زهره وأوراقه للأغراض الطبية .

ثلاث شجرات ، وقد كتب لمنشيخوف يقول بفخر : « لو لم أكن كاتباً لأصبحت بستانياً فيما أعتقد » . وحين ماتت كلابه الألمانية التى أحضرها من ميليخوفو استبدلها بكلبين مهجنين كانا يتبعانه أينما اتجه . وكان الكلب الذى أطلق عليه اسم « الكستناء » كلباً أخرق ، بينما كان الكلب الآخر ، وهو الكلب النحاسى الذى أطلق عليه اسم « الأصّ الصغير » ، يطلق نباحاً فظاً لدى أقل تحرش به . كما كان يقتفى خطاه باستمرار أيضاً طيّران من طيور الكركى استوطنا الحديقة ، فيتبعاته أينما اتجه وهو يقلّم أشجار الورد . أما آرسنى ، وهو العامل الذى يساعد تشيخوف فى شؤونه المختلفة ، فإن الطائرين يحاصرانه وهما يتطاولان على ساقيهما الطويلة النحيلة حال عودته من قضاء بعض الحاجات فى المدينة ، فاتحين منقاريهما وهما يصدران أصوات صراخ حادة . كان تشيخوف مغرماً بجميع أنواع الحيوانات باستثناء القطط التى كان يشعر إزاءها بمزيج من الاشمئزاز والخوف . وكما كان يفعل فى ميليخوفو ، فقد كان يطلق سراح الفئران التى يجدها فى مصائده بعد أن يحملها إلى المقبرة التترية المجاورة لمسكنه .

لم تعد الأمور المالية تقلقه كثيراً بعد أن أصبح يتلقى الدفعات المقدمة التى يرسلها له ماركس طبقاً للعقد الموقع بينهما لطبع أعماله الكاملة ، إضافة للعائدات التى يتلقاها من مسرحياته والتى تصل إلى مبالغ لا بأس بها . ولقد أودع مبلغ خمسة آلاف روبل فى حساب باسم ماريا ، واشترى بيتاً من ثلاث غرف على ساحل البحر فى جورزوف التى تبعد مسافة عشرين كيلومتراً عن يالطا ، معتمداً من جديد على حدسه الغريزى فيما يتعلق بالأملاك . وقد حاول تبرير حماقته هذه بالادعاء بأن بإمكان

العائلة استعمال هذا البيت لقضاء الإجازات . وقد وافقته ماريا على فعلته هذه المرة ، مضيفة بنوع من المشاغبة بأن أولجا كناير موافقة كذلك .

وباقتـراب الربيع أخذ تشيـخوف يفتقـد أولجا من جديد ، وقـد تقدم باقتراح لمسرح الفن للقيام بجولة فى القرم . وبعد بعض التردد من جانب ستـانيسلافـسكى وافق على الفكرة أخيراً ، وتقـرر شهر نيـسان / أبريل موعداً لهـا . كانت الفرقة كلها تتـوق لتبيّن لتشيـخوف ماذا يمكنهـا أن تفعل ، آملة أن تشجعه بذلك على كتابة مـسرحية أخرى . « إننى سعيد ... سعـيد أنا بالذات لأننـى سأراكم جمـيعـاً مع الديكورات والملابس والإضاءة . كل هذا إنما يمثل بالنسبة لى حلماً لم أكن لأجرؤ حتى إلى ما قبل أيام قليلة ، على التـفكير بأنه سيتحـقق بالفعل ، بل إننى أفزع الآن كلما دق جرس الهاتف ، خشيـة أن يتم إبلاغى ببرقية من موسكو معلنة أن الجولة قد ألغيت » .

قبل أيام من موعد وصـول فرقة مسرح الفن إلى سيباسـتيبول وصلت كل من مـاريا وأولجا إلى يالطا . غـير أن غبطـته برؤية أولجا مـن جديد أظلمتـها جموع الأصـدقاء الذين كانو يتوافـدون ، ونوبة النزف الشديدة التى انتابته وألزمـته غرفته . وعلى الرغم من أن حـالته أقلقت أولجا إلى أنها اضطرت للرحيل للقاء الفرقة . وفى ٩ نيسان / أبريل كان تشيخوف قد تماثل للشفـاء بحيث استطاع أن يركب السفينـة إلى سيباستيـبول حيث وصلها فى اليوم التـالى ودلائل التعب والشحوب بادية عليـه ، والسعال الجاف يدمّر جسده . وحين سئل عن صحته أجـاب بابتسامه مغتصـبة : « ممتازة ... وضعى حسن » .

حضر فى تلك الليلة وهو ينزوى فى مقصورة المخـرج عرضا مسرحياً للخال فانيا أدته فرقة لم يشهد أداءها أمام الجمهور من قبل . كانَ العرض ناجحـاً كل النجاح ، وأخـذ الجمـهور يصفق ويحـيى مطالباً بظـــــهور الكاتب . وحين وقف على خـشبـة المسرح ، كانت ركـبتـاه متهـالكتين وغمامة تكسو النظارة التى يضعها على عـينيه ، ولكنه كان سعيداً وراضياً عن أداء جميع الممثلين ، خاصة أولجا .

بعد يومين حضر عرض مسـرح الفن لمسرحية أبسن « هيدا جابلر » ، وحين سأله الممـثلون عن رأيه قال : « أبسن ليـس فى حقيـقته كـاتبـــاً مسرحياً » . ومـا لبث أن رحل فى اليوم التالى إلى يالطا حيث أن المرض والإرهاق العاطفى لما مرّ به من أحداث أعجـزاه ، فلم يستطع البقاء حتى لحضور عرض « طائر النورس » .

حين وصل مسرح الفن إلى يالطا فى اليـوم التالى استقبله جـمع غفير من محبى المسرح على رصيف الميناء ، على الرغم مـن العاصفة الهوجاء التى حـدثت فى ذلك اليوم . ووسط تلك العـاصفـة الشديدة جـرى كل ذلك الهـرج والمرج والصراخ والتـدافع والتزاحم بالمناكب والفـرقة تعـمل على إنزال عفشها عن ظهر المركب ، وفى نفس الوقت كان الجميع يتبادل التـهانى وباقـات الورد قـبل بدء العروض الفـعليـة . وفى اليوم التـالى توجهت الفرقة إلى أوتكا ، بعضهم مـشياً على الأقدام ، والبعض الآخر في العربات لحضور حفلة أقامها تشـيخوف على شرفهم وقد حضر الحفلة جمع من الكتاب والفنانين والموسيقـيين مثل مكسيم جوركى .وأيفان بنين والكسندر كوبرين وسيرجى رحمانينوف ، بعد أن جاءوا جميعاً إلى يالطا ليشهدوا عروض مسرح الفن . تجمعوا فى حلقات حول موائد الشاى وفى غرفة المكتب وعلى الشرفة وفى الحـديقة ، وكان بنين يسلّى الحلقة المحيطة

به بقصص حول الريف الروسى ، وجوركى يلقى خطباً رنانة حول وجهات نظره السياسية . أما أولجا وماريا فكانتا تطوفان بين الضيوف وهما تحملان صوانى المرطبات بينما يتودد تشيخوف لكل ضيف من ضيوفه بكلماته الرقيقة .

أخذ الممثلون فور وصولهم يحجّون يومياً إلى بيت « مؤلفهم » لتناول طعام الغذاء أو الشاى . وكانت الأحاديث على المائدة تتراوح بين الأحاديث الجادة والضحك الصاخب . وقد شعروا بالقرب من تشيخوف بحيث أنهم أخذوا يرسمون الخطط للعودة إلى يالطا كل سنة ، بل وحتى حول بناء « سكن » جماعى لهم جميعاً هناك .

افتتحت الفرقة عروضها بمسرحية « الخال فانيا » ، وكان جلّ الجمهور من الأثرياء الذين يأتون لقضاء إجازاتهم ، بالإضافة لخليط من المعلمين والموظفين المحليين ومرضى السل . وقد طلبت يفجينيا ياكوفليفيا التى لم تحضر مسرحية لابنها من قبل أن تكون من بين الحضور ، ونبشت صندوقها لتجد فستاناً من الحرير الأسود اللامع ترتديه فى هذه المناسبة . وكان تشيخوف يتساءل طوال عرض المسرحية عما يمكن أن يكون رأيها فيما ترى ، خصوصاً وأنها إنسانة بسيطة لم تعتد ارتياد المسرح من قبل . وزاد الطين بلة أن فرقة المدينة كانت تعزف ألحانها فى حديقة مجاورة ، وموسيقى البولكا تتناهى إلى قاعة المسرح فى أحرج لحظات العرض . ومع ذلك فقد نجحت المسرحية نجاحاً باهراً ، ووقف الجمهور مصفقاً للكاتب . وكان الحماس أشد وأكثر رنيناً لدى عرض « طائر النورس » بعد أسبوع واحد . وبعد إعادة فتح الستارة مرة بعد مرة سلمت لتشيخوف رسالة تهنئة وقعها أكثر من مئتين من المهنئين .

دعت إحدى الثريات المعجبات بمسرح الفن أعضاء الفرقة جميعاً لحفل غداء وداعى أقيم على سطح قصرها . وفى ذلك الحفل تبادل الحضور الهدايا ، فقدم الممثلون لتشيخوف المقعد والأرجوحة اللذين استعملا فى عرض الخال فانيا ، بينما قدم تشيخوف لكل واحد من الممثلين وأعضاء الفرقة سلسلة ذهبية تحمل صورة صغيرة له واسم « طائر النورس » . وقد كتب لنيميروفيتش - داشينكو على ظهر الصورة المهداة له ملاحظة تقول : « لقد بعثت الحياة فى طائر النورس . . . شكراً لك » .

وما أن غادرت فرقة مسرح الفن حتى عادت يالطا إلى حياتها الخاملة الناعسة من جديد ، وبدا الهدوء التام غير محتمل بعد كل ذلك الضجيج . وفى مطلع آيار / مايو ، وما أن أصبح بإمكان تشيخوف أن يغادر حتى أسرع إلى موسكو ليزور ليفيتان الذى كان على فراش الموت فيما علم . وقد رأى أولجا أيضاً ، غير أنه كان عليها أن تقضى جلّ وقتها فى التدريبات ولذا غادر عائداً إلى يالطا بعد عشرة أيام فقط من وصوله . وفور عودته كتب إليها يقول : « تحياتى أيتها الممثلة العزيزة الساحرة . كيف أنت وكيف تشعرين ؟ مررت بفترة عصيبة فى طريق عودتى . كنت أعانى من الصداع والحمى حين كنت في موسكو ، ولكننى كتمت الأمر عنك . آسف . أما الآن فأنا على مايرام » .

كان بالفعل على مايرام بحيث أنه قرر التوجه فى رحلة سياحية لمدة أسبوعين فى القوقاز مع جوركى وبعض الأصدقاء الآخرين . سافروا عبر الطريق العسكرى الجيورجى المعروف ، وتجولوا فى عدد من الأديرة وتوقفوا في تفليس . وفى القطار الذى توجهوا فيه من تفليس إلى باطوم التقى تشيخوف بالصدفة بأولجا التى كانت تقضى فترة راحة قصيرة فى المنطقة مع أمها . وقد طار فرحاً لقضاء ست ساعات معها ، وقبل أن

يفرّق بينهما تبديل القطارات أتفقا على اللقاء فى يالطا فى مطـلع تموز / يوليو .

فى تلك المرة ، أقامت مع آل تشيخوف منذ وصـولها . وبعد صداقة وتراسل استمرا سنتين ، كانت هذه هى المرة الأولى التى يقـيما فيها تحت سقف واحد ، وكان سحر أولجا ، بشبابها وروحها ونزواتها ، أكثر تأثيراً عليه عن قـرب . ظل فترة مـن الزمن متمـسكاً بأسلوبه المألوف فى الكرّ والفرّ بحيث كان يصعب عليهـا أن تتنبأ بخطوته التالية . ولكن مالبث أن تخلّى عن حيله الغزليـة وأدركت بكبرياء أنها حققت النصـر ، فقد تحوّل الغزل إلى حب وأصبحت عشيقته فى النهاية .

كانا يلتقـيان سراً كل ليلة ، حيث ترتدى أولجـا ثوبها الأبيض الطويل الذى كان تشيخوف مغرماً به ، إذ يظهر شعرها الفاحم المتموج ، وتدندن بأغنية جلينكا الغراميـة التى تقول : « لاتغوينى دون جدوى » . وبعد أن يتبادلا الحب يتـهامسان وأيديهما تـعانق بعضها بعضـاً ، وتعود أولجا من عليائهـا إلى الواقع فتحضّر بعض الـقهوة والخبز والزبدة ويسـتمتعـان معاً بوجبة شهية وكأنهما فى الخامسة من عمرهما .

على الرغم من كل السرية التـى كانا يحيطان علاقـتهما بهـا شأن كل العشـاق ، إلا أن ماريا ويفـجينيا ياكـوفليفيـا أدركتـا بسرعة مـايجرى . فامتناعه عن رؤية الزوار ، وإهماله لمكتبه كانا يكفيان فى حد ذاتهما لإثارة الشكوك . غير أن انطون بـــدا سعيداً بحـيث أن ماريا شعرت بالتعاطف معه ، كما أن التجربة حملتها على الاعتقاد بأن هذا الافتتان ليس إلا أمراً عابراً ، ولن يؤدى إلى نتائج أكثر جدية .

الخبر الوحيد الذى ألقى بظلاله على مشـاعر تشيخوف فى تلك الفترة من النشاط والحـيوية هو خبـر وفاة ليفـيتان الذى تلـــقاه فى ٢٢ تموز /

يوليو . وتلا ذلك حادث مضحك مـؤسف ، وهو وصول البطلة الجميلة لطائر النورس فى إخراجها السابق ، فيرا كوميسارسفسكايا فى الوقت غير المناسب . كانت هذه قـد بلغت قمة مـجدها ، وكانت تقـوم بجولة فى جنوب روسيا ، ووافق تشيخـوف على رؤيتها فى جورزوف فى ٣ آب / أغسطس . أخذت فيرا وهما يتمشيان على شاطىء البحر تردد مناجاة نينا لنفسـها فى « طائر النورس » ، كمـا تردد بصوتها الرقـيق المنساب بعض قصائد بوشكين . وحين اسـتأذنته فى البقاء يوماً آخر اشـتعل غيظه ، إذ كان كل اهتمـامه منصباً على العـودة إلى محبوبتـه أولجا . وما لبث أن هرب فى اليـوم التـالى تاركـاً صورته وقـد كـتب عليـها : « إلـى فيـرا كوميسارسفسكايا ، ٣ آب / أغسطس ، ذلك اليوم العاصف الذى زمجر فيه البحر . . . من الهادىء انطون تشيخوف . . . » .

وبما أنه كان مـن المقرر أن تبقى أولجـا يومين آخرين فـقط فى يالطا ، فقـد كانت كل سـاعة لهـا قيـمة لاتعوّض . وفى ٥ آب / أغـسطس ، توجها إلى سيبـاستيبول حيث قضيـا الليلة معاً ، وما لبث أن رافق أنطون أولجا إلى القطار المتوجه إلى موسكو . كـانا يشعران الآن بحرية لا تحدّها حدود فى التعامل مع بعضهم البعض ، وقـد تحولا إلى التخاطب بصيغة المفرد دونما رسـميات ، ويبديان عـواطفهم بصورة جلية واضـحة . ويبدا تماماً أنهما لم يعودا يتصوران الحياة دون أن يكون بينهما رباط يربطهما .

بعد ثلاثة أيام من رحيل أولجا ، كتب لها تشيخوف يقول : « عزيزتى أوليا ، تحياتى يافرحتى . عدت إلى يالطا يغمرنى الملل ويثقل علّى الفكر والانزعاج ، متخيـلاً فى كل لحظة أن ينفتح الباب لتدخلى علّى . ولكن هذا لن يحصل لأنك منهـمكة بتدريباتك ، بعـيداً عن يالطا وعنــــى . وداعاً ، ولتحـرسك ملائكة السماء . وداعـاً يا فتاتى الحبـيبة . المخلص

انطونيو » . وبعد أيام قليلة كتب لها يقول : « ممثلتى العزيزة الرائعة الهائلة . . . صحتى جيدة وأفكر بك . أحلم بك وأفتقدك . كنت فى جورزوف أمس وأول أمس ، والآن عدت إلى سجنى فى يالطا . الريح لئيمة ، والقارب لايتحرك ، وهناك حرّ شديد ، والناس يغرقون ، والمطر متمنع يرفض أن يهطل ، وكل شىء يحترق ويذوى . باختصار ، كل شىء مريع منذ أن رحلت ، وبدونك قد أشنق نفسى . أرجو أن تكونى سعيدة وصحتك حسنة يا فتاتى الألمانية الصغيرة » .

كانا يتبادلان الرسائل الغرامية كل يومين فى البداية .ولكن تشيخوف مالبث أن انشغل بمشروع جديد ، وهو « الشقيقات الثلاث » ، وكتب يقول : « أشتغل على المسرحية وإن كنت أخشى أن تكون مملة فى النهاية . سأختمها ، ولكننى لا أحبها وسأضعها على الرف . سأخفيها حتى العام القادم ، أو إلى أن أشعر بالرغبة فى العودة إليها . . . » .

ولكن الرسائل المتألقة التى كانت تأتيه من الشمال ، من أولجا ، كانت تشعل غيرته . وبعد أن تصف يوماً لاينسى فى الريف ، تقترح عليه الحضور ليمضيا الصيف المقبل معاً فى مكان مجاور ، حيث تقول له : « لايفارقنى التفكير بأنك جزء من هذه الطبيعة الروسية العريقة ، بكل اتساعها . . . بحقولها ومراعيها ووديانها السحيقة ، وأنهارها الظليلة » . ثم ما تلبث أن تنهى سردها للقاء استمر حتى الثانية صباحاً بقولها : « لست أذكر أننى ضحكت فى حياتى كما فعلت فى هذه الليلة » . أو تستعيد أحداث حفلة رقصت فيها حتى الإنهاك وهى ترتدى فستاناً ذا « ياقة مكشوفة » .

أصداء هذه الحياة التى تمتلىء شباباً وحيوية كانت تثير لدى تشيخوف مشاعر التقدم فى السن والمرض والعزلة بصورة أكثر حدة : « أخشى أن

أثير لديك خيبة الأمل ، فشعرى يتساقط بسرعة بحيث أننى سأصبح عجوزاً فى وقت قريب جداً قد لايتجاوز الأسبوع الواحد إن لم أنتبه لنفسى . . . أشعر بملل قاتل ، أتفهمين ؟ . . . قاتل . طعامى يقتصر على الحساء ، والأمسيات باردة ولذا فإننى ألزم البيت . وليس هناك فتيات جميلات ونقودى توشك على النفاد ولحيتى يخطها الشيب المتزايد . . . » .

وعلى الرغم من هذه الصورة التعسة التى يرسمها تشيخوف عن نفسه إلا أنها لم تقلص من حب أولجا له . وكانت مصممه على الزواج منه على الرغم من كل علله . بل إنها تحدثت لنيميروفيتش - داشينكو بأن الزواج موضوع « متفق عليه » ، دون أن تأخذ بعين الاعتبار مقت تشيخوف للحياة الزوجية .

لم يكن فى نيته أن يطلب يدها ، بل إنه أخذ يؤجل موعد سفره إلى موسكو . ولتبرير هذا التأخير كان يشير إلى بطء تقدمه فى كتابة « الشقيقات الثلاث » بسبب انعدام الإلهام والمرض (الحمى والسعال والزكام) . ثم هل هى تود حقاً رؤيته ؟ ألم تنسه بعد ؟ . . . « إنك ، بالمناسبة ، باردة لدرجة شنيعة كما يمكن لممثلة أن تكون . . . لاتغضبى ياحبيبتى ، مجرد ملاحظة عابرة » . وحين استمرت فى الضغط عليه لمغادرة يالطا والذهاب إليها أجابها بمرارة : « لست أرى سبباً يدعونى للذهاب إلى موسكو . ولم ذلك ؟ كى ألمحك وأعود ثانية ؟ شىء جميل . أصل ، وأشهد النشاط والحركة فى المسرح ، ثم أغادر من جديد . . . لست تكتبين لى باستمرار ، ويبدو لى وكأنك سئمت منى وأن آخرين بدأوا يخطبون ودك . . . » .

وهنا جاء دورها في الانزعاج ، فأخذت تتهمه بالقسوة وبإخفاء عواطفه الحقيقية . لِمَ يلجأ للعبة الهرب والمراوغة ؟ أليس من الأفضل والأشرف للمرء أن يعلن عن حبه أمام الجميع ؟ .

ولكنه مع ازدياد إصرارها كان يزداد تراجعاً ، ويلجأ لأى أسلوب يجنّبه الحديث عن المستقبل إن تناول صلب الموضوع . فهو يسائلها ملمحاً فى أكثر من زاوية من زوايا تأنيب الضمير : « هل أظهرت الكثير من القسوة ؟ لقد أحبك قلبى دائماً وأبدى لك كل مالديه من عواطف . لم أخف عنك شيئاً قط على الإطلاق ، ومع ذلك تصمينني بقسوة القلب ، بكل بساطة ودون أى معنى أو منطق . لهجة رسالتك توحى بإنك تتوقعين توضيحاً وتبغينه . تريدين حديثاً جدياً يفضى إلى نتائج جدية ، ولست أدرى ما يمكننى أن أقول إلا ما سبق وأن قلته عشرة آلاف مرة ، وسأكرره طويلاً من بعد ، وهو أننى أحبك ، بكل اختصار وإيجاز . فإن كنا بعيدين عن بعضنا البعض الآن ، فالذنب ليس ذنبك أو ذنبى ، بل هو الشيطان الذى غرس العصبيات فى جسمى ، وحبّ الفن فى جسمك ولتسوية هذا النزاع كتب لها فى اليوم التالى حول الشخصية التى ابتدعها لها قائلاً : « ما أروع الدور الذى رسمته لك فى الشقيقات الثلاث ، دور بديع . . . أعطنى عشرة روبلات لتضمنى حصولك عليه ، وإلا أعطيته لممثلة أخرى » .

وفى ١٦ تشرين الأول / أكتوبر ، أعلن بفخر بأن المسرحية أصبحت جاهزة . وقد كتب لجوركى يقول : « الشقيقات الثلاث أتعبتنى . ثلاث بطلات ، كل منهن تريد أن تكون لها شخصيتها المستقلة . . . ثلاثتهن بنات أحد الجنرالات ! يجرى الحدث فى بلدة فى الأقاليم ، مكان مثل

بيرم * ، محيطها محيط جنود ، مـدفعية . الطقس فى يالطا رائع والهواء عليل . اسـترجـعت عافـيتى وليـست بى أدنـى رغـبـة فى الذهاب إلى موسكو » . ولكنه مالبث أن خضع لتـوسلات أولجا وتوجه إلى هناك بعد أسبوع واحد فقط .

كان يحضر التدريبات والـعروض فى مسرح الفن يوميـاً ، وشـاهد « طائر النورس » " الخال فانيا » عدة مرات . وعلى الرغم من أن حماس الجمهور حرّك مشـاعره إلا أن أعصابه ظلت متوفزة فيما يتـعلق بمسرحيته الجديـدة . ومع ذلك وافق على السمـاح للرسام فـالنتين سيـروف برسم صورة له . كما كان يتسكع فى المديـنة مع أولجا وجوركى وشاليبين حتى أوقات متأخرة من الليـل . ولكن هذا النمط من السلوك سرعان ما أنهكه فأخـذ يعانى من الصـداع ونوبات السعـال والارتفاع المفـاجىء فى درجة الحرارة ، ولكنه لم يفكر قط بإنهاء زيارته ، والسبب هو أولجا بالطبع .

كانت تداهمه فى فندقه فيما بين التدريبات حاملة علبة من الشوكولاته أو بعض الزهور أو زجاجـة من العطر ، أو شيـئاً من هذا القبـيل . وما يلبث أن يصل السـماور والخـبز المقطع المدهون بالزبدة والعسـل . وعلى الرغم من سعادة تشيخوف وهو يراها منهمكة وكأنها ربة بيت فعلية ، إلا أنه لم يفكر بطلب يدهـا : فالحب دونما مـقابل ، سـرى ولكنه دافىء ، مازال يكفيه .

رتّب ستانيسلافيسكى قراءة للشقيقات الثلاث فى بهو مسرح الفن بعد فتـرة وجيزة من وصول تشـيخوف إلى مـوسكو . كانت الفرقة مـوجودة برمتها وبمزاج ممتـاز فى البداية ، إلا أن هذا المزاج مالبث أن أخذ يميل إلى التكدر مشـهداً بعد آخـر . وبعد انتهاء الفـصل الأخير حلّ صـمت ثقيل وكأنه نوع من الذعـر المؤدب . حاول تشيخـوف إخفاء حرجه بـالابتسام

* مدينة فى شرق روسيا .

والسعال متنقلاً بنظره من ممثل إلى آخـر . أما المناقشة التى تلت ذلك فقد عمّتها عبارات مثل : « ليست مـسرحية متكاملة بعد ، بل مجرد خطوط عريضـة » ، أو « لاتصلح للتمثيل بعـد ، فليس فيها أدوار ، بـل مجرد إيماءات » . وتساءل بعض المشاركين فى الـنقاش فيما إذا كانت المسـرحية تراجيدية أم كـوميدية ، وأعلن أحدهم بصـوت قوى : « على الرغم من أننى لاأتفق مع الكاتب من حـيث المبدأ ، إلا أنه لابد لى من الاعـتراف ... » .

عند هذا الحد لم يعد تشيخوف قادراً على احتمال المزيد فانصرف على الفور . وقد أسرع سـتانيسلافيسكى إلى الفندق فى أثـره خشية أن يكون مريضاً . إلا أنه وجد تشيخوف يجلس مقطباً رافضاً الكلام بسبب موقف الممثلين : « هذه العبارة « من حيث المبدأ » لاتحتمل ! » ، وبدا تشيخوف مصمـماً لبعض الوقت على سـحب المسرحية ، غـير أن ستانيسـلافسكى استطاع أن يحملـه على التعقل ، وما لبث أن بدأ بإجـراء تعديلات كاملة على الفـصلين الأولين . ولكنه مع ذلك أجاب فـيرا كـوميـشارزفـسكايا بالرفض حين طلبت الشـقيـقات الثـلاث لعرضـها فى حـفلة خيـرية فى بطرسبرج قائلاً بحزن : « إنها مملة ورتيبة وغير مقبولة ! » .

مالبث أن غادر مـوسكو فجأة فى ١١ كانون الأول / ديـسمبر ، دون أن يستكمل مراجعـة المسرحية ، تدفعه من جديد الرغـبة فى الانتقال إلى حيث لايجد إلا السـراب . ولم يجد أمامه إثر وصـوله إلا صحراء الملل المجدبة ، وبدافع الشـعور بالكآبه من احتمال قـضاء شتاء كـئيب آخر فى يالطا فرّ هارباً إلى نيس .

تساءلت أولجا فيما إذا كان اهتمامها به وإصرارها عليه هو أحد دوافعه للهرب ، وشعـرت بالانسحاق على أية حال وكـتبت له تقول : « لست اسـتطيع أن أتقبل فـراقنا . لماذا رحلت ومكانك الـطبيـعى هو هنا ، إلى جانبى ؟ لم أسـتطع أن أصدق بأنك ستـفارقنى فـعلاً إلا حين بدأ القطار

يتحرك مبتعداً بك يـوم أمس ! مشيت خلف القطار فترة طويلة وكأننى لا أصدق ما حدث ، ثم بدأت أبكى كما لم أبكِ منذ سنوات ! » .

حاول أن يعيد الطمأنينة إلى نفسها فى الرسـالة التى كتبها لها من فيينا فى اليوم التالى إذا يقول : « سـأرحل غداً إلى نيس ، ولكننى أنظر بشبق إلى السـريرين الموجودين فى غـرفتى . سأنـام والأسف يعتصـرنى لأننى وحـدى هنا ولأنك لست مـعى ياقطتى . إن هذا لمحـزن جداً » . وقـبل شهر واحد كان قد كتب لسيفورين يقول : « إذن سمعت أننى سأتزوج . غير أن هذا غير صحيح . . أنى ذاهب إلى أفريقيا لأزور التماسيح » .

وعلى الرغم من احـتـقاره للجـو الرصين المهـيمن علـى « البنسيـون الروسى » إلا أنه حلّ فيه من جديد ، ووجد الأمـور كما كانت عليه من قبل تماماً : الخادمات المسئولات عن الغرف بابتساماتهن الملوكية ، الطباخة الروسيـة وزوجها الزنجى والعجـائز الرهبيات إياهنّ على مـائدة الطعام . غيـر أن الطقس اللطيف سحـره ، وفى أولى رسائله إلى أولجـا من نيس يقول : « هنالك ورود وأزهار مـتفتـحة من مخـتلف الأنواع ، بحيث لا أستطيع أن أصدق عيـنيّ . الشبان والشابات مازالوا بملابسهم الصـيفية ، ولست ترين قبعة واحدة » وفى اليوم التالى كتب يقول : « مازلت استمتع بالشعور بأننى فوق سطح القمر ، فالطقس دافىء والشمس ترسل أشعتها بقـوة ، وأشـعر بالحـرّ وأنا أرتدى مـعطفى وكـل الناس يرتدون الملابس الصيفية . النوافذ فى غرفتى مشرعة على مصراعيها وروحى تبدو منفتحة أيضاً . أعيد نسخ مـسرحيتى وأتساءل كيف كتبت مـا كتبت ولماذا فعلت ذلك ؟ » .

كان قد أبقى الفصلين الأولين مع ستانـيسلافسكى الذى بدأ التدريبات عليهـما بالفعل . ولم يسـتحدث تشـيخوف أية تعديـلات فى الفصـــل الثالث ، ولكنه أعاد كـتابة الفصل الرابع كلية . وفى غضـون أسبوع من

وصوله أرسل المخطوطة كاملة إلى موسكو . وقد كتب لأولجا مازحاً يقول : « أضفت العديد من السطور لك ولا بد لك من أن تشكرينى » .

كان تشيخوف قلقاً على مجريات الأمور فى مسرح الفن : هل فهم الممثلون شخصياته ؟ هل يثقل ستانيسلافسكى العرض بالمؤثرات الطبيعية الأثيرة لديه ؟ وقد ألحّ على أولجا قائلاً : « صفى لى أحد عروض التدريبات على الشقيقات الثلاث . هل يحتاج الأمر إلى أى حذف أو إضافة ؟ هلى تمثلين دورك جيداً يا عصفورتى ؟ عليك أن تكونى حريصة جداً . لاتظهرى علائم الاكتئاب على وجهك على الإطلاق فى أى فصل من الفصول . علائم الغضب ، أجل ، ولكن ليس الحزن . فالناس الذين يحملون أحزانهم فى داخلهم فترة طويلة ويعتادون عليها يكتفون فى العادة بالتصفير والتأمل فحسب . ولذا تأملى وأطيلى التفكير أثناء تبادل الأحاديث على خشبة المسرح ، هل فهمت هذا ؟ » . وبعد أيام قليلة يقول : « ما أسوأ الاتكتبى لى . هل لك أن تحدثينى عما يحلّ بالشقيقات الثلاث . . . لم تكتبى لى شيئاً عن المسرحية سوى أنك ذهبت لتدريبات اليوم ، أو أنه لم يكن هناك تدريب » .

كل التفاصيل الدقيقة ، حتى مايتعلق منها بالملابس والماكياج كانت مهمة بالنسبة لتشيخوف . كما أنه كان يخشى أن يحوّل الممثلون شخصيات الضباط الكثر فى المسرحية إلى شخصيات كاريكاتورية ، ولذا نصح بتجنب أية مؤثرات مضحكة . وللتأكد من دقة كل شىء طلب من أحد أصدقائه ، وهو الكولونيل بيتروف ، بأن يحضر التدريبات ليتأكد من

ملاءمة الملابس وتصرفات الممثلين . وقد أخذ هذا الكولونيل الطيب مهمته مأخذ الجد حتى أنه كتب رسالة لتشيخوف يعنّفه فيها لأنه صوّر أحد الضباط بأنه عديم الأخلاق بحيث يقدم على إغواء امرأة متزوجة . إلا أن تشيخوف يقول فى رسالة إلى أولجا : « على الرغم من كل شىء فقد فعل ماطلبت منه أن يفعل ، وبعبارة أخرى سيرتدى الضباط ملابس الضباط بالفعل . . . أفتقدك وأفتقد موسكو . . . » .

ظلت رسائل تشيخوف تغلى عاطفة ، دون أن تشير على الإطلاق إلى موضوع الزواج . وكانت قد كتبت له فى يوم سفره تقول : « أتدرى يا أنطون ؟ إننى أخاف أن أحلم ، أو بتعبير أصح ، أخشى أن أعبّر عما أحلم به بصوت عال ، غير أن لدى شعوراً بأن شيئاً قوياً وجميلاً سيولد من حبنا . وحينما أبدأ فى الاعتقاد بذلك فإننى أشعر بحب للحياة وللعمل ، وتكف هموم الحياة الصغيرة عن أن تكون مصدر إزعاج لى ، ولا أعود أتساءل عن أسباب وجودى على قيد الحياة » .

أحجم تشيخوف عن التعليق على هذه الرسالة بشكل مباشر ، بل إنه كان قلما يتحدث فى الحقيقة عن المستقبل : فمرضه يحول دون أى التزام طويل الأمد ، وكان يتعامل مع الحياة يوماً بيوم ، محاولاً استخدام كل ما لدية من حصافة لادّخار قوته . وكان أقرب جواب للموضوع هو قوله : « إننى أحبك ، غير أنك لا تدركين ما أرمى إليه . فأنت تحتاجين إلى زوج ، أو بالأحرى شريك حياة عريض الشاربين ، يرتدى قبعة يزينها شريط كبار المسؤولين . أما أنا ، فمن أكون ؟ لست أملك مزية خاصة » . وفى رسالة أخرى تحمل تاريخ اليوم ذاته يقول : « هل تمنيت

لك عاماً جديداً سعيداً فى رسالتى السابقة ؟ لم أفعل ؟ حسناً ! « أقّبل يديك كلتيهما ، وأصابعهما العشرة واحداً واحداً . أقّبل جبينك ، وأتمنى لك السعادة والدعة والكثير الكثير من الحب الذى يستمر طويلاً ، خمسة عشر عاماً مثلاً . ما رأيك ؟ أيمكن أن يوجد مثل هذا الحب ؟ أجل بالنسبة لى ، أما بالنسبة لك فلا ! » . ولتأكيد الطابع العابث لرسائله كان يذيّلها بتوقيع مثل : « أنطوان الذى يكبرك سناً » أو « توتو الأكاديمى » أو « أنطونيوس الراهب » أو « طبيبك المتقاعد والكاتب المسرحى الاحتياط » .

لم يلبث أن سئم نيس وأحسّ بأنها أصبحت ثقيلة وتافهة بالنسبة له ، إن لم يكن لأى سبب آخر فلأنها كانت تضم بين ظهرانيها الكثير من الروس الذين يتوقون للالتقاء بانطون تشيخوف . غير أن إنتاجه فى الكتابة لم يكن يسير على مايرام . وقد كتب لأولجا مؤكداً : « إننى أكتب بالطبع ، ولكن دون حماس . يبدو أن الشقيقات الثلاث قد استهلكتنى ، أو ربما سئمت الكتابة وأصبحت ، ببساطة ، « موضة » قديمة . لست أدرى ، وما علىّ أن أفعل هو أن أكفّ عن الكتابة لمدة خمس سنوات أو ما يقارب ذلك ، وأسافر لخمس سنوات ثم أعود وأجلس لأبدأ العمل » .

وعلى الرغم من أنه كان يحلم بالتوجه إلى الجزائر ، إلا أن البحر كان عاصفاً وعبور البحر تكتنفه المخاطر . ولذا استقر فى إيطاليا مع صديقه كوفاليفسكى بعد أن رحل من نيس فى ٢٦ كانون الثانى / يناير . وقد أعترف لكوفاليفسكى فى تلك الليلة وهما يستقلان القطار : « أعرف

كطبيب أن أجلى قصير » . تجـولا فى بيزا وفلورنسا وروما بشكل خاص وبدقـة كاملة . وكـتب لأولجـا يقول : « مـا أروع إيطاليـا كبلد . إنهـا مدهشة ، وليست هناك زاوية أو بوصة واحـدة إلا ويتعلم منـــها الإنسان شيئاً هائلاً » .

وكان يدهشــه فى نفس الوقت ألا يتلقى أنباء عن المسرحـية . هل تم افتتاح العرض . وإذا كان الأمـر كذلك ، فهل يعنى ذلك الصمت المطبق بأن المسرحيـة فشلت ؟ وبعد مرور أيام على مـوعد العرض الأول ، وهو ٣١ كـانون الثانى / ينـاير ١٩٠١ ، علم بأن العرض قـد تم بالفـعل فى ذلك التاريخ ، ولكن التأخير فى إبلاغه كان بسبب كثرة ،تنقلاته والتغيير فى عنوانه . وقد أكد له نيـميروفيتش - داشينكو فى البرقـية التى أرسلها أن المسرحـية حقـقت نجاحاً كـبيراً ، وإن بدا الفصـل الثانى طويلاً بعض الشىء . ولكنه لم يكن يقول الحقيقـة فى الواقع ، إذ أن النقاد والجمهور على السواء نفـروا من المسرحية فـى البداية بسبب الحوار الذى كـان يبدو مفككـاً ظاهرياً ، وبسبب فـترات التوقف التـى لاتنتهى ، ونظراً لغـياب الحدث ونزعات الـتردد لدى الممثلين . إلا أن تشيخـوف مالبث أن أحسّ بنوع من التآمر الذى يستهدف أهدافاً خيِّرة يكمن وراء المديح الأولى الذى تلقـاه . ولم يتلق رأياً صريحـاً من أى من أصدقـائه باستثـناء لافروف ، رئيس تحرير « الفكر الروسى » الذى قال : « لاقت نجاحاً ؟ ليس فى مثل تألق « طائر النورس » . ولكنها بالنسبة لى أكثر قيمة ومعنى » .

ومـا لبث الطقس أن أصـبح رديئاً فى رومـا وغطت الثلوج الأمـاكن الأثرية ، وساء تشـيخـوف أن يتخلى عن مشـروع زيارة لنابولى ، ولكنه

وجد نفسه مجبراً على حجز مكان له فى أول سفينة متجهة إلى أوديسا . وما أن وصل إلى يالطا حتى كتب لشقيقته يقول : « وصلت ليلاً ولم أنم . لست أعرف شيئاً عما يجرى فى موسكو أو فيما يتعلق بالمسرحية وغيرها من الأمور . . . » وبعد ثلاثة أيام أرسل لأولجا البرقية التالية : « انتظرى برقية مفصّلة . الصحة جيدة ، واقع فى الحب وافتقد كلبتى * . سأرسل رسائل . كيف الصحة والمعنويات ؟ تشيخوف . . . » .

أدرك أنهم أساؤوا فهم المسرحية حتى قبل قراءته للتعليقات التى كتبت حولها ، وكان يتوقع ذلك . ولكن حدسه كان يقول له فى الوقت نفسه بأن« الشقيقات الثلاث » ستلقى فيما بعد اعتراف حتى أولئك الذين انتقدوها من قبل باعتبارها مسرحية بطيئة وغير ممتعة .

ولكى يبعث الحياة فى المكان الريفى المنعزل الذى تجرى فيه أحداث « الشقيقات الثلاث » استحضر تشيخوف فى ذهنه فترة إقامته فى بلدة فوسكريسنك الناعسة التى كانت مقراً لإحدى الحاميات العسكرية ، وحيث كان المثقفون والضباط يحاولون قضاء أوقاتهم فى التفلسف والروتين ، كما استعاد ذكريات فصول الصيف التى كان يقضيها فى « لوكا » فى مزرعة الشقيقات الثلاث لنتفاريوف . وبفضل هذا المزج الذهنى السحرى لمجموعتين من الناس لم يجتمعا فى الواقع إطلاقاً ، تمكن من تحقيق اللقاء بين ضباط المدفعية والشابات ، وابتدع عملاً فنياً فريداً من نوعه .

*كان تشيخوف كثيراً مايستخدم تعبير كلبة من باب التحبب بالنسبة لأولجا .

« الشقيقات الثلاث » اللواتي ولدن ثلاثتهن في موسكو ، يتحرقن للعودة إليها وللفرار من حياة الريف بتفاهتها وسوقيتها . والفكرة التي تهيمن عليهن ويكررنها باستمرار هي : « إلى موسكو ... إلى موسكو ... » تتردد طوال المسرحية . غير أن هذا الحنين المؤلم هو الشيء الوحيد المشترك فيما بينهن . فالأخت الكبرى ، أولجا ، قاسية وحزينة وتعاني من الإحساس الحاد بإلزام نفسها بأداء واجباتها . فهي تعمل مديرة مدرسة وتبدو وكأنما تقبلت عنوستها بعد أن تقدم بها العمر . أما الوسطى ، ماشا ، (والتي تقوم أولجا كنايير بتأدية دورها) فذات طبيعة جافة وإن كانت حساسة وتشتعل عاطفة ، وقد تزوجت مدير مدرسة سخيف مدعياً وهي تلوم الكون كله وتحمّله تبعة اختيارها هذا . أما الصغرى ، إيرينا ، فهي عفوية وفرحة ولكن رأسها تملؤه الأوهام ، وهي تتحرّق رغبة للقيام بالأعمال الحسنة ونيل الثقة والولاء . وحين يعسكر فوج مدفعية في البلدة ويبدأ الضباط في التردد على البيت تتشكل صلات بريئة ، ولكنها واعدة ، وتستعيد الشقيقات الثلاث طعم الحياة بعد أن استيقظن من سباتهن . فأولجا تفكر بترك مدرستها ، وماشا تقع في الحب ، وتبدأ إيرينا في العمل وتوافق على الزواج . وحين يتم نقل الفوج ويودعهن الضباط يعدن للهبوط إلى أرض الواقع بصورة موجعة ، حيث تعود أولجا إلى قدرها في الوحدة المطلقة ، كما تعود ماشا إلى زوجها مدير المدرسة المثير للشفقة ، وإيرينا التي يُقتَل خطيبها في إحدى المبارزات تعود إلى حياة تتسم بالتضحية والعمل الشاق . وحين ترحل الفرقة الموسيقية على أنغام الموسيقى العسكرية تضم أولجا شقيقتيها إلى

صدرها قائلة بحنان : « حيـاتنا لم تنته يا أختى الحبيبـتين . سنستمر فى حياتنا . صوت الموسيقى يبعث السرور الشديد ، فهو ملىء بالفرح بحيث يبدو وكـأننا سندرك فى أيـــة لحـــظة لِــمَ نــعيش ولماذا نتألم . . . لـيتنا نعرف . .ك. ليتنا نعرف » .

تركز المسـرحية بمجـموعها على مـعنى الحياة ، وهى مـشبعـة بالتوتر النفسى الناشىء عن الحب العـذب للشقيقـات الثلاث وواقعيـة الضباط . تقول إحداهن : « انظروا ! الثلج ينهمـر ! ما معنى هذا ؟ » وبهذه النتف من الاحـاديث التى تبدو عـابرة ، يخلق تشيـخوف جـواً شاعـرياً مليـئاً بالمعانى التى تتدفق فياضة من خشبة المســرح لتغمر الجمهور ، بحيث نجد أنفسنا وكأننا لانتابع الحدث بقدر ما نجدّ فى البحث داخل أنفسنا ، بحيث نكتشف نحن وأبطال المســرحية معـاً عبث الوضعية الإنـسانية . ودون أن ندرك ذلك تمام الإدراك ، نحسّ بالبلدة الريفيـة البليدة كمشـهد داخلى ، وبمغامـرات الشقـيقـات الثلاث المثيرة للشـفقة وكـأنما هى تمثل معـاناتنا الشخصية . وهكذا نـبدأ بدورنا نتساءل من أين أتينا ، وإلى أين نمضى ، ومـا هو دورنا فى هذا العالـم . وبعد وقت طويل من مـغـادرتنا لقاعـة المسرح نسـمع أصداء صوت أندريا ، الشـقيق الفاشل وهو يلقى خطبـته المسهـبة العنيفة ضـد أهل البلدة : « إنهم لايفعلون شيئـاً سوى الأكل ، والشــرب ، والنوم والموت . وحين يـولد آخـرون فإنـهم كـذلك يأكلون ويشربون وينامون . ولكى لايموتوا من الملل يملأون حياتهم بالأقاويل النتنة والفودكا ولعب الورق والدعاوى القـضائية . الزوجات يخنّ أزواجهن ، والأزواج يكذبون وهم يتـــظاهرون بأنهم لايرون مـايحدث ولايسمـعون

شيئاً . هذه البلادة القاسية تلقى بأثقالها على كاهل الأطفال بحيث أن الشعلة السماوية فيهم تموت شيئاً فشيئاً ، ويتحولون شيئاً فشيئاً إلى مجرد نسخ لجثث تحاكى بعضها بعضاً ، شأن أمهاتهم وآبائهم الذين سبقوهم » وبعبارة أخرى ، فالحياة بشعة وقميئة ، والسعادة مجرد وهم لايتحقق ، وترياقنا الوحيد للتغلب على اليأس هو العمل ، العمل دون طموح أو أمل بمكافأة تعوضنا عن كل ذلك . . . ولاشك أن هذه كانت تمثل أفكار تشيخوف وهو يكتب المسرحية ، إذ أنه بازدياد التلف فى صحته كانت تتضاءل لديه مبررات وجوده كإنسان من لحم ودم وسط أناس يخاطبونه دون رسميات ، ويسمون أنفسهم أصدقاءه ، ويدوّخونه بمديحهم .

ومع ذلك ، فقد أسعده وجود إيفان بنين فى يالطا . كانت ماريا قد دعت بنين الذى كان يقيم فى منزلهم بأوتكا منذ أسابيع . وربما كانت عواطف ماريا إزاء هذا الشاب الجذاب الذى يتمتع بالحيوية تتجاوز مجرد حدود الصداقة العادية . ولدى عودة تشيخوف غادر بنين البيت إلى أحد الفنادق . كان بنين أصغر من تشيخوف بعشرة أعوام ويتطلع إليه بحب وتبجيل كمعلم له . وخلال زياراته المتكررة للبيت لاحظ تخوّف تشيخوف الذى يصل إلى حدود المرض من مقابلة أى شخص دون أن يكون قد ارتدى كامل ملابسه الرسمية بما فيها السترة وربطة العنق ، كما لاحظ لباقته رفيعة التهذيب حتى مع المتطفلين ، وهوسه بالنظام ، وابتسامته الحزينة ، وسروره الطفولى حين يسمع نادرة جديدة . وبينما كانا يتنزهان فى أحد الأيام قال تشيخوف لبنين : « أتعرف كم سنة سيقرؤنى الناس ؟ سبع سنوات فحسب . . . » وتساءل بنين : « ولم سبع

سنوات بالتحديد ؟ » أجاب تشيخوف مازحاً : « حسنا سبع سنوات ونصف . ولكن ما تبقى من حياتى أقصر من ذلك ؟ ست سنوات على أبعد تقدير . . . ولكن لاتقل ذلك قط لصحيفيى أوديسا هؤلاء . . . » .

أما ألكسندر كوبرين ، وهو كاتب شاب آخر التقى بتشيخوف فى تلك الفترة ، فقد أذهلته شخصية تشيخوف بما تتسم به من براءة وبساطة وحزن . فنظارته المألوفه ذات الشريط الأسود ، ولحيته الصغيرة المشذبة تجعلانه يبدو وكأنه طبيب ألمانى ، أو مدير مدرسة من مدارس الأقاليم ، لولا عيناه البنيتان المرقشتان بنقاط زرقاء واللتان يشعّ منهما نور ساحر . ويقول كوبرين : « رأيت فى كن محيّاه أجمل وأعذب وأكثر وجه رأيته فى حياتى تأثيراً فى النفس . . . » ولقد كان تشيخوف يناقض فى هيئته وأسلوب حياته كل الأنماط البوهيمية للفنانين : إذ يفضل أن يكتب فى الصباح ، ونادراً مايتحدث عن عمله ، ويكره « البروزة » بكل أشكالها . ولم يكن يشتكى من حالته الصحية ، بل يرى فى التحفظ دليلاً على التهذيب ، فالمهذبون لايحاولون استعراض محنهم وآلامهم . وكلما كان يتعذب من الألم كان يحاول أن يبدو بصورة أكثر صحة وعافية ومرحاً . فإن مرت به أمه أو أخته وقد أغلق عينيه وتوترت قسماته فإنه كان يسارع إلى القول بأن الأمر بسيط ، مجرد صداع . أما التقطيب والصراخ فقد كانا يزعجانه إلى أقصى حد . وباختصار فإنه بقدر سروره وهو يرى المسرح يماهى الحياة ويماثل ما يجرى فيها فى الواقع ، فإنه يكره أن يرى الحياة تماثل المسرح .

غير أن شهرته كانت قد ازدادت بحيث أن منزل أوتكا كان يمتلىء بالزوار مع حلول وقت الظهيرة . ويكتب كوبرين فى ذلك قائلاً : « كل

أنماط الناس يأتون لرؤيته ، من العلماء إلى الكتّاب والمسئولين فى الأقاليم والأطباء والضباط والرسامين والمعجبين من النساء والرجال ، والمعلمين ورجال المجتمع والشيوخ والقسس والممثلين وغيرهم ممن لايعرف من هم إلا الله وحده . . . » كان من بينهم من يطالبونه بالإعلان عن تأييد لقضية سياسية معينة أو أخرى ، ولكنه كان يقابلهم جميعاً بجوابه التقليدى : « على الكاتب أن يلتزم بحدود الأدب فحسب » .

أما إذا ازدادوا إلحاحاً فإنه يقول : « هل تعرف ؟ سيكون لدى روسيا دستور فى غضون عشر سنوات . . . » .

غير أنه مع حلول ربيع عام ١٩٠١ هزت روسيا موجة جديدة من الاضطرابات . وحين أقدم المجمع الكنسى على إصدار أمر الحرمان ضد تولستوى بسبب دعمه لبعض الطوائف المضطهدة - وهو ما زاد من شعبيته بدلاً من أن يحدّ منها - سارت الجموع فى شوارع موسكو وبطرسبرج احتجاجاً على ذلك . أما اضطرابات الطلاب التى اندلعت إثر إعلان القوانين الجديدة التى تحدّ من الحريات الأكاديمية ، فقد كانت أكثر عنفاً ، وفى ٤ آذار / مارس هاجم القوزاق وهم يمتطون جيادهم جموع المحتجّين أمام كاتدرائية قازان فى بطرسبرج وقتلوا العديدين منهم وجرحوا عدداً أكبر فى غضون نصف ساعة من الزمن . وفى نهاية الشهر أرسل جوركى إلى تشيخوف تقريراً شديد اللهجة حول ما رآه بأم عينه إذا يقول : « سأذكر

تلك المعركة ماحييت ! فالصراع كان عنيفاً ومحتدماً بين الجانبين. القوزاق كانوا يجرون النسوة من شعورهن ويضربونهن بسياطهم . وقد ضربوا طالبة من أصدقائى على ظهرها وكأنها مجرد وسادة لاشعور لديها بحيث تحول جلدها إلى اللون الأزرق والأسود . كما كسروا جمجمة أخرى وقلعوا عين ثالثة . الحياة يعمّها التوتر والخطر الآن ، فأنت تحسّ بوجود وحش أسود هائل يترصدك عن كثب ، فى ظل الأحداث ، وهو يتساءل من يلتهم أولاً . . . . ! » .

ظل تشيخوف يراقب الأحداث وإن ظل يتمسك بمبدئه ، فلم يوقع أية عرائض ولم يكتب أية مقالات دفاعاً عن الطلبة . ولكنه كتب لأولجا يقول : « تلقيت رسائل تنذر بالشئوم من بطرسبرج وموسكو ، كما أن ما أقرؤه فى الصحف يثير الاشمئزاز » .

كانت أولجا فى تلك الفترة فى بطرسبرج تستمتع بحياة ساحرة مع مسرح الفن . فعلى الرغم من أن النقاد أشاحوا بوجوههم عن المسرحية فإن الجمهور أغرم وافتتن بها ، وحفلات الاستقبال والعشاء التى كانت تقام على شرف الفرقة أسعدت النجمة الواعدة أولجا ، وقد كتبت لتشيخوف فى آذار / مارس تقول « كنا أمس ضيوفاً على اتحاد الكتّاب ، وقد قدمت لنا باقات الزهور والميداليات الذهبية على شكل قيثارة . أجلسونى فى مكان الشرف ، ارتديت ثوباً مخملياً أسود ذا ياقة صغيرة مزركشة وسرّحت شعرى لدى الحلاق فى موجات كثيفة . ولكن هل تهمك هذة التفاصيل ؟ » . قضت أولجا وأصدقاؤها الأيام القليلة التالية فى فنلندا وهم يتزلجون ويتراشقون بكرات الجليد ويستمتعون بوقتهم وكأنهم تلاميذ صغار ويقضون إجازتهم .

كان تشيخوف ينتظر بفارغ الصبر زيارة وعدت أولجا أن تقوم بها بعد

جولة مسرح الفن الربيعية فى بطرسبرج . ولكنها طلبت منه أن يأتى إلى موسكو . كانت تتعاطف بالطبع مع وضعه الصحى ، غير أنه كان لابد لها من أن تضع أمر احترامها لنفسها فى المقام الأول . فكل أصدقائهما كانوا يتحدثون عن زواجهما القريب ، وكان هو الوحيد الذى ينفى هذا الأمر . هل يظن إذن أنها ستستمر فى الالتقاء به خلسة وإلى الأبد ؟ إنها تريده أن يحبها علناً، أمام الجميع ، وأن تشاركه حياته . ولذا رفضت الذهاب إلى يالطا فى عيد الفصح لتلعب دور الخليلة من جديد وتتلقى نظرات الشك والريبة من أمه وأخته .

كان من الواضح أنه سيغامر هذه المرة ولاشك بخسارة المرأة التى أحبها بالفعل ، إذا أحجم عن اتخاذ الخطوة المطلوبة . وكان ماتبقى أمامه من الحياة قليل ، فهل يحرم نفسه من متعة أخيرة ليبقى أميناً لمبدئه فى الاستقلال ، ألا يستطيع ، كرجل متزوج ، أن يحتفظ بهدوء باله بحيث يتمكن من مواصلة الكتابة ؟ ولقد فاجأ بنين فى إحدى المرات بينما كان معه فى الغرفة بالقول : « سأتزوج ! أتدرى ذلك ؟ » . ولكنه مالبث أن حوّل الأمر إلى نكتة قائلاً إن من الأفضل أن يتزوج المرء امرأة ألمانية لاروسية ، لأن الألمانية ستعتنى به بصورة أفضل ، ولن تسمح لابنه بأن يزحف على الأرض فى طول البيت وعرضه ، أو يطرق بملعقته على زبديه من النحاس . وقد التزم بنين جانب الحذر حينذاك ، إذ أنه يعرف قصته مع أولجا ، ولكنه حين فكّر بتعلق أولجا بمهنتها ، وتعلق ماريا بشقيقها استنتج أن الأمر سيكون « بمثابة انتحار ... ربما أسوأ من رحلته إلى ساخالين » .

غير أن تشيخوف بدأ يعتاد شيئاً فشيئاً على فكرة الزواج فيما يبدو . وفى ١٦ آذار / مارس ، كتب لأولجا يقول : « صحتى بدأت تتخذ

مسار رجل عجوز ، ولذا فإنك ستفوزين بجد أكثر من كونه زوجاً. لقد تخليت عن الأدب نهائياً ، وحين أتزوجك ستتخلين أنت أيضاً عن خشبة المسرح وسنعيش معاً عيشة المزارعين . ألايعجبك هذا ؟ حسناً ، استمري في التمثيل خمس سنوات أخرى ، أو قرابة ذلك ، وسنفكر في الأمر بعد هذا ! » .

أما أولجا ، فقد أصبحت مستعدة للتنازل وقبول حل وسط أيضاً. فمن بطرسبرج وعدت بأن تغامر في الإساءة لسمعتها بالذهاب إلى يالطا بسبب وضعه الصحي . مكثت هناك أسبوعين ، غير أنها فشلت في حمله على تحديد موعد معين . وبعد عودتها إلى موسكو كتبت له بأن الزيارة تركت في فمها طعم المرارة .

في نهاية المطاف خضع تشيخوف لقدره ، فكتب لها يقول : « سأصل في نهاية آيار / مايو . . . ولكن عديني بألا يعرف إنسان واحد في موسكو بأمر زواجنا إلا بعد إتمامه . سأتزوجك يوم وصولي إن أردت ذلك ، ولسبب ما فإنني متخوف من حفل الزواج والتهاني والشمبانيا التي يتوجب عليك أن تحمليها بيدك وأنت ترسمين ابتسامة على شفتيك » . وأضاف : « كل شيء يسير في طريقه الصحيح بالنسبة لي ، كل شيء ماعدا أمر بسيط ، صحتي ! » .

كان يسعل في الحقيقة بشدة منذ أسبوع ، وفي رسالة قبل « خطبته » لها بأيام قليلة يقول راسماً صورة كئيبة لحياتهما معاً : « سعالي يوهنني تماماً ، وأي تفكير في المستقبل يجعلني متوانياً . . . فكري بالأمر نيابة عني وأرشديني . سأنفذ ما تقولين . أو يمكننا ، بدلاً من أن نعيش ، أن نتجرع الحياة بمعدل ملعقة شاي في الساعة الواحدة » . وبعد أيام من « الخطبة » كتب يقول : « لا أغادر مكتبي لأنني لا أجد ما أفعل أفضل

من ذلك ، وأقضى الوقت فى التفكير والسعال . لاتغضبى لتصرفى هذا ياحبيبتى ، ولا تعاقبينى بالأفكار القاتمة ، سيلتئم شملنا قريباً جداً سأغادر يالطا فى ٥ آيار / مايو أو أبعد تقدير فى ١٠آيار ، تبعاً لحالة الطقس . وبعد ذلك سنقوم برحلة فى الفولجا ونفعل كل مايشتهيه قلبك . إننى أسير يديك . . . »

وصل تشيخوف إلى موسكو فى ١١ آيار / مايو وهو أكثر رفضاً لفكرة إعلان خططه بشأن الزواج ، بحيث أنه لم يبلّغ حتى ماريا أو إيفان بوجوده . ولم يكتب لشقيقته إلا بعد عودتها إلى يالطا ، وليبلغها أنه رأى أخصائياً ، وأن هذا أبلغه بأن رئتيه كلتيهما مصابتان إصابة سيئة ونصحه بتناول علاج الكوميس * فى مقاطعة أوفا . وكأنما يخشى أن تحدس ماريا دوافعه الخفية يقول : « وذهابى وحيداً سيكون مملاً ، والعلاج نفسه ممل واصطحاب شخص آخر سيكون أنانية ، ولا يتسم بالتالى مع قواعد الذوق . لذا سأتزوج ، وإن كنت لم أحضر الأوراق اللازمة معى . إنها فى يالطا ، فى درج مكتبى » .

ولكن الوثائق المعنية لم تكن فى درج مكتبه فى يالطا ، فقد ذكرته أولجا بها ، فأخذها معه . ولم تكن هناك عوائق أخرى تحول دون الزواج . وفى خطوة أخيرة للحيلولة دون أية أمور تتسم بالعاطفية المفرطة طلب من ألكسندر فيشنفسكى ، وهو من مسرح الفن ، أن يرتب حفل عشاء باسمه فى ٢٥ آيار / مايو ، وهو يوم الزواج ، لمجموعة من عائلة وأصدقاء العروسين . وقد اجتمع هؤلاء بالفعل منتظرين أولجا وأنطون وهم لايدرون مالذى يؤخر مجيئهما . وفى هذه الأثناء كانت أولجا وأنطون يتزوجان فى كنيسة صغيرة فى ضواحى

* شراب مخمر يصنعه التتر من حليب الجمال أو أنثى الخيل .

موسكو ، دون أن يكون إلى جانبهما سوى أربعة شهود : من جانب أولجا شقيقها وعمها ، ومن جانب أنطون طالبان من أصدقاء شقيقه . وبعد الزواج قام العروسان بزيارة خاطفة لوالدة أولجا ، ثم توجها إلى المحطة ليستقلا القطار إلى نيزني نوفو جرود ، وهي المحطة الأولى في شهر العسل . وقبل انطلاق القطار أرسل تشيخوف برقيتين ، إحداهما لشنفسكي يبلغه فيها بأنهما تزوجا بينما كان ضيوفهما مجتمعين في المطعم ، والأخرى لأمه يقول فيها : « أمي الحبيبة ، باركي لي ، سأتزوج . سيبقى كل شيء كما كان . سأتوجه لتلقي علاج بالكوميس . صحتي تحسنت . . . أنطون » .

قضى العروسان يوماً واحداً في نيزني نوفوجرود مع جوركي الذي كان تحت الإقامة الجبرية في البيت بسبب مشاركته في اضطرابات شهر آذار / مارس . ومالبثا أن توجها في رحلة في الفولجا ، ثم في أحد فروع الفولجا ، وهو نهر كاما ثم النهر الأبيض إلى أن وصلا قرية أكسيونوفو حيث حجزا غرفتين في المصح .

وجد هناك برقية من والدته تحمل تبريكاتها ولكنه لم يجد شيئاً من شقيقته مما آثار قلقه ، إذ لابد أنها اشتعلت غضباً بسبب إخفائه نواياه عنها . وفي اليوم التالي كتب لها الرسالة التالية محاولاً تبرير موقفه : « لابد أنك عرفت الآن أننا تزوجنا ، وأنا واثق كل الثقة ودون أدنى ريب بأن هذا الأمر لن يغير من طبيعة حياتي أو طريقة معيشتي أيما تغيير . لابد أن أمي تقول الكثير من الكلام الفارغ ، ولكن قولي لها بأنه لن يكون هناك أي تغيير في حياتي وسيبقى كل شيء كما كان بالضبط . سأعيش كما كنت أعيش ، وكذلك أمي ، وعلاقتي بك ستظل دافئة وحميمة باستمرار ، كما كانت من قبل . . . وسيترتب على

وعلى زوجتى أن نعيش بعيدين عن بعضنا البعض ، غير أننى اعتدت على ذلك » .

بعد يومين تلقى تشيخوف رسالة من شقيقته تحمل تاريخ ٢٤ آيار / مايو ، جواباً على الرسالة التى كتبها فى العشرين من الشهر نفسه ، والتى يشير فيها مازحاً إلى أنه سيتزوج . ولكن الرسالة وصلت بعد فترة طويلة نظراً لأن العروسين كانا يتنقلان من مكان لآخر باستمرار . وكما هو متوقع ، كانت لهجة ماريا مقتضبة إذ تقول : « دعنى أوضح رأيى بالنسبة لزواجك ، إننى شخصياً أجد مسألة إجراءات الزواج مسألة قبيحة ، ومن الأفضل لك أن تتجنب أى استشارة إضافية . فإن كانت تحبك فإنها لن تتركك ، ولن يكون فى هذا أى تضحية من جانبها ، أو أنانية ، مهما كانت ضئيلة ، من جانبك . كيف يمكن لك أن تصف نفسك بالأنانية ؟ كما أن هنالك دائماً متسعاً من الوقت للدخول فى رابطة الزواج . قل هذا الكلام لمحبوبتك * الشيء الأهم هو أن تحافظ على صحتك ، وأرجو الا تظن بأننى أقول هذا الكلام من باب الأنانية . لقد كنت دوماً أقرب وأحبّ إنسان إلّى ولست أتمنى لك شيئاً غير السعادة ، ولست أريد إلا أن تكن بصحة جيدة وأن تكون سعيداً . افعل مابدالك على أية حال ، وقد أكون متحيزة فى هذا الموضوع . ليتك تسمح لى بالمجئ لرؤيتك أثناء استشفائك لمدة أسبوع واحد فقط » وهى تختتم رسالتها بملاحظة إضافية تقول : « إن لم تجب على هذه الرسالة فى الحال فإننى سأمرض دون شك . بلغها أخر تحياتى . . . » .

* استخدمت ماريا تعبير Knipschitz وهو أحد أسماء التحبب التى كان تشيخوف يطلقها على أولجا

إذا كان هذا هو رد فعل ماريا على مجرد فكرة زواجه ، فما هو مدى العذاب الذى قاسته حين علمت بأنه تزوج فعلاً . كان هذا يرعب تشيخوف ، وقد كتب لها فى ٤ حزيران / يونيو محاولاً الدفاع عن نفسه قائلاً : « لست أدرى إن كنت قد أصبت أم أخطأت ، غير أن الأسباب التى دفعتنى للزواج هى إننى أولاً تجاوزت الأربعين ، وثانياً ، أولجا من عائلة جيدة ويمكننى ثالثاً أن أتركها دون أن أعانى من أى وخز فى الضمير وكأننى لم أتزوج على الإطلاق أساساً ، فهى مستقلة وتستطيع أن تعول نفسها . ثم هنالك اعتبار آخر ، وهو أن الزواج لن يغير من طريقة حياتى ، أو حياة أولئك الذين عاشوا وسيعيشون معى. كل شىء . . . كل شىء تماماً سيبقى كما كان ، وسأستمر فى السكن فى يالطا وحدى » . ولكى يثبت مدى حاجته إليها أرسل لها برقية يدعوها فيها للحضور والانضمام إليهما فى رحلة شهر عسل صغيرة تضمهم ثلاثتهم .

أنباء الزواج أصابت ماريا بنوع من الارتباك المأساوى ، فقد حزنت من جهة لأن الموضوع أخفى عنها من ناحية المبدأ . كما أنها كانت منزعجة جداً لأنها أرسلت لأنطون رسالة بهذه القسوة . « أذرع المكان جيئة وذهاباً وأنا أفكر وأفكر بحيث تتزاحم الأفكار والصور وراء بعضها البعض . من المريع بالنسبة لى أن أتصورك فجأة وأنت متزوج . كنت أعرف بالطبع بأن أوليا ستزداد قرباً منك بالتدريج ، غير أن فكرة زواجك بالذات هزت كيانى فجأة ، وأثارت لدى الكثير من الأفكار فيما يخصك ويخصنى ، وفيما يتعلق بمستقبل علاقتنا مع أوليا ، وهى علاقات ستتغير نحو الأسوأ فيما أخشى . أشعر بالوحدة أكثر من أى وقت مضى ، ولكن أرجو الا تظن بأننى أكن أية مشاعر حاقدة ،

أو أى شىء من هذا القبيل . كلا ، بل إن حبّى لك الآن يفوق ما كان عليه من قبل ، وأرجو لك كل السعادة ، ولأوليا كذلك . ولكن الموضوع هو إننى لا أعرف ما نوع الحياة التى ستعيشها هى معنا هنا ، كما أننى لست متأكدة بعد من طبيعة عواطفى نحوها . إننى غاضبة بعض الشىء منها لأنها لم تقل لى أى شىء فيم يتعلق بالزواج ، ولا أعتقد أن هذا الأمر حدث فجأة ، وكان ابن ساعته . إننى تعسة جداً كما ترى يا أنطوشا ، ومكتئبة . لست أستطيع أن آكل ، فكل شىء يشعرنى بالغثيان ، وكل ماأريده هو أن أراك . . . أراك أنت ، وليس أى أحد آخر . . . » .

لاشك بأن ماريا شعرت بخيانة : من جانب كل من شقيقها وأقرب صديقاتها . فالشخصان اللذان تبثهما كل مافى قلبها قد تآمرا معاً ووضعا خطط زواجهما دون أن يستشيراها . ولقد اغتصبت المرأة مكانها بالنسبة لأحاسيس أنطوشا الذى سمح لها بأن تفعل ذلك . والآن ، وبعد أن استبعداها لم يعد أمامها أى إنسان أو شىء تكرس له حياتها لم تستطع أن تمنع نفسها عن التعريض بأولجا حين أعلنت الصحف عن زواج تشيخوف ، ونشرت جريدة الأنباء اليومية صورتين للعروسين ، إذ كتبت لشقيقها تقول : « من هو الأكثر شهرة ، أنت أم دلوعتك *؟ الصورة لها وهى بملابس مسرحية « الخال فانيا » ، أما أنت فقد صوروك وأنت تضع نظارتك فوق عينيك » . وحين أرسلت لها أولجا رسالة حارة ولكنها تضم تعنيفاً ، اعتذرت لشقيقها بدلاً من أولجا حيث تقول فى رسالة فى ١٦ حزيران / يونيو : « كانت هذه هى المرة الأولى

* استخدمت ماريا تعبير Knipschitz

التى تجرأت فيها على الصراحة ، وأرجو المعذرة إن كنت قد أسأت لك أو لاوليا . ولو أنك تزوجت امراة أخرى غير دلوعتك لما كتبت كلمة واحدة حول الأمر ولاكتفيت بكراهية زوجتك . ولكن الأمر مختلف هنا تماماً ، فزوجتك كانت صديقتى ، وكنت أشعر بقربها منى وقد شهدنا الكثير معاً . ولهذا أخذت الشكوك والمخاوف تحتدم فى نفسى ، ربما دونما سبب فعلى وبصورة مبالغ بها . غير أننى كنت صريحة وكتبت كل مافكرت به . لاتغضب منى ، وتذكر بأننى أحبك وأحب أوليا أكثر من أى شخص آخر فى الدنيا » .

ولكن ماريا وجدت نفسها بلا معين ولاسند بعد أن كرست أفضل سنوات عمرها لشقيقها ، بل وربما امتنعت عن الزواج من أجله . وتأكيدات تشيخوف بأن كل شىء سيبقى كما كان لا ينفى حقيقة أنه نحاها جانباً فطالما كانت أولجا مجرد خليلة فإن ماريا ظلت تحتفظ بمكانتها المتميزة فى العائلة . ولكنها حين أصبحت زوجته احتلت هذه المكانة ، وعلى الرغم من كل تأكيدات تشيخوف فإن روابط غير مرئية ولكنها لاتعوّض انقطعت بينه وبين ماريا .

بثت ماريا دواخل نفسها وقد أصابها القنوط لبنين الذى أبدى إزاءها الكثير من اللباقة والمبادهة والود فى أكثر من مناسبة . وقد كتبت له تقول : « وضعى الآن مريع ، وتسيطر على فكرة أن حياتى وصلت إلى درجة الكارثة ، وأحد أسباب ذلك هو زواج أخى . فقد حدث هذا الأمر فجأة بحيث أصابنى بالذهول لفترة طويلة ، وإننى استغرب كيف سمحت أولجا لشخص مريض إلى هذه الدرجة بالتعرض لمثل هذه الصدمة . ولكن كل شىء سار على مايرام فيما بعد . . . » . وكأنما

هذا لم يكن يكفى ليبعث فى قلبها السرور من جديد إذ أضافت تقول : « ابحث لى عن زوج غنى وكريم . . . لست أرغب فى كتابة المزيد الآن ، ولكننى أجد متعة في الحديث إليك دائما . اكتب لى باستمرار فأنا أشعر باكتئاب شديد بسبب أنطوشا وأوليشكا . . . » .

فى هذه الأثناء كان تشيخوف يستشفى فى أكسيونوفو . وعلى الرغم من أن المصح لم يكن فاخراً . إلا أنه يقع فى منطقة جميلة بين غابة من أشجار البلوط ومنطقة سهبية . ولكن جميع النزلاء كانوا من المرضى الذين تشغلهم أمور صحتهم ، إضافة إلى سكان المنطقة (البشكيريون) الذين يتسمون بالكسل والبلادة ويفتقرون للطبيعة الغنائية. بل إن أولجا لم تكن قادرة على مدة بالحيوية اللازمة . وبعد مرور أسابيع قليلة على بداية استشفائه كتب لسلوبوفسكى يقول : « الحياة هنا تشابه حياة فى كتيبة عقوبات . . . ملل كلى مطلق ، وإننى أعد الدقائق لكى أخرج من هذ المكان . . . » . ولكن العلاج أفاده بصورة واضحة ، وبفضل إجباره على تناول أربع زجاجات من الكوميس يومياً ، ازداد وزنه وتوقف عن السعال كلياً تقريباً . وعلى الرغم من أنه كان من المقرر له أن يبقى شهرين فقد استعطفهم بعد شهر واحد بأن يسمحوا له بالخروج . وفى ٣٠ حزيران / يونيو أعلن لبنين بطريقته الساخرة إياها : « سأتوجه إلى يالطا يوم غد ، ويمكنك أن ترسل تهانيك الرسمية بمناسبة زواجى إلى هناك لقد سمعت بأننى تزوجت ، أليس كذلك ؟ حسناً ، ولكننى فى طريقى للاتصال بالمحامين لرفع قضية طلاق ! . . . » .

وفى ٨ تموز / يونيو ، وبعد رحلة استمرت أسبوعاً وصل إلى يالطا مع زوجته ، واستقبلته أمه وأخته بمزيج من الود والانزعاج وحب الاستطلاع والتخوف . . .

١٤ - حب المراسلة

ما أن أصبحت أولجا زوجـة تتمتع بحقوق لاينازعها فـيها أحد بعد أن كانت مـجرد عشـيقة يـغض الطرف عنها حتى حـاولت بكل الطـرق أن تجعل وجودها فى البـيت أمراً محسوسـاً وملموساً . فالطريقـة الفوضوية التى كان ينتـهجهـا تشيخوف فى حـياته لم تكن لتتـلاءم مـع طبيعـتـها الألمانية التى تميل إلى النظام . أمـا أمه وأخته ، فـقد كانتا تميـلان لتدليله باستمـرار ومعاملته برقة بـحيث تغضان الطرف عن سوء عنـايتـه بنفـسه حتى ولو وصل الأمر إلى حد عدم تنـاول بعض الوجبات كلياً إذا شاء ، ولاتجرؤان على توجـيه أى نقد له فى ممـارسته لحـياة العزوبيـة التى تتسم بالفوضى . وحين جـاء دور أولجا فقد أخـذت تعامله وكأنه طفل صغـير داخل رجل عظيم ، وتمارس عليه سلطة تتسم بسمات الأمـومة ، فتجبره على تبديل مـلابسه الداخلية باستـمرار و وعلى تنظيف ملابسه بـالفرشاة وتلميع حذائه وغـسل شعره بانتظام ، وقصه قـبل أن يطـول ويتشعث . وبما أن معـدته كانت تزعجه باسـتمرار فقـد بدلت نوعية طعـامه ونظمت مواعيـد وجباته ووصفت له الملينات ولكن هذا النظام الصارم آلم يفـجينيا ياكوفليفـيا التى كانت تفرض دائمـاً سلطتها على المطبخ ، كـما آلم ماريا التى كـانت ترعـاه بكل حب وحنان لسـنوات وسنوات . كـانت المرأتان تريان أنهـما تتـمسكان بتـقاليـد تتسم بالحب والرقـة فى عنايتهـمـا به ، وتنظران إلى أولجـا كـإنسانة دخـيلة مما أدى إلى تبـادل كلمـات جارحـة وتوارث غضب ، وإلى تهديد من أولجا بأنها ستـرحل آخذة زوجها معها كانت هذه المشاهد تزعـج تشيخـوف أيما إزعاج ، وكان يبـذل كل جهده

مع الطـــرفين لتهـدئتهما وتصـفية الأجواء وحل الخـلافات . ولكن هذا النزاع ، وهذه الحرب غيـر المعلنة التي تدور حوله كشخـص كانت ترهقه إلى أقصى حد .

وفي ٢٠ آب / اغـسطس ، رحلت أولجـا إلى مـوسكو لاستـئناف تدريباتها المسرحـية ، ورحيلها أثار في نفس تشيخوف مزيجـاً من مشاعر القنوط والارتياح وحين تلقى منهـا رسالة تعترف فـيها بمشاعـر الغيرة من والدته وأخته أجابها ملتمسـاً الصبر والتـــفهم من جانبـها ، إذ يقــول : « تشيرين بأن مـاشا لن تعتاد على وجودك ، ومـا إلى ذلك من أشياء . ولكن هذا الكلام سـخـيف ، وأنت تضخـمين الأمـر وتتخـيلين أشيـاء وأخشى أن ينتـهي بك الأمر إلى الجدال مـعها في وقت قريب غـير أنني أنصـحك بالصبـر والتزام الصـمت لمدة سنة واحـدة ، سنة واحدة فـقط وسترين بعد ذلك كيف تسير الأمـور . لاتردى بكلمة واحدة ، مهما قال الآخرون ومهما بدت الأمور لك . فالبهـجة في الحياة بالنسبة للمتزوجين حديثاً إنما تعتـمد كلياً على عدم التمرد والمقاومة في البـداية . كوني فتاة مطيعـة ياحبـيبتي واتبـعي ماأقول ، ولن أحب أبداً غـيرك ، أي امـرأة أخرى . وعسى أن تكوني في أحسن حال » .

وفي ذلك الصـــيف ، سلم رسـالة لماريـا ، عـلى ألا تفـتـح تلك الرسالة إلابعـد وفاته . وكانت هذه الرســالة هي وصـيـته ، إذ يقـول فيـها : « عـزيزتي ماشـا : أوصي لك ببيـتي في يالطا طوال حـياتك ، وكذلك بكل مالدي من مـال ودخل يستحق لي من أعمالي المسـرحية . أما لزوجتي أولجـا ليوناردوفنا فأوصي لهـا ببيتي في جورزوف وبخـمسة آلاف روبل » . كما تتضـمن الوصية مبالغ لايستهـان بها لاشقائه وأولاد عمه ، ولمدينة تاجنروج ، ولفلاحي ميليخـوفو ، كما تتضمن رجاء لماريا

بأن تعتنى بأمه أشد العناية .

ولقد أوصى تشيخوف لشقيقته بأكثر مما أوصى لزوجته لأنه إنما كان يعلم بأن أولجا تستطيع أن تتدبر أمورها وتشق طريقها كممثلة . أما انفصاله عنها بعد ثلاثة أشهر فقط من الحياة المشتركة ، واضطراره للتعبير عن حبه لها بالكلمات فقد كان يثير فى نفسه أشد الألم . كانا يتبادلان الرسائل كل يوم أو يومين ، وتتسم رسائلهما بالحزن والعاطفة والرغبة ، كما تتحدث عن أمور الحياة العادية بكل تفاصيلها : « فلا رد على أسئلتك . . . أنام نوماً رائعاً ، وإن كان يزعجنى أشد الإزعاج أن أنام وحيداً (ولكننى اعتاد على ذلك) آكل الكثير ، وأقضى النهار بطوله أتحدث مع الزوار . أتناول مشروب اللبن المخمر يومياً وأتلذذ به ، وحالة أمعائى حسنة . ولكننى نسيت أن أفرك رقبتى بالكولونيا ، وإن كنت قد غسلت شعرى أمس . . . » وفى موضع آخر يقول : « إن تعلقى بك يشابه تعلق الطفل بأمه بحيث أننى أشعر بالانزعاج والبرودة إن لم تكونى بجانبى . . . » أو يقول : « أحس وكأننى حبيس فى دير حينما لا تكونين بجوارى . وحين اقترحت أولجا اقتناء قطة فى شقتهما فى موسكو احتج على ذلك فى البداية نظراً لأنه يمقت القطط ، واقترح اقتناء كلب عوضاً عن ذلك ، ولكنه أضاف على الفور يقول : « يمكنك أن تحضرى تمساحاً إن شئت ، إننى أعطيك زمام الأمور كلية ، بل إننى مستعد للنوم والقط تندس بجوارى » .

ولم يمر شهر واحد حتى أسرع إلى موسكو ليلتحق بزوجته على الرغم من أن الطقس قد بدأ يبرد وفصل الشتاء يبدأ هناك . كانت ماريا وأولجا قد استأجرتا شقة واسعة فى موسكو وأسعده أن يراهما أكثر

انسجاماً ، غير أنه كان عليه أن يتقبل مشاركة المسرح له فيما يتعلق بأولجا ، فالتدريبات تستمر حوالى ست ساعات يومياً ، بل كانت تستمر أحياناً حتى وقت متأخر من الليل . كما أن أولجا كانت تجد لديها من الطاقة مايمكنها من المشاركة فى جميع المناسبات الاجتماعية ، وحين تعود إلى البيت تطوقه بذراعيها مطلقة عليه لقب « موباسان روسيا ». وكان هذا يملؤه غبطة جامحة ، وإن كانت هشة .

كان مسرح الفن يجرى تدريباته على « الشقيقات الثلاث » من جديد ، وتشيخوف ، كالعادة ، يتكوم على نفسه فى القاعة الفارغة ليعلق على الأداء . وكان يعترض بشكل خاص على الواقعية المفرطة فى العرض ، وطلب من ستانيسلافسكى إلغاء أصوات هديل الحمام التى كان الممثلون يقومون بها لدى رفع الستارة . وقد أعلن للفرقة فى أحد الأيام أنه سيكتب مسرحية جديدة تقول فيها الشخصية الرئيسية من وراء الكواليس : « ولست أسمع أصوات العصافير أو الوقواق أو البوم فى مسرحيتى هذه ، كما لا أسمع أصوات تكات الساعة أو أجراس زلاجة جليدية أو صرير الجنادب . . . » أما ستانيسلافسكى فكان مغرماً بالتأثير على الجمهور بالتفاصيل الدقيقة الواقعية ، بينما يصر تشيخوف على اختصار التفاصيل إلى أقل قدر ممكن بحيث يكون التركيز على الشخصيات فقط . فقد كان ستانيسلافسكى يرى العمل من الخارج بينما يراه تشيخوف من الداخل . ولكن « الشقيقات الثلاث » قوبلت بترحاب صاخب حين افتتح بها الموسم المسرحى فى ٢١ أيلول / سبتمبر ، وساد المسرح هرج ومرج شديدين حين ظهر تشيخوف على المسرح فى نهاية الفصل الرابع . وقد كتب لصديقه الطبيب فى يالطا ليونيد سريدين يقول : « عرض الشقيقات الثلاث رائع ومتألق ، وأفضل بكثير من المسرحية المكتوبة . شاركت بعض الشىء فى الإخراج وأعطيت

بعض الملاحظات للممثلين ، والناس يقولون الآن إنها في هذا الموسم أفضل مما كانت عليه في موسم العام الماضي » .

غير أن محاولته التلاؤم مع متطلبات الحياة في موسكو مالبثت أن أرهقته ، وكان عليه أن يتقبل أمر قضاء شتاء آخر في يالطا ، وكتب في ذلك للمحرر فيكتور ميروليوف : « زوجتي التي ارتبطت بها برباط وثيق ستبقى في موسكو وحدها ، أما أنا فسأرحل . إنها تبكي ، وإن كنت لم أطلب منها أن تترك المسرح . باختصار ، أجدني في مأزق حرج . . . » .

وصل إلى يالطا في ٢٨ تشرين الأول / أكتوبر ، بعد أن حكم عليه أن يقضي فصل شتاء آخر وهو يتبادل الحب بالمراسلة . وفي اليوم التالي لوصوله صب مشاعره الفياضة إذ يقول : « حبيبتي . . . ملاكي . . . كلبتي . . . عزيزتي ، صدقيني حين أقول : أحبك ، أعبدك ، لاتنسني واكتبي لي وفكري بي أكثر قليلاً ، وثقي إنني سأحبك لروحك وشخصيتك مهما حدث ، حتى لوأصبحت عجوزاً شمطاء أقبلك بكل قوة ، ألفك بذراعي وأقبلك ثانية . سريري يبدو لي فارغاً وكأنني عجوز عازب ، حقير ومزعج . . . » . وبعد أيام قليلة كتب يقول : » حبيبتي . . . كم أود لو أتحدث مع زوجتي ، لو ألمس رموش عينيها ، كتفها ، لو أضحك معها . . . ياحبيبتي . . . » .

كانت أولجا تجيبه بعاطفة مماثلة ، وقد أبلغته بأن قلبها لم يطاوعها على ترتيب السرير بعد أن رحل ، إذ أنها تحس بقربهما مادام السرير على حاله : « أقبلك ياأنطوشكا ، أقبلك بكل الحب والرقة . . . كم أود لو أنني أقترب منك لأتدفأ بأحضانك . . . » ، وتقول : « إنني تعبة ولاأحتمل مفارقة السرير هذا الصباح وكلما تقلبت في فراشي أتمنى

أن أستدير وأرى وجهك الحبيب ، لحيتك الشقراء » . وتضيف : « أحب أن أتذكرك كما كنت فى الصباح ، وأنت تجلس على السرير ، تعطينى ظهرك بعد أن تكون قد اغتسلت وتهم بارتداء سترتك . . . أترى الأفكار اللئيمة التى تدور برأسى ؟ . . . حسناً لى أفكار أكثر لؤماً ولكننى لن أبوح بها لك . . . » .

وبين كل هذه الأفكار كانت أولجا تصف التدريبات المسرحية والانتصارات الدنيوية والملابس ، بينما يتحدث تشيخوف عن الزوار وعن توعك صحته والحوادث ضئيلة الأهمية فى حياة إنسان وحيد : تناولت زيت الخروع . . . انكسرت دواة الحبر . . . » .

فى كل رسالة يرددان السؤال : « متى نلتقى ثانية ؟ » . فأولجا تحس بتأنيب الضمير ، وماريا تردد على مسامعها مايزيد من شعورها بالذنب دون شك . أخذت تشعر بأنها حين كانت تلعب دور الخليلة فليس هناك مايلزمها بالعناية به فى الليل والنهار . أما وقد أصبحت زوجته فهى تتساءل فيما إذا كان مايزال من حقها أن تتمسك بمهنة لها تبعدها عنه فى الوقت الذى يحتاج فيه لوجودها إلى جانبه . غير أن رغبتها فى التمثيل ومواجهة الجمهور ومقابلتها بتصفيقه كانت تنتصر فى النهاية بحيث أنها لم تكن قادرة على ترك كل ماصنعته لنفسها .

كما أن تشيخوف لم يكن يجعل من مهنتها أمراً يقبل الأخذ والرد ، وهو أمر متوقع منه . وأقصى ماكان يقوله : « إننا نرتكب خطأ مريعاً حين نعيش متباعدين » . أما هى فتعرف بعذاباتها فى رسالة كتبتها فى ٦ تشرين الثانى ، إذ تقول : « أود أن أكون قريبة منك ، وألعن نفسى لأننى لم أترك خشبة المسرح . أشعر بالغثيان حينما أتصورك وحيداً ، تعساً يغمرك الملل ، بينما أعيش أنا حياة نشاط سريع الزوال ولا أترك

لمشاعرى العنان . ما الذى يمنعنى عن ذلك ؟ » . كانت تريده أن يشاركها اتخاذ القرار دون شك ، ولكنه يعلم من ناحيته بأن تأنيب الضمير سيعذبها مهما فعلت . كما أنه يحترم حرية الفرد فى اتخاذ قراره بمحض إرادته بحيث أنه لم يكن قادراً على أن ينصح زوجته بتبديل نمط حياتها المتألقة فى موسكو واستبدالها بحياة مملة فى يالطا : « تريدين أن تتركى المسرح ؟ هذا ما تشير إليه رسالتك فيما يتراءى لى، أليس كذلك ؟ فكرى بالأمر ملياً ياحبيبتى ، بكل عمق قبل أن تتخذى قرارك ،لاتنسى أننى سأقضى فصل الشتاء القادم فى موسكو » . وبعد أربعة أيام كتب بوضوح أكبر إذ يقول : « ليس من المنطقى بالنسبة لك أن تستبدلى خشبة المسرح بحياتنا المملة فى يالطا » .

إجابة تشيخوف هذه جاءت متوافقة مع مشاعر أولجا الأخيرة حول الموضوع ، إذ تعترف فى رسالة فى ٤ كانون الأول / ديسمبر : « كنت آمل دائما أن تسمح لك صحتك بالعيش فى موسكو جانباً من فصل الشتاءعلى أقل تقدير ، ولكن الأمور لم تجر على هذا النحو يا أنطوشيك . وأخشى ما أخشاه أن أبعث فى نفسك الملل إن توقفت عن العمل ، إذ قد أمضى وقتى وأنا أذرع المكان ذاهبة عائدة وأنا أتشكى من كل شىء لقد فقدت القدرة على ممارسة عيشة الفراغ ، وليس لى مبرر فى هذا السن لكى أدمر كل مابنيته حتى الآن بكل عناية وحرص . . . » .

كان تشيخوف يأمل بينه وبين نفسه أن يلتقى بأولجا فى شهركانون الثانى / يناير . ولكن صحته ما لبثت أن انتكست انتكاسة سيئة فى ٩ كانون الأول / ديسمبر بحيث أخذ يسعل وينفث الدم ، فاضطر لملازمة السرير ومضت فكرة السفر إلى موسكو أدراج الرياح . وبعد يومين من

هذه الأزمة يحاول طمأنتها وهو يكتب لها من سرير المرض ، مؤكداً على استقلاليتها : « أشعر بتحسن كبير هذا اليوم ، فلم أنزف إلا فى الصباح ، وكان نزيفاً طفيفاً جداً . غير أن على أن أبقى فى السرير . لست أتناول أى طعام ويزعجنى أننى لا أستطيع العمل ، لا أتوقع مجيئك فى العطلة ياعزيزتى ، فلا داعى لمجيئك . الزمى عملك ، وسنجد الوقت الملائم للالتقاء مستقبلاً » . ويكرر نصائحه فى اليوم التالى إذ يقول : « لاتقلقى ياقطتى ، لاتغضبى أو تنقمى أو تحـ١زنى . كل الأمور ستسير فى مجراها الصحيح وستنتهى نهاية سعيدة ، كما نرغب بالضبط يازوجتى التى لن أجد مثيلاً لها . ليس لك إلا أن تصبرى وتنتظرى . . . » وبعد ذلك بيوم واحد كانت هناك رنة مرارة إذ يقول : « تقولين إنك أفرطت فى الشراب بعض الشىء فى ليلة ٨ كانون الأول / ديسمبر . لوتدرين كم أحسدك ياحبيبتى ! أغبطك قوتك وفتوتك وصحتك ومزاجك . أحسدك لأنك تستطيعين أن تشربى ماطاب لك دون أن يشغلك أمر نزف أو أى شىء من هذا القبيل . . . » ولكنه يقول فى ١٧ كانون الأول / ديسمبر : « هنالك لصقة على جانبى الأيمن ، وأتناول الكريبوسوت * ولكن حرارتى طبيعية وأمورى تتحسن . سأعود رجلاً من جديد . . . » .

ولكنه أخذ يفتقدها أكثر فأكثر وهو يسترجع قوته وعافيته ، إذ يطلق صرخة يائسة : « لوتدرين كم أفكر بك ، وكم يؤسفنى أنك لست معى حين يتوجب على أن أثبت لصقة ضخمة فى مكان ما من جسمى ، وأشعر بالوحدة والعجز . . . أحبك ياكلبتى الصغيرة ، أحبك وأفتقدك بصورة مريعة ، ويتراءى لى وكأنه يستحيل علينا أن نلتقى .

* سائل زيتى يستخدم للسعال

لست أساوى شيئاً بدونك . أقبلك بكل قوة ياقطتي وأعانقك مئات المرات . أنام نوماً عميقاً ولكنني لا أعتبره نوماً إذ أن زوجتى الحلوة ليست هنا ، إلى جانبى . . . » .

وقد أجابته أولجا على الفور في ٢٣ كانون الأول / ديسمبر تقول : « أعدك بأن تكون هذه آخر سنة تمر علّى على هذا النحو ، وسأبذل ما يمكننى لأجعل حياتك سعيدة وهانئة ، لأبعد عنك شبح الوحدة . سترى كيف ستكون الأمور حين أكون إلى جانبك . ستكتب وستعمل . . . لابد أنك تلعننى فى قرارة نفسك لأننى لا أحبك بما فيه الكفاية ، أليس كذلك ؟ تلعننى لأنى لم أهجر المسرح ولأننى زوجة سيئة ! . . . يمكننى أن أتصور رأى أمك فىّ ، ولها كل الحق فى ذلك لها كل الحق . اغفر لى يا أنطون ، يا أحب الناس ، اغفر لى سخافتى وغبائى ، ولاتظن بى كل السوء لاشك بأنك نادم لأنك تزوجتنى ، قلها لاتخف أن تقول ذلك صراحة . . . إننى فى منتهى اللؤم إزاء نفسى ! قل لى ماذا أفعل ؟ » .

وقد رد تشيخوف على اعتراف أولجا الصريح بخطئها بتجرد يصل إلى درجة البطولة فهو بحكم إدراكه بأن الداء الذى يعانى منه متتشر فى جميع أنحاء جسمه . فهو لايجد مايبرر تكبيل شابة تمتلىء حيوية وهى تلتزم جانب سريره ، إذ يقول : « إنك سخيفة ياعزيزتى ، فأنا لم أوجه إليك أى اتهام منذ زواجنا بسبب بقائك فى المسرح ، بل كان يسعدنى دائما أن أدرك بأنك تعملين ، وأن لك هدفاً فى حياتك ولست تضيعين وقتك كما يفعل زوجك . لاتدعى الكآبة تسيطر عليك على الاطلاق بحيث تفتر همتك . أضحكى . أعانقك ، وهذا كل مالدى مع الأسف » . وفى اليوم التالى كتب لها وقد سيطر عليه الاكتئاب وهو يدرك بأن جميع الناس يستعدون لاحتفالات ليلة رأس السنة : « سأذهب إلى فراشى معتمداً فى الساعة التاسعة ليلة الغد كى لا

أشهـد مولد السنـة الجديدة . وبما أنك لست هنا ، فـلاشىء هنا ولسـت أريد شيئاً. . . » .

وبينما كان تشيخوف يتعود على حـياة الإنسان العاجز ويقـضى وقتاً أطول فأطول جـالساً فى كـرسيه وهو يغـمض عينيـه دونما حراك وقـد أنهكه المرض كـانت أولجا تسـتمـتع بموسم الإجازات فى مـوسكو حـتى الثمـالة . وبعد المقدمات الأولـية التى تتساءل فـيها عن صـحة العـزيز أنطون ، وتتـأوه حول فـراقـهمـا ، تروى رسـائلها أنبـاء التـدريبـات والعروض والحفلات الموسيقيـة ومآدب العشاء وحفلات الرقص التى تحتل فيهـا مركز الانتبـاه . أما تشيخوف ، وكـأنما يعتذر لحالتـه ، فقـد كان يذكرها بـاستـمرار بأنـهما قـررا معاً أن مـن الأفضل لها أن تـبقى فى موسكو ، وأن أمه ليسـت حانقة عليها البتة . كل مـايخشاه هو أن ترهق نفسهـا إذ يعنفها قائـلاً : « زوجتى العـزيزة الطـائشـة ، الزمى البيـت ولو لأسبـوع واحد واذهبى إلى فـراشك فى الوقت المحـدد ، وإلا فإنك ستصبحين قـريباً عجوزاً شمطاء عجفاء قاسـية إن واصلت السهر ليلة بعد ليلة إلى مـابين الثالثـة والسادسـة صباحـاً » . ولكنها ترفض أن تـصغى لصوت العقل ، بل ولاتخـفى مغامراتها . وهى تقـول بفخر فى رسـالة فى ١١ كانـون الثانى / يناير : « بعـد العرض توجـهنا إلى الهيـرميـتاج لتناول طعـام العـشـاء ، وضـحكنا وضـحكنا ، وتبـادلت الغـزل مـع قسطنطين سيـرجيفيـتش (ستانيسلافـسكى) . أيزعجـك هذا ؟ وبعـد ذلك - ياللرعب - ذهبنا إلى أحد الملاهى . . . » .

أمـا مـاريـا التى كـانـت تعـيش مع أولجـا فى الـشقـة ذاتهـا فى موسكو، فقـد كانت تبدى ملاحظات قـاسية على سلوكهـا . فالحـرص الذى التزمت به فـترة طويلة فى العنـاية بشـقيقـهـا أثر على علاقـتهـا

بأولجا . كما أنهـا بقيامهـا بأداء مختلف المهمـات لأولجـا إنما أصبـحت جزءاً لا يتجزأ من حياتهما كـزوجين . كما أن ماريا التى كانت صارمة ، بل وقاسيـة بطبيعتـها ، كانت تعتـرض على تساهل أخيهـا وتراخيه، إذا تركنا جانباً استـغلال أولجا لهذا التساهل . وقد كـتبت له فى ٢ شباط / فبـراير ١٩٠٢ تقول : « يـنتابنى الملل فى مـوسكو ، خصـوصـاً لأننى مريضة الآن وأبقى وحيـدة فى البيت . أفتقد بيتنا وأفـتقدك . أما أولجـا فلا أكاد أراها ، وقد وصلت بنا الأمور إلـى حافة الشجار يوم أمس حين حاولت أن أمنعـها من الذهاب إلى الحفلة الراقصـة لدى ال موزوروف . ولكنهـا أصرت على الذهاب ولم تعـد إلا فى الصباح . كـانت مجـهدة بالـــطبع حين ذهبت للتـمرينات اليوم ، ولـديها عرض مـسرحى الليلة أيضاً . . . » .

كانت أولجا تشكو من إخـفائه أنباء عمله عنها بين حين وآخـر . فقد كان يكتب لها تفـاصيل حياته الصحـية وطعامه وحبـه ، ولكنه يحتفـظ بكل حرص بالجانب الأدبـى من حياته لنفسه . ألا يثق بهـا ؟ أيظـن أنها غير قادرة على مشاركته أفراح وأتراح الفنان فى داخله ؟ وقد أجابها على ذلك بالقول : « ما هذا السـخف ، فأنا لم أكتب عن مسرحـيتى الجديدة ليس من باب عدم الثقـة كما تقولين ، بل لأننى لست واثقـاً منها بعد . فـهى ما زالت تأخـذ شـكلهـا فى ذهـــنى ، وكـأنها بـواكــير شـروق الشمس ، وأنا لا أعرف بعد كيـف ستـكون وماذا سيؤول إليه حـالها ، فهى تتـبدل كل يوم . لو كنا مـعاً لحـدثتـك عنها ، ولكننى لا أسـتطيع الكتابة حولهـا لأنه لا يوجد ما يكتب عنها . تهـددين فى رسالتك بأنك لن تسألى بعد عن أمر من الأمـور ولن تتدخلى فى أى شىء . ما السبب ياحبيـبتى ؟ كلا فأنت بنت عـائلة ، ولاشك بأن غضبك سيـتحـول إلى رأفـة حين تلمـسين كم أحـبك ومـامـدى قربـك منى ، وكـيـف أننى

لاأستطيع الحياة بدونك أيتها المغفلة الصغيرة . كفّي عن أفكارك الكئيبة، كفّي عنها ، واضحكي . إنني أنا من يحب أن تسيطر عليه الأفكار الكئيبة ، إذ أعيش حياة خاوية مقفرة لاأفعل فيها شيئاً ولاأرى خلالها أحداً ، ويعاودني المرض كل أسبوع تقريباً . . .» .

ولكن أولجا ظلت تصمّ أذنيها وتصرّ على أنه يتحدث أحاديث أكثر عمقاً مع تولستوى وجوركى وبنين وغيرهم من أصدقائه الكتّاب ، ورأيها هذا صحيح بالطبع .

كان تولستوى يعيش أيضاً فى القرم فى تلك الآونة ، إذ نصحه أطباؤه بعد أن أصيب بهجمة ملاريا شديدة بمغادرة ياسناريا بوليانا إلى المناطق المشمسة على البحر الأسود . وقد وصل على متن عربة قطار خاصة ، وأقام فى جاسبرا على بعد عشرة كيلو مترات من يالطا فى حصن ضخم على الطراز الاسكتلندى يزينه برجان وتحيط به عرائش نبات الوستيريا ذات الزهر الأبيض والأزرق والأرجوانى ، وكانت الكونتيسة بانينا قد وضعت هذا الحصن تحت تصرفه .

فى ١٢ أيلول / سبتمبر قام تشيخوف بأولى زيارات عديدة لحصن جاسبرا ، وللساحر ابن الثلاثة وسبعين عاماً . قبل ذهابه فكر طويلاً وبإمعان بما يرتديه فى هذه الزيارة بحيث لايكون هندامه مفرط الأناقة ، ولاينحو فى نفس الوقت إلى عدم الرسمية بحيث ينم عن رفع الكلفة . وفى النهاية اختار بدلة قاتمة وقبعة من اللباد . أما تولستوى فقد استقبله مرتدياً زيه المعتاد ، وإن كانت القبعة البنمية البيضاء ذات الحواف العريضة التى يعتمرها تزيد من الطبيعة غير المتكلفة لقميصه الفلاحى وجزمته الطويلة .

كانت لقاءاتهما التى تتسم بالحيوية والود تتم دائماً على الشرفة المطلة

على الحديقة اليانعة بنباتاتها الغزيرة ، ومن ثم على البحر . يجلس تولستوى ويتناول يده كأس من الشاى البارد وظهره منحن وعيناه نفاذتان ولحيته تتحرك صعوداً وهبوطاً يتحدث منددأ بهذا الأمر دونما رحمة ، أو مشيداً ذاك دونما حدود ، بينما يجلس تشيخوف وهو ينقر بقبعته على ركبتيه ، أو يعدّل نظارته منتظراً لحظة يستطيع فيها أن يتفوه بكلمة أو كلمتين . وفى التحليل النهائى يمكننا القول إن ذلك النبى ذا العينين الوحشيتين ، وذلك الدمث المتشكك فى أمور الدين ظلا متباعدين متحفظين أحدهما إزاء الآخر حتى النهاية . . .

كان من دأبهما الاختلاف حتى فى أمور الأدب ، فتولستوى يرغى ويزبد حول شكسبير الذى كتب ، فى نظره ، مسرحية فاشلة إثر أخرى ، وحول الجيل الأصغر من الكتاب الروس الذين تستهويهم ، فى نظره أيضاً ، شدة العناية بالتفاصيل والتجريبية الفارغة . ولم يكن يرحم أحداً حتى تشيخوف إذ يندد بمسرحياته لأنها لم تنجح فى إثارة أو حل أية قضية أخلاقية ، إذ كان يقول : « إلى أين تذهب بك شخصياتك ؟ من الأريكة إلى غرفة « الكراكيب » ثم إلى الأريكة من جديد ! » ولكنه ظل يمتدح قصصه باستمرار إذ يقول : « أنت روسى ، أجل روسى صميم » . وهذه الكلمات التى تنطلق من فم وطنى متحمس لم تكن تنم عن المديح فقط ، بل أيضاً عن العرفان بالجميل، وقد كتب سيرجى ، أحد أبناء تولستوى فيما بعد يقول: « بدا لى وكأن أبى كان يريد التقرب منه (من تشيخوف) وممارسة نفوذه عليه. إلا أنه كان يلقى دوماً نوعاً من الصد والمقاومة السلبية وظل هناك حاجز قائم بينهما طوال الوقت . . . » . أما بنين فهو يقول فى مذكراته نقلاً عن تشيخوف : « مايعجبنى فيه (تولستوى) بشكل خاص هو الاحتقار الذى يكنه لنا جميعاً نحن الكتّاب - وهو فى الحقيقة

ليس احتقاراً بل إنه ببساطة يعتبرنا غير موجودين . . . » .

كان تولستوى يستمتع بالسخرية من تواضع ضيفه ، وقد جابه تشيخوف بالتساؤل فجأة فى أحد الأيام : « هل انغمست بالعهر انغماساً شديداً فى شبابك ؟ » . وحين أخذ تشيخوف يعبث بلحيته ويدمدم ببعض الكلمات غير المفهومة ، أعلن تولستوى بفخر بأنه كان زير نساءلايرتوى ، مستخدماً لذلك كلمة بذيئة . . .أما جوركى الذى كان يراقبهما معاً كان أكثر ما أثار انتباهه هو ذلك التناقص بين حماسة تولستوى وفجاجته وغروره ، وبين تواضع تشيخوف الذى يصل إلى حدود المرض . وفى إحدى المرات همس تولستوى لجوركى وهو يراقب تشيخوف يمشى على العشب فى جاسبرا : « يا للرجل الجميل الرائع . . .كأنه فتاة هادئة شديدة التواضع بل إنه يمشى كالبنت . ببساطة، إنه رائع . . . » وبعد أحد الأيام التى قضاها ثلاثتهما معاً كتب تولستوى فى دفتر يومياته « يسرنى أننى أحب تشيخوف وجوركى فعلاً » .

كان جوركى قد جاء إلى القرم لأسباب صحية أيضاً بعد أن حصل على إذن من السلطات إثر فرض الإقامة الجبرية عليه فى نيزنى نوفجرود . وعلى الرغم من أن السلطات منعته صراحة من الإقامة فى يالطا إلا أنه أقام مع تشيخوف لمدة أسبوع ، وكان هنالك شرطى يقف باستمرار أمام البيت ، كما أن مدير الشرطة كان يتصل بتشيخوف باستمرار للاستعلام عن مكان تواجد جوركى كلما غادر البيت . وفى النهاية استأجر جوركى بيتاً مستقلاً فى منطقة قريبة من جاسبرا له ولعائلته . أما علاقته مع تشيخوف فقد ازدادت قوة ومتانة بفعل لقاءاتهما المتكررة . ولقد كتب تشيخوف لأولجا يقول « اليكسى ميخايلوفيتش

(جوركى) لم يتغير على الاطلاق . إنه مهذب ، ذكي ورقيق كما كان. هنالك أمر واحد بالنسبة « له »أو يمكن القول « عليه » قد تشعر بأنه «غلط » وهو قميصه الفلاحي ، . ! أجدنى غير قادر على التعود عليه على الاطلاق ، كما لايمكننى التعود عليه لو إنه ارتدى ألبسة حاجب الملك ! » .

أما نظرة جوركى لتشيخوف فقد كانت إيجابية لأقصى الحدود . وأكثر ما كان يعجبه فى تشيخوف هو تواضعه ، وفى ذلك يقول : « أعتقد أنه بوجود تشيخوف يشعر كل امرىء بالرغبة الطوعية فى أن يكون أكثر بساطة وصدقاً ، وأكثر أمانة مع نفسه . لم يكن يحب الأحاديث حول المسائل العميقة ، وهى الأحاديث التى يتسلى بها أعزاؤنا الروس ويخوضون فيها دون كلل أو ملل ، متناسين ، بأن من المضحك ، بل من غير المسلى على الاطلاق أن نتجادل حول الثياب المخملية فى المستقبل إذا كان الإنسان لايملك بنطالاً لائقاً فى الوقت الحاضر » . تواضع تشيخوف ومقته للادعاء كان يثير مشاعر جوركى بشكل خاص نظراً لأنه يعرف بأن ماتبقى أمام تشيخوف من أيام حياته لم يعد طويلاً . فقد ظل تشيخوف يبتسم بهدوء ودون انفعال وهو يتحادث مع زواره ، أو يزرع أشجاره ، أو يكتب ، أو يضع الخطط لسفرات وكأنه يتوقع أن يتماثل للشفاء بين يوم وآخر .ولم يكن يشتكى من غياب زوجته كأمر غير مألوف . وبحكم تحفظه الصارم فقد كان خير من يمكن للآخرين أن يلتجئوا له للافضاء بأسرارهم ، فى حين إنه لم يكن يفضى بما فى دخيلة نفسه لأحد . وإذا ماصادف وتناقش مع جوركي فى أمور السياسة فقد كان يبذل قصارى جهده ليحمله على انتهاج موقف أقل عنفاً .وفى حين يحلم جوركى ، كماركسى ، بثورة تكتسح الطبقات البورجوازية وتسلم السلطة للشعب ،

فإن تشيخوف يطمح لتحول بطيء ولكنه مستمر فى طبيعة حكم القياصرة بحيث يتحول إلى الليبرالية المتنورة . ولكنه لم يكن كثير الثقة بمستوى أبناء بلده ، بحيث أنه كثيراً ماكان يتساءل فيما إذا كانوا يستحقون الوطن الذى ولدوا فى رحابه . ولقد قال لجوركى مرة « الروسى مخلوق غريب ، فهو كالغربال لايبقى فى داخله شيء . فى شبابه يحشو نفسه بشراهة بكل ما يقع تحت يديه . وبعد ثلاثين علاماً لايتبقى منه شيء سوى نفايات كالحة . . .على الإنسان ، إن كان يريد أن يعيش حياة جيدة وإنسانية ، إن يعمل . . . أن يعمل بحب وإيمان ولكننا نحن الروس غير قادرين على ذلك . روسيا هى بلد الكسالى الذين لايشبعون : يأكلون المآكل الشهية بشراهة ، ويشربون ، ويحبون أن يناموا فى النهار ، ويشخرون حين ينامون ، ويتزوجون ليأتوا بمن يعتنى ببيوتهم ، ويتخذون لأنفسهم خليلات من باب المباهاة فى المجتمع . نفسيتهم نفسية كلب : إذا ضربته أخذ يئن بصوت حاد ويحتمى ببيته ، وإن لاطفته يرتمى على ظهره رافعاً براثنه فى الهواء ومحركاً ذيله بسعادة » . وكان تشيخوف يشعر بأن الحياة لن تصبح أفضل بمجيء قيصر جديد ، أو بحلول قرن جديد ، بل حين يقوم الناس بدور واع وإيجابى يستهدف تحسينها . ولكنه كان يرى بأن الناس يصبحون أكثر بلادة وانفصاماً عن الحياة يوماً بعد يوم . . .

والنقاط التى حددها لبنين لدى التقائه به ثانية فى ذلك الشتاء تحمل نفس الطابع ، إذ حين اشتكى له من أن ماينتجه قليل أجابه قائلاً : « عليك فى الحقيقة أن تعمل ، وألا تتوقف عن العمل طوال حياتك » . وفى مناسبة أخرى قال له بأن عليه ألا يبدأ فى الكتابة إلا بعد أن يشعره بأنه فى مثل برودة الجليد . وقد تحدثت لبنين عن رأيه فى كتابات « ليونيد أندر يف » الذى كان أسلوب قصصه الأولى يجنح

نحو الخيال والادعاء : « بعد أن تقرأ صفحة واحدة لأندريف تشعر بأنك تود أن تمشى لمدة ساعتين فى الهواء الطلق . » وكان هو نفسه بعيداً كل البعد عن شخصية أندريف المعذبة . أما أولجا التى كانت مأخوذة بقصصه فقد كتب لها يقول : « أجل ، إنه كاتب جيد ، ولو أنه يكتب أكثر للاقى نجاحاً أكبر ، فافتقار كتاباته للصدق والبساطة يجعل المرء غير قادر على التعود عليها . غير أن القراء سيعتادون عليه فى نهاية المطاف وسيلمع اسمه دون شك » .

وفى نفس الرسالة يبلغ تشيخوف زوجته بأن صحته كانت متوعكة وأنه تناول زيت الخروع . كان فى الحقيقة غير قادر على العمل طوال فصل الشتاء ، وإن كان قد أكمل قصة « الأسقف » ، وهى قصة مشبعة بجو الكنيسة بحيث تبدو وكأنها نتاج إنسان شديد الايمان ، كثير الصلوات ، أكثر منه إنسان نزاع إلى الشك والريبة . كما حاول أن يضع الخطوط العريضة لـ « بستان الكرز » وإن كانت الشخصيات والحبكة لم يتضحا فى ذهنه بعد . وقد قضى أوقاتاً طويلة يقرأ نتاج أصدقائه بنين وكوبرين وجوركى ، كما أعاد قراءة أعمال تورجنيف . وكانت تزعجه تعليقات النقاد الذين يحاولون تشبيه أعماله بأعمال تورجنيف . ولقد كتب لأولجا يقول : « لن يخلد من أعماله إلا ثمنها أو عشرها ، أما ماتبقى فسيدفن فى الأرشيف بعد خمسة وعشرين أو ثلاثين أو خمسة وثلاثين عاماً » .

وباستعراضه لما شهدته حياته أذهله أن يدرك حجم العمل اليومى الذى تمكن من إنجازه على مر السنين . فالعلامات الفارقة فى حياته لم تكن تتمثل بأحداث بقدر ماتتمثل بالقصص والمسرحيات التى كتبها ، وبدا له وكأنه كتب حياته أكثر مما عاشها . غير أن شبحاً من أشباح

حياته كـان يعود ليسكنه من جديد بين حين وآخـر ، ومن هؤلاء الأشباح ليديا أفيلوفا .

فقد اهتزت بشدة لنبأ زواج تشيـخوف ، وكتبت فى مذكراتها تقـول : « غمـرنى عـرق بارد وتهالكت على أقـرب مقـعد . » وكـانت سلواها الوحيـدة الأقاويل البليـدة التى تدور حول « منافسـتهـا » التى انتـصرت عليـها : « تـبدو أولجـا مـثيـرة للضـحك وهى تقف إلى جـانب أنطون بافلوفيـتش . فهـو عملياً رجل عـجوز - هزيل وهش وآخـر مايمكن أن توحى به صـورتهمـا هو أنهـما عـروسـان » . والأسوأ من ذلك كـانت الأقاويل والشائعات التى كانت تدور وتلمح إلى أن نيـميروفيش داشينكو إنما كان يغـازل أولجا علناً . أحجـمت ليديا عن تهنئة تشـيخوف بمناسـبة زواجه فـترة من الزمن . وحين كتـبت له فى نهـايـة المطـاف ذكرته بما يعنيه بالـنسبة لهـا حبهـما الذى أصبح الآن جـثة هامـدة . وقد شكرها تشيـخوف على مشاعـرها وأضاف :« تتساءلين فـيما إن كنت سعـيداً ، وجـوابى هو : إنـنى مـريض أولاً وقـبل كـل شىء ، أنا أدرك الآن بأن مـرضى شـديد لكى أن تفـهـمى مـاتشـائين . أكـرر شكـرى الجـزيل لرسالتك. لـقد كنت اتمنى لك السعـادة دوماً ، ولوكنـت أسـتطـيع أن أفعل أى شـىء لتحقـيق هذه السعـادة لك لما ترددت . غيـر أنه لم يكن بوسعى أن أفعل شيئاً فى هذا الصـدد » . وبجرة قلم استطاع تشيخـوف أن يتخلص من إلحـاح ليديا والحب الذى ابتدعتـه لتحقق لنفسـهـا مجـداً أكبر فى أعين الأجيال المقبلة .

ولم يمر وقت طويل حتى أخذ شبح آخر يطلّ على تشيخوف ، وهو « ليكا مـيزينوفـا » . كـانت هذه قد فـشلت فى أن تصـبح مغنـيـة أوبرا ورفضت أن تفـتح مشغـلاً للخياطة . وبـعد أن تاهت بها أمـور الحـياة

أدمنت الشراب . وحين دعتـها ماريا للمكوث فى شقتهـا ليلة واحدة كان عليها أن تفتح النوافذ والأبواب على مصراعـيها فى الصباح التالى لتهوية الشقة وتخليصـها من رائحة الشراب ودخان السجائر . وقـالت لأخيها : إننى أشفق على ليكا .

أما أولجا فقد كانت أقل تسامحـاً ، إذ كتبت لتشيخوف رواية لاذعة للقـاء لها فى إحـدى الحفـلات مع ليكا « الجـميلـة السابقـة » إذ تقــول "كـانت ليكا ثملة وظلت تلحّ على أن أبادلهـا نخب الصداقـة * ولكننى رفضت لأننى أكره مـثل هذه الأمور . لست أعرفها وأجدها غـريبة جداً ولاأحس بأى حرارة إزاءها . » وبعـد أسابيع عـديدة أبلغته بخـطبة ليكا لألكسندر سينين ، وهو ممثل ومـخرج فى مسرح الفن حـيث كانت ليكا تعمل كـعضو ثانوى فى الفـرقة لبعض الوقت . وقـد أجابها تشيـخوف بالقـول : «عرفت ليكا لسنـوات ، وهى فتـاة جيـدة على الرغم من كل شىء،ذكية وراقيـة . غير أن حياتها لن تـكون سهلة مـع سينـين ، إذ أنها لن تحبه، بعد عام واحد سترزق بطفل جميل منه ، وبعد عام ونصف ستـبدأ فى خيـانته» وهكذا ، وبعـد أن تزوج ومّده المرض لم يعـد يبدى اكتراثاً بليكـا وكـل أنماط المـزاح والسخرية الذى طبع أيام شبابه **

كانت أولجـا هى المرأة الوحيـدة التى يهتم بها تشـيخـوف حينذاك ، وأصبـحت بالنسبـة له وكأنهـا أميرة بعـيدة المنال ، فـعلى الرغـم مـن توسـلاته رفض الدكتـور التـشولر أن يسـمح له بالتـوجه إلى مـوسـكو ومـشاعـر اليأس هذه أثارت عطف مـاريا بحيـث تمكنت من انتـزاع أيام

* طقس يمارسه شخصان لإعلان رغبتهما فى أن يصبحا صديقين حميمين ويتحادثان بصيغة المفرد بحيث يصالبان يديهما ويشربان من كأس أحدهما الآخر .

** تشير ماريا إلى أن ليكا وزوجها ظلّا زوجين متـحابين ، وهاجرا إلى فرنسـا بعد ثورة ١٩١٧ وتوفيت ليكا هناك عام ١٩٣٧ .

إجازة قليلة لأولجا من مسرح الفن ، وسرعان ما تلقى رسالة من أولجا تبلغه فيها بأنها ستصل لتقضى معه أربعة أيام وخمس ليالى. وصلت إلى يالطا فى ٢ شباط / فبراير فيما أسمته « شهر عسلهما الثانى » . كان الوقت قصيراً بحيث أنهما تبادلا الحب خلاله بصورة وحشية وكلما كانت تسنح لهما الفرصة لذلك ، وكأنهما تحت التهديد . وما أن رحلت حتى كتب لها يقول : « عودى بأسرع وقت ممكن ياحبيبتى ، أنا لاأقوى على الحياة بدون زوجتى » .

كان مسرح الفن يقيم عروضه فى بطرسبورغ في ذلك الحين ، وكان حماس النقاد والجمهور من الشدّة بحيث أن المسرح دعى لأداء عرض خاص للشقيقات الثلاث للقيصر نيقولا ولهيئة البلاط الملكى . وكانت أولجا تصبح باضطراد نجمة الفرقة . لم تكن قد تلقت فى حياتها كل هذا القدر من المديح والزهور ودعوات العشاء -بحيث دار رأسها لكل هذه الحفاوة . ولكنها حين تعود إلى غرفتها وحيدة بعد أن تتلاشى أصوات التصفيق كانت تشعر بتأنيب الضمير الحاد حين تفكر بأنطون المريض الذى يسيطر عليه الملل إلى حد البكاء وهو يعيش فى « سجنه » الدافىء فى يالطا . ومالبثت أن تسرع للكتابة إليه لتبريد ما تفعل إذ تقول : « تمّر بى فترات أشمئز فيها من المسرح . وأوقات أخرى أحبه فيها حباً جارفاً إلى حد الجنون . لقد منحنى حياة وحزناً كبيراً وسعادة عظمى .أعطانى إياك ، وجعل منى إنسانة . قد تظنها حياة زائفة ، مجرد وهم . ربما كانت كذلك ، ولكنها تظل حياة . فقبل المسرح كنت أنمو كما ينمو النبات ، ولم أكن أدرك شأناً من شئون الحياة . لم أكن أفهم الناس ولاكنه مشاعرهم » .

شأنه دائماً ، طمأنها من جديد وفرح لأجلها ، وأسعده نجاحها .

كتب لها مازحاً يقــول : « إنك على وشك أن تصـبحى ممثلة مشهورة، أليس كذلك ؟ سارة برنار جديدة . فـهل ستطردينني في هذه الحـالة ، أم تستبقينني لأسـير وراءك وأقوم بدور المحاسب ؟ » . وفى ملحوظة فى نهاية الرسالة يقول : « لست أعترض على أن تصـبحى مشهورة وتكسبى خمسة وعـشرين أو أربعين ألفاً فى العام . ولكن أرجو أن تفـعلى شـيئاً من أجل العفريت الصغير » .

و«العفـريت الصغير » أو « نصف الألمانى الصـغير » كان مـوضـوعاً يتردد فى رسائلهما ، فكلاهمـا يريدان طفلاً وبعد أن غادرت أولجا يالطا بفتـرة قصيـرة أخذت تتـحدث عن شعـورها بالغثيـان و وقد نصـحـها تشيـخوف بالإقلال من الشـراب . ومالبث أن أبلغـته عن إجهـاضـها فى٣١ آذار / مارس ، وكـتبت له تقول : « حين غـادرت يالطـا كنت آمل أن آمنحك العفـريت الصغير ، غـير أننى لم أكن متـأكدة . ظلـت أحس بالغـثـيـان ، ولكننى ظنـنـت أن الأمـر مجـرد اضطـراب فى المعـدة. على الرغم من تحـرقى للحـمل إلا أنـنـى لم أدرك أننى حـامل بالفـعل وماأن أرسلـوا فـى طلب الطبـيب حـتى أدركت الأمـر وبـدأت أبكى بحـرقة . فـقدانى العـفريت ، كـسر قلبى . . . » نقلت إلـى أحد المستشفـيات حيث أجريت لها عملية عاجلة ، ولـكنها لم تستطع التغلب على الصدمـة على الرغم من كل الحنو الذى أبداه جـميع أفراد الفـرقة ازاءها . كان تفكيـرها يتركز بكـليته على الاحـتماء بزوجـها فى يالطا . ولكن ، هل يود هو رؤيتـها بعـد أن خذلته ؟ وبعـد أيام قليلة كتـبت له تقول : « أرسل لى برقية . لاتنسنى ولاتحتقرنى بسبب فشلى » .

كان تشيخوف قـد أرسل برقية بالفعل - بل برقيات - يستفـسر فيـها عن حالتها ، ويؤكد بأنه يتطلع للقائهـا . فمسألة الطفل كانت أقل أهمية

بالنسبة له من صحة زوجته واستقرارها النفسى . وحين وصل زورقها إلى يالطا فى ١٤ نيسان / أبريل حملت إلى العربة على نقالة . أما تشيخوف فلم يكن يفكر قط بتأنيبها لإخفاقها ، بل إن نحولها وهشاشتها أثرا فيه بحيث أنه مرض هوأيضاً لأيام عدة . . .

فى وسط هذه التطورات شهد الوسط الأدبى الروسى حدثاً هاماً . فقد علم جوركى الذى كان قد انتخب عضواً فى القسم الأدبى لأكاديمية العلوم أن الحكومة طلبت إبطال نتائج هذه الانتخابات لأن جوركى موضوع تحت رقابة الشرطة . وقد أزعج هذا الأمر تشيخوف أيما إزعاج، وألّح عليه العديدون من أصدقائه الذين استشارهم فى هذا الموضوع بأن يقدم استقالته تضامناً مع جوركى ، فى حين نصحه محام بالايفعل شيئاً . أما تولستوى فقد تهرب من الموضوع بالإعلان بفظاظة بأنه لم يعتبر نفسه عضواً فى الأكاديمية فى أى يوم من الأيام. وهكذا لم يستطع تشيخوف التوصل إلى قرار. وحين استفسر كورولينكو عن موقفه إزاء سوء استغلال الحكومة لسلطاتها اكتفى تشيخوف بالقول : « حرارة زوجتى مرتفعة وهى تلزم سريرها باستمرار وقد انخفض وزنها بشدة » . وبعد أسابيع قدم كورولينكو لمقابلته فى يالطا وقررا كلاهما الاستقالة من الأكاديمية ، ولكنهما فضلا ألا يرسلا خطابى استقالتهما إلى الجمعية على الفور بل آثرا الانتظار لعل الجمعية تتراجع عن موقفها . وكان الهدف هو انتهاج موقف يتسم بالدبلوماسية لصالح جوركى بشكل أساسى .

أما الأوضاع العائلية فقد ازدادت سوءاً ، إذ عنفت والدته وشقيقته أولجا تعنيفاً شديداً لأنها تابعت نمط حياتها المفرط ذاته أثناء الحمل . وهذا الخلاف بين الطرفين أزعج تشيخوف أيما إزعاج بحيث أنه قرر

السفر مع أولجا إلى موسكو قبل أن تتماثل للشفاء . وما أن وصلا إلى موسكو فى ٢٧ أيار / مايو حتى لزمت فراشها على الفور .

وما لبثت أن وقعت فريسة مرض شديد ، وشخص الأطباء حالتها على أنها التهاب البريتون ونصحوا بإجراء عملية جراحية لها . وهنا جاء دور ماريا لتشعر بتأنيب الضمير ، وكتبت من يالطا بأنها تود الحضور لمساعدة شقيقها . غير أنه فى ١٢ حزيران / يونيو ، وحين بدا إجراء العملية أمراً لا مفرّ منه تحسنت صحة أولجا فجأة وتوقف الألم والتقيؤ . وقد تفاخر تشيخوف لنيميروفيتش - دافشينكو قائلا بأنه كان الطبيب الوحيد الذى أصاب حين منعها من تناول أى شىء سوى الحليب والقشدة . وسرعان ما زال الخطر عن أولجا .

ما أن شعر تشيخوف بالارتياح حتى بدأ يفكر بالإجازة الصيفية . وقد اقترحت ماريا قضاءها فى يالطا ، ولكن تشيخوف رفض الفكرة بحكم ذكرياته السيئة عن نتائج محاولته تحقيق السعادة العائلية هناك فى الربيع . ولكنه قرر قبول دعوة واحد من كبار الأغنياء هو سافا موروزوف* والذهاب الى بلدة بيرم فى الأورال ، على أن يترك أولجا فى رعاية والدته ، تدفعه من جديد رغبته الأزلية فى الترحال والتى كانت من القوة بحيث أنه لم يتردد فى الرحيل تاركاً وراءه زوجته المريضة التي يحبها أشد الحب .

انطلق الرجلان فى ١٧ حزيران / يونيو حيث استقلا القطار فى البداية ، ثم الباخرة عبر نهرى الفولجا وكاما ، وقضيا فى الطريق أسبوعاً إلى أن وصلا إلى إقطاعية موزوروف الهائلة فى فزيفوليو فيلفا المحاذية لبيرم . وأثناء الطريق كان تشيخوف يرسل البرقيات والرسائل المرحة لزوجته التى تتماثل للشفاء ، ويقول فى إحداها : « معنوياتى ألمانية عالية ، الرحلة مريحة وتبعث على السرور . سعالى أقل من

* شقيق سيرجى موروزوف التاجر المليونير الذى سبق ذكره فى هذا الكتاب .

ذى قبل بكثير . لست قلقاً عليك لأننى أعرف وأدرك كل الإدراك بأن كلبتى بصحة جيدة ولا يمكنها أن تكون على غير هذا الحال». أو يقول : « صحتى جيدة وأتناول طعاماً ممتازاً وأشعر بالدفء لا تغضبى ولا تسمحى للملل بالسيطرة عليك ، وحاولى أن تكون معنوياتك جيدة » . أو يقول : « لا شك أن وزنك سيكون قد ازداد لدى عودتى ، واستدرك بحيث تصبحين مثل زوجة صاحب المسرح » .

كانت إقطاعة سافا موزوروف مكونة من قصر فاخر مترف يقوم على خدمته جيش لجب من الخدم وتحيط به حدائق شاسعة وتتبعه غابة لأشجار البتولا وقرى عديدة ومعامل متعددة للمواد الكيميائية . وكانت لموزوروف لحية طويلة وتصرفات محدثى النعمة وادعاء حب الفن ورعايته ، وقد تبرع لتوه بمال خصص لبناء دار جديدة لمسرح الفن على أن تضم أحدث المعدات الكهربائية ومسرحاً دواراً وغرفاً مريحة لتبديل الملابس .

حال وصولهم أجبر تشيخوف على القيام بجولة فى المصنع على الرغم من كل ما يعانيانه من إجهاد . غير أنه وجد المصنع شديد الضجيج كريه الرائحة ، وهاله أن يعلم بأن العمال يشتغلون نوبات عمل يومية تمتد اثنتى عشرة ساعة . ولذا احتج لدى مضيفه الذى راقته حجج تشيخوف فوافق فى النهاية على تخفيض ساعات العمل إلى ثمانى ساعات للعمال المهرة ، وعشرة للعمال غير المهرة .

وفى الليلة الأولى أقام موزوروف مأدبة كبرى حضرها مثقفو المنطقة مسئولوها والمسؤولون فى مختلف مشاريعه . جاء هؤلاء يرتدون أفخر ماليديهم من ثياب ، وهم يرتعدون لمرآه ويقلدون أسلوبه المتكلف فى التصرف ويوافقون على كل كلمة يتفوه بها . وخلال المأدبة التى قدمت فيها سبعة أصناف متتالية من الأطباق لم يذق تشيخوف إلا بضع ملاعق من الحساء ، ولم يشرب إلا الماء ، ولم يتفوه إلا بالقليل من الكلام. ومعظم المدعوين لم تكن لديهم أدنى فكرة عمّن يكون هذا

« الكاتب». وكل ما يمكن أن يتـخيلوه هو أنه يعتبر مـوزورف أيضاً بمثابة محسن يغمره بنعمه وعطفه .

أما تشـيخـوف فقد كـانت لديه مشـاعر مـختلطة متنـافرة من الحب والكراهية إزاء هذا الإنسان . فقـد كان معجباً بطموحـه وعطفه وكرمه ، إلا أنه يمقت الثـروة الطائلة التى يملكها ، وأسلوب التـذلل والخنوع الذى يشجع الناس على ابدائه وهم يلعقون الفـتات من فوق موائده . وبعد أن زار المرفق الطبى المخصص للعمال قال لألكسندر تيخونوف ، وهو طالب هندسة شـاب كان يعمل لدى مـوزروف: « إنه رجل غنى، يبنى المسارح ويلعب لعبة الثروة . غير أن صيدليـته لا تحوى مسحة واحدة من اليود ، والمرض الوحيـد فيها مجـرد مخلوق سكـير يعب كل الكحول الموجـود فى الصيدلية ويعـالج مرضى الروماتيزم بزيت الخروع. جمـيعهم سواء ، رأسماليونا الروس هؤلاء من طراز روكفلر » .

وحين اضطرته ظروف عمله للمـغادرة عهد موروزوف الـى تيخونوف بأمر رعـاية تشيـخوف . وقد أحـس الشاب فى البداية بأن هـذا الضيف المشهـور متـحفظ ، بل سريـع التهيج ، إلا أنهـما مـالبثا أن أصبـحا صديقـين . كانا يمشيـان مسـافات طويلة عـبر الغـابة ، يذهبان للصـيد ويتناقشان فـى أمور السياسة والأدب . وكـانت بعض الملاحظات الهازئة التى يبديها تشـيخوف بين آونة وأخرى تؤذى مشاعـر هذا الشاب الحساس ذى الاثنين وعشرين عاماً . فقد قال له تشيخوف مثلاً فى أحـد الأيام : « الشبان يتـمردون ليظهروا بمظهر الأبطال ويلفتـوا نظر الشابات إليهم ». وحين قطّب تيخونوف لهـذه الملاحظة أحاط تشيخوف كتـفيه بذراعه وهو يقـول وابتسـامة حزيـنة ترتسم على شفـتيـه : « قل لى : هل تكتب ؟ . . . لا ! ، هذا حسن فالطلاب لم يعودوا يدرسون، بل يكتبون الروايات ويصنعون الثـورة ! قد يكون هذا أفـضل ، فعندما كنا طـلاباً كنا نشرب البيـرة ولا نقوم بأى عـمل - وكانت النتـيجة أنـنا مجرد مـجمـوعة من الشخصـيات الباهتة » . وفى مناسبـة أخرى قال له : « الشىء الأهم هو

الا تكذب ، وأحد السمات الجميلة للفن هو أنه لا يسمح لك بالكذب . يمكنك أن تكذب فى الحب ، فى السياسة ، فى الطب . ويمكنك أن تخدع الناس ، بل والله أيضاً - وهذه الحالات موجودة . ولكنك لا تستطيع أن تكذب فى الفن . هنالك أناس ، ومنهم تولستوى كما تعلم ، يتهموننى بأننى لا أكتب إلا عن الأمور التافهة غير الهامة ، وأنه ليس فى كتاباتي ابطال إيجابيون ، ولا ثوريون أو شخصيات مثل الإسكندر المقدونى ، أو حتى مجرد ضباط شرطة شرفاء مثل ليسكوف . ولكن أين أجد مثل هؤلاء الأبطال ؟ ليس هناك ماهو أحب إلى من ذلك ! أما نحن فإننا نعيش حياة تتسم بضيق الأفق . أرصفة مدننا غير مرصوفة ، وقرانا فقيرة وقومنا مستهلكون . فى سن الشباب نغرّد بحماس وكأننا العصافير فوق كومة من الروث ، ولكننا نصبح عجائز فى سن الأربعين ، ونشرع فى التفكير بالموت ! أى نوع من الأبطال نحن!».

كان موروزوف قد أنشأ مدرسة فى إقطاعته وقرر أن يطلق عليها اسم تشيخوف . ولكن تشيخوف كان يحس بالوهن يوم افتتاحها بحيث اضطر إلى استقبال هيئة المدرسة وهو يتمدد على أريكة فى القصر الريفى. ألقى ناظر الإقطاعة كلمة ترحيب بالكاتب المعروف ، فى حين اكتفى « الكاتب المعروف » بتأمل الناظر من رأسه الى قدميه ثم قال له: « فتحة بنطالك مفتوحة ! » فسرى جو المرح الذى احدثته عبارته هذه ، إذ أسعده أن يخفف من جو الجدية الغريب الذى يكتنف تلك المناسبة. وشأن جوركى ، فقد مست تيخونوف بساطة تشيخوف وسلوكه غير المتكلف ، وشجاعته فى احتمال مرضه الذى أصبح فى مرحلة متقدمة فى ذلك الحين . كان صدر تشيخوف غائراً وسحنته شاحبة ولحيته تميل إلى البياض . وكان يمشى بخطى بطيئة كرجل عجوز وقبعته تغطى عينيه ، ويتوقف فجأة وبصورة متكررة لالتقاط الأنفاس . كما أن مطرته المغلفة بغلاف جلدى لم تكن تفارقه حيث يعلقها حول رقبته وتتدلى من كتفه لتلامس وركه الأيسر . وكلما انتابه نوبة سعال يبرم غطاءها المصنوع من النيكل ويستدير ويبصق قشعاً ملعوناً .

مدمّى فى المطرة . وبعد أن ينتهى من ذلك يعدّل نظارته فوق أرنبة أنفه ويحاول الابتسام .

كان تيخونوف ينام فى الغرفة المجاورة لتلك التى يحتلها تشيخوف . وفى إحدى الليالى اخترق الجدار صوت سعال يصمّ الآذان وتلا ذلك تأوه. ركض تيخونوف مذعوراً حافى القدمين إلى الغرفة المجاورة وهو بثياب النوم، ورأى تشيخوف مستلقياً على جانبه وجسمه يهتز وهو منحن فوق مبصقة زرقاء يمسكها بإحدى يده . ومع كل اهتزازة من جسمه كان الدم يتدفق عزيراً من فمه . وقد كتب فيما بعد يقول " بأن الأمر كان وكأنما يرى زجاجة تفرّغ من محتوياتها . وحين نادى " انطون بفلوفيتش " انهار تشيخوف فوق وسائده ومسح شاربيه ولحيته الملطخين بالدم بمنديل واستدار باتجاه من يناديه . ويضيف تيخونوف : « وعلى ضوء الشمعة رأيت عينيه دون النظارتين لأول مرة . كانتا عينين واسعتين مذعورتين ، كعينى طفل.» وكانت الدموع تملأ رموشه ، وبدا وكأنه لم يتعرف على تيخونوف لأول وهلة . ولكنه بعد لحظة استطاع أن ينطق هذه الكلمات المتقطعة . . . « لم أدعك تنام ! سامحنى يا بنى . . . » .

بعد أيام قليلة شعر تشيخوف بأنه أحسن حالاً بحيث يمكنه أن يعود إلى موسكو . وما أن وصل إلى هناك حتى فكّر بالرحيل من جديد ، بصحبة أولجا هذه المرة بعد أن بدا وكأنها تماثلت للشفاء تماماً . وحين عرضت عليهما والدة ستانيسلافسكى استخدام بيت العائلة الصيفى الريفى فى لاييموفكا ، وهى قرية غير بعيدة عن موسكو وافق تشيخوف بامتنان . كان الريف فى المنطقة ساحراً ، وكان هناك نهر يمرّ بالمزرعة . وعلى الرغم من وجود عدد من الزوار إلا أنهما سعدا بهذا المكان النائى . وقد كتب

لستانيسلافسكي الذى كان فى الخارج فى ذلك الحين : « الطقس جميل والنهر جميل ، ونحن ننام ونأكل كالأساقفة . اشكرك من أعماق قلبى ، فمنذ وقت طويل لم أستمتع بمثل هذا الصيف . أذهب بصيد السمك يومياً، بمعدل خمس مرات فى اليوم ، وقد كان حظى فى الصيد حسناً (أكلنا سمكاً نهرياً أمس) . لست أستطيع أن أعبر عن مدى إحساسى بالبهجة لدى الجلوس على حافة الماء . باختصار ، كل شئ رائع ، والمشكلة الوحيدة هى كسلى وعدم قدرتى على إنجاز أى شئ . لم أبدأ مسرحيتى بعد ، وكل ما أفعله هو أن أقلّبها فى ذهنى » .

استمرت هذه الفسحة المضيئة اللاهية حتى ١٤ آب/ أغسطس ، وهو اليوم الذى حدده تشيخوف للرحيل إلى يالطا . وعلى الرغم من أنه كان على أولجا أن تعود إلى موسكو من أجل تدريباتها المسرحية فقد أغاظها أنه لم يعرض عليها مرافقته إلى القرم . وقد شكّت بأن ماريا أصرّت على عدم اصطحابه لها ، ولذا كتبت رسالة تطلب فيها توضيحاً وتصرّ على أن يسلمها تشيخوف لماريا دون أن يفتحها . وقد بدأ الحديث بين الزوج والزوجة ينحو نحو المرارة ورفض تشيخوف إصرار تأجيل سفره حتى ليوم واحد . ولما حان وقت رحيله كان حانقاً عليها وعلى أمه وشقيقته ، بل وعلى نفسه .

كان أول ما يعتزم تيشخوف أن يفعله فى يالطا هو تصفية الخلافات فى العائلة . إلا أن لهجة رسالة أولجا إلى ماريا أزعجت هذه التى أطلعت تشيخوف عليها ، فكتب لأولجا يقول : « لم تؤنبين ماشا ؟ أقسم لك بشرفى بأن أمى وشقيقتى لم تطلبا منى الحضور وحدى حين حثتانى على العودة إلى يالطا ، بل طلبتا منى أن أحضرك معى . رسالتك ظالمة جداً ،

وما يخـطه القلم لا يمّحي - وهذا كل ما يمكننـى قوله . غيـر أننى أود أن أؤكد من جديد بأن دعوة أمي وماشا كانت لنا كلينا - لم تكن لى وحدى، وهما تكنّان لـك كل الودّ والحب » . كما أبلغـها أيضاً بـأنه سيتـوجه إلى موسكو قريباً .

وحين انقضى أسبوع دون أن يتلقى رسالة أخذ يستعطفها للكتابة قائلاً : « لا تعذبيني يـا حبيـبتي دونما سبب . أرجـو أن تكتبى لى بتكرار أكـبر ، ويبدو أنك غاضبة منى وإن كنت لا أعـرف فى الحقيقة سبب ذلك . لأننى رحلت ؟ ولكننى ظللت إلى جـانبك منذ عـيد الفـصح دونما انقطاع . لم أبارحك قط ، ولم أكن لأرحل هذه المرة لولا العمل والنزف » .

وفى النهاية أبدت أولجـا بعض التجاوب ، ولكن لترشح وجـهة نظرها فى الموضوع . فقـد أعلنت باقتضاب بأنه لم يكن من حـق ماريا أن تطلعه على رسالتهـا ، وأن أمه وشقيقـته لم تكونا راضيتين عن بقائه إلى جـانبها خلال فتـرة مرضها ، وأنه لم يعـد هنالك من داع له للاسراع فى الذهاب إلى موسكو بعد أن كفّ عن حبّها .

حاول تشيخوف جهده إقناعها حيث يقول : « لا تكونى ظالمة ، أرجوك يا عزيزتى . على الإنسان أن يكون صافياً وواضحاً فيما يتعلق بالأمور التى تتـعلق بالعـدل والظلم . خـصـوصـاً وأنك إنسـانة رقـيـقـة كل الرقـة ومتفهمة. عذراً يا عزيزتى لهذه المواعظ التى لن ألجأ إليها ثانية ، فهذا الأمر يخيـفنى » . ثم أضاف بأسى : « على الرغم من أن رسـائلك كانت باردة فإنى أمضى بمضايقتك بعواطفى وأفكر بك دون انقطاع . أقبلك ألف مليون مرة وأعانقك ، وأرجـو أن تكتبى لى بتكرار أكبر وليس كل خـمسة أيام .

فأنـا زوجك قبل كل شئ ، لا تتـركينى بهـذه السرعـة وقبل أن تتـاح لنا الفرصـة للعيش معـاً كما يجب أن يكون عـليه الحال وقـبل أن تنجبى لى طفـلاً، أوطفلة صغـيرة . وحـينذاك ، وبعـد أن تمنحينى طفـلاً يمكنك أن تفعلى ما تريدين » .

وقد أجابته أولجا هذه المرة متهمة إياه بأنه لا يكترث فى الحقيقة بعودتهما لبعضـهما البعض فـى يوم من الأيام . وتتابع بمرارة : « وهذا لا يعنى إلا شيئاً واحداً ، وهو أننا عشنا مع بعضنا فترة طويلة بما فيه الكفاية . فهل آن الآوان لفراقنا ؟ حـسناً ، إذا كان هذا يسرك » . وما لبـثت أن عادت لتلحّ على موضـوع عملهـا الذى تقول بأنهـا تشعـر بأنه هو صلب المشكلة التى تواجههما . ولكن لمَ تتخلى عن المسرح إذا كـانت حاجته إليها ضئيلة إلى هذا الحد ؟ « إنك قادر على أن تعيش مـعى دون أن تتفوّه بكلمة واحدة ، بل كانت تمرّ بى فترات أشعـر خلالها وكأننى عبء عليك ، ويبدو أنك لا تريدنى إلا كامـرأة أنيسة ودودة . أمـا كإنسانة ، فـإننى أشعر بإننى غـريبة ومعـزولة عنك . . . » . وفى مقـاطع أخرى تظهر مـدى فهمـها العـميق لشخصية زوجها الغريبـة . فتحت المظهر الخارجى ترى رجلاً لا يكترث أيما اكتراث بحـياة الآخرين ، ولا يرضيه أى مكان يتواجـد فيه أو اللحظة التى يعيشها . إنسان يستطيع أن يعامل زوجته وكأنها مجرد شئ ،ولا يحاول أن يسبـر أغوار مـشاعرها الـدفينة ، إنسان لا يشـعر بأى غـيرة من المعـجبين المحيطين بها ، ويشتكى من تقاطر الزوار المسـتمر فى حين يسعده وجودهم فى الحقيقة .

كان هذا السيل المتدفق من التأنيب يفوق طاقـة تشيخوف على الاحتمال ولذا يتحـداها قائلاً : « من قال بأننى لا أريد العـودة إلى موسكو ، وأننى

رحلت دون رجعة وأننى لن أعود فى الخريف . ألم أكتب لك بكل وضوح بأننى قادم فى شهر أيلول وأننى سأعيش إلى جانبك حتى كانون الأول ؟ ثم إنك تتهميننى بعدم الصراحة وتنسيق كل ما أكتبه وأقوله لك ، بحيث أننى أصبحت فى حيرة من أمرى ، لا أدرى ماذا يمكننى أن أقول أو أكتب لك ! تقولين بأنك ترجفين حين تقرأين رسائلى ، وأن الوقت قد حان لفراقنا ، وأن هناك ما لا تفهمينه فى الموقف كله . ولكن يبدو لى يا عزيزتى أن من يلام فى هذا الأمر ليس أنا أو أنت ، بل شخص آخر ، إنسان تحدثت إليه وأوحى لك بألا تثقى بأقوالى وأحاسيسى . كل شئ يثير ريبتك ، وهذا أمر لا أستطيع حياله شيئاً على الإطلاق .لست أريد إقناعك بأننى على حق ، لأن محاولتى هذه لن تجدى . . . كل ما يمكننى قوله هو أنك زوجتى ! فمتى تدركين ذلك ؟ إنك أقرب وأعزّ مخلوق لدىّ ، ولقد أحببتك حباً لا نهاية له وما زلت أحبك ، بينما أنت تصفين نفسك بأنك مجرد امرأة «ودودة» ، غريبة ومعزولة عنى . حسناً ، أنت وشأنك إن كان هذا ما تريدين » .

بعد أن تعبت أولجا من الشجار خلّفت أفكارها القاتمة وراءها . كانت آسفة لهذا العراك ولكنهما كلاهما من لحم ودم ، ولكل منهما أسبابه . ولكنها أقسمت بأن أحداً لم يحرضها على عدم الثقة به . وكل ما فى الأمر أنها لم تعد تحتمل فراقهما بعد الفترة الرائعة التى استمتعا بها معاً فى لايبيموفكا . كما أنها أدركت أن فترات سوداوية تنتابها أحياناً : « إننى سيئة إلى حد مريع . وحين أفكر بك فإننى أتخيل نفسى دائماً جاثية على ركبتى طالبة منك الصفح » . ولتؤكد لأنطون أنها تبغى مصالحة عامة أبلغت تشيخوف أنها تتطلع لعودة ماريا وأنها وضعت زهوراً فى غرفتها .

تساءل تشيخوف فى هذه الأثناء فيما إذا كان الطبيب قد سمح لها بالسعى لإنجاب أطفال ، إذ كتب لها يقول : « الوقت يمضى دون جدوى يا عزيزتى ، وحين يبلغ عمر طفلنا عاماً ونصف العام سأكون قد أصبحت رجلاً أصلع أشيب اللحية لا يوجد فى فمى سن واحدة » . وقد أجابت بأن الطبيب أبلغها بأنها بصحة جيدة ، وتضيف : « هل يسعدك هذا ؟ سأمنحك طفلاً جميلاً فى غضون عام واحد » .

غير أن حرب الرسائل هذه لم تجعل تشيخوف يندم على بقائه فى يالطا. فأمه وأخته من ناحية كانتا تتجاهلان سمات العزوبية التى يمارسها فى حياته . كما سنحت له الفرصة فى تلك الفترة لاستعادة ذكرياته مع سيفورين الذى ذهب إلى يالطا فى أوائل أيلول / سبتمبر . وقد أظهر تشيخوف من جديد أن تحفظاته حول الخط السياسى الذى تنتهجه الأزمنة الحديثة لم يقلل من عرفانه بالجميل أو من عواطفه نحو الرجل الذى يقف وراء هذا النهج . وبعد رحيل سيفورين دافع عنه أمام رئيس تحرير إحدى الصحف المحلية ، إذ قال له : « على الرغم من أخطاء سيفورين فقد كان أول من رفع رواتب الصحفيين ، وحسّن ظروف عملهم ، وساعد العديد من الكتّاب المحتاجين ، وساهم بنشر الثقافة بصفة عامة .

لم يكن هدف تشيخوف فى دفاعه عن سيفورين هو الدفاع عن السلطة الراهنة. وحين علم بموت إميل زولا فى ١٨ أيلول / سبتمبر كتب لأولجا يقول : « إننى حزين هذا اليوم بسبب وفاة زولا . فوفاته لم تكن متوقعة، يمكن اعتبارها جاءت " بالغلط " . وعلى الرغم من أننى لم أكن شديد الإعجاب به ككاتب ، إلا أننى احترمه غاية الاحترام كإنسان ، خاصة فى السنوات الأخيرة حين أثيرت قضية دريفوس » .

« والقضـية » الأخـرى التى شغلت تشـيخـوف حينذاك كـانت قضـية جوركى. إذ بعد الانتظار لمدة شهر على أمل تثبيت انتخاب جوركى لعضوية الأكاديمية الروسية أدرك بأن إبطال انتخابه هو قـرار لا رجعة فيه . ولذا فقد رأى أن الوقت قد حـان لاتخاذ موقف يعـبّر عن الاحتجـاج على تجاوزات الدولة فيما يتعلق باسـتخدام سلطاتها فى نطاق عالم الأدب ، وهكذا شعر لأول مرة بأن عليه التزاماً « أدبياً » بالتدخل فى أمور لها الطابع السياسى . وفى ٢٦ آب / اغسطس أرسل خطاب اسـتقالته إلى ألكسندر فسـيلوفسكى رئيس القسم الأدبى فى الأكـاديمية . ويشيـر خطابه إلى التناقض الذى يراه فى كون قرار إلغـاء انتخاب جوركى جاء من جانب الأكـاديمية ، وبذا فإنه باعتباره عضواً فى الأكاديمية يعتبر شخصياً مشاركاً فى القرار . « لقد هنأت جـوركى من كل قلبى ، وأعلنت فى نفـس الوقت أن قرار انتـخـابه باطل وغيـر قائم » . ويختم كـلامه بالقول بأن ضمـيره لا يسمح له بقـبول هذا التناقض ويضيف : « وبعد طول تفكيـر لم أستطع أن أتوصل إلا إلى قرار واحد ، وإن كان موجعاً ومؤسـفاً ، وهو أن تتكرموا بإعفائى من عضويتى فى الأكاديمية » . وكـان قد أرسل قبل يوم واحد مـسودة هذا الخطاب إلى كورولوينكو الذى كان بدوره قد استقـال من الأكاديمية ، وكتب تعليقاً على هذه المسودة يقول : « حسناً ! هذا هو خطاب استقـالتى ، وقد استغرقتنى كتابته فترة طويلة ، وكان الجو حاراً ولذا لم أتمكن من كتابته بشكل أفضل. على أية حال ، يمكننى القول بأننى لا أتوقع لنفسى أن أكتب خيراً منه ».

نشر الخطاب فى العـديد من الصحف السرية ووزع فى خـارج البلاد . وقد أيدّ مـعظم المثقفين الروس هذا الموقف الشـجاع . وعلى الرغم من أن تشيخوف لم يعد عضواً فى الأكاديمية إلا أن شهرته تدعمت وأصبح جمهور

قرائه يتوقع منه المزيد من الأعمال الجديدة واللامعة . أما هو فكان يشعر بأنه يصل إلى نهاية الطريق . فهو مجهد ، يسيطر عليه الكسل ويشعر بأن رأسه خالى الوفاض .

أما أولجا فقد كانت تلحّ عليه من موسكو بأن يكتب مسرحيته ، تماماً كما تذكر الأم ابنها بتناول زيت الخروع أو بغسل شعره . كانت تبدو وكأنها مقتنعة بأن ما على الكاتب إلا أن يجلس وراء طاولته والأوراق الفارغة أمامه وبعدها ستتدفق الكلمات من قلمه . أما نيميروفيتش - داشينكو وستانيسلافسكى فكانا يضغطان من جانبهما أيضاً عليه .

كان دفاع تشيخوف المستمر عن نفسه هو أنه لا يملك الرغبة الدافعة ، ولا الثقة فى قدرته على الإبداع . كما أنه مبتلى بالزوار باستمرار ، والأهم من ذلك أن اهتمامه بتفاصيل الحياة قد تضاءل . فتقدم العمر والمرض وسّعا من الفجوة التى تفصل بينه وبين الناس . وعلى الرغم من أنه كان يبقى مسافة معينة بينه وبين أصدقائه دائماً ، فقد أصبح الآن منفصلاً عنهم تماماً ، ولا يشعر بأى حاجة للتحدث عن أموره مع أى إنسان ، حتى أولجا. وعلى العكس مما يبدو عليه ظاهرياً من استساغة متزايدة للآخرين فإنه كان يضنّ بنفسه أكثر فأكثر فى علاقته بهم . ولقد كتب فى أحد دفاتر مذكراته : « إننى أعيش وحيداً ، تماماً كما سأستلقى وحيداً فى قبرى . » ويقول بنين الذى كان وثيق الصلة به فى تلك الفترة : « لم يكن أحد يعلم ما يدور فى أعماق نفسه ، حتى أقرب الناس إليه . فقد كان قادراً على التحكم بنفسه بصورة كلية حتى فى أشد اللحظات حميمية أثناء تبادلنا الحديث . . . هل أحبّ حباً ملتهباً فى أى يوم من الأيام ، حباً رومانتيكياً أعمى ؟ . . . لست أعتقد ذلك » . كان بنين يستغرب حديث الناس عن

رقة تشـيخوف وحـزنه ودفئه ، وكـان واثقاً بأن تشيـخوف يمج هذه الفكرة المأخوذة عنه . ففن تشـيخوف يتّسم في الحـقيقة بوضوع الفكرة والبـصيرة والهدوء ، وهي نفس السمات التي يتمـتع بها العالِمْ . وهذه السمات هي ما يقـصده جوركي حين كتب حـول الخال فانيـا يقول : « إنك ازاء الناس أبرد من إبليس ، فأنت لا تكترث بهم ، وكأنك الثلج أو العاصفة الجليدية العنيفة » . كما أن صديقه الحميم في المدرسة سيرجينكو كتـب يـقـول : « على الرغم من كثـرة أصدقاء تشـيخوف إلا أنه لم يكن صديقـاً لأحد ، فهو لم يغرق قط بعلاقة مع أي إنسان بحيث ينسى نفسه ! » .

وهكذا ، وعلى الرغم من انفـتاحـه على الناس ولطفـه معـهم ، ومن استقباله لجموع المتوسلين للحـصول على الخدمات ، ومن مساعدته للكتّاب الشبان والمعلمين المعـوزين والمرضى المسلولين اليائسين ، إلا أنه لم يكن من ذلك النمط ممن يحبون بني البشر حبّـاً أعمى . فاهتمامه لم يكن يخلو من الأنانية بصـورة مطلقة . وقـد كانت يتمـتع بحسّ بديهي استثـنائي بحيث يستطيع أن يتفـهم نفسية الشخص المقـابل بلمح البرق . ولكنه بدلاً من أن يدع لهذه الموهبـة فرصة التـأثير على أعماق دخـيلته فإنه كـان يستخدمـها لابتداع شخـصيات أعمـاله . كان يمتلك عيناً نفاذة ورأسـاً بارداً ، ويعيش وكأنما يضع نفسه ضمن غـلاف زجاجي بحيث أن أقرب الناس إليه والذين يظنون أنهم إنما يلمسون حقيقته لمس اليد إنما كانوا في الحقيقة يلامسون هذا الجدار الشـفاف الذي يغلفه . كـان إنساناً يرتاب بالمسرّات الكبـرى ، شأن ارتيابه بالأحزان الكبرى ، ويؤمن دوماً بالاعـتدال في كل الأمور . عاطفته تتركـز برمّتـها على فنه - الأدب . وحين يكتب يتـوقف الزمن بالنسـبة له وتخرج من ذلك الفراغ صفحات مليئـة بالخربشة - حيوات جديدة ، قصة

جديدة . فهل هنالك سحر مذهل كـهذا السحر ؟ ومع ذلك فهو يرفض أن يعتبر نفسه متفـوقاً . يمقت التبجح لدى الآخرين ، ولـم يكن لينسى حدود موهبته حتى وهو فى قمة شهرته . ولكن هذا لم يكن نابعاً من التواضع أو استصغار الذات ، بل نتيجة لوضوح الذهن الذى يتحلّى به ولحسن تربيته . ولم يكن يكف عن تشذيب قصصه ومسـرحياته وصقلها ، ولكنه فى نفس الوقت لم يكن يعتقد بأنها سـتظل خالدة بعده . ولقد كتب بنـين يقـول : «على الرغم من المركـز البارز الذى يـتبـوؤه إلا أنه لم يكن يدرك حقـيقـة قدره». أما كوبرين فهو يقول « « لم يكن هنالك انسان ينصرف من مقابلته إلا وقد أذهلته موهبته الخارقة ودنوّ شأنه هو . . . » .

توصّل تشيـخوف إلى قناعة وهو يصـحح مجمـوعة أعمـاله – إذ كان المجلد الســادس فـى طريقـه إلى الظهـور فـى عـام ١٩٠٢ – بأن المبـادئ الأساسية التى استندت عليهـا أعماله ظلت ثابتة على مدى سنوات عمله . وهذه المبادئ هى البســاطة والصدق ، والوصف المقتصـد والدقيق ، وعدم اقحام الكاتب لنفســه فى العمل . فالمؤلف ، بطرحه لقضية مـا أو اقتراحه حلاً للمعـضلات التى يواجههـا أبطاله ، إنما يحاول استغـلال القارئ دونما حق ، وعلى القارئ أن يتـوصل إلى استنتاجـاته الخاصة وبمطلق حـريته ، على أساس ما يقدمه الكاتب من أدلة وبراهين .

وكلمـا تقدّم بـه العمـر كـان يرى عمق الرابطـة بين أدبه وحيـاته : لا حوادث ملفـتة للنظر ، لا عبارات طـنانة ، لا وقفات بطولية ، بل مـجرد موسيقى خافتة ، حميمة ، مثيرة للمشاعر ، تكتنفها مناطق رمادية محدودة وأسئلة قليـلة تبقى دون إجابة . باخـتصار ، أمـور الحياة الـيوميـة العادية التافهة التى تجـرّنا وتقربنا من الهاوية النهائية شـيئاً فشيئاً . ومـسرحياته لم

تكن تستهدف انتزاع الدموع من مآقى الجمهور كما كان يظن ستانيسلافسكى، بل تشجعهم على التفكير فى ظروف الحياة الإنسانية ، أو كما قال لتيخونوف : « كان هدفى دائماً هو أن أقول للناس بكل صدق : تمعّنوا بأنفسكم . تأملوا كم هى حياتكم سيئة ومملّة ! وهذا هو أهم ما يجب أن يدركه الناس . وحينما يدركون هذا فإنهم بالتأكيد سيخلقون حياة جديدة أفضل . لن يتاح لى أن أرى هذه الحياة . ولكننى أعرف بأن كل الأمور ستتبدل ، وأن شيئاً لن يتبقى من نمط الحياة كما نعيشها الآن » . وفى دفتر مذكراته يعبر عن نفس المفهوم بكلمات مختلفة إذ يقول : « يرتقى الانسان حين نكشف له حقيقته كما هى بالفعل بحيث يراها أمام ناظريه » .

كان هذا هو أمله الوحيد ، وإن كان أملاً غامضاً - فلم يكن يهتم قط بالثورات الاسياسية . وحين يتحدث أبطاله عن هذا الأمل فإنما هم يفعلون ذلك من باب السلوى والتسرية عن نفوسهم ، وكأنما هذا الأمل غير ممكن أو معقول بعض الشئ . فالمقدم فيرشينين يقول فى « الشقيقات الثلاث » : « الحياة صعبة ، وتبدو للكثيرين منا راكدة آسنة وميئوساً منها . غير أن علينا أن نعترف بأنها تصبح أكثر وضوحاً وإشراقاً ، وهنالك احتمال أكيد بأن الوقت الذى تصبح فيه مشعّة تماماً لم يعد بعيداً » . هذا فى الوقت الذى كان يوجد فيه القيصر والبيروقراطية والشرطة فى مواجهة الناس . وكما يقول تشيخوف : « ليس هنالك من مكان تتمتع فيه السلطات الحاكمة بما تتمتع به من قوة هائلة كما هو لدينا نحن الروس . ولكننا ، وعلى الرغم من كل الإذلال الذى نلقاه فى عبوديتنا جيلاً بعد جيل فإننا نخاف الحرية ! » .

كان تشيخوف يود أن يتناول في مسرحيته التالية موضوع السلبية باعتباره أحد الخواص الروسية . ولكنه شعر بأنه لن يكتب هذه المسرحية في يالطا على الإطلاق ، بل يحتاج إلى موسكو ، وأولجا ، وأضواء المسرح لتمدّه برغبة جديدة في العمل وتذوق الحياة . وحين استدعى الدكتور آلتشولر ليصدر أمره بالموافقة على الرحلة لم يطاوعه قلبه على الوقوف في وجه رغبة تشيخوف . وفي اليوم التالي كتب تشيخوف لأولجا : « يعتقد الطبيب بأن صحتي قد تحسنت ، وأنه بناء على التغيرات التي حدثت منذ الربيع فإنه يمكنه القول بأن مرضي يستجيب للعلاج ، بحيث سمح لي بالسفر إلى موسكو . ولكنه يقول بأن عليّ الا أذهب الآن بل أنتظر إلى ان تنجلي بواكير الصقيع . » وبعد يومين يقول لها « « لا تنسى يا كلبتي أن تشتري عند وصولي إلى موسكو بعض العطر وزجاجة كبيرة أو اثنتين من شراب الهوبيجانت أو ثلاث زجاجات صغيرة لنرسلها للدكتور آلتشولر . لن أفعل في موسكو شيئاً سوى الأكل والشرب ومداعبة زوجتي والذهاب إلى المسرح ، وفي وقت فراغي ، سأنام . لقد قررت أن أصبح من أتباع ابيقور الذين يتلذذون بالطعام والشراب . . . » .

أجابته أولجا بحماس عروس حيث تقول : « سيلتئم شملنا إذن يا حبيبي

أنطوشكا . يا الله ! يمكننا أن نأمل بالسعادة من جديد ، ولن تظل أمورنا مريعة إلى الأبد . . يا للقبل التي سأمطرك بها ! » .

ولكي لا تبقى أمه وحدها في يالطا أرسلها إلى أخيه ميخائيل في بطرسبورغ ، كما رافقتها ماريا لكي تتجنب مشاركة أنطون وأولجا حياتهما

بعد مشاحنات الصيف الماضى . وفى ١٢ تشرين الأول / أكتوبر حزم أنطون حقائبه ومضى بمعطف خفيف ، فقد وافقت أولجا على أن تحمل معطفه المصنوع من الفراء إلى المحطة إذا كان الطقس بارداً . كما هيأت أدويته المعتادة ، وهى زيت كبد الحوت والكريبوسوت ، ووعدته بكأس من البيرة وحمام ساخن حال وصوله .

كانت زيارة موسكو بالنسبة له متعة توازى فى أهميتها متعة لقائه بأولجا وعلى الفور بدأ تشيخوف يتجول فى الحوانيت والمطاعم والمسارح ، ورأى شاليبين وديجيليف وروزليمو وبنين وسيفورين وجوركى الذى كانت التدريبات فى مسرح الفن تجرى على مسرحيته الأولى : « الأعماق السفلى » . وقد سعد تشيخوف بالمقر الجديد لمسرح الفن ، إذ أعجب ببساطة الديكور والمعدات البارعة التى توفرت لخشبة المسرح . حضر عرضاً " لقوة الظلام " لتولستوى ، وشاهد الخال فانيا والشقيات الثلاث من جديد ، وشعر بأن الشقيقات الثلاث وصلت درجة الكمال .

غير أن هذا الخليط الملوّن من الأحاسيس أجهده وأرهقه فبدأ يسعل من جديد ، مما اضطره للعودة إلى يالطا بعد مرور ستة أسابيع فقط . كما أرهق أعصابه هذا التقلب المستمر : ذهاب ومجئ متكرر ، ترحال مستمر بين الشمال والجنوب ، تنقل بين حياة المدينة بصخبها ، وحياة الريف بروتينها ومللها ، زواج وعزوبية ، وهمُ الحياة المستمرة والاستعداد لمواجهة الموت . وقد كتب لأولجا فى اليوم التالى لوصوله يقول : « لا تدعى الملل يسيطر عليك يا كنزى . اعملى واذهبى أنّا تشائين . نامى قدر ما

تستطيعين. كم أود أن تكونى سعيدة وفى أحسن حال . لقد أصبحت أغلى عندى بعد إقامتى الأخيرة هذه معك . أحبك أكثر من ذى قبل ، وذهابى إلى الفراش ونهوضى منه دون أن تكونى معى يثير غيظى ، بل إنه مضحك بعض الشئ، فلقد أفسدتنى فى الحقيقة » .

كان الجو بارداً فى يالطا بحيث أنه لم يكن يجازف بالخروج . كما أنه لم يكن هناك ما يغريه بذلك . وحين جاء القيصر نيقولا الثانى إلى المدينة لتكريس كنيسة جديدة لم يحضر تشيخوف الاحتفالات .وفى أوائل كانون الثانى / يناير أصيب بذات الجنب ، وسمح للدكتور آلتشولر بعلاجه دون أن يثير أية متاعب. الشئ الوحيد الذى أسعده ذلك الشتاء هو أن موسكو ضجت بمسرحية « الأعماق السفلى » لجوركى . كما أسعده أيضاً أن يعرف بأن « طائر النورس » قد حققت نجاحاً باهراً فى نهاية المطاف لدى عرضها على مسرح ألكسندرنسكى ، وهو نفس المسرح الذى لاقت فيه هزيمة مخزية قبل ذلك بست سنوات وكتبت مجلة « عالم الفن » فى تعليق تحمس على المسرحية تقول : « نجاح طائر النورس على خشبة الامبراطورى هو أمر مثير للاهتمام ، إذ أنه يشهد على أن أيام كفاح تشيخوف قد انتهت. فكمسرحى ، أصبح تشيخوف من الكتّاب الكلاسيكيين ، ومسرح الدولة اعترف بهذه الحقيقة الآن » .

سيرجى دياجيليف كان هو الروح المحركة فى مجلة عالم الفن ، وقد اشتهر فيما بعد كمؤلف لألحان راقصة . وبذل هذا كل ما فى وسعه لإقناع تشيخوف بالكتابة للمجلة ، وناقش الاثنان فى أحد لقاءتهما الأخيرة فى

موسكو مشروع مستقبل الدين في روسيا . وحين تابع دياجليف المناقشة فى رسائله أجابه تشيخوف قائلاً : « يمكننى القول دونما خطأ بأن القطاع المثقف من مجتمعنا قد ابتعد عن الدين ، وهو يبتعد عنه أكثر فأكثر مهما قال الناس ، ومهما كانت طبيعة الجمعيات الفلسفية أو الدينية التى يتم انشاؤها . ولست أود المغامرة بالقول إن هذا شئ سيئ أو حسن . كل ما يمكننى قوله هو أن الحركة الدينية التى تكتب عنها شئ ، والثقافة المعاصرة وليس هناك جدوى من محاولة استنباط الحركة الثقافية المعاصرة ومزجها مع تلك الحركة الدينية ، فالثقافة المعاصرة هى بداية للعمل من أجل بناء مستقبل عظيم ،وهو عمل قد يستمر عشرات الألوف من السنين ، ونتيجته الحقيقية التى قد لا تتحقق إلا فى المستقبل البعيد هى أن يدرك بنى البشر الكنه الحقيقى لله ، اى بدلاً من أن يحاولوا أن يحزروا أو يحدسوا ماهيته، أو يبحثوا عنه فى كتابات دستويفسكى فإنهم سيدركون ماهيته بوضوح تام، تماماً كما يعرفون أن حاصل ضرب اثنين هو أربعة » .

يتناول تشيخوف هذا الموضوع أيضاً فى دفاتر ملاحظاته إذ يقول : « بين عبارة « الله موجود » و « لا يوجد إله » تمتد مسافة هائلة يجد الإنسان الحكيم الصادق صعوبة جمة في قطعها . غير أن الروسى لا يعرف إلا هذين النقيضين . أما ما يوجد بينهما فلا يهمه على الاطلاق . أو هو بعبارة أخرى لا يعرف شيئاً ، أو لا يعرف إلا القليل بصفة عامة » . وباقترابه من الموت أكثر فأكثر كان يزداد تشككاً ، ويتخذ موقفاً معادياً للمواعظ التى يبتدعها تولستوى لتنوير الانسانية . فقد اعتبر تشيخوف تفسيرات هذه المواعظ لماهية الله بمثابة إهانة لمؤلف « الحرب والسلام » و « آنا كارنينا » ،وكان على استعداد للاقتناع بأنها إنما تمثل أدلة على إصابة صاحبها بالخرف .

ولكن تشيخوف كان يجد فى نفسه علامات متزايدة على تضاءل الحيوية والنشاط . وبما أنه كان من المستحيل عليه التـركيز على مهمة تتطلب الدقة والعناية فقد اسـتمر فى إبلاغ أولجا بتفاصـيل الحياة اليومية التى يعـيشها ، مطلقاً باسـتمرار نفس الشكاوى ومردداً نفس الآمـال ، إذ يقول : « أحسّ بأننى إذا استطعت أن أنام ، ولو لنصف الليل ، وأنا أدفـن أنفى فى كتفك فسـأشعـر بأننى أحسن حـالاً وسأكفّ عن النواح . لسـت أستطيع الحـياة بدونك مهمـا كان عليه الحال . . . استـأجرى بيتاً ريفيـاً لفصل الصيف ، مكاناً أستطيع أن أكـتب فيه » . كـما كان يردد لها بأن الأوان سـيأتى حين يستطيع أن يعيش الـعام لطوله معها ، ويضـيف : « وحينذاك سيكون لك ابن يكسر الصـحون ويشـد ذيل الكلب ، وستنظرين إليـه وهو يفعل ذلك وتسعدين به . . . » . أما أولجا فقد ظلت تشعر بأنها مسئولة، شأنه ، عن حياتهما منفصلين ، وكـان يحاول جاهداً أن يخفف من شعورها بالذنب : « ما زلت ترددين يا عزيزتى بأن ضميـرك يؤنبك لأنك تعيشين فى موسكو بدلاً من أن تعيشى معى فى يالطا . ولكن ماذا يمكننا أن نفعل يا عزيزتى . حاولى أن تكونى منطـقية : فإن مكثـت معى فى يالطا طوال فصل الشـتاء فإن حياتك ستـتدمر ، وسأشعر أنا بتأنيب الضمـير ، وهو أمر ليس أفضل بكثـير. أما أنا فـقد كنت أدرك إدراكـاً تاماً بأننى سـأتزوج ممثلة ، أى أننى حين تزوجتك كنت أدرك أنك سـتقضين فصل الشتـاء فى موسكو دائماً ، ولست أشعر بأى إساءة أو خـداع حتى لجزء من المليون ، بل على العكس فإننى أعتـقد بأن الأمور تسيـر سيراً حسناً ، أو كمـا يجب لها أن تكون ، ولذا أرجو الا تضايقينى بضميرك بعد يا حبيبتى . سنلتقى فى آذار / مارس ثانية ، ولن نشعـر بالوحدة كما نشعر بهـا الآن . . . لقد بدأت العمل من

جديد ، وقــد لا أكتب لك كل يوم كــما أكتب الآن ، وســتغـفرين لى ، أليس كذلك ؟ » .

قوله بأنه « بدأ العمل من جديد » كــان مبـالغـة إلى حــد ما . فقصته « العروس » كانت تتعثر منذ بعض الوقت ، ولكنها أخذت تتقدم ببطء فى ذلك الحين . والمشكلة لم تعد نضوب مخيلته ، وإنما الإجهاد الجسدى الذى يحسّ به حــينما يحاول وضع الكــلمات على الورق . وقد كــتب فى ذلك يقول : « فى رأسى الكثــير من المواضيع التى أتحرق لوضــعها على الورق، ولكننى أشعر بأن هناك شيئاً ينقصنى ، إما فيما يحيط بى ، أو فى صحتى» وبعد أسابيع قليلة كان أكثر تحديداً ، إذ يقول : « أكتب ستة أو سبعة أسطر كل يوم ، ولا أستطيع أن أنجز أكثر من ذلك حــتى لو كانت حياتى تتوقف على هذا الأمـر . معدتى تــزعجنى يوميــاً تقريبــاً » . وفى النهاية يــسجل اعترافــاً صريحاً إذ يقول : فــلأكن صريحاً معك يا عــزيزتى . سيكون من دواعى سعادتى الكبرى أن أكفّ عن أن أكون كاتباً » .

وبفضل مــزيج من الكبرياء والإرادة ، و « مــلعقة حــساء كل ســاعة » استطاع أن يتقــدم فى كتابة قصة « العروس » .وفى ٢٧ شــباط / فبراير ، وبعد خمسة أشهر من الجهــود المتقطعة استطاع استكمال المخطوطة وإرسالها إلى « مجلة الجمــيع » التى كانت قد نشرت العديد من قصــصه الأخيرة . وفى هذه القصة تثور الشابة ناديا ضد عائلتها الميسورة ضيقة الأفق ، وتقرر فى اللحظة الأخيرة عــدم القبول بالزواج التقليدى الذى رتبتــه العائلة لها ، وتهرب من بطرسبورغ لحياة تضحية بالنفس . وأحلام ناديا حول وقت ليس ببعــيد يستــطيع الانسان فيــه أن ينظر إلى قدره بجــرأة وشجاعــة وإقدام ،

وبعينين مفتوحتين ، ويحقق فيه سعادته ويمارس حريته إنما تردد أصداء نهاية « الشقيقات الثلاث » .

هل كان تشيخوف يدرك بأن « العروس » ستكون آخر قصصه ؟ وأعماله تضم المئات منها ، بعضها شديد القصر ، وبعضها طويل ، بعضها شديد التفاهة والبعض الآخر يفطر القلب ، ولكنها بمجموعها إنما تشكل بانورما لم يسبق لها مثيل للحياة الروسية . فجميع الطبقات الاجتماعية ، من الفلاح الروسى إلى القسّ ، ومن أستاذ الجامعة إلى الحوذى ، ومن الطالب إلى التاجر ، كلهم يجدون لهم مكاناً فى هذه الكوميديا الإنسانية التى يبتدعها تشيخوف . وقراءة قصص تشيخوف تماثل القيام برحلة على متن دوامة سريعة تنقلك فى أرجاء روسيا فى أواخر القرن التاسع عشر برفقة دليل رابط الجأش ، صافى التفكير ، يطلعك على كل ما هناك ولكنه يتجنب التعليق . ووحدة الأسلوب من بداية السلسلة إلى نهايتها وحدة مذهلة . ولقد كتب تشيخوف لشقيقه ألكسندر حين كان العقد الأول من حياته الأدبية يوشك على الانقضاء : « الإيجاز قرين الموهبة » ، وهو قول لم ينسه على الاطلاق . كما أنه لم يعط الانطباع فى أى لحظة من اللحظات بأن معينه قد نضب .

بعد أن أرسل « العروس » أصبح بإمكانه أن يكرس طاقته الإبداعية كلها لبستان الكرز . ولكن سطورها كانت تستعصى على الظهور . وحين أنبّته أولجا أجاب بعنف : « ليس للكسل مكان فى الموضوع ، إذ إننى لست عدو نفسى أولاً . فلو كانت لدى القوة لكتبت خمساً وعشرين مسرحية وليس مسرحية واحدة » . ولكنه كان أكثر تفاؤلاً بعد يومين إذ يقول : « إن لم تظهر مسرحيتى بالشكل الذى أرسمه لها فيمكنك أن تفركى أنفى . لقد خصصت دوراً كوميدياً لك ولستانيسلافسكى » . وبعد أسابيع قليلة

كانت لديه أنباء محددة يبلغها إياها : « بستان الكرز تبرز للوجود ، وإننى أحاول تنفيذها بحيث تضم أقل عدد ممكن من الشخصيات، وبهذا تكون أكثر حميمية » . وفى ٩ نيسان / ابريل يقول : سأكتب المسرحية فى موسكو ، فالكتابة هنا مستحيلة » .

ولكن الدكتور آلتشولر لم يلبث أن سحق فكرة لقاء موسكو فى مهدها إذ أعلن أن حالة تشيخوف لا تسمح له بمغادرة البيت . وبعد أن خابت آماله توسل تشيخوف لأولجا أن تطلب من مسرح الفن إجازة لبضعة أيام لتتمكن من المجئ إليه فى يالطا ، ولكنها أجابت بحزن بأنهم على وشك السفر فى رحلة إلى بطرسبورج . وهكذا كانت أوامر طبيبه تضع القيود فى ساقيه بينما تقيدها هى أوامر مخرجها .

وبحلول الدفء سمح الدكتور آلتشولر لمريضه بأن يتمشى على ساحل البحر . ولكن تشيخوف كان يفضل أن يتمشى فى الحديقة مع كلابه . ولكنه كان يجد نفسه مضطراً للجلوس على أحد المقاعد لالتقاط أنفاسه بعد أن يفحص الأشجار لدقائق ويراقب العامل وهو يتولى تقليمها .

مع مجئ الربيع جاء أيضاً بنين وجوركى وكوبرين إلى القرم من جديد. كانوا يزورون تشيخوف باستمرار محاولين إضفاء جو من المرح بأحاديثهم معه . أما هو فقد كان يتابع تلك الأحاديث بنوع من عدم الاكتراث الذى يصل إلى درجة النعاس ، وقد وضع عصاه بين ساقيه بينما عيناه تحدقان فى البعيد . لقد فقد اهتمامه بأمور الحياة فيما يبدو ، وكانت تفلت من بين شفتيه أحياناً عبارات تنم عن اليأس والتسليم ، كما قال لبنين : كم أود أن أعيش حياة المتشرد ، الحاج . أود لو أرحل لأرى الأماكن المقدسة ،

أو أقضى فـترة من الوقت فى دير قـرب غابة ، أو على ضـفاف بحـيرة ، وأجلس على مقعد قرب البوابة فى ليلة صيـفية . . . » . وبعد فترة وجيزة يبدى دلائل على نفاذ الصبر ، فيحسّ ضيوفه بأن أوان رحيلهم قد حان .

كـتب لأولجـا فى ١١ نيسـان / ابريل : « رأسى يؤلمنى ، وقـد كنت أسعل. أما الضيوف فهم يلازموننى إلى ما لا نهاية . وبالأمس جلس رجل ملتحٍ على مائدتى أربع ساعات ونصف السـاعة » . كانت كل رغبته هى أن يرى زوجته من جديد - وفى أقرب وقت ممكن بحيث أصبح غير قادر على احتمـال يالطا أو زواره أو الدكتور آلتشولر . وفجـأة فاض به الأمر وهرب إلى موسكو دون أن يفصح عن نيته لأيٍ كان .

١٥ - كم استصعبت كتابة تلك المسرحية !

بعد شمس يالطا الدافئة كان على تشيخوف أن يلتزم غرفته لأيام متعددة في جو موسكو البارد . وقد أسعدته الشقة الجديدة التى كانت أولجا وماريا قد استأجرتاها فى شارع بيتروفكا ، وإن كانت الشقة تقع فى الطابق الثالث دون أن يتوفر فيه مصعد . غير أنه تجاهل هذا الأمر لدى الإشارة إليه فى رسائلهما . ولكن صعود الدرج كان عذاباً بالنسبة له ويستغرق منه نصف ساعة من التهيج والتوقف المتكرر . ولذا كان تشيخوف يفضل دعوة الأصدقاء لزيارته . وما أن انتشر خبر وصوله حتى تقاطر عليه كل من هبّ ودبّ . وظل تشيخوف يحسّ بأن عليه أن يستقبل الجميع بمن فيهم الكتّاب الشبان الذين يتعثرون فى خطواتهم الأولى ، إلى الكتّاب المستأجرين والصحفيين الذين يلهثون للحصول على خبر صحفى ، إلى الناشرين الذين يركضون لا نتزاع مواد ينشرونها ، إلى أدعياء الأدب الثرثارين . وقد قال صديقه المخلص بنين فيما بعد وهو يتذكر هذه الفترة : « صمته ، سعاله ، عيناه الخفيضتان ، وجهه الحزين المتأمل الهادئ الأقرب إلى الكآبة . كان من دأبه أن ينسى ما قال وكرره مرات ومرات ، شأن معظم من يجهدون التفكير فى الأمور . . . » .

ولرفع معنوياته ، أرسل له تولستوى صورة بتوقيعه وقائمة بثلاثين قصة من القصص التى يعتبرها أفضل ما كتبه تشيخوف حتى ذلك الحين - خمسة

عشرة اعتبرها « نخباً أول » وخمس عشرة اعتبرها « نخباً ثانياً » * ، وكان قد جمعها فى مجلد واحد ليعيد قراءتها باستمرار . ولقد عرف عنه قوله « تشيخوف هو بوشكين الأدب النثرى » .

كان النقاد المرموقون وجمهور القراء عامة قد توصلوا إلى قناعة أكيدة بأنه واحد من أساطير الأدب . فما الذى أضافه إلى ما كتبه غوغول وديستويفسكى وجونشاروف وتورجينيف وتولستوى بحيث يبرر المديح الذى حظى به من معاصريه ؟ مزيتان رئيسيتان فى الحقيقة : هما الصدق والاعتدال . فأسلافه المرموقون إنما كانوا ينحون ، كل بطريقته ، إلى الانفعال العاصف . فهم يأسرون قراءهم بالوصول بالأمور إلى أقصاها ، كما أن وصفهم ينحو إلى الغنائية الشديدة واللغة السحرية . أما تشيخوف، فكان أول من تكلّم بصوت خفيض هامس ، وبأسلوب ينمّ عن الثقة بمن يخاطبه . وعلى العكس من تورجينيف الذى يتسم سرده بالبطء والتناسق و "الفنيّة" ، فإن تشيخوف ينحو إلى الاقتصاد فى الكلمات بحيث أن لكل كلمة من كلماته أهميتها الكامنة المستترة . وعلى العكس من الآخرين الذين ينحون باتجاه دعم القارئ عاطفياً ويضحكون ويبكون معه ، فإن تشيخوف يواجه القارئ بالأحداث والشخصيات وجهاً لوجه ، ثم يترك له حرية التصرف . وأقصى ما يفعله هو أن يبقى القارئِ فى حالة توتر عصبى ، ثم

* كانت قصص النخب الأول فى رأى تولستوى هى : الأطفال ، فتاة الكورس ، دراما فى البيت ، الحزن ، الهارب ، فى المحكمة ، فانكا ، السيدات ، الشرير ، الظلام ، نعاس ، الزوجة ، المحبوبة ، الفتيان الصغار . أما قصص النخب الثانى فهى : تجاور ، وجع القلب ، الساحرة ، فيرا ، فى أرض غريبة ، الطباخ يتزوج ، الجمهور ، القناع ، حظ امرأة ، أعصاب، الزوج ، مخلوق لا حول له ، فلاحة ، الاهتياج ، أمور مقلقة .

ينقره بتفاصيل صغيرة يلقى بها فى الموضع المناسب . وهكذا ، ويدون عبارة توضيحية ، بضربة مفاجئة واحدة ، يجد القارئ نفسه وقد فهم الشخصيات فهماً عميقاً . والمرء لا يقرأ قصة لتشيخوف أو يشاهد مسرحية من مسرحياته وهو فى حالة نشوة سلبية ، بل ينغمس فى الحدث ويشارك فيه باستمرار . فتشيخوف لا يلجأ لعلف قرائه قسراً بما يريد أن يقول ، بل يجعل منهم مشاركين ومتواطئين معه فيما يحدث .

أما فكره فهو متشائم صادق فيم يخص الحاضر فحسب ، ولكنه يمتلك إيماناً عميقاً يصل إلى درجة السذاجة بالتقدم وبكمال الانسان وبحياة قادمة أفضل . وعلى الرغم من أنه كان مادى التفكير غير مؤمن ، إلا أنه يدرك فى داخل نفسه نفحة عميقة باقية من التأمل الصوفى ، وهاجساً أو حدساً يتعلق بشئ لا يستطيع أن يحدد ماهيته تمام التحديد . وما يعطى أعماله نبرة الصدق هو ذلك المزيج من الدفء الإنسانى والروح العلمية . وعلى الرغم من كل تواضعه فإن تشيخوف كان يدرك أنه ابتدع أسلوباً جديداً فى التفكير والكتابة فى روسيا . وقد قال لجوركى « السبل التى فتحتها ستبقى سليمة وصامدة ، وهنا تكمن كل قيمتى » .

كان جوركى وبعض أصدقائه المقربين يلحون عليه منذ بعض الوقت على التفاوض على عقد جديد مع ناشره ماركس الذى كان قد كسب خلال سنوات قليلة مبلغاً يزيد عن مائتى ألف روبل من خلال إعادة طبع أعمال تشيخوف . وكان قد بدأ لتوه فى إعادة طبعها كملحق لمجلته "نيفا" دون أن يدفع لتشيخوف كوبيكاً واحداً . ولم تكن هنالك أى إمكانية لفسخ العقد بإعادة مبلغ الـ ٧٥ ألف روبل التى كان ماركس قد دفعها لتشيخوف لدى توقيع العقد ، غير أنه كان من الممكن أن يطلب من ماركس أن يعيد

النظر على الأقل فى اتـفاق كـان واضـحاً أنه لمصلحـة أحـد الطرفين دون الطرف الآخر ، وبأن يـخصص ثلث الأرباح للمؤلـف على الأقل إذا أخذ حجم هذه الأرباح بعـين الاعتبـار . ولولا أن تشيخـوف كان يتلقى مـبالغ مجزية لقـاء عرض مسرحيـاته لواجه ضائقة مـالية فعلية . وبعد مـعارضة للفكرة استـمرت طويلاً توجه تشيـخوف إلى بطرسبورج لمقـابلة ماركس . ولكنه واجـه جداراً صلداً لا يتـزحزح ، فقـد رفض ماركس إعـادة بحث الموضوع رفـضاً قـاطعاً . والحـديث عن الشئـون المالية كان فى الـعادة من الأمور التى تزعج تشـيخوف إذ أن الأرقام تربكه إلى حـد كبير كـما تربك طفلاً صغيراً . ولدى مواجهـة خصم عنيد مثل ماركس لم يكن قادراً على حمل نفـسه على تقديم أية مطالب أو رفع صوته مطالبـاً أو ضرب الطاولة بيده احتجاجاً . وقد كتب لشقـيقته يصف هذا الاجتماع بقوله : « تكلمت مع ماركس ولكننى لم أتوصل لأية نـتيجة . أعطانى مـجموعة كبـيرة من الكتب المجلّدة تجلـيداً جـيـداً ، وزنها حـوالى ٤ بود (حـوالى ٤٥ كـيلو جرامـا)، وعرض علىّ مبلغ خمـسة آلاف روبل كمصـاريف علاج ، وهو مبلغ رفضته بطبيعة الحال » .

كان تشيخوف يحلم طوال فـصل الشتاء باصطحاب أولجا فى رحلة إلى سويسـرا وإيطاليا ،ولكنه لم يكن ليشرع فى مثل هذه الرحلة الشـاقة دون موافـقة أطبائه على ذلك . وقد قـرر استشـارة الدكتور أوستـروموف الذى قضى فى عـيادته فـترة نقـاهة قبل سنوات ولكن هذا وجـد صحتـه سيـئة للغاية، فالرئة اليمنى مصابة إصـابة شديدة ، كما أن انتفاخ الرئة انتقل إلى الرئة اليسـرى . والسفر إلـى الخارج أمر غـير وارد على الإطلاق ، بل إن أوستروموف نصحه بعدم السفر إلى يالطا إذ قال لتشيخوف : « إنك مريض

جداً » وقـد كتب تشـيخـوف لشقـيقتـه في يالطا بعد يوم واحـد من ذلك الكشف يقـول : « أنصت لقلبي ونقـر وجسّ كثـيراً ، ثم أعطاني خـمس وصفات دوائية وطلب مني ألا أقضي فصول الشـتاء في يالطا - فهو يعتقد أن فـصل الشتـاء سـيء هناك - « أمرني أن أعـيش في بيت ريفي قـرب موسكو. فماذا تفهمين من هذا الكلام ؟! » .

هذا الرأي أفرح تشـيخوف ، فقد تجـاهل تشخيص أوسـتروموف الذي ينذر بالخطر وسـعد بإمكانـية قـضاء فـصول الشـتاء في مـوسكو من الآن فصاعداً - لا على ساحل القرم - إلى جانب زوجـته وبقرب أفراد عصابته من الأدباء . لم يعد يتـوجب عليه أن يتسلل كـاللص إلى هذا المكان ، بل بناءً على أمر الطبيب . وقد كتب لماريا عـلى الفور طارحاً إمكانية بيع بيتي جورزوف وكوتشكوي ، وبدأ يبحث عن بيت ريفي في ضواحي موسكو .

غير أنه كان لابد له كطبيب من أن يتساءل عن أسباب هذه الآراء الطبية المتناقضـة لدى زملائه الأطبـاء . هل يصدق الدكتـور آلتشولـر الذي يتغنى بطقس القرم ، أم استروموف الذي يندد بأثـره الشنيع ؟ وقد كتب لصديقه الدكتور سيدرين يقول : « لا أدري كيف لي أن أفكر ؟ فإن كان استروموف مصيباً فلماذا قضيت أربعـة من فصول الشتاء في يالطا ؟ » . أما للافروف فقد كـتب يقول : « ما إن أسـتقر في موسكو وأبدأ في الشـعور بأنني في بيتي حتى يرسلني الاطباء إلى القرم ، بل وربما إلى القاهرة ! . . . » .

وفيما كـان الموسم المسرحي يقارب نهايته دعا أحد أصـدقاء أولجا اياهما لقضاء عدة أسابيع في مزرعـة خارج موسكو قرب نارو - فومنسكو ، وقد أسعدتهما هذه الدعوة أيما سعـادة ، وازدادت هذه السعادة حينما تبين لهما

أن البيت المخصص لهمــا وحدهما إنما يتسع فى الحقيقة لعــشرة أشخاص . وقد كـتب تشيخوف لشـقيقـته التى كانت فى يالطا يقـول : « هنالك نهر ومنطقة فـسيحة يمكن التـمشّى فيـها ، وكنيسة صـغيرة قديمة والكثـير من السمك. اكـتبى لى وخبـرينى عن أشجار الفـاكهة وشجـيرات الورد وكل المزروعـات الأخرى . كيـف حال شجـيرات الأوكـاليبـتوس والسـوسـن اليـابانى ؟». وقد مشّط هو وأولجا المنطقة بصورة كاملة بحثاً عن فيلا ريفية يستأجرانها فى فصل الخريف ، غـير أن أجرة العدد القليل المغرى منها كان يتجاوز إمكانياتهما المادية . ولقد قال تشيخوف خلال فترة راحة قصيرة فى فوسكورينسك لدى سافـا موروزوف ، قال لزوجته : « كل ما كتـبته حتى الآن أصبح فى ذمة التـاريخ وعفا عليه الزمن . فماذا سـأكتب بعد ؟ لست أدرى ، وهذا ما يقلقنى أشد القلق ! » .

وعلى الرغم من تشوقه للعودة إلى بستان الكرز التى كان قد بدأ بكتابتها منذ عام كـامل إلا أن تصحيـحه لصفحـات قصة « العـروس » التى كانت تنتظره فى نارو-فومينسكو شغله عنها : فقد شـعر بأن القصة تحتاج لمراجعة كاملة . وعلى الرغـم من أن هذا الأمر أخذ يجـهده إلا أنه ظلّ يرفض أن يقدم لناشـريه عملاً لا يرقى فى رأيه إلى مـستوى الكمـال ، وكان يعتـبر المراجعة بمثابة عملية تنظيف صحية فكرية ، وشرف المهنة هو الذى سيوضع فى الميزان .

حين عاد فى النهـاية إلى المسرحية وجد فى الأمـر صعوبة جمـة ، فقد عاش مع أبطالها فتـرة أطول مما يجب ، بحيث فقدت الشخصـيات جدّتها بالنسبة له . وفى أحد الأيام العـاصفة هبت الريح على شباك مكتبه وفـتحته وحملت معها عدداً من أوراق المخطوطة . وبعد استعادة هذه الصفحات من

الحديقة كانت قد تلفت بحيث أصبحت غير مقروءة البتة . وقد حاول أحد الزوار تخفيف الأمر على تشيخوف بالقول بأنه لن يكون من الصعب عليه أن يعيد تركيب مادة كتبها منذ فترة ليست بالطويلة . غير أن تشيخوف ابتسم وقال له : « أتدرى ؟ لست أذكر منها شيئاً ، وعليّ أن أكتبها من الصفر من جديد ! » .

وعلى الرغم من قرب نارو - فومنسكو إلا أنها كانت تنتمى لعالم آخر مختلف تماماً - هادئ ومنظم ورافه . غير أنه لم يكن معزولاً في هذا المكان عن قعقعة العالم الخارجى ، ففى هذا المكان علم بأنباء المذبحة المنظمة التى تمت فى كشنيوف . وعلى الرغم من أن الصحافة سكتت عن المذبحة سكوتاً مطبقاً غير أن الإشاعات ذكرت بأن مرتكبيها كانوا من الرجعيين الذين تحميهم الشرطة . وقد كان تشيخوف يرغب فى معرفة المزيد عنها ، وطلب من سيفورين أن يزوده بنسخ من الصحيفة الماركسية السرية (ليبراسيون) والتى تحدثت عن الموضوع . وعلى الرغم من المغامرة الكامنة وراء إرسالها إلاّ أن سيفورين ، الرجعى الأكبر ، استجاب لطلبه . وبعد أن قرأ مقالاتها المعادية للحكومة بكل إمعان وصفها تشيخوف بأنها أكثر جفافاً من مقالات فى موسوعة . بل إنه انتقد رسالة جوركى حول هذه الأحداث ووصفها لسيفورين بأنها « جذابة ، شأن كل كتابات جوركى، غير أنها مصنوعة أكثر مما هى مكتوبة : فليس فيها حيوية الشباب ولا شجاعة تولستوى ، كما أنها طويلة أكثر مما يجب ».

غير أن تشيخوف تعاطف من أعماق قلبه مع ضحايا المذبحة . وحين طلب منه تقديم قصة لمجموعة ستنشر فى وارسو يخصص ريعها للضحايا،

كتب له تشيخـوف يقول : « لم أكتب شيئاً ، أو كـانت كتاباتى نادرة جداً خلال الآونة الأخيرة . ولذا فإننى أكتفـى بتقديم وعد مشروط . يسرنى أن أكتب القصة إن لم تمنعنى صحتى من ذلك . أمـا فيما يتعلق بقصصى التى سبـق لى أن نشرتهـا ، فإننى أضـعهـا تحت تصرفك وسـيكون من دواعى سرورى العميق أن أراها مترجمة ومنشورة ضـمن مجموعة لمصلحة ضحايا كشـنيوف » . ولإظهـار مدى اهتـمامـه بالأمر أضـاف ملحوظة فى نهـاية الرسالة تقول : « تلقيت رسالتك أمس ، ٨ حزيران / يونيو » .

وفى تلك الآونة تقـريبـاً وافق على قـراءة مـخطوطات مـجلة « الفكر الروسى » . فهل اتخذ هذا القرار لأنه كان يريد أن يتابع خدمة الأدب على الرغم من تضـاؤل قـواه ، ولو تمّ ذلك من خـلال التـعليق على أعـمـال الآخرين ؟ على أية حال أضافت هـذه المهمة عبئاً جديداً على أعـباء حياته المثقلة .

وفى حين كانت أولجا تتفتح وسط مجموعات زوارهم فى البيت ، كان أنطون يذوى ، وكل أحاديثهم المتأنقة كانت أقل قيمة بالنسبة له من الأقوال الساذجة الصادقة التى يتفوه بها البسـتانى مكسيم . ونتيجة لذلك فقد غادر أنطون وأولجا نارو - فومينسكو قبل أسبوعين من الفـترة المقررة لهما للبقاء فيها ، وهى شهران . وكان المنطقى لهما أن يتوجها إلى موسكو ، ولكنهما اتجها إلى يالطا متحدّين توصيات الدكتور أوستروموف .

وصلا في ٩ تموز / يـوليو ، وقد صـمم تشيـخوف ألا يغـادرها حتى يستكمل بستان الكرز . ولاستنفار حوافزه الذاتيـة حدد لنفسه موعداً أقصاه أول تشرين الأول/ اكـتوبر تكون فيـه المسرحيـة جاهزة للمـوسم المسرحى

الجديد . غير أنه كان مجهداً جداً ، وعليه أن يستحث كل ما لديه من إرادة وتنظيم لإجبار نفسه على الاستمرار فى العمل يوماً بعد يوم وسطراً وراء سطر . وقد كان يأمل بأن يساعده جمال يالطا على التركيز إضافة إلى طقسها المعتدل وهدوء الحياة ودعتها فى كنف العائلة . غير أنه على الرغم من أن الحديقة كانت ملأى بالزهور ، والشمس براقة ،والسماء زرقاء فإن الحياة العائلية ظلت عاصفة . فماريا التى أسعدها أن ترى شقيقها من جديد كان يسوؤها أن تشاركها فيه زوجته . أما أولجا فقد استمرت فى انتقاء ملابسه ومراقبة طعامه مراقبة شديدة ، وأخذت تجبره على الاستحمام بالماء البارد كل يوم . غير أن هذا الطغيان لم يكن ليلقى قبولاً من جانب ماريا مهما كان خفيف الدرجة .

كما أن أولجا كانت تلاحق أنطون باستمرار لصرف المزيد من الوقت على المسرحية . فمسرح الفن كان يعتمد على المسرحية فى موسمه الجديد. وكتلميذ مذنب كان قد تعهد بأن ينهيها فى الوقت المناسب ، إلا أن ستانيسلافسكى ونيمروفيتش - داشينكو ظلاً قلقين واستمرا فى رسائلهما إلى أولجا فى الإلحاح بأسئلتهما حول مدى تقدمه فى الكتابة ، وفيما إذا كان سيفى بوعده أم لا . وقد أجابهما تشيخوف بنفسه قائلاً : « مسرحيتى ليست جاهزة بعد ، وهى تتقدم ببطء ، وقد يكون كسلى هو السبب ، أو ربما الطقس الجميل أو صعوبة الموضوع الذى أعالجه » . غير أن ستانيسلافسكى كان أذكى من أن يتقبل هذه التبريرات من جانب تشيخوف، فسبب التأخير هو مرضه وأثر هذا المرض على قدرات تشيخوف الخلاقة .

وقد كتب ستانيسلافسكى لأولجا يقول : « لا تظنى بنا سوءاً ، فنحن قلقون على تشيخوف وعلى من يعزّون عليه ، ولسنا نفكر بالمسرحية إلا

عندما نفكر بمصير مسرح الفن ، فكيفما نظرنا إلى الأمر فإن مسرحنا هو مسرح تشيخوف ، وبدونه سنكون في وضع حرج للغاية . » أما جواب أولجا في أوائل آب / أغسطس على احتجاجات ستانيسلافسكي فقد كان يتسّم بالتفاؤل ، إذ تقول : « إنه يعمل يومياً الآن ، وإن كان لم يكتب اليوم والأمس لأنه مريض . ليس لدينا الكثير من الزوار ، ولولا سوء صحته لكتب بصورة أفضل » . وقد قطعت رسالتها لتطمئن على تشيخوف ثم عادت لتقول : « لا تقلق ! لقد جلس لتوّه للكتابة » .

كان تشيخوف يشعر بأن معاناته ستكون أقل لو أنه كان يكتب قصة . ولطالما أقسم أغلظ الأيمان بألا يكتب بعد للمسرح الذى كان بالنسبة له كما كتب ليليتشيف منذ سنوات : « عشيقة صاجة ومتغطرسة ومتعبة ، وإن كانت تمتّع الذوق » . غير أنه كان يعود للمسرح باستمرار ، يجذبه السحر الناشئ عن صعوبة المهمة التى يواجهها فى هذه الحالة . كانت تسحره أيضاً تلك الرابطة المباشرة بين الكاتب المسرحى والجمهور ، والتى تكاد تقارب رابطة الدم فى قوتها . كان يرى فيها نوعاً من المعركة بين الطرفين ، يتحدى فيها الكاتب جمهوره بأن ينسى متاعبه ويتبنى متاعب شخصيات مسرحيته . فالمعركة للظفر بعقل الآخر ، والانتصار على قاعة كبرى مليئة بالناس أكثر إثارة للنشوة بما لا يقاس من الرضى الرقيق الذى يتلقاه كاتب النثر وهو يجلس فى ركن مكتبه المعزول . كما أنه كان ، بحكم علاقة أولجا بالمسرح ، على اتصال دائم بعالم المسرح بكل جلبته وضجيجه ، وكان هنالك ممثلون محددون في ذهنه لبعض الأدوار فى « بستان الكرز » ، وكان يسمع كلماته تنطلق على ألسنتهم وهو يكتبها .

وفى أواخر آب / أغسطس كان بإمكان أولجا أن تبلغ نيميروفيتش داشينكو بأن تشيخوف فى وضع أفضل ، وأنه يعمل « بحماس » . وقد

أكد تشيخوف ذلك بنفسه في ١ أيلول / سبتمبر إذ يقول : « لا تقلق ، فمسرحيتي ستكون جاهزة قريباً إذا استطعت أن أتابع العمل على نفس الوتيرة . لقد أتعبني الفصل الثاني تعباً شديداً ، غير أنني أعتقد أنه أصبح جيداً الآن . هذا وسأدعوا المسرحية ملهاة (كوميديا) » .

كان المقرر لأولجا أن تتوجه إلى موسكو في التاسع عشر من أيلول / سبتمبر ، وكان يأمل أن يعطيها المخطوطة كاملة لتحملها معها . إلا أن المرض ما لبث أن أقعده في ١٥ أيلول / سبتمبر . واعترف لزوجة ستانيسلافسكي بأن الصداع الشديد الذي يعاني منه لم يسمح له بأن يكتب، أو حتى أن يملي ما يريد أن يقول ، وأضاف : « ولذا فلن تستطيع أولجا أخذ المسرحية معها ، وسأرسل الفصول الأربعة حالما أصبح قادراً على العمل من جديد . » ولقد أوضح لزوجة ستانيسلافسكي أيضاً بأنه كتب مسرحية كوميدية ، لا تراجيدية ، وأنها تقارب أن تكون مسرحية هزلية في بعض مقاطعها .

ما أن غادرت أولجا بدا البيت فارغاً موحشاً بحيث لم تعد لديه الرغبة في العودة إلى العمل من جديد . وقد كتب لها يقول : « إنني بعيد كل البعد عن كل شئ بحيث إنني بدأت أحس بالقنوط . أشعر أنني انتهيت ككاتب ، وكل جملة أكتبها تبدو عديمة القيمة ، ولا فائدة منها على الإطلاق » . ولكن معنوياته ما لبثت أن ارتفعت في اليوم التالي نوعاً ما . وعلى الرغم من الصداع والانزعاج في المعدة والوهن العام الشديد الذي يحس به فقد عاد إلى مخطوطته ، وظل يعمل عليها حتى وقت متأخر على ضوء الشمعة . « الفصل الأخير سيكون مرحاً ، بل إن المسرحية كلها مرحة وخفيفة » . كانت رسائله اليومية تطلع أولجا أولاً بأول على وقائع معركته التي تدور على جبهتين : مع الكلمات والمرض : وفي الخامس

والعشرين من الشهر كتب لها يقول : « الفصل الرابع يأخذ شكله المطلوب بيسر وسهولة ، ويبدو لى أنه يسير سيراً حسناً ، والسبب الوحيد الذى حال دون إتمامى له هو مرضى » . وفى اليوم التالى أرسل لها البرقية التالية: « الفصول الأربعة كلها جاهزة ،وأقوم الآن بنسخها . سأرسلها لك . الصحة تتحسن . الطقس دافئ . أقبلك . أنطون » . وفي اليوم التالى كتب يقول : « شخصياتى تبدو لى نابضة بالحياة ، وهذا واقع . ولكننى لا أستطيع القول فيما إذا كانت للمسرحية قيمة حقيقية » .

وبتقدمه فى نسخ المسرحية كان حماسه يذوى ويتضاءل . كان يجد فيها عيوباً نفسية ومشاهد مطولة وحواراً تعوزه الرشاقة فى التعبير بصورة لا يمكن تجاهلها . ولذا صمم على تنقيحها برمتها . أما أولجا فقد كان صبرها ينفد باستمرار وتتساءل متى تستلم المخطوطة . كانت الفرقة كلها تنتظر على أحرّ من الجمر . بينما هو يتردد ويتابع صقل المسرحية مرة بعد مرة . وفى ٢ تشرين الأول / أكتوبر أرسل لها رسالة مستعطفة يدافع فيها عن نفسه ويقول : « ما زلت واهناً وأعانى من السعال . أكتب كل يوم وإن كنت لا أكتب الكثير . بعد أن أرسل المسرحية وتقرئينها ستدركين بأنه كان يمكن لى أن أكتب موضوعها بصورة أفضل لو كانت الظروف أحسن ، أى لو أن صحتى كانت حسنة . أما الآن فهى مخزية » . وفى اليوم التالى كتب لها يقول : « لا تغضبى بسبب المسرحية يا عزيزتى . إننى أنسخها ببطء ولست أستطيع أن أكتب بسرعة أكبر مما أفعل » . وبعد أربعة أيام يقول : « إننى أجرّ نفسى جراً باستمرار وأمضى ،ولذا فإن المسرحية تبدو طويلة وضخمة بشكل مرعب . إننى خائف لدرجة الفزع ولذا لم أعد أتلذذ بها » . وفى ١٢ تشرين الأول / أكتوبر جاءت أنباء النصر فى النهاية ، إذ يقول :

« حسناً يا مهرتى ، وليعش صبرى وصبرك . المسرحية جاهزة ، جاهزة كلياً ، وغداً مساءً أو فى صباح الرابع عشر ستكون فى طريقها إلى موسكو » . وبعد عدة فقرات يضيف باندفاع : « كم استصعبت كتابة هذه المسرحية » .

وما إن أرسل المخطوطة حتى انتابه الهم والقلق . ماذا سيكون رأى مسرح الفن بها ؟ ألم يقضم لقمة لا يستطيع فى الواقع مضغها ؟ لماذا سمح بإرسالها وهى ما تزال تعانى من الكثير من العيوب ؟ مرت خمسة أيام دون أن يتلقى كلمة واحدة من موسكو . وعلى الرغم من أن وصول البريد من يالطا يستغرق يومين فى الواقع إلا أن الوقت طال فى نظره أكثر مما يجب ، وعدم وصول أى خبر من نيميروفيتش - داشينكو هو بالتأكيد خبر سار .

فى النهاية فى ١٩ تشرين الأول / اكتوبر تلقى برقية تتكون من ١٨٠ كلمة يوضح فيها داشينكو لماذا يعتبر بستان الكرز أحلى مسرحيات تشيخوف وأكثرها جدّة وصدقاً وشاعرية . وقد كتب لأولجا يقول على الفور بأن القلق أمرضه طوال اليوم . وبعد يومين أراحه ستانيسلافسكى من التفكير نهائياً ، فقد شرح له مدى تأثره لدى قراءة المسرحية ، وردد ما قاله نيميروفيتش - داشينكو حول مكانة هذه المسرحيةضمن مجموع كتابات تشيخوف ، وختم كلامه قائلاً : « تهانىّ الصادقة إلى الكاتب العبقرى » . وما لبث كل من المخرجين أن أرسل برقية بعد أن انتهت الفرقة من قراءة المسرحية لأول مرة : « انطباع هائل . . . شعور جياش . . . نجاح غير عادى ، متألق . . . تستحوذ على الانتباه منذ الفصل الأول . . . بكينا فى الفصل الأخير . . . زوجتك يغمرها فرح عارم . . . لم تقابل مسرحية قط بمثل هذا الحماس الجماعى . . . » .

أى شخص آخر كان من شأنه أن يزهو ويتباهى بمثل هذا المديح ، أما تشيخوف فقد أقلقته هذه الحماسة المتقدة ، وقد كتب لأولجا يقول : « تلقيت برقية من ستانيسلافسكى اليوم يصف فيها مسرحيتى بأنها عمل موهوب ، وهو بهذا إنما يبالغ فى قيمتها ويسلبها نصف قيمة النجاح الذى كانت ستحققه لو كانت الظروف أفضل » . كما أزعجه أن يعمد نيميروفيتش - داشينكو إلى إعطاء ملخص عن المسرحية للصحافة - وزاد الطين بلّة أن الملخص كان غير دقيق . وعلى وجه الإجمال أخذ يشعر بأن مسرح الفن أخذ يتعامل معه بعجرفة بعد أن استلم المخطوطة . لماذا لم يبلغوه فيما أن كانت « بستان الكرز » ستقدم خلال الفصل المسرحى الحالى؟ لماذا لم يجيبوه عن رأيهم فى قائمة الممثلين الذين يفضل قيامهم بالأدوار الرئيسية كما قدمها لهم ؟ غير أن المسرح ما لبث أن أقر مجموعة الممثلين ، وتقرر أن تبدأ التدريبات فى ١ تشرين الثانى / نوفمبر .

ومع اقتراب الموعد كان تشيخوف يزداد عصبية وتوتراً وتشككاً . فباضطراره للبقاء فى يالطا بسبب نوبات السعال واضطراب الأمعاء لم يكن قادراً على المشاركة فى إخراج المسرحية ، وكان يخشى ما يمكن أن يحلّ بمسرحيته على يد هؤلاء المسكوفيين الذين ينقصهم الحذق أحياناً ، وإن كانوا حسنى النيّة . وحين تساءلت أولجا فيما إذا كان يمكنه أن يسمح بترجمتها إلى الفرنسية أجاب بعدم اطمئنان : « يا لهذه الفكرة الغريبة . لن يفهم الفرنسيون شيئاً عن بيرمولاى * أو عن بيع المزرعة ، وستكون المسرحية مملة جداً بالنسبة لهم . ليس هناك داع لذلك على الإطلاق . كما

* بيرمولاى لوباكين هو أحد الشخصيات الأساسية فى المسرحية ، وهو قن سابق يشترى مزرعة من كانوا أسياده فى الإقطاعية .

أنه ظل يمطر أولجا وستانيسلافسكى بالرسائل التى تتخذ شكل الضراعة تارة والتهديد تارة أخرى حول رأيه في الديكور وتجسيد الفكرة ، وعن سيكيولوچية هذا أو ذاك من الشخصيات . ومع ذلك ظل غير واثق من أنهم يبدون أى اهتمام بما يطلب وهو بعيد . وقد كتب فى ذلك يقول : « بدأت المسرحية بسوء تفاهم وستنتهى بسوء تفاهم ، وهذا قدر مسرحيتى فيما يبدو لى » .

كان تشيخوف يتوق منذ البداية للذهاب إلى موسكو لتسوية الأمور ، إلا أن صحته تدهورت تدهوراً خطيراً بحيث أنه كتب لأولجا منذ ٢ تشرين الأول / أكتوبر يقول بأسى : « تحدث معى آلتشولر مطولاً أمس حول مرضى ، وقال أشياء لا تسرّ حول الدكتور اوستروموف لأنه سمح لى بقضاء فصل الشتاء في موسكو . كما رجانى ألا أذهب إلى موسكو وألا أعيش فيها ، مؤكداً أن استروموف كان ثملاً دون شك حين اتخذ قراره ذلك » .

كان تشيخوف يشعر فى أعماق نفسه بأن آلتشولر على حق ، فقد أصبحت صحته الآن من السوء بحيث أنه لم يعد قادراً على تجاهل تلك الحقيقة لحظة واحدة . فمجرد ارتداء ملابسه كان يصيبه بضيق التنفس ، وحمل معطفه على أكتافه أضحى عبئاً عليه . وما أن يقطع خطوات فى الحديقة حتى تبدأ أذناه فى الطنين ، ونوبات السعال تمنعه عن الكتابة ، ومجرد مرأى الطعام - ناهيك عن الدواء - يبعث فى نفسه الغثيان . كانت أمه وأخته تراقبانه بحزن راجيتين أن يتبع توصيات آلتشولر ويتناول ثمانى بيضات فى اليوم ، ولكنه كان يرفض ذلك .

كل شئ أصبح يبدو له عبثاً يثقل كاهله ، حتى مراسلاته مع أولجا . وبالإضافة إلى المسرح كانت صحته هى الموضوع الرئيسى فى رسائلهما ، فقد كانت تتوسل إليه أن يعتني بنفسه - أن يأكل جيداً ويحرص على نظافته الشخصية . وهذا الهوس بالنظافة الجسمانية كان يثير انزعاجه ، وقد كتب لها أن الدكتور آلتشولر ذعر حين علم بأنها تحمله على الاستحمام بالماء البارد ، وأن السبب الوحيد الذى حمله على التخلى عن هذه العادة هو أن نبات السرخس والفطر أخذ ينبت فى أرجاء جسمه .

حين توجهت ماريا إلى موسكو في منتصف تشرين الأول / أكتوبر غدا أنطون شديد الاضطراب . ولتهدئة أعصابه أخذ يراجع مخطوطات « الفكر الروسى » التى أرسلت له لقراءتها فى وحدته . وكان يحاول إقناع آلتشولر بين آونة وأخرى بأن يسمح له بالسفر ، غير أن هذا ظل صامداً ثابتاً فى موقفه . بل إن أولجا نصحته بعدم التوجه إلى موسكو إذ أن الطقس هناك كان مريعاً . غير أنه ظل يحرن وتهاجمه ذكريات موسكو على شكل موجات . وقد كتب لنيميروفيتش - داشينكو يقول : « أود لو أذهب إلى الأرميتاج لأتناول السمك هناك مع زجاجة من النبيذ . لقد مرت بى أوقات كنت أحتسى خلالها زجاجة من الشمبانيا وحدى دون أن أسكر ، وبعد ذلك أتناول الكونياك دونما أن يؤثر فيّ ذلك أيما تأثير !! » .

كما تناول الموضوع ذاته بعد أيام قليلة إذ يقول فى رسالة لأولجا : « ليست بى أدنى رغبة للكتابة ، بل للتوجه إلى موسكو ، وما زلت انتظر إذناً منك . . . أشعر أن وضعى حسن فيما أظن ، ومعدتى هى المشكلة الوحيدة . احتاج للتغيير ، وإلى حياة أكثر فسقاً . أحتاج لأن أتناول أى طعام - فطر ، ملفوف - ولأن أحتسى أى شراب . ما رأيك ؟ » . كان

يبدو وكأنه واثق من أنه سيستعيد قواه حالما تطأ قدماه أرض موسكو . أما الحجج المنطقية فكانت تثير أعصابه . وقد كتب لها يقول : « مهرتي العزيزة ، سامحيني لأنني أثقل عليك بمزاجي المزعج دائماً ، ولكن تذكري أنني زوجك ، الأزواج جميعاً لهم أمزجة مزعجة فيما يقال . اطلبي مني بسرعة ، بالسرعة القصوى ، أن آتي إلى موسكو لأكون إلى جانبك . الشمس ساطعة هنا والطقس دافئ غير أنني أصبحت منحرف المزاج بحيث أنني لم أعد قادراً على الاستمتاع بمباهج المنطقة كما يفترض بي أن أفعل . إنني أحنّ لطين موسكو وعواصفها ، ولست أستطيع الحياة بدون الأدب والمسرح . كما أنني متزوج كما تعلمين ، وأود أن أرى زوجتي . . . إلى موسكو . . . إلى موسكو . . . ليست الشقيقات الثلاث هنّ اللاتي يتكلمن هنا ، بل زوج واحد . أعانق ديكي الرومي الصغير . . . حبيبك آ » .

كانت رغبته في السفر من الاحتدام بحيث كرر الكلام نفسه في رسالة إلى ستانيسلافسكي بعد يومين إذ يقول « انني انتظر بفارغ الصبر اليوم والساعة التي تأذن لي فيها زوجتي في النهاية بالقدوم . بل لقد أصبحت أشك بأن لديها ما تخفيه عني . الطقس هنا هادئ ودافئ ورائع ، ولكنني حين أتذكر موسكو وحمام ساندونوفسكي يصبح كل ما حولي هنا مملاً وعديم المعنى . أجلس في مكتبي وعيني لا تفارق الهاتف - فبرقياتي تملى عليّ بواسطة الهاتف - منتظراً أن أستدعى إلى موسكو في أية لحظة ! » .

وصلت البرقية في النهاية في ٢ كانون الأول / ديسمبر ١٩٠٣ . وبدون أن يفكر بنتائج مغامراته أو باستشارة الطبيب أسرع تشيخوف إلى موسكو مصمماً على أن يستمتع بهذه الرحلة حتى الثمالة .

١٦ - إننى أموت

ما إن علم الدكتور آلتشولر بفرار مـريضه حتى أعلن بأن سفره هو بمثابة انتحـار . ولكن مرأى موسكو وهى غـارقة فى الثلج أنعش تشيـخوف فى الحقـيقـة . كان مـغرمـاً بالبرد الجـاف ، والجموع المتنـافرة من البـشر فى الشـوارع، وأجـراس الكنائس وصـداها يتـردد فى الهـواء البـارد الرائق . مشكلته الوحيدة كانت صعود الدرج الذى لا ينتهى للوصول إلى الشقة فى الطابق الثـالث . ولكى يستبـقى كل ما يمكنه من القـوة قرر رفض جـميع الدعوات ، وإن كان قد حضر عرضاً لشيليابين فى مسرح البولشوى وحفلة عيد رأس السنة الجديدة التى تمت على شرفة مسرح الفن .

كانت الحفلة تتـضمن مشاهد هزلية قـصيرة ابتدعها الممـثلون أنفسهم . لقطة الذروة فيهـا كانت مبارزة بين شيليـابين القوىّ البنية والذى يرتدى زى أمـير شـرقى ، وأحـد أفراد الفـرقـة وهو شخـص ضئـيل الجـسم اسمـه سولرزيتسكى . تنتهى المبارزة بمصالحة وغناء بالأوكرانية . وبعد ذلك انتقل الجميع إلى بهو المسرح لتناول العشاء الذى رافقته أنخاب حارة لا نهاية لها. بدأ الرقص وسط موجة من جـاكيتات الفراك والبزات العـسكرية والفساتين اللامعة . ودخلت أولجا حلبة الرقص على الفور . أما تشيخوف وجوركى اللذان كانا ينتحيان زاوية وكأنهما متآمران مرحان ، فقد كانا يجاهدان لمتابعة الحديث فيما بينهما وسط أصـوات الضحك والموسيقا والصخب . ولم يمّر وقت طويل حتى كان كـلاهما يسعل بصوت أجش ، ونجح تشـيخوف في

القول وسط موجة سعاله وبصوت لاهث : « قد يقول الناس عنّا : لقد تبادلا سعالاً مثيراً للاهتمام إلى حد كبير . . . » .

غير أن تشيخوف كان يمضى معظم أمسياته فى البيت ، فى شقة شارع بيتروفكا . وكان بنين هو رفيقه الدائم باستمرار ، إذ أن أولجا كانت تمضى إما إلى المسرح أو إلى حفلة موسيقية أو خيرية . وكان نيميروفيتش - داشينكو يأتى لاصطحابها فى بعض الأحيان ، وهو يرتدى ثياباً غاية فى الأناقة ، تلفه رائحة السيجار الفاخر والعطر الفواح . أما أولجا فهى تلتفت إلى زوجها وقد غمرتها سيماء الشباب والحيوية وهى تقول : « لن تشعر بالملل إذا تركتك يا عزيزى ، أليس كذلك ؟ أعرف أنك تسعد بصحبة بوكويشون * . وحينذاك يقبّل يدها مودعاً فتمضى يتبعها مرافقها .

كان تشيخوف يشعر بارتياح تام برفقة بنين ، إذ يستطيع أن يغسل شعره بحضوره ، وهو يتحدث عن عائلته وطفولته ومفهومه للفن ، ورأيه فى الكتب التى يقرؤها . ويقول بنين فى مذكراته فيما بعد : « كانت أولجا ليوناردوفنا تعود فى العادة فى حوالى الرابعة فجراً - بل وتبقى حتى مطلع الفجر فى بعض الأحيان ، تفوح منها رائحة العطور والنبيذ ، وتبادر تشيخوف قائلة: ما هذا ؟ ألم تنم بعد يا عزيزى ! السهر لا يناسب صحتك . مازلت هنا يا بوكويشون ؟ حسناً ، لم يشعر بالملل على الأقل. وحينذاك أنهض مسرعاً وأمضى . . . » .

غير أن تشيخوف كان يجازف بالخروج فى بعض الأحيان وأولجا تتكئ على ذراعه . كانت أولجا قد ابتاعت له معطفاً من الفرو وكذلك قبعة من

* بوكويشون هو الاسم الذى كان يطلقه تشيخوف على بنين تحبباً .

فرو المنك ، وكانا يتمشيان بخطى منتظمة ويتوقفان بين آونة وأخرى ليتفرجا على واجهات المحلات ، وكان فخوراً بالمشى إلى جانبها .

كما كان يحضر معظم التدريبات على « بستان الكرز » ويراقب ستانيسلافسكى وهو يحوّل مسرحيته إلى عكس ما كان يريدها أصلاً ، دون أن يستطيع أن يفعل شيئاً إزاء ذلك . كان يجلس فى القاعة وحيداً وهو يتدثر بمعطفه الفرو وقد أحكم إغلاقه حتى عنقه ، مجاهداً ليمنع نفسه من السعال . وقد حاول أن يفهم ستانيسلافسكى ، بوجل فى البداية ما لبث أن تحول إلى الغيظ والغضب ، وجهة نظره بشأن المسرحية . إلا أن هذا كان يتمسّك برأيه بأنه ليس من حق الكاتب أن يحاول فرض رأيه على المخرج . ولقد كتب ستانيسلافسكى لصديقة من الممثلات فى ٢٦ كانون الأول / ديسمبر يقول : « كانت الورود قد بدأت تتفتح حين وصل الكاتب فأفسد كل شئ » .

كان الدافع الكامن وراء هذا الاحتكاك بين ستانيسلافسكى وتشيخوف هو اختلافهما أساساً حول طريقة معالجة العمل من الناحية السيكولوجية . فقد أوضح تشيخوف بكل جلاء بأنه ينظر إلى المسرحية على أنها كوميديا اجتماعية تصور انهيار طبقة النبلاء المتهالكة أمام طبقة مغامرة جديدة تتكون من السوقة محدثى النعمة . ومنذ بداية التدريبات يؤكد على الممثلين بأن هدفهم يجب ألا يكون حمل الجمهور على البكاء على نهج محترم فى الحياة فقدوه وتخلوا عنه . . .

غير أن تشيخوف جاء متأخراً ، ولذا فإن احتجاجاته لم تكن لتجدى مهما كان شأنها بحيث أنه لم يعد بمقدوره أن يثنى ستانيسلافسكى عما هو

عازم عليه . وقد قال لأحد زواره : « لست أفهم ما يحدث . إما أن المسرحية سيئة ، أو أن الممثلين لا يفهمونها ، ولا يمكن لها أن تعرض بالطريقة التى يجسدونها الآن على خشبة المسرح » .

بمرور الوقت أخذ القلق يسيطر على ستانيسلافسكى نفسه حول رد فعل الجمهور إزاء مسرحيته. وما لبث أن اهتدى إلى فكرة تضفى جواً من الأبهة على حفلة الافتتاح بحيث تتم فى عيد ميلاد تشيخوف الرابع والأربعين ، وهو ١٧ كانون الثانى / يناير ١٩٠٤ ، وبحيث يحتفل بافتتاح المسرحية ، وعيد ميلاد تشيخوف والذكرى الخامسة والعشرين لبدء تشيخوف بالكتابة فى آن واحد . فإن لم يصفق الجمهور للمسرحية والممثلين فسيصفق للمؤلف دون أدنى شك فى هذه الحالة * ! .

ولقد قرر جوركى وأندرييف أن ينتهزا هذه الفرصة أيضاً لإقناع ماركس بإعادة النظر فى العقد الذى سبق له أن وقعه مع تشيخوف . فقد كتبا نص رسالة تشير إلى أن روسيا تستعد لإحياء الذكرى الخامسة والعشرين لبدايات تشيخوف ككاتب ، وأن تشيخوف مريض ويقع تحت عبء ظروف صعبة على الرغم من كل ما قدمه لبلده . لذا فإن من واجب ماركس من الناحيتين الوطنية والثقافية أن يعدل شروط العقد . وقد وقع الرسالة العديدون من الكتاب والفنانين وأساتذة الجامعة أيضاً فيما بعد .

ولكن تشيخوف عارض بشدة إرسال هذه الرسالة حين علم بأمرها حيث قال : « لقد وقعت العقد بمحض إرادتى ولست أرغب فى نقضه ، فإذا

* كان تشيخوف فى الواقع ، كما أشار فيما بعد ، قد نشر أولى قصصه فى آذار / مارس ١٨٨٠ ، ولذا فإن الذكرى السنوية كانت مبكرة بعض الشئ .

كنت قد بعت أعمالى بثمن بخس فأنا الملام فى ذلك . فقد ارتكبت غلطة غبية ، وماركس غير مسئول عن غباء الآخرين ، وعلّى أن أكون أكثر حرصاً فى المرات المقبلة » . وقال لكاتب آخر « كان علّى أن أنشر كتبى بنفسى . ولكن هل كان يمكننى أن أقدرّ قبل خمس سنوات أننى سأكون على قيد الحياة ؟ كان مبلغ الخمسة وسبعين ألف روبل يبدو لى مبلغاً لا يمكن له أن ينفد . أما الآن فلولا دخلى من مسرحياتى لما كنت أملك أى شئ » .

ربما كان تشيخوف يشك بأن أصدقاءه يخططون لتكريمه فى حفل افتتاح بستان الكرز . وبما أنه يمقت مثل هذه الاحتفالات إلى حد الرعب فقد لزم البيت فى ليلة السابع عشر . وكان من دواعى أسى الفرقة أن ترفع الستارة دون أن يكون موجوداً ، غير أنه فى نهاية الفصل الثانى أرسل له ستانيسلافسكى ونيميروفيتش داشينكو ملحوظة تشير إلى أن الممثلين والجمهور يلحوّن فى طلبه . وصل إلى المسرح فى نهاية الفصل الثالث تقريباً ، فجروه على الفور إلى خشبة المسرح ووقف خلفه الممثلون ومجموعة من ممثلى الوسط الأدبى فى موسكو ، بينما كانت أمامه جموع الجمهور تصفق له وتحييه .

بدأ حفل التكريم بتقديم العديد من الهدايا والزهور التى تكومت أمام ضيف الشرف المذهول . وتلا ذلك إلقاء الخطب المتبادلة الطنانة ، حيث تنافس الصحفيون والممثلون ورؤساء الجمعيات الأدبية فى صب كلمات المديح على رأس رجل يكره المديح . كان تشيخوف يقف شاحباً وعيناه ترفّان تحت أضواء المسرح الساطعة وهو يتساءل ماذا يفعل بيديه ، ويجاهد كى يكبح سعاله . وحين بدا عليه وكأنه يشارف على السقوط صاح صوت

من بين الجمهور : « اجلس » غير أنه لم يكن هنالك ما يجلس عليه ! كما أنه شعر بأن مقتضيات الأدب تفرض عليه أن يقف ، فهذا أقل ما يمكن له أن يفعله لأولئك الذين تجمعوا لتكريمه ، وإن كان هو نفسه كثيراً ما سخر من ميل الروس لإلقاء الخطب المطوّلة وتبادل الأنخاب المتبجحة ! . ألم يمتنع عن حضور حفل تكريم جريجورروفيتش ، الرجل الذى " اكتشفه "؟! ألم يقل لنميروفيتش - داشينكو بأنه لا يخاف الموت بقدر خوفه خطبة يلقيها إنسان مثل جولتسيف فوق قبره ؟ وهذا هو جولتسيف ، رئيس تحرير « الفكر الروسى » يداهمه بكلماته الطنانة وكأنه قد دفن وأهيل عليه التراب بالفعل ؟ كان تشيخوف يستمع إلى نصوص الكلمات والبرقيات الواردة من مختلف أرجاء روسيا وهو يتوجه بأنظاره إلى الفضاء البعيد ويمسح نظارته ، وينتظر بفارغ الصبر انتهاء هذا الأمر برمته ! وفى النهاية وقف نميروفيتش - داشينكو على المنصة ليقول باسم مسرح الفن : « كلمات التهنئة ربما تكون قد أجهدتك وأرهقتك ، غير أن ما قد يسرّى عنك هو أن ما تراه ليس فى الحقيقة إلا عينة صغيرة من الحبّ الهائل الذى يكنّه المثقفون الروس لك . إن مسرحنا لمدين لموهبتك ولقلبك الرقيق ولروحك الصافية بحيث أنك تملك كامل الحق فى أن تقول : هذا مسرحى » .

بعد التصفيق النهائى غادر تشيخوف خشبة المسرح مستنزفاً تماماً دون أن يتفوه بكلمة شكر واحدة . استمرت مراسيم التكريم زهاء الساعة ، وقد اعترف ستانيسلافسكى بأنه على الرغم من أن الأمر سار على ما يرام إلا أن الحفل ترك فى الأفواه طعماً سيئاً ، إذ بدا وكأنه ذو مسحة جنائزية . غير أن الليلة كانت نصراً بالنسبة لماريا وتعويضاً عن عشرين عاماً من الحب ونكران الذات . وإذا كانت أولجا تشارك أنطون مجده وتقف معه تحت

الأضواء ، فإن ماريا راضية بأن تراقب ما يجرى من إحدى الزوايا . أما تشيخوف فما لبث أن أحس بالسعادة الحقيقية لمشاعر الحب والإعجاب التى انهالت عليه . وقد كتب لباتيوشكوف بعد يومين من ذلك يقول : « لقد كانوا سعيدين ومسرفين فى تمنياتهم بصورة غير متوقعة ، بحيث أننى لم أستطع أن أتغلب على آثار ذلك فيما بعد » .

ما لبث أن تبين بأن التصفيق كان للكاتب أكثر مما كان للمسرحية . فقد استقبلت الصحافة المسرحية ببرود ، حيث عنفت الصحافة اليمينية تشيخوف لأنه اختار موضوعاً مكرراً لدرجة الابتذال ، في حين انتقدته الصحافة اليسارية على أساس أنه جاهد فى استخدام كل أساليب كم الأفواه فى مسرحية يفترض أنها اجتماعية . لم يفهم أحد فيما يبدو الطبيعة الكوميدية للمسرحية ، وقد كتب لأولجا بعد عدة أشهر يقول : « لماذا تصرّ إعلانات المسرح والصحف على وصف مسرحيتى بأنها درامية ؟ » . وتوضح الرسالة أنه مازال غاضباً لإساءة فهم مسرحيته إذ يقول : « إن ما يراه ستانيسلافسكى ونميروفيتش - داشينكو فى مسرحيتى ليس هو ما كتبته فى واقع الأمر ، وإننى أراهن على أى شئ بأن أياً منهما لم يقرأ المسرحية كاملة قراءة متأنية على الإطلاق ! » .

تكمن الأهمية الأساسية لبستان الكرز ، والتى تجعل منها قطعة فنية ، فى ذلك التضاد والتعارض بين الصبغة التراجيدية لموضوعها ، والسمة المضحكة للشخصيات التى تقوم بأدوارها . وغياب الحدث في بستان الكرز بصورة أوضح من مسرحيات تشيخوف السابقة إنما يستهدف خلق التوتر الدرامى فيها . فالجمهور الذى يسحره الحوار الكسول العادى ويمسك بتلابيبه ، إنما يكف بذلك عن توقع حدوث أى تغيير ، بل يصل به الأمر

إلى حد تمنى عـدم حدوث شئ يفسد على أبطال المسـرحية طريقة حـياتهم الريفية البطيئة ثقيلة الحركة ، آملين أن يتم انقاذ البستان بطريقة ما .

تمتلك بسـتان الكرز أسرة عـريقة ، وهو بسـتان ملئ بالذكـريات . أما مالكوه فهم أناس حـالمون شأن الكثيرين من أبطال تشـيخوف ، وهم على حافة الانهيار والدمـار ، وأملاكهم على وشك أن تنتزع منهم . ومع ذلك فإن لايوبوفا راتنسكايا وشـقيقها ليونيـد جاييف يمضيان جلّ وقتهـما وهما يستـعيـدان ذكريات الماضي دون أن يكونا قـادرين على القيـام بأى عمل : فلايوبوفا لا تكترث بزيارة عمة لها يمكن لها أن تتكفلهم ، وجاييف يكتفى بلعب البليـاردو طوال النهـار ، أمـا آنيـا ابنة لاوبوفـا وصديقـهـا الطالب تروفيموف فهمـا يرحبّان بفقدان بستان الكرز ويعتبران روسيـا برمتها بستاناً لهمـا . وفى اليوم الذى يـجرى فيـه المزاد على البسـتان فى البلـدة تدعو لايوبوفا الجميع لحفلة راقصة فى قصرهـا ليرقصوا ويشربوا ويتبادلوا عبارات الغـزل ويتناسـوا الرعب القادم ، ويـأتى هذا الرعب فى شـخص التاجـر يـرمولاى لوباكين ، هو رجل فظ صـارم واسع الحـيلة ينوى قطع أشجـار الكرز وتقسـيم أرض البسـتان إلى قسـائم تبنى عليهـا بيوت ريفـية ، وهو يصرخ أمام الضيوف المجتمعين قـائلاً : « لقد اشتريت الإقطاعية التى عمل فيها أبى وجدى كأقنان ، وحيث لم يكن يسمح لى حتى بدخول المطبخ » . وعلى الرغم من أنه ينوى تدميـر الجمال الطبيعى لمجرد دوافع شـريرة بحتة فإنه لا يتـحمل من اللوم أكثـر مما يتحمله أنـاس مثل رانيفـسكايا وجاييف اللذين كـان إهمالهمـا هو الذى يجعل من ظفـره أمراً مـحتمـاً . إنه يمثل المستقبل ، المستقبل الملئ بالعمـل الشاق وصوت العقل البارد البعيد عن أية عاطفة ، فى حين يجسد الملاّك الإقطاعيـون روح روسيا التى كانت ساحرة

فى الماضى ولكنها أضحت متفسخة ومحكوماً عليها بالهلاك . مسرحية « بستان الكرز » ، وهى مسرحية مقتصدة أكثر من سابقاتها من مسرحيات تشيخوف ، تسحر الجمهور بتجسيدها جو العائلة بصورة تصل إلى درجة الكمال . وبفضل الحوار الذى يبدو وكأنه كلام عادى لا صبغة فنية له ، يشعر الجمهور بأنه يعرف هذه العائلة معرفة وثيقة منذ سنوات وسنوات ، وأنه الآن ضيف في الجنة المملّة المضجرة لهذه العائلة . وحين تنتهى المسرحية بدمدمات الخادم العجوز "فيرس" يرافقها صدى أصوات الفؤوس وهى تهوى خارج المسرح لقطع الأشجار ، يقع الجمهور فى حيرة من أمره : من يدين ، وعلى من يشفق ؟! وعلى الرغم من كل سخرية تشيخوف من أبطاله لما يتسمون به من تردد وضعف وعدم القدرة على حسم الأمور فإنه يصور نقاط ضعفهم بالكثير من الحب والتعاطف . وحين تغادر آنيا بستان الكرز وهى تصيح قائلة : « وداعاً أيها البيت ، وداعاً يا حياتنا القديمة ! » يجيبها تروفيموف بتفاؤل الشباب « مرحباً بالحياة الجديدة ! » ولكن فيرس الذى نسيه سادته هو الذى يقول الكلمة الأخيرة « لقد مضت حياتى وتسربت من بين أصابعى وكأننى لم أعشها قط ! » .

لابدّ وأن تشيخوف أحسّ إحساساً مماثلاً لدى بدء عرض « بستان الكرز» فقد وجد نفسه بمرور الأيام مجبراً على مواجهة الواقع أكثر فأكثر ، وبأنه لن يكتب بعد مسرحية أخرى . ولقتل الوقت ، أخد يصحح النسخ المطبوعة للمسرحية ويقرأ مخطوطات لمجلة « الفكر الروسى » ، كما كان يستقبل الكثيرين من الزوار ويشتكى ، كالعادة ، من اضطراره لاستقبال كل هذا العدد من الزوار . وقد كتب للدكتور سريدين يقول : « هذا نزل للمجانين ، ولست أجد دقيقة واحدة أختلى فيها بنفسى ، بل أرانى مجبراً

باستمرار على استقبال أو وداع الضيوف وتبادل الحديث معهم فترات طويلة. وفى اللحظات القليلة الفارغة أحلم بالعودة إلى البيت فى يالطا ، وهو حلم جميل أيضاً » .

كان الكثير من هذه الأحاديث يدورحول الحرب الروسية - اليابانية ، والتى كانت قد اشتعلت فى ذلك الحين . وعلى الرغم من أن تشيخوف كان يأخذ ما تنشره الصحف من مبالغات بعين الحذر ، إلا أن رد فعله كان رد فعل إنسان يفيض بالمشاعر الوطنية ، حيث كان يتنبأ بتحقيق نصر سريع لروسيا ، بل يتحدث دون أن يكون جاداً تماماً عن إمكانية تطوعه كطبيب فى هذه الحرب . غير أنه حين أشار أحد الزوار إلى كتابة مسرحية تدور حول الأحداث أجاب : « لابدّ من مرور عشرين عاماً على هذه الأحداث، ولا يمكن للمرء أن يتناولها الآن . يجب أن تكون روح الكاتب فى حالة سلام ودعة ، وإلا فإنه لن يستطيع أن يتجنب التحيز » . وحين عادت ليديا آفيلوفا إلى الظهور ثانية من أعماق الماضى طالبة منه قصة للمجموعة التى كانت تتولى جمعها لصالح الجرحى ، لم يشجعها على ذلك قائلاً بأن المشروع المعقول الوحيد هو مجموعة من أفضل ما كتب من نصوص في الأدب العالمى لإثارة التعاطف مع ضحايا الحرب .

وفى نفس الرسالة يعلن أنه عائد إلى يالطا . لم يكن يستطيع أن يفهم ما الذى يحدو به للعودة مرة أخرى إلى سيبيريا الجنوبية وإلى سجنه ذى السماء الزرقاء ، ولكنه يعرف أنه لا يمكن الاستغناء عن يالطا . ربما كان التغيير المستمر فى مكان إقامته محاولة لا واعية منه للهروب من عبق الموت، ولكنه كان يعرف بأن أمره انتهى بحيث أنه لم يعد هناك من داع لاستشارة آلتشولر أو أستروموف ، وإن كان الثانى قد نصحه بالإقامة فى

بيت ريفى فى ضواحى موسكو . وتحت تأثير الانفعال المؤقت قرر أن يذهب برفقة أولجا ليتفرج على بيت فى تساتيزانيو ، وقد استقلا مركبة جليدية مكشوفة، وكان الطقس جليدياً وإن كان مشمساً . كانت الفكرة كلها طائشة وإن كان تشيخوف قد استمتع أيما استمتاع بالمركبة ، وسط الريف الذى يتدثر بغلالته البيضاء ، ووسط الهواء الصافى وأجراس المركبة الجليدية الرنانة .

لدى عودته إلى البيت في ذلك المساء وجد رسالة من ليديا أفيلوفا ، تنتهج فيها أسلوباً مغايراً إذ تعتذر عن سلوكها غير اللبق فى الماضى ، وتلتمس أن تتاح لها الفرصة لشرح موقفها له شخصياً ، إذ تقول « كنت أخشى أن أموت قبل أن أبلغك بأننى أكنّ لك أعمق الاحترام واعتبرك أفضل الرجال . ماذا يهمّ إن كنت قد قللت من شأنى فى نظرك ، إذ لم يكن بوسعى أن أفعل غير ذلك ؟ وكانت تجربتى تلك أكثر تجارب حياتى إيلاماً . . . لست أطلب منك الصفح ، بل أن تفهمنى » .

أتخذ تشيخوف موقف الحذر بالطبع ، ولم يكن ينوى أن يورط نفسه فى حلقة جديدة من الرسائل المتبادلة مع ليديا الماكرة المندفعة . لمَ لا تريد الاعتراف بأنها خرجت من حياته منذ وقت بعيد ؟ جوابه على رسالتها وضع حداً نهائياً لمراسلاتهما إذ يقول : « أسف . . . أشعر بالتجمد ، فأنا عائد لتوى من تزارتسيانو . . . يدى تكاد لا تقوى على الكتابة وعلىّ أن أستكمل حزم حقائبى . أتمنى لك كل السعادة ، وآمل أن تسعدى بالحياة وأن تكون نظرتك لها أقل تعقيداً ، فالحياة أبسط بكثير مما تحاولين تصويرها، فهل تستحق الحياة بالفعل كل هذا التأمل المعذب الذى نبديه نحوها نحن الروس ؟ لست أعلم ! » .

في اليوم التالى ، وهو ١٥ شباط / فبراير ودع أولجا وتوجه إلى يالطا. ولدى وصوله وجد شقيقه ألكسندر وزوجته وابنه الأصغر ومربيته وكلبه يقيمون فى البيت الريفى المجاور ، إذ جاءوا ليقضوا شهراً فى القرم ، وعلى الرغم من شعوره ببعض الانزعاج فى البداية غير أنه ما لبث أن استعاد رباطة جأشه ، إذ كان ألكسندر قد أقلع عن الشرب والتصرفات الحمقاء ، بل وأصبح محدثاً جيداً . ولدى رحيله حزن أنطون فى الحقيقة لفراقه .

معنوياته العالية أدهشت الدكتور آلتشولر وهو يريه الهدايا المختلفة التى تلقاها فى الاحتفال . كان تشيخوف معجباً بشكل خاص بصنارة جديدة محسّنة لصيد السمك ، بينما أعجب الدكتور آلتشولر بمحبرة فضية من القرن الثامن عشر . وقد قال له تشيخوف ساخراً حينذاك : « مادامت قد أعجبتك إلى هذا الحدّ فهى لك كعقاب تستحقه بعد موتى » .

ولكن بعد أسبوع واحد كان الاكتئاب قد أخذ يسيطر عليه من جديد . فقد كتب لأولجا فى ٢٣ شباط يقول : « لو أن شقة موسكو لم تكن مرتفعة بتلك الصورة المضحكة لكنت أتوق للعودة إلى موسكو من جديد». وبعد أربعة أيام أخرى يقول : « الحياة مملة إلى أبعد حد ولا يوجد فيها ما يثير . الناس من حولى لا يثيرون الاهتمام بأى شكل من الأشكال ، وبصورة تبعث على الضيق ، فهم لا يهتمون بشئ ولا يكترثون لشئ » . وأخذ يحلم بالصيف الذى سيقضيه مع زوجته ، إذ يقول لها « « أين سنعيش ؟ أفضّل من ناحيتى أن أكون قريباً من موسكو ، وبقرب المحطة لكى نستطيع الاستغناء عن وجود عربة ، وعن تواجد المحسنين والمعجبين . فكرى بموضوع البيت الريفى يا عزيزتى . لابدّ أنك ستعثرين على شئ

مناسب ، فأنت حـاذقة ومنطقية وعـملية - حين لا تكونين غاضـبة . كم أستمتع بالتفكير فى مشوارنا بالعربة الجليدية من وإلى تزارسيانو » .

أخبار موسكو التى كـانت تشير إلى تصاعد شعبـية « بستان الكرز » لم تفلح فى رفع مـعنوياته . وعلى الرغم من أن المسرحـية أخذت تـنتقل من مكان إلى آخر فى الأقاليم أيضاً ، وكانت دور المسرح تمتلئ عن آخرها لدى عرضهـا فإن المعلومات التى كـانت لديه إنما تتعلق بعرض مسـرح الفن لها فقط ، وكان مقتنعاً بأن طريقة عرضها هذه كانت مغلوطة تماماً . وقد كتب لأولجا يقول : « الفصل الذى يتوجب ألا يتجاوز عـرضه اثنتى عشرة دقيقة كحد أقصى يمتـد ويجرجر فى عرضكم مدة أربعين دقيـقة . كل ما يمكننى قوله هو أن ستانيـسلافسكى دمّر مسرحيتى » . وينقل يفـتيخى كاربوف ، المخرج الأساسى « لطائر النورس » فى مذكراته عن تشيخوف قوله : « هل هذا هو بستـان كرزى ، وهل أولئك هم شخـصياتى ؟ باسـتثناء دورين أو ثلاثة أدوار ، فإن الباقين لا يمتّـون إلىّ بأية صلة . إننى أصف الحياة ، ربما كانت حياة قاتمة وتقليدية ، ولكنها لا تبعث على الضجر والأنين . أما هم فإنهم يجعلون منى كاتباً بكّاءً ، أو كاتباً يثير الملل والضجر . والغريب أننى كتبـت مجلدات عدة من القصص المبـهجة ، ومع ذلك فإن النقـاد يصرون على أن يلبسونى ثوب كاتب بكّاء ، تسحّ دموعه باستمرار » .

لم يبدأ تشـيخوف باسـتعادة ثقـته بمسرح الفن إلا حين تسلّم برقـية من ستـانيـسلافـسكى فى ٢ نيسـان / أبريل بعد أول عـرض للمسـرحيـة فى بطرسبورغ يقول فيها إنها لاقت نجاحاً لا يمكن مقارنته بما لاقته من نجاح فى موسكو . وقد أكد الحقيقة نفسهـا نيميروفيتش - داشينكو مدعياً بأنه لم يرَ جمهـوراً يتفاعل بمثل هذه الشدة مع كل تحول سـيكولوجى دقيق فى البناء

الدرامي للمسـرحيـة . كـان هذا هو النمط الذى يتكرر دائمـاً : مـعظم مسرحيات تشيخوف كانت تقـابل بمقالات نقدية متحفظة إن لم تكن معادية فى البداية ، إلى أن تحـقق فجأة اسـتقبالاً متحـمساً من الجمـهور . وعلى الرغم من أن تشيـخوف تعوّد ذلك بعد كـل تلك السنوات فإن هذا الموقف كان يفـاجئه ويتـرك فى فمه طعم المـرارة . غير أنه كـتب هذه المرة لأولجا ليرفع من مـعنوياتها بعد هجـوم ردىء على مسرح الفن قـرأه فى صحيـفة الأزمنة الحديثة : « لن يسـتطيع أحد أن يمسّك بعد مهما كـان الحال . لقد حققت ما كنت مصـممة على تحقيقه ويمكنك أن تجابهى الحـاضر والمستقبل وأنت مطمئنة كل الاطمئنان » .

وفى تلك الآونة لم تعد أولجـا تناقش مسألة تركـها للمسرح للاهتـمام بأنطون ، كمـا أن أنطون لم يعد يتصـور أن باستطاعتـه أن يظل قادراً على الحيـاة دون أن تكون إلى جانبـه طوال العام . وعلى الرغم من أنهـا كانت تخص المسرح بكل كيـانها ، كما أنه من ناحيته لم يـكن على استعداد لأن يدوس امرأة تحت قدميه ، غير أنه كان يكتب لها يومياً تقريباً واصفاً إياها - بـ « مهرتى » أو « نصفى الرائع » أو « ممثلتى العظيمة العزيزة » أو « كلبتى الصغيـرة » . وقد كتب يقول : « أتوق لرؤيتك بفارغ الصبـر يا فرحتى ، فحين تكونين بعيدة عني تصبح حيـاتى وضيعة مملّة ، وأحمد الله على كل يوم يمضى - ليست لدىّ أية أفكار أو رغبات ، ومـا لدىّ هو مجرد الصبر وأنا أذرع المكان من زاوية إلى أخـرى » . وفى اليـوم التالى يقـول لـهـا : «بانتظار أوامرك بشأن سفرى ، وبشأن البيت الريفى ، وفيما يخص حياتى. إننى أتوق ، وأتشوق فعلاً لأن أضـربك وأثبت لك مدى قوتى ، أتوق لأن أتمشى معك فى شارع بيتروفكا وتـفيرسكايا» . وبـعـد أيـام قليـلة يقول :

« أشعر بضجر شديد بدون زوجتى ، وأخشى أن أتخذ عشيقة . . . إنك تسألينني عن ماهية الحياة ، وكأنك تسألينني ما هى الجزرة . . . فالجزرة هى الجزرة وليس هناك ما يمكن أن يقال عنها » .

هذا التعليق الأخير يمثل باختصار موقف تشيخوف من القضايا الميتافيزيقية . فهو يرفض كل التفسيرات الدينية أو الفلسفية للعالم الآخر . فإذا كان الله موجوداً فإننا إنما نقلل من شأنه جلّ وعلا إذا زعمنا بأننا ، بذكائنا الضئيل المحدود ، قادرون على فهم ماهيته . ولقد كتب فى دفتر ملاحظاته يقول : « إنما يموت من الإنسان تلك الأجزاء التى تخضع لحواسنا الخمس فقط . أما ما يتجاوز هذه الحواس ، وهو فى الغالب هائل ، ولا يمكن تصوره وسامٍ فى قيمته ، فإنه يستمر فى الوجود » .

كان يحسّ بالرغبة فى الكتابة بين حين وآخر . غير أنه بالنظر للوهن الذى كان يعانى منه والذى يمنعه من الاستمرار فى أى عمل لفترة طويلة ، فإنه سرعان ما يبحث لنفسه عن أعذار . ولقد كتب لأولجا يقول : « كنت أعمل ، إلا أن ما أكتبه لا يرقى لأى شئ ولدىّ شعور أن أحداً لن يقرأ ما نكتب بسبب الحرب » . وكان ، شأن أبناء بلده جميعاً ، ينقضّ على الصحف وتحزنه الهزائم التى تتكبدها روسيا أشدّ الحزن وبمرور الوقت لم يعد يأمل بأكثر من إنهاء القتال على الفور .

على الرغم من أنه لم يعد يكتب بالفعل ، إلا أنه ظلّ يؤلف المسرحيات فى ذهنه : ولقد اقترح على الممثل الهزلى بافل أولينيف مسرحية كوميدية من ثلاثة فصول يمكن إخراجها خارج البلاد دون أن تمتد لها يد الرقابة ،

بل إنه وعده بأن تكون مخطوطة هذه المسرحية جاهزة بحلول شهر أيلول/ سبتمبر . كما أنه حدّث ستانيسلافسكى عن مسرحية بطلها عالم يشعر بالإحباط بسبب زوجته اللامبالية وغير الوفية . فيتوجه هرباً إلى أقصى الشمال . وفى الفصل الأخير ، وحين يكون وحيداً على ظهر سفينة كاسحة للجليد ، يرى ظلّ زوجته يخيّم فوقه تحت أضواء السماء القطبية .

كان تشيخوف يمضى ساعات وساعات وهو ينظر محدقاً من نافذة غرفة مكتبه منتظراً عودة قوته الإبداعية إليه . وكان العمل الوحيد الذى يستطيع القيام به هو كتابة تقارير قصيرة حول مخطوطات الفكر الروسى التى يقرؤها، ونسخ دفاتر مذكراته بالحبر . وقد قال للروائى نيقولاى جارين - ميخائيلوفسكى : « إنها تضم خمسمائة صفحة من المواد التى لم أستعملها تكفى لعمل يستمر خمس سنوات وإذا استطعت أن أتلمّس طريقى وسط كل ما لدى فإن عائلتى لن تحتاج لأحد على الإطلاق » .

فى منتصف نيسان / إبريل بدأ يسعل من جديد وازدادت الآلام فى أمعائه وقد كتب لسلوبوفيسكى يقول : « أعتقد أن المناخ هو المسؤول ، وهو مناخ أحبه وأمقته كما يحب الرجل ويمقت امرأة جميلة ولكنها متقلبة المزاج » . وعلى الرغم من حالته الصحية السيئة إلا أنه لم يكن مستعداً للبقاء فى يالطا على الإطلاق . ولقد حدد يوم رحيله بالأول من أيار / مايو ، وعلى الرغم من أنه زار طبيب الأسنان لخلع أحد أضراسه إلا أنه لم يحدد موعداً مع الدكتور آلتشولر . ولقد كتب لأولجا يقول وهو ملىء بالحماس لموعد هربه القريب : «سأصل إلى موسكو فى الصباح ، فالقطارات السريعة بدأ تسييرها من جديد. كم أفتقدك يا كلبتى الصغيرة» .

إلا أن تشيخوف أصيب بهـجمة للمرض فى الطريق ،ولدى وصوله إلى موسكو فى ٣ أيار / مـايو ، كان فى وضع صحى لا يسـمح له بأن يقدم قدماً أمام أخرى . وكـانت أولجا قد استأجرت شقة فى بنايـة بها مصعد ، ولكنه توجـه إلى سريره على الفـور دون أن يتمكن حـتى من رؤية الشـقة أولاً. وقد اسـتدعت أولجـا طبيب عائلـتها ، وهو ألمانى اسـمه جـوليوس تاوبه. شخّص هذا حالته بأنها ذات الجنب المعاودة مع « نزلة معوية » ، مما كان يدل دون أدنى شك على أن الـسل قد امتد دون أدنـى شك إلى منطقة البطن .

وبمرور الوقت أخذ تشيخوف يعـانى من ضيق متزايد فى التنفس . كان يرتعد من الحمى ويقاسى من آلام حارقـة فى الذراعين والساقين تحرمه النوم ليلاً ، فيبـقى مستيقظاً وهو يتسـاءل فيما إذا كان الداء قد امـتدّ إلى العمود الفقـرى . وقد وصف له الدكتور تاوبه حـقن المورفين لدعم حالته القلبـية ووصف له حمية غذائية صارمة وأمـره بالتزام الفراش . كما أمر بأن يتولى طبيب اخـصائى مرمـوق في برلين فحصـه حالما تسمح له حـالته الصحـية بالسفر إلى هناك .

ما إن أصبح قادراً على أن يمسك القلم حتى كتب للدكتور سيـريدين : « زوجتى التى تلازم جانب سيريرى هى ذهب خالص . لم أرَ ممرضة مثلها قط . وباخـتصـار ، من حسن حظـى وطالعى الرائع أننى تزوجت ، وإلا فماذا كان سيحلّ بى الآن ؟ » . وكتب لماريا التى كانت قد عادت إلى يالطا للعناية بيفجينا ياكوفليـفنا ، كتب لها يقول : « ما زلت فى الفراش ، ولم أبدل مـلابسى ولم أخرج مـرة واحدة ، إذ مـازلت على الحـالة التى كنت

عليها حين تركتنى . أصبت قبل أمس بنوبة مفاجئة من نوبات ذات الجنب دون أن يكون هنالك سبب لذلك . أما الآن فكل شىء على ما يرام وقد بدأ تنفسى يتحسّن وتضاءل أزيز الصدر . إننى راضٍ عن طبيبى » .

وبالإضافة إلى كتابة رسائل مطوّلة . بما فى ذلك تعليمات مفصلة لماريا حول كيفية العناية بالحديقة فى يالطا وصيانتها فقد كان يكتفى بقراءة المخطوطات ووضع ملاحظاته عليها ، كما رتّب لإرسال المزيد من الكتب لمكتبة تاجنروج . وكان الأصدقاء الذين يعودونه يجدونه متمدداً على سرير متنقل وهو يرتدى « روباً » ، ويعتذر لأن ملابسه ليست لائقة لاستقبال الناس ، ويجبر نفسه على إطلاق النكات وإبداء الاهتمام بكل ما يتبادله الزوار من حديث . غير أن نحول وجنتيه ، وبشرته التى غدت وكأنها الشمع وحدقتيه المتسعتين كانت كلها تثير انتباه هؤلاء الزوار . وقد أشار الدكتور روسليمو إلى أنه ، شأن كل المرضى المصابين بالسل ، يتحدث عن مرضه بنوع من اللامبالاة الطائشة ، فهل كان يظن فعلاً بأنه قد يتماثل للشفاء على الرغم من اشتعال كفيه بالحمى واحمرار وجنتيه ؟ .

وفى إحدى الليالى ، وبينما كان يستعيد بعض الذكريات مع الكاتب جلياروفسكى الذى كان من أوائل من شجعوه على الكتابة ، أشار جلياروفسكى إلى أنه عاد مؤخراً من زيارة للسهوب . وحينذاك أطرف تشيخوف مفكراً وهو يقول : « السهوب . . . السهوب . ما أسعد حظك. فهناك إنما تجد الشعر الحقيقى » . وما لبث أن أغلق عينيه وابتسم ابتسامة طفولية وهو يلقى رأسه على الوسادة . ويضيف جلياروفسكى قائلاً : « إننى واثق بأنه كان يحلم بالسهوب » .

ومع أواخر الشهر هبطت حرارة تشيخوف واستعاد من القوة ما يمكنه من النهوض من سريره . وقد أعلن بظفر فى ٣١ أيار / مايو فى رسالة لشقيقته : « هل تعلمين ؟ لقد انتعلت حذائى ولبست معطفى لأول مرة هذا اليوم ، وخرجت لأتمشى للمرة الأولى ! » ولم يعد هنالك ما يمنعه من القيام بالرحلة التى نصح بها الدكتور تاوبه .وفى ٤ حزيران / يونيو ١٩٠٤ استقل القطار مع أولجا فى طريقهما إلى برلين .

وعلى الرغم من أنه غادر موسكو وهو فى حالة صحية سيئة إلا أنه ما لبث أن استرد نشاطه لدى وصوله إلى برلين . فتغيير المكان كان ينعشه دائماً . ومن غرفته المريحة فى فندق سافوى (وهو أفضل فنادق برلين) . كان يكتب لماريا رسالة متفائلة بعد أخرى : فلقد تحسنت شهيته وأخذ بعض اللحم يكسو عظامه . كما توقف الاسهال ولم تعد ساقاه تؤلمانه بل كان يقف على قدميه طوال النهار راكضاً فى أرجاء برلين يغزو الحوانيت وينطلق فى حديقة الحيوانات . كانت هذه هى المرة الأولى التى يغادر فيها روسيا بصحبة أولجا . ولقد شعر بقرب أكبر منها وهما محتجزان معاً فى مدينة غريبة . أسعده اكتشاف عالم جديد ومناقشة انطباعاته حول هذا العالم معها. وقد ادعى مازحاً بأنه لم يَر امرأة جميلة واحدة وأن هندام النساء الألمانيات « مريع » . غير أنه يعترف لماريا بأن الناس يعيشون حياة مريحة ، فالطعام جيد ، والحياة غير مكلفة ،والشوارع نظيفة ،والنظام يسيطر فى كل مكان . وفى فورة تفاؤله أخذ يضع الخطط لقضاء بعض الوقت على البحيرات الإيطالية والعودة إلى يالطا فى آب / أغسطس عن طريق استنبول.

إلا أن الدكتور إيوالد ، وهو الطبيب المختص الذى نصح الدكتور تاوبه بمراجعته ، لم يشارك تشيخوف ثقته بالمستقبل . إذ بعد أن كشف عليه بدقة فتح ذراعيه فى حركة يائسة وغادر غرفة الكشف دون أن يتفوه بكلمة واحدة. كان المعنى واضحاً ، وقد كتب الدكتور آلتشولر يقول : « كان هذا لؤماً منه بالطبع ، غير أنه يمكننا القول إنه لم يستطع أن يفهم كيف يمكن أن يسمح لإنسان فى مثل هذه الحالة بأن يتجشم عناء السفر ، وما الفائدة من ذلك ؟ » . وبعد مقابلة أجراها مندوب « الأخبار الرومانسية » مع تشيخوف فى برلين كتب لمحرر الجريدة يقول : « أعتقد أن أيام تشيخوف أصبحت معدودة ، وكان يبدو أنه مريض مرض الموت . كان فى غاية النحول ، يسعل طوال الوقت ويلهث لالتقاط أنفاسه لدى أقل حركة ، كما أن حرارته كانت مرتفعة » .

هذا الصحفى نفسه ودع تشيخوف فى محطة بوتسدام ، إذ غادر أنطون وأولجا برلين بعد ثلاثة أيام من وصولهما إليها متوجهين إلى بادن فايلر فى الغابة السوداء . فقد كتب المراسل يقول : « لقد كان من الصعب عليه أن يصعد الدرجات القليلة فى محطة القطار . جلس لمدة دقائق ليلتقط أنفاسه. وما أن بدأ القطار يتحرك حتى مدّ رأسه من النافذة على الرغم من رجائى له بألا يفعل ، وأحنى رأسه مودعاً » .

وبادن فايلر هى منتجع على الحافة الغربية للغابة السوداء ، لا تبعد كثيراً عن مدينة بازل ، وهى بلدة صغيرة هادئة ليس فيها ما يثير ، تراءى لتشيخوف أنها منتجع للنقاهة . قضى وأولجا اليومين الأولين فى نُزل ، ثم

انتقلا إلى بيت مستقل يأوى النزلاء . كانت الممرات المحيطة بالبيت مفروشة بالحصى تزينها أحواض الزهور وتشرف على مناظر جبلية جميلة . وكان تشيخوف يقضى يومه ، منذ الصباح حتى السابعة مساءً ،وهو يجلس فى مقعد مريح يتكئ ظهره إلى الخلف . وقد كتب لشقيقته يقول بأن الشمس فى بادن فايلر لا تحرق ، بل تداعب الجلد مداعبة . وتبين أن طبيب المنتجع ، واسمه الدكتور شفورد ، طبيب كفء إلى حد كبير ، ليّن العريكة . وإلى جانب الراحة التامة نصح مريضه بتناول الكاكاو ودقيق الشوفان المنقوع بالزبدة وشاى الفراولة (لمساعدة المريض على الاستغراق فى النوم) . وعلى الرغم من أن تشيخوف تذمر من « شعوذة » الدكتور شفورد إلا أنه كتب لماريا متفاخراً بأنه يزداد قوة .

وفى ١٣ حزيران / يونيو كتب لأمه يقول : « صحتى تتحسن وسأتماثل للشفاء بالتأكيد خلال أسبوع » . وقد ازدادت ثقة أولجا بحالته بحيث استطاعت أن تتركه وحيداً وذهبت إلى بازل لفحص أسنانها .

بعد أسبوع من الشعور بالنشاط بدأ القلق والملل والشعور بالحاجة إلى التغيير يسيطر عليه . وقد كتب لماريا يقول : « لا أستطيع أن أتعود على هذا الهدوء والدعة الألمانيين . فليس هنالك من صوت واحد تسمعينه فى داخل البيت أو خارجه ، إلا حين تعزف فرقة لا موهبة لديها ألحانها فى الساعة السابعة صباحاً وعند الظهر . لست ترين فى أى مكان أى قدر من الموهبة أو الذوق الرفيع . كل ما هنالك قدر كبير من النظام والصدق . أما روسيا ، ففيها قدر أكبر من الموهبة ، هذا إذا تركنا إيطاليا وفرنسا جانباً » .

بل أخذ يتشكى من الدكتور شفورد أيضاً ويشكك فى قدراته إذ يقول : « الكاكاو ودقيق الشوفان السخيفان من جديد » . وبما أنه لم يكن من الممكن لهما أن يغادرا بادن فايلر فقد تركا البيت الذى كانا يقيمان فيه ليقيما فى فندق « زومر » ، وهو أفضل فنادق المنتجع . كان تشيخوف يجلس على شرفة غرفته الساعات الطوال يراقب الناس وهم يدخلون مكتب البريد الواقع فى الجهة المقابلة ويخرجون منه ، أو يخطط لرحلات ويتابع جداول القطار طالباً معلومات عن مواعيد مغادرة السفن المتجهة إلى أوديسا من تريستا أو مارسيليا .

ما لبثت أن حلت ببادن فايلر موجة حر شديدة ، عانى منها تشيخوف معاناة مرعبة ، إذ كان نصف رئتيه قد تلف بالفعل . وقد كتب لماريا يقول: « لقد هاجمنى الحر على حين غرّة ، وبما أنه ليست لدى إلا ملابس شتوية فإننى أختنق وأحلم بمغادرة هذا المكان » . وفى هذه الرسالة ، وهى آخر رسالة كتبها تشيخوف قبل وفاته ، يبدى علائم اليأس لأول مرة : « الطعام طيب المذاق ولكنه لا يفيدنى كثيراً ، فمعدتى مضطربة باستمرار . لست أستطيع أن أتناول الزبدة الموجودة هنا ، ويبدو أن معدتى تلفت نهائياً بحيث لم يعد هنالك أمل فيها ، ويبدو أن العلاج الوحيد لها هو الصيام ، أو بعبارة أخرى الامتناع الكلى عن الأكل ، وهذه هى نهاية المطاف . أما العلاج الوحيد لضيق النفس فهو أن أبقى ساكناً تماماً » . وقد تقاطعت رسالته هذه مع رسالة منها تقول فيها بأنها ستذهب في رحلة مع أخيها إيفان إلى القوقاز ما دام يشعر بأن صحته أحسن حالاً ، وتضيف : « أرجو أن تهتم بنفسك يا عزيزى أنطوشكا . حاول أن تقلل من سعالك وتزيد من مقدار طعامك ، واجمع كل ما لديك من قوة وعد إلينا » .

وفى ٢٩ حزيران / يونيو انتابتـه هجمة مرضية حادة مـفاجئة مما اضطر الدكتور شفورد لإعطائه المورفين مع الاستعانة بالأكسجين . ولكن نبضه ما لبث أن عاد إلى طبيعته وقضى ليـلة هادئة . غير أن فترة الراحة هذه كانت قصيـرة إذ ما لبثت أن تبعـتها هجمـة أخرى فى اليوم التالـى . وقد أسرع مراسلان صحفيان روسيان بالحـضور إلى بادن فايلر وأبرقا أنباء مفزعة حول صحة تشيخـوف . وبعد أن انتهت هذه الهجمة واستعـاد تشيخوف هدوءه وصفـاء ذهنه طلب من البنك فى برلين بأن تكون جـميع المدفـوعات باسم زوجته . وحين تساءلت أولجا عن سـبب قلقه أجـابهـا جـواباً غامـضاً : « لا شئ . . . من باب الاحتياط فقط . . » .

فى الأول من تموز / يوليو كان يبدو فى صحة أفضل ، وكانت برقيات المراسلين أكثر تفاؤلاً : حالة قلبه حسنة ومرّ اليوم بسلام . وعند المساء ألحّ على أولجا التى لم تبـارحه منذ ثلاثة أيام بأن تتمشى فى حـديقة الفندق . وحين عادت استلقت على أريكة قرب سريره ، وقد عنفّها لأنها كانت بادية الحزن . ولتـبديد حزنها هذا أخـذ يرتجل أحداث قصـة سيكتبهـا ، وتجرى وقائعها في منتجع مرموق للمياه المعدنية رواده من أصحاب البنوك ، حسنى التغذية والسـياح الإنجليز والأميركيين متـوردى الخدود . ويحاول هؤلاء أن يزيدوا من شهيتهم للطعـام بتسلق الجبال كل يوم ثم يعودون إلى الفندق فى المساء وهم يحلمـون بالوجبة الشـهية التى تنتظرهـم . ولكنهم يعودون فى أحـد الأيام ليـفاجـأوا بأن الطبـاخ قـد رحل دون سـابق إنذار وبأنهم لن يستمتـعوا بوجبة العشاء . وحينذاك أخذ تشـيخوف يصف ردّ فعل كل من هؤلاء الأشخاص الخبراء بأصناف الطعام والخمور إزاء هذه الكارثة ، بحيث

أن أولجا لم تستطع أن تكبح جماح ضحكها على الرغم من كل العذاب الذى كانت تعانى منه .

ما لبث تشيخوف أن غرق فى النوم على الرغم من الحرّ الخانق . وكان تنفسه يأتى على شكل شهقات ، وإن كان وجهه هادئاً . وفى الساعة الثانية عشرة والنصف ليلاً جلس منتصباً فى فراشه وطلب الطبيب ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى تشهده فيها أولجا يفعل ذلك . أحست بالوحدة فجأة وسط ذلك الفندق الألمانى الضخم حيث يخلد الجميع للنوم . وبعد لحظة تردد تذكرت أن هنالك طالبين روسيين فى الغرفة المجاورة ، فأسرعت إليهما وأيقظتهما من النوم فأسرع أحدهما لإحضار الدكتور شفورد . وقد كتبت فيما بعد تقول : « مازال صوت الحصى وهو يصر تحت حذائه وسط ذلك الهدوء فى تلك الليلة القائظة من ليالى تموز يتردد فى أذنى حتى الآن . . . » .

كان تشيخوف يهذى بفعل الحمى . كان يتحدث عن بحّار أو يتساءل عن اليابانيين وعيناه تلتمعان . وحين حاولت أولجا أن تضع كيس ثلج فوق صدره استعاد وعيه فجأة وقال لها : « لا تضعى ثلجاً قط على معدة فارغة ! » .

كانت النوافذ مفتوحة على مصراعيها ولكنه كان يلهث لالتقاط أنفاسه والعرق يتصبب على صدغيه . وصل الدكتور شفورد فى الثانية فجراً ، وحين رآه تشيخوف انتصب فى فراشه واستند على وسائده ، وفى حركة مجاملة أخيرة استجمع كل ما لديه من معلومات بالألمانية ليقول

« Ich sterbe » ، أى إننى أموت ! ومـا لبث الدكتور شـفورد أن أعطاه حقنه كـافور ، غيـر أن قلبه لم يتجـاوب معهـا . وكان على وشك طلب أسطوانة أكسجين ، إلا أن تشيـخوف الذى ظلّ صافى الذهن حتى اللحظة الأخيرة قـال له بصوت متقطع : « ما الفـائدة ؟ لن تصل إلاّ بعد أن أكون قد أصـبحت جـثة هامـدة !! » . ولذا طلب الدكـتورد شـفورد زجـاجة شمبانيا .

حين وصلت الشمبـانيا احتسى تشـيخوف كأساً منهـا والتفت إلى أولجا وقال وهو يبتـسم : « لم أشرب الخمر منذ وقت طويل ! » . أفـرغ كأسه ببطء وتمدد على جانبه الأيسر ، وبعد لحظات قليلة توقف تنفسه وانتقل من عالم الحياة إلى عالم الموت بنفس البساطة التى طالما اتصف بها .

وفى السـاعة الثـالثة من فـجر يوم ٢ تموز / يوليـو دخلت الغرفـة من النافذة فراشـة ذات جناحين سوداوين وأخذت تضرب المصبـاح بقوة . وما لبث صوت ارتطامـها بالمصبـاح أن أصبح مفـزعاً . وبعد أن تلفظ الدكـتور شفورد ببعض كلمات العزاء انسحب من الغرفة . وفجأة علا صوت انفجار مفـزع، فقد اندفعت الفلـينة التى كانت تغطى زجاجـة الشمبانيـا وأخذت الرغوة تتدفق منها . وتلمست الفراشة طـريقها إلى النافذة واختفت الظلمة القائظة الرطبة وخيم الصمت مـن جديد . وحين انبلج الصبح كانت أولجا ما تزال جالسة تحـدق إلى وجه زوجها . كان وجهه هادئاً مبـتسماً ينمّ عن الفطنة ، وقد كتبت أولجا تقول : « لم يكن هناك صوت بشر ، أو أى نأمة

تنم عن ضجيج الحياة العادية ، بل كان جمال الموت ودعته وجلاله هو وحده الذى يخيّم على الجو كله » .

قبل أن تغادر بادن فايلر اتخذت أولجا ترتيبات نقل الجثمان إلى موسكو حيث كان سيدفن فى ٩ تموز / يوليو . وقد تجمع ذلك اليوم فى المحطة عدد من الأصدقاء لاستقبال الجثمان الذى كان سيصل بالقطار . وقد أفزعهم أن يروا النعش يُنقل فى عربة شحن قذرة كتب على بابها بأحرف كبيرة : « لشحن المحار ! » .

اشتعل غضب جوركى وكتب لزوجته يقول : « كنت أود أن أصرخ وأبكى وأتعارك تعبيراً عن الاشمئزاز والغضب » . وعلى الرغم من أنه كان يدرك بأن تشيخوف لم يكن يهمه لو علم أن جثمانه سينقل فى سلة ملابس غسيل قذر ، إلا أن شعوره بالمرارة كان نابعاً من الأسلوب الردئ الذى تعاملت به روسيا مع تشيخوف . وقد وصف جوركى عربة المحار فيما بعد بأنها عبارة عن ضحكة شماتة تطلقها السوقية لحظة ظفرها وانتصارها . ولكن هل كانت تلك العبثية بعيدة كل البعد عن عبثية الحياة كما صوّرها تشيخوف مرة بعد مرة فى قصصه ومسرحياته ؟!! . . .

عزفت فرقة موسيقية عسكرية كانت تصطف على الرصيف لحناً جنائزياً ملائماً ، وبدأ موكب الجنازة يتخذ شكلاً لائقاً . وقد عجب عدد من المشاركين فى التشييع أن تكون الحكومة قد رأت من المناسب أن يتم دفن تشيخوف وسط هذه المظاهر العسكرية الطنانة ، وامتدحوها لتصرفها هذا الذى يعتبر بمثابة اعتراف بهذا الحدث الجلل . غير أنهم ما لبثوا أن اكتشفوا

أنهم إنما يتبعون نعش ضابط يحمل اسم الجنرال ميلر كان قد قتل فى منشوريا وصادف وصوله إلى المحطة فى نفس موعد وصول جثمان كاتبهم المحبوب تشيخوف .

بدأ تشييع جثمان تشيخوف بموكب لا يتجاوز مائة شخص يسير فى طليعته شرطى بدين يمتطى حصاناً أبيض مهيب . مشت أولجا خلف النعش الذى كان محمولاً على اكتاف عدد من الطلبة . كان الطقس بارداً ، وكان هناك شخصان يسيران أمام جوركي ، وهما محاميان يرتديان ملابس عريسين ، بحذائيهما اللامعين وربطتيهما البراقتين . كانا يتحدثان عن ذكاء كلبيهما ومزايا البيت الريفى لكل منهما . وكانت هنالك امرأة تحمل مظلّة مزركشة وتقول بلا مبالاة مخاطبة رجلاً عجوزاً يرتدى نظارة هلالية الشكل: « كم كان إنساناً لطيفاً ذكياً » . وهكذا فإنه حتى المعجبين ، كما فكر جوركى ، لم يكونوا يدركون فداحة الخسارة التى منيت بها روسيا برحيل مثل هذا الانسان الفذ .

وبتقدم الجنازة كانت تزداد حجماً بشكل ملحوظ وأخذت مجموعة من الطلبة تشكل جداراً بشرياً لمنع اختلاط جمهور الواقفين بالمشيعين . توقفت العربات وعربات الترام فى الطريق ، كما توقفت الجنازة فى عدة مواقع - إحداها مقابل مسرح الفن ثم أمام مبنى مجلة الفكر الروسى - حيث جرت بعض المراسم الدينية القصيرة . وقد وصلت والدة تشيخوف وشقيقته وإخوانه إلى موسكو وسط ذلك الزحام وأسرعوا للحاق بالجنازة ، ولكن رجال الشرطة رفضوا السماح لهم بالانضمام إليها لجهلهم بهم ، فما كان

من شقيقته ألا أن صاحت : « دعونى أذهب لأخى ! اتركونى أذهب لأخى ! » .

ما إن وصلت الجنازة إلى دير نوفريفتشى حتى أصبح عدد المشيعين من الضخامة بحيث سدوا البوابات ، وكان على حاملى النعش وأفراد العائلة والأصدقاء المقربين أن يشقوا طريقهم بصعوبة إلى الداخل . وما لبث المشيعون أن تدافعوا وراءهم محطمين الصلبان والأسيجة وساحقين أكاليل الزهور . وقد التفت شيلابين إلى جوركى والدموع تملأ عينيه ليقول : « هل هذه هى الدهماء التى عاش وعمل من أجلها ؟!! » .

كان القبر قد حفر إلى جانب قبر والده . ولم تلق أية خطب ، وما أن وضع التابوت فى داخل القبر حتى بدأ المشيعون وقد هدأوا فى النهاية ينشدون نشيد « الذكرى الخالدة » . وما لبثت أولجا وأفراد العائلة والأصدقاء المقربون أن اصطفوا ليلقى كل منهم حفنة تراب على غطاء التابوت الذى كان يرجّع صدى ارتطام هذه الحفنات . وما لبثوا أن أهالوا التراب على النعش واختفى القبر تحت أكوام باقات الزهور والأكاليل ، بينما كانت هنالك ثلاث نساء تحجرت الدموع فى مآقيهن : الأم والأخت والزوجة * .

* ظلت أم تشيخوف على قيد الحياة خمسة عشر عاماً بعد وفاته . أما أخته فقد أصبحت مديرة لمتحف تشيخوف الذى اقيم فى بيته فى يالطا وتوفيت عام ١٩٥٧ وهى فى الرابعة والتسعين من عمرها فى حين تابعت زوجته عملها كممثلة متألقة وتوفيت عام ١٩٥٩ فى سن التاسعة والثمانين .

وفى اليوم التالى أقيم قداس دينى فى المقبـرة وغنت جوقة أغانى كنسية بينما كـانت أشعة شـمس الغروب تلوح على أشجـار الزيزفون التى تظلل القبر . كان الأصدقاء يحيطون بأفراد العائلة ، وبعد القداس انحنى كوبرين ليقبّل يد والدة تشيخوف دون أن يتفوه بكلمة واحدة . أما هى فقد قالت « يا للمصيبة التى حلت بنا ! أنطوشكا لم يعد موجوداً بيننا ! » .

كانت هذه هى الخطبة الوحيدة التى ألقيت فوق قبر تشيخوف . ولاشك أن تشيخوف كـان ولابدّ ممتناً اشد الامتنان لهذا التحـفظ وذلك بحكم فرعه المعروف من كل أنماط الكلام الطنان ! . . .

المشروع القومي للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت أحمد الحضري
٥ – ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكي
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت . محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت· محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسي والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفي
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوي
١٨ – الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجي	ت · ماجدة العناني
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد علي الناصري
٢٣ – تجلي الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت . بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومي	ت . إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشري الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة في التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجي / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣ – التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر ألن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت حياة جاسم محمد
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت جمال عبد الرحيم
٣٨ - نقد الحداثة	آلن تورين	ت أنور مغيث
٣٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين باربر	ت أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت المهدى أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت محمود السيد على
٤٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت ماهر جويجاتى
٤٩ - الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ - مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التدعيمى	بيتر ن . دوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح	ج مايكل والتون	ت محسن مصيلحى
٥٥ - ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت صبرى محمد عبد الغنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف محمد الجوهرى
٦٢ - لذّة النّص	رولان بارت	ت محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت المهدى أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت حسين محمود

٧٢ - السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ - نقد استجابة القارئ	جين ب. تومبكنز	ت حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ - صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت . حسن بيومي
٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت أحمد درويش
٧٦ - جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ - العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ - شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت . مكارم الغمري
٨١ - الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت . محمد طارق الشرقاوي
٨٢ - مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت . محمود السيد علي
٨٣ - مختارات	غوتفريد بن	ت خالد المعالي
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت عبد الحميد شيحة
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت عبد الرازق بركات
٨٦ - طول الليل	جمال مير صادقي	ت أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ - نون والقلم	جلال آل أحمد	ت ماجدة العناني
٨٨ - الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ - الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ - وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت محمد إبراهيم مبروك
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت نادية جمال الدين
٩٣ - محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت . عبد الوهاب علوب
٩٤ - الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت فوزية العشماوي
٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت إدوار الخراط
٩٧ - هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت بشير السباعي
٩٨ - الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت أشرف الصباغ
٩٩ - تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت . إبراهيم قنديل
١٠٠ - مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت . إبراهيم فتحي
١٠١ - النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت رشيد بنحدو
١٠٢ - السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ - قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت محمد بنيس
١٠٤ - أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت عبد الغفار مكاوي
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	ت عبد العزيز شبيل
١٠٦ - الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامتي	ت أشرف علي دعدور
١٠٧ - صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	[illegible]	ت محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ - حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت . ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت . نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت . لميس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت . بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت . نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت . محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ - فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت . بشير السباعى
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت . أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت · عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ - مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت . كاميليا صبحى
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ - قضايا التنظير في البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت علي عبد الرؤوف البمبي
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت علي إبراهيم على منوفي
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت بشير السباعي
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت محمد محمد الخطابي
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت أحمد مرسي
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جي أسال وآلان وأوديت فيرمو	ت مي التلمساني
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامي الكنجوي	ت عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت بشير السباعي
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت إبراهيم فتحي
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت حسين بيومي
١٦١ – من المسرح الإسباني	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت مجموعة من المترجمين
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – في عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت شكري محمد عياد
١٦٨ – دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت شكري محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت شكري محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت محمد محمد الخطابي
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	ت أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنري تروايا	ت حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	ت محمد حمدي إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت . إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت . سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبي الأمريكي	فنسنت . ب . ليتش	ت . محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحي العشري
١٨٤ - القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت : دسوقي سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزُرْج علوي	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد الغانمي
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجاني
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغي	ت : محمود سلامة علاوى

(تحت الطبع)

الجانب الديني للفلسفة

الولاية

تاريخ النقد الأدبي الحديث (الجزء الرابع)

الإسلام في السودان

العربي في الأدب الإسرائيلي

ضحايا التنمية

المسرح الإسباني في القرن السابع عشر

فن الرواية

ما بعد المعلومات

علم الجمالية وعلم اجتماع الفن

المهلة الأخيرة

الهيولية تصنع علماً جديداً

مختارات من النقد الأنجلو - أمريكي

عن الذباب والفئران والبشر

العولمة والتحرير

علم اجتماع العلوم

رحلة إبراهيم بيك

قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان

شتاء ٨٤

الشعر والشاعرية

ديوان شمس

عامل المنجم

مصر أرض الوادي

الدراقيل أو الجيل الجديد

سحر مصر

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٥٠٦٤ / ١٩٩٩

الترقيم الدولي (I. S. B. N. 977 - 305 - 187 - 0)

أنطون تشيخوف

مع قرب إحياء الذكرى المئوية لوفاة ملك القصة القصيرة و الكاتب المسرحى الروسى أنطون تشيخوف ، ومع الواقع المحزن الذى تشهده بلاده فى هذه الأيام لابد لنا من وقفة مراجعة لحياة هذا الفنان العالمى و أعماله • فعلى الرغم من قصر حياته فقد كان فناناً رسم بقلمه لوحة بانورامية شاملة لروسيا فى أواخر القرن التاسع عشر وهى تعيش حالة من الشعور بالمرارة والخيبة ، وتتنامى فيها بوادر ثورة عارمة كان من شأنها أن تهز العالم بأسره •

يحار كتاب سيرة تشيخوف فى ذلك التناقض الواضح بين الجو الذى يسود كتاباته ، وبين شخصيته ككاتب • ففى حين يصفه أصدقائه جميعاً بالشخصية دائمة المرح والأنسان الرقيق خفيف الظل الذى يحب الحياة ويستمتع بها بشكل ظاهر ، فإن مسرحياته و الغالبية العظمى من قصصه تترك تأثيرها على القارئ والمشاهد على أنها حزينة كل الحزن ، مليئة بمشاعر الإحباط و الآمال الضائعة وبإحساس بالحنين إلى أمور تعذر تحقيقها •

يقول عنه المسرحى الروسى الكبير ستانيسلافسكى : **تشيخوف معين لا ينضب • وعلى الرغم من أنه يصور ظاهرياً الحياة اليومية العادية إلا أنه فى الحقيقة لا يتناول الأمور العابرة ••• بل تلك القضايا التى تتعلق بالإنسان حيثما كان •**

أما جوركى فيقول عنه : **ما أحسن أن يتذكر المرء إنسانا من هذا النوع فهو يحس وكأنما هو طيف من السعادة و الانشراح يزوره ليعطيه معنى وأملاً للحياة من جديد •**

فى هذه السيرة للكاتب الذى تخصص فى كتابة سير عمالقة الأدب من تولستوى إلى ديستويفسكى وغيرهما يرسم لنا هنرى ترويا صوراً عن حياة تشيخوف القاص ، كاتب المسرح ، والإنسان •

Bibliotheca Alexandrina
0447414